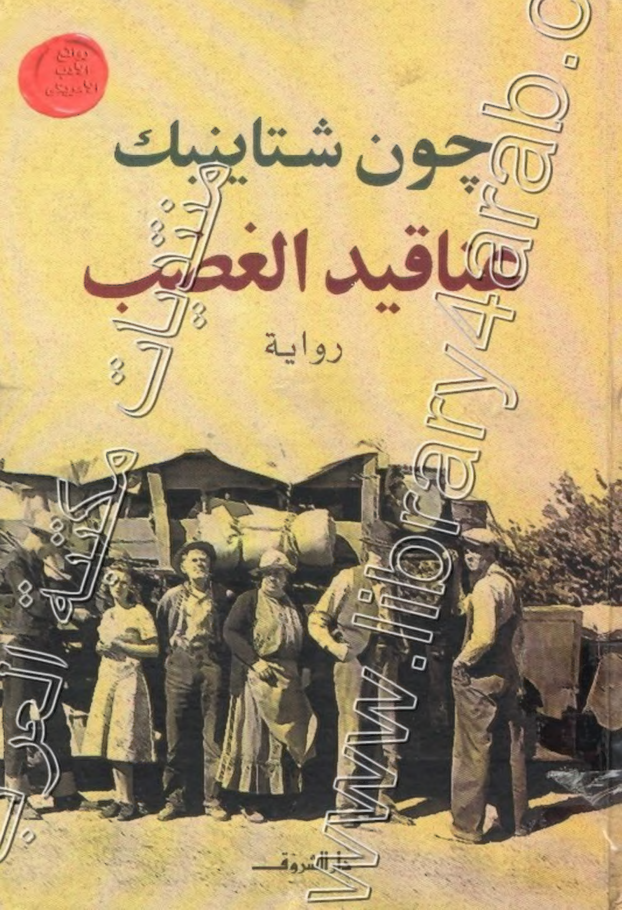


روائع الأدب الأمريكي

چون شتاينبك

عناقيد الغضب

رواية

دار الشروق

www.library4arab.com

چون شتاينبك

عناقيد الغضب

رواية

ترجمة

سعد زهران

دار الشروق

الفصل الأول

سقطت الأمطار الأخيرة على الأرض الحمراء على جانب من الأرض الرمادية فى ريف أوكلاهوما برفق، ولم تنفذ إلى أعماق التربة المتشققة. واجتازت المحاريث، فى غدوها ورواحها، آثار الجداول الرطبة. وأنبتت الأمطار الأخيرة أعواد القمح مسرعة، ونثرت مستعمرات من الأعشاب والحشائش على جوانب الطرق، إلى أن بدأت الأرض الرمادية والأرض الحمراء الداكنة تكتسى برداء أخضر. وفى أواخر مايو شحب وجه السماء، وتشتتت السحب العالية التى ظلت معلقة هنا وهناك مدة طويلة فى الربيع. وتضنتت أشعة الشمس المتوهجة على عيدان القمح النامية يومًا بعد يوم، إلى أن أحيطت كل نصلة خضراء بخط بنى اللون. وظهرت سحابات فى السماء ومرت فى طريقها، ولكنها لم تلبث أن كفت عن محاولة الظهور ثانية. وغيرت الحشائش لونها إلى الأخضر الداكن حماية لنفسها، وكفت عن التكاثر والانتشار، وكونت التربة قشرة رقيقة صلبة. وإذ شحب وجه السماء شحب معه وجه الأرض، فأصبح لونها ورديًا شاحبًا فى المناطق الحمراء، وأبيض كالحًا فى الريف الرمادى.

وجفت مجارى المياه وامتلأت ترابًا ناعمًا. وصنعت سباع النمل وحيوانات الحفر ثقوبًا وأكوامًا ترابية صغيرة، وتحت أشعة الشمس القاسية

التى تنصب من السماء يومًا بعد يوم، لم تقو أوراق الحنطة على الاحتفاظ بنضارتها واستقامتها، وتقوست فى البداية ثم مالت إلى الأرض بعد أن تراخت عروقها ووهنت. ثم جاء شهر يونيو، وازدادت الشمس ضراوة، وزحف اللون البنى من حواف أوراق الحنطة إلى عروقها الوسطى. وجفت الحشائش والتوت أطرافها منثنية إلى جذورها، وأصبح الهواء مخلخلاً، السماء أصبحت أكثر شحوبًا. وكل يوم يزداد شحوب وجه الأرض أيضًا.

وعلى الطرق، حيث تتحرك فرق العمل، وتشق العجلات وجه التربة، وتضرب حوافر الخيل أديم الأرض - هنالك تتكسر القشرة الرقيقة الجافة وتصبح ترابًا. وكل شىء يتحرك يثير فى الهواء غبارًا. الرجل السائر على قدميه لا يخلف إلا طبقة رفيعة لا ترتفع لأكثر من وسطه، والعربة التى تجرها الخيل تثير غبارًا يرتفع إلى قمم الأسوار، أما السيارة فتخلف وراءها سحبًا نشطة من الغبار، ويستغرق التراب وقتًا أطول ليهدأ ثانية.

وبعد أن انتصف شهر يونيو جاءت الرياح، عبر ولاية تكساس والخليج، بسحب عالية ثقيلة تحمل أمطارًا. ورفع الرجال فى الحقول أبصارهم إلى السحب يتشممونها، ورفعوا فى الهواء أصابع مبتلة ليتبينوا اتجاه الريح، وازدادت الخيول عصبية فى الحقول بينما السحب تمر عالية فى السماء. ولكن السحب لم تسقط من الأمطار إلا دفعات قليلة متناثرة وهى تمر مسرعة إلى بلاد أخرى، وعادت السماء من بعدها شاحبة، والشمس متوهجة، ولم يخلف هذا إلا آثارًا من قطرات المطر على الأتربة، وآثارًا من رش نظيف على الحنطة، ولا شىء غير ذلك.

وفى أعقاب السحب المطيرة هبت رياح معتدلة دفعت السحب إلى الشمال، ومر يوم اشتدت فيه قوة الريح فهبت سريعة منتظمة، لا يتخللها

هبوط أو لفحات، وأثير الغبار من على الطرق وعاد يسقط فوق الأعشاب التى تحف الحقول، وتجاوزها قليلاً إلى داخل الحقول، وازدادت الريح عنفًا وقسوة، وبدأت تفعل فعلها فى القشرة الجافة التى خلفتها الأمطار فى حقول القمح. وشيئًا فشيئًا أخذ وجه السماء يكفهر من الغبار المثار. وراحت الرياح تتحسس وجه الأرض، وتفكك الأتربة وتحملها عن الأرض بعيدًا، وتزداد الريح عنفًا وتتكسر القشرة الجافة عن أرض الحقول، ويثار التراب فى خطوط وتجمعات رمادية داكنة، وكأنها دفقات من دخان متثاقل، وتضرب الرياح عيدان الحنطة موشوشة بصوت جاف متدافع. ولا يعود الغبار الناعم ليسقط على الأرض ثانية، ولكنه يختفى بعيدًا، سابحًا فى رحاب السماء المكفهرة.

وتشتد الرياح عنفًا، تكنس ما تحت الأحجار، وتحمل أعواد القش وأوراق الأشجار الجافة، والحصى الصغير، وترسم بذلك مسارها الذى تجتازه عبر الحقول، وتزايد اكفهرار الهواء والسماء، ومن خلالهما ترى الشمس وقد حال لونها، وأصبحت كمنخس حديدى متوهج أحمر. وتزايدت سرعة الريح فى أثناء الليل. وراحت تعبث، فى خبث، بجذور أعواد القمح. وقاتلت الأعواد، بأوراقها الواهنة، ضد عبث الريح، إلى أن تمكنت الريح المتلصصة من خلخلة جذورها، فمالت الأعواد ـ منهكة ـ على جانبها، وأطرافها تشير إلى اتجاه الريح.

وأقبل الفجر، ولكن بلا نهار، وفى السماء الرمادية ظهر قرص شمس كليلة حمراء، يصدر عنها ضوء ضعيف كالشفق. وكلما اقترب ذلك اليوم من نهايته قارب لون الشفق سواد الليل، وأعولت الرياح فوق أعواد القمح الساقطة.

وكان الرجال والنساء مكوّمين فى منازلهم، وعندما يخرجون يربطون على أنوفهم مناديل، ويلبسون عوينات لحماية أنفسهم من الغبار.

ويهبط الليل أسود حالكًا، فأشعة النجوم لا تستطيع أن تخترق الغبار، كما لا تستطيع أضواء النوافذ أن تتجاوز أفنية المنازل، والتراب يخلط بالهواء فى مزيج ثقيل متجانس. والناس يحكمون إغلاق منازلهم، ويحشرون خرقًا فى كل ثغرة لباب أو شباك، ولكن الغبار يتسرب إلى الداخل، ناعمًا دقيقًا، لا يرى، ويغطى المناضد والكراسى والأطباق. وكأنه مسحوق العفاريت. والناس ينفضون ما تراكم عنه على أكتافهم. وعند أسفل الأبواب تُرى منه خيوط دقيقة رفيعة.

فى منتصف تلك الليلة سارت الرياح فى طريقها تاركة الأرض هادئة، الهواء المشبع بالغبار يكتم الأصوات بأكثر مما يفعل الضباب الكثيف. وسمع الناس، وهم فى أسرتهم، صوت الريح حين توقف، واستيقظوا عندما ولت الريح المندفعة، رقدوا وهم يصيخون السمع إلى السكون المطبق، وصاحت الديكة، غير أن أصواتها خرجت مكتومة. وتململ الناس فى فراشهم ينتظرون طلوع الصباح. إنهم يعرفون أن أمامهم وقتًا طويلاً لكى يهبط الغبار ويصفو الجو. وفى الصباح كان الغبار معلقًا فى الهواء مثل الضباب الكثيف، وكانت الشمس حمراء كالدم الدافئ القانى. وظل التراب يهبط طول النهار من السماء، وغطت ملاءة منه وجه الأرض، غطت حقول الحنطة، وتراكمت فوق أعالى أعمدة الأسوار وعلى الأسلاك، وكست الأسطح، وغطت الحشائش والأعشاب والأشجار.

والناس خرجوا من منازلهم يتشممون الهواء الحار النفاذ، وهم يحجبونه عن أنوفهم. الأطفال خرجوا من البيوت، ولكن فى غير صياح أو عَدوٍ، كما يفعلون عادة فى أعقاب المطر. والرجال يقفون إلى جوار أسوارهم ينظرون إلى حقول الحنطة المخربة وهى تسير حثيثًا إلى هلاكها. ولا يبين منها إلا ظل من اخضرار تحت رداء من تراب. الرجال صامتون لا تكاد تبدر عنهم إشارة أو حركة، والنسوة يخرجن من البيوت ويقفن

إلى جوار الرجال لتطمئن قلوبهم إلى أن الكارثة لم تقض عليهم، النساء يتفحصن وجوه الرجال خلسة، فالقمح يهون طالما بقى من الدنيا شيء. والأطفال يقفون على مقربة من ذويهم، وهم يرسمون على تراب الأرض خطوطًا وأشكالاً بأصابع أقدامهم العارية، ويستكشفون بحاستهم أن كل ما حدث قد قضى على الرجال وعلى النساء. الأطفال يشرئبون بأبصارهم إلى وجوه الكبار، ثم يرسمون على تراب الأرض ـ بعناية ـ خطوطًا وأشكالاً بأصابع أقدامهم العارية، والخيل سارت إلى أحواض الشرب، ونفخت بمناخرها لتزيح شيئًا من الغبار المعلق على السطح. وبعد قليل زايل وجوه الرجال علامات الارتباك الممرض، واكتست سيماؤهم بعلامات القسوة والغضب والإصرار. عندئذ تدرك النسوة أن الخطر قد زال، وأن ما حدث لم يحطم الرجال. وتساءلت النسوة: ما العمل؟ وأجاب الرجال: لا ندرى. ولكن الأحوال لا بأس بها. أدركت النسوة أن الأحوال لا بأس بها وأدرك الأطفال، وهم يرقبون الكبار، أن الأحوال لا تدعو إلى القلق. النسوة والأطفال يدركون، فى أعماقهم، أن لا شيء يستعصى على الاحتمال طالما ظل الرجال بخير. وعادت النسوة إلى عملهن فى البيوت. وشرع الأطفال يلعبون، وإن يكن بشيء من الحذر فى البداية. وكلما مرت ساعات النهار أصبحت الشمس أقل احمرارًا، وهى تصب أشعتها المتوهجة على الأرض المغطاة بالتراب. والرجال جالسون على عتبات بيوتهم، وأيديهم مشغولة، تعبث بعصى حجارة صغيرة؛ كانوا صامتين يتفكرون ويتدبرون.

الفصل الثانى

وقفت سيارة نقل كبيرة حمراء أمام المطعم الصغير على الطريق الزراعى، وكانت «ماسورة» العادم الرأسية تدمم دمدمة خفيفة ناعمة، يخرج منها دخان فى زرقة الصلب، خفيفًا لا يكاد يرى، سيارة جديدة، حمراء متألقة. مكتوب على جانبها بحروف كبيرة من حجم ١٢ بوصة: «شركة مدينة أوكلاهوما للنقل». إطاراها المزدوجان جديدان، وقفل نحاس معلق فى المشبك الذى يربط البابين الكبيرين فى المؤخرة. وداخل المطعم راديو يذيع موسيقى راقصة هادئة، بصوت منخفض يدل على ألا أحد يسمع. وفى كوة فوق المدخل تدور مروحة فى صمت. والذباب يطن خارج الأبواب والشبابيك مصطدمًا بالستائر فى عصبية، وكان سائق السيارة هو الرجل الوحيد بالداخل، يجلس على كرسى من غير مسند، متكئًا بمرفقيه على البار، وهو يطل ـ من فوق كوب قهوته ـ على «النادلة» النحيلة الوحيدة. كان الرجل يتحدث حديثًا مسترخيًا مما يدور عادة فى بوفيهات الطرق. يقول: «رأيته منذ ثلاثة أشهر، عمل عملية جراحية، استأصل شيئًا ما، لا أذكر ما هو» وتقول هى: «لم يمض أكثر من أسبوع على رؤيتى له، أنا شخصيًا، وكان يبدو على ما يرام. وهو فتى طيب عندما لا يكون مخمورًا». وبين حين وآخر يطن الذباب طنينًا ناعمًا عند الباب

ذى الستائر. وخلاط القهوة ينفث الدخان، «والنادلة» تمد يدها خلفها ـ دون أن تستدير ـ وتغلقه.

وفى الخارج، عبر رجل ـ كان يسير على حافة الطريق الزراعى ـ عبر الطريق متجهًا إلى السيارة. سار ببطء إلى المقدمة، ووضع يده على حاجز الاصطدام اللامع، وألقى نظرة على كلمات «ممنوع الركاب» المكتوبة على الزجاج الأمامى. وراودته، لحظة، فكرة أن يواصل مسيرته، ولكنه عدل، وجلس على سلم السيارة غير المواجه للمطعم، لم يكن عابر السبيل قد تجاوز الثلاثين من عمره. عيناه عسليتان داكنتان، وفى مقلتيه خطوط بنية، وعظام الخدين عريضة عالية، وخطوط قوية غائرة تشق خديه حول فمه. كانت شفته العليا طويلة، ولأن أسنانه بارزة فقد مطت الشفتان لتغطياها، فهذا رجل ممن يغلقون أفواههم. أما يداه فجافتان، وأصابعه عريضة، وأظافره غليظة مرسومة مثل أصداف صغيرة نظيفة. وقشرة لامعة صلبة تغطى ما بين السبابة والإبهام وجزءًا من باطن اليد.

وملابس الرجل كلها جديدة، كانت رخيصة وجديدة، القلنسوة الرمادية جديدة حتى إن زرارها ما يزال فى مكانه، والحافة ما تزال صلبة لم تنحن وتلتو وتتكسر، كما يحدث بعد أن تستخدم لفترة كل الاستخدامات الممكنة لقلنسوة ـ كفوطة، ومنديل، وصُرّة لحمل الأشياء، وكانت بذلته مصنوعة من قماش رمادى خشن، وهى جديدة إلى درجة أن الكسرتين الأماميتين للبنطلون لم تضع معالمها بعد. وقميصه الأزرق ما يزال صلبًا لامعًا. كانت الجاكتة واسعة والبنطلون قصيرًا. فالرجل طويل القامة. وكتفا الجاكتة هابطان إلى أعلى الذراعين، ومع ذلك فالكمان قصيران. ومقدمة الجاكتة تتدلى مرتخية على البطن. وفى القدمين زوج جديد من أحذية بنية من نوع شبيه بالأحذية العسكرية؛ وفى النعلين مسامير كبيرة، وفى الكعبين حديدتان مقوستان كحدوتى حصان.

جلس الرجل على سلم السيارة وخلع قلنسوته ومسح بها وجهه، ثم وضعها على رأسه وأخذ يجذب الحافة مبتدئًا بذلك عملية تهشيمها. واسترعت قدماه انتباهه، فانحنى، وفك رباطى الحذاءين. وفوق رأسه كانت «ماسورة» عادم ماكينة الديزل تنفث دخانها الأزرق فى همسات خافتة.

وفى المطعم توقف صوت الموسيقى، وبدا صوت رجل يتكلم فى مكبر الصوت، ولكن «النادلة» لم تطفئه لأنها لم تتبين أن الموسيقى قد توقفت. كانت تتحسس بأصابعها فاكتشفت وجود ورم خفيف خلف أذنها، وهى تحاول أن تراه فى المرآة خلف جهاز دفع النقود دون أن يلحظها السائق، وهى لذلك تتظاهر بأنها تهذب خصلة من شعرها. وقال السائق: «هنالك ارتباك ولغط كبير فى «شونى»... سمعت أن شخصًا قتل؛ أو شيئًا من هذا القبيل. هل سمعت شيئًا؟» فأجابت: «لا»، وهى تتحسس ما تحت أذنها برشاقة.

وفى الخارج، وقف الرجل الذى كان جالسًا على سلم السيارة وأطل من فوق مقدمتها وأخذ يرقب المطعم برهة، ثم عاد إلى الجلوس ثانية، وأخرج من جيبه كيس تبغ ودفتر ورق لف السجاير وبتؤدة وإتقان لف سيجارة، وتفحصها، وأخذ يسويها. وأخيرًا أشعل السيجارة وغرس عود الثقاب المشتعل فى التراب عند قدميه. ومع اقتراب الظهيرة كانت الشمس تقتطع من الظل الذى تلقيه السيارة على الأرض.

وفى المطعم، دفع السائق الحساب ثم وضع الباقى. وهو قطعتان من ذات الخمسة سنتات، فى ثقب آلة حظ ميكانيكية، ولكن الأسطوانات الدائرة لم تسجل شيئًا. فقال للجرسونة: «إنهم يضبطونها بحيث لا نستطيع أن ننال منها شيئًا».

وأجابت هى: «أخذ أحدهم حصيلة الجهاز منذ أقل من ساعتين، كان فيه ثلاثة دولارات وثمانون سنتًا، متى ستمر ثانية؟»

قال، وهو يفتح باب الستار قليلاً: «أسبوع أو عشرة أيام، سأذهب إلى «تولسا»، ولا أعتقد أننى سأتمكن من العودة سريعًا».

وقالت هى غاضبة: «لا تدع الذباب يدخل، إما أن تدخل أو تخرج».

فقال وهو يدفع الباب فى طريقه إلى الخارج: «إلى اللقاء». اصطفق الباب من خلفه. ووقف هو فى الشمس، ينزع غلاف قطعة لبان، كان رجلاً ضخم الجثة، عريض المنكبين، كبير البطن، وجهه أحمر، وعيناه الزرقاوان طويلتان مسحوبتان من كثرة مواجهة الأضواء المبهرة. كان يلبس بنطلون جيش وحذاء عاليًا ذا رباط. أمسك السائق قطعة اللبان بيده أمام شفتيه وصاح من خلال الستار: «إياك أن تفعلى شيئًا لا تحبينى أن أسمعه». وكانت «النادلة» تقف، وظهرها إليه، تنظر فى مرآة معلقة على الحائط الخلفى. وغمغمت بكلمات تجيب بها عليه، ومضغ السائق قطعة اللبان ببطء، وهو يفتح فكيه وشفتيه بشدة مع كل مضغة، وكور اللبانة فى فمه، ودحرجها إلى تحت لسانه، فى حين هو يسير متجهًا نحو السيارة الكبيرة الحمراء.

وقف عابر السبيل وأطل عبر نوافذ العربة وقال للسائق: «أيمكن أن تأخذنى معك يا سيدى؟».

فالتفت السائق بسرعة إلى المطعم ثم أجاب بعد لحظة: «ألم تر لافتة لا ركاب على الزجاج الأمامى؟!».

«رأيتها بالتأكيد ولكن فى بعض الأحيان يظل الرجل الطيب طيبًا حتى لو أجبره «ابن حرام» غنى على حمل هذه اللافتة».

وتفكر السائق وهو يدلف إلى عربته ببطء فى هذه الإجابة، فلو رفض فهو لن يكون فقط مجرد رجل غير طيب، ولكن سيكون أيضًا ممن يجبرهم «أولاد الحرام» على حمل لافتة، ولا يسمحون لهم باصطحاب أحد. أما إذا أخذه معه فسيصبح رجلاً طيبًا على الفور وليس ممن يمكن أن يسخرهم أى «ابن حرام» غنى. أدرك أنه فى مأزق لا يعرف له مخرجًا، ولكنه يريد أن يكون رجلاً طيبًا، ولذا التفت ناحية المطعم ثانية ثم قال: «التصق بالدواسة حتى ندور حول هذا المنحنى».

وسرعان ما انحنى عابر السبيل حتى لا يراه أحد بالمطعم، وامسك بمقبض الباب بشدة وعلا صوت المحرك لحظة ثم صوت تعشيق «الفتيس» وانطلقت عربة النقل الكبيرة. «الفتيس» الأول، ثم الثانى، ثم الثالث، ثم قفزة كبيرة علا فيها صوت المحرك ثم «الفتيس» الرابع. ولمعت تحت الرجل المتعلق بالباب أرض الطريق الزراعى. كان أول منحنى على الطريق يبعد حوالى الميل، أبطأت السيارة بعده، وعندئذ وقف عابر السبيل وفتح الباب ثم دلف إلى المقعد. وتأمله السائق مضيقًا عينيه وهو يمضغ لبانته، كأن فكيه يمضغان ويرتبان الأفكار والانطباعات قبل أن يحولها إلى مخه. بدأت عيناه بالقبعة الجديدة. ثم هبطت إلى الملابس الجديدة فالحذاء الجديد. وأراح عابر السبيل ظهره فى مقعده، وخلع قبعته ومسح بها العرق عن جبهته وذقنه ثم قال: «شكرًا يا رجل.. لقد هلكت قدماى».

فقال السائق وقد امتلأ صوته بنبرة الإيحاء والغموض كعينيه: «حذاء جديد! لا يجب أن تمشى وأنت تلبس حذاء جديدًا.. والطقس حار».

ونظر عابر السبيل إلى حذائه الأصفر المترب وقال: «ليس لدى حذاء غيره، ولابد أن أحتذيه طالما لا أملك غيره».

وحدق السائق بإمعان أمامه، وزاد من سرعة السيارة قليلاً وسأل: «أذاهب أنت إلى مكان بعيد؟».

«لا... كنت سأمشى المسافة الباقية لولا أن قدميّ هلكتا».

كانت أسئلة السائق تحمل نبرة الاختبار الذكى، وبدا كمن ينصب الشباك والفخاخ بأسئلته... «أتبحث عن عمل؟».

«لا... أبى العجوز يملك أرضًا.. أربعين فدانًا، مزارع غلال ونحن هنا منذ مدة طويلة».

وتأمل السائق الحقول على طول الطريق حيث تساقطت أعواد الحنطة وتراكم عليها التراب، وبرز بعض الحصى من بين التراب. وقال السائق كمن يحدث نفسه:

«مزارع غلال، يملك أربعين فدانًا ولم يردمه التراب بعد.. ولم تخرجه الجرارات من أرضه حتى الآن؟».

فقال عابر السبيل: «أنا بالطبع لا أعرف أخبارهم منذ مدة».

وقال السائق: «مدة طويلة». ودخلت نحلة إلى الكابينة وطنت وهى تصطدم بالزجاج الأمامى، ومد السائق يده فى رفق ودفعها خارجًا حيث حملها تيار الهواء بعيدًا، ثم قال: «مزارعو الغلال يتناقصون هذه الأيام. جرار واحد فقط يحل محل عشر عائلات. والجرارات فى كل مكان الآن. تقتحم الأرض وتقذف بالمزارعين خارجها. كيف أمكن لأبيك أن يصمد؟» وتذكر اللبانة التى نسيها فى فمه فانشغل فكاه ولسانه، يمضغها ويقلبها، ومع كل فتحة فم يبدو لسانه وهو يقلب اللبانة من جنب إلى جنب.

«حسنًا. أنا لا أعرف أخبارهم فى الفترة الأخيرة. ولم أكتب لهم أبدًا كما لم يكتب الرجل العجوز أيضًا» ثم أردف بسرعة: «ولكننا نستطيع الكتابة إن أردنا».

«أكنت تقوم بعمل ما؟» مرة أخرى نبرة اختبار غامضة وكأنها عرض. سأله ثم نظر إلى الحقول وإلى الهواء اللافح، ثم كور اللبنانة فى جانب من فمه مفسحًا الطريق ليبصق من النافذة.

وأجاب عابر السبيل: «طبعًا»

«توقعت ذلك. فلقد رأيت كفيك، كنت تعمل ممسكًا جاروفًا أو فأسًا أو مطرقة. فهذا ما يجعل كفيك تلمعان. أنا ألاحظ مثل هذه الأمور وهى هواية أفخر بها».

وحملق عابر السبيل فيه، وغنت عجلات العربة فوق الطريق، وقال: «أتحب أن تعرف شيئًا آخر؟ سأخبرك دون أن تضطر إلى التخمين».

«لا تتضايق، فأنا لا أدس أنفى فى شىء».

«سأخبرك بأى شىء فليس لدى ما أخفيه».

«لا تتضايق. كل ما فى الأمر أننى أهوى ملاحظة الأشياء فذلك يقطع الوقت».

«سأخبرك بأى شىء. اسمى جود، "توم" جود، واسم أبى هو "توم" جود الكبير»، واستقرت عيناه على السائق تتأمله.

«لا تتضايق... لم أقصد شيئًا».

فقال جود: «ولا أنا أقصد أى شىء.. إنما أنا أحاول أن أمضى فى طريقى دون أن اصطدم بأحد». وتوقف وأخذ يطل على الحقول الجافة وجذوع الأشجار الميتة المتناثرة فى الآفاق الحارة. وأخرج من جيبه التبغ ودفتر ورق السجاير ولف سيجارة بين ركبتيه حيث لا يمكن للريح أن تصل.

مضى السائق يمضغ لبانته فى رتابة وتأمل كأنه بقرة. وانتظر حتى زالت من جو الحديث كل آثار الانفعال، وعندما بدا أخيرًا أن الجو قد أصبح عاديًا مرة ثانية قال: «إن الذى لم يكن يعمل سائق سيارة نقل أبدًا لا يمكنه أن يعرف أى شيء عن هذه المهنة. أصحاب السيارات لا يريدوننا أن نصحب أى إنسان من الطريق.. وهكذا علينا أن نجلس هنا ونسوقها إلا إذا أردنا أن نعرض أنفسنا للفصل.. كما فعلت أنا معك».

فقال جود: «أنا مقدر ذلك».

«لقد عرفت رجالاً كثيرين يأتون أعمالاً غريبة وهم يسوقون سيارات النقل. أذكر أن واحدًا منهم اعتاد أن يؤلف الشعر.. فذلك يقطع الوقت». ونظر إلى جود بطرف خفى ليرى ما إذا كان الكلام يثير اهتمامه أو دهشته، ولكن جود كان صامتًا ينظر أمامه على الطريق، ذلك الطريق الطويل الذى يتموج برفق ارتفاعًا وانخفاضًا كأنه موج البحر. وأخيرًا استأنف السائق حديثه قائلاً: «أذكر قطعة من ذلك الشعر الذى كتبه هذا السائق كانت تتحدث عنه وعن اثنين معه يجوبون العالم، يشربون، ويضجون، ويعبثون فى كل مكان. وددت لو أذكر ما كانت تقوله هذه القطعة. كان هذا الرجل يستخدم ألفاظًا لا يعرف أحد معناها، ولا حتى يسوع نفسه. كان جزء منها يقول: «وتلصصنا على زنجية، بزناد، أكبر من زلومة الفيل أو زعنفة الحوت. هذه الزلومة تشبه الأنف وهى عند الفيل خرطوم، لقد رأيت معناها فى القاموس مع صاحبى، فهو يحمل هذا القاموس فى كل مصيبة يذهب إليها، يقرأ فيه حتى عندما يتوقف ليتناول فطيرته وقهوته». وأحس أنه وحيد فى هذا الحديث الطويل، فتوقف والتفتت عيناه المتلصصتان إلى راكبه، ولكن جود ظل صامتًا وإذ ذاك حاول السائق، بعصبية، أن يرغمه على المشاركة فى الحديث، فسأله: «هل عرفت أبدًا رجلاً يستخدم مثل هذه الألفاظ الضخمة؟»

فقال جود: «الواعظ».

«حسنًا.. إن سماع رجل يستخدم مثل هذه الألفاظ لشيء يفقد الصواب. وهى مسألة طبيعية طبعًا بالنسبة لواعظ؛ لأن أحدًا لن يأخذ جديته مأخذ الهزل. ولكن هذا الرجل كان غريبًا، فقد لا تعيره التفاتًا عندما يقول هذه الكلمات الضخمة لأنه يستخدمها هازلاً، ولا يقول بها شيئًا مفيدًا».

واطمأن السائق، فهو يعلم على الأقل أن جود ينصت له. ودار بالسيارة الكبيرة حول أحد المنحنيات، وارتفع صرير العجلات، واستأنف السائق حديثه: «وكما قلت لك فإن الذى يسوق سيارة نقل يفعل أشياء غريبة. ولابد له من ذلك. فقد يفقد عقله إذا ما ظل جالسًا هنا والطريق ينساب من تحت العجلات. لقد قال أحدهم مرة: إن سائقى سيارات النقل يأكلون طول الوقت، طول الوقت يأكلون فى بوفيهات السجق المنتشرة على طول الطريق».

فوافقه جود قائلاً: «فعلاً.. يبدون كأنهم يعيشون فى هذه الأماكن».

«فعلاً.. هم يتوقفون هناك.. ولكن ليس للأكل، ربما لا يشعرون بالجوع ولكنهم ملوا الاستمرار، ملوه، والبوفيهات هى المكان الوحيد الذى يمكن أن تقف فيه. وعندما تقف فلابد أن تشترى شيئًا حتى يمكن أن تحرك الحيوان الواقف خلف «البنك» وهكذا تحصل على قدح من القهوة وقطعة من الفطير. طريقة يحصل بها الإنسان على بعض الراحة». واستمر يمضغ لبانته ببطء ويديرها بلسانه.

وقال جود بلا اهتمام: «شىء صعب».

والتفت إليه السائق بسرعة ليرى ما إذا كان يسخر أم لا، ثم قال جادًا: «ليست عملية هينة، قد يبدو سهلاً أن يجلس الإنسان هنا ثمانى ساعات أو عشرًا أو أربع عشرة ساعة، ولكن الطريق يهد، ولابد للمرء أن يفعل

شيئًا، الشركة لا تسمح لنا بأجهزة الراديو، فالبعض يغنى والبعض يصفر والبعض يحمل خمرًا، ولكن هؤلاء يبقون فى عملهم طويلاً»، ثم قال فى رضا: «أنا لا أشرب أبدًا حتى أفرغ من عملى».

فسأله جود: «إيه؟»

«طبعًا، على الإنسان أن ينظر إلى المستقبل، أنا مثلاً أفكر فى الالتحاق بأحد برامج الدراسة بالمراسلة، هندسة ميكانيكية، سهلة، لا تتطلب سوى قليل من العمل فى المنزل، ما زلت أفكر فى الأمر، فعندئذ لن أكون مضطرًا لأن أسوق سيارة نقل، بل سآمر الآخرين أن يسوقوها».

وأخرج جود زجاجة ويسكى من جيب معطفه وقال بنبرة إغراء: «أحقًا لن تأخذ ولا جرعة واحدة؟»

«لا والله.. لن أمسها. لا يمكن للرجل منا أن يشرب الخمر ثم يدرس كما أنوى أنا»

وفتح جود الزجاجة، وابتلع جرعتين على عجل، ثم أغلقها ثانية ووضعها فى جيبه.. وامتلأت الكابينة برائحة الويسكى النفاذة اللاذعة، ثم قال: «أنت منفعل جدًا، مالك، هل لك صديقة؟»

«حسنًا. طبعًا، ولكننى أريد أن أتقدم بأى طريقة، لقد أجهدت ذهنى طويلاً»، وبدا أن الويسكى قد حل لسان جود، فلف سيجارة أخرى وأشعلها ثم قال:

«أما أنا فليس أمامى أى هدف أسعى إليه».

واستمر السائق يقول بسرعة: «أنا لا أضارب على شىء كبير، فأنا أدرب ذهنى على التفكير طول الوقت، وقد أكملت فى العامين الماضيين أحد البرامج الدراسية». وربت على عجلة القيادة بيده اليمنى وقال: «افترض

أننى مررت بشخص ما على الطريق، فإننى انظر إليه وبعد أن أتخطاه أحاول أن أتذكر كل شىء عنه، نوع الملابس والحذاء والقبعة وطريقة مشيه، وربما طوله ووزنه وما إذا كانت به آثار جروح قديمة. أنا أجيد هذا العمل ويمكننى أن أرسم صورة كاملة فى خيالى. فى بعض الأحيان أعتقد أنه يجب على أن أدرس فن تحقيق الشخصية، ستندهش لو تعرف مدى ما يمكن للمرء أن يتذكره».

وأخذ جود جرعة عجولة من زجاجته، وشد النفس الأخير من سيجارته المحترقة، ثم سحق طرفها المشتعل بين إبهامه وسبابته الخشنين، وفرك «العقب» فى كفه، ثم أخرجه من النافذة تاركًا تيار الهواء يسحب ذرات التبغ من بين أصابعه. وعزفت عجلات السيارة لحنًا صارخًا فوق الأسفلت وبدت الراحة فى عينى جود السوداوين الهادئتين وهو يحملق فى الطريق أمامه. ونظر للسائق بطرف عينيه منتظرًا فى قلق. وأخيرًا، افترت شفة جود العليا عن أسنانه، ثم قهقه دون أن يتكلم. وارتج صدره بقهقهاته وقال: «لابد أنك أنفقت وقتًا طويلاً قبل أن تتقن ذلك».

وسأل السائق دون أن يلتفت: «أتقن ماذا؟ ماذا تعنى؟»

وضم جود شفتيه بإحكام فوق أسنانه، ثم لعقها بلسانه كالكلب، لعقتين، واحدة فى كل ناحية بادئًا من الوسط. ثم قال بصوت خشن: «أنت تعرف ما أعنى. لقد فحصتنى بنظراتك عندما دخلت. لقد رأيتك». وشخص السائق إلى الأمام ببصره وشدد من قبضتيه على عجلة القيادة حتى برز لحم كفيه منتفخًا وشحب ظهراهما. واستمر جود يقول: «هل تعرف من أين أتيت؟» ولم يجب السائق فألح جود: «أنت تعرف... أليس كذلك؟».

«حسنًا... فعلاً.. أصل.. ربما.. ولكن ذلك ليس من شأنى. أنا لا أهتم إلا بشئونى، ولا يعنينى أى شىء آخر». كانت الكلمات تتساقط من

فمه: «أنا لا أدس أنفى فى شئون الآخرين». ثم توقف فجأة عن الكلام وانتظر. وظلت يداه شاحبتين فوق عجلة القيادة. وقفزت جرادة ودخلت من النافذة، واستقرت واقفة على حافة لوحة القيادة حيث جلست تحك جناحيها بسيقانها السريعة. ومال جود إلى الأمام وسحق رأسها الناشف الشبيه بالجمجمة بين أصابعه، ثم قذف بها إلى الريح خارج النافذة، وقهقه مرة أخرى وهو ينفض عن أطراف أصابعه بقايا الحشرة المحطمة، ثم قال: «لقد فهمتنى خطأ يا سيد، أنا لا أخفى هذا الموضوع، أنا كنت فعلاً فى سجن «ماك اليستر»، ظللت هناك أربع سنوات، وهذه الملابس هى نفس الملابس التى أعطونى إياها عند خروجى، ولا يهمنى أن يعرف أى إنسان هذا، فأنا عائد إلى منزل أبى ولست مضطرًا للكذب لكى أحصل على عمل».

فقال السائق: «حسنًا.. ليس هذا من شأنى.. لست فضوليًا».

«من الفضولى إذًا، إن لم تكن أنت بهذه الأنف الضخمة الشمطاء التى تبرز أمامك مسافة ثمانية أميال، والتى تشممتنى بها كما تفعل النعجة فى غيط الخضار؟»

وتجهم وجه السائق وهو يقول فى استكانة: «لقد فهمتنى خطأ».

فضحك جود فى وجهه وقال: «لقد كنت رجلاً طيبًا وأخذتنى معك، حسنًا. لقد قضيت وقتًا فى السجن وأنت تريد أن تعرف السبب، أليس كذلك؟».

«ليس هذا من شأنى».

«كل شىء من شأنك.. إلا أن تسوق هذا اللورى اللعين، وهو أقل شىء تشغل به نفسك. والآن انتبه.. أترى هذا الطريق أمامك؟»

«أيوه»

«حسنًا... سأنزل هنا وأنا متأكد أنك قد بللت سراويلك رغبة فى معرفة ما فعلت ولن أخيب رجاءك». وخفتت همهمات المحرك العالية، وخفت حدة نغمات العجلات. وأخرج جود زجاجته وأخذ جرعة أخرى صغيرة.. وعندما توقفت السيارة عند طريق متفرع عموديًا على الطريق الزراعى، خرج جود ووقف بجوار نافذة الكابينة، كانت «ماسورة» العادم العمودية تنفث دخانًا أزرق يكاد لا يرى. ومال جود على السائق وقال بسرعة: «قتل.. إنها كلمة كبيرة، ومعناها أننى قتلت رجلاً. سبع سنوات. أخرجونى فى السنة الرابعة لأننى احتفظت بأنفى بعيدًا عن المشاكل».

وانزلقت عينا السائق على وجه جود ليعى أوصافه وقال: «لم أسألك أبدًا عن أى شىء، أنا أهتم بشئونى فقط».

فابتسم جود وقال: «تستطيع أن تحكى هذه الحكاية فى كل البوفيهات. من هنا حتى «تيكسولا». إلى اللقاء يا صاحبى لقد كنت رجلاً طيبًا، ولكن اسمع، إذا ما بقيت فى الحبس فترة، فإنك تستطيع أن تشم رائحة أى سؤال ولو كان فى جهنم، ولقد كشفت نفسك بنفسك عندما فتحت فمك لأول مرة».

وبراحة يده ربت برفق على الباب المعدنى وقال: «إلى اللقاء، شكرًا على الرحلة» واستدار بعيدًا وسار فى الطريق الترابى.

وتابعه السائق ببصره برهة ثم صاح «حظ سعيد» فلوح له جود بذراعه دون أن يلتفت. وسرعان ما علا صوت المحرك وتعشيق «الفيتيس» ومضت سيارة النقل الكبيرة مبتعدة ثقيلة.

الفصل الثالث

انساب الطريق الخرسانى يحف به حصير مفروش من أعشاب متشابكة، جافة متكسرة. رؤوس الأعشاب مثقلة بثمار ذات أهداب تعلق بفراء كلب، وثمار كذيل القط تتشبث بكعب فرس، وزهور البرسيم الجافة تتعلق بفراء الخراف. الحياة نائمة تريد الانطلاق والانتشار. كل بذرة حياة مؤهلة لذلك. منها ما له مظلات تحملها الريح، ومنها ما له رماح وكرات من الأشواك الصغيرة. وكلها ينتظر حيوانًا، أو ريحًا، أو ثنية فى بنطلون رجل، أو حافة قميص امرأة. كل خامل منها مؤهل للنشاط وكل ساكن يحمل جنين الحركة.

أرخت الشمس أشعتها على العشب تدفئه، فى ظلال العشب تحركت حشرات الحقل.. النمل يسعى وسباع النمل تنصب له الفخاخ، الجراد يقفز فى الهواء ويصفق بأجنحته الصفراء، وبقة الخيط كالسفينة الحربية تجد فى السير بلا هوادة بأقدامها الكثيرة الهشة. وبالقرب من الطريق زحفت فوق العشب سلحفاة برية وهى تتلفت إلى لا شيء. تحمل فوقها صدفة كالقبة العالية. كانت سيقانها الجافة وأقدامها ذات الأظافر الصفراء تدب ببطء بين الأعشاب فتكسرها، وهى لا تمشى بل تتزحزح كالونش تحمل فوقها صدفتها. كانت الثمار الجافة ذات الأهداب تنزلق فوقها، وزهور

البرسيم الجافة تتدحرج من فوق ظهرها إلى الأرض. ومضت وقد انفرج فمها المنقارى الجاف قليلاً تشخص أمامها بعينين فيهما صرامة ودموع يظللهما حاجبان كأطراف الأظافر.

وعبرت الحقل مخلفة وراءها دربًا من العشب المهشم، حتى دخلت الطريق الزراعى فبدا أمامها كأنه جبل صغير. فتوقفت لحظة ثم رفعت رأسها عاليًا ورمشت جفونها وهى تتأمل ارتفاعه، وأخيرًا بدأت تتسلقه. مدت قدميها ذات المخالب أمامها ولكنها لم تصل إلى شىء ورفعت صدفتها بقدميها الخلفيتين فاحتكت بالعشب والحصى، وكلما ازداد الجسر انحدارًا ازدادت تخبطًا، تدفع قدميها الخلفيتين إلى أقصى ما تستطيع ثم تنزلق وقد دفعت بصدفتها خطوة إلى الأمام. ومدت رأسها الجاف إلى أبعد ما يمكن أن تسمح به رقبتها الممطوطة، وشيئًا فشيئًا صعدت السلحفاة زاحفة على جانب الجسر حتى وصلت فجأة إلى سور وقف فى وجه مسيرتها. كانت كتف الطريق حائطًا خرسانيًا ارتفاعه أربع بوصات. وانطلقت ساقاها الخلفيتان فى العمل وحدهما حتى رفعت الصدفة فى مواجهة الحائط. عندئذ مدت السلحفاة رأسها وأطلت من فوق الحائط الأسمنتى العريض الأملس، ثم مدت يديها وأسندتهما إلى حافة الحائط، وتحاملت ترفع جسمها حتى استقرت مقدمة الصدفة على الحافة، ووقفت السلحفاة تستريح لحظة، فسارعت نملة حمراء ودخلت الصدفة إلى اللحم الطرى بداخلها، عندئذ انسحب الرأس والسيقان فجأة إلى الداخل، وبدأت السلحفاة تضرب بذيلها المدرع داخل صدفتها حتى سحقت النملة الحمراء بين السيقان والجسم، ثم سحبت السلحفاة بإحدى قدميها الأماميتين ثمرة من ثمار الشوفان البرية إلى الداخل، وظلت ساكنة لفترة طويلة، ثم تسللت برقبتها خارج الصدفة وأطلت حواليها بعينيها

المقطبتين الهرمتين الدامعتين، ثم أخرجت سيقانها وذيلها. وعادت ساقاها الخلفيتان إلى العمل تكافح كساقى الفيل، وارتفعت الصدفة ومالت حتى أصبح من الصعب أن تلمس السيقان الأمامية سطح الطريق الأسمنتى. وظلت الساقان الخلفيتان تدفعان الجسم إلى أعلى أكثر فأكثر حتى تغير مركز ثقله فمالت مقدمة الصدفة إلى الأمام ولامست قدما السلحفاة أرض الطريق، وتم صعودها بنجاح وإن بقيت ثمرة الشوفان البرية ملتفة حول الساقين الأماميتين.

حينئذ أصبح السير سهلاً وانطلقت السيقان كلها إلى العمل وتهادت الصدفة إلى الأمام تعبر الطريق من جنب إلى جنب. واقتربت سيارة ذات باب واحد تقودها امرأة فى الأربعين من العمر، وحين رأت السلحفاة اندفعت إلى اليمين خارج الطريق، فعلا صوت العجلات وارتفعت سحابة من الغبار وتعلقت عجلتان فى الهواء بعيدًا عن سطح الأرض لحظة ثم استقرتا ثانية، وواصلت السيارة سيرها ولكن أكثر بطءًا. كانت السلحفاة فى هذه الأثناء قد انكمشت داخل صدفتها ولكنها أسرعت بعد ذلك إذ كان الطريق حارًا لاسعًا.

ثم جاءت سيارة نقل خفيفة، وعندما اقتربت وشاهد سائقها السلحفاة مال بعربته ليصدمها، وبالفعل مست العجلة الأمامية حافة الصدفة فقلبتها وجعلتها تدور كعجلة الروليت أو كالعملة حول نفسها، وقذف بها من فوق الطريق الزراعى. وعادت سيارة النقل إلى يمين الطريق وظلت السلحفاة راقدة على ظهرها ومنكمشة تمامًا داخل صدفتها وقتًا طويلاً، ولكنها آخر الأمر مدت سيقانها وحركتها فى الهواء باحثة عن شىء تتعلق به، فأمسكت قدمها الأمامية بقطعة من الصوان فشدت نفسها عليها شيئًا فشيئًا حتى انقلبت معتدلة فوقعت منها ثمرة الشوفان البرية وانفرطت على الأرض

ثلاث بذور ذات أطراف مدببة. وحين زحفت السلحفاة تهبط جانب الجسر سحبت صدفتها التراب فغطت هذه البذور. ثم دخلت فى طريق ترابى وبدأت تجد السير فيه راسمة لصدفتها دربًا متعرجًا ضحلاً محفورًا على التراب، ومضت وعيناها الهرمتان الدامعتان تنظران إلى أمام وقد انفرج فمها المنقارى الجاف، وأظافرها الصفراء تتعثر فى التراب.

الفصل الرابع

عندما سمع «جود» سيارة النقل تمضى بعيدًا. تتزايد سرعتها شيئًا فشيئًا والأرض تئن تحت وقع عجلاتها، توقف واستدار يرقبها حتى اختفت. وعندما غابت عن ناظريه ظل بصره معلقًا بالأفق البعيد يغشاه لفح السماء الأزرق، وأخرج زجاجته من جيبه متفكرًا، وفتح غطاءها المعدنى، وبدا يحتسى الويسكى برفق مدخلاً لسانه ليتحسس فتحتها. ثم لوى شفتيه ليجمع ما يمكن أن يكون قد انساب من فمه. وقال محاولاً تقليد السائق: «وهناك تجسسنا على زنجية..» وكان هذا هو كل ما أمكنه أن يتذكره، وأخيرًا استدار مواجهًا الطريق الجانبى المترب الذى يشق الحقول متعامدًا عليها. كانت الشمس حارة والريح ساكنة لا تحرك التراب الذى تثيره أقدامه. كانت آثار العجلات محفورة فى الطريق حيث تجمع التراب فى أخاديدها. وخطى «جود» خطوات قليلة ارتفع فيها التراب الناعم أمام حذائه الأصفر الجديد الذى بدأ لونه يختفى بفعل التراب.

انحنى وحل رباط حذائه، وخلع فردة ثم الأخرى ودس قدميه المبتلتين عرقًا فى التراب الجاف بارتياح. وتخلل التراب ما بين الأصابع. وشعر أن جلد قدميه قد جف وأصبح مشدودًا، عندئذ خلع معطفه ولف به الحذاء

ودفع بالربطة كلها تحت إبطه، ثم سار آخر الأمر فى الطريق يقذف بالتراب أمامه تاركًا خلفه سحابة من التراب معلقة بقرب سطح الأرض.

كان يمين الطريق مسورًا بصفين من السلك الشائك المعلق على قوائم من خشب الصفصاف، وكانت القوائم معوجة سيئة التشذيب وقد علقت الأسلاك على بروز ناتئة فيها، وحيث لا توجد مثل هذه البروز ثبت السلك الشائك فى القائم بسلك آخر صدئ من أسلاك الربط. وخلف السور كانت أعواد الحنطة ترقد وقد حطمتها الريح والحرارة والجفاف، وتراكم التراب فى إبط أوراقها.

ومضى «جود» متثاقلاً وخلفه سحابة من غبار، ثم رأى على بعد قليل منه قبة صدفة السلحفاة البرية تزحف ببطء فى التراب تحرك سيقانها المتعبة فى نقلات متشلحة مفاجئة. توقف «جود» يرقبها فسقط ظله عليها، فانسحب الرأس والسيقان إلى الداخل على الفور، وهزت السلحفاة ذيلها داخل صدفتها. التقطها «جود» وقلبها، كان ظهرها بنيًا رمادى اللون كالتراب، أما باطن الصدفة فكان مصفرًا ناعمًا ونظيفًا. ورفع «جود» ربطته تحت إبطه، ومسح على باطن الصدفة الناعم بإصبعه وضغط عليه. كانت البطن أقل صلابة من الظهر. وأخرجت السلحفاة رأسها العجوز الجافة تحاول أن ترى الإصبع الذى يضغط عليها، ولوحت بسيقانها بشراسة، ثم بالت على كف «جود» وصارعت فى الهواء صراعًا يائسًا. وعدلها «جود» ثم لفها فى معطفه مع الحذاء، كان يشعر بها تضغط وترفس وتفح تحت إبطه، ولكنه أسرع فى السير يجر قدميه فى التراب الناعم.

كانت أمامه على جانب الطريق شجرة صفصاف عجفاء مقفرة تلقى على الأرض بقعًا من الظل. كان «جود» يراها أمامه وفروعها الجرداء منحنية على الطريق تحمل أوراقًا متناثرة كأنها كتكوت يغير ريشه. كان

جسد «جود» ينضح عرقًا. واسودَّ قميصه الأزرق أسفل الظهر وتحت الإبطين. وجذب حافة القلنسوة وثناها من الوسط محطمًا بطانتها الكرتونية تمامًا بحيث لا يمكن أن تبدو بعد ذلك جديدة. وأسرعت خطواته ناحية ظل الشجرة فقد كان واثقًا أنه سيجد ظلاً تحتها، على الأقل، شريطًا من الظل يلقيه جذع الشجرة العجفاء، فالشمس قد مالت عن منتصف السماء وهى فى هذا الوقت تلسع قفاه وتثير فى رأسه طنينًا خافتًا.

لم يكن فى مقدوره أن يرى جذع الشجرة من أسفل؛ فقد كان منبتها نقرة تحتفظ بالماء لبعض الوقت. وأسرع «جود» الخطى فى مواجهة الشمس؛ وبدا يهبط المنحدر ولكنه أبطأ سيره فى حذر، فقد كان شريط الظل مشغولاً. رجل يجلس على الأرض مسندًا ظهره إلى جذع شجرة وقد شبك ساقيه على بعضهما وإحدى قدميه العاريتين تكاد تصل إلى مستوى رأسه. ولم يسمع الرجل صوت «جود» وهو يقترب، فقد كان يصفر فى هدوء لحن «نعم يا سيدى، هذا طفلى» بينما قدماه الممدودتان تهتزان ببطء مع الإيقاع الذى لم يكن إيقاعًا راقصًا. توقف عن الصفير وبدا يغنى فى صوت خفيض حاد:

«نعم يا سيدى هذا مخلصى

ى... يـــسوع.. مخلصى

ى... يسوع.. مخلصى الآن

وعلى العرش لا يجلس الشيطان

بل يسوع هو مخلصى الآن..»

وصل «جود» إلى بقعة الظل التى كانت تلقيها الأوراق المتناثرة قبل أن يحس به الرجل ويوقف أغنيته ويدير رأسه. كان رأس الرجل مستطيلاً

بارز العظام، مشدود الجلد، تحته رقبة رفيعة وعضلية كعيدان الكرفس. عيناه جاحظتان بارزتان وقد شدت الجفون عليهما تمامًا حتى تغطيهما. كانت جفونًا حمراء وسميكة. وكانت وجنتاه بنيتين لامعتين لا شعر فيهما، وفمه ممتلئًا رطبًا شهوانيًا، وأنفه مقوسة حادة، جلدها مشدود حتى ابيضت قنطرتها، ولم تكن هناك آثار للعرق على وجهه ولا حتى على تلك الجبهة العريضة الشاحبة التى كانت عالية بدرجة غير مألوفة، على جانبيها أوردة دقيقة زرقاء. كان نصف وجه الرجل فوق عينيه وشعره الرمادى الخشن مائلاً إلى الخلف وكأنه قد مشطه بأصابعه. أما عن ملابسه فهو يرتدى «عفريتة» وقميصًا أزرق ومعطفًا من القطن ذا زراير نحاسية، وقبعة بنية مرقطة ومغضنة كفطيرة لحم الخنزير ملقاة بجواره على الأرض. وبالقرب منه خفَّان من قماش سميك استحال لونهما رماديًا بفعل التراب،واستقرا حيث سقطا ساعة أن طوحهما من قدميه.

نظر الرجل مليًا إلى «جود»، وبدا كأن النور يغوص فى أعماق عينيه البنيتين كاشفًا عن نقط ذهبية صغيرة فى القزحيتين، وبرزت إلى الأمام عضلات رقبته المشدودة.

وقف «جود» ساكنًا فى بقع الظلال، ثم خلع قلنسوته ومسح بها وجهه المتصبب عرقًا وألقاها هى ومعطفه بما حوى على الأرض.

وأرخى الرجل الجالس فى الظل الكامل ساقيه المتشابكتين، ودس أصابعه فى التراب.

وقال «جود»: «هيه.. إن الطريق أكثر حرارة من جهنم».

وحملق فيه الرجل الجالس متأملاً: «ألست أنت «توم» «جود» الصغير، ابن «توم» الكبير؟»

فقال «جود»: «أيوه.. تمام.. راجع إلى البيت الآن».

وقال الرجل: «أظن أنك لن تتذكرنى». وابتسم فكشفت شفتاه الممتلئتان عن أسنان كبيرة كأسنان الحصان: «لا.. لن تتذكرنى، لقد كنت مشغولاً على الدوام تشد شعور البنات الصغيرات.. عندما عمدتك بالروح القدس كنت مشغولاً فى شد شعر فتاة لتقتلعه من جذوره، ربما لا تذكر أنت ذلك ولكنى أذكره، لقد جئتما معًا إلى المسيح بسبب شد الشعر هذا. ولقد عمدتكما فى قناة الرى فورًا، وكنتما تصرخان وتتقاتلان كزوج من القطط».

نظر «جود» نظرة خاطفة إليه ثم ضحك وقال: «ولكنى أعرفك، أنت الواعظ، أنت الواعظ، لقد كنت فى بالى وأنا أتحدث لرجل على الطريق منذ أقل من ساعة».

فقال الرجل بجدية: «لقد كنت واعظًا، القس «جيم كيزى» من مذهب «عليقة موسى» كثيرًا ما شققت حنجرتى وأنا أصيح باسم يسوع من أجل المجد، كانت قناة الرى على الدوام مملوءة بالخطأة التائبين، ونصفهم على وشك الغرق. ولكنى لست كذلك الآن». ثم تنهد قائلاً: «مجرد «جيم كيزى» الآن، لست فى الدعوة الآن، فى ذهنى كثير من أفكار الخطيئة، ولكنها تبدو لى معقولة». فقال «جود»: «إذا ما عشت تفكر فيما حولك فلابد أن تزدحم عليك الأفكار. أنا أذكرك بالتأكيد. لقد تعودت أن تقدم لنا عظات جيدة، أذكر أنك مرة قضيت العظة كلها وأنت تدور على يديك ورجليك وأنت تزعق بكل قوتك. وكانت أمى تفضلك عن أى شخص آخر، أما جدتى فكانت تقول إن الأرواح تملأك كالقمل وجعلتك ملتاثًا». وانحنى «جود» على معطفه الملفوف وبحث فى جيبه وأخرج زجاجته وحركت السلحفاة إحدى سيقانها ولكنه لفها بإحكام، ثم فتح الزجاجة ومد ذراعه بها قائلاً: «ألك فى جرعة صغيرة؟»

وتناول «كيزى» الزجاجة واحتضنها متأملاً. ثم قال: «أنا لا أعظ الآن كثيرًا، لم يعد لدى الشعب إيمان، والأسوأ من ذلك أنه لم يعد لدى أنا أيضًا إيمان، طبعًا بين الحين والحين يتحرك الإيمان فى داخلى فأقيم صلاة جماعية، أو عندما يعد الناس وليمة أذهب وأباركها، ولكن ليس بقلبى، إنما أفعل ذلك لأن الآخرين ينتظرون منى أن أفعله».

مسح «جود» وجهه بقلنسوته مرة ثانية وسأله: «إنك لست متشددًا فى الدين لدرجة تمنعك من جرعة!».

وبدا كأن «كيزى» يرى الزجاجة لأول مرة، رفعها على فمه وابتلع ثلاث جرعات كبيرة ثم قال: «نوع جيد من الشراب».

فقال «جود»: «لابد أن تكون كذلك، شغل فابريقة، ثمنها دولار كامل».

أخذ «كيزى» بلعة أخرى قبل أن يعيد إليه الزجاجة وهو يقول: «تمام يا سيد. تمام يا سيد».

وتناول «جود» الزجاجة منه ولم يمسح فمها بكمه قبل أن يشرب تأدبًا، ثم تربع على الأرض جالسًا وأسندها واقفة على لفة معطفه والتقطت أصابعه غصنًا جافًا يرسم به هواجسه على الأرض، وأزاح الأوراق الجافة عن قطعة من الأرض، وبدا يرسم عليها زوايا ودوائر صغيرة. ثم قال: «لم أرك منذ وقت طويل».

فقال الواعظ: «لا أحد يرانى، إنى وحيد وأجلس لأفكر، إن الإيمان قوى فى داخلى ولكنه ليس نفس الإيمان القديم، لم أعد متيقنًا من عديد من الأشياء». وانتصب فى جلسته مستندًا على جذع الشجرة واندست يده كالسنجاب فى داخل جيب «عفريتته» وأخرجت قطعة من الطباق سوداء اللون مقضومة، ومسح عنها بعناية بقايا قطع القش الصغيرة وتراب جيبه

الرمادى العالق بها قبل أن يقضم قطعة منها، ويدفع بها إلى جانب من فمه. وحين مد يده بقطعة الطباق إلى «جود» رفض الأخير بحركة من عصاته. وتحركت السلحفاة داخل المعطف فالتفت «كيزى» إلى الرداء المتحرك وقال: «ماذا تحمل فى داخله؟ فرخة! يمكن أن تختنق».

ولف جود معطفه مرة أخرى بإحكام وقال: «سلحفاة عجوز التقطتها من على الطريق، جرار عجوز سآخذه لأخى الصغير، فالأولاد يحبون السلاحف». وهز الواعظ رأسه ببطء وقال: «لكل ولد صغير سلحفاة يقتنيها بعض الوقت. ولكن لا يوجد من يستطيع الاحتفاظ بها كل الوقت». ستظل تحاول وتحاول إلى أن تنجح آخر الأمر وتخرج ذات يوم وتهرب بعيدًا إلى مكان ما. مثلى أنذا لم احتفظ بالإنجيل القديم الذى كان فى متناول يدى، بل أخذت أنقب فيه وأقلب فيه حتى مزقته، وها أنذا الآن أجد الإيمان أحيانًا ولكننى لا أجد مادة لموعظة. فى داخلى هاتف يدعونى لأن أقود الشعب، ولكنى لا أعرف إلى أين أقودهم».

فقال «جود»: «لف بهم حول أنفسهم مرة بعد أخرى، غطسهم فى بئر العماد، قل لهم إنهم سيحترقون فى جهنم إن لم يفكروا مثلك، بحق جهنم لماذا تريد أن تقودهم إلى مكان ما؛ لا تفعل أكثر من أن تقودهم وحسب..».

واستطال ظل جذع الشجرة على الأرض فانتقل إليه «جود» فى سرور وتربع جالسًا وسوى مكانًا جديدًا ليرسم عليه هواجسه بالعصا. وعلى الطريق جاء كلب من كلاب الرعى ذو فراء كثيف أصفر يقفز خافض الرأس وقد تدلى لسانه يتساقط منه اللعاب ويهتز ذيله الملتوى، ويلهث بصوت عال، صفر له «جود»، ولكنه لم يستجب بل خفض رأسه أكثر وأسرع فى جريه كأنه ذاهب إلى مكان ما؛ فقال «جود» وقد ضايقه ألا يستجيب الكلب له: «إنه ذاهب إلى مكان معين ربما كان منزله».

ولكن هذا لم يزحزح الواعظ عن موضوعه فقال مكررًا: «ذاهب إلى مكان معين، هذا صحيح إنه ذاهب إلى مكان محدد أما أنا فلا أعرف إلى أين أذهب. أتعرف؟ لقد اعتدت أن أجعل الناس يقفزون ويرطنون بالألسن ويصيحون ممجدين الله حتى يسقطوا صرعى، وأحيانًا كنت أعمّد بعضهم، وبعد ذلك، أتعرف ماذا كنت أفعل؟ كنت آخذ واحدة من الفتيات إلى الغيط وأضاجعها. كنت فى كل مرة أفعل ذلك وبعدها كنت أحس بالخطيئة وأصلى وأصلى، ولكن لا جدوى. وعندما يملؤنى ويملؤهن الإيمان مرة أخرى نكرر الخطيئة ثانية. وانتهيت إلى أنه لا أمل فى خلاصى، وأننى لست إلا منافقًا ملعونًا، وإن لم يكن ذلك قصدى».

ابتسم «جود» فظهرت أسنانه الطويلة ولعق شفتيه ثم قال: «ليس هناك شىء أحسن من صلاة حارة لتدفعهن إلى ذلك، أنا شخصيًا كنت أفعل هذا».

ومال «كيزى» إلى الأمام بانفعال وصاح: «اسمع، عندما وجدت الأمر على هذا الحال بدأت أفكر». ولوح بيده التى برزت عظامها وتضخمت مفاصلها وبدا كأنه يربت على شىء ما وقال: «فكرت فى الأمر هكذا.. ها هى ذى بركة مواعظى، وها هم أولئك الناس يتلقون البركة فيقفزون ويصيحون فى هياج. يقولون إن مضاجعة الفتيات من عمل الشيطان، ولكن كلما كانت الفتاة ممتلئة بركة كانت أشد رغبة فى الخروج إلى الحقل. وألحت عليّ فكرة بأى طريقة ـ اسمح لى ـ بأى طريقة يمكن أن يدخلها الشيطان فى فتاة ممتلئة بالروح القدس حتى تكاد تفيض من أذنيها وأنفها! قد تظن أنه لا توجد أمام الشيطان أى فرصة إلا كفرصة وجود كرة من الثلج فى جهنم، ولكن هذا ما يحدث فعلاً». كانت عيناه تلمعان انفعالاً، وحرك شدقيه قليلاً ثم بصق على الأرض فتدحرجت بصقته ملتقطة التراب حتى تحولت إلى كرة صغيرة جافة. ثم بسط الواعظ كفيه ونظر فى راحتيه كأنه

يقرأ من كتاب وقال برفق: «وها أنذا، ها أنذا وأرواح كل هؤلاء الناس فى يدى مسئول وأشعر بمسئوليتى، ومع ذلك فعقب كل صلاة أخرج وأضاجع فتاة من بينهم». ورفع ناظريه إلى «جود» بوجه بائس ترتسم عليه تعابير «من يسأل المعونة».

ورسم «جود» بعناية جسم امرأة على الأرض. الصدر والخصر والأرداف. وقال: «لم أكن فى يوم من الأيام واعظًا ولم أترك واحدة تفلت منى وفى استطاعتى أن أنالها. وذلك دون أن أفكر فى الأمر على الإطلاق، بل كنت غاية فى السعادة عندما أنال واحدة».

وواصل «كيزى» كلامه: «ولكنك لم تكن واعظًا. كانت الفتاة بالنسبة لك مجرد فتاة، لم تكن تعنى شيئًا ولكن بالنسبة لى فهن أوعية مقدسة، المفروض أن أنقذ أرواحهن، وها أنذا بكل هذه المسئولية الملقاة على عاتقى، أجعلهن ينهمكن فى التعبد ثم آخذهن إلى الحقول».

قال «جود» وهو يخرج التبغ ودفتر الورق ويلف سيجارة: «يا ليتنى كنت واعظًا».

ثم أشعل سيجارته ونظر للواعظ بطرف عينيه من خلال الدخان وقال: «منذ مدة طويلة لم أقرب فتاة، وسيتطلب اصطياد واحدة بعض الوقت».

واستمر «كيزى» يقول: «لقد أقلقنى ذلك كثيرًا حتى لم أعد أذوق النوم أحيانًا، كنت أذهب للوعظ وأقول يا إلهى لن أفعلها هذه المرة، وفى الوقت نفسه كنت موقنًا أننى سأفعلها». فقال «جود»: «كان يجب أن تحصل على زوجة؛ مرة كان يقيم واعظ وزوجته من مذهب «شهود يهوه» كانا ينامان فى الطابق العلوى ويعقدان صلواتهما فى الجرن، كنا نحن الأولاد نتصنت عليهما فكان الواعظ يضاجع زوجته كل ليلة بعد الصلاة».

فقال «كيزى»: «أنا سعيد لأنك قلت لى هذه الحكاية، كنت أظن أنى وحيد فى هذا، فلقد سببت لى هذه الحالة آلامًا جعلتنى آخر الأمر أهرب وأمضى وحيدًا لكى أفكر بعمق». وثنى ساقيه وحك فيما بين أصابعه المتربة الجافة، ثم قال «قلت لنفسى ما الذى يزعجك؟ أهى المضاجعة؟ وأجبت على نفسى: لا.. إنها الخطيئة. ثم قلت لماذا يكون الأمر كذلك، بينما المفروض أن يكون الرجل محصنًا ضد الخطيئة كالبغل. وما دام ممتلئًا بروح يسوع، فلماذا تعد خطيئة أن تمتد أصابع الرجل إلى زراير سراويله؟» كان يتكلم وهو يضرب بأصبعين على راحة كفه فى حركة موقعة كأنه يرتب كلماته عليها برفق: «قلت لنفسى ربما لم تكن خطيئة، ربما كانت هذه هى طبيعة الناس، ربما كنا نعذب أنفسنا دون جدوى، وفكرت فيما تفعله بعض أخواتنا فى العقيدة حين يضربن أنفسهن بمشقة سلك طولها ثلاثة أقدام، ربما كن يرغبن فى إيلام أنفسهن، وربما كنت أحب إيلام نفسى، حسنًا، كنت راقدًا تحت شجرة عندما انتهيت إلى هذه الفكرة واستغرقت فى النوم. وعندما حل المساء وأصبحت الدنيا ظلامًا استيقظت وسمعت ذئبًا يعوى بالقرب منى، وقبل أن أدرك ما أنا فاعل، وجدت نفسى أصيح قائلاً: إلى الجحيم بكل هذا، لا توجد خطيئة ولا توجد فضيلة، لا يوجد إلا ما يصنعه الناس فحسب، وكله من نفس الطينة؛ بعض الأفعال يأتيها الناس بطريقة حسنة، والبعض بطريقة سيئة. هذا هو أقصى ما يحق للإنسان أن يقوله».

ثم توقف عن الكلام ورفع بصره عن راحة يده حيث كان يَصُف الكلمات. كان «جود» ينظر إليه باهتمام مقطبا عينيه الحادتين وقال: «لقد أدركت الأمر، لقد اكتشفت الفكرة».

وتكلم «كيزى» ثانية بصوت ينم عن الألم والاضطراب: «ما هذا الهاتف. هذه الروح؟ وقلت إنه الحب، أنا أحب الناس جدًا حتى أكاد

انفجر فى بعض الأحيان. ثم سألت نفسى، أو لا تحب يسوع؟ حسنًا لقد فكرت كثيرًا وفى النهاية أجبت، لا، أنا أعرف أحدًا بهذا الاسم، يسوع، أنا أعرف عنه مجموعة من الحكايات ولكننى أحب الناس فقط، وفى بعض الأحيان أحبهم لدرجة أن ثديى تمتلئان لبنًا لهم. أريد أن أجعلهم سعداء، وكان على أن أقول فى مواعظى كلامًا يسعدهم. وهكذا صرت أتكلم كثيرًا. وقد تعجب لاستخدامى ألفاظًا سيئة، ولكنها لم تعد كذلك بالنسبة لى، فهى مجرد ألفاظ يتداولها الناس ولا يقصدون بها سوءًا، على أية حال سأخبرك بشىء آخر توصلت إليه، ولكنه بالنسبة لواعظ يعد أبعد ما يمكن عن الدين. ولذا لا يمكننى أن استمر واعظًا لأننى فكرت فيه وأومن بصحته».

فسأل «جود»: «ما هو؟».

فنظر إليه «كيزى» بخجل: «إنها فكرة. إذا فهمتها خطأ فلا تصدها بقسوة، هل يمكنك ذلك؟».

فقال «جود»: «أنا لا أصد شيئًا إلا ضربة موجهة إلى أنفى. ما الذى توصلت إليه».

«لقد فكرت فى الروح القدس، وفى طريق يسوع. فكرت: لماذا نعلق كل شىء على الله ويسوع، ربما كانت الروح هى كل الرجال وكل النساء الذين نحبهم. ربما كانت الروح القدس ـ روح الإنسان ـ هى المصلحة العامة. ربما كانت هناك روح واحدة كبيرة لكل الناس ولكل واحد جزء منها. وقلبت هذه الفكرة طويلاً وفجأة أدركت كل شىء.. وعرفت فى أعماقى أنها الحقيقة، وما زلت أومن بذلك».

وخفض «جود» ناظريه وكأنه لا يقوى على مواجهة نظرات الواعظ المخلصة الجسورة ثم قال:

«إنك لن تستطيع أن تظل فى الكنيسة بمثل هذه الأفكار، سيطردك الناس خارج البلاد. إن الناس تحب التهريج والصراخ فذلك يجعلهم يشعرون كأنهم أكبر مما هم عليه فعلاً، عندما كانت جدتى تبدأ فى الرطن بالألسن لم يكن أحد يستطيع إسكاتها. فقد كانت تستطيع أن تصرع شماسًا يافعًا بقبضة يدها».

وتأمله «كيزى» مليًا ثم قال: «أريد أن أسألك عن شىء يلح على».

«اسأل. فأنا أتكلم أحيانًا».

فقال الواعظ ببطء: «حسنًا.. ها أنت واحد من الذين عمدتهم عندما كنت فى عليقة «قمة» المجد. بضع كلمات عن يسوع قفزت من فمى فى ذلك اليوم، طبعًا أنت لا تذكر ذلك لأنك كنت مشغولاً بشد شعر البنت».

فقال «جود»: «بل أذكر، كانت «سوزى ليتل»، وقد عضت إصبعى فى العام التالى».

«حسنًا. هل عاد عليك العماد بأية فائدة؟ هل تغير سلوكك؟»

وفكر «جود» فى الأمر ثم قال: «لا.. لا يمكننى أن أقول بأننى شعرت بأى شىء».

حسنًا.. هل عاد عليك بضرر؟ فكر جيدًا.

والتقط «جود» زجاجته وأخذ جرعة وقال: «لم يكن فيه شىء، لا ضرر ولا فائدة، مجرد شىء مسل»؛ ثم ناول الزجاجة للواعظ الذى تنهد وشرب، ثم نظر إلى كمية الويسكى المتناقصة قبل أن يأخذ جرعة أخرى صغيرة، وقال:

«هذا حسن، لقد كنت قلقًا من أن أكون قد سببت لأى أحد ضررًا خلال تجوالى».

التفت «جود» إلى معطفه فرأى السلحفاة قد تخلصت من الملابس، وأسرعت تسير فى الاتجاه الذى كانت تسير فيه قبل أن يلتقطها. تأملها لحظة ثم وقف والتقطها ولفها ثانية فى معطفه، وقال: «لم أحضر أى هدايا للأولاد إلا هذه السلحفاة العجوز». فقال الواعظ: «شيء غريب.. لقد كنت أفكر فى «توم جود» الكبير عندما أتيت أنت، كنت أفكر فى أن أذهب إليه، إذ أعتقد أنه رجل غير متدين، كيف حال «توم»؟».

«لا أعرف أحواله، فلم أكن فى البيت طوال أربع سنوات».

«ألم يكتب لك؟»

قال «جود» مرتبكًا: «حسنًا، أبى لا يحب الكتابة، ولا يكتب من أجل الكتابة، يستطيع أن يوقع اسمه جيدًا كأى واحد، يبل طرف قلمه ولكنه لم يكتب خطابات أبدًا. وهو يقول على الدوام إن ما لا يمكن أن يقوله لصاحبه بفمه لا يستحق أن ينحنى لكى يمسك القلم ويكتبه».

فسأله «كيزى»: «أكنت مسافرًا؟»

تأمله«جود» متشككًا وسأله: «ألم تسمع عنى؟ لقد نشرت قصتى فى كل الصحف».

فأجاب: «لا. أبدًا. ماذا؟». وطوح بإحدى ساقيه على الأخرى وانزلق قليلاً فى جلسته مستندًا على الشجرة.

كان وقت العصر يمر مسرعًا وأضواء النهار تزداد ثراء.

قال «جود» فى مرح: «ربما كان من المستحسن أن أخبرك الآن وأنتهى من هذا الموضوع، ولكن إذا كنت لا تزال واعظًا، لن أخبرك. أخاف أن تجعلنى موضوع عظة». ثم أفرغ ما فى الزجاجة وألقاها بعيدًا، وقال، والزجاجة المبططة البنية اللون تنزلق برفق فوق التراب: «لقد كنت فى سجن «ماك أليستر» لمدة أربع سنوات».

واستدار «كيزى» ليواجهه وقد قطب حاجبيه إلى أسفل حتى بدت جبهته المستطيلة أكثر استطالة: «أنت لا تريد الكلام فى هذا الأمر، هه؟ لن أسألك أى أسئلة. إذا كنت قد فعلت شيئًا سيئًا...».

فقال «جود»: «لا يمكن أن أكرر ما فعلته مرة أخرى، قتلت رجلاً فى مشاجرة. كنا سكارى فى حفلة رقص وطعننى بسكين فقتلته بجاروف تصادف وجوده على الأرض. ضربته على رأسه فسحقته».

وعادت حواجب «كيزى» إلى مكانها الطبيعى: «ألست خجلاً من شىء إذًا؟»

فقال «جود»: «لا، لست خجلاً، لقد حكم على بسبع سنوات لأنه طعننى بسكين، وخرجت بعد أربع سنوات بالإفراج الشرطى».

«إذًا فأنت لا تعرف شيئًا عن أسرتك منذ أربع سنوات؟»

«أوه، عرفت. لقد أرسلت لى أمى بطاقة منذ عامين. وفى عيد الميلاد الماضى أرسلت لى جدتى بطاقة. يا يسوع، لقد ضحك عليها الرجال فى عنبر السجن إذ كانت صورة لشجرة وعليها شىء لامع يشبه الثلج وشعر يقول:

عيد ميلاد سعيد يا طفلى الطيب

يسوع وديع، يسوع طيب

تحت شجرة العيد

ستجد هدية لك منى

أعتقد أن جدتى لم تقرأ ما فيها، وربما حصلت عليها من بائع متجول، وانتقت الصورة التى تحتوى على أشياء براقة، وقد كاد الرجال فى عنبرى أن يموتوا من الضحك، أطلقوا عليّ بعدها اسم يسوع الوديع، قطعًا

جدتى لم تقصد أى سخرية، لقد رأت أنها لطيفة ولم تهتم بقراءة ما بها، لقد فقدت نظارتها فى السنة التى ذهبت فيها للسجن، وربما لم تجدها بعد ذلك أبدًا».

وسأله «كيزى»: «كيف كانوا يعاملونكم فى «ماك أليستر؟»

«لا بأس، فأنت تأكل بانتظام وتحصل على ملابس نظيفة وتستحم. فيها جوانب طيبة على العموم، إلا أن عدم وجود النساء هو الذى يجعلها قاسية». ثم ضحك وقال: «كان معنا واحد أفرج عنه بالإفراج الشرطى، وبعد حوالى شهر عاد لخروجه على النظام. وسأله واحد منا لماذا فعل ذلك؟ فقال: حسنًا ليس فى بيت أبى وسائل راحة. ليس لديهم كهرباء ولا حمامات بالدش. ولا توجد كتب، والطعام حقير، وقال إنه عاد إلى حيث يجد بعض وسائل الراحة وحيث يأكل بانتظام، ثم إنه فى الخارج كان يشعر بالوحدة، وأن عليه أن يفكر على الدوام فيما يجب عليه أن يفعله. لذلك سرق سيارة وعاد إلينا». وأخرج «جود» تبغه ودفتر الورق ونفخ منه ورقة بنية اللون لف بها سيجارة وقال: «الفتى على حق، أمس مساء عندما فكرت أين أقضى الليل، جزعت. سرحت أفكارى إلى سرير السجن. ماذا يا ترى يعمل زملائى فى الزنزانة؟ كونا معًا فرقة موسيقية وترية، كانت فرقة جيدة واقترح البعض أن نتقدم إلى الإذاعة، وهذا الصباح ظللت راقدًا لا أعرف فى أى ساعة أنا لكى أنهض، رقدت انتظر الجرس لكى يدق كالعادة».

وقهقه «كيزى» قائلاً: «إذا تعود إنسان أن ينام فى ضجيج ورشة خشب فقد يفتقده إذا بعد عنه».

وأرخى ضوء العصر المترب الأصفر لونًا ذهبيًا على الأرض. بدت أعواد الحنطة ذهبية، وطار فوق رأسيهما سرب من العصافير متجهًا إلى نبع ماء قريب، وبدأت السلحفاة المكبلة فى معطف جود محاولة جديدة

للهرب. وثنى «جود» حافة قلنسوته التى بدأت تتخذ شكل منقار الغراب البارز المقوس، ثم قال: «افتكر لابد أن أسرع الآن، أنا أكره السير فى الشمس ولكنها الآن ليست شديدة». واستجمع «كيزى» نفسه قائلاً: «لم أر «توم الكبير» منذ مدة، كنت أنوى رؤيته على أى حال. كثيرًا ما صليت لأهلك فيما مضى. ولم آخذ منهم تبرعات أبدًا ولا أى شىء ولم أحصل إلا على ما يسد الرمق أحيانًا».

فقال «جود»: «تعال معى، أبى سيسر إذا رآك، لقد كان دائمًا يقول إن لك منخارًا أطول من أن يصلح لواعظ». ثم التقط لفة المعطف وأحكمها بإتقان حول حذائه والسلحفاة.

وجمع «كيزى» شبشبه القماش ودفع بقدميه الحافيتين فيه وقال: «أنا لا أطمئن إلى السير حافيًا مثلك، فأنا أخشى على الدوام من وجود قطع من السلك أو الزجاج فى التراب، إن أبغض ما أبغضه هو منظر الإصبع المجروح».

وترددا قليلاً على حافة الظل ثم اندفعا معًا فى ضوء الشمس الأصفر كأنهما سباحان مسرعان إلى الشاطئ. وبعد بضع خطوات سريعة أبطآ حتى صارت خطواتهما هادئة متأنية. كانت عيدان القمح تلقى ظلالاً رمادية مائلة وقد امتلأ الهواء برائحة التراب الجاف وانتهى حقل الحنطة ليحل محله القطن الأخضر القاتم، كانت الأوراق الخضراء الداكنة يكسوها التراب وقد بدأت اللوزات تظهر. كان القطن متناثرًا كالبقع فى الحقل، كثيفًا فى الأماكن الواطئة حيث تجمع الماء، فى حين تعرت الأماكن العالية منه. وقف النبات يقاوم الشمس الحارة وقد كادت تختفى كلية فى الأفق البعيد. وامتد أمامهما الطريق الترابى متموجًا فى ارتفاع وانخفاض، وانتشرت أشجار الصفصاف على حافة نهر متجه نحو الغرب بينما تناثرت

الأعشاب الجافة على قطعة من أرض بور جهة الشمال الغربى. ودمعت الأعين لكى تحتفظ برطوبتها.

قال «كيزى»: «أترى كيف تستمر الحنطة فى النمو حتى يأتى الغبار؟ إنه فعلاً قاتل المحصول». فقال «جود»: «فى كل عام.. فى كل عام كما أذكر كنا نتوقع محصولاً وفيرًا، ولكن ذلك لم يحدث أبدًا، جدى يقول إن الأرض كانت جيدة فى الخمس زراعات الأولى أيام كان العشب البرى لا يزال فيها». وانحدر الطريق فوق تل صغير وصعد فوق تل آخر.

وقال «كيزى»: «لا يمكن أن يبعد بيت «توم الكبير» بأكثر من ميل من هنا، أليس مكانه هناك عند المرتفع الثالث؟».

فأجاب «جود»: «بالتأكيد.. إلا إذا سرقه أحد كما سرقه أبى من قبل».

«أبوك سرقه؟»

«طبعًا وجده على بعد ميل ونصف شرقًا من هنا، وسحبه، كانت تسكنه إحدى العائلات وتركته وأراد جدى وأبى وأخى «نوح» أن يأخذوا المنزل الخشبى كله. ولكنهم لم يستطيعوا، فأخذوا جزءًا منه فقط. ولهذا يبدو البيت غريبًا من أحد جوانبه. فقد قسموه نصفين وسحبوه بوساطة اثنى عشر رأسًا من الخيل وبغلين وكانوا فى طريقهم لإحضار النصف الثانى ولصقهما معًا، ولكن قبل أن يصلوا إلى هناك كان «ونك مانلى» وأولاده قد جاءوا وسرقوا النصف الآخر. وقد غضب أبى وجدى لذلك كثيرًا، ولكن بعد فترة وجيزة تقابلوا مع «ونك»، وشربوا معًا وضحكوا حتى زال كل شىء من قلوبهم. وقال «ونك» إن منزله فى موسم عشار؛ فإذا ما أحضرنا منزلنا وزوجناهما فمن المحتمل أن نحصل على قطيع من المنازل

الصغيرة. كان «ونك» صديقًا طيبًا حين يشرب. ومنذ ذلك اليوم وهو وأبى وجدى أصدقاء يشربون معًا كلما وجدوا مناسبة لذلك».

وافقه «كيزى» قائلاً: «توم رجل عظيم»، وأسرعت خطاهما مثيرة الغبار وهما يهبطان إلى سفح التل ثم أبطآ ثانية عند صعودهما. ومسح «كيزى» جبهته بكمه ثم ارتدى قبعته المفرطحة ثانية وكرر قوله: «نعم، كان «توم» عظيمًا، وبالنسبة لرجل لا يعرف الله مثله فإنه كان عظيمًا. لقد كنت أراه أحيانًا فى الصلاة عندما تحل عليه الروح قليلاً، عندئذ يقفز قفزات طولها عشر أو اثنتا عشرة قدمًا، ولكنه كان حين يتجرع جرعة كبيرة من الروح القدس فإن عليك أن تفر من أمامه بسرعة قبل أن يوقعك ويدهسك فحينئذ كان يقفز مثل فرس عشار فى حظيرة مغلقة».

كان الهواء الذى يحمل رائحة التراب المحترق جافًا لدرجة جعلت المخاط يجف من الأنوف كالقشرة.

وبلغا قمة المرتفع التالى وانحدرا فى الطريق إلى مجرى مائى قديم. كان كئيبًا وعرًا ممزقًا تقطعه شقوق حديثة على الجانبين. كانت هناك أحجار قليلة فى أماكن العبور. وعبر «جود» المجرى الجاف وهو يسحق بقدميه الحافيتين القشرة الجافة على سطحه، وقال: «أنت تتحدث عن أبى، ربما لم تر عمى «جون» أبدًا. عندما عمدوه فى كنيسة بولك، أخذ يغطس ويقفز، قفز فوق شجيرة فى حجم البيانو وظل يقفز ويتشقلب ويعوى كالكلب الوولف فى ضوء القمر، وشاهده أبى وهو يفعل ذلك وكان يظن فى نفسه أنه أحسن من يقفز باسم يسوع فى هذه الأنحاء، ولذا أتى بشجيرة فى حجم شجيرة عمى مرتين وأطلق صيحة عالية كصيحة خنزيرة تقلبت على قطع من زجاج مكسور، ثم جرى نحو الشجرة وقفز

من فوقها فانكسرت ساقه اليمنى، وذلك ما أخرج الإيمان من أبى. ولقد أراد الواعظ أن يصلى عليها، ولكن أبى رفض مفضلاً أن يراها طبيب، ولم يكن هناك أطباء سوى طبيب أسنان متجول جبرها له ومع ذلك فقد صلى عليها الواعظ».

وجدا فى صعود المرتفع الصغير على الجانب الآخر من مجرى الماء. كانت الشمس مائلة إلى المغيب وقد خفت وطأتها. وبينما كان الهواء لايزال ساخنًا كانت أشعتها الغاربة أقل حرارة. كان السلك المشدود على القوائم المعوجة لا يزال يحد الطريق. وعلى الجانب الأيمن كان هناك خط من الأسلاك يخترق حقل القطن وعلى جانبيه القطن الأخضر المترب جافًا ولونه أخضر داكن.

وأشار «جود» إلى سور قريب وقال: «هذه حدودنا، لسنا فى الحقيقة فى حاجة إلى سور، ولكن كان لدينا السلك وأحب أبى أن يشده على حدنا قائلاً: إن ذلك يجعله يشعر بالأربعين فدانًا. ولو لا أن عمى «جون» قد أتى فى يوم من الأيام بعربته وقد حملها ست لفات من السلك أعطاها لأبى مقابل خنزيرة، لو لا ذلك ما كنا أقمنا هذا السور. لم نعرف أبدًا من أين أتى بالسلك». وأبطآ فى السير وهما يصعدان، يحركان أقدامهما فى التراب الناعم الكثيف متحسسين الأرض وقد غاصت نظرات «جود» فى ذكرياته وبدا كمن يضحك فى سره وقال: «كان عمى «جون» شيطانًا مريدًا، أتعرف ماذا صنع بالخنزيرة التى أخذها؟» وقهقه، واستمر فى سيره. وانتظر «جيم كيزى» بصبر نافد أن يكمل قصته، ولكن مر وقت طويل دون أن يستأنف «جود» القصة، حتى اضطر «كيزى» فى النهاية أن يسأله بانفعال: «ماذا فعل بالخنزيرة؟». «هه.. أوه. حسنًا.. لقد ذبحها على الفور وطلب من أمى أن توقد الفرن وقطع شرائح من لحمها ووضعها فى الطاسة ثم وضع الأضلاع وفخدة منها فى الفرن. وجلس يأكل الشرائح حتى نضجت

الأضلاع، ثم أكل الأضلاع حتى نضجت الفخذة، فمضى يمزقها ويأخذ منها قطعًا كبيرة يقذف بها إلى فمه. وتجمعنا نحن الأطفال حوله نتلمظ، فأعطانا بعضًا مما فى يده، ولكنه لم يعط أبى ولا قطعة. وشيئًا فشيئًا أكل حتى امتلأ وألقى الباقى وذهب إلى النوم. عندئذ أتينا نحن الأطفال وأبى على باقى الفخذة. وعندما أاستيقظ عمى «جون» فى الصباح التالى وضع فخذة أخرى فى الفرن، فسأله أبى: «أتنوى أن تأكل كل هذه الخنزيرة اللعينة؟» فقال: «سأحاول، وإن كنت أخشى أن بعضها سيفسد قبل أن آكله مع أننى مشتاق إلى لحم الخنزير. ربما كان من المستحسن أن تأخذ طبقًا منها وترد لى لفتين من السلك» ولكن أبى لم يكن مغفلاً يا سيدى فلم يكن عليه إلا أن يترك عمى مستمرًا فى أكل الخنزيرة حتى يمرض. وعندما ركب عربته وغادرنا لم يكن قد أكل أكثر من النصف بكثير. وقال أبى «لماذا لا تملحها؟» ولكن عمى «جون» لم يكن من ذلك النوع فإنه عندما يشتهى خنزيرًا.. فإنه يريد خنزيرًا كاملاً، وبعد أن يشبع لا يحب أن يرى لحم خنزير معلقًا حوله، وهكذا ذهب، وملح أبى ما تبقى منها».

قال «كيزى»: «لو أننى ما زلت واعظًا لاتخذت من قصتك هذه درسًا وعظتك به، ولكننى لا أفعل ذلك الآن. أتعرف لماذا فعل عمك ما فعل؟».

فقال «جود»: «لا أعرف.. مجرد أنه كان يشتهى لحم الخنزير، إن مجرد الذكرى تجعلنى أنا أيضًا اشتهيه فلم أحصل إلا على أربع شرائح فى أربع سنوات، واحدة فى كل عيد ميلاد».

فقال «كيزى» بفصاحة: «لعل «توم الكبير» يذبح العجل المسمن من أجل عودة الابن الضال كما جاء فى الكتاب».

فضحك «جود» مفكرًا فى قوله هذا وقال: «أنت لا تعرف أبى، لو أنه

ذبح فرخة لما صاحت الفرخة قدر ما يصيح هو. وهو لا يتعلم أبدًا، على الدوام يربى خنزيرًا لعيد الميلاد ويرفض ذبحه فيموت فى شهر سبتمبر مختنقًا أو بأى سبب آخر بحيث لا تستطيع أن تأكله. أما عمى «جون» فإنه حين يشتهى لحم الخنزير فإنه يحصل عليه ويأكله».

وعبرا منحنى قمة التل، وهناك رأيا منزل «جود» تحتهما، وتوقف «جود» وقال: «ليس كما تركته... انظر إلى ذلك المنزل، شىء ما قد حدث، ليس هناك أحد». ووقف الاثنان يحملقان فى مجموعة المبانى الصغيرة.

الفصل الخامس

جاء ملاك الأرض إلى الأرض، وفى أغلب الأحوال كان الذى يأتى متحدثًا باسمهم. كانوا يجيئون فى سيارات مغلقة ويتحسسون الأرض الجافة بأصابعهم، وأحيانًا كانوا يأتون ببريمات ضخمة لأخذ عينات من التربة ومن أفنية المنازل التى أحرقتها الشمس. ويقف الحائزون يراقبون بقلق حركة السيارات المغلقة بين الحقول. وأخيرًا يدخل الملاك بسياراتهم أفنية البيوت، ويجلسون فى سياراتهم يتكلمون من النوافذ. ويقف الحائزون بجوار السيارات برهة، ثم يقعدون متربعين على الأرض، وتلتقط أيديهم عصيًا يخططون بها على التراب.

وتقف النسوة فى الأبواب المفتوحة ينظرن خارجًا، وخلفهن يقف الأطفال، رؤوسهم فى لون الحنطة، وعيونهم واسعة وكل منهم يضع قدمًا حافية فوق القدم الأخرى، بينما أصابع أقدامهم لا تكف عن الحركة. النسوة والأطفال يرقبون رجالهم وهم يتحدثون إلى الملاك، فى صمت. وبعض مندوبى الملاك ذوو قلب رحيم، لأنه يكره أن يفعل ما يفعله، والبعض غاضب لأنه يكره أن يكون قاسيًا، والبعض بارد الأعصاب لأنه يعرف منذ وقت طويل أنه لكى تكون مالكًا ينبغى أن تكون بارد الأعصاب. وجميعهم كانوا وكأنهم فى قبضة شىء أكبر منهم، البعض يكره الحسابات

التى تسوقهم والبعض يخافها، والبعض يقدس هذه الحسابات لأنهم يجدون فيها ملاذًا من التفكير والإحساس. وعندما يكون مالك الأرض بنكًا أو شركة مالية، فإن مندوب المالك يقول: «البنك ـ أو الشركة ـ تحتاج، تريد، تصر، يجب أن تحصل على...» كأن البنك أو الشركة غول يفكر ويحس، وقد وقعوا فى شراكه. إن المندوبين لا يتحملون أية مسئولية عن البنك أو الشركة. فهم ليسوا إلا رجالاً وعبيدًا، بينما البنوك آلات وسادة فى الوقت نفسه. بعض مندوبى الملاك كان يفخر أنه عبد لهذا السيد القوى البارد الأعصاب. ويجلس المندوبون فى سياراتهم يوضحون الأمر بقولهم: «أنت تعرف أن الأرض ضعيفة، يعلم الله أنك قد فلحتها طويلاً».

ويهز الرجال الحائزون رؤوسهم وهم متربعون على الأرض ويخطون على التراب أشكالاً وخطوطًا. نعم، الله يعلم، وهم يعلمون. فقط لو أن التراب لا يطير فى الهواء، لو استقرت القشرة على الأرض ربما لا يصبح الأمر على هذا القدر من السوء.

ويمضى مندوبو الملاك فى حديثهم إلى الغرض الذى يجيئون من أجله: أنتم تعرفون أن الأرض تزداد ضيقًا، أنتم تعرفون ماذا يفعل القطن بالأرض: يسرقها، يمتص منها كل قطرة من دمائها.

ويهز المتربعون على الأرض رؤوسهم، نعم يعرفون، والله يعرف، لو أنهم فقط يستطيعون أن يوزعوا المحاصيل على مدار السنة، لأمكنهم أن يحقنوا الدماء مرة أخرى إلى الأرض.

حسنًا لقد فات الوقت، ومندوبو الملاك يشرحون أفكار وأعمال الغول الذى هو أقوى منهم جميعًا. يمكن للإنسان أن يحوز الأرض إذا ما استطاع أن يأكل وأن يدفع الضرائب، وهو يستطيع أن يفعل ذلك.

نعم يستطيع أن يفعل ذلك إلى أن تفشل محاصيله يومًا فيضطر إلى اقتراض النقود من البنك.

ولكن.. أنت تعرف.. البنك أو الشركة لا يمكنها أن تفعل هذا، لأن هذه المخلوقات لا تتنفس الهواء ولا تأكل اللحم، إنها تتنفس الأرباح وتتغذى على فوائد النقود، فإذا لم تحصل عليها ماتت كما تموت أنت إذا أصبحت بلا هواء أو لحم، إنه لشيء مؤسف ولكن هذا هو الواقع، هذا هو بالدقة.

ويرفع الرجال المتربعون على الأرض أبصارهم ليفهموا، ألا يمكننا أن نؤجل قليلاً؟ ربما كان العام القادم عامًا طيبًا. يعلم الله كمية القطن فى العام المقبل ومع كل هذه الحروب يعلم الله أى سعر سيعطيه القطن فى العام القادم. وألا يصنعوا المفرقعات من القطن؟ وملابس الجنود؟ قد تأتى حرب وعندئذ سيرتفع سعر القطن إلى السماء. ثم يرفعون رؤوسهم ليروا أثر هذا الكلام.

لا يمكننا الاعتماد على ذلك، البنك.. هذا الغول، لابد له من الربح طول الوقت، لا يمكنه الانتظار، سيموت. لا.. الضرائب شيء آخر.. ولكن الغول يموت إذا توقف عن النمو، لا يمكن أن يظل على ما هو عليه.

وتشرع الأصابع الناعمة تدق على زجاج نوافذ السيارات، بينما تزداد الأصابع الخشنة تشبثًا بالعصى التى ترسم على الأرض بلا توقف. وتتنهد النساء فى مداخل منازل الحائزين التى لوحتها الشمس، ويبدلن أقدامهن ولا تكف الأصابع عن الحركة. وتجيء الكلاب تتشمم سيارات مندوبى الملاك وتبول على الإطارات الأربعة، الواحد بعد الآخر، ويرقد الدجاج فى التراب المشمس، وينفش ريشه حتى يصل التراب إلى جسمه فينظفه. وفى الزرائب الصغيرة تزوم الخنازير متقلبة فى بقايا القاذورات الموحلة.

ويطرق الرجال الجالسون القرفصاء ثانية: ماذا تريدوننا أن نفعل؟ لا يمكن أن نأخذ نصيبًا أقل مما نأخذ من المحاصيل. نكاد نهلك جوعًا، الأطفال جوعى على الدوام، ليس لدينا ملابس، هلاهيل ممزقة، ولولا أن جيراننا كلهم مثلنا لخجلنا من أن نقابلهم بها.

وأخيرًا يصل مندوبو الملاك إلى غرضهم، إن نظام الحيازة لن يستمر بعد ذلك، فرجل واحد على جرار يمكنه أن يحل محل اثنتى عشرة أو أربع عشرة عائلة. ندفع له أجره ونأخذ كل المحصول، لابد أن نفعل ذلك، ليس بودنا ذلك، ولكن الغول مريض، شيء ما حدث له ولكنكم ستقتلون الأرض بالقطن.

نحن نعرف هذا ولكننا نريد القطن بسرعة قبل أن تموت الأرض، ثم نبيعها، فهناك عائلات كثيرة فى الشرق ترغب فى الحصول على قطعة من الأرض. ويرفع الحائزون أبصارهم فى جزع. ولكن ما الذى سيحدث لنا؟ كيف سنحصل على طعامنا؟

لابد أن تخرجوا من الأرض، فستجرى المحاريث فى أفنية الدور.

وهنا ينهض الرجال من على الأرض غاضبين. لقد استولى الجد على الأرض ومن أجل ذلك قتل الهنود الحمر وطردهم. والأب ولد هنا واقتلع الحشائش الضارة وقتل الحيات، ثم جاء عام سيئ واضطر أن يقترض قليلاً من المال، ونحن ولدنا هنا، هناك خلف هذا الباب أطفالنا ولدوا هنا، واضطر الأب إلى اقتراض النقود، حينئذ امتلك البنك الأرض. ولكننا بقينا وكنا نحصل على جزء قليل مما نزرعه.

نحن نعرف هذا.. كل هذا نعرفه. ولكننا لسنا مسئولين. إنه البنك، والبنك ليس كالإنسان، كذلك من يملك خمسين ألف فدان هو أيضًا لا يشبه الإنسان. ذلك هو الغول.

ويصرخ الحائزون، ولكنها أرضنا فعلاً نحن الذين قسناها وحرثناها، نولد عليها ونقتل عليها ونموت عليها، وحتى لو أصبحت أرضًا غير طيبة فإنها أرضنا، ذلك ما يجعلها ملكنا، نولد عليها، ونعمل عليها، ونموت عليها، هذا ما يخلق الملكية لا قطعة من الورق مسطر عليها بضعة أرقام.

آسفون، لسنا نحن المسئولين، إنه الغول، والبنك ليس كالإنسان.

صحيح ولكن البنك مصنوع من الناس.

لا.. أنتم تخطئون فى هذا ـ خطأ كليًا. البنك شيء مختلف عن الرجال، والواقع أن كل من يعملون فى البنوك يكرهون أفعالها، ومع ذلك فالبنك مستمر فى عمله. البنك شيء أكبر من الرجال. قلت لك إنه غول. الرجال صنعوه، ولكنهم لا يستطيعون السيطرة عليه. ويصرخ الحائزون: الجد قتل الهنود والأب قتل الحيات من أجل هذه الأرض، ربما استطعنا أن نقتل البنوك فهى أسوأ من الهنود والحيات، ربما كان علينا أن نحارب من أجل الاحتفاظ بالأرض. كما فعل أجدادنا وآباؤنا.

حينئذ يستشيط مندوبو الملاك غضبًا. لابد أن تغادروا الأرض.

ويصرخ الحائزون.. ولكنها أرضنا، نحن..

لا.. البنك.. الغول.. هو الذى يملكها، لابد أن تغادروا الأرض. سنشهر بنادقنا كما فعل أجدادنا عندما جاء الهنود، فما الذى سيحدث؟

حسنًا، أولاً سيأتى العمدة، ثم قوات الجيش، إذا ما حاولتم البقاء فستكونون كمن يسرق الأرض. فإذا قتلتم أحدًا من أجل البقاء فستصبحون قتلة. والغول ليس من الرجال. ولكنه يستطيع أن يجعل الرجال يتحركون بحسب إرادته.

ولكن إذا تركناها فإلى أين نذهب؟ وكيف نذهب؟ نحن لا نملك نقودًا.

ويقول مندوبو الملاك: آسفون، البنك، ومالك الخمسين ألف فدان، لا يمكن أن يكونا مسئولين عن هذا. أنتم على أرض ليست ملكًا لكم. ربما استطعتم بعد ذلك أن تعملوا فى جمع القطن فى الموسم. ربما أمكنكم الحصول على إعانة عجزة، لم لا تذهبون إلى كاليفورنيا فى الغرب؟ هناك فرص عمل كثيرة، والجو دافئ على الدوام. هناك يمكن للإنسان أن يجد فى أى مكان برتقالة يأكلها، كما توجد محاصيل يتطلب جمعها طول العام.. لم لا تذهبون إلى هناك؟ ويدير مندوبو الملاك سياراتهم وينطلقون بها.

ويتربع الرجال على الأرض ثانية ليخططوا بعصيهم، يتأملون ويتفكرون، وتكفهر وجوههم التى لوحتها الشمس، وتلمع عيونهم التى غشيتها أشعتها، وتخرج النسوة من الأبواب يمشين بهدوء إلى الرجال ومن خلفهم يزحف الأطفال بحذر مستعدين للجرى. ويتربع الصبيان الكبار إلى جوار آبائهم، وذلك يجعل منهم رجالاً. وبعد مدة تسأل النسوة: «ماذا يريدون؟» ويرفع الرجال أبصارهم لحظة ويبدو فى عيونهم لهث ألم دفين. لابد أن نمضى من هنا سيأتى جرار وملاحظ... كالورش...

وتسأل النسوة وإلى أين نذهب؟

لا ندرى.. لا ندرى..

وتسرع النسوة عائدات إلى المنازل وهن يسقن الأطفال أمامهن، فهن يعرفن أن الرجل إذا ما جرح أو اضطرب لهذه الدرجة فإنه ينفجر غاضبًا حتى فى أحب الناس إليه، لذا يتركن الرجال وحدهم، يتأملون ويفكرون وهم يخطون على التراب بعصيهم.

وربما يرفع الحائز بصره بعد فترة وينظر حواليه ـ إلى الطلمبة التى دقها منذ عشر سنوات، وذراعها التى تشبه رقبة الأوزة وميزابها الذى حفرت عليه الزهور، إلى القرمة الخشبية التى ذبح فوقها آلافًا من الدجاج، والمحراث اليدوى الملقى تحت السقيفة وفوقه ما زال المزود سليمًا معلقًا على القوائم.

ويتزاحم الأطفال حول النسوة فى المنازل: ماما. ماذا سنفعل؟ أين سنذهب؟

وتجيب النسوة: لا ندرى بعد، اخرج والعب ولكن لا تقترب من أبيك، فقد يضربك إذا ما اقتربت منه. وتستمر النسوة فى أعمالهن ولكنهن لا يغفلن عن الرجال المتربعين على التراب يفكرون وقد اختلط عليهم الأمر.

وتجئ الجرارات عبر الطرق المختلفة وتقتحم الحقول. زواحف ضخمة تتحرك كالحشرات، ولها نفس القوة الخرافية التى للحشرات. تزحف على الأرض تشق لها طريقًا تجرى فيه وتعبده جرارات «ديزل» تنفث الدخان وهى واقفة وترعد حين تبدأ فى التحرك ثم تهدأ، زمجرة زمجرة خافتة. غيلان فطساء تثير الغبار ثم تدس خراطيمها كالأفيال فى الأرض وتمضى تشق الإقليم فى خطوط مستقيمة، لا توقفها الأسوار ولا الأفنية ولا وديان الأنهار. لم تكن تجرى على الأرض بل على الطرق التى تشقها وهى لا تأبه بالتلال والوهاد والأسوار والمنازل ومجارى المياه.

لم يكن الرجل الجالس فى المقعد الحديدى يشبه الرجل العادى، إنه يرتدى قفازات، ونظارات وقناعًا مطاطًا واقيًا من الغبار، يغطى الأنف والفم، مجرد جزء من الغول. إنسان آلى يجلس على المقعد. ويتردد هدير المحركات فى المزارع ممتزجًا بالهواء والتراب، ويردد الجو والأرض

أصداءه إلى بعيد. لا يستطيع السائق أن يحكمها، تمضى عبر الأراضى فى استقامة تخترق عشرات من المزارع ثم تكر راجعة، لمسة واحدة لأجهزة التوجيه تكفى لكى ينجرف الجرار، ولكن يدى السائق لا تستطيعان ذلك، لأن الغول الذى بنى الجرار والذى بعث به إلى هنا استطاع بوسيلة ما أن يتملك يدى السائق وعقله، وعضلاته، عصّبه وكمّمه، غمّم عقله، وكمّم لسانه، غمّم أحاسيسه، وكمّم إرادته. إنه لا يستطيع أن يرى الأرض على حقيقتها ولا أن يشم رائحتها، لم تنطبع أقدامه على أديم الأرض ولا أحست بدفئها وقوتها. يجلس فى مقعد حديدى ويضغط على دواسات حديدية، وليس فى مقدور هذا السائق أن يشجع الجرار أو يلعنه أو يزجره أو يستحثه على أن يزيد من قوته. وهو لهذا لا يستطيع أن يفرح أو يلعن أو يزجر أو يستحث نفسه أو يشجعها. إنه لا يعرف الأرض ولا يثق بها، ولا يملكها، ولا يتضرع إليها، ولا يعنيه ألا تثمر بذرة، وإذا أهلك الجفاف النبت، أو أغرقه السيل فإن ذلك لا يعنى السائق أكثر مما يعنى الجرار.

إنه لا يحب الأرض أكثر من حب البنك لها، قد يحب الجرار بآلاته الكثيرة، وعجيب قوته وزمجرة محركاته، ولكنه لا يملكه. الجرار يسحب خلفه المحاريث اللامعة تشق الأرض بأسلحتها، ليس هذا حرثًا بل جراحة تدفع الأرض المجروحة إلى اليمين فيشقها الصف الثانى من المحاريث ويدفعها إلى اليسار، وتزداد أسلحة المحاريث بريقًا تصقلها كتل التربة المقلوبة. وتأتى خلف المحاريث مسالف تمشط الأرض بأسنانها الحديدية، تفتت الكتل الصغيرة وتسوى الأرض فى نعومة. وخلف الأمشاط تأتى البدارات الطويلة، اثنا عشر قضيبًا حديديًا، انتصبت فى صندوقها، شبق تنظمه الآلة، واغتصاب منظم، اغتصاب بلا عاطفة. والسائق يجلس فى مقعده الحديدى فخورًا بخطوط مستقيمة لم تكن من إرادته، وبجرار لا يملكه ولا يحبه. فخورًا بقوة لا يستطيع السيطرة عليها.

وعندما ينمو المحصول ويتم الحصاد. فلن يمسك إنسان بقطعة دافئة من طين الأرض، ويترك ترابها ينساب بين أصابعه، البذرة لم يمسها إنسان، ولم يتلهف على نموها أحد، الناس تأكل ما لم تزرع وليس ثمة ما يربطها بخبزها، والأرض تئن تحت الحديد، وتحت الحديد تموت ببطء، لأن أحدًا لم يحبها أو يكرهها، ولا صلى من أجلها أو لعنها.

وعند الظهيرة يتوقف سائق الجرار قليلاً بالقرب من منزل أحد الحائزين ويبسط غذاءه: سندويتشات ملفوفة فى ورق مشمع، خبز أبيض، طرشى، جبن، ولحم خنزير محفوظ، وقطعة من فطيرة منتظمة الشكل، كأنها من قطع غيار الآلات. ويجلس ليأكل بلا حماس. حينئذ يخرج بعض الحائزين الذين ما زالوا فى ديارهم، يخرجون ليتفرجوا عليه، يرمقونه بفضول عندما ينزع نظارتيه وقناع الغبار، فتبدو الدوائر بيضاء حول العينين ودائرة بيضاء كبيرة حول الأنف والفم. وتظل ماسورة العادم تنفث دخانها. فالوقود رخيص، ومن الأفضل أن تظل الآلة دون توقف بدلاً من تسخين محرك «الديزل» لكى يدور من جديد. ويقترب بعض الأطفال الفضوليين فى هلاهيلهم يأكلون خبزًا جافًا، وهم يرمقون السائق. يرمقونه بنظرات جائعة وهو ينزع عن الساندويتشات ورقها، وتشم أنوفهم التى زادها الجوع حسًا، تشم رائحة الطرشى والجبنة ولحم الخنزير المحفوظ، لا يتحدثون إلى السائق وإنما يراقبون يده وهى تحمل الطعام إلى فمه، ثم لا يرونه وهو يمضغ إذ تعود عيونهم مع اليد التى تمسك بالساندويتش. وبعد فترة يخرج الحائز الذى لم يتمكن من مغادرة المكان ويتربع فى ظل الجرار ويقول: «الله. أنت ابن «جود يفز»؟».

فيقول السائق: «فعلاً».

«لماذا تقوم إذًا بهذا العمل ـ ضد أهلك أنفسهم».

«ثلاثة دولارات فى اليوم، قرفت من الزحف على بطنى من أجل عشائى، ثم لا أحصل عليه، وعندى زوجة وأطفال ولابد لنا أن نأكل. ثلاثة دولارات فى اليوم ومضمونة كل يوم».

فيقول الحائز: «هذا صحيح ولكن مقابل دولاراتك الثلاثة فى اليوم لا يمكن لخمس عشرة أو عشرين عائلة أن تأكل على الإطلاق. حوالى مائة من الناس يضطرون إلى مغادرة الأرض والتجول فى الطرقات مقابل دولاراتك الثلاثة هذه، أهذا حق؟»

يقول السائق: «لا يمكننى التفكير فى هذا. لابد أن أفكر فى أبنائى أنا. ثلاثة دولارات فى اليوم، ومضمونة كل يوم. والزمن يتغير يا سيدى. ألا تعرف هذا؟ لا يمكن للإنسان أن يعيش من الأرض إلا إذا امتلك ألفين أو خمسة آلاف أو عشرة آلاف فدان وجرارًا. لم تعد أراضى الزراعة للصغار من أمثالنا. أنت لا تولول محتجًا حين لا تملك سيارات «فورد» وحين لا تملك شركة تليفونات، الأمر هكذا مع المحاصيل أيضًا. ليس بيدك شىء. والأفضل أن تحاول الحصول على ثلاثة دولارات يوميًا فى أى مكان، هذا هو الحل الوحيد».

فيقول الحائز متأملاً: «غريب هذا الأمر، إن الرجل حين يملك ملكية صغيرة فإنها تصبح الرجل نفسه، تصبح جزءًا منه، وتشبهه، إذا ما امتلك الإنسان أرضا فإنه يستطيع أن يمشى فوق ممتلكاته وأن يتصرف فيها. يحزن إن لم تكن على ما يرام، ويفرح حين يهطل عليها المطر، هذه الممتلكات هى الرجل نفسه، وبشكل ما، يصبح الرجل كبيرًا لأنه يملكها حتى إن لم يكن ناجحًا فإنه كبير بملكيته، هذا هو الواقع».

ثم يضيف الحائز بعد مزيد من التأمل: «ولكن إن امتلك رجل ملكية لا يمكن أن يراها، أو لا يجد لديه الوقت لكى يعمل يديه فيها، ولا يمكنه

أن يأتى إليها ويمشى عليها، حينئذ تصبح الملكية هى الرجل، لا يمكنه أن يفعل ما يريد، ولا أن يفكر فيما يريد. تصبح الملكية هى الرجل، أقوى منه ويصبح هو صغيرًا وليس كبيرًا، ممتلكاته فقط هى الكبيرة وهو خادم لهذه الممتلكات، هذا هو الواقع أيضًا».

ويقضم السائق فطيرته اللامعة ويرمى الغشاء بعيدًا ويقول: «لقد تغير الزمن، ألا تعرف هذا؟ إن التفكير فى الأمور على هذه الطريقة لن يطعم الأطفال. فلتحصل على دولاراتك الثلاثة فى اليوم وأطعم أطفالك، ليس لك أن تقلق بشأن أطفال الآخرين، أهتم بأطفالك أنت، إن حديثك هذا سيجعل لك سمعة لا تستطيع بها أن تحصل على الثلاثة دولارات. إن أولى الأمر لنْ يعطوك الدولارات الثلاثة إذا اهتممت بأى شىء آخر غيرها».

«هناك مائة تقريبًا على الطريق من أجل دولاراتك الثلاثة، أين سنذهب؟»،

يقول السائق: «فكرتنى، الأفضل أن تمضى بسرعة، فسأخترق الفناء بعد الغداء».

«لقد ردمت البئر هذا الصباح».

«عارف، لابد أن أسير فى خط مستقيم، ولكنى سأدخل فى الفناء بعد الغداء، لابد أن تظل الخطوط مستقيمة. ثم، أنت تعرف «جود جريفز» أبى، ولهذا سأحيطك علمًا بأننى لدى أوامر أنه حيثما توجد عائلة لم تترك المكان بعد، وواجهت أى حادثة، على أن اقترب من المنزل وأقوض جزءًا منه. فى هذ الحالة قد أتقاضى دولارين زيادة. وأصغر أبنائى لم يحصل أبدًا على حذاء».

«لقد بنيته بيدى، استعدلت المسامير القديمة لأثبت بها غطاء السقف، وربطت العوارض فى قوائم السقف بالسلك، إنه ملكى، أنا الذى بنيته،

وأنت تريد أن تقوضه.. سأقف فى النافذة ومعى بندقيتى فإذا ما اقتربت من المنزل فسأقتلك كالأرنب».

«لست أنا المسئول، ولا يمكننى أن أفعل شيئًا، وسأفقد عملى إن لم أفعل ما أمرت به، ثم افترض أنك قتلتنى، كل ما هناك أنهم سيشنقونك، ولكن قبل أن تشنق بوقت طويل سيقود هذا الجرار رجل آخر وسيقوض المنزل، أنت لو قتلتنى فلن تقتل الرجل المناسب».

فيقول الحائز: «فعلاً.. من الذى أمرك بهذا؟ سأطارده، فهو الذى يستحق القتل».

«أنت مخطئ، فهو الآخر يتلقى أوامره من البنك، البنك قال له اطرد هؤلاء الناس أو تطرد أنت من عملك».

«حسنًا هناك رئيس لهذا البنك، هناك مجلس مديرين، وسأعبئ خزانة بندقيتى واقتحم البنك».

فيقول السائق: «قال لى صديق إن البنك تلقى أوامره من الشرق، والأوامر تقول اجعلوا الأرض تدر ربحًا وإلا أغلقناكم».

«ولكن أين ينتهى هذا؟ من الذى يمكن أن تطلق عليه النار؟ لست أحب أن أموت جوعًا قبل أن أقتل الرجل الذى أهلكنى جوعًا».

«لست أعرف، ربما لم يكن هناك أحد يمكن أن تطلق عليه النار، ربما لم يكن هناك رجال على الإطلاق. ربما كان الأمر كما قلت، والملكية هى التى تفعل هذا، على أى حال لقد عرفتك أوامرى».

ويقول الحائز: «أنا محتاج للتفكير، كلنا محتاج للتفكير، لابد أن هناك طريقة لوقف هذا، فهو ليس كالزلزال والصواعق. لدينا شىء سيئ من صنع الإنسان وهذا والله شىء يمكن تغييره». ويجلس الحائز على باب

منزله ويدير السائق ماكينته ويبدأ عمله فترعد وهى تمضى بعيدًا، تشق الخطوط، والأمشاط تمشط الأرض، وقضبان البدارة تنزلق فى باطنها ويخترق الجرار الفناء الخارجى، وتتحول الأرض الصلبة المدكوكة إلى حقل مبذور، ويمر ثانية وتبقى مساحة عرضها، عشر أقدام دون تقليب، ثم يعود ثانية ويصطدم «الإكصدام» بركن المنزل مقوضًا الحائط، ويترنح المنزل الصغير من فوق أساسه وينهار جانبًا مسحوقًا.

ويجلس الحائز «للأرض» عند باب منزله ويدير السائق ماكينته ويبدأ عمله فترعد وهى تمضى بعيدًا، تشق الخطوط، والأمشاط تمشط الأرض، وقضبان البدارة تنزلق فى باطنها.

كأنه بقة، ويظل السائق مرتديًا نظاراته وفوق أنفه وفمه كمامة من المطاط ويشق الجرار خطًا مستقيمًا وتردد الأرض والهواء صداه، ويحملق فيه الحائز وبندقيته فى يده، وزوجته تقف إلى جانبه، ومن خلفهما يقف الأطفال صامتين، والجميع يحملقون خلف الجرار.

الفصل السادس

وقف القس «كيزى» و«توم الصغير» فوق التل ينظران إلى منزل عائلة «جود». كان المنزل الصغير العارى من الطلاء قد سقط أحد أركانه ونزع من أساساته حتى مال على جنبه، بحيث أصبحت نوافذه الأمامية كعيون الأعمى تنظر إلى بقعة ما فى السماء فوق الأفق. لم تعد هناك أسوار، ونمت شجيرات القطن فى الفناء وأمام المنزل، وامتدت حتى مخزن الحظيرة. رقد البناء على جنبه ونما القطن ملاصقًا له. كانت أرض الفناء التى دكتها أقدام الأطفال العارية ووطء حوافر الجياد وعجلات العربات الكبيرة، قد أصبحت أرضًا محروثة، ونمت فيها شجيرات القطن الخضراء الداكنة. وحملق «توم الصغير» طويلاً فى الصفصافة المهشمة بجوار الحوض الجاف الذى كانت تشرب منه الجياد، وفى القاعدة الخرسانية حيث كانت المضخة. ثم قال أخيرًا: «يا يسوع لابد أن نار جهنم قد انصبت هنا، لا أحد يقيم هنا». وأخيرًا هبط التل مسرعًا وتبعه «كيزى». أطل داخل الحظيرة فوجدها مهجورة لا شىء إلا بعض القش فوق الأرض ومربط البغل فى ركنها، وحين أطل فى داخلها لاحظ حركة سريعة، واختفت عائلة من الفئران بسرعة تحت القش، وتريث «جود» عند مدخل سقيفة العدد والآلات وانحنى يتفحصها، لم تكن هناك أية أدوات طرف محراث

مكسور، وخليط من سلوك متشابكة فى ركن المخزن، وعجلة نورج حديدية، ورقبية بغل قرضتها الفيران، وصفيحة بترول فارغة مبططة ملطخة بالزيت والطين، وزوج من «العفريتات» الممزقة معلقة فى مسمار. وقال «جود»: «لم يتبق أى شىء، كان لدينا أدوات جيدة، ولكن لم يتبق منها شىء». فقال «كيزى»: «لو أننى ما زلت واعظًا لقلت إن يد الله قد خربت هذا المكان، أما الآن فلست أعرف ما حدث. لم أكن هنا، ولم أسمع عن أى شىء» واتجها ناحية فتحة البئر الخرسانية مخترقين أشجار القطن، كانت اللوزات بدأت تثمر والأرض كانت معزوقة.

قال «جود»: «لم نزرع شيئًا فى هذا المكان أبدًا، حافظنا عليه بلا زرع على الدوام. إنك لن تستطيع أن تدخل حصانًا إلى هنا الآن دون أن يطأ القطن» وتوقفا عند المسقى الجاف، وقد اختفت الأعشاب التى كانت تنمو عادة حوله، وتشقق من الجفاف خشبه القديم السميك. وحول فتحة البئر تناثرت الأحزمة التى كانت تربط المضخة وقد علا الصدأ سلوكها وضاعت صواميلها، ونظر «جود» فى البئر وبصق، ثم أنصت. وأخذ قطعة طين جافة وألقى بها فى البئر ثم أنصت. وأخيرًا قال: «كانت بئرًا جيدة، لا يمكننى أن أسمع صوت الماء» وبدا كمن يخشى الذهاب إلى المنزل، وأخذ يسقط قطع الطين الجاف، فى البئر الواحدة بعد الأخرى «ربما ماتوا كلهم ولكن أحدهم كان سيخبرنى حتمًا، كانت ستصلنى أية أخبار على أى حال».

«ربما تركوا رسالة أو ما شابه ذلك فى داخل المنزل. هل كانوا يعرفون أنك ستخرج؟»

فقال «جود»: «لا أعرف، لا.. لا أعتقد، لم أكن أنا نفسى أعرف منذ أسبوع واحد».

«دعنا نشاهد المنزل من الداخل، لم يعد كما كان، وكأن شيئًا قد صب جهنم فيه» وسارا ببطء فى اتجاه المنزل المنهار. كان سقف المدخل الخارجى قد نزع من تحته قائمين من قوائمه فانهار من أحد جوانبه. كما كان أحد أركان المنزل مهشمًا إلى الداخل، وقد أمكن رؤية الغرفة الواقعة خلفه من شظايا الخشب المتناثرة. وقد انفتح الباب الأمامى إلى الداخل بينما انفتحت إلى الخارج بوابة منخفضة معلقة فى إطار الباب الأمامى بمفاصل جلدية. ووقف «جود» على العتبة التى كانت كتلة خشبية مربعة وقال: «هنا عتبة الباب، ولكنهم إما ذهبوا أو أن أمى قد ماتت». وأشار إلى البوابة الواطئة فى الباب الأمامى وقال: «لو أن أمى كانت فى أى مكان قريب من هنا لكانت هذه البوابة مغلقة بالترباس الآن، هذا ما كانت تفعله على الدوام، هذه البوابة كانت مغلقة على الدوام» وامتلأت عيناه انفعالاً واستطرد قائلاً: «منذ أن دخل الخنزير وأكل «جاكوب الصغير» كانت «ميلى جاكوب» قد ذهبت لتوها إلى الزريبة، وعندما عادت كان الخنزير لا يزال يأكل صغيرها، ولما كانت «مسز جاكوب» حاملاً، فقد أخذت تخطرف ولم تشف من هذه الحالة أبدًا. جنت منذ تلك اللحظة. ولكن أمى قد أخذت عبرة مما حدث وهكذا لم تترك بوابة الخنازير مفتوحة أبدًا إلا إذا كانت هى نفسها داخل المنزل. لم تنس ذلك أبدًا. لا.. لقد ذهبوا.. أو ماتوا».

وتسلق المدخل الخارجى المحطم ونظر فى داخل المطبخ. كانت النوافذ مهشمة وقد تناثرت على الأرض أحجار صغيرة ملقاة، وقد مالت الأرض والجدران بشدة بعيدًا عن الباب، وغطى التراب كل العوارض الخشبية. وأشار «جود» إلى الزجاج المكسور والأحجار وقال: «عيال.. يمشون عشرين ميلاً لكى يحطموا نافذة، أنا فعلت هذا، حين كان يخلو منزل فهم يعرفون، إنهم يعرفون، هذا هو أول شىء يفعله الأولاد حين

يهجر المنزل أهله» كان المطبخ خاليًا من الأثاث، وقد اختفى الفرن وبدا الضوء واضحًا من خلال فتحة مدخنته المستديرة، وعلى الرف بجوار حوض الغسيل كانت فتاحة بيرة قديمة وشوكة مكسورة بلا مقبض خشبى. ودلف «جود» بحذر إلى الغرفة، فأنّت الأرضية تحت ثقله. كانت هناك نسخة قديمة من جريدة «فيلادلفيا لدجر» على الأرض وقد اصفرت أوراقها وانثنت أطرافها. ونظر «جود» فى داخل غرفة النوم، لم يكن هناك سرير ولا كراسى ولا أى شىء، وعلى الحائط كانت هناك صورة ملونة لفتاة هندية بعنوان الجناح الأحمر: «رد ونج» كما كان هناك لوح من ألواح السرير مسندًا إلى الحائط وعلى الأرض حذاء نسائى بكعب عال، وقد التوت مقدمته وانكسر منتصفه، فالتقطه «جود» ونظر إليه ثم قال: «أنا أذكر هذا، إنه حذاء أمى، ولكنه تهرأ تمامًا الآن. كانت أمى تحب هذا الحذاء فقد ظل لديها لسنوات. لا.. لقد رحلوا وأخذوا كل شىء معهم».

كانت الشمس فى مغيبها قد انحدرت حتى دخلت أشعتها من النوافذ المائلة، ولمعت على أطراف الزجاج المتكسر. وأخيرًا استدار «جود» خارجًا وعبر المدخل الخارجى، وجلس على حافته وأراح قدميه على العتبة المربعة، وانتشرت أضواء الأصيل على الحقول وألقت عيدان القطن ظلالها الطويلة على الأرض كما ألقت شجرة الصفصاف العارية ظلاً طويلاً كذلك.

وجلس «كيزى» بجوار «جود» وسأله: «ألم يكتبوا لك أبدًا عن أى شىء؟»

«لا.. كما قلت لك لم يكونوا أهل كتابة، أبى يستطيع الكتابة ولكنه لا يكتب، لا يحب ذلك، فالكتابة تبعث فيه الرعدة. فى إمكانه أن يقوم بتنفيذ أى أمر شغل كأحسن ما يمكن أن ينفذه إنسان آخر، ولكنه لا يكتب خطابات للآخرين».

وجلسا متجاورين يحملقان فى الفراغ، ووضع «جود» معطفه الملفوف فى المدخل الخارجى بجواره، ولف بيديه الطليقتين سيجارة وسواها وأشعلها وأخذ نفسًا عميقًا ونفث الدخان من منخاريه وقال: «شىء ما على غير ما يرام، ولا أستطيع أن أضع يدى عليه. إن قلبى يأكلنى ويحدثنى بأن شيئًا أسوأ من الجحيم قد حدث، لا مجرد أن هذا البيت قد أزيح من مكانه وأن أهله قد هجروه».

قال «كيزى»: «هناك بالضبط كان حوض العماد عندما عمدتك، لم تكن شريرًا ولكنك كنت فظًا، وتعلقت بشعر تلك الفتاة كالكلب وقد عمدنا كما باسم الروح القدس وأنت لا تزال متعلقًا بها. فقال «توم الكبير» غطسه فى الماء. فدفعت برأسك تحت الماء حتى بدأت تشرق قبل أن تترك شعر تلك الفتاة، لم تكن شريرا ولكنك كنت فظًا، وفى بعض الأحيان يشب الفتى الفظ وفى قلبه قدر كبير من الإيمان».

ومن الزريبة جاءت قطة نحيفة تتمسح. زحفت بين أشجار القطن حتى حافة المدخل الخارجى، فقفزت إليه فى صمت وزحفت على بطنها نحو الرجلين حتى جاءت إلى موضع بين الاثنين وخلفهما، وجلست وقد مدت ذيلها مستقيمًا فوق الأرض يهتز منه الطرف الأخير فقط، وجلست القطة تنظر فى الفراغ حيث كان الرجلان ينظران.

والتفت «جود» إليها وقال: «يا إلهى، انظر من هنا، ما يزال البعض هنا». مد يده ولكن القطة قفزت بعيدة عن متناولها، وجلست تلعق راحة مخالبها المشرعة، ونظر «جود» إليها وقد بدت على وجهه الحيرة ثم صاح: «لقد عرفت ما حدث؛ هذه القطة هدتنى إلى ما وقع من سوء».

فقال «كيزى»: «يبدو لى أن هناك كثيرًا من السوء».

«لا.. ليس الأمر مقصورًا على هذا المكان فقط، لماذا لم تذهب هذه القطة إلى الجيران؟ إلى عائلة رانس مثلاً؟ لماذا لم يأت أحد لكى يأخذ

أنقاض هذا المنزل؟ لم يكن أحد هنا منذ ثلاثة شهور أو أربعة شهور، ومع ذلك لم يأت أحد ليسرق الأخشاب. إن سقيفة الحظيرة بها عوارض فى حالة جيدة، هناك كثير منها فى هذا المنزل، شراعات النوافذ لم يأخذها أحد. لا.. ليس هذا معقولاً.. هذا ما كان يشغلنى، ولم يكن فى إمكانى إدراكه».

وانزلق «كيزى» فى جلسته وخلع شبشبه وطقطق أصابع أقدامه الطويلة على العتبة وسأله: «وما الذى فهمته من هذا كله؟».

«لا أعرف، ولكن يبدو أنه لا يوجد أى جيران هنا، لأنهم لو كانوا موجودين لما بقيت هذه الألواح الخشبية الجيدة فى مكانها. لماذا بحق يسوع! لقد حدث مرة أن ذهب ألبرت رانس مع عائلته وكلابه والجميع إلى مدينة أوكلاهوما فى أحد أعياد الميلاد. كانوا فى زيارة لأحد أبناء عمومة ألبرت، ومع ذلك فقد ظن الناس هنا أن ألبرت قد ذهب دون كلمة، وظنوا أنه ربما كان مدينًا، أو أن امرأة تطارده. وحين عاد إلى البيوت بعد أسبوع لم يجد شيئًا فى المنزل، اختفى الفرن والفراش وشراعات النوافذ بالإضافة إلى ثمانى أقدام من الألواح الخشبية، نزعت من الجانب الجنوبى للمنزل حتى صار ممكنًا أن ترى ما فى داخل المنزل من خلالها. وحين حضر ألبرت راكبًا إلى منزله كان «مولى جريفن» قد غادر المنزل لتوه يحمل الأبواب ومضخة البئر. وقد أمضى ألبرت أسبوعين وهو يدور على جيرانه قبل أن يستعيد ممتلكاته ثانية».

وحك «كيزى» أصابع قدميه فى استرخاء وسأل: «ألم يجادل أحد فى ذلك؟ أم هل اكتفى الجميع بإعادة ما أخذوه؟»

«طبعًا، فلم تكن فى نيتهم سرقتها، لقد ظنوا أنه تركها ولذا أخذوها. لقد استرجعها كلها إلا مخدة من القطيفة عليها صورة هندى أحمر. ولقد ادعى

ألبرت أن جدى هو الذى أخذها، وقال إن جدى تجرى فى عروقه دماء الهنود الحمر، وهو لهذا يريد هذه الصورة، والحقيقة أن جدى أخذها فعلاً ولكنه لم يكن يهتم على الإطلاق بالصورة المرسومة عليها، لقد أعجب بها فقط واعتاد أن يحملها معه على الدوام ويضعها حيثما يجلس، ولم يكن ليعيدها أبدًا لألبرت، وكان يقول: إذا كان ألبرت فى حاجة شديدة لهذه المخدة دعه يأتى ويأخذها، ولكن يستحسن أن يأتى مسلحًا لأننى سأطيح برأسه القذر إذا ما أتى يتمحك فى مخدتى. وهكذا اضطر ألبرت فى النهاية إلى التنازل عن المخدة واعتبرها هدية لجدى. وكانت هذه المخدة مصدرًا لأفكار جديدة عند جدى، فقد بدأ يحتفظ بريش الدجاج ويقول إنه سيصنع فراشًا كاملاً من الريش. ولكنه لم يحقق ذلك أبدًا، فقد حدث مرة أن جن أبى من رائحة ظربان كريهة تحت المنزل فضربه بمنفضة فأخرج رائحته الكريهة، وكان لابد أن تحرق أمى كل الريش الذى احتفظ به جدى لكى يمكننا أن نبقى فى المنزل». وضحك مستطردًا: «جدى ابن حرام عنيد، كان يجلس على المخدة ويقول: فليأت ألبرت ليأخذها فسأشق هذا البغل نصفين كزوج من السراويل».

واقتربت القطة زاحفة بين الرجلين ثانية، وقد تمدد ذيلها على الأرض بينما تنتفض أذناها بين حين وآخر. ومالت الشمس نحو الأفق، وتلون الجو المغبر بلون أحمر ذهبى ومدت القطة مخلبًا رماديًا تتفحص به معطف «جود». وعندما التفت إليها «جود» صاح: «يا للجحيم لقد نسيت السلحفاة، لست أنوى لفها إلى الأبد». وأخرج السلحفاة من لفتها ودفع بها أسفل المنزل ولكنها عادت بعد لحظة ورأسها متجه نحو الجنوب الغربى كما كانت منذ البداية، وقفزت القطة ناحيتها وضربت رأسها المتطلع، وخربشت قدمها المتحركة فانسحب إلى الداخل ذلك الرأس الصلب القادر على التكيف، وصفق ذيلها داخل الصدفة، وعندما تعبت

القطة من انتظارها وذهبت بعيدًا عنها، استأنفت السلحفاة طريقها نحو الجنوب الغربى ثانية.

راقب «توم جود الصغير» والواعظ، السلحفاة وهى تمضى محركة أرجلها وتنقل صدفتها الثقيلة التى تشبه القبة فى اتجاه الجنوب الغربى. زحفت القطة وراءها مسافة ولكن بعد بضع ياردات قوست ظهرها فى قوس مشدود ثم تثاءبت وكرت عائدة بخطوات متلصصة ناحية الرجلين الجالسين.

قال «جود»: «إلى أى مصيبة تعتقد أنها ستذهب؟ طول عمرى أشاهد السلاحف وهى على الدوام ذاهبة إلى مكان ما، يبدو عليها على الدوام أنها تريد الوصول إليه» وجلست القطة بينهما وخلفهما ثانية، ورمشت جفونها ببطء ثم تقلص جلد كتفيها من قرصة برغوث، وعاد إلى مكانه ببطء. ورفعت القطة مخلبًا وتفحصته وأخرجت مخالبها وأدخلتها كأنها تجربها، ولعقت راحتها بلسان وردى خشن. ومس قرص الشمس الأحمر حافة الأفق وتفرطح كأنه قنديل البحر، وبدت الشمس فوقه أكثر لمعانًا وحيوية مما كانت وأخرج «جود» حذاءه الأصفر الجديد من معطفه ومسح قدميه المتربتين بيده قبل أن يدخلهما فى الحذاء.

وقال الواعظ وهو يحلق عبر الحقول: «انظر! هناك شخص قادم، بين أشجار القطن» ونظر «جود» إلى حيث يشير «كيزى» بإصبعه قال: «سائر على قدميه، لا يمكننى رؤيته بسبب الغبار الذى يثيره، من بحق جهنم يجىء إلى هنا؟» وظلا يرقبان القادم وهو يقترب فى ضوء الغسق والشمس الغاربة تصبغ الغبار الذى يثيره باللون الأحمر. وقال «جود»: «إنه رجل». واقترب الرجل أكثر فأكثر، وعندما كان يعبر الحظيرة قال «جود»: «ولكننى أعرفه، وأنت تعرفه ـ إنه «مولى جريفز»، ثم صاح مناديًا: «هاى «مولى»... كيف حالك؟».

وتوقف القادم وقد فاجأه النداء ثم أتى مسرعًا. كان رجلاً نحيفًا يميل للقصر ويتحرك في سرعة وعصبية. يحمل كيسًا من الخيش في يده وقد حال لون بنطلونه الأزرق من فوق الركبتين والمقعدين، وكان يرتدى جاكتة بذلة، سوداء مبقعة وملطخة وقد تفتقت الأكمام عن الأكتاف من ظهرها وتهرأت من فوق المرفقين إلى ثقبين كبيرين مهلهلين. ولم تكن قبعته تقل قذارة عن الجاكتة وقد انحل شريطها وتأرجح إلى أعلى وأسفل كلما مشى. كان وجهه أملس خاليًا من التجاعيد وإن اكتسى بنظرة شرسة لطفل شرير، الفم صغير ومضموم، وعيناه الصغيرتان نصف عابسة ونصف مشاكسة.

وقال «جود» للواعظ بصوت خافت: «أتذكر مولى؟».

وصاح القادم قائلاً: «من هناك؟» ولم يجب «جود»، واقترب «مولى»، واقترب كثيرًا قبل أن يتبين الوجوه ثم قال: «ملعون أنا لو لم يكن هذا هو «توم جود»، متى خرجت يا «توم»؟».

فقال «جود»: «منذ يومين، وتطلب الوصول إلى المنزل بعض الوقت بركوب السيارات العابرة، ثم ماذا وجدت هنا؟ أين أهلي يا مولى؟ ما الذى هشم المنزل بهذا الشكل، من الذى زرع القطن فى فناء الدار؟».

فقال «مولى»: «يا إلهى، من حسن الحظ أننى مررت هنا، فقد كان «توم الكبير» قلقًا. وعندما كانوا يدبرون أمر مغادرتهم المنزل كنت جالسًا فى المطبخ هناك وقلت لـ «توم» والله لن أذهب. عندئذ قال «توم» أنا مشغول على ابنى، افرض أنه عاد ولم يجد أحدًا، ماذا سيظن؟. وقلت، لماذا لا تكتب له خطابًا؟ فقال «توم» ربما أفعل ذلك وسأفكر فى الأمر، ولكن إن لم أكتب، فعليك أنت إذا كنت ستبقى فى هذه الأنحاء أن تبحث عن «توم». فقلت سأظل هنا حتى تتجمد جهنم من الصقيع!! لا يوجد من

يستطيع أن يخرجنى، أو من يمحو اسم «جريفز» من هذه الأنحاء، وهم لن يستطيعوا ذلك».

فقال «جود» بصبر نافد: «أين ذهب أهلى؟ ستتكلم عن صمودك ضدهم فيما بعد.. ولكن أين هم أهلى؟»».

«حسنًا، لقد كانوا بصدد توسيع هذه الأرض عندما جاء البنك يحرثها بالجرارات ووقف جدك هنا ممسكا ببندقيته وأطلقها على كشافات الجرار الأمامية ولكن ذلك لم يوقف الجرار. ولم يكن جدك يريد أن يقتل الرجل الذى يسوقه، فقد كان «ويلى فيلى»، وكان «ويلى» يعلم هذا ولذلك جاء وقوض المنزل بأن هزه بالجرار كما يهز الكلب فأرًا. ولقد أطاش ذلك بصواب توم، وكأن العفاريت قد ركبته. ومنذ ذلك الوقت لم يعد كما كان».

قال «جود» غاضبًا: «أين أهلى؟»

«ما الذى أقوله لك إذًا؟ لقد قاموا بثلاث رحلات بعربة عمك «جون»، أخذوا الفرن والمضخة والأسرة، كان لابد أن ترى تلك الأسرة وجدك وجدتك والأطفال كلهم قد استندوا على رأس السرير بينما أخوك «نوح» جلس يدخن سيجارة ويبصق على جانب العربة». وفتح «جود» فمه ليتكلم، فقال «مولى» بسرعة: «لقد ذهبوا جميعًا إلى منزل عمك «جون»».

«أوه.. كلهم فى منزل «جون»، وماذا يفعلون هناك؟ أرجوك يا «مولى»، ركز فكرك معى دقيقة واحدة، ثم انطلق فى طريقك، ماذا يفعلون هناك؟»

«حسنًا، إنهم يجمعون القطن، كلهم، حتى الأطفال وجدك، ويجمعون النقود حتى يمكن أن ينطلقوا إلى الغرب، فى نيتهم شراء سيارة والذهاب إلى الغرب حيث المعيشة سهلة، لا يوجد شىء هنا، خمسون سنتًا عن جنى كل فدان كامل من القطن، والناس تتسول فرص العمل».

«أو لم يذهبوا بعد؟»

فقال «مولى»: «لا، على قدر علمى، فقد سمعت آخر أخبارهم منذ أربعة أيام عندما قابلت أخاك «نوحًا» فى الخلاء يصطاد الأرانب البرية وقال إنهم ينتوون السفر بعد حوالى أسبوعين فقد تلقى «جون» إنذاره لكى يخلى مكانه، لو أنك سرت ثمانية أميال فقط لوجدت منزل «جون»، وستجدهم مكومين فى منزل «جون» ككلاب الماء القارضة فى حجرها الشتوى».

فقال «جود»: «حسنًا، والآن يمكنك أن تستمر فى طريقك، إنك لم تتغير أبدًا يا «مولى»، ما زلت حين تريد أن تتكلم عن شىء فى الشمال الغربى تولى وجهك إلى الجنوب الشرقى».

فقال «مولى» مشاكسًا: «ولا أنت تغيرت، كنت ولدًا عنيفًا وما زلت ولدًا عنيفًا، وعلى أى حال لست أنت الذى تقول لى كيف أتصرف».

وقال «جود» عابثًا: «لا. لن أفعل، إذا أردت أن تضع رأسك فى كومة من الزجاج المكسور فلا يوجد إنسان يمكن أن يقول لك عكس ذلك. أتعرف الواعظ الجالس هنا، ألا تعرفه يا «مولى»؟ القس (كيزى)».

«فعلاً، بالتأكيد، فقط لم ألحظه، أذكره جيدًا». ووقف «كيزى» وتصافح الرجلان وقال «مولى»: «أنا سعيد لرؤيتك ثانية، لم تكن فى هذه الأنحاء منذ وقت طويل جدًا». فقال «كيزى»: «لقد غادرت المكان.. بحثًا عن إجابات لبعض الأسئلة، ما الذى حدث هنا لماذا يطردون الناس من أرضهم؟».

وأطبق «مولى» فمه حتى تدلى منتصف شفته العليا فوق شفته السفلى كمنقار الببغاء، ثم عوى قائلاً: «أولاد العاهرة هؤلاء، أولاد العاهرة الأوسخاء، أقول لكم سأبقى، لا يمكنهم التخلص منى، إذا ألقونى خارجًا فسأعود، وإذا فكروا فى قتلى ودفنى فسآخذ معى ثلاثة أزواج منهم» وربت

على شيء ثقيل في جيب معطفه وقال: «لن أذهب.. لقد جاء أبي إلى هنا منذ خمسين عامًا، وأنا لن أغادر هذا المكان».

فقال «جود»: «ما الفكرة من طرد الناس من هنا؟»».

«أوه، لقد تكلموا كثيرًا عن ذلك، أنت تعرف الأحوال في السنوات الأخيرة، حين كان التراب يفسد كل شيء حتى لا يحصل الإنسان على محصول يكفي لإطعام نملة، وكل واحد أصبح مدينًا للبقال، أنت تعرف كيف يحدث هذا، حسنًا... حينئذ قال الذين يملكون الأرض لا يمكننا أن نترك الأرض وبها حائزون. وقالوا أيضًا، إن النصيب الذي يحصل عليه الحائز هو الحد الأدنى من الربح الذي لا يمكننا فقدانه. وقالوا، إذا جمعنا أرضنا في قطعة واحدة فقد نجعلها تدر دخلاً. وهكذا أتت الجرارات وطردت كل الحائزين من الأرض إلا أنا. وأنا لن أذهب والله وأنت تعرفني يا «توم»، أنت تعرفني طول عمرك».

فقال «جود»: «صحيح، طول عمري».

«وأنت تعرف أنني لست مغفلاً، وأنا أعرف أن هذه الأرض ليست طيبة، ولا تصلح لأكثر من الرعي، وما كان يجب أن تحرث. ولكن ها هي ذي قد زرعت قطنًا حتى كادت تموت تمامًا. ولو أنهم لم يأمروني بمغادرتها لكان المحتمل أن أكون في كاليفورنيا الآن. آكل العنب وأحصل على البرتقال عندما أريد. ولكن أبناء العاهرة هؤلاء قالوا يجب أن أذهب، وبحق يسوع المسيح، لا يمكن للإنسان أن يرضخ ويذهب عندما يؤمر بذلك».

فقال «جود»: «فعلاً.. من الغريب أن يمضي أبي بسهولة، غريب أن جدي لم يقتل أحدًا، لم يحدث أبدًا أن أمر أحدهم جدي أين يضع أقدامه. حتى أمي، لم يكن أحد يستطيع أن يدفعها إلى شيء. لقد رأيتها مرة تضرب بائعًا متجولاً بدجاجة حية لأنه حاول أن يجادلها. كانت تمسك الدجاجة

فى يد وبالبلطة فى أخرى تنوى ذبحها، ولكنها نسيت أيهما فى أى يد فجرت خلفهم بالدجاجة، ولم يكن من الممكن أن نأكل هذه الدجاجة عندما طبختها، فلم يكن هناك أكثر من ساقين تبقيتا فى يدها، وساعتها ضحك جدى حتى انخلع وسطه، كيف ذهب أهلى بهذه السهولة؟».

«حسنًا، كان الرجل الذى جاء إلينا يتكلم بنعومة كالغريبة، لابد أن تذهبوا ليست غلطتى»، قلت له «حسنًا، غلطة من إذًا، وسأذهب وأقتله؟»، فأجاب: «إنها شركة «شونى» للأراضى والمواشى ولست إلا عبد المأمور». «من هى شركة «شونى» للأراضى والمواشى؟ ليست أحدًا بعينه، إنها شركة. شىء يجنن لم يكن هناك من تمسك بخناقه، وكثيرون تعبوا من مجرد الجلوس وانتظار من ينفجرون فيه، ولكنى لست منهم لقد جننت بالفعل وسأبقى».

تعلقت الشمس، كنقطة كبيرة حمراء فوق الأفق ثم سقطت واختفت، ولمعت السماء حيث اختفت وخلفت سحابة ممزقة كالخرقة المصبوغة بالدم فوق موضع غيابها. وزحف الغسق على السماء من الأفق الشرقى، ومن الشرق زحف الظلام على الأرض ولمعت نجمة المساء فى الغسق، وزحفت القطة الرمادية بعيدًا إلى ناحية الزريبة المفتوحة واندست داخلة كالخيال.

قال «جود»: «حسنًا، إننا نمشى ثمانية أميال لمنزل عمى «جون» الليلة، لقد احترقت أقدامى، ماذا لو ذهبنا عندك يا «مولى» إن بيتك على بعد ميل واحد فقط».

وبدا «مولى» مرتبكًا وهو يقول: «لن يفيدنا ذلك، فقد غادرته زوجتى والأولاد مع أخيها وذهبوا إلى كاليفورنيا. لم يكن هناك ما يؤكل. ولم يكونوا مجانين مثلى فذهبوا. لم يكن هناك ما يؤكل هنا».

تململ القس فى عصبية قائلاً: «كان يجب أن تذهب أنت أيضًا، ما كان يجب أن تحطم هذه العائلة».

فقال «مولى جريفز»: «لم أستطع، شىء ما منعنى».

وقال «جود»: «حسنًا، يا إلهى أنا جائع، ولقد ظللت أربع سنوات كاملة آكل فى مواعيد ثابتة بالدقيقة، مصارينى تصرخ كالمذبوح، ماذا ستأكلون؟ «مولى».. كيف تحصل على غذائك؟»

فقال «مولى» بخجل: «لقد كنت آكل الضفادع والسنجاب والكلاب الضالة فى البرارى أحيانًا، لم يكن أمامى غير هذا ولكن الآن لدى بعض الفخاخ نصبتها على الشقوق والأنهار الجافة أحصل بها على أرانب وفى بعض الأحيان أحصل على دجاجة برية، ظربان، أو راكون أيضًا». وانحنى يلتقط كيسه وأفرغه على أرض المدخل الخارجى فسقط منه أرنبان أمريكيان كبيران من ذوات الذنب المنفوش كالقطن. وأرنب برى له أذنان طويلتان تدحرجت بفرائها فى رخاوة ونعومة.

فقال «جود»: «والله العظيم، لقد مضت أكثر من أربع سنوات منذ أكلت لحمًا طازجًا» والتقط كيزى واحدًا من الأرانب وأمسكه فى يده وسأل: «هل ستشاركنا فى هذا يا «مولى جريفز»؟».

تململ مولى فى ارتباك وقال: «ليس أمامى أى خيار فى هذا». ثم توقف عن لهجة كلماته غير الكريمة وقال: «ليس هذا ما أقصد قوله ليس هذا، أعنى» وتلعثم قليلاً ـ «ما أعنيه أنه إذا حصل إنسان على شىء يأكله وكان هناك إنسان آخر جائع، عندئذ فليس هناك أمام الأول أى اختيار، أعنى افرضوا أننى أخذت أرانبى وذهبت إلى أى مكان لآكلها فاهمون؟»».

فقال «كيزى»: «فاهم، أستطيع أن أفهمك، هيا يا «توم» «فمولى» معه

بعض الأشياء التى تفيض عن حاجته بل تفيض عن حاجتى أنا أيضًا».

وفرك «توم» الشاب كفيه وقال: «من معه سكين؟ فلنذبح هذه الكائنات البائسة، هيا بنا».

ومد «مولى» يده فى جيب بنطلونه وأخرج مطواة جيب كبيرة ذات مقبض من القرن، فأخذها منه «توم جود» وفتح أحد أسلحتها وتشممه ثم دفع به فى الأرض عدة مرات وشمه ثانية ومسحه فى رجل البنطول، وتحسس حافته بإبهامه.

وأخرج «مولى» من جيب بنطلونه الخلفى زجاجة نصف لتر مملوءة بالماء، فوضعها على أرض المدخل الخارجى، وقال: «حاسبوا فى استخدام هذه المياه، هذا كل ما معنا. فقد ردمت البئر هنا».

أمسك «توم» بأرنب فى يده وقال: «واحد منكم يذهب إلى الزريبة ويحضر بعض الأسلاك، سنشعل نارًا ببعض هذه الأخشاب المتناثرة من البيت». ونظر إلى الأرنب المذبوح وقال: «ليس أسهل من إعداد الأرانب».

وشد الجلد من فوق ظهر الأرنب وشقه ودفع بأصابعه فى الثقب ثم سلخ الجلد فانزلق كالجورب عن الجسم حتى الرقبة، وعن السيقان حتى المخالب والتقط «جود» السكين ثانية وقطع الرأس والأقدام، وركن الجلد على الأرض وشق أضلاع الأرنب وألقى بأمعائه على الجلد، ثم ألقى الاثنين بعيدًا فى حقل القطن. وهكذا أصبح الجسم العضلى الصغير النظيف جاهزًا. وقطع جود السيقان ولحم الظهر إلى قطعتين، وحين التقط الأرنب الثانى حضر «كيزى» ومعه لفة صغيرة من السلك فى يده فقال «جود»: «والآن أشعل نارًا، وضع عليها بعض الأسياخ. بحق يسوع المسيح أنا جائع وأريد أن التهم هذه المخلوقات». ونظف وقطع بقية

الأرانب ووضعها فوق السلك بينما كان «مولى» و«كيزى» يستخلصان بعض قطع الخشب من ركن المنزل المهشم، ويشعلان النار، ثم ثبتا وتدين على جانبيها لكى يحملا الأسلاك.

ورجع «مولى» إلى «جود» وقال له: «هل شاهدت أى دمامل على هذه الأرانب، أنا لا أحب أن آكل أرانب برية بها دمامل». ثم أخرج من جيبه كيسًا من القماش ووضعه على أرض المدخل، وأجاب «جود»: «لقد كان الأرنب نظيفًا كأنفاس الصفارة، يا يسوع، أمعك ملح أيضًا؟ لابد أن معك بعض الأطباق وخيمة فى جيبك؟». وصب بعض الملح فى كفه ثم وضعه على الأرانب فوق الأسلاك.

وعلت ألسنة النار وألقت بظلالها فوق المنزل وطقطق الخشب الجاف. كانت السماء مظلمة تقريبًا، والنجوم تلمع فى وضوح، وجاءت القطة الرمادية من الزريبة ناحية النار وهى تموء، ولكنها ما إن اقتربت حتى استدارت وذهبت مباشرة إلى كومة صغيرة من أحشاء الأرانب الملقاة على الأرض. وجلست تمضغ وتبتلع وقد تدلت من فمها المصارين.

جلس «كيزى» على الأرض بجوار النار يغذيها بقطع الخشب يدفع بالعوارض الطويلة فى اللهب بعد أن تأكل النار أطرافها. ولمعت الخفافيش وهى تمرق فى ضوء اللهب. وتكومت القطة فى الخلف تلعق شفتيها وتنظف وجهها وشواربها.

حمل «جود» بين يديه السلك المحمل بقطع الأرانب. وذهب إلى النار وقال: «مولى.. خذ طرفًا من السلك ولفه حول الوتد، هذا حسن، والآن فلنحكم رباطها، مفروض أن ننتظر حتى تخمد النار ولكننى لا أستطيع الانتظار». وشدا السلك جيدًا ثم أتى بعصا وأخذ يدفع قطع اللحم حتى أصبحت فوق النار وتراقصت ألسنة اللهب حولها وأصبحت سطوحها

جافة لامعة. وجلس «جود» بجوار النار ولكنه كان يقلب قطع الأرنب ويحركها حتى لا تلتصق بالسلك ـ وقال: «هذا احتفال، ملح وماء وأرانب يحملها «مولى» فى جيبه، يا ليته كان يحمل فى جيبه علبة برغل فهذا كل ما أشتهيه».

فقال «مولى» من الجانب الآخر للنار: «أنتم يا جماعة تظنون أن بى مسًا لأننى أعيش هكذا».

فقال «جود»: «مجنون! كلام فارغ! يا ليت كل واحد كان مجنونًا مثلك».

واستمر «مولى» يقول: «حسنًا يا سيدى، لقد كان شيئًا غريبًا، ما حدث لى عندما قالوا لى إنه ينبغى أن أترك المكان. وفى البداية فكرت أن أدخل وأقتل كل أهل المنزل، لكن أهلى تركونى كلهم وذهبوا إلى الغرب. وبدأت أتجول فى هذه الأنحاء، مجرد تجوال، لا أبعد بعيدًا وأنام حيث أكون، وكان فى نيتى أن أنام هنا الليلة، وهذا سبب مجيئى. كنت أقول لنفسى، ها أنذا أرعى كل شىء حتى يجدها الأهل سليمة حين يعودون، ولكننى أعرف أن ذلك ليس حقيقيًا. ليس هناك شىء يمكن أن يرعاه الإنسان، والأهل لن يعودوا أبدًا. وأنا لا أفعل إلا التجوال مثل شبح ملعون فى جبانة قديمة».

وقال «كيزى»: «حين يعتاد الإنسان على مكان ما، يصبح من الصعب عليه أن يغادره، وعندما يعتاد الإنسان على طريقة تفكير فمن الصعب عليه أن يتخلى عنها. فأنا مثلاً لم أعد واعظًا، ولكننى مع ذلك أجد نفسى أصلى طول الوقت دون أن أفكر فيما أنا فاعل».

وقلب «جود» قطع اللحم فوق السلك. كانت عصارتها تتساقط على النار. ومع كل نقطة يندفع اللهب إلى أعلى وقد بدا سطح اللحم

الناعم يتكرمش ويصبح لونه بنيًا فاتحًا. وقال «جود»: «شموا.. انظروا لها وشموها».

واستمر «مولى» يروى قصته: «مثل شبح ملعون فى جبانة قديمة، أتجول فى الأماكن التى تحمل ذكرياتى.. كذلك المكان المجاور لمزرعتنا، هناك دغل فى واد صغير، حيث ضاجعت فتاة لأول مرة. كنت فى الرابعة عشرة من عمرى. أقفز وأنظ وأخور كذكر الغزال، فج كالتيس. وهكذا ذهبت إلى هناك ورقدت على الأرض واستعدت كل ما جرى ثانية. هناك مكان بجوار الزريبة حيث نطح الثور أبى فقتله، وما زال دمه فى هذه الأرض حتى الآن. لابد أنه هناك، فلم يغسل أحد الدماء أبدا، ووضعت يديّ على الأرض حيث صار دم أبى جزءًا منها». وهنا توقف عن الكلام منهكًا وقال: «أتظن يا صاحبى أننى مجنون. ملتاث العقل؟!».

وقلب «جود» اللحم وقد غارت عيناه. أما «كيزى» فقد ثنى ساقيه وشخص ببصره فى اللهب، وعلى بعد خمس عشرة قدمًا من الرجال جلست القطة بعد أن أكلت وقد لفت ذيلها الرمادى بعناية حول قدميها الأماميتين. وصرخت بومة وهى تطير فوقهم فكشف ضوء اللهب عن بياض بطنها وأجنحتها المفرودة.

وقال «كيزى»: «لا.. لست مجنونًا، ولكنك وحيد».

وتصلب وجه «مولى» الدقيق الصغير وهو يقول: «لقد وضعت يدى على الأرض حيث لا تزال الدماء عليها، ورأيت أبى بصدره المثقوب وأحسست به ينتفض على صدرى كما حدث فعلاً، ثم رأيته يترنح إلى الخلف ويستند على يديه وقدميه ورأيت عينيه وقد فاضتا بالألم ثم أصبح ساكنًا وعيناه الصافيتان تنظران إلى أعلى وأنا كصبى صغير جالس بجواره. لا أبكى ولا أفعل أى شىء، مجرد جالس هناك». وهز رأسه بحدة، واستمر

«جود» يقلب اللحم ويعيد تقليبه، واستطرد «مولى» قائلاً: «ثم دخلت الغرفة التى ولد فيها «جو»، لم يكن السرير هناك، ولكنها نفس الغرفة، وكل هذه الأشياء حقيقية. وفى المكان الذى كانت فيه بالضبط، لقد جاء «جو» إلى الحياة هناك، شهق شهقة كبيرة ثم أطلق صيحة كان من الممكن سماعها على بعد ميل. وقالت جدته ـ التى كانت تقف بجواره ـ لأمه، ولدته رجلاً ولى ولد رائع. وكانت فخورة به لدرجة أنها شربت ثلاث كؤوس فى تلك الليلة».

وتنحح «جود» قائلاً: «أظن من الأفضل أن نأكل الآن».

فقل «مولى» متوترًا: «دعها تنضج جيدًا، دعها حتى تصبح بنية اللون أو سوداء تقريبًا. أريد أن أتكلم. أنا لا أجد أحدًا أحادثه، إذا كنت مجنونًا فليكن. هذه هى نهاية الأمر، مثل شبح فى جبانة قديمة يمر على منازل الجيران فى الليل. منزل بترو، وجاكوب، ورانس، وجود، والمنازل كلها مظلمة. تقف بائسة كعلب الفئران. ولكنى أرى فى هذه البيوت احتفالات وحفلات رقص، وصلوات وتهليل المؤمنين،وأفراحًا، وعندئذ تنتابنى الرغبة فى أن أذهب إلى المدينة وأقتل الناس. لأنه ما الذى استفادوه عندما طردوا الناس من ديارهم بالجرارات؟ ماذا سيجنون من تأمين الحد الأدنى لأرباحهم؟ هل عرفوا أبى وهو يلفظ أنفاسه على الأرض؟ و«جو» وهو يصرخ أول أنفاسه، وأنا أقفز كالتيس تحت الشجيرات فى المساء؟ ماذا سيستفيدون؟ الله يعلم أن الأرض ليست طيبة، ولن يستطيع أحد أن يحصل على أى محصول لسنوات. ولكن أبناء العاهرة هؤلاء يجلسون فى مكاتبهم ويشطرون الناس نصفين من أجل الحد الأدنى للربح. إنهم يشطرونهم نصفين تمامًا، فالأرض التى يعيش عليها الناس هى الناس، وهم ليسوا مكتملين وهم هناك وحيدون على الطريق، مكومون فى عربة من العربات. ليسوا أحياء بعد، قتلهم أولاد الحرام». وسكت، وإن ظلت

شفتاه الرقيقتان تتحركان وصدره يعلو ويهبط. وجلس ينظر إلى يديه فى ضوء النيران، وقال معتذرًا بلطف: «أنا.. أنا لم أتكلم مع أحد منذ مدة، كنت أتجول فى هذه الأنحاء مثل شبح جبانة قديمة».

ودفع «كيزى» بالعوارض الطويلة داخل النيران فالتفت حولها ألسنة اللهب ثم صعدت ثانية ناحية اللحم. وطقطق المنزل بصوت عال عندما تقلصت أخشابه بفعل برودة الليل المتزايدة. وقال كيزى بهدوء: «لابد أن أرى الناس الذين خرجوا إلى الطريق. لدى إحساس أنه يجب أن أراهم. سيحتاجون إلى المساعدة التى لا يمكن أن يقدمها لهم أى واعظ، وما قيمة الأمل فى السماء عندما لا يعيشون حياتهم؟ وما قيمة الروح القدس عندما تكون أرواحهم منكسرة وحزينة؟ سيكونون فى حاجة إلى المساعدة. يجب أن يعيشوا قبل أن يواجهوا الموت» وصاح «جود» بعصبية: «يا يسوع المسيح، دعونا نأكل اللحم قبل أن تصبح قطعه أصغر من الفأر المشوى، انظروا لها، شموها». وقفز واقفًا وزحزح قطع اللحم عن السلك حتى بعدت عن النار وأخذ مطواة «مولى» وشق بها قطعة حتى خلصها من السلك ثم قال: «هذه للواعظ».

«قلت لك أنا لست واعظًا».

«حسنًا هذه للرجل» وقطع قطعة أخرى وقال: «وهذه لك يا «مولى»، إن لم تكن متضايقًا لدرجة تمنعك عن الأكل. إن هذه الأرانب البرية أنشف من لحم الثور». ثم جلس وغرس أسنانه الطويلة فى اللحم وقضم قضمة كبيرة، مضغها وقال: «يا يسوع المسيح أتسمعون قرقشتها» ثم افترس قضمة أخرى فى شراهة.

وظل «مولى» جالسًا ينظر إلى قطعته ثم قال: «ربما لم يكن من الواجب أن أتكلم هكذا. ينبغى أن يكتم الرجل مثل هذه الأمور فى رأسه».

ونظر إليه «كيزى» وفمه ممتلئ بلحم الأرنب يمضغه. وعضلات رقبته تتقلص وهو يبلع وقال: «بل يجب أن تتكلم، ففى بعض الأحيان يستطيع الرجل الحزين أن يفرغ الحزن الذى بداخله بالحديث من فمه. ففى بعض الأحيان يستطيع القاتل أن يخرج القتل من فمه ولا يقتل فعلاً. لقد فعلت صوابًا. لا تقتل أحدًا إذا استطعت إلى ذلك سبيلاً». ثم قضم قضمة أخرى من لحم الأرانب ورمى«جود» بالعظام فى النار، وقفز يقطع المزيد من فوق السلك. كان «مولى» يمضغ الآن ببطء وعيناه العصبيتان الصغيرتان بين حاجبيه تتنقلان، وكان «جود» يأكل وهو يزوم كالحيوان وحلقة من الشحم تتجمع حول فمه.

وظل «مولى» وقتًا طويلاً ينظر إليه متهيبًا ثم أنزل يده الممسكة باللحم وقال: «توم».

ورفع «جود» عينيه دون أن يتوقف عن مضغ اللحم وقال بفمه الممتلئ: «أيوه؟».

«(توم)، أنت لست غاضبًا منى لأننى تحدثت عن قتل الناس. لست غاضبًا يا توم؟».

فقال «توم»: «لا... لست غاضبًا، إنه مجرد شىء حدث».

فقال «مولى»: «كل إنسان يعرف أنها لم تكن غلطتك. وقد قال تيرون بول الكبير إنه سيقتلك عندما تخرج، قال إن أحدًا لا يمكن أن يقتل ابنًا من أبنائه ثم يتركه حيًا. ومع ذلك فقد عارضه كل الناس هنا»؛ فقال «جود» بلطف: «لقد كنا سكارى فى حفلة رقص، ولا أعرف كيف بدأت. وعندما شعرت بالمطواة تطعننى، وهذا ما أفاقنى. كان أول ما رأيته هو «هيرب» وهو يهجم على ثانية بمطواته، وهناك كان الجاروف مسندًا على حائط المدرسة، وهكذا سحبته وهويت به على رأسه. لم يكن بينى وبين «هيرب»

أى شىء أبدًا. كان فتى طيبًا وكان يأتى ماشيًا خلف أختى «روزا شارن» يعاكسها عندما كان صغيرًا. لا، لقد كنت أحب «هيرب»».

«حسنًا لقد قال كل الناس ذلك لأبيه، وأخيرًا هدأ. إلا أن بعض الناس يقولون إنه تجرى فى عروقه من ناحية أمه دماء أسرة الهاتفيلد، وإنه لذلك سيظل يعيش من أجل غرضه هذا، ولكننى لا أعرف شيئًا عن هذا الموضوع، لقد ذهب هو وأهله إلى كاليفورنيا منذ ستة أشهر».

وأخذ «جود» ما تبقى من الأرنب ودار به على صاحبيه، ثم جلس وصار يأكل ببطء ويمضغ بعناية ويمسح الشحم من حول فمه بكمه. نظر إلى النار الخابية بعينيه السوداوين الحانيتين نصف المغمضة، وقال: «كل الناس تذهب إلى الغرب، ولكن علىَّ أنا أن أحافظ على كلمة الشرف فأنا تحت المراقبة وفقًا لنظام الإفراج الشرطى ولا يمكن أن أغادر الولاية».

فسأله «مولى»: «إفراج شرطى! لقد سمعت عن ذلك، ما هو هذا النظام؟».

«حسنًا، أفرج عنى قبل الموعد بثلاث سنوات، ولكن هناك شيئًا لابد أن أفعله، إذا لم أفعله أعادونى ثانية، على أن أقدم نفسى للشرطة بين حين وآخر».

«كيف كانوا يعاملونك فى سجن «ماك أليستر»؟ لقد كان ابن عم زوجتى هناك، وكانت حياته هناك جحيمًا».

فقال «جود»: «ليس سيئًا إلى هذا الحد، مثله مثل أى مكان آخر. يتعبونك إذا ما أتعبتهم. عليك أن تسلك بشكل سليم وإلا اصطادك أحد السجانين وسيتعبك كثيرًا. ولقد تصرفت بشكل سليم. لم أهتم إلا بشئونى كما يجب أن يفعل أى واحد. وتعلمت الكتابة بدرجة جيدة جدًا، كما تعلمت رسم الطيور وأشياء أخرى لا مجرد كتابة الكلمات فقط. سيتأثر أبى

عندما يرانى أرسم طيرًا بحركة واحدة، سيجن عندما يشاهدنى أفعل هذا. فهو لا يحب هذه الأمور الخيالية، بل هو لا يحب حتى كتابة الكلمات. شىء ما يفزعه منها، وأعتقد أن ذلك يرجع إلى أنه فى كل مرة رأى كتابة ما، أخذ منه أحدهم شيئًا».

«ألم يكونوا يضربونك أو أى شىء من هذا القبيل؟»

«لا، لأننى لم أهتم إلا بشئونى أنا. طبعًا يتنابك السقم والمرض من كثرة ما تفعل الشىء نفسه يوميًا لمدة أربع سنوات. فإذا كنت قد أتيت شيئًا تخجل منه فستفكر فى ذلك أيضًا. ولكن يا للجحيم، لو أننى رأيت «هيرب تيرنبول» هاجمًا عليّ الآن بمطواته، فسأسحقه مرة أخرى بالجاروف»

فقال «مولى»: «أى واحد سيفعل ذلك».

وشخص الواعظ فى النار، وبدت جبهته العالية بيضاء فى الظلام السائد، وأظهر بريق ألسنة اللهب الصغيرة عروق رقبته، أما يداه المشبوكتان على ركبتيه فقد انشغلتا فى طقطقة أصابعهما.

وألقى «جود» بما بقى من عظام فى النار ثم لعق أصابعه، ومسح يده فى بنطلونه ووقف وأحضر زجاجة الماء وشرب منها مقتصدًا، ومرر الزجاجة للآخرين قبل أن يجلس ثانية ثم استمر فى حديثه قائلاً: أشد ما كان يقلقنى أن الحبس لم يكن له منطق، إن الإنسان يقبل أن تقتل الصاعقة بقرة، أو أن يغرقنا فيضان، فهذا شأن الدنيا، ولكن عندما تأخذك جماعة من الناس، وتحبسك لمدة أربع سنوات فلابد أن يكون لذلك معنى، لأن المفروض أن يتفكر الناس فيما يفعلون، ها هم قد أخذونى وحبسونى، وأطعمونى أربع سنوات، ويجب أن يجعلنى ذلك لا أفعل ما فعلت ثانية، أو يعاقبونى حتى أخشى أن أفعلها مرة أخرى». وتوقف قليلاً ثم استأنف حديثه قائلاً: «ولكن إذا ما هاجمنى هيرب أو أى إنسان آخر فسأفعلها ثانية، سأرتكبها

قبل أن أفكر فيما أنا فاعل، خصوصًا إذا كنت سكران. إن هذا النوع من انعدام المنطق فى الأمور يقلق الإنسان.

فقال «مولى» مذكرا: «لقد قال القاضى إنه يحكم عليك حكمًا مخففًا لأنها لم تكن غلطتك وحدك».

قال «جود»: «إن هناك رجلاً فى «ماك أليستر» ـ محكوم عليه بالسجن المؤبد، يستذكر طول الوقت، إنه سكرتير المأمور، يكتب خطاباته وما شابه ذلك. حسنًا، إنه فتى لامع يقرأ القانون وما شابه ذلك. وقد حدثته فى ذلك مرة لأنه يقرأ كثيرًا فقال: ليس هناك فائدة تذكر من قراءة الكتب، وقال: إنه يقرأ شيئًا عن السجون الآن، وفى الأزمنة القديمة أيضًا، وقال إنها تبدو له الآن أقل منطقًا منها قبل أن يبدأ قراءاته. يقال إنها شىء يبدأ الطريق إلى جهنم ويعود إليه، ويبدو أنه لا يوجد من يستطيع إيقافها، ولا من يملك العقل والمنطق الكافى ليغيرها، واستحلفنى ألا أقرأها، لأن ذلك كما قال سيؤدى إلى أن يزداد الأمر علىّ اختلاطًا، وثانيًا لأننى سأفقد احترامى لأولئك الذين يسيرون الحكومات».

فقال «مولى»: «ليس فى نفسى لهم أى قدر من الاحترام الآن. الحكومة الوحيدة التى عرفناها والتى ركبتنا هى حكومة «ضمان الحد الأدنى للربح» هناك واحد فقط يحيرنى هو «ويلى فيلى»، الذى يسوق هذا الجرار وسيصبح مساعدًا للخولى على هذه الأرض التى اعتاد أهله أن يزرعوها. هذا ما يشغلنى ومن الممكن أن أفهم كيف يمكن أن يأتى رجل من مكان آخر لا يعرف أحدًا هنا ولكن «فيلى» من هنا. ولقد شغلنى هذا الأمر وذهبت إليه وسألته، ففقد أعصابه على الفور وقال: لدى طفلان صغيران وزوجة وأم زوجتى وكل هؤلاء لابد أن يأكلوا. وتزايد هياجه وقال: إن أهلى هم أول وآخر من أفكر فيه، وما يحدث للآخرين من شأن الآخرين. وبدا لى أن سر فقدانه أعصابه كان خجله مما يفعل».

كان «جيم كيزى» يحملق فى النار الخابية وقد اتسعت عيناه وبرزت عضلات رقبته وصاح فجأة: «وجدتها، لو أن إنسانًا حصل على جرعة من الإيمان فقد حصلت عليها أنا، حصلت عليها فى ومضة من الزمن». ثم قفز على قدميه وراح يمشى جيئة وذهابًا مطوحًا رأسه وهو يقول: «كان عندى خيمة فيما مضى، تجمع ما يقرب من خمسمائة شخص كل ليلة، كان ذلك قبل أن تريانى». وتوقف فى مواجهتهما وسألهما: «هل رأيتمانى أبدًا أجمع تبرعات عندما كنت أعظ الناس هنا، فى الأجران أو فى الخلاء؟».

فقال «مولى»: «لا والله أبدًا، لقد اعتاد الناس فى هذه الأنحاء ألا يدفعوا لك نقودًا، حتى أنهم يفقدون أعصابهم حين يأتى واعظ آخر ويمر عليهم بالقبعة.. تمام يا سيدى».

فقال «كيزى»: «كنت آخذ شيئًا لآكله، بنطلونًا لألبسه حين يتهرأ بنطلونى، حذاء حين أسير حافيًا على الأرض، ولكنى لم أكن كذلك عندما كان لدى خيمة. فى بعض الأيام كنت أجمع عشرين أو ثلاثين دولارًا ولم أكن فى تلك الأيام أحس بالسعادة. وهكذا تخليت عنها وسرت سعيدًا لزمن. وأعتقد أننى قد عرفتها الآن.. لست أعرف إذا كنت أستطيع قولها أم لا. يستحسن ألا أحاول قولها. ولكن ربما كان هناك مكان لواعظ، ربما كنت أستطيع الوعظ ثانية إلى الناس وهم فى وحدتهم على الطريق، أناس بلا أرض ولا بيت يذهبون إليه. لابد أن يحصلوا على بيت ما.. وربما».

وقف والنار عند قدميه، وقد برزت عشرات العضلات فى رقبته كتمثال منحوت، ونفذت أشعة اللهب فى مقلتيه فأحالتهما إلى جمرتين حمراوين. ووقف ينظر إلى النار ووجهه مشدود كأنه يصيخ السمع. وهدأت يداه اللتان كانتا نشطتين فى أن تلتقط وتمسك، وتقذف بالأفكار، وانسلتا فى

لحظة إلى جيوبه. ومرقت الخفافيش فى ضوء النار الخافت، وعبر الحقول جاء صوت صقر الليل الذى يشبه خرير الماء الخافت.

ومد «توم» يده فى هدوء فى جيبه وأخرج تبغه ولف سيجارة ببطء. وكان فى أثناء ذلك ينظر إلى جمرات الفحم المشتعلة، وتجاهل كل الخطاب الذى ألقاه الواعظ كأنه مسألة لا تجوز مناقشتها. وقال: «ظللت أفكر ليلة بعد أخرى على سرير سجنى، كيف ستكون عليه الحال عندما أرجع البيت ثانية، قدرت أنه ربما تكون جدتى أو جدى قد مات. ربما كان هناك أولاد جدد، ربما أصبح أبى أقل صرامة، ربما هدأت أمى قليلاً وسمحت لأختى روزاشان بأن تقوم بالعمل محلها. كنت أعلم أن الحال لا يمكن أن تكون كما كانت. حسنًا، أظن أننا سننام هنا وعندما يأتى الصباح سنذهب لعمى «جون»، سأذهب أنا على الأقل، هل تعتقد أنك ستأتى معى يا «كيزى»؟».

فقال الواعظ متأنيًا وهو ما يزال واقفًا ينظر فى الجمر: «نعم سأذهب معك، وعندما يبدأ أهلك رحلتهم على الطريق، سأذهب معهم، وحيث سيوجد أناس على الطريق سأكون أنا».

فقال «جود»: «مرحبًا بك، لقد كانت أمى معجبة بك دائمًا. كانت تقول إنك واعظ يوثق به. ولم تكن أختى «روزا شارن» قد كبرت بعد».

ثم التفت برأسه إلى «مولى» وقال: «مولى، هل ستذهب إلى هناك؟». ولكن «مولى» كان مستغرقًا فى النظر إلى الطريق الذى جاءوا منه، فكرر «جود» سؤاله: «أعتقد أنك ستأتى معنا يا «مولى»؟».

«هه، لا.. أنا لا أذهب إلى أى مكان، ولن أترك أى مكان. هل ترى هذا الوهج هناك، يعلو ويهبط؟ محتمل أن يكون ملاحظ هذه القطعة المزروعة قطنًا. لابد أن أحدًا رأى النار التى أشعلناها».

ونظر «توم» كان وهج النور يقترب فوق التل. فقال: «نحن لا نصنع شيئًا مضرًا، مجرد جالسين هنا ولا نفعل شيئًا».

وضحك «مولى» بصوت كصياح الدجاج. ثم قال: «إهيه.. لكنك ترتكب شيئًا لمجرد وجودك هنا. تعدى. لا يمكن أن نظل هنا، إنهم يحاولون إمساكى منذ شهرين. والآن انظر، إذا ما كانت هناك سيارة آتية فعلينا أن نسرع إلى حقل القطن ونرقد على بطوننا. ليس من الضرورى أن نذهب بعيدًا، ثم دعهم يحاولون العثور علينا. والله إن عليهم أن يفحصوا كل خط من أوله إلى آخره. كل ما علينا هو أن نبقى رؤوسنا واطئة على الأرض».

واعترض «جود» قائلاً: «ماذا دهاك يا «مولى»؟ لقد كنت جسورًا فيما مضى. ولم تكن ممن يختبئون أبدًا».

وراقب «مولى» الأضواء المقتربة وقال: «أيوه، كنت جسورًا كالذئب ولكننى الآن خبيث كابن عرس، عندما تصطاد شيئًا فأنت صياد، وأنت قوى، لا يمكن لأحد أن يقهر صيادًا. ولكن عندما تصبح أنت ـ صيدًا ـ فالأمر يختلف، شيء ما يحدث لك ولا تصبح قويًا. ربما تصبح شرسًا ولكنك لست قويًا.. وأنا مطارد منذ مدة طويلة ولم أعد صيادًا. قد أطلق النار على رجل فى الظلام ولكنى لم أعد أستطيع أن أضرب إنسانًا بوتد، ليس من المفيد أن نخدع أنفسنا أنا أو أنت، فهذا هو واقع الأمر».

فقال «جود»: «حسنًا، اختف أنتَ اذهب واتركنى مع «كيزى» هنا. فنحن نريد أن نقول لأبناء الزنى هؤلاء بعض الكلمات القليلة».

واقترب شعاع الضوء أكثر فأكثر، يصعد مرة إلى صفحة السماء ثم يختفى ثم يصعد ثانية والرجال الثلاثة يرقبونه.

وقال «مولى»: «هناك شيء آخر، عندما يصبح الإنسان ـ صيدًا يجب أن يفكر فى كل الأمور الخطرة، إذا كنت صيادًا فأنت لا تفكر فيها، ولن تفزع، ولكن كما قلت لك فإنك إن وقعت فى أى مشكلة فسيعودون بك إلى «ماك أليستر» لتستكمل مدتك».

فقال «جود»: «هذا صحيح.. هذا ما قالوه لى، ولكن الجلوس هنا للراحة أو للنوم على الأرض ليس دخولاً فى أى مشاكل. ليس هذا ارتكاب لأى خطأ. ليس هذا كالسُّكر أو الشغب أو إثارة المتاعب».

وضحك «مولى» وهو يقول: «سترى، ما عليك إلا أن تجلس هنا وستصلك السيارة، ربما كان فيها «ويلى فيلى»، فهو الآن نائب مأمور. وسيقول: ماذا تفعلون هنا؟ لماذا تتعدون على الأرض؟ ولما كنت تعرف دائمًا عن «ويلى» أنه دعيّ، فستقول ـ وأنت مالك؟ وطبعًا سيفقد «ويلى» أعصابه ويقول: أخرج من هنا وإلا قبضت عليك. أنت لن تسمح طبعًا لأن يطردك «فيلى»، لأنه ليس إلا رعديدًا فاقد الأعصاب ولكنه بدأ لعبته وعليه أن يستمر فيها، وتتشدد أنت أيضًا وستجد نفسك مضطرًا للاستمرار فى موقفك. يا للجحيم! إنه لأسهل كثيرًا أن يرقد الإنسان فى القطن ويدعهم يبحثون عنه، وهو شيء أظرف أيضًا لأنهم سيفقدون أعصابهم لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا. وسترقد أنت بعيدًا وتسخر منهم، ولكنك إذا ما تكلمت مع «ويلى» أو أى رئيس آخر ولكمته بقبضتك فسيقبضون عليك ويجرونك عائدين بك إلى «ماك أليستر» لمدة ثلاث سنوات».

فقال «جود»: «أنت تتكلم كلامًا معقولاً، كل كلمة قلتها معقولة، ولكن يا يسوع! إننى أكره أن يطردنى أحد. لكم أود أن أضرب ويلى شلوتًا».

فقال «مولى»: «إن معه مسدسه، وسيستخدمه لأنه نائب مأمور. وعندئذ إما أن يقتلك أو أن تنزع أنت مسدسه وتقتله. تعال يا توم، من السهل أن

تقول لنفسك إنك تخدعهم وأنت ترقد هناك، وكل شيء يعتمد فى النهاية على ما تقوله لنفسك».

كانت الأضواء قوية متجهة نحو السماء فى هذه اللحظة، كما صار من الممكن سماع صوت المحرك المنتظم، «تعال يا توم، لن نذهب بعيدًا، مجرد أربعة عشر أو خمسة عشر خطًا. وسيمكننا مشاهدة ما يفعلون».

ونهض «توم» قائلاً: «يا إلهى، أنت على صواب. ليس لدى ما أربحه فى هذا العالم، ولا يهمنى ماذا تكون النتائج».

«تعال من هنا إذًا»

ودار «مولى» حول المنزل، ثم سار داخل حقل القطن حوالى ٥٠ ياردة. وقال «هذا يكفى، لنرقد الآن، ما عليك إلا أن تخفض رأسك إذا ما بدأوا يستخدمون الكشاف. إنها لعبة ظريفة». وتمدد الرجال الثلاثة بطولهم وقد ارتكزوا على مرافقهم. وفجأة قفز «مولى» واقفًا وجرى إلى المنزل وعاد فى لحظات قليلة وألقى حزمة من المعاطف والأحذية وقال: «كانوا سيأخذونها، حتى تهدأ نفوسهم». عندئذ عبر الضوء قمة المرتفع وبدا يهبط فى اتجاه المنزل.

وسأل «جود»: «أليس من المحتمل أن يأتوا إلى هنا ببطاريات ليبحثوا عنا؟ يا ليت معى عصا!».

فضحك «مولى» وقال: «لا.. لن يفعلوا، قلت لك أنا خبيث كابن عرس، لقد فعلها «ويلى» ذات ليلة فضربته من الخلف بوتد فوقع أبرد من لوح الخشب. وقال بعد ذلك إن خمسة رجال هاجموه».

ووقفت السيارة عند المنزل فوقع عليه ضوء الكشاف. وقال «مولى»: «اغطس» ودار شعاع النور الأبيض البارد فوق رؤوسهم يمسح الحقل. ولم

يكن فى إمكان الرجال المختفين أن يروا أية حركة، ولكنهم سمعوا باب السيارة يصفق وسمعوا أصواتًا مختلطة، وهمس «مولى» قائلاً: «يخافون من الوقوف فى النور. لقد أطلقت النار مرة أو مرتين على كشاف السيارة الأمامى وهذا ما يجعل «ويلى» حذرًا، إنه يصحب إنسانًا آخر معه الليلة». وسمعوا وقع الأقدام على الخشب. ثم رأوا داخل المنزل وهج بطارية يد فسأل «مولى» هامسًا: «هل أطلق النار داخل المنزل؟ لا يمكنهم معرفة من أين جاءت. نعطيهم شيئًا لإخافتهم».

فقال «جود»: «بالتأكيد.. هيا..».

فهمس «كيزى»: «لا تفعل شيئًا، ليست لها فائدة، مجرد تبديد يجب أن تفكر فى فعل شىء له معنى».

وسمعوا صوت خربشة بالقرب من المنزل فهمس «مولى» قائلاً: «إنهم يطفئون النار. يلقون التراب عليها بأقدامهم». ثم اصطفقت أبواب السيارة ودارت أنوارها الأمامية وواجهت الطريق ثانية. عندئذ قال «مولى»: «والآن اغطس». فخفضوا رؤوسهم ومرَّ ضوء الكشاف فوقهم ومسح حقل القطن مرتين، وتحركت السيارة وانطلقت مبتعدة تصعد المرتفع، ثم اختفت.

وجلس «مولى» وقال: «ويلى، دائمًا، ما يجرب جولة الكشاف الأخيرة هذه منذ أن بدأ وهو يفعل هذا، وما زال يظن أنه ذكى».

وقال «كيزى»: «ربما تركوا بعض الرجال فى المنزل بحيث يمسكوننا إذا عدنا».

«ربما، ابقوا هنا أنتم فأنا أعرف هذه اللعبة». وابتعد فى هدوء ولم يكن يسمع إلا صوت خفيف لتفتت كتل التراب تحت أقدامه. وحاول الرجلان المختفيان أن يسمعا ولكنه كان قد اختفى. وبعد لحظة واحدة نادى من داخل المنزل قائلاً: «لم يتركوا أحدًا، تعالا». فوقف «كيزى»

و«جود» ومشيا عائدين إلى المنزل الذى بدا ككتلة سوداء. وقابلهما «مولى» عند كومة الرماد المتصاعد الدخان، حيث كانت النار. وقال بفخر: «لم يخامرنى الشك فى أنهم لم يتركوا أحدًا، فمنذ ضربت «ويلى» وأطلقت النار مرة ومرتين على أنوار السيارة وهم حذرون. إنهم لا يعرفون من الفاعل وأنا لن أدعهم يمسكوننى. أنا لا أنام بالقرب من أى منزل. وإذا شىءتم يا أصحاب أن تأتوا معى فسأريكم أين أنام. حيث لا يمكن أن يفاجئكم أحد».

فقال «جود»: «خذنا سنتبعك! لم أحلم أبدًا بأننى سأضطر للاختباء وأنا على أرض أبى».

وبدا «مولى» يسير عبر الحقول، وجود وكيزى فى أثره يطأون أشجار القطن فى أثناء سيرهم وقال «مولى»: «سنضطر للاختفاء من أشياء كثيرة». كانوا يسيرون فى صف منفرد عبر الحقول ووصلوا إلى مجرى مائى وانزلقوا بيسر إلى قاعه.

وصاح «جود» «يا إلهى، أظن أننى أعرف إلى أين نذهب، أهو كهف على الجسر؟».

«هذا صحيح كيف عرفت؟»

فقال «جود»: «لقد حفرتها، حفرتها أنا وأخى «نوح» ـ بحثًا عن الذهب كما كنا نقول، والحقيقة أننا كنا نحفر كهوفًا كما يفعل الأولاد دائمًا». كانت جوانب مجرى الماء تعلو رؤوسهم، وقال «جود»: «لابد أنها قريبة جدًا، الآن تبدو لى كما أذكر قريبة جدًا».

فقال «مولى»: «لقد غطيتها بالشجيرات ولا يمكن لأحد أن يجدها».

واستوت أرض المجرى وأصبح الممشى رمليًا.

جلس «جود» على الرمل النظيف وقال: «لن أنام فى أى كهف، سأنام هنا». ثم كوَّر معطفه ووضعه تحت رأسه.

وشد «مولى» الشجرة التى تغطى باب الكهف وزحف داخلاً وقال: «أنا أحب النوم فى الداخل هنا، أحس أن أحدًا لا يمكنه أن يأتى إلىّ».

وجلس «جيم كيزى» على الرمال بجوار «جود».

وقال «جود»: «لننم قليلاً، فسنبدأ السير إلى منزل عمى «جون» عند الشروق».

وقال «كيزى»: «لن أنام، لدى الكثير مما يشغلنى». ومد ساقيه وألقى برأسه إلى الوراء وحملق فى النجوم اللامعة. وتثاءب جود ووضع إحدى يديه تحت رأسه، كانا صامتين وشيئًا فشيئًا بدأت حياة الأرض ذات المنزلقات حياة الحفر والأخاديد، حياة الشجيرات، بدأت مرة أخرى. تحركت السلاحف والسناجيب وزحفت الأرانب نحو كل ما هو أخضر، وتقافزت الفئران فوق كتل الطين الجاف وحامت فوق الرؤوس الجوارح المجنحة دون صوت.

الفصل السابع

فى المدن، على أطراف المدن، فى الحقول، فى الساحات الخالية فى مخازن السيارات المستعملة، مخازن السيارات المستهلكة، الجراجات المتخصصة فى نوع واحد من السيارات. عندنا سيارات مستعملة، سيارات مستعملة فى حالة جيدة، سيارات نقل رخيصة، ثلاث مقطورات، فورد ٢٧، نظيفة. سيارات مختبرة، سيارات مضمونة، الراديو مجانًا، سيارات ومائة جالون وقود مجانًا. ادخل واتفرج. سيارات مستعملة، لا مصاريف إضافية.

مساحة من الأرض ومجموعة من الخردة ومنزل يكفى لمكتب وكرسى ودفتر أزرق وحزمة من العقود المتهرئة، ممسوكة بمشابك الورق، وكومة نظيفة من عقود جديدة لم تستخدم. القلم، أحفظه ملآن، يعمل باستمرار، فقد تطير البيعة لأن القلم لم يعمل.

أبناء الزوانى هؤلاء هناك لا يشترون، يدخلون كل مخزن. إنهم متفرجون ينفقون كل وقتهم فى الفرجة ـ لا يريدون شراء أى سيارات، يستنفدون وقتك، لا يهمهم وقتك، هناك هذان الرجلان، لا، الذين معهم الأطفال، خذهم إلى سيارة، وابدأ بمائتين ثم انزل.. إنهم لا يدفعون أكثر

من واحد وربع، زحلقهم، دعهم يشترون واحدة مخروبة، لبسها لهم فقد ضيعوا وقتنا.

ملاك بأكمام مشمرة، باعة، نظيفون، فى برود القتلة، وبعيون منتبهة ترقب جوانب الضعف.

راقب وجه المرأة، إذا أعجبت بها المرأة فتستطيع أن تعصر الرجل العجوز. ابدأ معهم بتلك الكاديلاك، ويمكنك بعد ذلك أن تهبط بهم إلى تلك البويك ٢٦. إذا بدأت بالبويك فسينتقلون إلى الفورد. شمَّر أكمامك وهيا إلى العمل. فلن يدوم هذا طويلاً. فرجهم على السيارة «الناش» فى الوقت الذى أصلح فيه أنا التنفيث البسيط فى الدودج ٢٥. سأعطيك إشارة عندما أجهز.

الذى تحتاج إليه هو النقل، أليس كذلك؟ أنت لا تحب الكلام الفارغ، بالتأكيد التنجيد قد بلى. ولكن مخدات المقاعد لن تدير العجلات.

السيارات تقف فى صفوف، أنوفها فى المقدمة، أنوف صدئة. وإطارات فارغة تنتظر بجوار بعضها.

أتحب أن تدخل وتتفرج على هذه السيارة؟ ليس هناك تعب إطلاقًا، سأخرجها لك من الصف ـ اجعلهم تحت حكم الاضطرار، اجعلهم يضيعون وقتك ولا تدعهم ينسون أنهم يضيعون وقتك. فالناس طيبون غالبًا ويكرهون أن يخذلوك، هم يخذلونك وعندئذ أحرث فيهم.

السيارات تقف فى صفوف، طرازات عالية وقذرة، عجلاتها تصرخ وقد بليت أربطتها. سيارات من طراز بويك وناش ودى سوتو.

نعم يا سيدى، دودج ٢٢ أحسن سيارة، دودج أفضل ملعونة صنعت حتى الآن. لا تبلى أبدًا، ذات ضغط واطئ، الضغط العالى يحتاج لوقود

كثير فى فترة قليلة، ولكن المعدن غير معد لكى يستمر طويلاً، سيارات من طراز بلايموث وروكينز وستارز.

يا يسوع! من أين أتت سيارة الأبرسون هذه. والآرك؟ والشندلر والشالمرز ـ لقد توقف صنعها منذ سنين. نحن لا نبيع السيارات خردة تجرى على عجلات. الله يلعنها، لابد أن أحصل على سيارات قديمة، لا أريد شيئًا بأكثر من ٢٥ أو ٣٠ دولارًا. سأبيعها بخمسين أو ٧٥. هذا ربح طيب.. بحق المسيح ماذا تحقق من ربح فى سيارة جديدة؟ أشتغل فى القديمة، أستطيع أن أبيعها بنفس السرعة التى أحصل بها عليها. لا سعر أعلى من مائتين وخمسين. جيم ـ عليك بابن الزنى الثائر هناك فى الزقاق، فهو لا يفرق بين شرجه وحفرة فى الأرض. حاول معه على سيارة الأبرسون هذه. إيه، أين سيارة الأبرسون؟ بيعت؟ لابد لنا من الحصول على بعض السيارات القديمة، فليس لدينا ما نبيعه.

رايات ـ بيضاء وحمراء، بيضاء وزرقاء، على طول السوق المقام فى الشارع سيارات مستعملة، سيارات مستعملة فى حال جيدة، صفقة اليوم فوق الرصيف لا تبعها أبدًا فهى تجذب الناس إلى الداخل. لو بعنا هذه الصفقة بهذا الثمن فلن نستطيع أن نربح مليمًا. قل لهم إنها قد بيعت لتوها. أخرج بطارية الجراج قبل التسليم وضع محلها هذه البطارية القديمة. بحق المسيح، ماذا يريدون مقابل خمسة عشر سنتًا؟ شمر أكمامك، ادخل فيهم لن يدوم هذا طويلاً. لو أن لدى سيارات قديمة كافية لاعتزلت العمل بعد ستة أشهر.

اسمع يا «جيم» لقد سمعت علبة التروس الخلفية فى السيارة الشيفروليه هذه، تبدو كمن يقذف بزجاجات المتفجرات. احشر فيها قبضتين من نشارة الخشب، وضع بعضًا فى علبة التروس أيضًا، لابد أن

نبيع هذه السيارة الصفراء مقابل ٣٥ دولارًا، ابن الزنى خدعنى فى هذه السيارة. عرضت عليه عشرة ولكنه رفعنى إلى خمسة عشر، وعندئذ أخذ ابن العاهرة العدد منها، قادر يا رب، لو كان عندى ٥٠٠ سيارة خردة، لن يتبقى منها شيء، ألا تعجبه الإطارات، قل له إنها ستتحمل عشرة آلاف ميل، خفض السعر دولارًا ونصف دولار.

أكوام من الحطام الصدئ بجوار الأسوار، وصفوف من الهياكل خلفها، إكصدامات الخردة المغطاة بالشحم. كتل راقدة على الأرض وقد نمت الأعشاب بين السلندرات. أذرع فرامل اليد، مواسير العادم، مكومة مثل الثعابين. شحم، غاز.

انظر، إنك لن تستطيع أن تجد صمامًا واحدًا غير مشروخ. بحق المسيح، لو أن عندى خمسين مقطورة بسعر أقل من مائة سأبيعها كلها. بحق جهنم لماذا يهيج بهذا الشكل؟ نحن نبيع السيارات وليس علينا أن نزقها لهم حتى البيت، حلوة هذه! نحن لا نزقها حتى البيت. خذ هذا الرجل إلى سيارة «المنثلى». تفتكر ألا أمل فيه؟ حسنًا اطرده، لدينا مشاكل كثيرة، وليس لدينا وقت نضيعه مع رجل لم يستقر على رأى بعد، اخلع الإطار الأيمن الأمامى من سيارة «الجراهام»، اجعل الجانب المطبق إلى أسفل، الباقى يبدو منتفخًا وسليمًا. بها دواساتها وكل شيء فعلاً. لا تزال هناك خمسون ألف دولار فى هذا الكوم القديم، احتفظ بكمية وافرة من الوقود، إلى اللقاء، حظ سعيد.

أتبحث عن سيارة؟ فيم تفكر أنت؟ هل شاهدت شيئًا جذب أنظارك؟ أنا عطشان، ما رأيك فى بلعة من شراب جيد، تعال معى بينما زوجتك تتفرج على سيارة «اللاسال» هذه أنت لا تريد «لاسال»، سوستها فسدت، تستهلك وقودًا كثيرًا، خذ لينكولن ٢٤، سيارة متينة لن تتوقف أبدًا، حولها إلى لورى.

الشمس حارة تضرب فى المعدن الصدئ، والزيت على الأرض والناس فى تجوالها وارتباكها فى حاجة إلى سيارة.

امسح قدميك، لا ترتكز على هذه السيارة فهى متسخة، كيف تشترى سيارة؟ كم يكلفك هذا؟ خذ بالك من الأطفال الآن؟ يا ترى كم يبلغ ثمن هذه؟ حسنًا اسأل. فالسؤال لا يكلف نقودًا. يمكننا أن نسأل، أليس كذلك؟ لا يمكن أن أدفع نكلة فوق خمسة وسبعين دولارًا وإلا فلن يتبقى شىء للذهاب إلى كاليفورنيا.

يا إلهى لو أننى أستطيع أن أحصل على سيارة قديمة، لا يهمنى إن كانت تسير أم لا.

إطـارات مستعملة، ومضروبة، مصفوفة فى صفوف طويلة كالأسطوانات، إطارات داخلية حمراء ورمادية، معلقة كالسجق. رقع إطارات؟ فرشة ردياتير؟ مشعل شرارة؟ ضع هذه البلبوعة الصغيرة فى خزان الوقود وستحصل على عشرة أميال أزيد فى كل جالون. ادهنها وستحصل على سطح جديد مقابل خمسين سنتًا، مساحات، سيور مراوح، تيل، ربما كنت تريد صمامًا، لدى طقم جديد من الصمامات، ما الذى ستفقده مقابل نكلة؟

حسنًا يا «جو»، دوخهم واقذف بهم إلى هنا، وسأغلق عليهم.. إما أن أبيعهم أو أقتلهم. لا ترسل إلى صياعًا، أريد صفقات.

نعم يا سيدى، ادخل، أتريد أن تقايض، نعم يا سيدى تستطيع أن تقايض مقابل ثمانية دولارات.

لا يمكن أن أزيد على خمسين دولارًا، الرجل فى الخارج قال خمسين دولارًا.

خمسون، خمسون؟ عقل ناقص، لقد دفعت ثمانية وسبعين دولارًا ونصف دولار فى هذه السيارة الصغيرة، «جو»، يا مجنون، أنت ستضيعنا؟ لابد أن أبلغ هذا الرجل، كان فى الإمكان أن أحصل على ستين. والآن انظر يا سيدى لن أستمر معك طول النهار، أنا رجل أعمال، لم آت بك من الخارج، هل لديك ما تبيعه؟

لدى بغلان سأبيعهما.

بغال؟ هاى «جو»، اسمع هذا؟ هذا الرجل يريد أن يبيع بغالاً، ألم يقل لك أحد إننا فى عصر الآلة. إنهم لا يستخدمون البغال إلا فى الحصول على الغراء الآن.

إنها بغال كبيرة جيدة، عمرها خمس أو سبع سنوات. ربما كان من الأفضل أن نبحث فى مكان آخر.

مكان آخر، أنت تأتى إلى هنا ونحن مشغولون وتضيع وقتنا ثم تخرج. «جو» أكنت تعرف أنك تتكلم مع عمال تراحيل؟

أنا لست من عمال التراحيل، لابد أن أحصل على سيارة، نحن ذاهبون إلى كاليفورنيا. لابد أن أحصل على سيارة.

حسنًا، أنا ما زلت طفلاً، «جو» يقول إننى طفل، وإننى لو لم أكفُّ عن طيبة قلبى هذه فسأموت من الجوع، أقول لك ما سأفعله، سأشترى منك البغلين بخمسة دولارات للواحد كطعام للكلاب.

أنا لا أحب أن يصيرا طعامًا للكلاب.

حسنًا، يمكن أن أحصل على عشرة أو سبعة، أقول لك ما سنفعله، سنأخذ بغالك بعشرين، العربة معهم أليس كذلك. ولتكمل أنت الخمسين دولارًا وتوقع على عقد لكى ترسل الباقى عشرة دولارات كل شهر.

ولكنك قلت ثمانين.

ألم تسمع أبدًا عن الفوائد والتأمين هذا يرفع السعر قليلاً، ستسدد ثمنها كله فى أربعة أو خمسة أشهر، وقع اسمك هنا وسنعنى نحن بكل شىء.

حسنًا، لا أعرف.

اسمع الآن، لقد وسعت لك صدرى وأنت ضيعت منى كل هذا الوقت. كان يمكننى أن انتهى من ثلاث بيعات بدلا من التكلم معك، أنا متضايق، أيوه، وقع هنا، حسنًا يا سيد «جو»، املأ الخزان لهذا الجنتلمان، فسنعيطه وقودًا من عندنا.

يا يسوع! «جو» كانت هذه عملية ساخنة ماذا دفعنا فى هذه المخروبة؟ ثلاثين دولارًا، خمسة وثلاثين أليس كذلك؟ وأخذنا البغلين والعربة. ولو لم أحصل على خمسة وسبعين دولارًا لها فلن أكون رجل أعمال، وحصلت على خمسين دولارًا نقدًا وأربعين بكمبيالات. أنا عارف أنهم ليسوا جميعًا شرفاء ولكنك ستدهش كم منهم سيوفون بالباقى. لقد جاء رجل مرة بمائة دولار بعد عامين وكنت شطبت اسمه، أراهنك أن هذا الرجل سيرسل النقود. بحق المسيح لو أننى أستطيع الحصول على خمسمائة سيارة خردة! شمر أكمامك يا «جو»، اخرج ودوخهم وأرسلهم لى هنا. نصيبك عشرون دولارًا فى الصفقة الأخيرة هذه، أنت لا تكسب إلا قليلاً. الراياتُ متهدلة فى شمس العصر ـ صفقة اليوم، فورد ٢٩ نصف لورى تجرى جيدًا.

ماذا تريد مقابل ٥٠ دولارًا، عربة زفير؟

شعر الخيل يبرز من مخدات المقاعد، الإكصدامات ملوية ومستعملة، مفاتيح بالية، سيارة فورد مزخرفة للنزهة ذات أنوار صغيرة ملونة على جوانب الإكصدام وفوق غطاء الرادياتير وثلاثة فى الخلف. فوطة تنظيف وحلية كبيرة على ذراع ناقل السرعة. فتاة جميلة مرسومة بالألوان على

غلاف الإطار، اسمها كورا، وشمس العصر على زجاج العربات الأمامى المترب.

بحق المسيح ليس لدى وقت لأخرج وآكل، «جو» ابعث صبيًا يأتى لنا بسندويتشات لحم.

زمجرة الماكينات القديمة المتقطعة.

هناك أرنب أبكم ينظر إلى تلك السيارة الكريزلر. حاول أن تعرف هل معه أى مفاتيح أو ما شابه فى جيوب بنطلونه، بعض فتيان الفلاحين هؤلاء نشالون. دوخهم ودحرجهم إلى فى الداخل، جو أنت تكسب جيدًا.

طبعًا، نحن الذين بعناها. ضمان؟ لقد ضمناها أن تكون سيارة، نحن لم نضمن تمريضةا، والآن استمع إلى هنا، أنت، أنت اشتريتها سيارة وها أنت ذا تصرخ الآن، لا يهمنى ألا تدفع ما عليك، أوراقك ليست عندنا، لقد حولناها إلى الشركة المالية، وهم الذين سيطالبونك لا نحن. نحن لا نحتفظ بأى أوراق، أيوه؟ حسنًا، حاول أن تتصرف بأى شكل عنيف وسأنادى البوليس، لا، نحن لم نغير الإطارات. جره إلى الخارج هنا يا «جيم»، لقد اشترى سيارة ولكنه غير راض الآن، ما رأيك إذا أنا اشتريت ساندويتش لحم، وأكلت نصفه ثم حاولت إرجاعه؟ نحن ندير عملاً لا ملجأ خيريًا، هل تتصور هذا الرجل يا «جو»؟ اسمع؟ انظر هناك، الرجل ذو الأسنان الكبيرة، اجر إليه، وفرجه على السيارة «البونتياك» ٣٦ أيوه!

أنوف سيارات مربعة، وأنوف مستديرة، وأنوف صدئة، أنوف مدببة، تصميمات انسيابية طويلة، وسطوح مستوية، صفقة اليوم، سيارات مهولة، ذات تنجيد وثير، تستطيع أن تحولها إلى لورى بسهولة، مقطورات ذات عجلتين، والدناجل صدئة فى شمس العصر الحارة. عربات مستعملة، عربات مستعملة فى حالة جيدة، نظيفة، تجرى جيدًا، لا تستهلك وقودًا. وسيدنا المسيح، انظر لها، كان صاحبها يعتنى بها جيدًا.

سيارات من طراز كاديلاك، لاسال، بويك، بلايموث، باكار، شيفروليه، فورد، بونتياك، صفوف وراء صفوف.. سيارات مضمونة! والكشافات الأمامية تلمع فى شمس العصر، وسيارات مستعملة فى حالة جيدة.

دوخهم يا جو، يا يسوع، وددت لو عندى ألف سيارة خردة، على استعداد لبيعها وسأفرغ منها.

أذاهب إلى كاليفورنيا؟ هنا ما تريده بالضبط، تبدو مستهلكة، ولكنها لا تزال تستطيع أن تتحمل آلاف الأميال.

سيارات مستعملة فى حالة جيدة، صفت بجوار بعضها، نظيفة. صفقات، تجرى بسرعة.

الفصل الثامن

أصبح لون السماء رماديًا بين النجوم، كان القمر فى أيام الشهر الأخيرة رقيقًا وشفافًا، وسار «توم جود» والواعظ بسرعة على الطريق الذى حفرته آثار العجلات والجرارات فى حقل القطن. كان وجه السماء غير المتجانس هو وحده الذى ينبئ باقتراب الفجر. لم يكن الأفق قد ظهر فى الغرب بعد. ولم يزد على خط دقيق فى الشرق. وسار الرجلان فى صمت تملأ خياشيمهما رائحة التراب الذى تثيره أقدامهما.

قال «جيم كيزى»: «أرجو أن تكون متأكدًا من الطريق، فأنا أكره أن يطلع الفجر علينا فنجد أنفسنا قد ضللنا طريقنا إلى مكان لا نعلمه».

وبدأت الحياة تدب فى حقول القطن، طيور الصباح تقفز مسرعة على الأرض تبحث عن طعامها، الأرانب الفزعة تجرى على الطين الجاف، ووقع أقدام الرجلين المكتوم على التراب، وصوت تفتت الحصى تحت أحذيتهما يختلط بأصوات الفجر المبهمة.

وقال «جود»: «يمكننى أن أغلق عينى وأمضى إلى هناك. ولا يمكن أن أخطئ إلا إذا فكرت فى الأمر. يكفى أن أغفل عنه وسأصل هناك تمامًا. يا رجل، لقد ولدت فى هذه الأنحاء. وجريت فيها عندما كنت صبيًا. توجد

شجرة هناك، انظر إنك لا تكاد تتبينها. لقد علق فيها أبى مرة ذئبًا صغيرًا ميتًا. وظل معلقًا هناك حتى ذاب تقريبًا. ثم سقط جافًا مثل... يا يسوع أرجو أن تكون أمى قد طبخت شيئًا ما. إن بطنى كالكهف الفارغ».

فقال «كيزى»: «وأنا أيضًا، أتحب أن تمضغ بعض الطباق؟ يجعلك لا تحس بجوع شديد. كان من الأفضل ألا نبدأ مبكرًا بهذا الشكل، كان من الأفضل لو انتظرنا الضياء.. وصمت لكى يتمكن من مضغ قطعة الطباق ثم قال: «لقد نمت نومًا جيدًا». فقال «توم»: «لقد فعلها «مولى» المجنون، جعلنى أقفز وهو يوقظنى ليقول، إلى اللقاء يا «توم». أنا ذاهب، لابد أن أذهب إلى بعض الأماكن. ويستحسن أن تمضى أنت أيضًا حتى تكون خارج هذه الأرض قبل أن ينتشر الضياء. ومضى، إنه يتحول إلى حيوان شارد ككلب البرارى. يعيش على هواه، كما لو كان الهنود الحمر يطاردونه أعتقد أنه مجنون».

«حسنًا. أنا لا أعرف بالدقة. ولكنك رأيت السيارة التى جاءت أمس عندما أشعلنا نارًا صغيرة، ورأيت كيف كان المنزل محطمًا. هناك شىء ما يدور فى هذا المكان. بالطبع «مولى» مجنون تمامًا... يعيش كما يعيش الذئب ويزحف هنا وهناك، وذلك كفيل بأن يفقده الرشد. وعما قريب سيقتل إنسانًا وسيطاردونه بالكلاب البوليسية. فى إمكانى أن أرى كل هذا كأنه رؤيا، ستزداد حالته سوءًا على سوء. هل قلت إنه رفض أن يأتى معنا؟»

فقال «جود»: «لا.. أعتقد أنه يخشى أن يرى الناس الآن، غريبة أنه جاء إلينا. سنصل إلى منزل عمى مع شروق الشمس». وسارا معًا فى صمت وفوقهما تطير البوم العائدة متأخرة إلى أوكارها ومكامنها فى الزرائب والمنازل المهجورة والأشجار المجوفة. وازداد صفاء سماء الشرق،

وأمكن أن يرى الإنسان شجيرات القطن والأرض رمادية وقال «جود»: «لا أستطيع أن أتخيل كيف ينامون جميعًا عند عمى «جون»، ليس لديه سوى غرفة واحدة وركن للطبخ وزريبة صغيرة، لابد أنه زحام جدًا الآن هناك».

وقال الواعظ: «أنا لا أذكر أن «جون» هذا كانت له أسرة، كان رجلاً وحيدًا، أليس كذلك؟ أنا لا أذكر الكثير عنه».

فقال «جود»: «أكبر رجل وحيد فى العالم، ابن عاهرة مجنون هو الآخر. شىء مثل «مولى»، وربما أسوأ فى بعض النواحى. قد تراه فى أى مكان، فى «شونى» يسكر، أو يزور أرملة على بعد عشرين ميلاً، أو يعمل فى حقله على ضوء فانوس. مجنون، كل الناس اعتقدت أنه لن يعيش طويلاً، فإن رجلاً وحيدًا مثله لا يعيش طويلاً، ولكن عمى «جون» أكبر سنًا من أبى وهو يزداد صلابة وجسارة على مر الزمن، أكثر من جدى».

قال الواعظ: «أترى النور وهو ينتشر كالفضة. ألم يكن لعمك «جون» عائلة أبدًا؟».

«حسنًا، لقد كان له عائلة، وهذا ما يكشف لك عن شخصيته وعن أساليبه. لقد حكى لنا أبى عن عمى «جون» أنه كانت له زوجة شابة، كانت امرأة طيبة، كان قد مضى على زواجهما أربعة أشهر، وكانت حاملاً أيضًا وذات ليلة جاءتها آلام فى معدتها فقالت له يستحسن أن تستدعى الطبيب، ولكن «جون» ظل جالسًا مكانه وقال ليس بك إلا عسر هضم، لقد أكلت كثيرًا، خذى جرعة من مسكن الألم، لقد زحمت معدتك فأصبت بعسر هضم، وفى ظهر اليوم التالى غابت عن الوعى وماتت فى العصر».

فسأله «كيزى»: «وماذا حدث، أتسممت من شىء أكلته؟».

«لا.. شىء ما انفجر فى داخلها.. زا.. زائدة.. أو شىء من هذا القبيل،

حسنًا لقد كان عمى «جون» رجلاً بسيطًا على الدوام، ولقد عانى كثيرًا من هذه الحادثة. اعتبرها خطيئته، وظل فترة طويلة لا يتكلم مع أحد، ولم يفعل إلا أن يتجول كالرجل الأعمى، ويصلى أحيانًا. ولم يتخلص من هذه الحالة إلا بعد سنتين، ومنذ ذلك الوقت لم يعد كما كان.. ازداد بعدًا عن الناس. يهوى إيذاء نفسه، وفى كل مرة اشتكى واحد منا من ديدان أو مغص كان يستدعى الطبيب، كان يرى أنها غلطته أن امرأته ماتت. رجل غريب تجده على الدوام يساعد إنسانًا ما، يعطى الأولاد طعامًا، يترك جوال دقيق على عتبة إنسان ما، ينفق كل ما يحصل عليه إلا أنه لا يزال غير سعيد، يهيم على وجهه وحيدًا فى بعض الليالى. ومع ذلك فهو فلاح شاطر، زراعته دائمًا فى حالة جيدة».

قال الواعظ: «يا له من رجل مسكين، يا له من رجل مسكين ووحيد. هل كان يذهب إلى الكنيسة كثيرًا بعد أن ماتت امرأته».

«لا.. لم يذهب.. لم يكن يريد أن يقترب من الناس، بل كان يريد أن يظل وحيدًا. ما رأيت صبيًا إلا وأحبه بجنون، كان يأتى إلى منزلنا فى بعض الليالى بعد أن ننام، وفى الصباح نعرف أنه أتى لأنه حين يأتى يترك لكل منا بجانبه باكو لبان على السرير، كنا نظن أنه يسوع المسيح القدير!».

لم يجب الواعظ، وهو يجد فى السير وقد أطرق رأسه ولمعت جبهته فى ضوء النهار القادم ويداه بجواره تتأرجحان، تخفقان كالجناحين فى هذا النور.

وسكت «توم» أيضًا، كأنه قد باح بأمور شخصية جدًا ـ يخجل منها ـ وأسرع خطاه فأسرع الواعظ مثله. أصبح فى إمكانهما أن يريا قليلاً فى الجو الرمادى أمامهما. وزحف ثعبان ببطء خارج حقل القطن إلى الطريق، ووقف «توم» بالقرب منه وتأمله. ثم قال: «ثعبان غيط، دعه يذهب»، ودارا

حول الثعبان ومضيا فى طريقهما. وتلون وجه السماء الشرقى قليلاً، وسرعان ما زحف ضوء الفجر الحزين على الأرض. وظهر اللون الأخضر على أشجار القطن، والأرض بلونها البنى الرمادى، وفقدت وجوه الرجال بريقها الرمادى وبدا أن وجه «جود» يكفهر مع تزايد الضياء. وقال بصوت خافت: «هذا هو أجمل الأوقات التى تعودت دائمًا وأنا صبى أن أستيقظ فيها وأتجول فى هذه الأنحاء وحدى. ماذا هناك أمامنا؟»

كانت لجنة من الكلاب قد اجتمعت لتكريم كلبة. كانوا خمسة ذكور، كلاب رعى، وكلاب حراسة مولدة، وكلاب اختلطت أنواعها نتيجة الحياة الاجتماعية الحرة، كل منهم مشغول فى ملاطفة الكلبة، كان كل كلب يتشمم حواليه برشاقة ثم يقف بجوار شجرة قطن منتصب السيقان ويرفع قدمه الخلفية فى احتفاء، ثم يبول. ويعود إلى التشمم مرة أخرى. وقف «جود» والواعظ يشاهدان ما يحدث. ثم فجأة ضحك «جود» فى ابتهاج وقال: «يا إلهى.. يا إلهى..!». ثم تقابلت الكلاب وانتصبت شعورها وزمجرت وهى تقف متصلبة كل منها ينتظر من الآخر أن يبدأ المعركة، ثم تقدم كلب وركب الكلبة. وإذ انتهى الأمر، تنحى الآخرون ووقفوا يتفرجون باهتمام وقد تدلت ألسنتهم ينقط منها اللعاب واستأنف الرجلان المسير. وقال «جود»: «يا إلهى، أعتقد أن الكلب الذى فاز هو كلبنا «فلاش»، كنت أظن أنه مات، «فلاش»، تعال» ثم ضحك ثانية وقال: «لو أن أحدًا نادانى وأنا فى هذه الحالة فلن أسمع أيضًا. يذكرنى هذا بحكاية عن «ويلى فيلى» عندما كان صغيرًا. كان «ويلى» خجولاً، خجولاً جدًا. ثم حدث ذات يوم أن أخذ عِجْلَته إلى ثور «جريفز»، ولم يكن هناك أحد سوى «إلزى جريفز». ولم تكن «إلزى» تخجل أبدًا. ووقف «ويلى» وقد احمر خجلاً فقالت «إلزى»: «أنا عارفة لم جئت، الثور فى الخارج خلف الزريبة، وأخذا العِجْلَة وذهبا بها معًا. وجلسا على السور يتفرجان ولم

يمض وقت طويل حتى طاش صواب «فيلى» والتفت له «إلزى» وقالت كأنها لا تعرف: ما الذى دهاك يا «ويلى»؟ ولكن «ويلى» كان فى حالة من الهياج، لم يستطع معها الجلوس وقال: «يا إلهى. يا إلهى وددت لو أفعل أنا هذا»، فقالت «إلزى»: «وما الذى يمنعك.. إنها عِجْلَتَك!».

وضحك الواعظ برفق وقال: «أتعرف، جميل فعلاً أننى لم أعد واعظًا، فلم يكن أحد يحكى لى هذه الحكايات عندما كنت واعظًا. وإذا فعلوا لم يكن فى إمكانى أن أضحك. ولم يكن فى إمكانى أن أسب أو ألعن. أما الآن فأنا أفعل هذا عندما أحب، والإنسان يرتاح أحيانًا عندما يسب إذا ما شاء ذلك».

واصطبغ الأفق الشرقى باللون الأحمر، وبدأت الطيور تزقزق على الأرض. وقال «جود»: «انظر هذا هو خزان عمى «جون» لست أرى مروحة الطلمبة ولكن هذا هو الخزان بالفعل، أتراه بارزًا فى وجه السماء؟»

وأسرع فى مشيته وهو يقول: «يا ترى هل كل الأهل هناك؟» كان هيكل الخزان منصوبًا فوق أحد المرتفعات. وأثار «جود» فى مشيه المسرع سحابة من الغبار حول ركبتيه: «يا ترى أمى...» ووضحت لهما فى هذه اللحظة قوائم الخزان، والمنزل، مجرد مبنى مربع بلا طلاء وعار، والزريبة ذات سقف منخفض ومحشورة. كان الدخان يتصاعد من مدخنة المنزل الصفيح وفى الفناء تكومت قطع الأثاث والكراكيب وريش مروحة الهواء ومحركها وقوائم أسرة، وكراسى وموائد. قال «جود»: «يا إلهى إنهم يعدون أنفسهم للرحيل»... كانت هناك سيارة نقل تقف فى الفناء ذات جوانب عالية، ولكنها كانت سيارة غريبة، للوهلة الأولى كان مقدمها من طراز سيدان ولكن الجزء العلوى منها قد شق منتصفه وثبتت عليه أرضية السيارة. وعندما اقتربا كان فى إمكانهما أن يسمعا أصوات الطرق فى الفناء.

وحين برزت حافة قرص الشمس فى الأفق، وسقطت أشعته على سيارة النقل، ما أمكن من رؤية رجل وبريق مطرقته يرتفع وينخفض. ولمعت الشمس على نوافذ المنزل. كانت أخشاب المنزل التى لوحتها الشمس لامعة. وعلى الأرض انعكس ضوء الشمس على دجاجتين حمراوين فتوهجتا احمرارًا.

وقال «توم»: «لا تناد على أحد، دعنا نزحف إليهم فى هدوء». وأسرع من خطوه فارتفع الغبار حتى وسطه، ثم وصلا إلى حافة القطن وهما الآن فى قلب الفناء فعلاً، الأرض مدكوكة وصلبة لامعة، وليس عليها إلا بعض الأخشاب المتسلقة القليلة. وأبطآ «جود» فى مشيته كأنما يخشى أن يتقدم. ولاحظ الواعظ ذلك فأبطآ حتى يواكبه. وتقدم «توم» ببطء، ثم تسلل فى ارتباك ناحية السيارة من طراز هدسون سوبر ٦، ببابين، «سيدان» وقد شق نصفها الأعلى على البارد بإزميل، وكان «توم الكبير» واقفًا فى قلب السيارة يثبت بالمسامير الدرابزين العلوى لجوانبها. كان منكفئًا على عمله بوجهه الأشيب غير الحليق، وقد برزت من فمه حزمة من المسامير. وثبت مسمارًا ثم دقه بشاكوشه، ومن داخل المنزل وصل صوت إغلاق الفرن المعدنى، وبكاء طفل.

تسلل «جود» إلى السيارة واستند إلى جدارها. والتفت إليه أبوه ولكنه لم يره، وثبت مسمارًا آخر ودقه، وطار سرب من الحمام من مكانه على قوائم الخزان ودار، ثم استقر ثانية فى أعشاشه ووقفت الحمائم على حوافيها، تطل: حمام أبيض وأزرق ورمادى، بأجنحتها ذات الألوان المتغيرة فى الضوء.

وتعلق «جود» بأصابعه فى القضيب الأسفل على جانب السيارة ورفع بصره إلى الرجل الواقف فوقها، الذى أخذ الشيب يدب فى رأسه وتتقدم به السن، وبلل شفتيه الغليظتين بلسانه قبل أن يقول بلطف «بابا».

وتمتم «توم الكبير» بفمه الممتلئ بالمسامير: «ماذا تريد؟» كان يرتدى قبعة سوداء قذرة متهدلة، وقميص شغل أزرق فوقه صدارى بلا زراير، أما بنطلونه فقد ثبت على وسطه بحزام جلدى ناشف عريض، له توكة مربعة كبيرة وقد لمع الجلد والنحاس من طول ما استخدما. أما حذاؤه فقد تشقق وانتفخ منه النعل من طول السنين التى تعرض فيها للشمس والماء والتراب. وكانت أكمام قميصه ملتصقة على عضديه تبقيها فى مكانها عضلاته القوية المنتفخة، نحيف الردفين، ضامر البطن ذو ساقين قصيرتين ولكنهما قويتان ثقيلتان، كان وجهه مربعًا بلحية يتخللها المشيب تحيط بذقن قوى يبرز فى اللحية التى لم تكن رمادية فوق الذقن كما كانت حول الوجه، والتى كانت تساعد على إبراز قوة هذا الذقن، وكانت أصداغه الجرداء من الشعر بنية فى لون الصلصال وقد انتشرت فيها التجاعيد كالأشعة حول زاويتى العينين من كثرة التحديق. كانت عيناه بنيتين فى لون القهوة السوداء. وحين ينظر إلى شىء ما، كان يضطر إلى الانحناء برأسه إلى الأمام لأن عينيه اللامعتين القائمتين أخذتا تضعفان. أما شفتاه التى برزت من بينهما المسامير فقد كانتا حمراوين دقيقتين.

كانت مطرقته معلقة فى الهواء على استعداد لأن يطرق بها مسمارًا عندما نظر إلى «توم» الواقف بجوار السيارة وقد ضايقه أن يقاطعه أحد. عندئذ اندفع ذقنه إلى الأمام، وحملقت عيناه فى وجه «توم» ثم بدأ عقله يدرك بالتدريج الوجه الذى يراه. وسقطت المطرقة ببطء إلى جواره ونزع المسامير من فمه بيده اليسرى ثم قال فى تعجب كأنه يؤكد لنفسه هذه الحقيقة: «إنه توم» ثم استمر كأنه يخبر نفسه بما يراه: «لقد عاد توم» ثم فتح فمه مرة أخرى وبدت فى عينيه نظرة خوف وقال بصوت خافت: «توم.. أنت هربت؟ هل أنت مطارد؟» وأنصت منفعلاً...

قال «توم»: «لا... لقد أفرج عنى بالإفراج الشرطى، أنا حر، ومعى أوراقى» وامسك بآخر قضبان جانب السيارة وهو ينظر إلى أعلى.

ووضع «توم الكبير» مطرقته بهدوء على الأرض، ووضع المسامير فى جيبه، ولكنه ما إن وقف بجوار ابنه حتى بدا مرتبكًا وغريبًا وقال: «توم. سنذهب إلى كاليفورنيا، وكنا ننوى أن نكتب لك خطابًا نخبرك بذلك» ثم قال، غير مصدق: «ولكنك عدت وستذهب معنا أليس كذلك؟» واصطفق غطاء إناء القهوة فى داخل المنزل فالتفت «توم الكبير» خلفه وقال: «دعنا نفاجئهم» وبرقت عيناه من الانفعال: «لقد كان عند أمك إحساس سيئ بأنها لن تراك مرة أخرى، سكنت نظراتها كمن مات عنده عزيز، كانت لا تريد أن تذهب إلى كاليفورنيا خوفًا من أنها لن تراك ثانية» وتردد رنين غطاء الموقد ثانية داخل المنزل: «دعنا نفاجئهم، دعنا ندخل كأن لم تتركنا أبدًا، دعنا نر ما الذى ستقوله أمك» وأخيرًا تقدم ولمس «توم»، ولكنه كان هيابًا وهو يلمس كتفه ثم أبعد يده فى الحال ونظر إلى «جيم كيزى».

فقال «توم»: «أتذكر الواعظ يا أبى، لقد أتى معى».

«هل كان فى السجن أيضًا؟»

«لا، لقد قابلته على الطريق، كان قد رحل من هنا».

فصافحه الأب بوقار وقال: «مرحبًا بك هنا يا سيدى».

فقال «كيزى»: «أنا سعيد لوجودى هنا، إن منظر عودة الابن إلى البيت يستحق الرؤية، يستحق الرؤية فعلاً».

فقال الأب: «بيت!».

فصحح الواعظ قوله بسرعة قائلاً: «إلى أهله» واستطرد: «لقد قضينا الليلة الماضية هناك»... فى المكان الآخر.

وبرز ذقن الأب والتفت خلفه إلى الطريق لحظة ثم استدار إلى «توم» وقال فى انفعال: «وكيف نخبرها؟ افترض أننى دخلت وقلت هناك بعض الصحاب يريدون تناول الإفطار. أو ما رأيك فى أن تدخل وتقف هناك حتى تراك؟ وما رأيك فى هذا؟» كان وجهه يموج بالانفعال...

وقال «توم»: «لا داعى لأن نصدمها، لا يجب أن نفزعها»

وجاء كلبان أصيلان من كلاب الرعى، يركضان فى ابتهاج حتى اشتما الغرباء. عندئذ تراجعا فى حذر ويقظة، يحركان ذنبيهما متحسسين الهواء على مهل، على عكس عيونهما وأنفيهما التى تحركت بسرعة تشم الخطر أو العداء. ومد أحدهما رقبته وتقدم إلى الأمام على استعداد لأن ينطلق فى أى لحظة، وشيئًا فشيئًا اقترب من ساقى «توم» ونفر بصوت عال بجوارهما، ثم تراجع ونظر إلى الأب منتظرًا أى إشارة. أما الكلب الآخر فلم يكن على هذا القدر من الشجاعة، لذا بحث له عن أى شىء يبرر بشرف، أن يتحول انتباهه إليه، فرأى دجاجة حمراء تسير وتنبش بجواره فجرى نحوها، وعلا صوت الدجاجة الفزعة صارخة وتناثر بعض من ريشها الأحمر، وهربت الدجاجة تخفق بأجنحتها القصيرة لتهرب مسرعة. ونظر الكلب بفخار خلفه إلى الرجال ثم ارتمى على التراب يضرب ذيله على الأرض فى رضا.

قال الأب: «تعال، تعال ندخل الآن، ينبغى أن تراك. ولابد أن أرى وجهها حين تراك، ستنادى على الإفطار بعد دقيقة فقد سمعتها تضع لحم الخنزير المملح فى الطاسة منذ مدة» وقادهما عبر الأرض التى غطاها التراب الناعم. لم يكن لهذا المنزل مدخل خارجى مسقوف، مجرد عتبة ثم الباب وبجوار الباب «قرمة» وقد نُعم سطحها واستوى من طول ما استعملت فى فرم اللحم وتقطيعه. كان خشب الجدران خشنًا إلى مستوى

مرتفع فقد تآكل سطحه الناعم بفعل التراب. وملأت رائحة الصفصاف المحترق الجو. وعندما اقترب الرجال الثلاثة من الباب، ملأت خياشيمهم رائحة اللحم المشوى والبقسماط الناشف. ورائحة القهوة النفاذة تغلى فى الإناء. وخطا الأب إلى الباب ووقف يسده بجسمه القصير العريض وقال: «أماه، جاءنا الآن رجلان من الطريق ويسألان ما إذا كنا نستطيع أن نقدم لهما لقمة».

وسمع «توم» صوت أمه، وتذكر ذلك الصوت الهادئ الرطيب الصدوق المتواضع، وسمعها تقول: «دعهما يدخلان، لدينا الكثير، قل لهما أن يغسلا أيديهما فقد أعددت الخبز. وسأفرغ من إعداد اللحم حالاً». وعلا صوت نشيش اللحم المزمجر فوق الموقد. وخطا الأب إلى الداخل بعيدًا عن الباب ونظر «توم» إلى أمه. كانت ترفع اللحم وتقلبه فى الطاسة، وكان باب الموقد مفتوحًا وفى داخله صينية كبيرة عليها بقسماط محمص. ونظرت خارج الباب ولكن الشمس كانت خلف «توم» فلم تر إلا شبحًا قاتمًا تحوطه أشعة الشمس الصفراء اللامعة. وأومأت مرحبة وقالت: «تفضلا من حظكما أننى خبزت خبزًا كثيرًا هذا الصباح».

ووقف «توم» ينظر إليها، كانت الأم ممتلئة ولكنها ليست بدينة، كان امتلاؤها بسبب حمل الأطفال والعمل. ترتدى مريلة من قماش رمادى تبدو به آثار زهور ملونة حال لونها من كثرة الغسيل حتى أصبحت آثار الزهور الصغيرة رمادية أفتح من لون الأرضية. وكان الرداء ينسدل حتى كعبيها، وكانت قدماها العريضتان القويتان الحافيتان تتحركان بسرعة وحزم على الأرض. كانت قد جمعت شعرها الخفيف الرمادى وعقصته دون تضفير خلف رأسها، وقد عرت ذراعيها القويتين اللتين علاهما النمش حتى مرفقيها، وكانت يداها رقيقتين ممتلئتين كأنهما لفتاة صغيرة لحيمة، ونظرت خارجًا إلى ضوء الشمس، لم تكن ملامح وجهها ناعمة، بل بدت تتحكم فى تعابيره بهدوء.

بدت عيناها فى لون البندق وكأنها قد خاضت تجارب كل المآسى، وكأنها صعدت على سلم الألم والمعاناة فى هدوء وتفهم يفوق طاقة البشر. بدت تعرف، وتقنع، وترحب بوضعها حصنًا للعائلة، الحصن المنيع الذى لا يمكن أن يقتحم، ولما كان «توم الكبير» والأطفال لا يداخلهم الخوف أو الأذى إلا إذا بدا عليها هى الخوف والأذى، فقد اعتادت أن تطويهما داخل نفسها. ولما كانوا ينظرون إليها كلما حدث شىء مهم ليروا البهجة فى وجهها، فقد اعتادت أن تصطنع الضحك من أشياء لا تستحق الضحك. ولم يكن يفوق بهجتها سوى سكينتها. فرباطة الجأش فضيلة تعتمد عليها. ولقد اكتسبت من مكانتها العظيمة والمتواضعة فى العائلة، مهابة وجمالاً هادئًا نقيًا، واستمدت يداها من كثرة ما ضمدت جراح الآخرين ثقة، ويقينًا، وسكينة نفس. ومن وضعها كفيصل فى شىءون الأسرة أصبحت كالإلهة، مترفعة، معصومة. وكأنها تعلم أنها لو مالت فستهتز العائلة، وأنه لو حدث فعلاً أنها ترنحت أو جزعت فإن العائلة ستتهاوى ويتبدد عزمها على الاستمرار.

نظرت إلى الفناء المشمس وإلى هيئة الرجل المعتمة، ووقف بجوارها الأب يهتز انفعالاً وصاح يقول: «ادخل، ادخل يا سيدى» وخطا «توم» بوجه خجول فوق عتبة الباب.

ورفعت بصرها إليه مرحبة من فوق المقلاة، وعندئذ ارتخت يداها ببطء إلى جوارها. ووقعت الشوكة على الأرض الخشبية، واتسعت عيناها، وانفتحت حدقتاها، وبدأت أنفاسها تتلاحق من فمها المفتوح ثم أغمضت عينيها وقالت: «شكرًا يا إلهى! أوه شكرًا يا إلهى!» وفجأة ظهر القلق على وجهها وقالت: ««توم».. هل أنت مطارد؟ هل هربت؟».

«لا يا أماه. إفراج شرطى ومعى أوراقى هنا» وأشار لامسًا صدره.

خطت نحوه فى رفق بقدمين عاريتين لا صوت لهما ووجه ينطق بالدهشة، ولمست يدها الصغيرة ذراعه وتحسست عضلاته، ثم رفعت أصابعها إلى وجنتيه كما يفعل الأعمى وكانت الفرحة شبيهة بالأسى. وجذب شفته السفلى بين أسنانه وعض عليها، ونظرت فى استغراب إلى شفته السفلى فرأت خطأ قانيًا تجمع أمام أسنانه، وقطر الدم من شفتيه، عندئذ عرفت، وعادت إلى رباطة جأشها فأنزلت يدها. ثم زفرت بعنف وهى تصرخ قائلة: «حسنًا، لقد كدنا نذهب بدونك وكنا فى حيرة، كيف كان فى إمكانك أن تعثر علينا». والتقطت الشوكة من على الأرض وقلبت بها الشحم المغلى وأخرجت منه قطعة من لحم الخنزير المقدد الداكن. ثم وضعت إناء القهوة على ظهر الموقد.

وضحك «توم الكبير» وهو يقول: «ضحكت عليك يا أمى، أليس كذلك؟ كان غرضنا أن نضحك عليك وقد نجحنا، وها أنت ذى واقفة هناك كالعنزة التى دقت على رأسها. وددت لو أن الجد كان هنا ليراك. وكأن إنسانًا ما قد ضربك بين عينيك بعصا غليظة، كان سيضحك بشدة حتى ينخلع وسطه كما فعل يوم رأى «آل» يطلق النار على ذلك المنطاد الذى يملكه الجيش، ـ لقد حدث مرة يا «توم» أن جاء هذا المنطاد وطوله حوالى نصف ميل. فأحضر «آل» البندقية المقروطة وأطلق النار عليه ـ فصاح فيه الجد قائلاً: «لا تطلق النار على مثل هذه الطيور الصغيرة، انتظر حتى تأتى واحدة كبيرة، ثم انطلق ضحك بشدة حتى انخلع وسطه».

وقهقهت الأم وأنزلت رصة من الأطباق الصاج من فوق الرف.

وسأل «توم»: «أين جدى؟ لم أر هذا الشيطان العجوز!»

وفرشت الأم الأطباق فوق المائدة ووضعت الأكواب بجوارها وقالت له بصوت خفيض: «أوه، إنه ينام مع الجدة فى الجرن، وهما يستيقظان كثيرًا فى الليل وكانا يتعثران فى الأولاد الصغار».

وتدخل الأب قائلاً: «أيوه، كل ليلة يفقد الجد عقله، يتقلب فوق «وينفلد» فيصرخ «وينفلد» فيجن الجد ويبلل سراويله، وهذا ما يزيده جنونًا وسرعان ما يبدأ كل إنسان فى المنزل فى الزعيق بأقصى ما يستطيع». كانت الكلمات تتعثر فى قهقهاته وهو يقول: «أوه... يا لها من أيام عشناها، ذات ليلة وبينما كان كل واحد يزعق ويلوم الآخرين قال أخوك «آل» وقد أصبح فتى يافعًا الآن: «اللعنة يا جدى لماذا لا تهرب من هنا وتصبح قرصانًا؟» وفقد الجد عقله من هذه الجملة وذهب يبحث عن بندقيته واضطر «آل» أن يقضى الليلة فى المزارع. الجد والجدة ينامان الآن فى الجرن».

وقالت الأم: «إنهما يستيقظان ويخرجان عندما يحبان. يا أبى اذهب بسرعة وقل لهما إن توم قد عاد إلى البيت، فإن الجد معجب به جدًا».

فقال الأب: «طبعًا، كان لابد أن أفعل ذلك من قبل». وخرج من الباب وعبر الفناء وهو يطوح بذراعيه عاليًا.

تابعه «جود» وهو يمضى ثم جذب انتباهه صوت أمه التى تصب القهوة، ونادته مترددة خجلى دون أن تنظر إليه: «توم».

«أيوه!» وقد أثار خجلها خجله، وارتبك ارتباكًا غريبًا. كان كل منهما يعرف أن الآخر خجل ويتزايد خجله بهذه المعرفة.

«(توم)، لابد أن أسألك... هل فقدت عقلك؟»

«فقدت عقلى، ماذا تقصدين يا أمى؟»

«هل سمَّموا بدنك حتى أفقدوك عقلك؟ هل علَّموك الحقد والكراهية؟ طمئنى إلى أنهم لم يستطيعوا أن يفقدوك عقلك فى السجن».

وتأملها وقد وقفت بجانبه، وتساءلت عيناه من أين لها أن تعرف هذه الأمور. وقال: «لقد مكثت فترة قليلة ولست أفخر بالذى حدث مثل الآخرين، ولم أسمح للأحداث بأن تؤثر فىّ. ما الخبر يا أماه؟!»

كانت تنظر إليه وقد فتحت فاهها وكان ذلك يساعدها على الإنصات، وعيناها تتفحصانه لتزداد يقينًا.

بحث وجهها عن الإجابة التى تختفى دائمًا خلف الكلمات، وقالت فى صوت مضطرب: «لقد عرفت «فلويد» صبيًا طيبًا ـ عرفت أمه.. كانوا أسرة طيبة، كان نشطًا كما يجب أن يكون كل ولد طيب». وصمتت ثم تدفقت منها الكلمات: «لا أعرف هذه الأمور، ولكننى أعرف هذا. كان قد أخطأ خطأ صغيرًا، فآذوه، أمسكوه وآذوه حتى فقد عقله وحين أخطأ مرة أخرى، كان بسبب هذا. ولقد آذوه ثانية وسرعان ما جن جنونًا كاملاً وأطلقوا عليه النار كالحشرة، وبادلهم إطلاق النار. وعندئذ طاردوه كذئب البرارى وعاش وهو ينهش ويخطف من هنا وهناك مثل ذئبة شرسة. ولكنه فقد عقله، لم يعد كالرجال أو كالفتيان وإنما مجرد كتلة تتحرك بلا وعى أو عقل. ولكن الذين عرفوه لم يؤذوه. وأخيرًا اصطادوه وقتلوه. وليس صحيحًا ما نشرته الصحف ساعتها من أنه كان ولدًا شريرًا. إنما الحقيقة هى ما ذكرت» وسكتت ثم لعقت شفتيها الجافتين وارتسم على وجهها سؤال مؤلم: «لابد أن أعرف يا «توم» هل آذوك كثيرًا؟ هل أفقدوك عقلك؟».

أطبق «توم» شفتيه الغليظتين على أسنانه ونظر إلى كفيه المبتلتين وقال: «لا، ليست هذه هى حالتى». وصمت متأملاً أظافره المتشققة كأصداف البحر ثم قال: «لقد ابتعدت عن مثل هذه الأمور وأنا فى الحبس طوال المدة، فلم أفقد عقلى إلى هذا الحد...»

فتنهدت وقالت هامسة: «الحمد لله!»

عندئذ رفع عينيه وقال بسرعة: «أمـاه... عندما رأيت ما فعلوه بمنزلنا...».

فاقتربت منه ووقفت بجانبه وهى تقول بانفعال: «(توم)، لا تقاومهم

وحدك فسيصطادونك كالذئب. لقد فكرت طويلاً يا «توم» وحلمت وتعجبت من هذا الأمر، يقولون إن هناك مائة ألف منا طردوا من أرضهم، لو أنهم جميعًا هاجوا بنفس الطريقة لما أمكنهم أن يصطادوا أحدًا». ثم توقفت عن الكلام.

نظر إليها «جود» وسألها وهو يغمض جفنيه تدريجيًا حتى لم يبد من خلال رموشه إلا نقطتان لامعتان: «هل يفكر الكثيرون هكذا؟»

«لا أعرف، يبدو أنهم قد صدموا، يتجولون وكأنهم أنصاف نيام».

وجاءت من الخارج عبر الفناء، ثأثأة عالية مألوفة: «الحمد لله على الانتصار... الحمد لله على الانتصار».

وأدار «توم» رأسه وقال: «أخيرًا عرفت جدتى أننى عدت يا أمى، لم أرك على هذه الحال من قبل أبدًا».

واكتست ملامحها صرامة ونظرت إليه بعينين باردتين وهى تقول: «لم يحدث من قبل أن أخذوا منزلى أبدًا، لم أشهد عائلتى تطرد إلى الطريق أبدًا، لم اضطر إلى بيع كل شىء أبدًا ـ ها هم قد وصلوا». وعادت إلى الموقد وقلبت صينية البقسماط الكبيرة على طبقين من الصاج وقلبت بعض الدقيق فى الشحم الذائب لكى تصنع صلصة بيضاء وابيضت يدها بالدقيق، ووقف «توم» يراقبها لحظة ثم ذهب إلى الباب.

عبر الفناء أتى أربعة أشخاص وعلى رأسهم الجد، عجوز نحيف يمشى بسرعة يقفز بخطوات متعجلة، ويعتمد أكثر على ساقه اليمنى وهو الجانب الذى انخلع مفصله. كان يزرر بنطلونه وهو آت وقد انشغلت يداه الهرمتان محاولة العثور على الأزرار فقد وضع الزر الأول فى العروة الثانية، وهذا ما أربك الصف كله. كان يرتدى بنطلونًا مهلهلاً لونه أزرق غامق، وقميص أزرق ممزق مفتوح لآخره، كشف عن فانلة رمادية ذات

أكمام طويلة، كشفت فتحتها غير المزررة عن صدر نحيف أبيض ملىء بالشعر الأشيب. وتخلى عن محاولة تزرير البنطلون وتركه مفتوحًا وانشغل فى أزرار الفانلة، ثم توقف عن كل هذا وشد حمالته البنية اللون إلى كتفيه. كان وجهه نحيفًا بادى الانفعال ذا عينين صغيرتين لامعتين شريرتين كعينى طفل ساخر، وجهه خبيث وشرس، متذمر وضاحك فى الوقت نفسه. وكان على الدوام بوهيميًا يجادل ويتشاجر ويحكى الحكايات البذيئة، كان قاسيًا، وملولاً، وشريرًا كالطفل الشاذ. كل هذا تغطيه تصرفات لاهية، كان يشرب كثيرًا كلما وجد شرابًا، ويأكل كثيرًا كلما وجد طعامًا، ويتكلم كثيرًا كل الوقت.

وخلفه جاءت الجدة تحجل. لم تكن لتظل على قيد الحياة لولا أنها كانت فى نفس خسَّة. وقد أنفقت حياتها فى تدين عنيف صاخب لا يقل بوهيمية وتوحشًا عن كل ما يفعله الجد. ولقد حدث مرة بعد إحدى الصلوات، وكانت لا تزال ترطن بالألسن أن أطلقت طلقتين على زوجها حتى كادت تزيل إحدى ردفيه، وبعد ذلك أعجب بها جدًا، ولم يحاول أن يعذبها كما يعذب الأطفال البق. وكانت وهى تمشى ترفع مريلتها حتى ركبتيها وقد جلجلت مأمأتها عالية كصيحة الحرب: «الحمد لله على النصر».

تسابق العجوزان ليعبرا الفناء الواسع، كانا يتشاجران حول أى شىء، يهويان المشاجرة ويحنان إليها.

وخلفهما جاء الأب و«نوح» وهما يمشيان على مهل واعتدال ولكن بحيث يلاحقان العجوزين. كان «نوح» الابن البكر، طويلاً غريبًا، يسير وعلى وجهه ـ على الدوام ـ نظرة متسائلة، هادئة حيرى. لم يغضب أبدًا فى حياته. وكان ينظر فى دهشة إلى الغاضبين، دهشة وعدم ارتياح، كما

ينظر الإنسان السوى إلى المجانين. يتحرك ببطء ويتكلم قليلاً، فإذا تكلم فببطء شديد، حتى يظن الذين لا يعرفونه أنه غبى. ولكنه لم يكن غبيًا، كان غريبًا. لم يكن له رغبات جنسية جامحة، وكان قليل التفاخر. يصلى وينام فى نظام عجيب اقتضاه لنفسه. كان مولعًا بأهله، ومع ذلك فهو لا يعبر عن ولعه بأى طريقة. وكان حين يقابل أحدًا يترك لديه انطباعًا أنه مشوه، ومع ذلك فلا يمكن لأى إنسان يلاحظه أن يدرك سببه ولا مصدره، هل هو رأسه، أو جسمه، أو عقله، أو ساقاه؟!

وكان الأب يعتقد أنه يعرف سبب كل هذا. ولأنه كان يخجل منه فلم يكن يذكره لأحد أطلاقًا. ذلك أنه فى الليلة التى ولد فيها «نوح»، انزعج الأب من منظر القدمين البارزتين، وكان وحده فى المنزل مع صراخ زوجته البائسة، وجن من الخوف على امرأته فاستخدم يديه وأصابعه القوية بدلاً من «الجفت» وجذب الطفل ولوى جسده، وحين وصلت «الداية» بعد مدة وجدت رأس الطفل قد انبعج من كثرة الشد واستطالت رقبته واعوج جسمه، فأعادت الرأس إلى حاله وأصلحت جسم الطفل بيديها. ولكن الأب لا يزال يذكر بخجل ما فعله، وهو لهذا أكثر عطفًا على «نوح» منه على الآخرين. ففى وجه «نوح» الطويل وعينيه المتباعدتين وفكه الهش الطويل كان الأب يتوهم أنه يرى جمجمة الطفل المعوجة الملوية. كان «نوح» يستطيع أن يفعل كل ما يطلب منه، يقرأ، ويكتب، ويعمل، ويفكر ولكنه لا يبدو عليه أنه يهتم بكل ذلك. يبدو غافلاً عما يهم الناس ويحتاجون إليه، كأنه يعيش داخل منزل غريب صامت ينظر خارجه من خلال عينين هادئتين. كان غريبًا بالنسبة لكل العالم، ولكنه لم يكن وحيدًا.

وعبر الأربعة الفناء، يتقدمهم الجد صائحًا: «أين هو عليه اللعنة: أين هو؟» وبحثت أصابعه عن زر بنطلونه ثم نسى فأودعها جيوبه، وعندئذ رأى «توم» واقفًا فى الباب فتوقف، فوقف الآخرون. ولمعت عيناه الصغيرتان

بالشر وصاح: «انظروا إليه، خريج سجون حقيقى، منذ مدة طويلة، لم يدخل واحد من عائلة «جود» إلى السجن». ثم قال وقد قفز تفكيره فجأة وكأنه قد تذكر: لم يكن من حقهم أن يسجنوه، لقد فعل ما كنت أفعله بالضبط. أبناء العاهرة، ليس من حقهم أن يسجنوه». ثم قفز بفكره مرة أخرى إلى شيء آخر: ««تيرنبول» العجوز، هذا الظربان العفن، يدَّعى أنه سيطلق عليك النار عند خروجك، ويزعم أن دماء «هاتفلد» تجرى فى عروقه، حسنًا، لقد أرسلت له أنذره ألا يقترب من أى واحد من عائلة «جود» فقد تكون عروقى أنا تجرى فيها دماء «ماكوى» وقلت له: لو أنك نظرت بعينك «لتوم» فسأقتلعها وأركبها لحمارك، ولقد أخفته فعلاً».

كانت الجدة التى لم تتابع هذا الحديث ما زالت تصرخ: «الحمد لله على النصر!».

وتقدم الجد من «توم» وضربه على صدره وامتلأت عيناه بالعاطفة والفخر وقال: «كيف حالك يا «توم»؟».

فقال «توم»: «على ما يرام، كيف حالك أنت؟».

فقال بمرارة: «نفسى مليئة بالخل والنفايات». ثم قفزت أفكاره إلى موضوع آخر فقال: «تمام كما قلت، ليس بإمكانهم أن يحجزوا واحدًا من عائلة «جود» فى السجن سينطلق «جود» من ذلك السجن كما يقتحم الثور الزريبة، ولقد فعلتها، ابعدا عن طريقى، فأنا جائع». ثم اخترق الواقفين وجلس إلى المائدة وملأ طبقه باللحم وقطعتين كبيرتين من البقسماط وصب الصلصة السميكة على كل هذا، وقبل أن يدخل الآخرون وراءه كان فمه قد امتلأ بالطعام.

ونظر إليه «توم» بتأثر وقال: «أليس كأحد زبانية الجحيم!» كان فم الجد مليئًا لدرجة لا تسمح له حتى بالهمهمة، لكنه ابتسم بعينيه الماكرتين

وهز رأسه بشدة، وقالت الجدة فى فخر: «رجل شتام خبيث ليس له مثيل، سيقذفون به إلى جهنم على خازوق، الحمد لله...! ولا يزال يريد أن يسوق اللورى! ولكن لا يمكن...»

وشرق الجد فانساب رذاذ الطعام وسقط فى حجره وانتابته كحة خفيفة.

وقالت الجدة لتوم وهى تراقب الجد بإمعان: «ملخبط، أليس كذلك؟»

وقف «نوح» على العتبة مواجهًا «توم» وبدا كأن عينيه المتباعدتين تنظران فيما حوله، ولم يكن على وجهه تعبير واضح، فقال «توم»: «كيف حالك يا «نوح»؟».

فأجاب نوح قائلاً: «جميل، كيف حالك أنت؟»

وكان هذا هو كل ما قيل ولكنه كان يبعث على الارتياح.

كانت الأم تهش الذباب عن وعاء الصلصة، وقالت: «ليس هناك مكان للجلوس، خذ طبقًا لنفسك واجلس فى أى مكان فى الفناء أو فى أى مكان آخر».

وفجأة قال «توم»: «الله... أين الواعظ؟ لقد كان هنا؟ أين ذهب؟»

وقال الأب: «أنا رأيته ولكنه اختفى».

وسمع صوت الجدة وهى تقول: «واعظ... واعظ.. أمعك واعظ؟ قم وأحضره، سيعطينا البركة». ثم أشارت إلى الجد وقالت: «لقد أكل، فأتته البركة. اذهب وأحضر الواعظ». وخطا «توم» إلى المدخل الخارجى ونادى «جيم. جيم كيزى»، ثم خرج إلى الفناء وحين رأى الواعظ يخرج من تحت الخزان ثم يجلس ويقف ويتجه ناحية البيت: «أوه «كيزى» ماذا كنت تفعل هناك؟ تختبئ؟».

«حسنًا.. لا، ولكن الإنسان لا يحب أن ينحشر فى صفوف عائلة عندها ما يشغلها عائليًا، فجلست هناك وأطلقت العنان لأفكارى».

فقال «توم»: «تعال لتأكل، الجدة تريد البركة».

فاحتج «كيزى» قائلاً: «ولكننى لم أعد واعظًا».

«أوه، تعال، اعطها البركة فذلك لن يضرك وهى تحب ذلك». ودخلا معًا إلى المطبخ.

فقالت الأم بهدوء: «مرحبًا بك».

وقال الأب أيضًا: «مرحبًا بك، تفضل الإفطار».

وصاحت الجدة: «البركة أولاً، البركة أولاً!»

وركز الجد عينيه جيدًا قبل أن يتبين «كيزى» ثم قال: «أوه الواعظ، أوه إنه بخير، لقد أحببته دائمًا منذ أن رأيت...» وغمز بعينيه فى بوهيمية فظنت الجدة أنه قد أهان الواعظ فقالت: «اخرس أيها التيس العجوز الخاطئ».

مشط «كيزى» شعره بعصبية بأصابعه وقال: «لابد أن أقول لكم أننى لم أعد واعظًا، ولكننى سعيد بوجودى هنا. وشاكر لكم معاملتكم الكريمة الطيبة. فإذا كان ذلك كافيًا، فإننى سأتلو عليكم صلاة البركة ولكننى لم أعد واعظًا».

فقالت الجدة: «صلَّ وقل فى صلاتك كلمة عن رحيلنا إلى كاليفورنيا».

فأحنى الواعظ رأسه وتبعه الآخرون وأشبكت الأم يديها على بطنها وأحنت رأسها، وأحنت الجدة رأسها حتى لامس أنفها طبقها المليء بالبقسماط والصلصة، أما «توم» الذى كان قد استند على الحائط وفى يده طبقه فقد انحنى فى تصلب واضح. بينما مال الجد برأسه جانبًا حتى يمكنه

أن يلقى عينًا ماكرة ضاحكة على الواعظ، وعلى وجه الواعظ ارتسمت نظرة من يفكر لا من يصلي. وفى صوته رنة الشك لا التضرع.

وقال: «لقد كنت أفكر، خرجت إلى التلال لأفكر كما خرج يسوع إلى البرية ليجد طريقه بين المتاعب المختلطة التى تواجهه».

وقاطعته الجدة قائلة: «المجد لله» فرمقها الواعظ فى دهشة.

واستأنف كلامه قائلاً: «وكان يسوع تكاثرت عليه المتاعب ولم يستطع لها مخرجًا وتملكه شعور بألا فائدة من كل هذا، ولا جدوى من التفكير والقتال، وحين نال منه التعب وتمزقت روحه لم يصل يسوع إلى أى نتيجة، فنفض يده منها، وانطلق هائمًا فى البرية».

ومأمأت الجدة قائلة: «آ...مين» فلقد عودت نفسها لسنوات طويلة أن تقولها كلما توقف القس عن الكلام، ولقد مضت سنين عديدة منذ أن كانت تنصت للكلمات التى تقال وتدرك معناها.

واستمر الواعظ قائلاً: «أنا أقول إننى كيسوع، ولكننى تعبت مثله واختلط على الأمر مثله، فخرجت إلى البرية كما خرج دون أى فرش أو غطاء، وحين يحل المساء أرقد على ظهرى وأنظر إلى النجوم، وفى الصباح أجلس وأرقب شروق الشمس، وفى الظهيرة أتأمل الأرض الواسعة التى نال منها الجفاف من فوق أحد التلال، وفى الأصيل أتابع الشمس فى غروبها. أحيانًا أصلى كما تعودت أن أفعل ولكننى لم أكن أعرف لمن ولِمَ أصلى؟ كانت هناك التلال وأنا، لم يكن من الممكن التفرقة بيننا كنا شيئًا واحدًا وهذا الشىء الواحد كان مقدسًا».

قالت الجدة «هللويا» وتململت فى جلستها مترنحة تحاول الاندماج فى حالة انجذاب.

«لقد ظللت أفكر، لم يكن تفكيرًا بالمعنى المفهوم، كان شيئًا أعمق من ذلك، فكرت كيف كنا شيئًا مقدسًا عندما كنا شيئًا واحدًا. كما أن الإنسانية كانت مقدسة عندما كانت شيئًا واحدًا. ولكنها تفقد قدسيتها حين يبدأ أحد التعساء ويقضم قضمة لنفسه ويجرى بها يرفس ويقاتل ويحارب من أجلها. هذا الرجل يحطم القدسية. ولكن حين يعمل الكل معًا، لا كل واحد فى مواجهة أخيه، ولكن الكل كرجل واحد من أجل صالح الإنسانية، فهذا حق وهو مقدس. وعندئذ فكرت، أنا لا أعرف بالدقة ما معنى القدسية». وتوقف عن الحديث ولكن الرؤوس المحنية ظلت كما هى، لأنهم كانوا كالكلاب المدربة ترفع رؤوسها عند قوله «آمين»، «ليس فى إمكانى أن أتلو البركات كما تعودت، ولكننى سعيد بقدسية هذا الإفطار، سعيد إذ أجد الحب هنا، هذا كل ما عندى»، وظلت الرؤوس محنية ونظر الواعظ حوله وقال: «جعلت إفطاركم يبرد». ثم قال متذكرًا: «آمين» ورفع الجميع رؤوسهم.

وقالت الجدة: «آ...مين»، وانكبت على إفطارها تمضغ البقسماط البائش بلثتها العجوز الخالية من الأسنان. وأكل «توم» بسرعة، وحشا الأب فمه بالطعام وساد الصمت حتى فرغ الأكل وشربوا القهوة، ولم تسمع إلا أصوات مضغ الطعام وشفط القهوة ببطء لتبرد قبل أن تلمس اللسان. ووقفت الأم ترقب الواعظ وهو يأكل بعينين متسائلتين متفحصتين متفهمتين، راقبته كأنه قد تحول فجأة إلى روح، وكفَّ عن أن يكون إنسانًا، إلى صوت صادر من باطن الأرض.

وفرغ الرجال من طعامهم ونحوًا أطباقهم وشربوا قهوتهم إلى آخرها ثم خرجوا، الأب والواعظ و«نوح» والجد و«توم». وساروا جميعًا إلى سيارة النقل متحاشين ما تناثر من أثاث، وقوائم الأسرّة، وأجزاء آلات طاحونة

الهواء، والمحراث القديم. ساروا إلى سيارة النقل ووقفوا بجوارها وتحسسوا جوانبها الجديدة المصنوعة من خشب الصنوبر.

وفتح «توم» غطاء الماكينة وتأمل الآلة الضخمة التى علاها الشحم، وجاء الأب ووقف بجواره وقال: «لقد فحصها أخوك «آل» جيدًا قبل أن نشتريها، وقال لا بأس بها».

فقال «توم»: «وماذا يعرف فى هذا الأمر؟ إنه لا يزال صغيرًا».

«اشتغل فى شركة، وساق سيارة نقل فى العام الماضى، وعنده قليل من المعلومات َعلى قدره، ولكنه يعرف على أى حال ويستطيع أن يلحم أى ماكينة، إنه يستطيع».

فسأل «توم»: «وأين هو الآن؟».

فقال الأب: «حسنًا، إنه يهيم كالتيس فى الحقول، كالقط الهائج يكاد يموت هياجًا، «فآل» فتى يافع فى السادسة عشرة الآن، وكل شىء فيه يهيج ولا يفكر إلا فى البنات والماكينات كأى فتى مثله. لم يبت بالمنزل منذ أسبوع».

كان الجد فى هذه الأثناء مشغولاً بصداره وقد نجح فى إدخال زر قميصه الأزرق فى عراوى «الفانلة». وأحست أصابعه أن ثمة خطأ ما ولكنه لم يهتم بمعرفة كنهه بل أخذ يحاول بأصابعه أن يحل مشكلة أزرار البنطلون وهو يقول: «كنت أسوأ منه، أسوأ بكثير، تستطيع أن تقول إننى كنت كزبانية جهنم، مرة كان هناك اجتماع صلاة كبير فى «ساليزو» وكنت وقتذاك فتى صغيرًا أكبر قليلاً من «آل»، إنه ليس إلا «عيِّل»، «عيِّل طرى».. ولكنى كنت أكبر منه وكان عددنا فى تلك الصلاة خمسمائة انتشر بينهم عدد لا بأس به من الشابات الصغيرات».

فقال «توم»: «لا زلت شقيًا حتى الآن يا جدى».

«حسنًا، إلى حد ما، ولكننى لا أقارن الآن بما كنت، دعنى أذهب إلى كاليفورنيا حيث يمكن أن أحصل على برتقالة حين أحب أو على عناقيد العنب. هذا ما لم أحصل على كفايتى منه أبدًا، أنا ناو أن أحصل على كمية كبيرة من العناقيد من على الشجر أو من أى مكان، وافعصها على وجهى وأترك عصارتها تبلل ذقنى».

سأل «توم»: «أين عمى «جون» وأين «روزا شارن» أين «روثى وونفيلد»؟ لم يأت ذكرهم حتى الآن؟»

فقال الأب: «لأن أحدًا لم يسأل. لقد ذهب «جون» إلى «ساليزو» ليبيع بعض الأشياء: الطلمبة، والعدد، والدواجن، وكل ما أحضرناه معنا، وأخذ «روثى وونفيلد» معه، وانطلقوا قبل طلوع النهار».

فقال «توم»: «غريب أننى لم أرهم».

«حسنًا، لقد أتيت من الطريق الزراعى بينما هو اتخذ الطريق الخلفى عن طريق «كاولنجتون». أما «روزا شارن» فهى تعشش مع عائلة كونى، يا إلهى، إنك لم تعرف إلى الآن أن «روزا شارن» قد تزوجت من «كونى ريفرز» أتذكر «كونى ريفرز»، فتى صغير طيب، و«روزا شارن» حامل الآن لها ثلاثة، أربعة، خمسة أشهر، ولكنها تبدو بصحة طيبة».

فقال «توم»: «يا يسوع! لقد كانت «روزا شارن» مجرد طفلة صغيرة، والآن على وشك أن تصبح أمًا، أشياء كثيرة تحدث فى أربع سنوات إذا غبت. متى تنوى أن تنطلق غربًا يا أبى».

«حسنًا، علينا أولاً أن نحمل هذا المتاع فى السيارة ونبيعه. فإذا ما رجع «آل» من جولاته، فمن الممكن كما أعتقد أن يضع كل شىء فى السيارة

ويذهب به، ومن الممكن عندئذ أن ننطلق غدًا أو بعد غد. ليس لدينا نقود كثيرة، وقد قال أحدهم إن بيننا وبين كاليفورنيا حوالى ألف ميل. ولذا كلما أسرعنا فى الانطلاق ضمنا الوصول إلى هناك. فالنقود تتناقص طول الوقت. هل معك أى نقود؟».

«دولاران فقط.. كيف حصلت على النقود؟»

فقال الأب: «حسنًا. لقد بعنا كل متاع البيت القديم واشتغلنا جميعًا فى جمع القطن حتى الجد نفسه».

فقال الجد: «حصل فعلاً».

«وجمعنا كل ما حصلنا عليه معًا، مائتى دولار، دفعنا منها خمسًا وسبعين فى هذه السيارة ثم شققتها أنا و«آل» وركبنا عليها هذه الأرضية. وكان «آل» ينوى أن يجلخ الصمامات ولكنه مشغول فى تصعلكه حتى لم يجد وقتًا لها. ربما بقى معنا حوالى مائة وخمسين دولارًا عندما نبدأ. ولكن هذه الإطارات القديمة الملعونة فى هذه السيارة لن تتحمل طويلاً، لدينا إطاران احتياطيان قديمان، وسنضطر إلى شراء إطارات ونحن على الطريق فيما أعتقد».

كانت الشمس تصب أشعتها اللامعة وقد بدت ظلال أرضية السيارة على الأرض كقضبان سوداء، وتصاعدت من السيارة رائحة الزيت الساخن والقماش المزيت والبوية، وقد تركت الدجاجات القليلة فناء المنزل لتختبئ من أشعة الشمس فى سقيفة العدد والآلات، ورقدت الخنازير فى حظيرتها تلهث وقد التصقت بالسور حيث امتد شريط صغير من الظل تحته، وبين الحين والحين تصرخ شاكية. أما الكلبان فقد تمددا تحت السيارة على التراب الأحمر وقد تدلت ألسنتهما تنقط لاهثة وقد غطاها التراب. وشد الأب قبعته على عينيه ثم تربع جالسًا على الأرض. وبدا كأن

هذه الجلسة هى الوضع الطبيعى الذى يمكنه فيه أن يفكر ويلاحظ. جلس يتأمل متفحصًا، القلنسوة التى كانت جديدة، والبذلة، والحذاء الجديد.

وسأل: «ألم تضيع نقودك فى هذه الملابس؟ ستصبح عبئًا عليك».

فقال «توم»: «لقد أعطونى إياها عند خروجى.. أعطونى إياها» وخلع قلنسوته ونظر إليها بإعجاب ثم مسح بها جبهته ووضعها ثانية على رأسه من الخلف فى استهتار، وشد على حافتها وقال الأب ملاحظًا: «إن هذا الحذاء الذى أعطوك إياه، حسن الشكل».

فقال «توم»: «أيوه، جيد فعلاً، ولكنه لا يصلح للمشى فى يوم حار». ثم تربع بجوار أبيه.

وقال «نوح» ببطء: «ربما لو أمكن أن نركب لها العوارض الجانبية، لأمكننا أن نشحن المتاع فيها، حتى حين يأتى «آل»...»

فقل «توم»: «يمكننى أن أقودها إذا كان هذا ما تريد، لقد قدتُ سيارات نقل فى «ماك أليستر»».

فقال الأب: «حسنًا» ثم حملق فى الطريق وقال: «إذا لم أكن مخطئًا فهناك الفتى الصغير اليافع يجر أذياله عائدًا إلى البيت الآن وهو منهك تمامًا».

ورفع «توم» والواعظ بصريهما إلى الطريق، وعندئذ لاحظ «آل» المتأنق أنهم يرونه فشد من قامته ودخل الفناء كأنه ديك يهم بالصياح. وأقبل متهاديًا قبل أن يلحظ وجود«توم»، وعندئذ تغيرت ملامح وجهه المتفاخر، وحلت محلها نظرات الاحترام الإعجاب، وزايله ادعاؤه. لكن لا بنطلونه الأزرق المتين القوى الذى ثنيت أطرافه لثمانى بوصات ليكشف عن حذائه العالى الكعب، ولا الحزام الذى بعرض ثلاث بوصات المحلى

بنقوش نحاسية، ولا قميصه الأزرق ذو الشرائط الحمراء على الأكمام، ولا قبعته «الستتسون» التى مالت بخفة على رأسه، كل هذا لم يكن يجدى فى تقليل الفارق الكبير بينه وبين أخيه. فقد قتل أخوه رجلاً، ولا يمكن لأحد أن ينسى هذا. و«آل» يعلم أنه هو نفسه قد نال بعض الإعجاب بين أقرانه لأن أخاه قتل رجلاً ولقد سمع بنفسه فى «ساليزو» من يشير إليه قائلاً: «هذا هو «آل» جول، لقد قتل أخوه رجلاً بجاروف».

وحين تقدم «آل» من أخيه فى استكانة، لاحظ أن أخاه لم يكن معجبًا بنفسه كما توقع. ورأى «آل» عينى أخيه الحانيتين القاتمتين ووجهه الأملس ذا الملامح القاسية وقد علاه هدوء السجن واعتاد ألا يفصح عن شىء للسجان، لا مقاومًا ولا خانعًا، وفى الحال تغير «آل» وأصبح بلا وعى منه، كأخيه، وانفعل وجهه الوسيم وارتخت أكتافه ولم يستطع أن يتذكر كيف كان شكله فيما مضى.

وقال «توم»: «هالو، «آل»، يا يسوع! إنك تنمو مثل عيدان الفول، لم أكن لأعرفك».

ودمدم «آل» مستعيدًا نفسه، وتحركت يده على استعداد إذا ما شاء «توم» أن يصافحه. وحين مد «توم» يده كانت يد «آل» فى الطريق إليها. وتعانق الاثنان ثم قال «توم»: «قالوا لى إن لك خبرة فى سيارات النقل».

وقال «آل» وقد أحس أن أخاه لا يحب الادعاء: «لا أعرف الكثير عنها».

وقال الأب: «أكنت تتصعلك فى البلاد حولنا، إنك تبدو منهكًا تمامًا؟ ولكن عليك أن تأخذ حمولة من المتاع إلى «ساليزو»، وتبيعها».

ونظر «آل» إلى أخيه «توم» وحاول أن يبدو قوله عرضًا: «هل تحب أن تركب معى؟»

فقال «توم»: «لا. لا أستطيع، سأساعدهم هنا. وسنكون معًا على الطريق فيما بعد».

وحاول «آل» أن يتحكم فى سؤاله وهو يقول: «هل... هربت من السجن؟»

فقال «توم»: «لا.. لقد أفرَج عنى بالإفراج الشرطى».

فقال «آل» وقد خاب أمله إلى حد ما: «أوه!».

الفصل التاسع

الحائزون للأرض يقلبون منازلهم الصغيرة وهم يغربلون ممتلكاتهم وممتلكات آبائهم وأجدادهم، وينتقون منها ما سيأخذونه معهم فى رحلتهم إلى الغرب. قلوب الرجال قاسية إزاء الماضى الذى انتهك، ولكن النساء يعلمن كم سيلِّح هذا الماضى عليهن فى المستقبل. ويدخل الرجال الحظائر والمخازن.

هذا المحراث، هذه الشوكة، أتذكر فى أثناء الحرب عندما زرعنا الخردل؟ أتذكر ذلك الرجل الذى طلب منا أن نزرع أشجار المطاط التى يسمونها «جوايول»؟ كان يمنينا بقوله: «ستصبح غنيًّا». تخلص من هذه العدد واحصل مقابلها على بعض الدولارات. ثمانية عشر دولارًا للمحراث بالإضافة إلى تكاليف شحنه ـ عند محلات «سيرزروبك».

أطقم خيل، عربات، بذارات، مجموعات من الفؤوس، أخرج كل هذا، كوِّمه، اشحنه فى العربة. وخذه إلى المدينة وبعه مقابل ما يمكنك أن تحصل عليه. بع العربة وزوج الخيل أيضًا فلم تعد هناك فائدة لأى شىء.

خمسون سنتًا قليلة لهذا المحراث الجيد. لقد تكلفت هذه البذارة ثمانية وثلاثين دولارًا. قليل أن يدفع فيها دولاران. لا يمكن أن أعود بها

كلها، حسنا، خذها. ولكن بالمرارة. خذ طلمبة البئر واللجام ورقابيات الخيل وخطاطيف الرقابيات والمقطورات. خذ معك حلّى غمامات الخيل الزجاجية ذات الورود الحمراء تحت الزجاج، لقد اشتريتها من أجل الحصان الكميت الخصى ـ أتذكر كيف كان يرفع قدميه وهو يجرى قفزًا.

كوم من الخردة فى الفناء.

لم يعد فى الإمكان بيع محراث يدوى، خمسون سنتًا فقط ثمنًا للحديد. الجرارات والطنابير هى التى تباع الآن.

حسنًا ـ خذها كلها خردة وأعطنى خمسة دولارات. إنك لاتشترى الخردة فقط ولكنك تشترى حياة ناس تحولت إلى خردة. والأكثر من ذلك، وسترى بنفسك، أنت تشترى المرارة. أنت تشترى محراثًا لكى تحرث به أطفالك. تشترى الأذرع والأرواح التى كان يمكن أن تنقذك. خمسة دولارات لا أربعة، لايمكن أن أجرها راجعًا. حسنًا خذها مقابل أربعة دولارات، ولكننى أحذرك أنت تشترى ما ستحرث به أطفالك. ولكنك لن ترى شيئًا. لأنك لا تستطيع أن ترى شيئًا. خذها مقابل أربعة دولارات. ماذا يمكن أن تدفع مقابل زوج الخيل والعربة؟ إن هذين الحصانين الكميتين، لا مثيل لهما، لا مثيل لهما فى اللون، ولا فى طريقة مشيهما، الخطوة مع الخطوة، وعندما يكون الحمل ثقيلا تراهما ـ وقد شجت عضلات الساقين والردفين ـ يتحركان فى تطابق لايفرق حركتهما ولا جزءًا من الثانية. وفى الصباح عندما تشرق عليهما الشمس، يلمعان، يطلان من فوق السور يتشممان رائحتنا فى الهواء وقد انتصبت آذانهما المرهفة ليسمعاننا. والخصل السوداء، لدى فتاة تحب أن تعقص هذه الخصل والأعراف وتضع عليها فيونكات حمراء صغيرة. كانت تحب

أن تفعل هذا ولكنها لم تعد تفعله. أستطيع أن أحكى لك حكاية طريفة عن هذه الفتاة والحصان الآخر. حكاية قد تضحكك، فهذا الحصان عمره ثمانى سنوات، بينما القريب منا عمره عشر، ولكنهما يبدوان كتوأمين. من الطريقة التى يتحركان بها معًا. انظر، الأسنان سليمة كلها، الأنفاس قوية والحوافر نظيفة وسليمة. كم؟ عشرة دولارات؟ للاثنين؟ والعربة!، يايسوع المسيح! أهون علىّ أن أطلق عليهما النار وأجعلهما طعامًا للكلاب قبل أن أبيعهما بهذا السعر. أوه، خذهما، خذهما بسرعة ياسيدى. إنك تشترى فتاة صغيرة تعقص الخصلات السوداء وتخلع شريطها من شعرها لتصنع منه فيونكة وتقف وقد حزمت شعرها تمسح على الأنوف الملساء بخدها. أنت تشترى سنوات من العمل والكدح فى حرارة الشمس. أنت تشترى أسى لا يمكنه أن ينطق. ولكن لتعلم يا سيدى أن مع هذه الكومة من الخردة والخيل الجيدة الجميلة، قسطًا من الأرباح، إنه عبارة عن حفنة من المرارة لتنمو فى بيتك ولتزدهر فى يوم قريب. ربما كان فى إمكاننا يومًا أن ننقذك، ولكنك ذبحتنا. وسرعان ما ستذبح أنت ولن تجد أحدًا منا إلى جوارك.

ويعود الرجال الحائزون إلى منازلهم سيرًا على الأقدام، وأيديهم فى جيوبهم. وقد خفضوا القبعات على عيونهم. البعض منهم يشترى زجاجة خمر يشربها بسرعة لكى يضاعف من أثرها وتأثيرها، ولكنهم لا يضحكون ولا يرقصون، لايغنون ولايعزفون على الجيتار. يعودون إلى المزارع، الأيدى فى الجيوب والرؤوس مطأطأة والأحذية تضرب فى التراب الأحمر فتثيره.

ربما أمكن أن نبدأ من جديد فى تلك الأرض الغنية فى كاليفورنيا حيث تنمو أشجار الفاكهة. سنبدأ من جديد.

ولكنك لاتستطيع أن تبدأ من جديد. الطفل يمكنه أن يبدأ ولكن أنت وأنا.. لا.. ففينا كل الذى كان. لحظة الغضب وآلاف الصور. نحن هذه الأرض، هذه الأرض الحمراء. نحن سنوات الفيضان وسنوات الغبار وسنوات الجفاف، لا يمكننا أن نبدأ من جديد. حتى المرارة التى بعناها لتاجر الخردة، صحيح أنه أخذها فعلا ولكنها ظلت فينا أيضًا. نحن الذين طلب منا مندوب الملاك أن نرحل، نحن المنازل التى حطمتها الجرارات. وسنظل كما نحن حتى نموت.

وسيمضى كل منا. إلى كاليفورنيا أو إلى أى مكان آخر. يدق طبوله قائدًا لطابور من الجرحى. نمشى ومعنا المرارة. وذات يوم ستدب جحافل المرارة كلها فى نفس الدرب، سنسير معًا وعندئذ سينتشر رعب قاتل.

ويجرجر الرجال أقدامهم بالتراب الأحمر عائدين إلى بيوتهم ومزارعهم. وحتى بعد أن يبيع كل منهم ما يمكن بيعه، المواقد والأسرة، الكراسى والموائد، الطقاطيق الصغيرة، الخزانات والأحواض، بعد كل هذا تظل هناك أكوام من المقتنيات. تجلس النسوة بينها تقلب، وتسرح بأفكارها فيما كان وكان، صورة، وعوينات مربعة. وفازة زهور ما زالت باقية...

والآن أنتم تعرفون جيدًا ما نستطيع أن نأخذه ومالا نستطيع. سنعسكر فى الخلاء، ولن نحتاج إلا إلى أوان قليلة للطبخ والغسيل، ومراتب وأغطية وفانونس وجرادل وقطعة من قماش التيل الخشن تصلح لصنع خيمة، .وصفيحة الكيروسين هذه، أتعرف ماذا ستصير؟ إنها الموقد. والملابس، خذوا كل الملابس، وماذا عن البندقية؟! لا يمكن أن يمضى الإنسان عاريًا بدون بندقية فحين يفقد الأحذية والملابس والطعام، وحتى حين نفقد الأمل، ستظل معنا البندقية. ألم أخبرك من قبل أنه حين جاء الجد إلى هنا لم يكن معه إلا ملح وفلفل وبندقية ولا شىء آخر. ليكن معنا

بندقية إذن. ولنأخذ زجاجة للماء. إن العربة تكاد تسعنا. لنركب جوانب المقطورة وليجلس الأطفال والجدة على مرتبة. ماذا عن الأدوات؟! فلنأخذ جاروفًا ومنشارًا ومفتاحًا إنجليزيًا وزرادية أيضًا. هذه البلطة عندنا منذ أربعين عامًا. انظر كيف تآكلت حافتها. وحبالاً طبعًا.. والباقى؟.... اتركه.... أو احرقه....

ويجىء الأطفال...

إذا أخذت «ميرى» هذه العروسة، هذه العروسة القذرة المهلهلة، فسآخذ أنا قوس السهام الهندية. لابد أن آخذه. وهذه العصا المستديرة التى يبلغ طولها طولى ربما أحتاج إليها. لقد حصلت عليها منذ مدة، حوالى شهر، وربما سنة، لابد أن آخذها. ثم ما هى كاليفورنيا هذه؟

وتجلس النسوة بين الأشياء التى حانت منيتها تقلب فيها وتنظر من خلالها إلى ماضيها. هذا الكتاب كان لأبى، وكان يعتز به: «رحلة حاج» وتعود أن يقرأ فيه وقد كتب عليه اسمه. وهذا غليونه ما زالت رائحته زنخة. وهذه الصورة، صورة ملاك، لقد كنت أنظر إليها فى كل مرة قبل أن ألد الثلاثة الأول ولكن يبدو أنها لم تكن ذات فائدة كبيرة. أعتقد أننا يمكن أن نأخذ هذا الكلب الخزفى معنا؟ لقد أحضرته العمة «سادى» معها من مولد القديس لويس. انظرى، مكتوب عليه مباشرة. لا... لا أعتقد ذلك... هذا خطاب كتبه أخى قبل أن يموت بيوم واحد. إليك قبعة من الطراز القديم. وهذا الريش، لم أستخدمه أبدًا. لا... لا يوجد مكان لكل هذا.

كيف يمكن أن نعيش بدون حياتنا. كيف يمكن أن نتعرف على أنفسنا بدون ماضينا. لا... اتركيها. احرقيها.

وتجلس النسوة. يملأن الأبصار من الأشياء ويلقين ذكرياتهن إلى الحريق. كيف تكون الحياة عندما لا نعرف الأرض خارج بابنا، وماذا لو

استيقظنا فى المساء وعرفت.. وعرفت أن شجرة الصفصاف لم تعد فى مكانها؟ وهل يمكن أن نعيش بدون شجرة الصفصاف؟ إنك لن تستطيع أن تعيش طبعًا، فشجرة الصفصاف هى أنت. وهذا الألم الراقد على المرتبة، هذا الألم الممض، هو أنت.

والأطفال.... إذا أخذ سام قوسه الهندية وعصاته الطويلة المستديرة، فسآخذ أنا شيئين. أنا أختار المخدة الريش فهى ملكى.

وفجأة تتوتر أعصابهم، لابد أن نمضى الآن بسرعة، لايمكن أن ننتظر. لايمكن أن ننتظر. ويكومون كل شىء فى الفناء. ويشعلون فيه النار ويظلون واقفين يشاهدون النار وهى تأكل كل شىء. ثم يشحنون العربات فى هوس مجنون، ويمضون بها فوق التراب. وبعد أن تمضى العربات المحملة، يظل التراب معلقًا فى الجو لفترة طويلة.

الفصل العاشر

مضت العربة تحمل العدد، الآلات الثقيلة، والأسرّة والملل، كل ما يسهل حمله ويمكن بيعه. وبعدها بدأ «توم» يجوب المكان. دخل مستغرقًا سقيفة الشونة والإسطبلات الخالية. وخاض بين الآلات، ينحنى عليها، ويرفس ما تخلف من «زبالة»، يقلب بقدميه سلاح منجل مكسور. زار أماكن ما زال يذكرها، الجسر الأحمر حيث تعشش العصافير، شجرة الصفصاف فوق حظيرة الخنازير. وهناك جاءت خنزيرتان تقبعان، وتتشممان من خلال سور الحظيرة. خنزيزتان سوداوان، يستمتعان فى الشمس باسترخاء. وعندما فرغ من طوافه ذهب وجلس على عتبة الباب حيث كان الظل قد زحف عليها. خلفه كانت الأم تتحرك فى المطبخ وهى تغسل ملابس الأطفال فى دلو وقد تساقط ماء الصابون من ذراعيها المنمشتين من المرفقين. توقفت عن الغسيل عندما جلس. وتأملته مليًا وعندما أدار رأسه شاخصًا فى ضوء النهار الحار، تأملت رأسه من الخلف ثم عادت مرة أخرى إلى غسيلها. قالت: «(توم)، أرجو أن تكون الأمور لا بأس بها فى كاليفورنيا».

التفت ونظر إليها متسائلاً: «وما الذى يجعلك تظنينها غير ذلك؟»

«حسنًا، لا شيء، ولكنها تبدو لدرجة غير معقولة، لقد رأيت الإعلانات التى يوزعها الرجال. وكيف أن هناك عملا كثيرًا وأجورًا عالية وكل شيء. لقد قرأت فى الصحيفة كيف يحتاجون إلى الناس لكى يجمعوا العنب والبرتقال والخوخ. إن جمع الخوخ لعمل جيد يا «توم»، وحتى لو لم يسمحوا لك بأن تأكل شيئًا، فقد يمكنك أن تحصل أحيانًا على خوخة صغيرة مريضة، أليس جميلاً أن نعمل فى الظل تحت الأشجار؟ أنا خائفة لأن الأمر جيد على هذا النحو، لم يعد عندى إيمان لشيء. أخاف ألا تكون الأمور حسنة كما يصفونها».

فقال «توم»: «لاتحلقى بآمالك مع طيور السماء، ولا تزحفى بها مع الديدان».

«أعرف أن هذا حق، إنه من الكتاب المقدس، أليس كذلك؟»

فأجاب «توم»: «أعتقد هذا، لم أعد قادرًا على تذكر الكتاب المقدس منذ أن قرأت كتابًا اسمه: سحر باربارا روث».

ضحكت الأم برفق، وهى تشطف الملابس فى الدلو وأخذت تعصر العفريتات والقمصان فانتفخت عضلات عضديها، وقالت: «أبوك مازال كما هو، يردد الآيات من الكتاب المقدس طول الوقت وقد اختلطت بكل شيء فى رأسه، وبالذات «تقويم دكتور مايلز» الذى اعتاد أن يقرأ كل كلمة فيه بصوت عال، بما فى ذلك خطابات الناس الذين لا يستطيعون النوم أو الذين تؤلمهم ظهورهم، وبعد ذلك يقولها للناس كأنها درس ويقول: هذا جزء من «الكتاب المقدس» وحين يضحك الناس على هذا ينزعج أبوك والعم «جون». كومت الملابس بعد عصرها على المائدة كخشب الوقود: «يقولون إنها على بعد ألفى ميل من هنا ماذا تظن أنت يا «توم»؟ لقد رأيتها على الخريطة ذات جبال كبيرة كالتى ترسم على البطاقات، ولابد لنا أن

نخترقها، كم من الوقت يتطلبه قطع هذه المسافة يا «توم؟»".

فقال: «لا أعرف، أسبوعين، وربما عشرة أيام إذا حالفنا الحظ، اسمعى يا أمى كفى عن القلق. سأحكى لك بعضًا مما يحدث لنا فى الحبس. لايمكن أن يقضى الإنسان كل وقته يفكر متى سيخرج، فذلك يفقد الإنسان عقله. على الإنسان أن يفكر فى يومه، ثم فى اليوم التالى، ثم فى لعب الكرة يوم السبت. هذا ما يجب عمله، وهذا ما يفعله القدامى، أما الشاب القادم الجديد فهو يضرب رأسه فى باب الزنزانة متسائلاً: إلى متى تطول إقامته؟ لماذا لا تفعلين هذا، عيشى ليومك».

فقالت: «طريقة طيبة» ثم ملأت دلوها بماء ساخن من فوق الموقد، ووضعت فيه ملابس متسخة وبدأت تغطسها فى الماء والصابون وقالت: «نعم، إنها طريقة طيبة، ولكننى أحب أن أفكر فى الحياة الطيبة أو ما يمكن أن تكون عليه الحياة الطيبة فى كاليفورنيا. ليس هناك برد أبدًا، والفاكهة فى كل مكان. والناس يقيمون فى أحسن الأماكن، منازل صغيرة بيضاء بين أشجار البرتقال. وأعتقد أنه لو أننا جميعًا حصلنا على عمل، واشتغلنا، فمن الممكن أن نحصل على بيت من هذه البيوت الصغيرة البيضاء حيث يخرج الصغار ويلتقطون البرتقال من على أشجاره، لن يمكنهم أن يتحملوا هذا المنظر وسيتصايحون عند رؤيته».

وراقبها «توم» وهى تعمل وابتسمت عيناه وهو يقول: «إن التفكير فيها يريحك. لقد عرفت رجلاً من كاليفورنيا وهو لا يتكلم مثلنا. والإنسان يعرف أنه أتى من مكان بعيد من طريقة كلامه. ولكنه يقول إن أناسًا كثيرين يبحثون عن العمل هناك الآن ويقول إن الذين يعملون فى جمع الفواكه يعيشون فى معسكرات قذرة ولا يكادون يحصلون على ما يسد الرمق. يقول: إن الأجور منخفضة ومن الصعب الحصول على عمل».

وعبرت وجهها سحابة من الهم وقالت: «لا يمكن أن يكون الأمر كذلك، لقد حصل أبوك على إعلان مطبوع على ورق برتقالى يقول إنهم يحتاجون إلى أناس للعمل. ولو أنه لا يوجد عمل وفير لما كلفوا أنفسهم هذه المشقة. إن طبع هذه الإعلانات يكلفهم نقودًا كثيرة، وما الذى يدفعهم إلى الكذب، ولأن يدفعوا نقودًا لكى يكذبوا؟».

وهز «توم» رأسه قال: «لا أعرف يا أمى، من الصعب التفكير فى السبب الذى يدفعهم لذلك، ربما...». وتوقف ونظر إلى الشمس المحرقة وهى تلمع على الأرض الحمراء.

«ربما... ماذا؟..»

«ربما كانت جيدة كما تقولين، أين ذهب الجد؟ أين ذهب الواعظ؟»

تحرك «توم» جانبًا ليفسح الطريق لأمه التى حملت على ذراعيها حملا عاليًا من الملابس واتجهت به خارج المنزل. وقالت: «الواعظ قال إنه سيتجول فيما حولنا. أما الجد فنائم هنا فى الداخل، فهو يأتى هنا بالنهار وينام أحيانًا». ثم سارت إلى السور وبدأت تنشر البنطلونات والأقمصة الزرقاء والملابس الداخلية الرمادية الطويلة على السلك.

سمع «توم» خلفه خطوات متخبطة فاستدار ونظر إلى الداخل فرأى الجد يخرج من غرفة النوم وقد انشغل كما انشغل فى الصباح فى أزرار بنطلونه وهو يقول: «سمعت كلامًا، أبناء العاهرة هؤلاء، لا يمكن أن يتركوا رجلا عجوزًا فى نومه، لا تتعلموا يا أولاد الحرام أن تتركوا رجلا عجوزًا فى نومه عندما تشيخون». واستطاعت أصابعه الغاضبة أن تفك الزرارين الوحيدين المزررين فى بنطلونه، ثم نسيت يده ما كانت تحاول أن تصنعه فامتدت إلى الداخل ليحك بها تحت خصييه. ودخلت الأم ويداها مبللتان وراحتاها متغضنتان متورمتان من الماء الساخن والصابون.

«ظننت أنك نائم، تعال، دعنى أزرر لك أزرارك». وبرغم أنه كان يقاومها إلا أنها أمسكت به وزررت له ملابسه الداخلية وقميصه وبنطلونه ثم تركته وقالت: «اذهب وتمش قليلا».

غمغم بغضب قائلا: «ماذا يبقى من الرجل، ماذا، عندما يزرر له الآخرون أزراره. أنا أرجو أن تتركينى أزرر سروالى بنفسى».

فقالت الأم مداعبة: «إنهم لا يسمحون للناس بالتجول وأزرارهم مفتوحة فى كاليفورنيا».

«لا يسمحون، هه، «سأوريهم»، أيظنون أنهم سيعلموننى كيف أتصرف هناك؟ سأتمشى وأتسكع كما أحب».

فقالت الأم: «يبدو أن ألفاظه تزداد سوءًا عامًا بعد عام، أعتقد أنه يتفاخر بها».

ومط الرجل العجوز ذقنه المشعر الخشن إلى الأمام، ونظر إلى الأم بعينين ماكرتين أريبتين مرحتين وقال: «حسنا يا سيدى، سننطلق قبل مضى وقت طويل. وهناك سنجد العناقيد تتدلى معلقة على الطريق، أتعرف ماذا أنوى أن أفعل؟ سألتقط لنفسى ملء طشت غسيل من العناقيد وسأجلس فيها وأعصرها حتى تسيل العصارة على سراويلى».

وضحك «توم» وهو يقول: «يا إلهى، حتى لو أنه عاش مائتى عام فلن ينال منه الزمن. إنك على استعداد للسفر، أليس كذلك ياجد؟»

وجذب الرجل العجوز صندوقًا وارتمى جالسًا عليه وهو يقول: «نعم يا سيدى وفى أقرب وقت أيضًا، لقد ذهب أخى إلى هناك منذ أربعين عاما. ولم أسمع عنه شيئًا منذ ذلك الوقت. كان ماكرًا وابن عاهرة ولم يكن أحد يحبه. هرب بمسدس «كولت» كنت أملكه. ولو أننى قابلته هو

أو أحد أبنائه، إذا كان له أبناء هناك، فسأطالبه بهذا المسدس، لكن إذا كان كما أعرفه وقد أنجب أطفالا، فسيتركهم وغيره سيربيهم. بالتأكيد سأكون سعيدًا بذهابى إلى هناك. أشعر أن ذلك سيخلق منى رجلا جديدًا. من حقى أن أعمل فى مزارع الفاكهة».

وأمنت الأم على قوله بهزة من رأسها فقالت: «وهو يستطيع أن يفعل هذا، لقد اشتغل الثلاثة الأشهر الماضية كلها حتى انخلع وسطه آخر مرة».

وقال الجد:«تمام مضبوط».

ونظر «توم» خارجًا وهو جالس على العتبة وقال: «ها هو ذا الواعظ يمشى بجوار جدار الشونة الخلفى».

قالت الأم: «أغرب «بركة» سمعتها فى حياتى هى التى قالها هذا الصباح، لم تكن بركة على الإطلاق، مجرد كلام، ولكن نغماتها كانت كنغمة البركات».

فقال «توم»: «إنه رجل غريب، يتكلم كلامًا غريبًا على الدوام ومع ذلك يبدو كمن يكلم نفسه. وهو لايحاول أن يؤجل أى شيء».

فقالت الأم: «تأمل نظرة عينيه يبدو معمدًا، وله تلك النظرة التى نقول عنها نظرة نافذة. بالتأكيد يبدو معمدًا، وهو يمضى خافض الرأس يحملق فى الأرض إلى لا شيء، هناك رجل كان معمدًا بالفعل...» وصمتت حين اقترب «كيزى» من الباب.

وقال «توم»: «ستصاب بضربة شمس بتجوالك هذا».

فقال «كيزى»: «حسنًا، هيه... ربما....» ثم خاطبهم فجأة متضرعًا للأم والجد و«توم» وقال: «لا بد أن أذهب إلى الغرب، لا بد أن أذهب، يا ترى

هل أستطيع أن أذهب مع عائلتكم؟». ثم توقف وقد ارتبك مما قال.

ونظرت الأم إلى «توم» ليتكلم فقد كان هو الرجل، ولكن «توم» لم يتكلم. وعندما أعطته فرصة الكلام التى كانت من حقه ولم يتكلم، تكلمت هى: «سيكون من دواعى فخرنا أن تصحبنا. طبعًا أنا لا أستطيع أن أقول ذلك نهائيًا، فقد قال الأب إن الرجال سيناقشون الأمر الليلة ويحددون متى نبدأ المسير. أعتقد أنه من الأفضل أن نتريث حتى يأتى الرجال، «جون» والأب و«نوح» و«توم» والجد و«آل» و«كونى»، سيتناقشون فور عودتهم. ولكن إذا ما كان هناك مكان فأنا متأكدة تماما أن صحبتك تشرفنا».

وتنهد الواعظ وقال: «سأذهب على أى حال، شيء ما يحدث، لقد صعدت مرتفعًا ونظرت حولى. البيوت خالية والحقول خالية والبلاد كلها خالية. لا يمكن أن أظل هنا بعد ذلك. لابد أن أذهب إلى حيث يذهب الناس. سأعمل فى الحقول وربما وجدت السعادة».

فسأله «توم»: «وهل فى نيتك أن تعظ الناس؟»

«لا... ليس فى نيتى».

فسألت الأم: «ولن تعمد أحدًا؟»

«ولن أعمد أحدًا. سأعمل فى الحقول، فى الحقول الخضراء، وسأكون قريبًا من الناس. لن أحاول أن أعلمهم شيئًا، بل سأحاول أن أتعلم. سأحاول أن أتعلم لماذا يخرج الناس للحقول. سأسمعهم يتكلمون، سأسمعهم يغنون. سأنصت للأطفال وهم يأكلون ثريد الذرة، سأسمع الزوج والزوجة وهما يتقلبان على المرتبة فى المساء، سأشاركهم الطعام، وأتعلم». كانت عيناه لامعتين دامعتين: «سأضاجع من تريدنى فى المزارع دون تخف أو خداع، سأسب وأشتم، وأسمع الأشعار والمواويل الشعبية، وكل ما هو مقدس، وكل ما لم أفهمه وكل هذه الأشياء الطيبة».

قالت الأم: «آ... مين».

وجلس الواعظ فى تواضع على القرمة بجوار الباب وقال: «ما الذى بقى ياترى لرجل وحيد مثلى؟»

وتنحنح «توم» برقة وبدا يقول: «الرجل لم يعد يعمل واعظا...؟»

فقال «كيزى»: «أوه، أنا متحدث، لا يمكن التوقف عن هذا، ولكننى لا أعظ. فالوعظ هو أن تعطى للناس شيئًا. أما أنا فاسألهم. ليس هذا وعظًا؟ أليس كذلك؟»

فقال «توم»: «لا أعرف، فالوعظ نبرة من نبرات الصوت، الوعظ طريقة للناظر إلى الأمور. قد يكون الوعظ مفيدًا للناس ولكنهم يريدون قتلك بسببه، فى عيد الميلاد الماضى فى سجن «ماك أليستر» جاء جيش الخلاص وأقاموا لنا صلاة، قدموا لنا ثلاث ساعات بدون توقف من الموسيقى النحاسية ونحن جلوس. كانوا طيبين معنا ولكن لو أن أحدنا حاول أن يترك المكان لزج بنا جميعًا فى الحبس الانفرادى. هذا هو الوعظ أن تصنع خيرًا لرجلٍ سقط ولا يمكنه أن يلطمك على وجهك مقابل صنيعك. لا لست واعظًا ولكن لاتنفخ فى نفيرك فى هذه الأنحاء».

وألقت الأم ببعض الأخشاب فى الفرن وقالت: «سآتيكم ببعض الطعام الآن، ولكنه كمية قليلة».

وأخرج الجد صندوقه إلى الخارج وجلس عليه مستندًا إلى الحائط، واستند «توم» و«كيزى» على حائط المنزل. وعندما مالت الشمس عن الظهيرة بدأ ظل المنزل يزحف على الأرض.

* * *

عادت سيارة النقل فى وقت متأخر من العصر. تنفذ وتعج فى التراب

وقد غطى ظهرها طبقة من الغبار كما تغطت مقدمتها، واختفت أنوارها الأمامية تحت غشاء من التراب الأحمر الناعم. كانت الشمس مائلة للمغيب عندما عادت السيارة وغرقت الأرض فى ضوء الغروب فأصبحت حمراء فى لون الدم. جلس «آل» منحنيًا على عجلة القيادة فخورًا، جادًا، وقادرًا. وبجواره جلس الأب والعم «جون» كما يليق برؤوس العائلة. لهم شرف الجلوس بجوار السائق. بينما وقف الأطفال على ظهرها ممسكين بقضبان جوانبها. «روثى» ذات الاثنى عشر ربيعا، و«وينفلد» ذو العشرة أعوام. وجوه برية متسخة، عيون متعبة ولكنها مليئة بالانفعال، وقد اسودت أصابعهما وزوايا فميهما وأصبحت لزجة من حلوى العرقسوس التى اشتراها لهما أبوهما فى المدينة ليسكت عويلهما. كانت «روثى» فى ردائها المصنوع من الموسلين الوردى والذى يصل إلى ما تحت ركبتيها، تبدو كسيدة شابة جادة صغيرة. أما «وينفلد» فكان لايزال حدثًا بأنف سائبة مبتلة دائمًا! مجرد فرخ صغير فى حظيرة، ومدمن جمع وتدخين أعقاب السجائر. وبينما كانت «روثى» تستشعر العظمة، والمسئولية، والكرامة فى ثدييها النابتين، كان «وينفلد» مجرد ولد شقى كالعجل الصغير. وبجوارهما وقفت «روزا شارن» وقد تشبثت برفق فى القضبان تحاول أن تحفظ توازنها بأن تتأرجح على عقبيها محاولة نقل صدمات الطريق إلى ركبتيها وفخذيها. كانت «روزا شارن» حاملاً وتتصرف بحذر. شعرها معقوص وملفوف حول رأسها كتاج رمادى أشقر، وجهها المستدير اللطيف الذى كان شهوانيًا مثيرًا منذ شهور قليلة عليه الآن قناع الحمل. وابتسامة الرضا عن النفس، ونظرة اليقين. جسمها السمين، ثدياها، وبطنها، وخصرها وأردافها التى كانت تتأرجح بحرية وإثارة، تدعو إلى الضرب والربت عليها، كل جسدها أصبح بادى الحشمة والجدية. وكل أفكارها وتصرفاتها أصبحت موجهة إلى الطفل فى داخلها. إنها الآن تحتفظ بتوازنها على

أصابع قدميها من أجل خاطر الطفل. والعالم كله حامل فى عينيها. كانت تفكر فى كل شيء بمعايير التكاثر والأمومة. كان «كونى» زوجها البالغ من العمر ١٩ عامًا لايزال فزعًا مرتبكًا من التغيير الذى طرأ عليها. فقد تزوج فتاة سمينة سريعة الانفعال سليطة اللسان، أما الآن فلم تعد هناك مشاجرات قططية فى الفراش ولا عض ولاخربشة ولاضحكات مكتومة تنتهى بالدموع، بل مخلوق متزن حذر، حكيم يبتسم له بخجل، ولكن بحزم. كان «كونى» يفخر ويخاف من «روزا شارن»، وكان كلما لاحت له فرصة يضع يده عليها أو يلتصق بها حتى يلامس جسده خصرها وكتفها. كان يشعر أنه بذلك يبقى على علاقة تكاد تنفصم. كان شابًا نحيلا حاد التقاطيع من أصل تكساسى وعيناه الزرقاوان الشاحبتان تنطقان بالخطر أحيانًا وبالغضب أحيانًا أخرى وبالخوف أحيانا أخرى. كان يجيد القيام بالأعمال الشاقة ويمكنه أن يكون زوجًا طيبًا. ويشرب حتى يرتوى، ولكنه لايشرب كثيرًا. يتشاجر حين يدعو الأمر لذلك، ولم يكن أبدًا متفاخرًا، كان إذا جلس فى جمع، يجلس فى هدوء، ولكنه يستطيع أن يثبت وجوده.

ولو أن العم «جون» لم يكن فى الخمسين من العمر وهو بهذا يعد واحدًا من الحكام الطبيعيين فى الأسرة، لفضل ألا يجلس فى مكان الشرف بجوار السائق. ربما كان يفضل لو جلست «روزا شارن» مكانه، ولكن هذا كان مستحيلاً لأنها صغيرة وامرأة. لم يكن العم مستريحًا فى جلسته، كانت عيناه تعبران عن الوحدة والقلق، ولم يكن جسمه النحيل القوى مسترخيًا، كان طول الوقت تقريبا يحس حاجزًا من الوحدة يفصل بينه وبين الناس، ويصد نفسه عن الطعام، فعاش أعزب يأكل قليلا ولا يشرب أبدًا. ولكن شهيته المكبوتة كانت تتزايد حتى تتملكه، فيأكل حتى يمرض مما يشتهيه من طعام، أو يشرب أى نوع من المسكرات الرديئة أو من الويسكى حتى يسقط مشلولا بعينين دامعتين حمراوين. أو قد يندفع

ملهوفًا بحثًا عن عاهرة فى «ساليزو» تدفعه شهوة جامحة، وقد قيل عنه إنه ذهب إلى «شونى» ذات مرة واكترى ثلاث عاهرات فى سرير واحد وأخذ يلهث وهو يضاجع أجسادهن غير المستجيبة لمدة ساعة. ولكنه كان إذا ما أشبع إحدى رغباته سرعان ما يعود حزينا، وخجلان، ووحيدًا، ويختبئ من الناس يحاول أن يسترضيهم بالهدايا ثم يزحف داخل المنازل ويترك اللبان تحت الوسائد للأطفال، يقطع الأخشاب بلا مقابل، يتنازل عن أى شىء يملكه، سرج أو حصان أو حذاء جديد، ولا يمكن لأى إنسان أن يحادثه فهو يهرب بعيدًا على الدوام. فإذا ما ووجه انطوى على نفسه وأطل على العالم بعينين فزعتين متلصصتين، فإن وفاة زوجته وشهور الوحدة التى تلتها، تركت بداخله علامات بارزة من الشعور بالذنب والخجل، وتركته فى وحدة يستحيل اقتحامها.

ولكن هناك أشياء لا يمكن أن يهرب منها، أنه أحد رؤوس العائلة وحكامها، وها هو ذا يجلس الآن فى مقعد الشرف بجوار السائق.

جلس الرجال الثلاثة فى مقعدهم عابسين وهم يتجهون على الطريق الترابى إلى المنزل. كان «آل» منحنيًا على عجلة القيادة، ينقل نظره باستمرار من الطريق إلى لوحة القيادة. يلاحظ عداد السرعة كان يقفز بلا استقرار، يلاحظ مقياس الزيت ومؤشر الحرارة وذهنه يحاول أن يرتب بعض النقط والأمور المتعلقة بالسيارة. أنصت إلى الطنين، ربما كان من علبة التروس الخلفية، طنين جاف. أنصت إلى صوت البساتم وهى تصعد وتهبط. كان يحس بدورات التروس وهو يضع يده على الدوام على عصا «الفتيس»؛ وقد رفع قدمه من على الدبرياج ووضعها على الفرملة ليختبر عملها. ربما كان فى بعض الأحيان كالتيس الشارد. ولكن هذه كانت مسئوليته. سيارة النقل هذه، أن يسير. وأن يستمر، فإذا ما فسد شىء فهى غلطته ومع أن أحدًا لن يقول ذلك إلا أن الجميع ـ و«آل» أولهم ـ يدرك أنها ستكون غلطته.

ولهذا كان يتحسسها. ويلاحظها. وينصت إلى صوتها ووجهه عليه سيماء الجدية والمسئولية. والجميع ـ يحترمونه ويحترمون مسئوليته، حتى الأب. القائد. قد يحمل مفتاحا إنجليزيًا فى يده ويتلقى الأوامر من «آل».

كل من فى السيارة كان متعبًا. «روثى» و«وينفلد» متعبان من كثرة ما رأيا من حركة ووجوه، من كثرة ما كافحا من أجل حلوى العرقسوس. تعبا من فرط انفعالهما عندما دس العم «جون» اللبان سرًّا فى جيوبهما.

والرجال فى مقعدهم كانوا متعبين غاضبين يغلبهم الحزن، لأنهم لم يحصلوا إلا على ثمانية عشر دولارًا مقابل كل شىء يمكن نقله من المزرعة: الخيل، والعربة، والعدد، وكل الأثاث الذى أتوا به من المنزل. ثمانية عشر دولارًا، لقد هاجموا المشترى وجادلوا ولكنهم دحروا حين أحسوا أن اهتمامه قد تراخى وأخبرهم أنه لا يريد البضاعة بأى ثمن. عندئذ صدقوه، وهزموا أمامه وقبلوا سعرًا أقل دولارين مما عرض أول الأمر. وهاهم أولاء الآن منهكون فزعون لأنهم خاضوا معركة ضد نظام لايفهمونه، وقد هزمهم هذا النظام. كانوا يعرفون أن الخيل والعربة تساوى أكثر مما دفع فيهما. كانوا يعرفون أن المشترى سيحصل على أكثر مما دفع كثيرًا، ولكنهم لايعرفون كيف يمكنهم أن يفعلوا مثله. لقد كانت التجارة سرًّا مغلقًا عليهم.

قال «آل» وهو ينقل بصره بين الطريق ولوحة القيادة: «هذا الرجل ليس من نواحينا، فهو لا يتكلم كأبناء الناحية كما أن ملابسه مغايرة أيضًا».

وقال الأب موضحًا الأمر: «عندما كنت فى مخزن الخردة تحدثت مع بعض الرجال الذين أعرفهم وقد قالوا إن هناك رجالاً جاءوا ليشتروا ما سوف نبيعه نحن عندما نمضى من هنا. يقولون إن هؤلاء الرجال الجدد لايتركون شيئًا، ولكن ليس أمامنا ما يمكن عمله حيالهم. ربما كان من الأفضل لو جاء «توم»، فربما تصرف بطريقة أفضل».

فقال «جون»: «ولكن الرجل لم يكن سيأخذها على الإطلاق، وما كنا نستطيع أن نعود بها».

فقال الأب: «هؤلاء الرجال الذين أعرفهم، كلمونى فى هذا أيضًا. قالوا إن المشترى يفعل ذلك على الدوام ويخيف الناس بهذه الطريقة. وكل ما فى الأمر أننا لا نعرف كيف نتصرف فى هذه الأمور. ستحزن الأم كثيرًا، ستفقد رشدها وينال منها الحزن».

فسأل «آل»: «متى تظننا نبدأ فى السير يا أبى؟»

«لا أعرف، سنتكلم فى الأمر الليلة ونقرر. الحق أننى سعيد بعودة «توم» فذلك يجعلنى أشعر بتحسن. «توم» ولد طيب».

فقال «آل»: «أبى، كان بعض الرجال يتكلمون عن «توم» هناك، قالوا إنه مفرج عنه بالإفراج الشرطى وأن ذلك يعنى أنه لا يستطيع مغادرة الولاية. فإذا ما غادرها وأمسكوه فسيعيدونه إلى السجن ليقضى ثلاث سنوات».

وفزع الأب وقال: «أقالوا هذا؟ هل بدا عليهم أنهم يفهمون فى هذا الأمر؟ أم أنه مجرد كلام».

فقال «آل» : «لا أعلم، كانوا يتكلمون هناك ولم أدعهم يعرفون أننى أخوه بل وقفت أنصت لهم».

فقال الأب: «يايسوع المسيح! أرجو ألا يكون ذلك صحيحًا فنحن فى حاجة إلى «توم». سأسأله فى هذا، فلدينا من المشاكل ما يكفى دون حاجة إلى أن يطاردونا، أرجو ألا يكون هذا صحيحًا، ينبغى أن نناقش هذا الأمر بصراحة».

وقال العم «جون»: «لا بدأن «توم» يعرف الأمر».

وساد الصمت بينهم. والسيارة تمضى بهم متعثرة على الطريق. وعلا ضجيج المحرك مليئًا بالخشخشات، وصفقت أذرع الفرامل، وعلا من

العجلات صرير خشبى وتسربت نفثات من البخار من ثقب فى غطاء الرادياتير، وسحبت السيارة وراءها دوامة عالية من التراب الأحمر. وقعقعت العربة صاعدة المرتفع الأخير الصغير، بينما كان نصف قرص الشمس لا يزال فوق الأفق. ثم هبطوا مسرعين إلى البيت وهى تختفى كلية. وعلا صوت الفرامل عندما توقفوا. وعرف «آل» أن ذلك الصوت يعنى أن الفرامل لم يعد هناك مايكسوها.

وتسلقت «روثى» و«وينفلد» جوانب السيارة وهبطا إلى الأرض وهما يصرخان. وصاحا: «أين هو؟ أين «توم»؟». وعندئذ رأياه واقفًا بجوار الباب. فتوقفا وارتبكا ثم سارا ببطء نحوه ونظرا إليه فى خجل.

وعندما قال: «هالو.. كيف حالكم يا أولاد».. أجابا بلطف: «هالو، لا بأس». ثم انتحيا جانبًا وأخذا يرقبانه خفية. الأخ العظيم الذى قتل رجلا وكان فى السجن. وتذكرا كيف لعبا لعبة السجن فى عشة الدجاج وكيف تشاجرا معا. من منهما يكون السجين.

خلع «كونى ريفرز» الباب الخلفى العالى من السيارة ونزل ثم ساعد «روزا شارن» على النزول إلى الأرض فتقبلت مساعدته فى جلال وهى تبتسم ابتسامتها الراضية الحكيمة وقد تباعدت زوايا فمها مبتسمة فى خيلاء.

وقال «توم»: «الله. إنها «روزا شارن»، لم أكن أعرف أنك آتية معهم».

فقالت: «كنا نمشى ثم جاءت السيارة والتقطتنا» ثم قالت: «هذا «كونى»، زوجى» كانت تنطق الكلمات فى عظمة.

وتصافح الرجلان، كل منهما يزن الآخر ويتأمله بعمق، وبعد لحظة كان

كل منهما قد اكتفى، ثم قال «توم»: «حسنًا، أرى أنك لم تضيعى وقتك». فخفضت ناظريها وقالت:

«إنها ليست واضحة... ليس بعد».

«قالت لى الأم. متى ستلدين؟»

«أوه، أمامنا وقت طويل، للشتاء القادم على الأقل».

فضحك «توم» وقال: «ستلدين فى مزرعة برتقال، هه، فى واحد من تلك البيوت البيضاء التى تحوطها أشجار البرتقال».

تحسست «روزا شارن» بطنها بيديها وقالت: «إنها ليست واضحة»، وابتسمت ابتسامتها البشوشة ودخلت البيت. كان المساء حارًا وما تزال دفعة من الضياء تتدفق عبر الأفق الغربى. ودون أى إشارة تجمعت الأسرة حول سيارة النقل. وعندئذ بدأ المؤتمر ـ حكومة العائلة ـ اجتماعه.

أضفى ضوء الغسق بريقًا لامعًا على الأرض الحمراء فازدادت أبعادها عمقًا حتى بدا كأن للحجر أو القائم أو المنزل أبعادًا أعمق وصلابة أكثر عما هى عليه فى ضوء النهار. أصبحت هذه الأشياء أكثر تفردًا بشكل يدعو إلى العجب. تجسدت هيئة العمود الخشبى منتصبًا من الأرض الواقف عليها مواجهًا حقل الحنطة المنتصب أمامه. وكل عود من أعواد النبات متفرد فى الحقل. وشجرة الصفصاف العارية وقفت مستقلة بذاتها عن كل أشجار الصفصاف الأخرى، الأرض أضافت ضوءًا إلى ضوء المساء، وواجهة المنزل الغربية الرمادية غير المطلية بدت مضيئة كوجه القمر. وسيارة النقل المتربة الرمادية فى الفناء أمام المنزل تبرز بشكل ساحر فى الضياء كأنها صورة مجسمة يلقيها فانوس سحرى.

حتى الناس تغيروا فى المساء، هدأوا، بدا كأنهم جزء من اللاشعور ينصاعون لانطباعات لاتكاد تعيها عقولهم الواعية. عيونهم هادئة وعميقة، تلمع فى المساء وتلمع فى وجوههم المغبرة.

اجتمعت العائلة فى أهم مكان لديها بجوار سيارة النقل. لقد ماتت المنازل وماتت الحقول، أما هذه السيارة فهى الكائن الفعال النشط والمبدأ الحى. سيارة من طراز هدسون قديمة ذات رادياتير مجرح مطبق. وتجمعت كرات الشحم المعجون بالتراب على كل الأطراف المتآكلة لكل جزء متحرك فيها، ضاعت طاسات العجلات وحل محلها غطاء من التراب الأحمر كانت هذه هى المأوى الجديد، مركز الأسرة الحى، سيارة ركاب نصف نقل ذات جوانب عالية، خشنة.

دار الأب حول السيارة وتأملها، ثم تربع على التراب والتقط عصا يخطط بها استقرت إحدى قدميه كلها على الأرض بينما الأخرى ارتكزت على كعبها ومالت إلى الخلف قليلاً فبدت إحدى ركبتيه، اليمنى منها، أعلى من الأخرى. واستقر ساعده اليسرى على الركبة اليسرى بينما استقر مرفقه اليمنى على الركبة اليمنى، وقد ضم قبضته اليمنى ليستقر عليها ذقنه. تربع الأب هناك ينظر إلى سيارة النقل وقد استقر ذقنه فى قبضته المضمومة. واتجه إليه العم «جون» ثم تربع بجواره. عيونهما كانت مفكرة شاردة. وخرج الجد من المنزل ورأى الاثنين متربعين فقفز نحوهما وجلس فى مواجهتهما على رفرف السيارة. هذه نواة الاجتماع وجاء «توم» و«كونى» و«نوح» وتربعوا فتكون بهم صف من نصف دائرة يجلس الجد فى فتحتها. ثم جاءت الأم والجدة وخلفهما «روزا شارن» تتهادى وأخذن موقفهن خلف الرجال المتربعين وظللن واقفات وقد وضعن أيديهن على أردافهن. وخلف النساء وقف الأطفال. «روثى» و«وينفلد» ينقلان أقدامهما وتدوس أصابعهما فى التراب الأحمر، ولكنهما

لم يحدثنا أى صوت. ولم يكن غائبًا إلا الواعظ. فقد كان من فرط رقته جالسًا على الأرض خلف المنزل. كان واعظًا جيدًا يعرف شعبه.

أخذ ضوء الغسق يخفت شيئًا فشيئًا بينما الأسرة تجلس وتقف فى صمت. وتكلم الأب مقدمًا تقريره لا إلى أحد بعينه ولكن إلى الجماعة كلها: «لقد سلخونا فيما بعناه، الرجل يعرف أننا لن نستطيع الانتظار، فلم نحصل إلا على ثمانية عشر دولارًا». وتململت الأم فى ضيق ولكنها ظلت تحتفظ بهدوئها.

وسأل «نوح»، أكبر الأبناء: «إذا جمعنا كل شىء كم يكون لدينا؟».

وخط الأب بعض الأرقام على التراب وغمغم لنفسه قليلاً ثم قال: «مائة وأربعة وخمسون.. ولكن «آل» بجوارى هنا يقول إننا فى حاجة إلى إطارات أفضل لأن الموجودة لن تستمر طويلا».

كانت هذه أول مرة يشترك فيها «آل» فى اجتماعات العائلة. فقد كان من قبل يقف خلفهم على الدوام. مع النساء. أما الآن فها هو ذا يقدم تقريره فى تهيب. وقال برصانة: «إنها قديمة ومن نوع ردىء، لقد فحصتها جيدًا قبل أن نشتريها ولم أسمع كلام ذلك الرجل الذى حاول إيهامنا بأنها صفقة، أدخلت يدى فى الدبرياج ولم يكن خردة، وفتحت صندوق المسننات «الجيربوكس» ولم يكن خردة أيضًا. واختبرت تروسها وأدرت عجلاتها لأرى إذا كان بها خلخلة «بوش» ورقدت تحتها ولم يكن هيكلها باليًا ولم يحدث أن انقلبت أبدًا. وجدت أن هناك شرخًا فى عمود من أعمدة بطاريتها فجعلت الرجل يغيرها بأخرى جيدة. والإطارات لا تكلف كثيرًا. ولكنها من مقاس جيد ومن السهل الحصول عليه. ستجرى كالعجلة أو كالثور الصغير ولن تستهلك وقودًا كثيرًا. والسبب الذى دفعنى إلى شرائها أنها عربة شعبية ومخازن الخردة مليئة بالهدسون سوبر/ ٦، ولذلك يمكننا

أن نحصل على قطع غيار بثمن رخيص. كان من الممكن أن أحصل على أخرى أكبر وأجمل بنفس الثمن، ولكن قطع الغيار كانت ستكون غالية ونادرة جدًا». ثم أنهى الحديث منتظرًا حكم العائلة بقوله: «هكذا فكرت فى الأمر على أى حال». وتوقف عن الكلام فى انتظار آرائهم.

كان الجد لايزال رأس العائلة من الناحية الشكلية، ولكنه لم يعد يحكم. مجرد مكانة شرفية بحكم العادة. ومع ذلك فلا يزال له حتى التعليق الأول بغض النظر عما فى عقله من غباء، وهكذا سكت الرجال المتربعون والنساء الواقفات فى انتظاره. قال الجد:«أنت على حق يا «آل»، أنا كنت مجرد حدث صغير مثلك أعبث فى هذه الأنحاء كالكلب الوولف، ولكن حين كنت أكلف بعمل كنت أعمله، لقد كبرت فعلا». وأنهى حديثه بلهجة من يمنح البركة. فاحمرَّ وجه «آل» قليلاً من السعادة..

قال الأب: «يبدو لى أن ما قاله معقول. لو أن الأمر متعلق بالخيل ما كلفنا «آل»، ولكن «آل» هو الوحيد الذى يفهم فى السيارات هنا».

فقال «توم»: «أنا أعرف قليلا، فلقد عملت فترة بها فى «ماك أليستر». و«آل» على حق، ولقد أحسن صنعا». عندئذ أصبح وجه «آل» ورديًا من الإطراء.

واستمر «توم» يقول: «أريد أن أقول... حسنا.. هذا الواعظ يريد أن يأتى معنا». ثم صمت. وطافت كلماته على الجماعة، وظلت الجماعة صامتة فأضاف: «إنه رجل طيب، عرفناه منذ وقت طويل، أحيانًا يتكلم ببعض القسوة، ولكن كلامه معقول». وهكذا طرح الاقتراح على الأسرة.

كان الضياء يخفت تدريجيًا، فتركت الأم الجماعة وعادت إلى المنزل. ومن هناك جاء صوت الفرن الحديدى وبعد لحظة عادت الأم إلى المجلس الذى ران عليه الصمت والشرود.

قال الجد: «هناك طريقتان فى التفكير فى هذا الأمر، بعض الناس يقول إن وجود قس يجلب النحس».

فقال «توم»: «هذا الرجل يقول إنه لم يعد واعظًا».

فلوح الجد بيده وقال: «ما إن يصير الرجل واعظًا حتى يظل واعظًا على الدوام، فهذا شيء لا يمكن التخلص منه. وبعض الناس يقول إن اصطحاب قس شيء محترم. وإذا مات أحد يدفنه، وإذا حان وقت الزواج أو حتى فات فهو موجود. إذا رزقت بطفل ففى متناول يدك من يعمده على الفور. عن نفسى أنا دائمًا كنت أقول هناك وعاظ ووعاظ. لا بد أن نأخذ معنا هذا الرجل فأنا أحبه. لايبدو عليه أنه متزمت».

ودق الأب عصاته فى التراب ثم أدارها بين أصابعه حتى أحدثت ثقبًا صغيرًا وقال: «هناك شيء آخر أكثر من مسألة ما إذا كان هذا الرجل يجلب الحظ. أو أنه رجل طيب. لابد أن نفكر جيدًا، إنه لأمر مؤسف أن نفكر بدقة. فلنر الآن... الجد والجدة، اثنان. وأنا و«جون» والأم خمسة. و«نوح» و«توم» و«آل».... ثمانية. و«روزا شارن» و«كونى» عشرة. و«روثى» و«وينفلد»، اثنا عشر. ولابد أن نأخذ الكلبين معنا، وإلا فكيف سنتصرف معهما. لايمكن أن نقتل كلبا جيدًا وليس هناك أحد يمكن أن نعطيهما له. وهكذا يصبح العدد أربعة عشر».

فقال «نوح»: «لم تحسب الدجاج الباقى، والحنزيرتين».

فقال: «أنا أنوى أن أملح هاتين الحنزيرتين لنأكلهما ونحن على الطريق. سنحتاج إلى لحم وسنحمل معنا براميل الملح. ولكننى أتساءل أن نركب كلنا ومعنا الواعظ، أيمكننا إطعام فم آخر؟» ودون أن يدير رأسه سأل الأم: «هل يمكن يا ماما؟».

تنحنحت الأم قبل أن تقول بحسم: ليست المسألة مسألة أيمكن؟

بل هى مسألة أنريد». «فبالنسبة للإمكان، نحن لايمكننا أى شىء، لا الذهاب إلى كاليفورنيا ولا أى شىء. ولكن إذا أردنا، حسنًا، فسنفعل ما نريد. وبالنسبة للإرادة، فمنذ وقت طويل وأهلنا هنا وفى الشرق، ولم أسمع أبدًا أن أحدًا من عائلة «جود» أو عائلة «هازليت» قد رفض أن يقدم الطعام أو المأوى أو ركوبة على الطريق لأى سائل. أسرة «جود» معروف عنها الخسة ولكن ليس إلى هذه الدرجة».

فقاطعها الأب قائلا: «افترضى أنه لايوجد مكان». وأدار رأسه والتفت لها بوجه خجل فقد أخجلته لهجتها: «افترضى أننا لن نتمكن كلنا من ركوب السيارة».

فقالت: «لايوجد مكان فعلا، لايوجد مكان لأكثر من ستة. ومع ذلك فمن المؤكد أن اثنى عشر سير كبون، وإضافة واحد لن يزيد الأمر سوءًا. كما أن رجلا صحيحًا وقويًا لا يمكن أن يكون عبئًا. ومنذ متى نتساءل ونحن نملك خنزيرتين وأكثر من مائة دولار عما إذا كان فى الإمكان أن نطعم رجلا؟». وتوقفت عن الكلام واستدار الأب وقد ألهبت روحه سياط حديثها.

قالت الجدة: «جيد أن يكون معنا واعظ. لقد قدم صلاة شكر جيدة هذا الصباح». وتأمل الأب وجه كل واحد بحثًا عن معارض ثم قال: «أتريد أن تناديه يا «توم»؟ إذا كان سيذهب معنا فلابد أن يكون هنا الآن».

ونهض «توم» من قعدته واتجه ناحية المنزل مناديًا: «كيزى»، يا «كيزى».

وجاءه صوت غير واضح من خلف المنزل، فمشى «توم» إلى ناصية البيت ورأى الواعظ يجلس مستندًا إلى الحائط ينظر إلى بريق نجمة المساء فى السماء اللامعة. وسأل: «أتنادينني؟»

«أيوه، لقد فكرنا أنه ما دمت ستذهب معنا فلابد أن تجلس معنا لنتدبر الأمر». نهض «كيزى» على قدميه فقد كان يعرف ما هى حكومات العائلات. وعرف أنه قد تقرر ضمه إلى العائلة. والحق أنه أنزل منزلة سامية، لأن العم «جون» قد تحرك جانبًا مفسحًا له مكانًا بينه وبين الأب. وتربع «كيزى» على الأرض كالآخرين مواجهًا الجد الذى كان يجلس على عرشه فوق الرفوف.

وعادت الأم ثانية إلى المنزل وجاء صوت غطاء فانوس ثم برق النور الأصفر فى ظلام المطبخ. وعندما كشفت غطاء الوعاء الكبير خرجت رائحة اللحم والجزر المسلوق من الباب. وانتظروا حتى تعود عبر الفناء المظلم فقد كانت الأم صاحبة النفوذ فى الجماعة.

قال الأب: «لابد أن نقرر متى نبدأ السير. خير البر عاجله. وعلينا قبل أن نمضى أن نذبح الخنازير ونملحها ثم نحزم أمتعتنا ونمضى. والأفضل أن نسرع الآن».

فوافقه «نوح» قائلا: «لو بدأنا الآن لأمكن أن نستعد غدًا. ولاستطعنا أن نبدأ السير مبكرًا فى اليوم التالى».

واعترض العم «جون»: «لا يمكن تبريد اللحم فى قيظ النهار، هذا أسوأ موسم للذبح وإذا لم تبرد اللحم تبريدًا جيدًا فستفسد».

«حسنًا دعنا نذبحها الليلة، فستبرد قليلا فى الليل إلى أقصى ما يمكن. بعد أن نأكل نذبحها. هل لدينا ملح؟»

قالت الأم: «نعم لدينا ملح وفير. ولدينا برميلان فى حالة جيدة أيضًا».

فقال «توم»: «حسنا، لنتخلص منها إذًا».

وبدا الجد يتحسس حوله محاولاً أن يجد شيئًا يرتكز عليه فى نهوضه وقال: «الظلام يزداد وأنا جعت، عندما نذهب إلى كاليفورنيا فسأمسك فى يدى حزمة من العناقيد طول الوقت، أمص فيها طول الوقت، يا إلهى». ثم نهض.. ونهض الرجال جميعًا...

وقفت «روثى» و«وينفلد» يحجلان على التراب كمن فقدا صوابهما. وهمست «روثى» بصوت خشن لـ «وينفلد» قائلة: «سيذبحون الخنازير وسنذهب إلى كاليفورنيا. فنذبح الخنازير ونذهب فى الوقت نفسه».

وجن «وينفلد» تمامًا، ووضع إصبعه على رقبته واكتسى وجهه بمظهر مخيف وتمايل وهو يصرخ بصوت خافت: «أنا خنزير عجوز، انظرى أنا خنزير عجوز، انظرى إلى الدماء يا «روثى». ثم ترنح وسقط على الأرض ملوحًا بذراعيه وساقيه بوهن.

ولكن «روثى» كانت أكبر سنًّا، وكانت تدرك جسامة الموقف فقالت ثانية: «وسنذهب إلى كاليفورنيا». كانت تعلم أن هذه هى أعظم لحظات حياتها.

واتجه الكبار فى الغسق القاتم ناحية المطبخ المضىء، وقدمت لهم الأم فى أطباق من الصاج خضارًا ولحمًا مسلوقًا ولكن قبل أن تبدأ هى فى الأكل وضعت على الفرن حوض الغسيل الكبير وزادت النار اشتعالا، وحملت دلاء الماء إلى الحوض حتى امتلأ، وعندئذ رصت على جانبيه الدلاء مملوءة بالماء. وتحول المطبخ إلى مستنقع حار، وأكلت العائلة بسرعة، وجلسوا ينظرون إلى الظلام خارج المنزل، وإلى مربع الضوء الذى يلقيه الفانوس عبر باب المطبخ يتوسطه ظل ظهر الجد المحدودب.

نظف «نوح» أسنانه جيدًا بعود من القش، وقامت الأم و«روزا شارن» بغسل الأطباق ورصها على المائدة وفجأة، بدأت كل العائلة فى العمل:

نهض الأب وأضاء فانوسًا آخر، وأحضر «نوح» من صندوق صغير فى المطبخ سكينة الذبح ذات السلاح المقوس، وأخذ يسنها على حجر مسن صغير متآكل، ووضع المقشطة على القرمة وبجوارها السكين. وأحضر الأب عصاتين متينتين طول كل منهما ثلاث أقدام ودبب أطرافها بالبلطة وربط بكل منها حبلا متينًا بحيث أصبح مزدوجًا ومعلقًا فيها. وغمغم قائلا: «ما كان يجب أن نبيع كل العروق الخشبية».

غلت المياه فى الأوانى وتصاعد منها البخار.

وسأل «نوح»: «هل سننقل الماء هناك أم سنأتى بالخنازير هنا».

فقال الأب: «الخنازير هنا، فلا يمكن أن تصب الماء على الخنازير وتسلق نفسك بالماء الساخن. الماء جاهز تقريبًا».

فقالت الأم: «تقريبًا».

«حسنا، تعال يا «نوح» أنت و«توم» و«آل»، سأحمل الفانوس سنذبح هناك ثم ننقلها إلى هنا».

أخذ «نوح» سكينه وأخذ «آل» البلطة وذهب الأربعة إلى حظيرة الخنازير وضوء الفانوس يرفرف بين سيقانهم، وخلفهم جاءت «روثى» و«وينفلد» يحجلان على الأرض. وعندما وصلوا إلى الحظيرة انحنى الأب فوق سورها ممسكًا بالفانوس فنهضت الخنازير الفتية النائمة على أقدامها وهى تزوم متوجسة، وجاء العم «جون» والواعظ للمساعدة.

قال الأب: «حسنًا، قيدوهما وسنذبحهما ثم نصفى دمهما ونسلخهما هناك».

وعبر «نوح» و«توم» الحاجز، وتم الذبح بسرعة وكفاءة. ضرب «توم» بالبلطة ضربتين على الرأس، وانحنى «نوح» على الخنازير المترنحة

وسرعان ما وجدت سكينه المقوسة طريقها إلى الشريان الكبير. وتركت الدم يسيل فى دفقات منسابة، ثم حملا الخنزيرتين عبر الحاجز، وهما ما تزالان تصرخان، سحب الواعظ والعم «جون» واحدة من ساقيها الخلفيتين وسحب «توم» و«نوح» الأخرى يتقدمهم الأب حاملا الفانوس، وعلى التراب تركت الدماء السوداء خطين طويلين.

فى المنزل، دفع «نوح» سكينه بين العضلات والعظم فى الساق الخلفية. وباعدت العصى المدببة بين الساقين، وتعلقت الذبيحتان فى العوارض البارزة من سقف المنزل. عندئذ حمل الرجال الماء المغلى وسكبوه على الذبيحتين السوداوين. وشق «نوح» الذبيحتين بالطول وترك أحشاءهما تسقط على الأرض. ودبب الأب عصاتين أخريين لكى يحفظ الجسمين معرضين للهواء. بينما كان «توم» بمقشطة والأم بسكين قديمة يقشطان الجلد ليزيلا عنه الشعر. أحضر «آل» جردلاً ووضع فيه الأحشاء ثم ألقاها على الأرض بعيدًا عن المنزل. وتبعته قطتان تموءان بصوت عال، كما تبعته الكلاب تزمجر برفق فى وجه القطط.

جلس الأب على العتبة ونظر إلى الخنازير المعلقة فى ضوء الفانوس. كانوا يقشطونها الآن. واستمرت نقط قليلة من الدماء تتساقط على البركة السوداء على الأرض. ونهض الأب وذهب إلى الخنزيرتين وتحسسهما بيده، ثم عاد وجلس مرة أخرى. وذهب الجد والجدة إلى الحظيرة ليناما وقد حمل الجد فى يده فانوسًا ذا شمعة، وجلست بقية العائلة فى هدوء بجوار العتبة. «كونى» و«آل» و«توم» جلسوا على الأرض مسندين ظهورهم إلى جدار المنزل، وجلس العم «جون» على صندوق والأب فى المدخل، ولم يبق إلا الأم «روزا شارن» تتحركان. كان النعاس يغلب على «روثى» و«وينفلد» ولكنهما كانا يقاومانه. تشاجرا فى الظلام وهما يغالبان النوم. تربع «نوح» والواعظ بجوار بعضهما البعض فى مواجهة المنزل، حك

الأب جلده بعصبية وخلع قبعته ومشط شعره بأصابعه وقال بقلق: «غدًا سنملح هذا اللحم فى الصباح ثم نشحن اللورى بكل شىء إلا الأسرّة، وفى الصباح التالى سننطلق. عمل شاق إذا انتهينا منه فى يوم واحد».

فقاطعه «توم» قائلاً: «سنظل نسرح طول النهار نبحث عن شىء نفعله». وتململت الجماعة غير مرتاحة، وقال «توم» مقترحًا: «فى الإمكان أن نكون جاهزين عند طلوع النهار وننطلق».

ومسح الأب على ركبته بيده، وساد القلق الجميع.

وقال «نوح»: «قد لاتفسد هذه اللحم إذا ملحناها الآن. قطعها، فستبرد بسرعة على أية حال».

وكان العم «جون» هو الذى فجر الموقف تحت وطأة انفعالاته وصاح: «ما الذى تدورون حوله؟ أريد أن أنتهى من كل هذا؟ إذا كنا سنذهب لماذا لانذهب فورًا؟؟»

وسرى التمرد فى الجميع: «لمَ لا نذهب؟ وننام على الطريق؟» وزحفت عليهم جميعًا حمى العجلة.

وقال الأب: «يقولون إن المسافة طولها ٢٠٠٠ ميل، وهذا طريق طويل لعين. لابد أن نذهب. «نوح»، أنت وأنا نستطيع أن نقطع اللحم. ويمكننا أن نضع كل شىء فى اللورى».

وأطلت الأم برأسها من الباب وقالت: «وماذا لو نسينا شيئًا لم نره فى هذا الظلام».

فقال نوح: «يمكننا أن نلقى نظرة فى النهار». وجلس الجميع فى سكون يفكرون فى الأمر، ولكن بعد لحظة نهض «نوح» وبدا يسن سكينه المقوسة على الحجر الصغير المتآكل وقال: «أمى، ارفعى كل شىء من

على المائدة» وخطا نحو خنزيرة وشقها بجوار سلسلة الظهر وأخذ يشفى اللحم من الأضلاع.

وجلس الأب منفعلا وقال: «لابد أن نحمل الأمتعة معًا.. تعالوا يا رجال».

الآن وقد عقدوا العزم على الذهاب، سرت عدوى العجلة فيهم جميعًا. حمل «نوح» شرائح اللحم إلى المطبخ وأخذ يقطعها قطعا تصلح للتمليح ثم تتيلها الأم بالملح الخشن وتصفها قطعة قطعة فى البراميل محاذرة أن تتلامس قطعتان معًا. صفت الشرائح كأنها قوالب طوب وملأت فيما بينها بالملح. وقطع «نوح» لحم الظهر والفخذين وظلت الأم تغذى النار بالوقود، وعندما فرغ «نوح» من تشفية عظام الأضلاع والفقرات والفخذين من كل اللحم على قدر استطاعته، وضعتها الأم فى الفرن لتشويها حتى يمكن مصها.

وتنقلت دوائر الضوء يلقيها الفانوس بين الفناء والحظيرة. وجمع الرجال معًا كل ما يمكن أخذه وكوموه بجوار سيارة النقل. وأحضرت «روزا شارن» كل الملابس التى تملكها العائلة، العفريتات، والأحذية ذات النعال السميكة، الأحذية الكاوتشوك، بذلات النزهة القديمة السوتيرات والمعاطف المصنوعة من فراء الخراف، وحزمتها كلها بإحكام ووضعتها فى صندوق خشبى. ثم دخلت فى الصندوق ودكتها بقدميها وبعدها أحضرت الفساتين الملونة والشرابات القطنية السوداء وملابس الأطفال، عفريتات صغيرة وفساتين مطبوعة رخيصة، ووضعت كل ذلك فى الصندوق ودكته.

ذهب «توم» إلى سقيفة العِدد، وأحضر ما تبقى منها ليأخذوه، منشار يدوى وطقم مفاتيح ومطرقة وصندوق من المسامير المتنوعة الأحجام وزرديتان ومبرد مبطط وطقم من مبارد ذيل الفار.

واحضرت «روزا شارن» قطعة مشمع وفرشتها على الأرض خلف سيارة النقل، ثم شقت طريقها عبر الباب بالمراتب، ثلاث مطويات وواحدة مفرودة، وكومتها على المشمع. ثم أحضرت ملء ذراعيها من البطاطين المهلهلة وكومتها عليها.

وانشغلت الأم و«نوح» فى تقطيع اللحم، وفاحت رائحة اللحم المشوى من الفرن. كان الطفلان قد سقطا نأمين وقد تقدم الليل، «وينفلد» رقد متكورًا على التراب خارج الباب، «وروثى» التى كانت قد جلست على صندوق فى المطبخ لتتفرج على الجزارة مالت برأسها على الحائط ونامت تتنفس فى هدوء وقد انفرجت شفتاها وبانت أسنانها.

فرغ «توم» من العِدد، فجاء إلى المطبخ بفانوسه يتبعه الواعظ. قال «توم»: «رزقك فى رجليك شم رائحة هذا اللحم، واسمع طقطقتها!!».

وصفَّت الأم قوالب اللحم فى برميل وصبت الملح حولها وعليها ثم غطت الطبقة كلها بالملح وتبلتها ثم رفعت عينيها ونظرت إلى «توم» وابتسمت له ابتسامة خفيفة. ولكن عينيها كانتا مرهقتين رزينتين وقالت: «من الجميل أن نفطر بضلوع الخنزير».

وخطا الواعظ إلى جوارها وقال: «دعينى أملح هذا اللحم، يمكننى أن أفعل ذلك. هناك أشياء أخرى عليك أن تعمليها».

توقفت عن العمل وتأملته مليا كأنه قد اقترح شيئًا غريبًا. كانت يداها مغطاة بالملح وقد اصطبغت بلون وردى من عصارة اللحم الطازج ثم قالت أخيرًا: «هذا من أعمال النساء».

فأجاب الواعظ: «كله عمل، وهناك الكثير منه حتى لايمكن تصنيفه إلى عمل رجال وعمل نساء. ولديك ما تفعلينه، فدعينى أملح هذا اللحم».

ظلت تحملق فيه لحظة، ثم صبت بعض الماء من جردل فى الطشت الصاج وغسلت يديها وتناول الواعظ كتل اللحم وتبلها بالملح وهى تراقبه، ثم صفها فى البرميل كما كانت تفعل. وعندما فرغ من صفّ طبقة كاملة بعناية وفرش الملح وسواه عليها، عندئذ فقط اطمأنت وجففت يديها المتغضنتين النظيفتين.

قال «توم»: «أى شيء سنأخذه من هنا يا أماه».

جالت الأم ببصرها بسرعة فى المطبخ ثم قالت: «الجردل، وكل ما يلزم للأكل: الأطباق والأكواب والملاعق والسكاكين والشوك، ضعها فى هذا الدرج وخذه معك. المقلاة الكبيرة، وحلة اللحم الكبيرة، وإناء القهوة. وعندما يبرد الفرن أخرج الشواية منه فهى مفيدة فوق أى نار. وددت لو أخذت حوض الغسيل الكبير ولكنى أعتقد أنه لايوجد مكان. سأغسل الملابس فى الجردل. ليس من المفيد أن تأخذ أوان صغيرة، ففى الإمكان أن تطبخ كميات صغيرة فى أوان كبيرة ولكنك لاتستطيع أن تطبخ كمية كبيرة فى آنية صغيرة. خذ كل صوانى الأكل فهى تدخل فى بعضها». ثم وقفت وتأملت المطبخ وقالت: «ما قلت عليه فقط يا «توم»، وسأتكفل بالباقى. علبة الفلفل، والملح، وجوزة الطيب والمبشرة سآخذ كل هذا عندما نفرغ». رفعت فانوسًا من على الأرض وسارت بثقل إلى غرفة النوم ولم تكن قدماها العاريتان تحدثان أى صوت على الأرض.

قال الواعظ: «تبدو متعبة». فقال «توم»: «النساء متعبات على الدوام، هكذا يبدين دائمًا إلا فى المناسبات».

«أيوه، ولكنها أكثر تعبًا من هذا، متعبة فعلا، كأنها مريضة من التعب».

كانت الأم قد عبرت الباب وسمعت كلماته، فتوتر وجهها المرتخى

ببطء واختفت الخطوط من الوجه العضلى المشدود. وازدادت نظراتها حدة واستقام كتفاها. وجالت ببصرها فى الغرفة العارية، لم يعد فيها شىء إلا النفاية. اختفت المراتب التى كانت على الأرض وبيعت الدواليب. وعلى الأرض مشط مكسور وعلبة بودرة «تلك» فارغة وقليل من زبل الفيران. وخفضت الأم فانوسها ووضعته على أرضية الغرفة وأخرجت من خلف أحد الصناديق المستعملة ككرسى، أخرجت صندوق أوراق قديمًا ومتهرءًا ومضعضع الأركان. جلست وفتحته. كان بداخله خطابات وصور وقصاصات وزوج من الحلقان وخاتم ذهب صغير، وسلسلة ساعة من الشعر المجدول تنتهى بكتينة ذهبية.

لمست الخطابات بأصابعها، لمستها برقة، ثم فردت قصاصة من ورق الصحف بها بعض أخبار محاكمة «توم». وظلت وقتًا طويلا تمسك بالصندوق، تفحص ما فيه. وقلبت بأصابعها الخطابات ثم سوتها ثانية، وعضت على شفتها السفلى مفكرة ومجددة الذكريات. وأخيرًا حسمت أمرها فالتقطت الخاتم وسلسلة الساعة والحلقان وغاصت يدها تحت الكومة فأخرجت دبوسًا ذهبيًا وأخرجت خطابًا من مظروفه ووضعت حليها فى المظروف ثم طوته ووضعته فى جيب ردائها، ثم أغلقت الصندوق برفق وحنان وسوت غطاءه بأصابعها بعناية وانفرجت شفتاها ووقفت، وأخذت فانوسها وعادت إلى المطبخ.. رفعت غطاء الفرن ووضعت الصندوق بحنان بين الجمرات المشتعلة وسرعان ما أحالت الحرارة، الورق، إلى لون بنى، ثم اندلع منه اللهب وابتلعه. أعادت غطاء الفرن إلى مكانه وفى الحال أتت النيران على الصندوق واحتوته بأنفاسها.

وفى الخارج، وعلى ضوء الفانوس، كان الأب و«آل» يشحنان العربة. العِدد فى الأرضية ولكن فى متناول اليد إذا ما حدث طارئ. ثم صناديق الملابس وأدوات المطبخ فى جوال خيش. أدوات الطعام والأطباق فى

صندوقها. ثم ربطوا الجردل خلفها. جعلوا أرضية الشحن مستوية قدر الإمكان وملأوا ما بين الصناديق بالبطاطين الملفوفة. ثم فرشوا فوقها المراتب، وبذلك امتلأت العربة حتى آخرها، وأخيرًا فرشوا المشمع الكبير فوق الحمولة وثقب «آل» فى أطرافه ثقوبًا بين كل منها قدمان وربط فيها حبالا صغيرة عقدها فى قضبان جوانب السيارة.

وقال: «والآن، إذا أمطرت فسنربطها إلى القضبان العالية ويمكن للجماعة أن تدخل تحته، أما فى مقدمة العربة فلن يصل إلينا المطر.

وحياه الأب قائلاً: «هذه فكرة طيبة».

وقال «آل»: «ليس هذا كل شيء، فى أول فرصة سأحاول الحصول على جذع شجرة طويل وأصنع منه قنطرة أشد عليها المشمع، وعندئذ ستصبح الحمولة مغطاة وتتجنب الجماعة حرارة الشمس أيضًا».

فقال الأب موافقًا: «فكرة طيبة، لماذا لم تفكر فى هذا من قبل».

فقال «آل»: «لم يكن عندى وقت».

«ليس عندك وقت! لماذا؟ إنك يا «آل» تملك من الوقت ما يسمح لك أن تعبث فى كل الإقليم. يعلم الله أين كنت فى الأسبوعين الأخيرين».

فأجاب «آل»: «هذه أشياء يجب أن يفعلها الإنسان قبل أن يهجر البلد». وزايلته بعض طمأنينته فسأل: «أبى، هل أنت مرتاح لرحيلنا؟».

«هيه، حسنا، فعلا، إلى حد ما، أيوه، لقد واجهنا أياما صعبة هنا وسيكون الأمر مختلفًا تمامًا، هناك ـ طبعا ـ عمل كثير، وكل شيء أخضر وجميل، ومنازل صغيرة بيضاء تنمو حولها أشجار البرتقال».

«هل هناك أشجار برتقال فى كل مكان؟».

«ربما ليس فى كل مكان ولكن فى أماكن عديدة».

بدت أول خيوط النهار الرمادية على صفحة السماء. كان العمل قد انتهى، وبراميل لحم الخنزير جاهزة، وقفص الدجاج جاهزًا لكى يوضع فوقها. وفتحت الأم الفرن وأخرجت كومة من الضلوع والعظام المشوية، جافة وبنية اللون وعليها لحم كثير يمكن امتصاصه. وانزلقت «روثى» من فوق الصندوق نصف نائمة ثم نامت ثانية ولكن الكبار وقفوا حول الباب يرتعدون قليلا ويمتصون اللحم المقرقش. وقال «توم»: «أظن يجب أن نوقظ الجد والجدة، إن النهار يقترب».

فقالت الأم: «إننى أكره أن أفعل هذا، حتى آخر دقيقة. إنهما فى حاجة إلى النوم. كما أن «روثى» و«وينفلد» لم يأخذا قسطًا كافيًا من الراحة أيضًا».

فقال الأب: حسنًا فى استطاعتهما أن يناما فوق الحمولة، فستكون الجلسة حلوة ومريحة».

فجأة، نهضت الكلاب من الأرض وأنصتت، ثم انطلقت مزمجرة تعوى فى الظلام، وتساءل الأب: «والآن ما هذا بحق الجحيم؟». وسرعان ما سمعوا صوتا يتحدث مهدئا الكلاب التى تنبح. وخفت حدة النباح، ثم وقع أقدام، رجل يقترب، كان «مولى جريفز» وقد جذب قبعته على عينيه.

اقترب بخجل وقال: «صباح الخير يا جماعة».

وقال الأب، وهو يلوح بعظمة الفخذ فى يده: [ماذا، «مولى» ادخل وخذ نصيبك من اللحم يا «مولى»].

فقال «مولى»: «حسنا، لا، أنا لست جائعًا جدًا».

فقال الأب: «أوه، خذ بعضه، خذ يا «مولى»، ثم دخل إلى المنزل وعاد بملء يديه من الأضلاع. فقال «مولى»: «لم يكن غرضى أن آكل أى شىء من أكلكم. فقط كنت أتجول حواليكم وفكرت أنه ربما كنتم ستذهبون، وقد أقول لكم وداعًا».

فقال الأب: «سنذهب بعد قليل الآن، لو أنك تأخرت ساعة لما وجدتنا، لقد حزمنا كل شىء كما ترى».

فنظر مولى إلى سيارة النقل المحملة وقال: «كل شىء محزوم، بعض الأحيان أفكر فى أن أذهب وأجد عائلتى».

فسألته الأم: «هل سمعت عنهم شيئًا هناك فى كاليفورنيا؟»

فقال «مولى»: «لا، لم أسمع، ولكنى لم أذهب إلى مكتب البريد، من الواجب أن أذهب بين حين وآخر».

فقال الأب:««آل»، اذهب وأيقظ الجد والجدة وقل لهما أن يأتيا ليأكلا فسنمضى بعد قليل».

وبينما كان «آل» ينطلق ناحية الحظيرة قال الأب: «مولى»، أترغب فى أن تنحشر معنا وتجىء؟ قد نستطيع أن ندبر لك مكانًا».

وقضم «مولى» قضمة لحم من طرف الضلع ومضغها، ثم قال: «فى بعض الأحيان أعتقد أنه يجب أن أفعل ذلك، ولكننى أعرف أننى لن أذهب تمامًا، إننى فى اللحظة الأخيرة سأجرى وأختبئ كشبح جبانة قديمة ملعون».

فقال «نوح»: «ستموت يوما فى الحقول يا «مولى»».

«أعرف، لقد فكرت فى ذلك، فى بعض الأحيان تبدو الوحدة قاسية. وأحيانا يبدو الحال لا بأس به، وأحيانا يبدو طيبًا. ولكن الأمر لايختلف

فى كل حال. ولكن إذا تقابلتم مع أهلى، وهذا ما جئت من أجله حقيقة، قولوا لهم إننى بخير. وإننى بحالة طيبة. لاتدعوهم يعرفون أننى أعيش بهذه الطريقة. قولوا لهم إننى سآتى إليهم بمجرد أن أحصل على نقود».

فسألته الأم: «وهل تنوى ذلك فعلا؟»

فقال «مولى» برفق: «لا... لا... لن أفعل. لا يمكننى أن أذهب بعيدًا. لابد أن أظل هنا الآن. ربما كنت أستطيع فيما مضى ولكن ليس الآن. فالإنسان يعتاد التفكير، ثم يعتاد المعرفة. لن أذهب أبدًا».

كان ضوء الفجر أكثر لمعانًا الآن وشحب نور الفوانيس قليلا. وعاد «آل» والجد يحجل ويترنح بجواره، وقال «آل»: «لم يكن نائمًا، كان جالسًا خلف الحظيرة. إنه ليس على ما يرام».

كانت عينا الجد مطفأتين ولم يعد فيهما أى أثر من آثار مكرهما. وقال: «ليس فى الأمر شىء، كل ما فى الأمر أننى لن أذهب».

فتساءل الأب: «لست ذاهبًا، ماذا تقصد بأنك لست ذاهبًا؟ لماذا؟ هانحن أولاء قد حزمنا كل شىء وجاهزون ويجب أن نذهب. ليس لدينا مكان نقيم فيه».

فقال الجد: «أنا لا أقول لك أن تبقى أنت. اذهب أنت، أما أنا فسأبقى. لقد فكرت فى الأمر طول الليل تقريبًا. هذه هى بلادى، أنا منها، وأنا لا أهتم أبدًا بذلك البرتقال والعنب الذى يملأ بيوت الناس، لن أذهب، هذه البلاد ليست طيبة ولكنها بلادى. لا... فلتذهبوا جميعًا، أما أنا فسأبقى هنا حيث أنتمى».

واقتربوا منه متراصين وقال الأب: «لا يمكنك يا جد، هذه الأرض ستأخذها الجرارات. من الذى سيطبخ لك. كيف ستعيش؟ لا يمكنك أن

تقيم هنا دون أن يكون معك أى إنسان يعنى بك، ستهلك جوعا». وصاح الجد: «اللعنة، أنا رجل عجوز ولكنى لا أزال أستطيع العناية بنفسى. كيف يعيش «مولى» هنا؟ يمكننى أن أعيش كما يعيش هو. قلت لك إنى لن أذهب. تأكد من ذلك. يمكنك أن تأخذ الجدة إن أردت، ولكنك لن تأخذنى معكم. وهذا آخر كلام عندى».

فقال الأب بائسًا: «الآن اسمعنى يا جد، اسمعنى دقيقة واحدة فقط».

«لن أسمع، لقد قلت لك ما سأفعله».

ولمس «توم» كتف أبيه وقال: «أبى، تعال إلى داخل المنزل أريد أن أقول لك شيئًا» وتحركا تجاه المنزل وقال: «أماه، تعالى لحظة، تسمحى».

وفى المطبخ كان هناك فانوس مشتعل، ومازالت هناك كومة عالية من العظام والضلوع مكدسة على طبق، وقال «توم»: «اسمعوا أنا أعلم أن الجد له الحق فى أن يقول إنه لن يذهب، ولكنه لا يمكنه أن يبقى، نحن نعرف هذا».

فقال الأب: «بالتأكيد، لا يمكنه أن يبقى».

«حسنا، اسمعوا لو أننا أمسكناه وقيدناه فمن المحتمل أن نؤذيه وسيفقد صوابه حتى يمكن أن يؤذى نفسه. كما أننا لايمكن أن نجادله الآن. فإذا ما أسكرناه فمن الممكن أن تحل المشكلة. هل لديك أى ويسكى؟»

فقال الأب: «لا، لاتوجد قطرة ويسكى فى المنزل. وليس لدى «جون» ويسكى فهو لايحتفظ بشىء منه إلا وقت الشرب».

وقالت الأم: «(توم)، لدى نصف زجاجة من شراب مسكن أحضرته «وينفلد» عندما كان يشكو من أذنيه. أعتقد أنها تنفع، فقد كانت تجعل «وينفلد» ينام حين يشكو من آلام أذنيه».

فقال «توم»: «ربما، هاتها يا أمى فسنحاول بها على أى حال».

فقالت الأم: «لقد ألقيتها على كومة النفاية». وأخذت فانوسًا وخرجت وعادت فى لحظة بزجاجة امتلأت حتى منتصفها بدواء أسود.

وأخذها «توم» منها وتذوقها وقال: «ليست سيئة المذاق. أعدى كوبا من القهوة السوداء، جيدة وقوية، ولنر، لنقل ملعقة شاى، الأفضل أن نضع فيها أكثر، ملعقتى شوربة».

وفتحت الأم الفرن ووضعت فيه إناء بجوار جمرات الفحم، ووضعت فيه عيارًا من الماء والبن وقالت: «سأضطر إلى تقديمها إليه فى كوز فقد حزمنا كل الأكواب».

وعاد «توم» وأبوه إلى الخارج، وقال الجد: «من حق الإنسان أن يقول ما ينوى أن يفعله، من منكم يأكل بعض الضلوع».

فقال «توم»: «لقد أكلنا والأم تعد لك فنجانًا من القهوة وبعض اللحم».

دخل إلى المنزل وشرب القهوة وأكل اللحم وراقبته الجماعة الواقفة فى الخارج فى ضوء الفجر صامتة من خلال الباب. وشاهدوه يتثاءب ويترنح ثم يضع ذراعيه على المائدة ويريح رأسه على ذراعيه ويسقط نائمًا.

قال «توم»: «لقد كان متعبًا على أى حال، اتركوه ينام».

والآن كانوا جاهزين، كانت الجدة دائخة مشوشة تقول: «ما كل هذا؟ ماذا ستصنعون الآن فى هذا الوقت المبكر؟» ولكنها كانت قد ارتدت ملابسها ومطيعة. واستيقظت «روثى» و«وينفلد» ولكنهما كانا هادئين من فرط التعب ومازالا وسانين. كان النور ينتشر بسرعة على الأراضى

وتوقفت حركة العائلة الكل يتهيب اللحظة الأولى للانطلاق. فقد تملكهم الخوف عندما حانت لحظة الرحيل. تملكهم الخوف كما تملك الجد من قبل. رأت عيونهم ملامح السقيفة تتحدد فى ضوء النهار، كما رأت عيونهم الفوانيس يشحب ضوؤها حتى لم تعد قادرة على أن تلقى حولها بدوائر النور الأصفر. وانطفأت النجوم شيئًا فشيئًا تجاه الغرب. وظلت الأسرة واقفة كمن يسيرون فى نومهم. شخصت أبصارهم وحدقت فى كل ما حولهم دون أن ترى شيئًا من التفاصيل. وإنما ترى الفجر كله والأرض كلها، وكل ما تحويه الحقول فى نفس الوقت.

إلا «مولى جريفز»، الذى حام حولهم قلقًا ينظر إلى شحنة السيارة من خلال جوانبها، يتحسس بإبهامه الإطارات الإضافية المعلقة خلفها. وأخيرًا اقترب من «توم» وسأله: «هل تتخطى حدود الولاية؟ ستخرج على نظام إفراجك الشرطى».

وهز «توم» نفسه مستفيقا من ذهوله وقال بصوت عال: «يايسوع المسيح! لقد أوشكت الشمس على الشروق، لابد أن نبدأ السير». وخرج الآخرون من ذهولهم وتحركوا ناحية اللورى وقال «توم»: «تعالوا، فلنأت بالجد». ودخل الأب والعم «جون» و«توم» و«آل» المطبخ، حيث كان الجد ينام وجبهته على ذراعيه، وعلى المائدة خط من القهوة التى جفت. أخذوه من إبطيه وأوقفوه على قدميه، فغمغم وسب فى تثاقل كالمخمور. وأسندوه خارج الباب حتى وصلوا إلى اللورى. فتسلقها «توم» و«آل» ثم مالا عليها وشبكا أيديهما تحت إبطيه ورفعاه برفق إلى أعلى، وأرقداه فوق الحمولة. وفك «آل» حبال المشمع ودحرجاه تحته ثم وضعا بجواره صندوقًا حتى لا يكتم ثقل المشمع أنفاسه.

وقال «آل»: «لا بد أن أركب عصا القنطرة هذه، سأفعل ذلك الليلة عندما نقف». وزام الجد وكافح فى ضعف لكى يستيقظ ولكنه هدأ أخيرًا وعاد إلى النوم العميق.

قال الأب: «أماه، أنت والجدة اركبا مع «آل» لفترة، سنبدل الأماكن حتى تصبح أكثر راحة، ولكن ابدأى أنت». ودخلا فى الكبينة واحتشد الباقون فوق الحمولة. «كونى» و«روزا شارن»، الأب والعم «جون»، «روثى» و«وينفلد»، «توم» «والواعظ». وعلى الأرض وقف نوح يتأمل هذا الحمل الكبير فوق اللورى.

ودار «آل» ينظر إلى السست أسفل السيارة وقال: يايسوع! لقد أصبحت السست مفلطحة تمامًا، حسن إننى قد وضعت تحتها سنادات».

وقال «نوح»: «أبى، ماذا عن الكلاب؟»

فقال الأب: «لقد نسيت الكلاب». وصفر بصوت حاد وجاء كلب يجرى قفزًا، ولكنه واحد فقط. وأمسكه «نوح» وألقى به إلى فوق حيث جلس متصلبًا يرتعد من الارتفاع. وقال الأب: «لابد أن نترك الاثنين الآخرين، «مولى» هل يمكن أن ترعاهما فترة؟ حتى لايموتا جوعًا» فقال «مولى»: «أيوه، يسرنى أن يكون لدى كلبان. نعم سآخذهما».

فقال الأب: «خذ هذا الدجاج أيضًا».

ودخل «آل» إلى مقعد السائق، وأز المارش ثم توقف، ثم أز ثانية، ثم علت زمجرة سائبة من السلندرات الستة، وخرج من الخلف الدخان الأزرق. وصاح «آل»: «الوداع يا «مولى».

وصاحت العائلة «الوداع يا «مولى».

وعشق «آل» السرعة الأولى، وترنحت السيارة وبدأت سيرها عبر الفناء. ثم عشق السرعة الثانية وتسلقوا التل الأول، وارتفع حولهم التراب الأحمر وقال «آل»: «يا يسوع ! يا لها من حمولة، لن تكون الرحلة هينة».

وحاولت الأم أن تنظر خلفها ولكن الحمولة وقفت حائلاً أمامها، فشدت رأسها عاليًا وشخصت إلى الأمام فى الطريق الترابى وقد امتلأت عيناها بقلق عظيم.

ونظر الجالسون فوق الحمولة خلفهم. رأوا المنزل والحظيرة، وقليلاً من الدخان ما يزال يتصاعد من المدخنة. رأوا النوافذ وقد بدا لونها يحمر من أشعة الشمس الأولى. رأوا «مولى» واقفًا، وحيدًا فى مدخل الباب ينظر إليهم. ثم وقف التل بينهما. حقول القطن تحف بالطريق، واللورى يزحف ببطء على التراب نحو الطريق الزراعى، نحو الغرب.

الفصل الحادى عشر

خلت الدور من سكانها، فأصبحت الأرض خاوية. لم يعد حيًا إلا حظائر الجرارات المبنية من الصاج المضلع اللامع كالفضة. وعناصر الحياة فيها الحديد والزيت والبترول وأسلحة المحاريث المصقولة. وللجرارات كشافات ذات بريق إذ ليس للجرار نهار ولا ليل. المحاريث تقلب الأرض فى الظلام وتلمع فى ضوء النهار. الحصان عندما يتوقف عن العمل ويعود إلى حظيرته، تبقى الحياة والحيوية. الأنفاس والدفء، الحوافر تدوس على الدريس والفك يلوك الشعير والأذنان والعينان ممتلئتان بالحياة، الحظيرة فيها دفء الحياة، فيها حرارة الحياة ورائحتها. وعندما يتوقف محرك الجرار فإنه يموت كالحديد الذى صنع منه. تفارقه الحرارة كما تفارق الجثة. ثم تنغلق عليه الأبواب المصنوعة من الصاج المضلع، ويركب السائق عائدًا إلى الدينة. ربما كانت على بعد عشرين ميلاً. وهو ليس فى حاجة لأن يعود لأسابيع أو شهور، فالجرار ميت. وهذا أمر سهل وفعال. سهل لدرجة أن العمل يخلو من التأمل، وفعال لدرجة أن الأرض وزراعتها تخلو من التأمل. ومع اختفاء التأمل يختفى التفهم العميق والعلاقات الوثيقة، وفى رجل الجرار ينمو إحساس بالازدراء لا يشعر به إلا غريب. لا علاقة له بالعمل ولا يفهم إلا قليلا.

الأرض ليست النترات ولا الفوسفات، الأرض ليست طول تيلة القطن، والإنسان ليس الفحم، ولا الملح، ولا المال، ولا الكالسيوم. الإنسان كل هذا وأكثر من هذا. والأرض أكبر كثيرًا من مكوناتها. فالرجل الذى هو أكبر من مكوناته الكيميائية، يمشى على الأرض يزحزح سن المحراث ليتفادى حجرًا، يرخى مقابضه لينزلق به فوق أرض لم تعط حصادًا، يركع على الأرض لكى يتناول غذاءه. هذا الإنسان الذى هو أكبر من عناصره، يعرف الأرض التى هى أكبر من مكوناتها. ولكن رجل الآلة، الذى يسوق جرارًا ميتًا على أرض لم يعرفها ولم يحبها، لا يعرف إلا الكيمياء ويزدرى بالأرض وبنفسه. وعندما ينغلق الباب المصنوع من الصاج المضلع فإنه يذهب إلى بيته. والأرض ليست هذا البيت.

أبواب المنازل الخالية تتأرجح، تتقاذفها الريح إلى الخارج والداخل. ومن المدينة تجىء عصابات الصبية الصغار لكى تحطم النوافذ وتلتقط البقايا، وتبحث عن الكنوز. على الأرض سكين ذهب نصف نصلها. حاجة حلوة. و.... يبدو أن فأرًا مات هنا... انظر ماذا كتب «هوايتى» على الحائط، لقد كتب هذا فى مراحيض المدرسة أيضًا وأجبره المدرس على أن يزيلها.

عندما يذهب الناس، ويحل مساء اليوم الأول، تزحف القطط بحثًا عن صيدها آتية من الحقول، وتموء على مداخل الأبواب. وعندما لا يخرج أحد تزحف القطط خلال الأبواب المفتوحة وتجوس، تموء فى الغرف الخالية، ثم يعود إلى الحقول. وتصبح منذ تلك اللحظة قططًا برية تصطاد القوارض وفيران الغيط وتنام فى الحفر فى أثناء النهار، وعندما يجن الليل تجوس الخفافيش التى كانت تتوقف عند الأبواب خشية النور، تجوس فى المنازل، وتطير فى الغرف الخالية وبعد قليل تستقر فى أركان الغرف المظلمة فى أثناء النهار وقد طوت أجنحتها عاليًا وتتدلى رؤوسها بين عوارض السقف وتملأ رائحة زبلها المنازل الخالية.

وتدخل الفيران وتخزن البذور فى الأركان وفى الصناديق وخلف دواليب المطابخ، ويأتى ابن عرس ليصطاد الفيران، وتطير البوم إلى الداخل ناعقة، ثم تخرج ثانية.

ثم يسقط قليل من المطر، وينمو العشب أمام العتبات حيث لم يكن مسموحًا له من قبل أن ينمو، ويتخلل العشب ألواح المدخل. كانت المنازل خالية، والمنزل الخالى يتقوض بسرعة. تبدأ الشقوق فى السقائف من المسامير الصدئة ويرسب التراب على الأرضيات لاتخدشه إلا آثار الفأر والقطة وابن عرس.

فى إحدى الليالى يفك الريح قرميدة من الصخر ويلقيها على الأرض، وتأتى الريح ثانية وتندفع من الثقب الذى خلفته القرميدة وترفع ثلاث أخريات، وترفع الريح التالية اثنى عشر. وتنصب شمس الظهيرة من الثقب المتهلف، وتلقى ببقعة ضوء باهرة على الأرضية. وتزحف القطط البرية من الحقول فى الليل ولكنها لم تعد تموء عند العتبات، إنها تتحرك كظل سحابة على وجه القمر، تجوس فى الغرف وتصطاد الفئران. وفى الليالى العاصفة تقرقع الأبواب وترفرف الستائر المتهرئة على النوافذ المحطمة.

الفصل الثانى عشر

الطريق رقم ٦٦ هو طريق المهاجرين الرئيسى، ٦٦، الممر الخراسانى الطويل عبر البلاد، يتموج برفق ارتفاعًا وانخفاضًا فوق الخريطة ـ من «ميسيسبى» إلى «باكر سفيلد» ـ على الأراضى الحمراء والأراضى الرمادية، يتلوى صاعدًا الجبال، ومخترقًا سلسلة المرتفعات، وهابطًا الصحراء اللامعة الرهيبة، وعبر الصحراء إلى الجبال ثانية، ثم إلى وديان كاليفورنيا الغنية.

الطريق ٦٦ هو طريق الناس فى الهروب، لاجئين من الغبار والأرض التى أخذت تضيق بهم، من هدير الجرارات والملكية المنكمشة، من غزو الصحراء البطىء للشمال، من دوامات الريح التى تعوى من «تكساس»، من الفيضانات التى لاتجلب أى خصوبة للأرض، بل تأخذ معها القليل الموجود من خصوبتها. من كل هذا يهرب الناس وهم يأتون إلى الطريق ٦٦ من روافد الطرق الجانبية، من طرق العربات والطرق الزراعية المتآكلة. طريق ٦٦ هو الطريق الأم، طريق الهروب.

يمر الطريق بـ «كلاركزفيل» و«أوزارك» و«فارنيورين» و«فورتسميث» على طريق ٦٢ ثم تنتهى حدود أركانساس. كل الطرق تصب فى مدينة «أوكلاهوما». ٦٦ يهبط من «تولسا»، ٢٧٠ يصعد من «ماك أليستر»، و٨١

من شلالات «ويشيتا» فى الجنوب، من «إنيد» شمال إدموند، ماك لود، بورسل، ٦٦، يخرج من أوكلاهوما سيتى إلرينو وكلينتون يتجهان غربًا على ٦٦، ثم «ألك سيتى» وتكسولا ثم تنتهى حدود أو كلاهوما. ٦٦ عبر إقليم «البانها ندل» فى تكساس، شامروك، وماكلين، كونواى، وأما ريللو الصفراء. «ولدورادو»، وفيجا، وبواز، ثم تنتهى تكساس. «توكومكاوى» و«سانتاروزا» فى جبال إلى «ألبو كيرك» حيث يهبط الطريق من «سنتافى» ثم يهبط من مضيق «ريو جراند» إلى «لوس لوناس» ثم إلى الغرب مرة أخرى. على ٦٦ إلى جالوب حيث حدود «نيومكسيكو».

والآن الجبال العالية، هولبروك ووينسلو وفلاجستاف فى جبال أريزونا العالية. ثم الهضبة العظيمة تدور وتتخذ شكل تفخم أرضى «أشفورك» و«كنجمان» والجبال الصخرية مرة أخرى حيث يسحب الماء بالمضخات ويباع. ثم الانطلاق من سلسلة جبال أريزونا المتقطعة التى أحرقتها الشمس إلى كولورادو حيث نبات البردى الأخضر على شاطئه. وهنا تنتهى ولاية أريزونا. وتقع كاليفورنيا فوق النهر مباشرة، وهناك مدينة لطيفة على بداية الطريق، نيدلز على النهر. ولكن النهر غريب فى هذا المكان، يجرى من «نيدلز» عبر الآفاق المحترقة ثم الصحراء... ويمضى الطريق ٦٦ عبر صحراء رهيبة، تتألق آفاقها، وقفت فى قلبها الجبال السوداء لاتقهر. وأخيرًا هذه هى «بارستو» ومزيد من الصحارى حتى تبرز الجبال ثانية، الجبال الطيبة ويصعد الطريق ٦٦ خلالها ثم ممر مفاجئ، يمتد تحته الوادى الجميل، تمتد تحته الحدائق وحقول الكروم والمنازل الصغيرة وعلى البعد مدينة. وأخيرًا، يا إلهى، لقد انتهى.

ويتدفق الناس فى هروبهم على الطريق ٦٦، أحيانًا فى سيارة منفردة وأحيانًا فى قافلة صغيرة يتقدمون ببطء على الطريق طول النهار، وفى الليل يقفون بجوار الماء. فى النهار تتصاعد أعمدة البخار من «الردياتيرات»

القديمة المثقوبة وتصطفق وتدق «الكرنكات» السائبة، وينصت الرجال الذين يسوقون اللوريات والسيارات التى تحمل فوق طاقتها، ينصتون بإمعان. كم المسافة بين المدن؟ الفزع يتملك الناس بين المدن ـ إذا انكسر شىء ـ حسنًا إذا انكسر شىء فسنعسكر هنا إلى أن يمشى «جيم» إلى المدينة ويحضر قطعة الغيار ويعود ثانية على قدميه. ثم، كم بقى لدينا من طعام؟

فأنصت إلى المحرك، أنصت إلى العجلات، أنصت بأذنيك، وبيديك على عجلة القيادة، أنصت براحة يدك على عصا «الفتيس». أنصت بقدميك على الدواسات. أنصت بكل حواسك إلى المخروبة القديمة التى تدق فى سيرها.. فى هديرها. أنصت لأى تغيير فى صوتها، أى تغيير فى الانتظام قد يعنى أسبوعا هنا. هذه الطرقعة، هذه هى الشواكيش، لاتضر كثيرًا، يمكن للشواكيش أن تدق حتى يرجع يسوع ثانية دون ضرر. ولكن هذه الرعدة التى تصحب انطلاق السيارة، لا يمكن سماعها ولكننى أحسها فقط. ربما كان الزيت لايصل إلى مكان ما. ربما كانت البطارية ستفرغ. يايسوع! لو أنها البطارية، ماذا سنفعل؟ النقود تنفد بسرعة.

ولماذا تصب الشمس أشعتها بهذه الحرارة؟ لم يدر المحرك. فلنر. يا إلهى القدير!! ضاع حزام المروحة. خذ، اصنع سيرًا من قطعة الحبل الصغيرة هذه. فلنر طولها، خذ سأصل أطرافها. والآن سر بها ببطء، ببطء حتى نصل إلى المدينة فهذا الحبل لن يتحمل طويلاً.

لو أننا استطعنا أن نصل إلى كاليفورنيا حيث تنمو أشجار البرتقال قبل أن تنفجر هذه السيارة القديمة، لو أننا نستطيع.

والإطارات، لقد تهرأت طبقتان من الألياف. لم يبق إلا سلك مطوى على أربعة. يمكننا أن نسير به مائة ميل أخرى. إذا لم نصطدم بأى صخرة

تجعلها تنفجر. أيهما تختار، مائة ميل أو ربما نفسد الإطار الداخلى؟ أيهما؟ المائة ميل؟ حسنًا هذا أمر ينبغى التروى فيه، لدينا رقع للإطارات الداخلية ربما حين تنفجر لاتترك إلا ثقبًا صغيرًا. ماذا عن إمكان صنع رقع للإطارات الخارجية؟ قد نستمر بها خمسمائة ميل أخرى، فلنستمر حتى تنفجر.

لابد لنا من إطار، ولكن يا يسوع إنهم يطلبون الكثير من أجل إطار قديم إنهم يفحصون الرجل ويعرفون أنه مضطر للاستمرار. يعلمون أنه لايستطيع الانتظار. يرفعون السعر، خذه أو اتركه لم آت هنا للتريض، أنا هنا أبيع الإطارات ولا أتصدق بها. لا أملك لمصيرك شيئًا، أنا أفكر فما يحدث لى.

كم تبعد المدينة التالية؟

رأيت اثنتين وأربعين سيارة مثلكم تعبر أمس. من أين أتيتم كلكم؟ وإلى أين تذهبون كلكم؟

حسنًا، كاليفورنيا ولاية كبيرة.

ليست بهذا الحجم، كل الولايات المتحدة ليست بهذا الحجم ليست كبيرة بدرجة كافية، لا يوجد مكان يكفى كلاً منا. يكفى صنفك وصنفى، يكفى الأغنياء والفقراء معًا فى بلد واحد. اللصوص،الشرفاء، الشبع والجوع. لماذا لاتعودون من حيث أتيتم؟

هذا بلد حر، يستطيع الإنسان فيه أن يذهب حيث يشاء.

هذا ما تظن أنت، هل سمعت أبدًا عن دورية الحدود على حدود كاليفورنيا؟ شرطة لوس إنجلوس ستوقفكم يا أبناء الزنى وتعيدكم ثانية. سيقولون، إن لم تكن تستطيع شراء مزرعة حقيقية فنحن لا نريدك.

سيقولون أمعك رخصة قيادة؟ دعنا نراها ويقطعونها ثم يقولون إنك لن تستطيع الدخول بدون رخصة قيادة.

إنها بلد حر.

حسنا، حاول آن تجد بعض الحرية لكى تفعل ما تريد. يقول المثل: إنك حر بقدر ما معك من نقود.

فى كاليفورنيا أجور عالية، معى إعلان هنا يقول ذلك.

كلام فارغ، رأيت أناسًا يعودون، بعضهم يضحك عليك. هل تريد هذا الإطار أم لا؟

لا بد أن آخذه ولكن يايسوع! يا سيد إنها تقتطع جزءًا كبيرًا من نقودنا. لم يتبق لدينا الكثير.

حسنا، لست ملجأ خيريًا، اتركها.

أعتقد أننى مضطر. دعنى أفحصها. أفتحها. أنظر إلى إطارها الخارجى، إطارها الخارجى، أنت يا ابن الزانية قلت إن إطارها سليم. إنها تقريبًا مثقوبة.

ياللجحيم، حسنا بحق القديس جورج كيف لم ألحظ هذا؟

لقد رأيتها يا ابن العاهرة، تريد أن تسلب منا أربعة دولارات من أجل إطار مستهلك. بودى لو اقتلعنك بضربة عنيفة.

والآن، كن هادئًا، قلت لك لم أرها سأقول لك ما أنوى عليه، سأعطيك هذا الإطار مقابل ثلاثة دولارات ونصف دولار.

ولو قفزت حتى القمر. سنحاول أن نصل إلى المدينة التالية.

هل تعتقد أننا نستطيع ذلك بهذا الإطار؟

لامفر من ذلك. سأسير على الدنجل قبل أن أعطى ابن الزنى مليمًا.

ماذا تتوقع من رجل أعمال؟ كما قال هو، فهو لم يأت هنا للتريض. هذا هو واقع الأعمال. ماذا كنت تظن إذن. لا بد للرجل ـ أترى هذه العلامة على طول الطريق هناك؟ نادى الخدمات، غداء يوم الثلاثاء، بفندق كلمادو. مرحبًا بك يا أخ. هذا نادى خدمات والرجل له حكاية: ذهب إلى أحد هذه الاجتماعات وحكى حكاية لرجال الأعمال هناك. قال، عندما كنت صغيرًا أعطانى أبى العجوز عجلة مقيدة. وقال خذها هناك واخدمها. قال الرجل ومنذ ذلك الوقت عندما أسمع رجل أعمال يتكلم عن الخدمة أتساءل يا ترى من ذا الذى سيبعثون به؟ الرجال لا بد لهم فى أعمالهم أن يكذبوا ويخدعوا، ولكنهم يسمون هذا بأسماء أخرى، هذا هو المهم، إذا سرقت هذا الإطار فستصبح لصًا ولكنه كان سيسلبك أربعة دولارات من أجل إطار مستهلك وهم يسمون هذا تجارة لاغبار عليها.

«دانى» فى المقعد الخلفى يريد كوب ماء.

لابد أن ينتظر ليس لدينا ماء هنا.

انصت، هل هذا هو صندوق التروس الخلفى.

لست متأكدًا.

يبعث بإشاراته عبر الهيكل.

هذا بلف، لابد أن نستمر، استمع إلى صفارته، فلنجد مكانًا مناسبًا لنعسكر فيه، وسأخرج منه بعض الهواء. ولكن يا إلهى القدير! الغذاء يتناقص والنقود تتناقص. متى لا يمكننا أن نشترى وقودًا، متى....!!

«دانى» فى المقعد الخلفى يريد كوب ماء، الولد الصغير عطشان.

اسمع صفير البلف هذا.

يا يسوع ! لقد انتهت، انفجر الإطار والإطار الداخلى. لابد أن نصلحها، وفر الإطار الخارجى لتصنع منه رقعًا، قطعها واصنع منها رقعًا ثبتها من الداخل فى الأماكن الضعيفة. وتتوقف السيارات على جوانب الطريق، وترفع أغطية المحركات، تصلح الإطارات. وتحجل السيارات على طول طريق ٦٦ كالكائنات الجريحة تلهث وتكافح. حرّجدًا ووصلات ضعيفة وبطاريات ضعيفة وهياكل مخشخشة.

«دانى» يريد كوب ماء.

الناس تفر على الطريق ٦٦، والطريق الخراسانى يلمع كالمرآة تحت الشمس، والحر يصور على البعد بركًا من الماء عليه.

«دانى» يريد كوب ماء.

لابد أن ينتظر، الطفل الصغير المسكين، إنه محموم، فى محطة الخدمة التالية. محطة الخدمة كما قال الرجل.

مائتان وخمسون ألف نسمة على الطريق، خمسون ألف سيارة قديمة جريحة يتصاعد منها البخار. والهياكل المحطمة على الطريق هجرها أصحابها. حسنًا، ماذا حدث لهم؟ ماذا حدث للناس أصحاب هذه السيارة؟ هل ساروا على أقدامهم؟ أين هم؟ من أين واتتهم الشجاعة؟ من أين أتى هذا الإيمان المخيف؟. هاهنا حكاية يصعب تصديقها، ولكنها حقيقية وطريفة وجميلة. كانت هناك عائلة من اثنى عشر شخصًا أجبرت على أن تغادر أرضها، ولم يكن معهم سيارة. فبنوا مقطورة من الخردة وجروها إلى جانب الطريق ٦٦ وانتظروا، وسرعان ما التقطتهم سيارة ذات باب واحد: «سيدان». ركب خمسة منهم فى السيارة وسبعة على المقطورة، ووصلوا إلى كاليفورنيا فى قفزتين. وقد أطعمهم الرجل الذى سحبهم. وهى قصة حقيقية، ولكن من أين يستمدون هذه الشجاعة ومن

أين لهم بالإيمان فى بنى البشر، وأى إيمان هذا؟ نادرة تلك الأشياء التى تعلم الناس هذا الإيمان.

الناس فى فرارها من الرعب الذى يطاردها ـ تحدث لها أشياء غريبة، بعضها مر وقاس، والبعض جميل يبعث الإيمان على الدوام.

الفصل الثالث عشر

قرقعت السيارة الهدسون القديمة التى تحمل فوق ما تطيق، وزمجرت نحو الطريق العام فى «ساليزو» ثم انحرفت غربًا. كانت الشمس تغشى الأبصار. وفوق الطريق الخراسانى زاد «آل» السرعة. فهنا لم يعد هناك خطر على السست المفلطحة... من «ساليزو» إلى «جور» واحد وعشرون ميلا، والهدسون تقطع خمسة وثلاثين ميلا فى الساعة من «جول» إلى «وارتر» ثلاثة عشر ميلا. من «وارنر» إلى «شيكوتاه» أربعة عشر ميلا، من «شيكوتاه» ـ قفزة طويلة إلى «هانريتا» ـ أربعة وثلاثون ميلا ولكن على نهايتها مدينة حقيقية. من «هانريتا» إلى «كاسل» تسعة عشر ميلا. الشمس فوق الرؤوس، ورائحة الحقول الحمراء الساخنة من الشمس العالية، تعبق الجو.

جلس «آل» إلى عجلة، القيادة وعلى وجهه علامات العزم، ينصت بكل جوارحه إلي السيارة، وعيناه تقفز دون توقف من الطريق إلى لوحة القيادة. اندمج «آل» والآلة فى كلٍ واحد، ينصت بكل أعصابه لأى خلل، لأى صدمة، لأى صرخة، لأى همهمة، لأى اصطكاك يمكن أن يشير إلى تغير ما يؤدى إلى كسر. لقد أصبح روح السيارة.

الجدة الجالسة بجواره كانت نصف نائمة، تغمغم فى نومها، فتحت

عينيها وشخصت إلى الأمام ثم غفت ثانية. جلست الأم بجوار الجدة وقد أخرجت أحد مرفقيها، من النافذة واحمرَّ جلدها تحت الشمس الحامية. شخصت الأم بأبصارها إلى الأمام ولكن عينيها كانتا صماء. لم تر الطريق، ولا الحقول، ولا محطات البنزين، ولا البوفيهات الصغيرة. لم تكن تنظر إليها والهدسون تمر بها.

وتململ «آل» فى مقعده المحطم وغير قبضته على عجلة القيادة، وتنهد قائلا: «هناك لغط، ولكننى أعتقد أن لا بأس بها». يعلم الله ماذا سنفعل إذا ما تسلقنا تلاً بالحمولة التى نحملها، هل هناك أى تلال من هنا إلى كاليفورنيا يا أمى؟».

وأدارت الأم رأسها ببطء وعادت الحياة إلى عينيها وقالت: «يبدو لى أن هناك تلالا. أنا لا أعرف طبعًا. ولكن أظن أننى سمعت أن هناك تلالا، بل جبالاً، جبالا كبيرة». وتنهدت الجدة بعمق فى نومها.

فقال «آل»: «ستحترق السيارة تمامًا إذا ما واجهنا أى صعود، لابد أن نلقى بعضًا من حمولتها. ربما كان من الأفضل لو لم نحضر معنا هذا الواعظ».

فقالت الأم: «ستكون سعيدًا بهذا الواعظ قبل أن تفرغ من الرحلة. سيساعدنا هذا الواعظ». ثم نظرت مرة أخرى أمامها إلى الطريق اللامع.

قاد «آل» السيارة بيد واحدة ووضع الأخرى على عصا ناقل السرعة المهتزة. كان من الصعب عليه أن يتكلم، يشكل الكلمات فى فمه قبل أن ينطقها بصوت عال: «ماما» ؛ فأدارت بصرها ببطء نحوه ورأسها يتأرجح ببطء مع حركة السيارة: «ماما، هل أنت فزعة من الذهاب إلى مكان جديد؟».

وازدادت نظرتها تفكرًا ورقة وقالت: «قليلا، لكن لست فزعة جدًا، ليس على إلا أن أجلس هنا وأنتظر، فإذا ما جدَّ شيء على أن أقوم به،

فسأفعله. ألم تفكرى فيما سيكون عليه الحال عندما نصل؟ ألا تخشين ألا يكون جيدًا كما نظن؟».

فقالت بسرعة: «لا، لست فزعة، لا يمكن أن تشغل بالك بهذا ولا أنا أفعل ذلك، هذا كثير، أن يعيش الإنسان أكثر من الحياة. هناك آلاف الأشكال من المعيشة يمكن أن نعيشها ولكن عندما يجىء فستكون واحدة فقط. إذا ظلت أفكر فيها قبلها فلن أتحملها. أنت تتطلع إلى الأمام لأنك شاب. أما أنا، فلا شىء أمامى إلا الطريق، ومتى سيريدون أن يأكلوا مزيدًا من عظام لحم «الخنزير». أصبح وجهها صارمًا وقالت: «هذا كل ما أستطيع أن أفعله، ولا يمكننى أن أفعل غيره، فسيرتبك كل شىء إذا حاولت أن أفعل أكثر من هذا، فهى تثقل على بمجرد التفكير فيها».

وتثاءبت الجدة بصوت عالٍ وفتحت عينيها ونظرت بشراسة حولها وقالت: «لابد أن أخرج، المجد لله».

فقال «آل»: «عند أول دغل شجيرات، هناك واحد أمامنا».

«شجيرات أو لاشجيرات، لابد أن أخرج، قلت لك»، ثم بدأت تنوح: «لابد أن أخرج، لابد أن أخرج!».

فأسرع «آل»، وعندما وصل إلى الشجيرات الواطئة أوقف السيارة. وفتحت الأم الباب وشدت السيدة العجوز خارجها إلى جانب الطريق وسط الشجيرات وساندت الأم الجدة حتى لاتقع وهى تجلس.

وعاد الآخرون فوق ظهر اللورى إلى الحياة. وجوههم تلمع بعد أن لوحتها الشمس التى لم يستطيعوا تحاشيها. قفز «توم» وكيزى»، و«نوح» والعم «جون» إلى الأرض فى ضجر، بينما تسلقت «روثى» و«وينفلد» جوانب السيارة هابطين وجريا إلى الشجيرات، وساعد «كونى» «روزا شارن» برفق فى الهبوط. كان الجد متيقظًا تحت المشمع، وقد برز برأسه

وما زالت عيناه مخدرتين دامعتين لاتحسان بشىء. وراقب الآخرين ولكنه لم يكن يعى شيئًا مما يرى.

وناداه «توم» قائلا: «أتريد الهبوط يا جد».

واستدارت إليه العينان الهرمتان بفتور وقال: «لا». وعادت الشراسة إلى عينيه لحظة وقال: [لن أذهب، قلت لك سأبقى كما بقى «مولى». ثم فقد اهتمامه ثانية، وعادت الأم وهى تسند الجدة وتساعدها على صعود الجسر إلى الطريق.

قالت: [«توم»، أحضر طاسة العظام من هناك فى الخلف تحت المشمع. لابد أن نأكل شيئًا]. وأحضر «توم» الطاسة ومررها على الجميع ووقفت العائلة على جانب الطريق تمتص قطع اللحم المقرمشة من ثنايا عظم الخنزير.

وقال الأب: «لنا حظ إذ أحضرنا هذه معنا، لقد نشفت فوق حتى كدت لا أقدر على الحركة، أين الماء؟».

فقالت الأم: «أليست معك فوق، لقد أخرجت القدر الكبير».

وتسلق الأب جانب السيارة ونظر تحت المشمع، وقال: «ليست هنا، لابد أننا نسيناها».

وحل العطش على الجميع فورًا. وتأوه «وينفلد» قائلاً: «أريد أن أشرب، أريد أن أشرب».

ولعق الرجال ألسنتهم وقد وعوا فجأة أنهم عطشى، وبدا شىء من الفزع يستولى عليهم.

وإذ شعر «آل» بالخوف يستشرى بينهم، قال: «سنحصل على الماء عند أول محطة خدمة نصل إليها، نحن فى حاجة إلى بعض الوقود أيضًا».

وتعلقت الأسرة على جوانب السيارة، وساعدت الأم الجدة فى الدخول، ثم جلست بجوارها وأدار «آل» المحركة وانطلقوا.

من «كاسل» إلى «بادن» خمسة وعشرون ميلا. والشمس قد عبرت منتصف السماء وبدأت فى الهبوط. بدأ غطاء الرادياتير يقفز إلى أعلى وأسفل، وأز البخار خارجًا منه. كانت هناك عشة بالقرب من بادن وأمامها مضختا بنزين، وبجوار السور حنفية ماء وخرطوم. ساق «آل» السيارة ودخل بها وقد وجه مقدمة الهرسون إلى الخرطوم، وعندما توقفوا نهض الرجل بدين أحمر الوجه والذراعين من مقعد خلف المضختين وجاء نحوهم. كان يرتدى بنطلونًا من القطيفة البنية وحمالات، وقميصا، وعلى رأسه خوذة كرتونية تحميه من الشمس طليت بلون فضى، وقد تجمع العرق كالحبات على أنفه وتحت عينيه منسابًا فى ثنيات رقبته، درج ناحية اللورى وقد بدا شرسًا عبوسًا.

ثم سأل: «هل تنوون شراء شىء يا جماعة، بنزين أو أى شىء؟».

كان «آل» قد خرج فعلا وبدا يفك غطاء الرادياتير الذى تصاعد منه البخار بأطراف أصابعه، مبعدًا يده حتى يتفادى اندفاع البخار عندما يفك الغطاء «نريد بعض البنزين يا سيدى».

«هل معكم نقود؟».

«طبعًا، أتظن أننا نتسول!»

وزايلت وجه الرجل السمين شراسته وقال: «حسنًا، لا بأس إذًا يا جماعة، خذوا ما تشاءون من الماء». ثم أسرع يشرح الأمر «الطريق ملىء بالناس، يدخلون، يستعملون الماء، ويوسخون المرحاض، ثم والله يسرقون بعض الأشياء ولا يشترون شيئًا. ليس لديهم نقود ليشتروا بها. يأتون ويتسولون جالون بنزين ليستمروا فى طريقهم».

وقفز «توم» بغضب إلى الأرض واتجه ناحية الرجل السمين وقال بصرامة: «نحن ندفع فى سفرنا، ليس هناك داع لكى تتفحصنا. فنحن لا نسألك شيئًا مجانًا». فقال الرجل السمين بسرعة: «لم أفعل». وبدا العرق ينضح من قميصه ذى الأكمام القصيرة: «تفضلوا خذوا ما تريدون من ماء، واستعملوا المرحاض أيضًا إن أحببتهم».

كان «وينفلد» قد أمسك بالخرطوم، شرب من طرفه ثم حول الماء على رأسه ووجهه، ثم ابتعد والماء يقطر منه قائلاً: «ليس باردًا».

استمر الرجل السمين يقول: «لست أعرف ما الذى سيحدث فى البلاد»، انتقلت شكواه الآن ولم يتحدث عن أحد بعينه من عائلة «جود» أو يوجه الحديث إليه «خمسون، ستون سيارة تمر يوميًا، الناس تمضى إلى الغرب بالأطفال وأثاث المنازل، إلى أين يذهبون؟ ماذا سيفعلون؟».

فقال «توم»: «يفعلون مثلنا، نذهب إلى مكان يمكن أن نعيش فيه. نحاول الاستمرار، هذا كل ما فى الأمر».

«حسنًا، أنا لا أعرف ماذا سيحدث فى البلاد، لا أعرف، وهنا أحاول أنا أيضًا أن أواصل حياتى، أتظن أن هذه السيارات الكبيرة الجديدة تقف هنا، أبدًا يا سيدى، يذهبون إلى المحطات المطلية باللون الأصفر التابعة للشركات فى المدن. لا يقفون فى مكان كهذا ومعظم الذين يقفون هنا ليس لديهم شىء».

رفع «آل» غطاء الرادياتير بطرف إصبعه فطار فى الهواء وخلفه عمود من البخار، وتصاعد من الرادياتير صوت بقللة جوفاء. وزحف كلب الصيد المعذب فوق ظهر اللورى، متهيبًا إلى حافة الحمولة. وأطل ناشجًا ناحية الماء فتسلق العم «جون» إليه وأنزله ممسكًا إياه من فروة عنقه. وترنح الكلب لحظة على ساقين يابستين ثم ذهب يولغ فى الطين تحت

الصنبور. وعلى الطريق أزّت السيارات مارة، تلمع فى حر الشمس والريح الحارة التى تثيرها تنتشر فى فناء محطة الخدمة. وملأ «آل» الرادياتير بالخرطوم.

استمر الرجل السمين يقول: «أنا لست من النوع الذى يتاجر مع الأغنياء، كل ما فى الأمر أننى أحاول أن أتاجر، لماذا ! الناس الذين يقفون هنا يتسولون البنزين ويقايضون من أجله. يمكننى أن أريكم فى غرفتى الخلفية الأشياء التى يقايضونها مقابل البنزين والزيت؛ أسرّة، وعربات أطفال، وأوان منزلية. إحدى العائلات بادلت دمية طفلها مقابل جالون. وماذا سأفعل بكل هذا، أأفتح دكان روبابكيا؟ لماذا؟ لقد أراد أحدهم أن يبادل حذاءه مقابل جالون واحد، ولو أننى من ذلك الصنف من الرجال لاستطعت أن أحصل...». ووقعت نظراته على الأم، فسكت.

كان «جيم كيزى» قد بلل رأسه، ومازالت قطرات الماء تجرى على جبهته العالية، وعضلات رقبته مبللة، وقميصه أيضًا مبلل. تحرك ووقف بجوار «توم» وقال:«إنها ليست غلطة الناس، هل تحب أن تبيع السرير الذى ترقد عليه مقابل ملء خزان من البنزين».

«أعلم أنها ليست غلطتهم، فكل إنسان تكلمت معه يرحل لسبب معقول جدًّا. ولكن ماذا سيحل بالبلاد؟ هذا ما أريد أن أعرفه؟ ما الذى سيحدث؟ لم يعد من الممكن أن يكسب الإنسان عيشه. الناس لاتكسب عيشها من الزراعة. أنا أسألك، ماذا سيحدث؟ لا يمكننى الوصول إلى إجابة، وكل من سألته لا يمكنه أيضًا. الرجل يريد أن يبادل حذاءه لكى يستمر مائة ميل أخرى. لا يمكننى أن أفهم هذا». وخلع قبعته المفضضة ومسح جبهته براحته وخلع «توم» قلنسوته ومسح بها جبهته وذهب إلى الخرطوم وبلل القلنسوة وعصرها ثم لبسها مرة أخرى. واستخلصت الأم

كوبًا من الصفيح من خلال قضبان جانب اللورى وأخذت به الماء للجدة والجد فوق الحمولة. وقفت فوق القضبان وناولت الجد الكوب فبلل شفتيه ثم هز رأسه ورفض المزيد. ونظرت العينان الهرمتان إلى الأم فى ألم وحيرة لحظة قبل أن يذهب عنها الإدراك مرة أخرى.

وأدار «آل» المحرك وتقهقر بالسيارة إلى مضخة البنزين وقال: «يتسع خزانها حوالى سبعة جالونات، وسنعطيها ستة فقط حتى لايندلق شىء».

وضع الرجل السمين الخرطوم فى خزان الوقود وقال: «لا يا سيدى أنا لا أعرف ماذا سيحدث لهذه البلاد، الريف والحضر على السواء».

فقال «كيزى»: «تجولت فى أنحاء البلاد وكل إنسان يسأل هذا السؤال. إلى أين نحن ذاهبون؟ يبدو لى أننا لن نصل إلى أى شىء أبدًا. دائمًا على الطريق، نسير على الدوام، لماذا لا يفكر الناس فى الأمر؟ هناك حركة الآن. الناس تتحرك، نحن نعرف لماذا ونحن نعرف كيف. إنهم يتحركون لأنه لابدلهم أن يتحركوا. هذا ما يجعل الناس تتحرك على الدوام. يتحركون، لأنهم يريدون شيئًا أفضل مما هم فيه. وهذه هى الطريقة الوحيدة لكى يحققوا هذا. لأنهم يرغبونها وفى حاجة إليها فهم يخرجون ويحصلون عليها. وعندما يحيق الضرر بالناس فإنهم يفقدون رشدهم ويتقاتلون. تجولت فى أنحاء الإقليم وسمعت الناس تتكلم مثلك».

وضخ الرجل السمين البنزين وتحرك المؤشر على العداد يسجل الكمية وقال: «إيه، ولكن ما الذى سيحدث، هذا ما أريد معرفته؟»

وتدخل «توم» فى الحديث بصبر نافد وقال: «حسنًا، إنك لن تعرف أبدًا، لقد حاول «كيزى»، أن يخبرك ولكنك مازلت تسأل نفس الأسئلة، رأيت رجالا مثلك من قبل. أنت لاتسأل عن شىء ولكنك واقف كأنك

تغنى. أما ماذا سيحدث لنا فذلك ما لاتريد أن تعرفه. الإقليم كله يتحرك، يذهب إلى أماكن أخرى هناك أناس يموتون فى كل الأنحاء، ربما كنت ستموت قريبًا جدًا ولكنك لن تعرف شيئًا. لقد رأيت أناسًا كثيرين مثلك. أنت لاتريد أن تعرف أى شىء. أنت تغنى لنفسك فقط أغنية لكى تنام عليها. أما ما الذى سيحدث لنا...؟»

ونظر إلى مضخة البنزين، قديمة علاها الصدأ، والعشة خلفها مبنية من ألواح الخشب القديمة، وما زالت ثقوب المسامير التى دقت فيها من قبل واضحة تحت الطلاء الفاقع... الطلاء الأصفر الفاقع الذى يحاول أن يقلد به محطات الشركات الكبيرة فى المدن، ولكن الطلاء كان عاجزًا عن أن يخفى ثقوب المسامير القديمة، أو الشقوق القديمة فى الألواح الخشبية، ولا أن يجددها. كان التقليد فاشلا وصاحب المحطة يعلم أنه فاشل. وشاهد «توم» داخل باب العشة المفتوح براميل الزيت، اثنان منها فقط، ڤاترينة بها سجائر وحلويات جفَّت من فرط القدم، وأسواط العرقسوس التى استحال لونها بنيًّا. شاهد كرسيًا محطمًا، وستارة الذباب بها ثقب صدئ، والفناء الذى امتلأ بالقمامة والذى كان مفروشًا بالحصى، وخلفه حقل الحنطة يجف ويموت تحت وطأة الشمس. وبجوار البيت، المخزون القليل من الإطارات المستعملة والإطارات التى أعيد رتقها. ولأول مرة لاحظ ما يرتديه الرجل السمين من بنطلون رخيص، وقميص وقبعة ورقية وقال: «لم أكن أقصد أن أزعق فيك يا سيدى. إنه الحر.... إنك لا تملك شيئًا: «-------» أنت أيضًا وليست الجرارات هى التى ستدفعك إليه ولكنها تلك المحطات الصفراء الجميلة فى المدينة». ثم قال بخجل: «الناس ترحل، وأنت سترحل يا سيدى».

وأبطأت يد الرجل السمين على المضخة وتوقف، و«توم» يتكلم، ونظر إليه قلقًا وسأل فى جزع: «كيف عرفت؟ كيف عرفت أننا كنا نتداول بالفعل فى أمر رحيلنا من هنا نحو الغرب؟»

فأجابه «كيزى»: «كلٌ إنسان يفعل ذلك. ها أنذا الذى اعتاد أن يقاتل بكل قواه ضد الشيطان لأننى كنت أعتقد أن الشيطان عدونا، ولكن هناك شيئًا أسوأ من الشيطان الذى ركب البلاد. ولن يتركها إلا مقضيًا عليه تمامًا. هل رأيت واحدًا من تلك السحالى الخرافية يتوقف هنا؟ الصغار يتوقفون وأنت تذبحه نصفين ولكن رأسه يبقى معلقًا ثم تذبحه من رقبته ولكن رأسه يبقى معلقًا، ولابد لك من مفك لكى تفصل رأسه عن جسمه، وبينما هو يرقد هناك سيظل يقطر ويقطر السم فى الجحر الذى حفره بأسنانه».

ثم توقف عن الكلام والتفت إلى «توم» بجواره.

وحملق الرجل السمين بجزع أمامه وبدأت يداه تحرك يد المضخة ببطء وقال بصوت خافت: «لا أعرف ما الذى سيحدث».

وهناك بجوار خرطوم الماء وقفت «روزا شارن» و«كونى» معًا يتكلمان خفية. وغسل «كونى» الكوب الصفيح وتحسس الماء بإصبعه قبل أن يملأ الكوب مرة أخرى وراقبت «روزا شارن» السيارات وهى تمر فوق الطريق ومد لها «كونى» الكوب وقال: «هذا الماء ليس باردًا ولكنه يرطب». ونظرت إليه وابتسمت ابتسامة ذات معنى، فقد أصبحت وهى حامل مليئة بالأسرار. أسرار ولحظات صمت قصيرة تبدو كأن لها معانى كثيرة. كانت سعيدة بنفسها تشكو من أشياء لم تكن تهتم بها حقيقة، وتطلب من «كونى» أن يؤدى لها خدمات «عبيطة»، وكان كلاهما يعرف أنها «عبيطة». كان «كونى» سعيدًا بها أيضًا، ومليئًا عجبًا من كونها حاملاً، كان يحب التفكير فى أنه يشاركها الأسرار، وحين كانت تبتسم خفية كان هو الآخر يبتسم خفية، ويتبادلان الحديث فى أمورهما الشخصية فى همس. كأن العالم يحوطهما بإحكام وهم فى مركزه، أو قل إن «روزا شارن» هى التى فى مركزه و«كونى» يدور فى فلك صغير حولها. كان كل ما يقولانه نوعًا من

الأسرار. أشاحت ببصرها بعيدًا عن الطريق وقالت برقة: «لست عطشانة جدًا، ولكن ربما كان من الضرورى أن أشرب».

وأومأ برأسه فقد كان يعرف جيدًا ماذا تقصد، أخذت الكوب ومضمضت فمها وبصقت ثم شربت ملء الكوب من الماء الفاتر، فسألها: «أتريدين كوبًا آخر».

«نصف فقط». فملأ الكوب إلى منتصفه وأعطاه لها. ومرقت سيارة لينكولن زيفير واطئة فى لون الفضة، واستدارت «روزا شارن» لكى ترى أين يقف الباقون ورأتهم وقد تجمعوا بجوار اللورى فاطمأنت أن أحدًا لا يسمعها، وقالت: «هل تحب أن تسافر فى واحدة كهذه؟» وتنهد «كونى» وقال: «ربما.... فيما بعد». كان كلاهما يعرف ما يقصد: «وإذا كان هناك عمل كثير فى كاليفورنيا فسنحصل على سيارة خاصة بنا، ولكن هذه....»، وأشار إلى العربة الزيفير التى اختفت: «هذا الصنف يساوى ثمن منزل من حجم كبير، أفضل أن أملك المنزل».

فقالت «أحب أن أملك منزلاً وواحدة، ولكن طبعًا المنزل أولا لأن....». وكلاهما كان يعرف ماذا يقصد. كان فى أشد حالات الانفعال بسبب هذا الحمل.

سألها: «هل أنت بخير؟»

«متعبة، متعبة فقط بسبب الركوب فى الشمس».

«لا بد لنا من ذلك، وإلا فلن نذهب إلى كاليفورنيا».

فقالت: «عارفة».

وتجول الكلب يتشمم بجوار اللورى، ثم جرى إلى بركة الماء تحت الخرطوم مرة أخرى وتمرغ فى الماء الموحل. ثم تحرك بعيدًا، أنفه إلى

أسفل وأذناه مدلتان. يتشمم طريقه بين الأعشاب المتربة بجوار الطريق. ووصل إلى حافة الطريق المرصوف ورفع رأسه وأطل ثم بدأ يعبر الطريق. صرخت «روزا شارن» بصوت حاد إذ مرقت سيارة كبيرة بالقرب منها بسرعة، وصرخت إطاراتها وحاول الكلب فى بأس أن يتفاداها، ثم أطلق صرخة وتهاوى وقد انقسم إلى نصفين تحت العجلات. وأبطأت السيارة الكبيرة لحظة ونظرت منها بعض الوجوه إلى الخلف، ثم انطلقت بسرعة أكبر واختفت. والكلب ـ وقد أصبح كتلة من الدماء والأحشاء الممزقة المختلفة ـ يرفس فى وهن على الطريق.

كانت عينا «روزا شارن» واسعتين وهى تلح فى السؤال: «هل سيؤذينى هذا؟ هل سيؤذى؟»

ولف «كونى» ذراعه حولها وقال: «تعالى واجلسى... لم يحدث شىء».

«ولكننى أحسست أنه قد أصيب، أحسست أنه قد ارتج عندما صرخت».

«تعالى واجلسى، لم يحدث شىء، لن يصيبه شىء». وقادها إلى جانب اللورى البعيد، عن الكلب المحتضر وأجلسها على الرفرف.

مشى «توم» والعم «جون» إلى موقع الحادثة، كانت الأنفاس الأخيرة تخرج من الجسد المسحوق. وأمسكة «توم» من ساقيه وسحبه إلى جانب الطريق وبدا العم «جون» مرتبكًا كأنها كانت غلطته وقال: «كان يجب أن أربطه».

ونظر الأب لحظة إلى الكلب ثم استدار وقال: «دعونا نمضى من هنا، لست أعرف كيف كنا سنطعمه على أى حال، ربما كان هذا أفضل».

وجاء الرجل السمين من خلف اللورى وقال: «أنا آسف يا جماعة، لا يمكن أن يعيش الكلب طويلا بالقرب من طريق عام. لقد ديست لى ثلاثة كلاب فى عام واحد. أنا لا أحتفظ بأى كلب الآن». ثم استطرد: «لاتشغلوا أنفسكم به يا جماعة، سأعتنى أنا به. سأدفنه فى حقل الحنطة».

ومشت الأم إلى «روزا شارن» حيث جلست ترتعد على الرفرف وسألتها: «هل أنت بخير يا «روزا شارن»؟ أتشعرين بتعب؟».

«لقد رأيت ما حدث وقد هزنى».

فقالت الأم: «سمعتك تصرخين، هيا هدئى روعك الآن».

«هل تعتقدين أن ذلك سيؤذى؟؟».

فقالت الأم: «لا. ولكن إذا حزنت وشعرت بالأسى وانطويت فربما آذتك، انهضى الآن وساعدينى على أن أريح الجدة، وانسى هذا الطفل دقيقة، فسيعتنى بنفسه».

فسألت «روزا شارن»: «أين الجدة؟».

«لا أعرف، فى مكان ما هنا حولنا، ربما كانت فى المرحاض».

اتجهت الفتاة نحو المرحاض وعادت بعد لحظة وهى تسند الجدة فى سيرها وقالت:«لقد ذهبت لتنام هناك».

وتمتمت الجدة: «إنه مكان طيب هناك لديهم مرحاض سالك وسيفون، أنا أحب مثل هذا المكان». ثم قالت فى رضا: «كان من الممكن أن أغفو إغفاءة حلوة لولا أنكم أيقظتمونى».

فقالت «روزا شارن»: «ليس مكانًا مناسبًا للنوم». وساعدت الجدة فى الصعود إلى السيارة وأجلست الجدة نفسها فى سعادة وقالت: «ربما

لم يكن مناسبًا لك. ولكنه جميل على أى حال». قال «توم»: «لنذهب، فلابد أن نقطع أميالاً كثيرة».

وصفر الأب بصوت حاد وقال: «والآن، أين ذهب هذان الطفلان»، وصفر مرة أخرى وقد وضع أصابعه فى فمه.

لم تمض لحظة حتى خرجا من حقل الحنطة «روثى» فى المقدمة، و«وينفلد» يتبعها. وصاحت «روثى»: «بيض، حصلت على بيض طرى»، واندفعت مقتربة و«وينفلد» فى أثرها: «انظروا» كان فى يديها اللتين نبشت بهما، اثنتا عشرة بيضة طرية بيضاء رمادية اللون وبينما هى ترفع يدها عاليا وقعت أبصارها على الكلب الميت على جانب الطريق وقالت: «أوه» وسارت «روثى» و«وينفلد» ببطء ناحية الكلب وتفحصاه.

وناداهما الأب: «تعاليا، إلا لو كنتما تريدان أن تُتركا».

واستدارا فى خشوع ومشيا إلى اللورى ونظرت «روثى» مرة أخرى إلى بيض الثعابين الرمادى فى يديها ثم ألقته بعيدًا. وتسلقا جانب السيارة وقالت «روثى» فى صوت أجش: «كانت عيناه ما زالتا مفتوحتين».

حاول «وينفلد» أن يبدو رابط الجأش، وقال بجسارة: «لقد خرجت أحشاؤه كلها، خرجت كلها...» ثم سكت لحظة وقال: «خرجت كلها» ثم زحف بسرعة وتقيأ على جانب السيارة. وعندما جلس مرة أخرى كانت عيناه دامعتين وأنفه سائبة وقال موضحًا: «ليس الأمر مثل ذبح الخنازير».

رفع «آل» غطاء محرك «الهدسون»، وفحص مستوى الزيت وأحضر جالونًا من أرضية المقعد الأمامى وصب كمية من زيت رخيص أسود فى الأنبوب وقاس مستوى الزيت ثانية.

وجاء «توم» بجواره وسأل: «أتريدنى أن أسوقها قليلا؟»

فقال «آل»: «لست متعبًا».

«حسنًا أنت لم تنم أمس، وأنا غفوت قليلا هذا الصباح. اصعد إلى فوق، سأقودها». فقال «آل» على مضض: «حسنًا، ولكن لا حظ عداد الزيت جيدًا، وسر بها ببطء، احذر من حدوث ماس، ألق نظرة على المؤشر بين الحين والآخر، فإذا قفزت الإبرة مشيرة إلى الفارغ فذلك معناه ماس. سر بها ببطء يا «توم» فهى تحمل أكثر من حمولتها».

فضحك «توم» وقال: «سألا حظها، استرح، واطمئن».

وتكومت العائلة مرة أخرى فوق اللورى واستقرت الأم جالسة بجوار الجدة فى المقعد. واتخذ «توم» مجلسه وأدار المحرك وقال: «حاذروا... سأتحرك».. ثم عشَّقها وانطلق بها على الطريق العام.

وعلا أزيز المحرك فى انتظام. وانحدرت الشمس فى السماء أمامهم، ونامت الجدة طول الوقت. حتى الأم مالت برأسها إلى الأمام وغفت. وجذب «توم» قبعته فوق عينيه، حتى يحجب عنهما ضوء الشمس الغاشية.

من «بادن» إلى «ميكر» ثلاثة عشر ميلاً، ومن «ميكر» إلى «هاراه» أربعة عشر ميلا ثم مدينة أو كلاهوما ـ المدينة الكبيرة. وساق «توم» السيارة خلالها مباشرة، واستيقظت الأم وتفرجت على الشوارع وهم يخترقون المدينة. والعائلة فوق سطح اللورى تحملق فى المحال والمنازل الكبيرة وأبنية المكاتب. ثم بدأت الأبنية والمحال تصغر فى الحجم. وظهرت مخازن الخردة وبوفيهات السجق وصالات الرقص المقامة خارج المدينة.

وشاهدت «روثى» و«وينفلد» كل هذا وقد أربكتهما المدينة بضخامتها

وغرابتها، وأفزعتهما رؤية أناسها الذين يرتدون ثيابًا جيدة. ولم يتبادلا كلمة فيما رأياه. فيما بعد ممكن، ولكن الآن لا.. شاهدا أبراج حقول البترول على حافة المدينة. أبراج سوداء وقد عبقت رائحة الزيت والبترول فى الجو، ولكنهما لم يعبرا عن دهشتهما فقد كانت من الكبر والغرابة بحيث أثارت فيهما الفزع.

شاهدت «روزا شارن» فى الشارع رجلا يلبس بذلة فاتحة اللون وحذاء أبيض وقبعة خوص عريضة، فلمست «كونى» وأشارت للرجل بعينيها. عندئذ تبادلا الضحك الخافت معًا، واستغرقهما الضحك الخافت فغطيا فميهما وبدا جميلا أن ينظرا إلى الناس الآخرين ويضحكا. وشاهدتهما «روثى» و«وينفلد» وهما يضحكان فى سرهما وبدا ذلك ظريفًا حتى إنهما حاولا أن يفعلا مثلهما ولكنهما لم يستطيعا. لم تستجب لهما الضحكات. ولكن «كونى» و«روزا شارن» كانت قد تقطعت أنفاسهما من الضحكات المكتومة قبل أن يستطيعا التوقف عنها. وقد تملكتهما رغبة الضحك حتى ليكفى أن ينظر أحدهما إلى الآخر حتى يبدأ الضحك من جديد. امتدت ضواحى المدينة إلى مسافات بعيدة. وقاد «توم» السيارة ببطء وحذر فى الشوارع المزدحمة، ثم عادوا ثانية على طريق ٦٦، الطريق الغربى العظيم، كانت الشمس تهبط على امتداد الطريق، وزجاج العربة الأمامى يلمع مغطى بالغبار. جذب «توم» قلنسوته مرة أخرى إلى أسفل على عينيه حتى اضطر أن يميل برأسه إلى الخلف ليستطيع الرؤية. واستمرت الجدة فى النوم والشمس على جفنيها المغمضين، والعروق زرقاء على صدغيها، والأوردة الصغيرة اللامعة على خديها فى لون النبيذ، وقد ازداد لون العلامات البنية القديمة، قتامة.

قال «توم»: «ستظل على هذا الطريق إلى الأمام دوما».

فقالت الأم التى كانت قد صمتت وقتًا طويلاً: «ربما كان من الأفضل

أن نجد مكانًا نقف فيه قبل الغروب. لابد أن أسلق بعض اللحم وأصنع بعض الخبز، وهذا يتطلب وقتًا».

فوافقها «توم»: «فعلا، إننا لن نقطع هذه الرحلة فى قفزة واحدة، وربما كان من المستحسن أن نمدد أجسامنا قليلاً».

من مدينة «أو كلاهوما» إلى «بيتانى» أربعة عشر ميلا.

قال «توم»: «أعتقد أنه من الأفضل أن نقف قبل أن تغيب الشمس. فـ«آل» لابد أن يبنى ذلك الذى يريد أن يبنيه فوق السيارة. فالشمس ستقتل الجماعة فوق».

كانت الأم قد غفت مرة أخرى. فاعتدل رأسها فجأة وقالت: «لابد أن أطبخ شيئًا للعشاء»، ثم أضافت: «توم»، لقد قال لى الأب عن مسألة عبورك حدود الولاية».

فأجابها بعد وقت طويل: «أيوه؟ ماذا عن ذلك يا أماه».

«حسنًا، أنا خائفة منها. سيجعلك ذلك مطاردًا وربما أمسكوك».

وضع «توم» يده على عينيه ليقيهما الشمس الغاربة، وقال: «لاتقلقى. لقد فكرت فى الأمر. هناك أعداد كبيرة من الذين يفرج عنهم بالإفراج الشرطى، وهناك أعداد متزايدة على الدوام، إذا ما ألقى القبض علىّ لأى سبب آخر فى الغرب. حسنًا، لديهم فى هذه الحالة صورتى وبصمات أصابعى فى واشنطن، وسيعيدوننى مرة أخرى، فإذا لم أرتكب أى جريمة فلن يأبهوا للموضوع».

«حسنًا أنا خائفة من ذلك، فى بعض الأحيان يرتكب الإنسان جريمة دون أن يعرف أنه يرتكب خطأً، ربما كان لديهم فى كاليفورنيا جرائم لا نعرف عنها شيئًا، ربما فعلت شيئًا سليما تماما ولكنه فى كاليفورنيا غير سليم».

فقال: «ولكن يستوى الأمر كما لو أننى لم أكن مقيدًا بنظام الإفراج الشرطى، والفرق أنه حين يقبض على يحكم على بمدة أكبر من الآخرين. والآن كفى عن القلق، فلدينا الكثير الذى نقلق من أجله، فلا تفكرى فى أشياء تقلقين من أجلها».

فقالت: «لا أستطيع، فى اللحظة التى تعبر فيها الحدود ستكون قد ارتكبت جريمة»، فقال: «حسنًا هذا أفضل من التسكع حول «ساليزو» والموت جوعًا، من الأفضل أن نبحث عن مكان نقف فيه».

واخترقوا مدينة «بيتانى» وخرجوا من الناحية الأخرى. وبجوار منخفض على جانب الطريق حيث يمر بربخ من تحت الطريق، كانت عربة سياحة قديمة قد توقفت بجوار الطريق وانتصبت بجوارها خيمة صغيرة والدخان يتصاعد من ماسورة المدخنة فى أعلى الخيمة. وأشار «توم» أمامه وقال: «هاهم بعض الناس معسكرون، يبدو أنه مكان طيب كما رأينا». وأبطآ المحرك ثم توقف على جانب الطريق. كان غطاء محرك سيارة السياحة القديمة مرفوعًا، ووقف رجل فى منتصف العمر ينظر فى المحرك. كان يرتدى قبعة لباد رخيصة، وقميصًا أزرق وصداريًا أسود منقطًا وبنطلونه القديم القذر يلمع كالجلد. كان وجهه نحيفًا وبدت خطوط الخدين العميقة كأنها أخاديد عظيمة فى وجهه حتى بدت عظام وجنتيه وذقنه بارزة حادة، ورفع بصره إلى سيارة «جود» وقد ارتسم فى عينيه غضب وحيرة.

وأطل «توم» خارج النافذة وقال: «هل هناك ما يمنع قانونًا من أن يقف الناس هنا ليقضوا الليل؟».

كان الرجل قد رأى سيارة النقل فقط، ثم تركزت عيناه على «توم» وقال: «لا أعرف، لقد وقفنا هنا لأننا لم نستطع أن نتقدم فقط».

«أيوجد ماء هنا؟».

وأشار الرجل إلى عشة محطة خدمة على بعد ربع ميل وقال: «يوجد ماء هناك، وسيسمحون لك بملء جردل».

فتردد «توم» وقال: «حسنا هل تعتقد أنه من الممكن أن نعسكر بجواركم؟».

وبدت الحيرة على وجه الرجل النحيف وقال: «نحن لانملكها، لقد وقفنا هنا فقط، لأن هذه العربة القديمة الملعونة لا تستطيع أن تمضى إلى أبعد من ذلك».

فأصر «توم» على سؤاله: «على أى حال أنتم هنا، لسنا نحن، ومن حقكم أن تقولوا إذا كنتم تريدون جيرانًا أم لا؟».

وأثمر رجاء الضيافة أثرًا مباشرًا. وانفرج وجه الرجل النحيف عن ابتسامة وقال: «لماذا، بالتأكيد، تعال بعيدًا عن الطريق، يشرفنا أن تجاورونا»، ثم نادى: «سيرى»، هناك جماعة ستقيم معنا، اخرجى ورحبى بهم». ثم أضاف قائلا: «سيرى» ليست بحالة طيبة».

وانفرجت مصاريع الخيمة عن امرأة هزيلة ذات وجه مجعد كورقة شجرة جافة وعينين متقدمتين كالجمر، عينان سوداوان كأنهما تنظران من بئر من الفزع. كانت ضئيلة الحجم، ترتعش وقد نصبت جسما متشبثا بأحد مصراعى الخيمة، وكانت اليد التى تمسك بالقماش المتين مجرد هيكل عظمى ومغطى بجلد متغضن.

عندما تكلمت جاء صوتها جميلا خفيضًا. عذبًا وموقعًا، وإن تخللته بعض النغمات العالية ذات الرنين، قالت: «قل لهم مرحبًا، قل لهم أهلا وسهلا».

وقاد «توم» السيارة خارج الطريق ودخل بها الحقل ثم أوقفها بجوار سيارة السياحة، وتسلق الناس هابطين من فوق اللورى، «روثى» و«وينفلد» هبطا بسرعة لدرجة أن سيقانهما لم تستطع أن تتحمل فصرخا من شك الإبر والدبابيس الذى سرى فى أطرافها.

وسارعت الأم إلى العمل، فكت الدولوسعة الثلاثة جالونات من خلف اللورى واقتربت من الطفلين الباكيين وقالت: «والآن اذهبا للماء، هناك، اطلبا بلطف، قولا، من فضلك، أيمكن أن نحصل على دلو ماء، ثم قولا شكرًا لك واحملاه معًا متعاونين، ولاتدلقا شيئًا. وإذا وجدتما خشب حطب للوقود أحضراه». وقفز الطفلان مسرعين ناحية العشة.

وساد قليل من الارتباك بجانب الخيمة وتوقف التعارف الاجتماعى فترة قبل أن يبدأه الأب بقوله: «أنتم لستم من أهل أوكلاهوما؟»».

وقال «آل» الذى كان يقف بالقرب من السيارة ينظر إلى أرقامها: «كانساس».

قال الرجل النحيف: [«جالينا»، تقريبًا من هناك، اسمى «ويلسون»، «إيفى ويلسون»].

فقال الأب: [«نحن أسرة «جود»، جئنا تقريبًا من جوار ساليزو»].

فقال «إيفى ويلسون»: [حسنًا، يشرفنا أن نقابلكم يا جماعة، «سيرى»: هؤلاء أسرة «جود»].

«عرفت أنك لست من أهل أوكلاهوما. لهجتك غريبة. يعنى، ليس هذا عيبًا بالطبع، فاهمنى».

فقال «إيفى»: «كل واحد ينطق الكلام بطريقة مختلفة، أهل أركنساس يقولونها بشكل مختلف، أهل أوكلاهوما يقولونها بشكل آخر، وقد رأينا

سيدة من ماساشوستس وقد كانت تنطق الكلمات بشكل أكثر اختلافًا عن الجميع. لم أكن أستطيع تبين كل ما تقول تقريبًا».

وبدا «نوح» والعم «جون» والواعظ فى تفريغ حمولة اللورى، وساعدوا الجد على الهبوط وأجلسوه على الأرض فجلس فى استرخاء يحملق أمامه. فسأله: «نوح»: «أأنت مريض يا جد؟».

فقال الجد ؛ بضعف: «أنت على صواب تمامًا يا ملعون، حالى أسوأ من جهنم».

ومشت نحوه «سيرى ويلسون» ببطء وحذر وسألته: «أتحب أن تأتى إلى داخل خيمتنا؟ تستطيع أن ترقد على مرتبتنا وترتاح».

رفع بصره إليها وقد جذبه صوتها العذب فقالت: «تعال الآن، ستنال بعض الراحة. وسنساعدك».

وبدا الجد يبكى دون سابق إنذار. كانت بطنه ترتعش وشفتاه العجوزتان قد أطبقتا على فمه بإحكام. وهو ينشج بصوت أجش. واندفعت إليه الأم وأخذته بين ذراعيها وأوقفته على قدميه وشدت ظهرها العريض وهى تتقدم به تحمله وتساعده على دخول الخيمة.

فقال العم «جون»: «لابد أنه مريض جدًا، لم يفعل مثل هذا من قبل. لم أره أبدًا ينشج فى حياته». ثم قفز إلى أعلى السيارة اللورى وألقى بمرتبة من فوقها.

خرجت الأم من الخيمة وذهبت إلى «كيزى» وقالت: «لقد عدت مرضى كثيرين، الجد مريض، أرجو أن تلقى نظرة عليه».

وسار «كيزى» مسرعًا إلى الخيمة ودخلها. على الأرض كانت مرتبة مزدوجة وقد فرشت الملاءات بعناية. وانتصب فرن من الصفيح فوق قوائم

حديدية. لم تكن نيرانه تشتعل جيدًا، جردل ماء، وصندوق خشبى للتموين. وصندوق آخر للمائدة وهذا كل شىء. نفذ ضوء الشمس الغاربة ورديًا من جدران الخيمة. وقد ركعت «سيرى ويلسون» على الأرض بجوار المرتبة ورقد الجد على ظهره. عيناه مفتوحتان تحملقان إلى أعلى وقد احمرت وجنتاه وثقلت أنفاسه.

أمسك «كيزى» معصمه الهرم النحيف بين أصابعه وسأله: «أتشعر بتعب يا جد؟» وتحركت العينان المحملقتان وجهه ولكنهما لم تجداه. وحاولت الشفاه أن تنطق شيئًا ولكنها لم تتكلم. وأحس «كيزى» النبض ثم ترك المعصم ووضع يده على جبهة الجد. وبدأت نوبة تنتاب جسد الرجل العجوز. ساقاه تتحركان دون استقرار، ويداه تتململان. وأطلق سيلا من الأصوات المبهمة التى لم تكن كلمات. كان وجهه أحمر تحت فوديه الخشنين الأبيضين.

قالت «سيرى ويلسون» بلطف «لكيزى»: «هل عرفت ما به؟».

فرفع بصره إلى الوجه المجعد والعينين المتقدتين وقال: «هل عرفت أنت؟»

«أنا.... أعتقد ذلك».

فسألها «كيزى»: «ماذا؟».

«ربما كان خطأ، لا أحب أن أصرح به».

ونظر «كيزى» ثانية إلى الوجه المتقلص وقال: «هل تريدين أن تقولى ـ ربما ـ إنه يعانى من السكتة؟».

فقالت «سيرى»: «ربما، لقد شاهدت حالات مثل ذلك ثلاث مرات».

وجاءت من الخارج أصوات إقامة المخيم، وتقطيع الخشب، وقعقعة الطاسات. ونظرت الأم من خلال المصاريع وقالت: «الجدة تريد أن تدخل، هل هذا أفضل؟». فقال الواعظ: «ستغضب إن منعت من الدخول».

فسألت الأم: «أتظن أنه بخير؟»

هز الواعظ رأسه ببطء ونظرت الأم بسرعة إلى الوجه العجوز الذى أخذ يجاهد والدم يتدفق إليه فانسحبت وجاء صوتها تقول: «إنه بخير يا جدة، إنه يرتاح قليلا فقط».

وأجابت الجد متجهمة: «حسنًا، أريد أن أراه، فهو شيطان مخادع. لن يدعك تعرفين ما به».

ثم مرقت بين مصراعى الخيمة ووقفت بجوار المرتبة ونظرت إلى أسفل وسألت الجد: «ما الحكاية معك؟». ومرة أخرى اتجهت عيناه إلى صوتها وتحركت شفتاه فقالت: «إنها حركات لؤم. قلت لهم إنه مخادع، لقد كان ينوى أن يهرب هذا الصباح حتى لا يأتى ووعندئذ كان وسطه سينخلع». ثم قالت بامتعاض: «مجرد حركات لؤم، لقد شاهدته من قبل عندما لم يكن يتكلم مع أحد».

فقال «كيزى» برفق: «ليس هذا لؤما يا جدة، إنه مريض».

فنظرت مرة أخرى إلى الرجل العجوز وقالت: «أوه، أهو مريض جدًا؟ أتظن ذلك؟».

«مريض جدا يا جدة».

وترددت لحظة وقد التبس عليها الأمر. ثم قالت بسرعة: «حسنًا، لماذا لا تصلى؟ أنت واعظ، أليس كذلك؟».

واندفعت أصباع «كيزى» القوية تقبض على معصم الجدة وقال: «لقد قلت لك يا جدة إننى لم أعد واعظًا».

فأمرته: «صلِّ على أى حال، فأنت تحفظ كل شىء عن ظهر قلب».

فقال «كيزى»: «لا أستطيع، لا أعرف لمن أصلى، ولا لماذا أصلى؟».

فزاغت عينا الجدة ثم استقرتا على «سيرى»، وقالت: «لن يصلى، هل قلت لك كيف كانت «روثى» تصلى وهى صغيرة تحبو؟ كانت تقول: «ها أنذا أرقد لأنام، وأرجو من الله أن يحفظ روحى فى سلام، وعندما تذهب إليه هناك يكون لوحى خاليًا من أى شىء ولا يحصل الكلب المسكين على شىء. آمين ـ هذا ما كانت تفعله بالضبط».

وسقط على قماش الخيمة ظل أحدهم وهو يمشى بين الخيمة والشمس.

وبدا كأن الجد يجاهد وكل عضلاته تتقلص، ثم ارتج فجأة كأن ضربة ثقيلة أصابته ورقد ساكنًا وتوقفت أنفاسه ونظر «كيزى» إلى وجه الرجل العجوز ورأى لونه يتحول إلى اللون الأرجوانى المسود، ولمست «سيرى» كتف «كيزى» وهمست: «لسانه... لسانه، لسانه».

وأومأ «كيزى» وقال: «قفى أمام الأم»، ثم دس إصبعه بين الفكين المحكمين بقوة وأبعدهما عن بعضهما ومده إلى حلق الرجل العجوز ليصل إلى لسانه وعندما شده مخلصًا إياه، خرجت حشرجة أنفاسه ثم شهقت أنفاسه داخلة. ووجد «كيزى» عصا صغيرة على الأرض شد بها اللسان إلى أسفل وبدأت الأنفاس الضعيفة تخرج من جديد.

كانت الجدة تحجل كالدجاجة وهى تقول: «صلِّ، صلِّ، أنت صلِّ، قلت لك»، وحاولت «سيرى» أن تبعدها فصاحت: «صلِّ، الله يلعنك».

ورفع «كيزى» بصره لها لحظة وجاءت الأنفاس خشنة غير منتظمة: «أبانا الذى فى السموات، فليتقدس اسمك».

وصاحت الجدة: «المجد لله».

«وليأت ملكوتك كما فى السماء كذلك على الأرض».

«آمين».

وخرجت من الفم المفتوح شهقة عالية ثم خرج الهواء فى شبه صيحة.

«اعطنا اليوم، خبزنا كفافنا، واغفر لنا» كان النفس قد توقف، ونظر «كيزى» إلى عينى الجد، كانتا صافيتين، وعميقتين ونفاذتين وفيهما نظرة عارفة صافية. قالت الجدة: «هللويا، استمر».

فقال «كيزى»: «آمين».

عندئذ سكتت الجدة، وتوقفت كل الضجة خارج الخيمة. وعبر صوت سيارة مسرعة على الطريق. كان «كيزى» لايزال راكعًا على الأرض بجوار المرتبة، والناس فى الخارج ينصتون ويقفون بهدوء احترامًا لأصوات الموت. أخذت «سيرى» الجدة من ذراعها وقادتها إلى الخارج، فتحركت معها الجدة فى وقار رافعة الرأس. مشت إلى العائلة، ورفعت رأسها من أجل العائلة. أخذتها «سيرى» إلى مرتبة ملقاة على الأرض وأجلستها عليها، وشخصت الجدة أمامها فى كبرياء فهى محط الأنظار الآن. كانت الخيمة ساكنة، وأخيرًا أزاح «كيزى» مصاريعها بيده وخطا إلى الخارج.

فسأله الأب برفق: «ماذا كانت؟».

فقال كيزى: «سكتة... نوبة قلبية سريعة وقوية».

وبدأت الحياة تتحرك مرة أخرى، ومست الشمس الأفق وتفرطحت فوقه. وجاء على الطريق العام صف طويل من لوريات البضائع الضخمة

ذات الجوانب الحمراء. تقدمت مقعقعة تزلزل الأرض «ومواسير» العادم العمودية تنفث دخانًا أزرق من زيت الديزل. رجل واحد يقود كل لورى، وبديله ينام على سرير فى أعلى القمرة بالقرب من السقف. ولكن اللوريات لم تكن تتوقف أبدًا، ترعد ليلا ونهارًا والأرض تهتز تحت ثقلها. أصبحت العائلة وحدة واحدة، وتربع الأب على الأرض وبجواره العم «جون»، كان الأب هو رأس العائلة الآن. ووقفت الأم بجواره. تربع «نوح» و«توم» و«آل». وجلس الواعظ ثم ارتكز على مرفقيه، ومشى «كونى» و«روزا شارن» إلى مسافة قليلة، وعندما جاءت «روثى» و«وينفلد» يتعثران ويحملان جردل الماء فيما بينهما، شعرا بالتغير الذى حدث، فأبطآ، ثم أنزلا الجردل ومشيا بهدوء ليقفا بجوار الأم.

جلست الجدة فى كبرياء وهدوء حتى تشكلت الجماعة. حتى لم يعد أحد ينظر إليها، عندئذ رقدت على الأرض وغطت وجهها بذراعيها. وغابت الشمس الحمراء عاكسة غسقًا لامعًا على الأرض. حتى راقت الوجوه فى الأصيل، ولمعت العيون تعكس لون السماء. وجمع الأصيل الضياء من حيث استطاع.

قال الأب: «حدث هذا فى خيمة مستر «ويلسون»».

فأومأ العم «جون» برأسه وقال: «لقد أقرضنا خيمته».

قال الأب برفق: «جماعة صدوقة طيبة».

كان «ويلسون» يقف بجوار سيارته المعطلة وذهبت «سيرى» لتجلس مع الجدة على المرتبة ولكنها حرصت على ألا تمسها.

ونادى الأب: «مستر ويلسون». وجرَّ الرجل قدميه بقربهم وتربع جالسًا، وجاءت «سيرى» ووقفت بجواره وقال الأب: «نحن شاكرون لكم يا جماعة».

فقال «ويلسون»: «يشرفنا أن نساعد». فقال الأب: «نحن مدينون لكم بالفعل».

فقال «ويلسون»: «لا فضل فى وقت الموت» وقالت «سيرى» بعده كأنها صداه: «لا فضل أبدًا». قال «آل»: «سأصلح سيارتك أنا و«توم»، سنصلحها». وبدا «آل» فخورًا أنه استطاع أن يرد جميل العائلة.

وقال «ويلسون» موافقًا على رد الجميل: «قد نحتاج بعض المساعدة».

قال الأب: «لابد أن نفكر فيما ينبغى عمله، هناك قوانين، لابد أن نبلغ عن الوفاة، وعندما نفعل ذلك فهم إما يأخذون أربعين دولارًا من أجل الحانوتى أو يعدونه مسكينًا ويأخذونه إلى مقابر الصدقة للمساكين».

وتدخل العم «جون»: «لم يكن فينا مساكين أبدًا».

فقال «توم»: «ربما كان علينا أن نتعلم، فلم يحدث أيضًا أن طردنا من أرضنا من قبل».

فقال الأب: «لقد عشنا بشرف، لا يوجد ما يمكن أن نلام عليه، لم نأخذ شيئًا لا نستطيع دفع ثمنه، لم نأكل يومًا خبز الصدقة، وعندما وقع «توم» هنا فى بعض المشاكل كان فى إمكاننا أن نمضى رافعى الرؤوس، فقد فعل ما كان يمكن أن يفعله أى إنسان».

فسأل العم «جون»: «إذًا ماذا سنفعل؟».

«نتصرف كما يقول القانون وسيأتون لتنفيذه، لدينا فقط مائة وخمسون دولارًا، إذا أخذوا أربعين لكى يدفنوا الجد فلن نذهب إلى كاليفورنيا، وإلا فسيدفنونه فى مقابر الصدقة». وتململ الرجال فى جلستهم وحملقت عيونهم فى الأرض المعتمة تحت ركبهم.

قال الأب بصوت خافت: «لقد دفن الجد أباه بيده، فعل ذلك بوقار، وحفر القبر جيدًا بجاروفه، كان ذلك فى زمن من حق الرجل فيه أن يدفن على يد ابنه ومن حق الابن فيه أن يدفن أباه».

فقال العم «جون»: «القانون يقول غير هذا الآن». فقال الأب: «فى بعض الأحيان لا يمكن اتباع القانون، ولاسيما فى مسائل السلوك الأخلاقى على أى حال. هناك مواقف كثيرة لا تستطيع فيها ذلك، عندما اختل «فلويد» وهام على وجهه، القانون يقول لا بد أن تسلموه ومع ذلك لم يسلمه أحد. بعض الأحيان يضطر الإنسان إلى خرق القانون. أنا أقول الآن إن من حقى أن أدفن أبى. هل لدى أحدكم ما يريد أن يقوله؟».

وشب الواعظ على مرفقيه وقال: «القانون يتغير ولكن لا بد لك من أن تستمر، ومن حقك أن تفعل... ما لابد... أن تفعله».

والتفت الأب إلى العم «جون»: «إنه حقك أيضًا يا «جون» هل أنت معترض؟».

فقال العم «جون»: «لا اعتراض، فقط يبدو كأننا نخبئه فى الظلام وكان من طبع الجد أن يخرج للقتال».

فقال الأب خجلا: «لا نستطيع أن نفعل ما كان يفعله الجد ـ لابد أن نصل إلى كاليفورنيا قبل أن تنفد نقودنا».

وتدخل «توم» قائلا: «فى بعض الأحيان يحفر الناس قبرًا لرجل وعندئذ تقوم القيامة يقولون إنه قتل. إن الحكومة تهتم بالرجل الميت أكثر من اهتمامها بالرجل الحى... سينبشون القبر كالزبانية، ويحاولون معرفة من هو وكيف مات؟ أقترح أن نضع مذكرة مكتوبة فى زجاجة وندفنها مع الجد، تقول من هو وكيف مات ولماذا دفن هنا؟».

وأومأ الأب موافقًا: «هذا حسن، اكتبها بخط جميل، ستجعله أقل

وحدة حين يعرف أن اسمه مكتوب معه، لا مجرد رجل عجوز وحيد فى باطن الأرض. أبقى ما يقال؟».

صمتت الحلقة.

وأدار الأب رأسه للأم وقال: «ستكفنينه».

«سأكفنه، ولكن من الذى سيعد العشاء؟».

فقالت «سيرى ويلسون»: «سأعد أنا العشاء، ابدئى أنت. سأعده أنا وابنتك الكبيرة هذه».

فقالت الأم: «نحن نشكرك جدًا. «نوح»، اذهب لهذه البراميل وأحضر كمية من لحم الخنزير. لم يدخله الملح كثيرًا حتى الآن ولكنه سيكون جيدًا للأكل».

قالت «سيرى»: «عندنا نصف جوال من البطاطس».

قالت الأم: «أعطنى نصفى دولار» ودس الأب يده فى جيبه وأعطاها النقود الفضية. أتت بالحوض وملأته بالماء، ودخلت إلى الخيمة كانت مظلمة تقريبًا فى الداخل. دخلت «سيرى» وأوقدت شمعة وثبتها على صندوق ثم خرجت. ونظرت الأم لحظة للرجل العجوز الميت وعندئذ قطعت فى إشفاق شريطًا من مريلتها ولثمت فكيه بها. فردت أطرافه، وثنت ذراعيه على صدره، وأسبلت جفنيه، ووضعت عملة فضية فوق كل منهما. زررت قميصه وغسلت له وجهه.

وأطلت «سيرى» وقالت: «أيمكن أن أقدم أى مساعدة».

فرفعت الأم بصرها ببطء وقالت: «ادخلى أريد أن أتكلم معك».

قالت «سيرى»: «لك ابنة كبيرة طيبة، إنها تقشر البطاطس الآن ماذا يمكن أن أفعل لأساعدك؟».

قالت الأم: «كنت سأغسل الجد، ولكن ليس لديه ملابس أخرى، وطبعًا سيفسد لحافك، لا يمكن إخراج رائحة الموت من اللحاف، لقد شاهدت كلبًا ينبح وينبش فى مرتبة ماتت عليها أمى وكان هذا بعد عامين من وفاتها. سنلفه فى لحافك وسنعوضه لك. لدينا لحاف آخر لك».

فقالت: «سيرى»: «لا يجب أن تتكلمى هكذا، يشرفنا أن نساعد، لم أشعر بسلام مثل هذا منذ وقت طويل. الناس فى حاجة لأن تساعد بعضها».

فأومأت الأم برأسها وقالت: «إنهم يفعلون» ونظرت طويلا إلى الوجه العجوز ذى اللحية ـ وفكاه ملثمان، وعيناه تلمعان بالفضة فى ضوء الشمعة «لن يبدو طبيعيًا»... «سنلفه كله».

«لقد تحملت السيدة العجوز الصدمة».

قالت الأم: «إنها عجوز جدًا، ربما لم تدرك حتى الآن ماذا حدث، وربما لا تعرف فعلا لفترة من الوقت بالإضافة إلى أننا قوم نعتز بتماسكنا. كان أبى يقول كل إنسان يمكن أن ينهار، ولكن عدم الانهيار يحتاج إلى رجال. ونحن دائمًا نحاول أن نتماسك». وثبتت اللحاف بعناية حول ساقى الجد وحول أكتافه وجذبت ركن اللحاف على رأسه كالقلنسوة ثم جذبتها إلى أسفل على وجهه وناولتها «سيرى» نصف دسته من دبابيس المشبك الكبيرة من عندها، فشبكت اللحاف بعناية وإحكام حول اللفة الطويلة وأخيرًا وقفت وقالت: «لن تكون دفنة سيئة، لدينا واعظ ليودعه، وأهله كلهم هنا». وفجأة ترنحت قليلا فتقدمت منها «سيرى» لتسندها وقالت الأم فى خجل: «إنه النوم، لا، أنا بخير، لقد كنا مشغولين جدًا لكى نستعد للرحيل، فاهمة».

فقالت «سيرى»: «اخرجى فى الهواء».

«أيوه، لقد فرغت من هنا تماما». ونفخت «سيرى» الشمعة وأطفأتها وخرجتا كانت النار مشتعلة فى قاع حفرة صغيرة وقد صنع «توم» بالعصى والأسلاك مساند تدلى منها وعاءان يغليان بشدة، وقد تصاعدت الأبخرة بكثرة من تحت أغطيتها. وركعت «روزا شارن» على الأرض بعيدًا عن محيط الحرارة الحارقة، وفى يدها ملعقة طويلة. وشاهدت الأم تخرج من الخيمة، فوقفت وذهبت إليها.

قالت: «ماما، لا بد أن أسألك؟».

فسألتها الأم: «خائفة مرة أخرى، لماذا؟ لا تستطيعين أن تقضى التسعة أشهر دون حزن».

«ولكن هل يؤذى هذا الطفل».

فقالت الأم: «يقولون إن الطفل المولود فى الأسى يصبح طفلا سعيدًا، أليست المسألة كذلك يا مسز «ويلسون»؟».

فقالت «سيرى»: «سمعتها هكذا، وسمعت القول الآخر: ـ الطفل المولود بين أفراح كثيرة طفل حزين».

فقالت «روزا شارن»: «أحشائى كلها مضطربة».

فقالت الأم: «ليس فينا من يرقص طربًا.. كلنا نضطرب، لاحظى الأوعية جيدًا».

تجمع الرجال على حافة حلقة الضوء الذى ألقته النيران، كان لديهم من العدد جاروف وفأس. وخطط الأب الأرض ثمانى أقدام طولا وثلاثًا عرضًا وبدا العمل فى نوبات. الأب يعزق الأرض بالفأس والعم «جون» يرفعها بجاروف. «آل» يعزق و«توم» يرفع بالجاروف. «نوح» يعزق و«كونى» يرفع بالجاروف. وبدأت الحفرة تهبط فى باطن الأرض ولم

تبطئ سرعة العمل أبدًا. كانت نقلات الجاروف من التراب تطير فى الهواء فى دفعات سريعة، وعندما نزل «توم» حتى كتفيه فى الحفرة المستطيلة قال: «إلى أى عمق يا أبى؟».

«إلى عمق مناسب، لنحفر قدمين أخريين. اخرج الآن يا «توم» واكتب تلك الورقة».

جذب «توم» نفسه خارج الحفرة وحل «نوح» محله وذهب «توم» إلى الأم التى كانت تغذى النار فسألها: «أمى ! ألديك أى ورق وقلم؟».

فهزت الأم رأسها ببطء وقالت: «لا... هذا شىء لم نحضره معنا». ونظرت إلى «سيرى» فمشت السيدة الصغيرة بسرعة إلى الخيمة وعادت ومعها كتاب مقدس ونصف قلم وقالت: «هناك ورقة بيضاء فى أوله، استعملها واقطعها». وناولت الكتاب والقلم لـ «توم».

جلس «توم» فى ضوء النار وقطب عينيه مفكرًا، وأخيرًا كتب ببطء وعناية فى حروف كبيرة «هذا الذى هنا، وليم جيمس جود، مات من نوبة قلبية، رجل عجوز. عجوز، دفنته عائلته لأنهم لا يملكون نقودًا، لكى يدفعوا مصاريف جنازته، لم يقتله أحد، مجرد نوبة قلبية ومات». ثم توقف وقال: «أمى اسمعى هذا» ثم قرأه لها ببطء.

قالت: «لا بأس تبدو جيدة، ألا يمكنك أن تضع فيها آية من الكتاب المقدس حتى تصبح دينية، افتح الكتاب وانقل قولا منه».

فقال «توم»: «لا بد أن يكون قصيرًا، فليس لدى مكان كاف فى الورقة».

فقالت «سيرى»: «ما رأيكم فى - ليرحم الله روحه -؟»

فقال «توم»: «لا، تصلح أكثر لمن مات مشنوقًا. سأنقل شيئًا ما». وقلب

الصفحات وقرأ وهو يتمتم بشفتيه قائلا الكلمات فى سره ثم قال: «هذه آية قصيرة مناسبة ـ وقال لوط لهم أوه ليس هكذا يا سيد!».

قالت الأم: «ليس لها معنى، ما دمت ستكتب آية فلا بد أن يكون لها معنى».

قالت «سيرى»: «قلِّب إلى مزامير داود وهناك تستطيع أن تجد شيئًا على الدوام».

وُقلِّب «توم» الأوراق ونظر إلى الجمل وقال: «والآن هنا واحدة، هذه الآية جيدة، ممتلئة بالدين ـ مبارك من تموت أخطاؤه ومحيت خطاياه ـ ما رأيكم فيها؟».

قالت الأم: «هذه مناسبة فعلا، ضعها» وكتبها «توم» بعناية وغسلت الأم وجففت برطمان مربى وأحكم «توم» الغطاء عليها فيه وقال: «ربما كان من الأفضل أن يكتبها الواعظ».

فقالت الأم: «لا، الواعظ لا يريد هذه الأشياء». وأخذت منه البرطمان ودخلت إلى الخيمة المظلمة وحلت مشبك الغطاء ودست البرطمان تحت الأيدى الباردة ثم أعادت شبك اللحاف بإحكام وعادت مرة أخرى إلى النار.

جاء الرجال من عند القبر وقد لمعت وجوههم بالعرق وقال الأب: «حسنًا». ودخل هو و«جون» و«نوح» و«آل» إلى الخيمة وخرجوا يحملون الحزمة الطويلة المشبوكة فيما بينهم، حملوها إلى القبر وقفز الأب فى الحفرة وتسلم الربطة فى ذراعيه وأرقدها فى رفق على القاع ومد العم «جون» يده للأب وساعده على الخروج من الحفرة وسأل الأب: «ماذا عن الجدة؟».

فقالت الأم: «سأرى». ومشت إلى المرتبة ونظرت إلى المرأة العجوز لحظة ثم عادت إلى القبر وقالت: «نائمة، ربما عتبت على فيما بعد، ولكننى لن أوقظها فهى متعبة».

وقال الأب: «أين هذا الواعظ؟ لابد لنا من صلاة».

فقال «توم»: «رأيته يسير على الطريق، إنه لا يحب أن يصلى».

«لا يحب أن يصلى؟».

فقال «توم»: «لا، لم يعد واعظًا، وهو يرى أنه ليس من الصواب أن يخدع الناس ويزعم أنه واعظ بينما هو ليس واعظا، أراهن أنه مشى حتى لا يطلب منه أحد أن يصلى».

كان «كيزى» قد اقترب بهدوء وسمع «توم» يتكلم فقال: «لم أهرب، سأساعدكم يا جماعة، ولكنى لن أخدعكم».

فقال الأب: «ألا تقول بضع كلمات؟ لم يدفن أحد من أهلنا بدون بضع كلمات». فقال الواعظ: «سأقولها».

وقاد «كونى» «روزا شارن» إلى جانب القبر، ولكنها كانت متبرمة. فقال لها: «لابد أن تأتى.. ليس من الذوق ألا تأتى، لن تستمر الحكاية طويلا!».

ألقت النيران ضوؤها على الناس المتجمعين حول القبر كاشفة وجوههم وعيونهم وقد تضاءلوا فى ملابسهم الداكنة، كل القبعات مرفوعة الآن والأضواء تتراقص وتقفز على الواقفين.

قال «كيزى»: «ستكون صلاة قصيرة». ثم أحنى رأسه وتبعه الآخرون فيما فعل. وقال «كيزى» بخشوع: «هاهنا رجل عجوز عاش حياته ثم مات، ولا أعرف ما إذا كان قد كان شريرًا أو طيبًا، ولكن هذا لا يهم كثيرًا، لقد

كان حيًا، وهذا هو المهم، والآن قد مات. وليس هذا مهمًا، سمعت رجلا يقول شعرًا ذات مرة، يقول: «كل ما هو حى، مقدس». وفكرت فى هذه الكلمات، وسرعان ماتبينت أنها تعنى أكثر مما تحمل. ولم أعد أصلى من أجل رجل عجوز مات. فهو بخير. كان لديه عمل عليه أن يؤديه، ولكن كل شىء كان ممهدًا أمامه وقد أداه، أما نحن فلدينا عمل علينا أن نؤديه، وأمامنا آلاف الطرق ولا ندرى أيها نختار فإذا كان على أن أصلى فإنما لأجل أولئك الذين لا يعرفون فى أى طريق يسيرون. والجد هنا، وجد الطريق المستقيمة السهلة، والآن غطوه ودعوه يذهب إلى عمله».
ثم رفع رأسه.

قال الأب: «آمين» وتمتم الآخرون: آمين»، ثم تناول الأب الجاروف وعليه شىء من التراب ونثره برفق فى الفجوة السوداء. ثم ناول الجاروف إلى العم «جون» فأسقط هذا ملء الجاروف، ثم تنقل الجاروف من يد إلى يد حتى أخذ كل رجل دوره. وعندما أخذ كل رجل دوره وحقه؛ انقض الأب على كومة التراب المخلخلة وأخذ يملأ الفجوة بسرعة، ورجعت النساء إلى النار لكى تعد العشاء ووقفت «روثى» و«وينفلد» يتفرجان مستغرقين.

وقالت «روثى» فى تهيب: «الجد يرقد هناك تحت». ونظر إليها. «وينفلد» بعينين فزعتين ثم جرى إلى النار وجلس هناك على الأرض ينهنه باكيًا وحده.

ملأ الأب نصف الحفرة ثم وقف يلهث من فرط الجهد، بينما العم «جون» يكمل العمل. كان «جون» يكوم التراب فوق القبر فى رابية صغيرة عندما أوقفه «توم» وقال: «اسمع، إذا تركنا قبرًا فسيفتحونه فى أقرب وقت، لابد لنا أن نخبئه، ساوها بالأرض وسننثر عليها عشبًا جافًا، لابد أن نفعل ذلك».

قال الأب: «لم أفكر فى هذا، ليس من الصواب أن نترك قبرًا بدون رابية فوقه».

فقال «توم»: «ليس فى مقدورنا هذا، سيحفرونه فورًا، وربما سئلنا لأننا خرجنا على القانون، وأنت تعرف ماذا سيلحق بى بسبب خروجى على القانون».

فقال الأب: «أيوه، نسيت ذلك». وأخذ الجاروف من «جون» وسوى القبر وقال: «ستهبط فى الشتاء القادم».

قال «توم»: «ليس فى اليد حيلة، سنكون بعيدين جدًا عندما يحل الشتاء. دكَّها جيدًا وسننثر عليها العشب».

عندما نضج لحم الخنزير والبطاطس جلست العائلتان على الأرض وأكلتا، جلسوا فى هدوء تشخص أبصارهم فى النار. وتنهد «ويلسون» فى رضى وهو يقطع شريحة من اللحم بأسنانه وقال: «لحم خنزير لذيذ فى الأكل».

فقال الأب موضحًا: «حسنًا كان لدينا خنزيرتان، وفكرنا أنه ربما كان من الأفضل أن نأكلهما. لا يمكن أن نبيعهما بثمن مناسب. وعندما قررنا أن نرحل والأم تستطيع أن تخبز الخبز، فمن الجميل فعلا أن نسافر وفى اللورى برميلان من لحم الخنزير... منذ متى يا جماعة وأنتم على الطريق؟»

وخلص «ويلسون» أسنانه بلسانه وابتلع قبل أن يقول: «لم نكن محظوظين، تركنا المنزل منذ ثلاثة أسابيع».

«لماذا ! يا إلهى القدير ! نحن ننوى أن نكون فى كاليفورنيا فى عشرة أيام أو أقل».

وتدخل «آل»: «لا أعرف يا أبى، بكل هذه الحمولة التى نحملها، ربما لا نصل إلى هناك أبدًا، لا يمكن إذا كانت هناك جبال علينا عبورها».

كانوا صامتين بجوار النار، وجوههم مطأطئة، وكشفت أضواء النيران عن شعورهم وجبهاتهم. وفوق قبة ضوء النيران الصغيرة بدت نجوم الصيف لامعة شفافة. وقد بدأت تنحسر النار تدريجيًا. والجدة على مرتبتها بعيدًا عن النار تنشج برفق كالجرو. ودارت رؤوس الجميع تجاهها. قالت الأم: «روزاشارن، اذهبى كالفتاة الطيبة وارقدى بجوار الجدة، فهى فى حاجة إلى إنسان الآن بجوارها، لقد بدأت تدرك الآن».

ونهضت «روزا شارن» على قدميها ومشت إلى المرتبة ورقدت بجوار المرأة العجوز وانسابت غمغمات صوتهما الرقيق إلى النار. كانت «روزا شارن» والجدة تهمسان لبعضهما على المرتبة.

قال «نوح»: «أليس هذا غريبًا، إن فقدان الجد لم يجعلنى أشعر بشعور مختلف عن ذى قبل ـ لستِ أكثر حزنًا مما كنت».

فقال «كيزى»: «أنهما نفس الشىء، الجد والمكان القديم كانا شيئًا واحدًا».

وقال «آل»: «يا خسارة، لقد كان يتكلم عما ينوى أن يفعله، كيف سيعتصر العناقيد فوق رأسه ويترك عصيرها يجرى فى فوديه، كل هذا الذى كان يقوله».

فقال «كيزى»: «لقد كان يسخر طول الوقت. أعتقد أنه كان يعرف ولم يمت الجد الليلة، لقد مات لحظة أن أخرجتموه من البيت».

فصاح الأب: «أواثق أنت من ذلك؟».

فاستمر «كيزى»: «لماذا.. لا.. أوه.. لقد كان يتنفس، ولكنه كان ميتًا، لقد كان هو ذلك المكان، وقد أدرك هذا».

فقال العم «جون»: «هل كنت تعرف أنه يموت؟».

فقال «كيزى»: «نعم، كنت أعرف».

حملق فيه «جون» وقد كسا الفزع وجهه: «ولم تقل لأحد؟»

فسأل «كيزى»: «وما الفائدة؟».

«ربما كنا.. كنا فعلنا شيئًا».

«مثل ماذا؟».

«لا أعرف ولكن».

فقال «كيزى»: «لا، لم يكن فى إمكانك أن تفعل شيئًا. لقد تحدد طريقك ولم يكن للجد مكان فيه. لم يعان شيئًا، لم يعان بعد أول شىء هذا الصباح، فقد كان باقيًا فى الأرض، ولم يستطع أن يتركها».

وتنهد العم «جون» بعمق.

وقال «ويلسون»: «اضطررنا أن نترك أخى «ويلى». والتفتت الرؤوس إليه، كان لدينا أنا وهو كل واحد أربعون فدانًا بجوار بعضها وهو أكبر منى. ولم يكن أحدنا قد قاد سيارة من قبل.. حسنًا، ذهبنا وبعنا كل شىء واشترى «ويلى» سيارة، وأعطوه صبيًا ليريه كيف يستعملها. وفى عصر اليوم السابق على يوم الرحيل ذهب «ويلى» والعمة «مينى» للتدريب، ووصل إلى منحنى على الطريق فصاح كأنه يوقف الخيل: «هووه» ومال إلى الخلف فدخل فى سور وصاح «هووه يا ابن الزنى» وداس على البنزين فوق فى حفرة. وهو هناك الآن ليس لديه شىء آخر يمكن أن يبيعه. وليس لديه سيارة، ولكنها كانت غلطته شخصيًا، الحمد لله. وهو مجنون لدرجة أنه رفض أن يأتى معنا، وبقى هناك يسب ويعلن».

«وماذا ينوى أن يفعل؟».

«لا أعرف، فهو مجنون لا يمكنه التفكير فى شىء. ونحن لم يكن فى إمكاننا أن ننتظر فلم يكن معنا إلا خمسة وثمانون دولارا للذهاب، ولا يمكن أن نبقى ونصرفها. ولكننا صرفناها على أى حال، لم نكد نقطع مائة ميل حتى تكسرت سن ترس فى علبة التروس الخلفية، وقد تكلف إصلاحها ثلاثين دولارًا، ثم كان لابد أن نحصل على إطار ثم انشرخ أحد الصمامات، ثم مرضت «سيرى» فاضطررنا للتوقف عشرة أيام. والآن ها هى ذى السيارة اللعينة قد توقفت ثانية. النقود تتناقص ولا أعرف متى يمكن أن نصل إلى كاليفورنيا، لو أننى فقط أستطيع أن أجد سيارة ولكننى لا أعرف شيئًا عن السيارات».

فسأل «آل» باهتمام: «ماذا بها؟».

«حسنا، إنها لاتسير، تبدأ وتزمجر ثم تتوقف، وقد تبدأ السير بعد دقيقة واحدة ولكنها تقف قبل أن تنطلق».

«أتدور دقيقة ثم تتوقف؟».

«نعم يا سيدى.. وليس فى إمكانى أن أجعلها تستمر بغض النظر عن كمية البنزين التى أعطيها لها. وقد أخذت تزداد سوءًا والآن لم أعد أستطيع تحريكها على الإطلاق».

قال «آل» وقد ملأته الكبرياء والإحساس بالنضج: «أعتقد أن السبب هو انسداد «ماسورة» البنزين، سأنفخها وأسلكها لك».

وكان الأب فخورًا أيضًا وقال: «يده ماهرة فى السيارات».

«حسنًا، سأشكر لك مساعدتك بالتأكيد. عندما يعجز الإنسان عن إصلاح شىء فذلك يجعله كالطفل الصغير عاجزًا عن أى شىء. عندما

نذهب إلى كاليفورنيا أنوى أن أشترى لى سيارة جميلة، ربما لن يصيبها العطب».

فقال الأب: «عندما تصل إلى هناك... الوصول هناك هو المشكلة».

فقال «ويلسون»: «أوه، ولكنها تستحق التعب. لقد رأيت فى الإعلانات كيف أنهم محتاجون إلى ناس لجمع الفاكهة وبأجور طيبة، فكر فيما سيكون عليه الحال تحت تلك الأشجار الظليلة نلتقط الفاكهة ونقضم واحدة بين الحين والحين.. يا للجحيم! إنهم لا يهتمون بالكمية التى تأكلها، فلديهم الكثير وبمثل تلك الأجور الطيبة، فقد يستطيع الإنسان شراء قطعة أرض صغيرة لنفسه ويعمل فيها من أجل إيراد إضافى. لماذا، بحق الجحيم، أراهن أنه فى خلال عامين يمكن للإنسان أن يمتلك بيتًا خاصًا».

فقال الأب: «لقد رأينا هذه الإعلانات، ومعى واحد منها هنا». وأخرج حافظة نقوده ثم أخرج منها إعلانًا مطويًا برتقالى اللون يقول فى حروف سوداء «مطلوب جامعو بسلة فى كاليفورنيا. أجور طيبة كل الموسم، مطلوب ٨٠٠عامل»».

ونظر «ويلسون» إلى الإعلان بفضول وقال: «ولكن هذا الإعلان هو نفسه الذى رأيته، نفس الإعلان، أعتقد أنهم ربما قد حصلوا على الثمانمائة كلهم الآن».

فقال الأب: «هذه مجرد قطعة صغيرة واحدة من كاليفورنيا، أليست هى ثانى كبرى الولايات فى بلادنا، افرض أنهم فعلا حصلوا على كل الثمانمائة، هناك أماكن كثيرة أخرى، سنجمع الفاكهة على أى حال كما قلت أنت، تحت تلك الأشجار نجمع الفاكهة، حتى الأطفال يحبون أن يفعلوا هذا...». نهض «آل» فجأة وذهب إلى سيارة «ويلسون» ونظر فيها لحظة ثم عاد وجلس.

فقال: «ويلسون»: «لا يمكنك إصلاحها الليلة».

«أعرف، سأقوم لها فى الصباح».

كان «توم» يلاحظ أخاه الشاب بعناية وقال: «لقد فكرت فى ذلك أنا أيضًا».

فسأله «نوح»: «عم تتحدثان أنتما الاثنان؟».

وسكت «توم وآل»، كل ينتظر الآخر، وأخيرًا قال «آل»: «قل لهم».

«حسنًا ربما لم تكن فكرة جيدة، وربما لم تكن نفس فكرة «آل»، ها هى ذى الفكرة على أى حال. نحن لدينا حمولة فوق طاقتنا، ولكن مستر ومسز «ويلسون» ليسا كذلك. فلو أن بعضًا ركب معهم وأخذ بعض المتاع الخفيف فى اللورى، قد لا تتحطم السست وقد نستطيع تسلق التلال، وأنا و«آل» كلانا يعرف فى السيارات، وبهذا يمكننا أن نحتفظ بهذه السيارة تجرى، ويمكننا أن نتلازم على الطريق وسيكون ذلك مفيدًا للجميع».

وقفز «ويلسون» واقفًا: «لماذا، فعلا، لماذا، يشرفنا هذا، يشرفنا بالتأكيد، هل سمعت هذا يا «سيرى»؟».

فقالت «سير»: «هذا شىء جميل، أليس هذا عبئًا عليكم يا جماعة».

فقال الأب: «لا، يا إلهى، ليس عبئًا على الإطلاق، إنكم ستساعدوننا بهذا».
وعاد «ويلسون» يجرى غير مستقر «حسنًا، لا أعرف».

«ما الأمر؟ ألا تريد؟».

«حسنا، أنت ترى أن ليس معى إلا ثلاثون دولارًا، ولا أريد أن أكون عبئًا على أحد».

فقالت الأم: «لن تكون عبئًا، كل واحد يساعد الآخر، وسنصل جميعًا

إلى كاليفورنيا لقد ساعدت «سيرى ويلسون» فى كفن الجد». ثم توقفت فقد بدت العلاقة واضحة.

فصاح «آل»: «هذه السيارة ستأخذ ستة بكل سهولة، قل مثلا أنا للقيادة «روزا شارن» و«كونى» والجدة، ثم نأخذ المتاع الخفيف الضخم ونكومه فوق اللورى وسنمضى دون توقف فى الغالب...» كان يتكلم بصوت عال فقد انزاح من على أكتافه حمل من القلق.

وابتسموا فى خجل ونظروا إلى الأرض، وخط الأب على الأرض المتربة بأطراف أصابعه وقال: «الأم تريد منزلا أبيض وأشجار البرتقال تنمو حوله، رأت صورة كبيرة مثلها فى إحدى النتائج».

فقالت «سيرى»: «إذا مرضت ثانية عليكم أن تمضوا فى طريقكم وتصلوا إلى هناك، لن نكون عبئًا عليكم».

ونظرت الأم لـ «سيرى» بعناية، وبدا عليها أنها ترى لأول مرة عينيها تعبران عن الألم والعذاب ووجهها الذى امتلأ ألمًا، فذوى. وقالت الأم: «ستتعاون لكى تتحملى الطريق، لقد قلت أنت، إن المساعدة واجب على كل إنسان».

وتأملت «سيرى» يديها المجعدتين فى ضوء النهار وقالت: «لابد أن ننال بعض النوم الليلة» ثم وقفت...

وقالت الأم: «الجد.... كأنه مات منذ عام».

وتحركت العائلتان فى تكاسل إلى نومهما. تتثاءب كل فى استرخاء ـ وشطفت الأم الأطباق الصاج قليلا ثم مسحت الشحم عنها بكيس دقيق. وخبت النار وانحدرت النجوم. ولم يكن يمر على الطريق إلا قليل من سيارات الركوب، ولكن لوريات النقل كانت ترعد بين الحين والحين فتهز

الأرض هزًا خفيفًا. وفى المنخفض المجاور كانت السيارتان لا تكادان تريان فى ضوء النجوم. ونبح كلب مقيد فى محطة الخدمة على الطريق، والعائلتان هادئتان ونائمتان. وتشجعت فئران الغيط ومضت تتسلل بين المراتب، ولم يكن متيقظًا إلا «سيرى ويلسون» تحملق فى السماء وتشد جسدها بقوة تكتم آلامها.

الفصل الرابع عشر

أرض الغرب توترت أعصابها ببشائر التغيير. الولايات الغربية، عصبية كالجياد قبل العاصفة المرعدة، والملاك الكبار توترت أعصابهم وهم يحسون التغيير ولا يعرفون طبيعته. ويوجه الملاك الكبار ضرباتهم فيما هو أمامهم، نفوذ الحكومة الآخذ فى الاتساع... وحدة العمال النامية. يوجهون ضرباتهم إلى الضرائب الجديدة، والتخطيط، لا يعرفون أن هذه الأشياء نتائج وليست أسبابًا. الأسباب عتيقة وبسيطة، السبب جوع معدة مضاعف مليون مرة، الجوع الذى تعانيه روح وحيدة، جوع إلى المرح وشئ من الأمن مضاعف مليون مرة. رغبة العقل والعضل الملحة فى النمو، والعمل، والخلق، كل هذا مضاعف مليون مرة، الشىء الأخير المحدد الواضح فى وظيفة الإنسان، العضلات تتحرق رغبة فى العمل، والعقل يتحرق رغبة فى أن يخلق ما يزيد على حاجة الفرد، هذا هو الإنسان. من أجل أن يبنى جدارًا أو منزلا أو سدًا، وأن يضع شيئًا من ذاته فى الجدار والمنزل والسد. و... يعود إلى الإنسان بعض مما فى الجدار والمنزل والسد، لكى يخرج من حمل الأثقال بعضلات قوية، ليخرج من الوهم بخطوط وأشكال واضحة. لأن الإنسان على خلاف كل الكائنات الأخرى العضوية أو غير العضوية فى الكون، ينمو متفوقًا

على عمله ويصعد على سلم من مفاهيمه، وينطلق سابقًا إنجازاته ـ هذا ما يمكن أن نقوله عن الإنسان ـ عندما تتغير النظريات وتنهار، عندما تنمو المدارس والفلسفات، ومسارب الفكر المظلمة الضيقة، القومية والدينية والاقتصادية، تنمو وتضمحل، يصل الإنسان. ويتعثر متقدمًا إلى الأمام بالألم والخطأ، فى بعض الأحيان. وإذ يخطو الإنسان إلى الأمام فربما ينزلق إلى الخلف، ولكن نصف خطوة فحسب، ولكنه لا يرجع الخطوة كلها أبدا. هذا ما يمكن أن تقوله وتعرفه، وتدركه. هذا ما يمكن أن تدركه عندما تمطر الطائرات السوداء قنابلها على أرض السوق. عندما يحشر المسجونون كالخنازير، وعندما يمتص التراب عصارة الأجساد المهشمة. ربما تدرك تلك الحقيقة على هذا النحو، فإذا لم يخطُ الإنسان خطوته، إذ لم تكن الرغبة فى التغير إلى الأمام حية فى داخله، فلن تسقط القنابل ولن تقطع الرقاب. فلتخش الوقت الذى تتوقف فيه الإضرابات، بينما الملاك الكبار يعيشون، لأن فى كل إضراب فاشل صغير دليلا على أن الخطوة قد اتخذت. ويمكنك أن تعرف هذا أيضًا ـ فلتخش الوقت الذى لاتعانى فيه النفس الإنسانية، وتموت من أجل الفكرة، لأن هذه الصفة هى وحدها الإنسان، هذه الصفة هى وحدها الإنسان متميزًا عن كل ما فى الكون.

الولايات الغربية تتوتر أعصابها ببشائر التغيير. تكساس وأوكلاهوما وكانساس وأركانساس، نيومكسيكو، وأريزونا، وكاليفورنيا. أسرة واحدة تهجر الأرض، لقد اقترض الأب نقودًا من البنك والآن يريد البنك الأرض. شركة الأراضى ـ التى هى البنك حين يملك أرضًا ـ تريد جرارات. لا تريد عائلات فوق الأرض. هل الجرار سيئ؟ هل القوة التى تقلب الخطوط الطويلة خطأ؟ لو أن هذا الجرار ملكنا لأصبح شيئًا حسنا ـ ليس ملكى، بل ملكنا. لو أن جرارنا قلب الخطوط الطويلة فى أرضنا لكان هذا شيئًا حسنا ـ ليست أرضى بل أرضنا. ربما أمكننا أن نحب هذا الجرار عندئذ

كما أحببنا هذه الأرض عندما كانت لنا، ولكن هذا الجرار يصنع شيئين، إنه يقلب الأرض ويقلبنا نحن خارج الأرض، هناك فارق صغير بين هذا الجرار والدبابة، فالناس تساق وترهب وتؤذى من الاثنين معًا. لابد أن نفكر فى هذا.

رجل واحد، عائلة واحدة تطرد من الأرض، تعنى هذه السيارة الصدئة التى تقرقع على الطريق العام إلى الغرب، لقد فقدت أرضى، جرار بمفرده أخذ أرضى، أنا وحيد، أنا محتار. وفى الليل تعسكر عائلة ما فى المنخفض المجاور للطريق، وتتوقف عائلة أخرى بجوارها ثم تقام الخيام، ويتربع الرجال جالسين والنساء والأطفال ينصتون. هنا عقدة الموقف يا من تخاف التغيير وتكره الثورة. ابعد هذين الرجلين المتربعين عن بعضهما، هنا أساس الشىء الذى تخشاه. هذا بدء الجنين، فهنا تتغير كلمة فقدت أرضى، تنقسم لأن رجلين ليسا كالرجل الواحد فى وحدته وارتباكه. ومن هذه «النحن» الأولى ينمو شىء آخر أكثر خطورة، لدى طعام قليل.. لدى طعام قليل فإذا كانت حصيلة الجمع هنا، لدينا طعام قليل، فقد اتخذ الشىء طريقه، وتحدد للحركة اتجاهها. وليس إلا قليل من التكاثر الآن وتصبح هذه الأرض وهذا الجرار لنا.

الرجلان يتربعان فى المنخفض بجوار الطريق والنار الصغيرة، واللحم ينضج فى إناء واحد والنساء الصامتات ونظراتهن المتحجرة، وخلفهن الأطفال ينصتون بأرواحهم إلى كلمات لا تفقهها عقولهم. ويهبط الليل، الطفل مريض بنزلة برد، هنا خذى هذه البطانية، إنها من الصوف، كانت بطانية أمى.. خذيها للطفل. هذا هو الشىء الذى ينفجر، إنها... البداية التغير من «أنا»... إلى «نحن».

إذا استطعت يا من تملك الأشياء التى يجب أن تكون للناس أن تفهم هذا، فقد تستطيع إذا حاولت أن تحافظ على نفسك إذ استطعت أن تفصل الأسباب عن النتائج، إذا استطعت أن تعرف أن «پين»، و«ماركس»، و«جيفرسون»، و«لينين» كانوا نتائج وليسوا أسبابًا، فمن الممكن أن تتخطى عوامل إلى الأبد فى، «أنا»، وقد عزلتك إلى الأبد عن «نحن».

الولايات الغربية تتوتر أعصابها ببشائر التغيير، الحاجة هى أم المفاهيم، والمفاهيم تؤدى إلى الحركة. نصف مليون نسمة تتحرك فى البلاد، ومليون آخرون يتأهبون للحركة، وعشرة ملايين أخرى تحس ببشائر التوتر.

والجرارات تقلب الخطوط المتعددة فى الأرض الخالية.

الفصل الخامس عشر

بوفيهات «الهامبورجر» ـ الكفتة الأمريكية ـ على طول الطريق ٦٦ ـ محلات «آل وسوزى» ـ عشاء كارل ـ جوومينى ـ مأكولات ويلز ـ عشش من الخشب والدقشوم أمامها مضختا بنزين وباب من السلك وبار طويل وكراسى بدون مساند وحاجز يسند عليه الجالسون أقدامهم. وبالقرب من الباب ثلاث ماكينات حظ أتوماتيكية يظهر فيها من خلال واجهاتها الزجاجية ثروة من النقود المعدنية. وبجوارها الفونوغراف الذى يعمل بقطعة نقد معدنية والأسطوانات مكومة فوق بعضها كالفطير جاهزة لكى تخرج إلى القرص الدوار وتعزف موسيقى راقصة.: «تى ـ بى ـ تى ـ بى ـ تن» الذكريات الحلوة لبنج كروسبى وبنى جودمان. وعلى أحد أطراف البنك صندوق مغطى به بستيليا مسكرة للكحة. سلفات الكافين ماركة سليبلس، ونو دوز، حلوى، سجاير، أمواس حلاقة، أقراص أسبرين، البروموسيلزر والكاسيلرز. والجدران مزينة باللوحات، فتيات بملابس السباحة، شقراوات بنهود كبيرة وأرداف مدملكة، ووجوه شمعية فى ثياب استحمام بيضاء ويمسكن بزجاجة كوكا كولا ويبتسمن، أترى ماذا تحصل عليه مع زجاجة الكوكا كولا. بار طويل، مملحات، مفلفلات، برطمانات مسطردة، فوط ورقية، براميل كبيرة خلف البنك وخلفها غلايات

القهوة تلمع، يتصاعد منها البخار بعدادات زجاجية تظهر كمية القهوة داخلها، وفطائر فى أقفاص سلك وبرتقال فى أهرامات من أربع برتقالات وأكوام صغيرة من البقصمات المقمر ورقائق الجلاش مصفوفة فى أشكال هندسية.

والإعلانات على اللافتات حفرت بالميكا اللامعة... فطائر كما اعتادت الأم أن تصنعها ـ الشكك يجلب العداوة فلنكن أصدقاء ـ التدخين مسموح للسيدات ولكن احذرى، أين تضعين العقب ـ كل هنا ودع زوجتك تستريح ـ وهناك فى أحد الأطراف أطباق المطبخ، وأوعية السليق، بطاطس، كباب حلة، لحم مشوى، لحم خنزير رمادى مشوى فى انتظار تقطيعه إلى شرائح.

مينى أوسوزى أو ماى، نساء فى خريف العمر يقفن خلف البنك، شعورهن مصففة والروج والبودرة على وجوه تنضح بالعرق. يتلقين الطلبات فى صوت عذب خفيض ثم ينادين بها للطباخ فى صوت صارخ كصوت الطاووس الصياح، يمسحن البنك فى حركات دائرية، ويلمعن غلايات القهوة الكبيرة اللامعة. والطباخ، جو أو كارل أو آل فى معطف أو مريلة بيضاء، فى حرارة العمل تتصبب حبات العرق على جبهته تحت قلنسوة الطباخ البيضاء، مهموم، نادرًا ما يتكلم، يرفع بصره مع كل قادم جديد، يمسح صاج الشواء، ويغلق وعاء الكفتة أو السجق. يكرر طلبات «ماى» بصوت خافت، ويقشط صاج الشواء ويمسحه بقطعة من الخيش. مهموم وصامت.

وماى هى الصلة، تبتسم متوترة على وشك الانهيار، تبتسم بينما عيناها تسرحان، إلا حين ترى سائقى سيارات النقل، فهؤلاء عصب البوفيه، عندما تقف سيارات النقل تأتى الزبائن، لا يمكن أن تخدع سائقى سيارات النقل

فهم يعرفون، وهم مصدر الإيراد. هم يعرفون. قدم لهم كوب قهوة غير طازج وعندئذ سوف يهجرون هذا البوفيه، عاملهم جيدًا وسوف يعودون. «ماى» تبتسم حقيقة بكل جوارحها فى وجه سائقى سيارات النقل، عندما تراهم تشمخ قليلاً وتبدأ فى إصلاح شعرها خلف ظهرها حتى تبرز نهودها مع ذراعيها المرفوعتين فتلك الحركات تقطع وقت النهار وتكشف عن أمور كثيرة، مفارقات طلية، ونكات رائعة. «آل» لا يتكلم أبدًا فهو ليس ودودًا، فى بعض الأحيان يبتسم قليلاً على نكتة ولكنه لا يضحك أبدًا. فى بعض الأحيان رفع بصره إلى الحيوية الدافقة فى صوت «ماى» وساعتها يقشط صاج الشواء بسكين، يقشط الشحم ويضعه فى حوض حديدى حول الطبق. يضغط على قطعة من الكفتة بسكينة، فيعلو نشيشها. يكوم قطع الفطائر على الطبق لكى تتحمر وتسخن، يجمع عروق البصل من الطبق ويكومها فوق اللحم ويضغط عليها بسكينه ثم يضع نصف الفطائر فوق اللحم ويدهن النصف الآخر بزبدة ذائبة مع طبقة رقيقة من المخللات. ثم يدفع بسكينة تحت طبقة اللحم الرقيقة ممسكًا بالفطائر فوقها ويرفعها ثم يضع النصف المدهون بالزبدة فوقها، ويضع قطع اللحم فى طبق صغير، ثم يضع بعض الشبك المخلل وحبتين من الزيتون الأسود بجوار السندويتش. يزحلق «آل» الطبق عبر البنك كالكرة، ثم يقشط صاج الشواء بسكينة وينظر مهمومًا إلى وعاء اللحم.

السيارات تمضى مسرعة على طريق ٦٦، وعلى لوحات النمر ـ ماس ـ تين ـ ر. أى. ن. ى. ـ ف. ت ـ أوهيو، كلها تذهب غربًا، عربات فخمة تسير بسرعة ٦٥ ميلاً.

ها هى ذى واحدة من طراز «كورد» تمضى، ككفن فوق عجلات، ولكن بحق يسوع كيف يسافرون!

أترى السيارة «اللاسال» هذه؟ تعجبنى، أنا لست خنزيرة. أنا أريد السيارة «اللاسال».. إذا كنت ستذهبين بعيدًا فما رأيك فى «كاديلاك»؟ أكبر قليلاً وأسرع قليلاً. قد أفضل سيارة «زيفير». لا تساوى ثروة. ولكن ستحصل على مستوى وسرعة، أعطنى سيارة «زيفير».

حسنًا يا سيدى، قد تضحك على هذا، سآخذك «بويك»، «بويك» فهى جيدة فعلاً.

ولكن يا للجحيم إن ثمنها مثل «الزفير» ولكنها لا توفر البنزين.

لا يهمنى أنا لا أريد شيئًا من عند هنرى فورد، لم أحبه ولن أحبه أبدًا، عندى أخ اشتغل عنده فى مصانعه، لابد أن تسمعه وهو يحكى لك عنه.

حسنًا الزفير توفر البنزين.

السيارات الفخمة على الطريق العام. سيدات مترهلات أرهقهن الحر، إنهن نويات صغيرة تدور حولها آلاف المهمات: دهانات، مراهم ليرطبن جلد وجوههن، مواد تلوين فى قوارير سوداء، وردية، حمراء، بيضاء، خضراء، فضية ـ لكى يغيرن لون الشعر والعيون والشفاه، والأظافر والحواجب والرموش والجفون، زيوت وحبوب وبلابيع ضد الإمساك. حقيبة من الزجاجات والحقن، الحبوب والأقراص والمساحيق والمحاليل والمعاجين، لكى تجعل الجماع معهن مأمونًا، بلا رائحة، ولا حَمْل، كل هذا بالإضافة إلى الملابس. بحق الجحيم ما كل هذه اللخبطة!

خطوط القلق حول العيون، خطوط الضيق حول الفم، النهدان ثقيلان متهدلان فى مشدات صغيرة. والبطن والفخذان تعانى فى مشدات مطاطية. الأفواه تلهث، والعيون مكتئبة، تضيق بالشمس والريح والأرض، وترفض الطعام، والضجر، تكره الزمن الذى ـ نادرًا ـ ما يجعلهن جميلات، ودائمًا ما يجعلهن عجائز.

بجوارهن، رجال ذوو كروش كالقدر، فى بذلات فاتحة وقبعات عريضة، رجال نظيفون، لونهم وردى وعيونهم قلقة محتارة لا تستقر على شيء؛ قلقة لأن الوصفات لم تثمر، جوعى للأمان ومع ذلك فهم يحسون بزواله من على الأرض. فى عروات معاطفهم شارات المحافل ونوادى الخدمة والأماكن التى يمكن أن يذهبوا إليها، حيث يمكن للرجال القلقين أن يؤكدوا لأنفسهم عندما يتجمعون، أن العمل شيء نبيل وليس هو السرقة الغريبة المنظمة التى يعرفونها. إن رجال الأعمال أذكياء بغض النظر عن التقارير التى تسجل غباءهم، إنهم عطوفون محسنون بغض النظر عن قواعد التجارة الناجحة. إن حياتهم غنية بدلاً من الحياة الروتينية الفارغة المتعبة التى يعرفونها وأنه سيأتى الوقت الذى لا يخافون بعده.

والاثنان ذاهبان إلى كاليفورنيا حيث سيجلسان فى ردهة فندق بيفرلى وبلشاير ويراقبان الناس ويحسدانهم وهم يذهبون للفرجة على الجبال ـ جبال، خذ بالك، وأشجار كبيرة.. هو بعينيه القلقتين وهى تفكر كيف يمكن أن تجفف الشمس جلدها. سيذهب ليتفرج على المحيط الباسيفيكى، وأراهن بمائة ألف دولار مقابل لا شيء أنه سيقول: «ليس كبيرًا كما كنت أتصور». وهى ستحسد الأجساد الشابة الممتلئة على الشاطئ.

الحق أنهما لم يذهبا إلى كاليفورنيا إلا لكى يعودا إلى بيتهما ثانية. لكى تقول: «فلان وعلانة كانوا على المائدة بجوارنا فى تروكاديرو، إنه فعلاً لخبطة، ولكنها ترتدى ملابس جيدة بلا شك». ويقول هو: «لقد تكلمت مع رجال أعمال كبار ناجحين هناك. وهم لا يرون أن هناك أى فرصة أمامنا إلا إذا تخلصنا من صاحبنا فى البيت الأبيض ـ لقد عرفت هذا من أحد العارفين... إنها مصابة بالزهرى، أتعرف؟ لقد كانت فى شركة وارنر للسينما، قال الرجل إن السرير كان طريقها إلى السينما. حسنًا لقد حققت

ما كانت تصبو إليه». ولكن العيون القلقة لا تهدأ أبدًا، والفم العابس لا ينفرج عن السعادة أبدًا. والسيارة الكبيرة تندفع بسرعة ٦٠ ميلاً.

أريد شرابًا مثلجًا.

حسنًا، هناك مكان أمامنا. أتريد أن نتوقف.

هل تظن أنه سيكون مكانًا نظيفًا؟

نظيف، بالقدر الذى يمكن أن تجده فى بلاد الله الطيبة هذه.

حسنًا لا بأس، لو أخذنا زجاجة صودا.

وتصرخ السيارة الكبيرة، ثم تتوقف ويساعد الرجل البدين القلق زوجته على الخروج منها.

وتنظر إليهم «ماى» نظرة سريعة عندما يدخلان. ويرفع «آل» بصره من فوق صاج الشواء ويعيده ثانية. «ماى» تعرف، سيشربون صودا من ذات الخمسة سنتات، وسيشكون من أنها ليست مثلجة جيدًا. وستستخدم السيدة ست «فوط» ورقية وتلقيها على الأرض، وسيشرق الرجل ويحاول أن يلقى اللوم على «ماى»، وتتشمم المرأة بأنفها مشمئزة كما لو كانت هناك رائحة لحم متعفن. وسيخرجان ثانية وسيقولان لكل من يقابلاه بعد ذلك إن الناس فى الغرب متجهمون. وعندما تنفرد «ماى» بـ «آل» فإنها تسميهم باسم خاص، إنها تسميهم «كعوب المرحاض».

سائقو اللوريات، هؤلاء هم الزبائن.

ها هى ذى سيارة نقل كبيرة آتية. أرجو أن يتوقفوا لكى يزيلوا طعم «كعوب المرحاض» هؤلاء. عندما كنت أعمل فى ذلك الفندق فى البوكيرك يا «آل» يا للطريقة التى يسرقون بها. حتى الأشياء التافهة، وكلما كبرت سياراتهم زادت سرقاتهم. مفارش، فضيات، صبانات، لا يمكن أن أفهم هذا.

ويقول «آل» فى عبوس: «من أين تظنينهم قد حصلوا على هذه العربات والثروة إذًا؟ ولدوا بها؟ إنك لن تحصلى على شىء أبدًا».

سيارة النقل الكبيرة، سائق واحتياطيه، على وشك الوقوف من أجل كوب من القهوة، أنا أعرف صندوق الزبالة هذا.

هل مواعيدنا مضبوطة؟

أوه بل نحن مبكرون:

توقف إذن. فهناك حصان حرب عجوز مرح، وقهوة جيدة أيضًا.

وتتوقف سيارة النقل. رجلان يرتديان بنطلونات ركوب كاكيه، أحذية ذات رقبة، معاطف قصيرة، قلانس عسكرية ذات حواف لامعة.

الباب السلك... يصطفق.

هاى ماى

حسنًا، أليس هذا «بج بيل» الفار. متى بدأت فى هذه المرحلة؟

من أسبوع مضى.

ويضع الرجل الآخر عملة معدنية فى الفونوغراف ويراقب الأسطوانة وهى تنفصل عن الرصة، والقرص الدوار يرتفع تحتها. صوت بنج كروسبى ـ الذهبى: «شكرًا على الذكريات الحلوة ولفحة الشمس على الشاطئ، قد تكونين صداعًا ولكنك لست مملة». ويغنى سائق السيارة فى أذنى «ماى»: «قد تكونين سمكة ـ ولكنك لست عاهرة».

وتضحك «ماى»، من هو صديقك هذا يا بيل؟ أهو جديد فى هذه الرحلة؟ أليس كذلك؟

ويضع الرجل الآخر قطعة من ذات الخمسة سنتات فى آلة الحظ

الأتوماتيكية فلا يأخذ إلا أربع ماركات. فيعيدها مرة أخرى ثم يسير إلى البنك.

حسنًا، ماذا ستطلب؟ أوه كوبًا من القهوة، أى نوع من الفطائر عندك؟

كريمة بالموز، كريمة بالأناناس، كريمة بالشيكولاتة، والتفاح. فليكن تفاحًا، انتظرى، ما نوع هذه الفطيرة السميكة؟

وتخرجها «ماى» وتشمها، كريمة بالموز.

اقطعى قطعة ولتكن قطعة كبيرة، ويقول الرجل عند آلة الحظ اجعليها قطعتين، ما هى آخر نكتة يا «بيل»؟

حسنًا، إليك واحدة.

والآن فلتكن حذرًا أمام السيدات.

أوه، إنها ليست سيئة، جاء الطفل الصغير متأخرًا إلى المدرسة فقال المدرس: «لماذا تأخرت؟». فأجاب الصبى: «كان على أن آخذ العِجْلة وأجعلها تعشر». فقال المدرس: «ألم يكن أبوك العجوز يستطيع أن يفعل ذلك؟» فقال الصبى: «طبعًا يستطيع، ولكن ليس كما يستطيع الثور!!» وتجلجل ضحات «ماى» ضحكة مبحوحة مدوية، ويرفع «آل» الذى يخرط البصل على لوحة من الخشب، يرفع بصره ويبتسم، ثم يخفض بصره ثانية. سائقو سيارات النقل، هذه هى الزبائن. سيترك كل منهما ربع دولار «لماى». خمسة عشر سنتًا للفطيرة والقهوة وعشرة «لماى»، وهما مع ذلك لا يحاولان أن يفعلا معها أى شىء.

يجلسان معًا على الكراسى، والملاعق تبرز من أقداح القهوة، يقطعان ساعات النهار و«آل» يمسح صاجه وينظفه دون تعليق، ويتوقف صوت

«بنج كروسبى» ويهبط القرص الدوار وتعود الأسطوانة إلى مكانها من الرصة ويختفى الضوء الأرجوانى وتسقط قطعة النقود التى دفعت بكل هذا التركيب إلى العمل، وجعلت «كروسبى» يغنى والأوركسترا يعزف، تسقط هذه القطعة المعدنية بين حافتين متلامستين إلى الصندوق الذى تتجمع فيه الأرباح. ولكن هذه القطعة المعدنية ـ على عكس أغلب النقود ـ قد قامت بعمل فعلى وكانت مسئولة عضويًا عما سببته من رد فعل.

وتندفع نفاثات البخار من صمام إناء القهوة. ويقعقع موتور الثلاجة بصوت خافت فترة، ثم يتوقف والمروحة الكهربائية فى الركن تتحرك ببطء إلى الأمام والخلف فتمسح الغرفة بنسمة دافئة. وعلى الطريق العام، على طريق ٦٦، السيارات تئز مسرعة.

تقول «ماى»: «وقفت هنا سيارة من ماساشوستس منذ فترة».

«بيج بيل» يمسك بقدح من فوهته بحيث تبرز الملعقة بين أصبعيه الأول والثانى ـ يأخذ نفسًا من الهواء مع كل شفطة ليبرده. «لابد أن تخرجى إلى ٦٦. سيارات من كل أنحاء البلاد، وكلها تتجه غربًا. لم أر سيارات بمثل هذا العدد من قبل، بالتأكيد هناك بعض السيارات الفاخرة على الطريق».

ويقول رفيقه: «لقد رأينا واحدة محطمة هذا الصباح، سيارة كبيرة، «كاديلاك» كبيرة، شغل مخصوص وحلوة، منخفضة، لونها أصفر، شىء خصوصى. ضربت فى سيارة نقل فتطبق الرادياتير حتى وصل إلى مكان السائق. لابد أنها كانت تسير على سرعة ٩٠ ميلاً، لقد دخلت عجلة القيادة فورًا فى جسم الرجل وتركته كالضفدعة فى خطاف، سيارة كالخوخة حلوة كالشهد، يمكن أن تحصل عليها مقابل حفنة من الفول السودانى الآن. كان الرجل يسوق السيارة وحيدًا.

ويرفع «آل» بصره من عمله ويسأل: «هل أصاب سيارة النقل سوء؟».

«أوه يا يسوع المسيح! لم تكن سيارة نقل إنها واحدة من تلك السيارات التى شقت، وملئت بالأفران والقصارى والمراتب والصبية والدجاج، ذاهبون غربًا كما تعرف. هذا الرجل جاء بجانبنا وكان يسير بسرعة ٩٠ ميلاً، وقد حمل على عجلتين فقط لكى يمر منا، وكانت هناك سيارة قادمة فاعترضها واصطدم بسيارة النقل هذه. وكان يسوق وكأنه أعمى من السكر. يا يسوع! لقد امتلأ الجو بقطع الفراش والدجاج والأطفال. قتل طفل، لم أشهد من قبل مثل هذا الخليط. لقد توقفنا. كان الرجل العجوز الذى يقود سيارة النقل واقفًا هناك ينظر إلى الطفل الميت، كان الرجل عاجزًا عن النطق، فقد أذهلته الصدمة. يا إلهى القدير إن الطريق ملىء بهذه العائلات الذاهبة إلى الغرب لم أر مثل هذه الكثرة، إن الأمور تسوء باستمرار وإنى لأعجب من أين يأتى هؤلاء بحق الجحيم؟».

وتقول «ماى»: «العجيبة، إلى أين يذهبون؟ إنهم يأتون هنا فى طلب الوقود فى بعض الأحيان. ولكنهم لا يشترون شيئًا غيره تقريبًا. الناس تقول إنهم يسرقون، ليس لدينا أى شىء حوالينا، ولم يحدث أن سرقوا شيئًا منا».

ويقول «بيج بيل» وهو يقضم فطيرته وينظر من النافذة ذات الستائر إلى الطريق، «يستحسن أن تحزمى مريلتك وتنزليها، أعتقد أن بعضهم آت الآن».

وتتوقف سيارة «ناش» ١٩٢٦ ذات باب واحد: «سيدان» منهكة على الطريق، تكومت فوق المقعد الخلفى حتى السقف، جوالات، أوان، طاسات، وفوق قمة كل هذا لصق السقف يجلس صبيان، وفوق سقف

العربة مرتبة وخيمة مطوية وقد ربطت أعمدة الخيمة على طول الرفارف. وتتوقف السيارة بجوار مضخات البترول، وينزل منها ببطء رجل ذو شعر أسود. نحيف الوجه حاد التقاطيع وينزلق الصبيان من فوق الحمولة فيرتطمان بالأرض. تمشى «ماى» حول «البنك» وتقف بالباب. الرجل يرتدى بنطلونًا صوفيًا رماديّ اللون وقميصًا أزرق، اسود لونه من العرق فوق الظهر وتحت الإبطين. أما الصبيان فكانا يرتديان عفاريت. ولا شىء آخر. العفاريت مهلهلة، مرقعة، شعرهما فاتح اللون موزعًا على رأسيهما وقد جزَّ جزًا، وجهاهما ملطخان بالتراب. ذهبا مباشرة إلى بركة الوحل تحت خرطوم المياه ودسَّا أصابع أقدامهما فى الطين.

ويسأل الرجل: «أيمكن أن نحصل على بعض الماء يا سيدتى؟».

وتعبر نظرة ضيق وجه «ماى»: «طبعًا، تفضل». ثم تقول من وراء كتفها بصوت خافت: «سألاحظ الخرطوم». وتراقب الرجل وهو يفك ببطء غطاء الرادياتير ويضع الخرطوم فيه.

ومن السيارة تقول امرأة ذات شعر كتانى: «اسأل ما إذا كنت تستطيع أن تحصل عليه من هنا».

ويعيد الرجل الخرطوم ويغلق الغطاء مرة أخرى ويأخذ الطفلان الصغيران الخرطوم ويرفعان طرفه إلى أعلى ويشربان بنهم. ويخلع الرجل قبعته السوداء القذرة ويقف فى خضوع غريب أمام الستارة: «هل يمكن أن تتصرفى وتبيعى لنا رغيفًا يا سيدتى».

وتقول «ماى»: «ليس هذا مخزن بقالة، لدينا خبز للسندويتشات فقط».

فيقول ممعنًا فى تذلله: «أنا أعرف يا سيدتى، نحن فى حاجة إلى خبز ولن نجده قبل مسافة طويلة كما قالوا لنا».

فتقول «ماى» متلعثمة: «لو بعنا الخبز فسنفلس».

ويقول الرجل: «نحن جوعى».

«لماذا لا تشترى سندويتشًا؟ لدينا سندويتشات جيدة، لحم»

«طبعًا، كان يسرنا أن نفعل يا سيدتى ولكننا لا نستطيع، لابد أن تكفينا كلنا عشرة سنتات». ثم يقول فى ارتباك: «ليس لدينا إلا القليل».

فتقول «ماى»: «لا يمكنك الحصول على رغيف من الخبز مقابل عشرة سنتات، لا يوجد لدينا إلا أرغفة الواحد بخمسة عشر سنتًا».

ويزوم «آل» من ورائها ويقول: «يا رب يا قادر!.... «ماى» اعطهم خبزًا».

«سيفرغ الخبز قبل أن تصل سيارة الخبز».

فيقول «آل»: «فليفرغ، فليفرغ إذًا عليه اللعنة».. ثم ينظر باكتئاب إلى سلطة البطاطس التى كان يخلطها.

وتهز «ماى» كتفيها السمينتين وتنظر إلى سائقى سيارة النقل لكى تريهما ما هى فيه.

وينفتح الباب السلك ويدخل الرجل جالبًا معه رائحة العرق. ويدلف خلفه الصبيان ويتجهان على الفور إلى ڤاترينة الحلوى يحملقان فيها لا فى اشتهاء أو أمل أو حتى رغبة، ولكن مجرد تعجب من وجود أشياء كهذه. كانا متشابهين فى الحجم، وجهاهما متشابهان أيضًا. ويحك أحدهم رسغ قدمه المترب بأظافر أصابع قدمه الأخرى ويهمس الآخر بكلمات خافتة ثم يفرد كلاهما ذراعيه حتى تبدو قبضتاهما فى جيوب العفاريت من خلال القماش الأزرق الخفيف.

وتفتح «ماى» الدولاب وتخرج منه رغيفًا كبيرًا ملفوفًا فى ورق الزبدة «هذا رغيف بخمسة عشر سنتًا».

ويعيد الرجل قبعته إلى رأسه ويقول فى مهانة: «لو أمكنك،.... ألا يمكن أن... تتصرفى... وتعطى لنا جزءًا يساوى عشرة سنتات؟»

فيقول «آل» مزمجرًا: «اللعنة يا «ماى» اعطهم الرغيف».

يستدير الرجل تجاه «آل»: «لا.. نحن نريد أن نشترى ما قيمته عشرة سنتات فقط. لقد دبرنا كل شىء بالتمام يا سيدى، لكى نصل إلى كاليفورنيا»

وتقول «مـاى» مستسلمة: «تستطيع أن تأخذ هذا مقابل عشرة سنتات».

«سأسرقك بهذا يا سيدتى».

«خذه، «آل» قال ذلك..» ثم تدفع الرغيف الملفوف فى ورق شفاف عبر البنك ويخرج الرجل جرابًا جلديًا كبيرًا من جيبه الخلفى ويفك أربطته ويفرده. وهو مثقل بالعملة الفضية والكمبيالات المزيفة ويقول معتذرًا: «قد يبدو غريبًا أن نتشدد هكذا، أمامنا ألف ميل. لابد أن نسافرها ولا نعرف إذا كنا نستطيع ذلك».

ويدفع بسبابته فى الجراب ويتحسس قطعة من ذات العشرة سنتات ثم يدس يده ليأتى بها. وعندما يضعها على البنك يسقط معها بنس آخر. وقبل أن يعيد البنس ثانية إلى جرابه تقع أبصاره على الصبيين وقد تجمدا أمام ڤاترينة الحلوى فيتحرك ببطء نحوهما ويشير داخل الڤاترينة إلى عيدان طويلة كبيرة من النعناع المخطط ويقول: «أهذه حلوى من ذات البنس يا سيدتى؟» وتنتقل إليه «ماى» وتنظر متسائلة: «أى واحدة؟».

«هنا، المخططة».

ويرفع الصبيان الصغيران أبصارهما إلى وجهها. وتحتبس أنفاسهما وتفغر أفواههما. ويتصلب جسداهما.

«أوه، هذه، حسنًا... لا.. هذه... إن الاثنين ببنس».

«حسنًا اعطنى اثنين إذًا يا سيدتى». ويضع السنت النحاسى على البنك بعناية ويخرج الصبيان أنفاسهما المحتبسة فى رفق وتقدم لهما ماى العودين الكبيرين.

ويقول الرجل: «خذا»

ويمدان أيديهما فى خجل، ويأخذ كل منهما واحدة ويضعها إلى جنبه دون أن ينظر إليها، ولكنهما ينظران إلى بعضهما البعض وتتسم زوايا فميهما بانفعال وارتباك.

«شكرًا يا سيدتى». ويلتقط الرجل الرغيف ويخرج من الباب ويسير الصبيان خلفه وقد شدا جسديهما وأمسكا بالعيدان المخططة الحمراء لصق سيقانهما. ويقفزان كالسنجاب على المقعد الأمامى ثم إلى قمة الحمولة ثم يختفيان عن الأنظار وراءها كما يفعل السنجاب.

ويصعد الرجل إلى السيارة ويدير المحرك، وتصعد السيارة «الناش» القديمة على الطريق العام وقد علت زمجرة المحرك، ونفثت سحابة من الدخان الزيتى الأزرق. ولتستأنف طريقها نحو الغرب.

ومن داخل المطعم تتابعه نظرات «آل» و«ماى» والسائقين. ويرجع «بيج بيل» إلى الموضوع قائلاً: «لم تكن حلوى من ذات الاثنين بسنت».

فتقول «ماى» بحزم: «وأنت مالك؟!».

فيقول «بيل»: «إنها حلوى من ذات الخمسة سنتات للقطعة».

ويقول الرجل الآخر: «لابد أن نستأنف السير، نحن نضيع الوقت».

ويفتشان فى جيوبهما، ويضع «بيل» عملة على البنك ينظر إليها الرجل الآخر ثم يدس يده فى جيبه ثانية ويضع عملة أخرى ويستديران ويسيران إلى الباب.

يقول بيل: «إلى اللقاء».

فتناديه «ماى»: «هاى، أنتظر دقيقة، لك باق».

ويقول «بيل»: «اذهبى إلى جهنم!» ويصفق الباب السلك وراءهما.

وتراقبهما ماى وهما يدخلان سيارة النقل الكبيرة ثم وهى تبدأ السير فى بطء، تستمع لصوت نقلات التروس إلى معدل السرعة المطلوب... وتقول فى صوت خافت: «آل»...

يرفع بصره من على قطعة اللحم التى كان يططها ويلفها فى ورق مشمع: «ماذا تريدين؟».

«انظر هنا». وتشير إلى النقود بجوار الأكواب. ترك كل منهما نصف دولار. ويقترب «آل» وينظر ثم يعود ثانية إلى عمله. وتقول «ماى» فى تبجيل: «سائقو سيارات النقل وكل ما بعدهم، كعوب مراحيض».

يصطدم الذباب بالستارة فى خبطات صغيرة ثم يطن بعيدًا. محرك الثلاجة يقعقع فترة ثم يتوقف وعلى طريق ٦٦ تمر السيارات بسرعة. سيارات نقل، وسيارات فخمة انسيابية. وسيارات قديمة تمر بأزيز لا ينتهى، وتأخذ «ماى» الأطباق وتلقى بقايا الفطيرة فى صفيحة الزبالة وتتلمس خرقتها المبللة، وتمسح البنك فى حركات دائرية وعيناها على الطريق حيث الحياة تمضى مسرعة صاخبة.

يمسح «آل» يديه فى مريلته وينظر إلى ورقة مثبتة أمامه فوق صاج الشواء هناك ثلاثة أعمدة من العلامات على الورقة يحسب «آل» أطول عمود منها، ثم يمشى عبر البنك إلى آلة النقود الحاسبة ويدق على زرار فيها، فينفتح درج النقود ويأخذ حفنة من العملات.

وتسأله «ماى»: «ماذا تفعل؟»

فيقول «آل»: «رقم ٣ جاهز للدفع.» ثم يذهب إلى آلة الحظ الأتوماتيكية ويبدأ فى وضع عملاته فيها، وعند الدورة الخامسة للعجلات ترتفع القضبان وتنقلب حصالة النقود فى الأكواب. ويملأ «آل» قبضته بالعملات التى نزلت من آلة الحظ، ويعود إلى «البنك» ويفرغها فى الدرج ويغلق «آل» آلة النقود الحاسبة ثم يعود إلى مكانه، ويشطب على واحدة من أعمدة العلامات.

يقول: «رقم ٣ يلعب أكثر من الآخرين، ربما كان علىّ أن أبدل أوضاع آلات الحظ».

ويرفع غطاء وعائه ويقلب اللحم المثبت ببطء.

تقول «ماى»: عجبًا، ماذا سيفعلون فى كاليفورنيا؟»

«من؟»

«هؤلاء الناس الذين كانوا هنا الآن».

فيقول «آل»: «العلم عند المسيح!»

«افرض أنهم سيحصلون على عمل؟».

«كيف بالله يمكننى أن أعرف؟».

وتشخص بأبصارها شرقًا على الطريق العام وتقول: «ها هى ذى سيارة

نقل بمقطورة، يا ترى هل سيقفون؟ أرجو أن يقفوا». وعندما تأتى سيارة النقل الضخمة من الطريق العام وتتوقف تمسك «ماى» بردائها وتمسح البنك بطوله. وتمسح مرات على إناء القهوة اللامع وتعدل أنبوبة الغاز تحت الإناء، ويخرج «آل» قبضة من اللفت الصغيرة ويبدأ يقشره، ويرتسم البِشْر على وجه «ماى» عندما يفتح الباب ويدخل منه سائقا سيارة النقل يرتديان زى السائقين.

«هاى يا أخت».

وتقول «ماى»: «لست أخت أى رجل». ويضحكان وتضحك «ماى». وتسأل:

«طلباتكم يا أولاد؟».

«أوه كوب قهوة، أى نوع من الفطائر لديك؟».

«كريمة بالأناناس، كريمة بالموز، كريمة بالشيكولاتة، وتفاح».

«اعطنى تفاحًا، لا، انتظرى، ما نوع الفطيرة السميكة هذه؟».

وتلتقط «ماى» الفطيرة وتشمها وتقول: «كريمة بالأناناس».

«حسنًا اقطعى قطعة منها».

وتئز السيارات بلا توقف على طريق ٦٦.

الفصل السادس عشر

زحفت عائلتا «جود» و«ويلسون» إلى الغرب معًا وحدة واحدة: إلرينو وبروج بورت، كلينتون، إليكستى، سيرى، تكسولا. هنا الحدود وأوكلاهوما وراءك. وفى هذا اليوم استمرت السيارات فى زحفها عبر لسان ممتد من أراضى تكساس. شمروك وألن ريد، جروم ويارنيل، ثم اخترقوا أماريللو فى الأصيل، وساروا مسافة طويلة وعسكروا عند الغسق، كانوا متعبين، ومتربين، وأجسادهم ساخنة، وانتابت الجدة التشنجات من فرط الحرارة وعندما توقفوا كان قد نال منها الضعف.

فى تلك الليلة سرق «آل» قائمًا من سياج، وصنع به قنطرة فوق سيارة النقل وقد ربطه من طرفيه. وفى تلك الليلة لم يأكلوا شيئًا إلا البقسماط البيتى البارد الجاف المتبقى من الإفطار. وارتموا على المراتب وناموا بملابسهم، حتى عائلة «ويلسون» لم تنصب خيمتها.

كانت عائلتا «جود» و«ويلسون» تسرعان عبر لسان أراضى تكساس، تلك الأراضى الرمادية المنبسطة تخطها وتشقها آثار الفيضانات القديمة. كانوا يسرعون خارجين من أوكلاهوما وعبر تكساس. السلاحف البرية تزحف فى التراب والشمس تلسع الأرض، وفى المساء تفقد السماء

حرارتها وتبعث الأرض موجة حارة من عندها. يومان والعائلتان تسرعان، ولكن فى اليوم الثالث كانت الأرض أضخم منهم، فاستقروا على وسيلة جديدة للحياة، الطريق العام أصبح بيتهم والحركة وسيلة تعبيرهم. وشيئًا فشيئًا استقروا فى الحياة الجديدة. «روثى» و«وينفلد» أولاً، ثم «آل» ثم «كونى» و«روزا شارن» وأخيرًا الكبار. طووا الأرض تحتهم كأنها أمواج البحر الساكنة الضخمة. ويلدرادوا وفيجا وبوزى وجلين روى، هنا نهاية تكساس. ثم نيو مكسيكو والجبال. هناك على البعد، شامخة فى السماء. تقف الجبال، ويعلو ضجيج عجلات السيارات، وتسخن الآلات. ويتفجر البخار حول غطاء الرادياتير. زحفوا إلى نهر نيكوس وعبروه عند سانتاروزا. ثم تقدموا لمسافة ٢٠ ميلاً.

كان «آل جود» يقود سيارة «ويلسون»، وقد جلست الأم بجواره وبجوارها جلست «روزا شارن» وأمامهم كانت سيارة النقل تزحف. وتموج الهواء الحار وتدافع على الأرض ومنظر الجبال يرتعش فى الهواء الساخن. كان «آل» يسوق بفتور وقد تحدب ظهره فى مقعده وتعلقت يده فى استرخاء على عجلة القيادة، وقد دبب قبعته الرمادية وجذبها إلى أسفل كعرف ديك خرافى، حتى غطت إحدى عينيه، وبينما هو يسوق كان يستدير ويبصق جانبه بين حين وآخر.

الأم، بجواره، شبكت أيديها فى حجرها، واستقرت أخيرًا على أن تقاوم قلقها. جلست باسترخاء تاركة حركة السيارة تؤرجح جسمها ورأسها. تحدق بعينيها فى الجبال أمامها. أما «روزا شارن» فقد كانت محصنة ضد حركة السيارة. إذ ثبتت قدميها بإحكام فى الأرضية وشبكت مرفقها الأيمن على الباب وكان وجهها الممتلئ صارمًا ضد الحركة. ورأسها يهتز بحدة لأن عضلات رقبتها كانت مشدودة. وحاولت أن تقوس جسمها كله لكى تصنع منه وعاءً صلبًا يحفظ الجنين من الصدمات. أدارت رأسها نحو أمها وقالت:

«ماما»: لمعت عينا الأم وحولت انتباهها إلى «روزا شارن» وعبرت نظرتها الوجه الممتلئ المتعب المتصلب وابتسمت. وقالت الفتاة: «ماما، عندما نصل إلى هناك، كلكم ستجمعون الفاكهة وتعيشون فى الريف تقريبًا، أليس كذلك؟»

وابتسمت الأم قليلاً ابتسامة ذات معنى وقالت: «لسنا هناك بعد، ولا نعرف كيف ستكون عليه الحال، لابد أن نرى بأعيننا».

فقالت الفتاة: «أنا و«كونى» لا نرغب فى الحياة فى الريف بعد ذلك، لقد فكرنا فيما ننتوى أن نفعله».

وارتسم على وجه الأم قلق خفيف، استمر لحظة وسألت: «ألن تقيموا معنا، مع العائلة؟»

فاستطردت «روزا شارن» منفعلة: «حسنًا، أنا و«كونى» تكلمنا فى كل ما يتعلق بهذا الأمر، نحن نريد أن نعيش فى المدينة، سيحاول «كونى» أن يحصل على عمل فى مخزن أو ربما مصنع، وسيدرس فى البيت. ربما يدرس الراديو حتى يصبح خبيرًا، وربما استطاع بعد ذلك أن يكون له محله الخاص. وسنذهب إلى السينما عندما نحب. ويقول «كونى» إنى سيكون لى طبيب عند الولادة وربما ذهبت إلى المستشفى حسب الظروف، وسنشترى سيارة صغيرة بعد أن يتم دراسته فى المساء. لماذا.. ستكون الأحوال أحسن. ولقد قطع صفحة إعلان من كتاب «قصص حب من الغرب» وسيرسل فى طلب البرنامج، فذلك لا يكلف شيئًا، هذا ما تقوله القصاصة بالدقة.. لقد رأيتها، وهم أيضًا يحصلون لك على عمل عندما تأخذ ذلك البرنامج، دراسة الراديو، عمل نظيف جيد وله مستقبل أيضًا، وسنعيش فى المدينة، ونذهب إلى السينما عندما نحب، حسنًا، وسيكون عندى مكواة كهربائية، وسيكون كل شىء للطفل جديدًا. قال «كونى»

كل شىء جديد أبيض، و... حسنًا لقد رأيت فى الكتالوج كل ما يعدونه للطفل. ربما كان صحيحًا أنه فى البداية فى أثناء دراسة «كونى» فى البيت، لن يكون الأمر سهلاً، ولكن حسنًا، عندما يأتى الطفل ربما يكون قد فرغ من دراسته وسيكون لدينا بيت، بيت صغير لطيف، لا نريد شيئًا فخمًا، ولكننا نريده مناسبًا من أجل الطفل». وتألق وجهها انفعالاً: «وأظن، حسنًا، أظن أنه كان بإمكاننا كلنا أن نذهب إلى المدينة وعندما يحصل «كونى» على محله الخاص، فقد يستطيع «آل» أن يعمل عنده».

لم ترفع الأم بصرها عن وجه ابنتها المتورد، وراقبت الحكاية وهى تنمو، وتتبعتها ثم قالت: «نحن لا نريدكما أن تبعدا عنا، ليس مفيدًا للجماعة أن تتفتت».

وسخر «آل» قائلاً: «أنا اشتغل عن «كونى» ما رأيك أن يأتى «كونى» ويشتغل عندى؟ هل يظن أنه ـ ابن العاهرة ـ هو الوحيد الذى يستطيع أن يدرس فى المساء؟»

وبدا أن الأم قد أدركت فجأة أنه حلم، فاستدارت برأسها ونظرت إلى الأمام ثانية واسترخت ولكن الابتسامة الخفيفة ظلت حول عينيها وقالت: «يا ترى كيف تشعر الجدة اليوم؟»

وازداد توتر «آل» على عجلة القيادة. قعقعة طفيفة بدأت تصدر عن المحرك. فزاد من سرعته، فزادت القعقعة، خفض من سرعته وأنصت، ثم أسرع لحظة وأنصت، وزادت القعقعة حتى أصبحت كصوت صليل معدنى. ونفخ «آل» فى نفيره ووقف بالسيارة على جانب الطريق، وتوقفت سيارة النقل أمامه ثم عادت بظهرها ببطء. ومرت بهم ثلاث سيارات مسرعة إلى الغرب وكل واحدة منها نفخت نفيرها ومال سائق الأخيرة منها خارجًا وصاح: «أين تظن أنك تقف بحق الجحيم؟» ورجع «توم»

بسيارة النقل حتى التصق بها ثم خرج وسار إلى السيارة الأخرى. وأطلت رؤوس الجالسين فوق ظهر سيارة النقل المحملة، وخفض «آل» من سرعة المحرك وأنصت إلى صوته المتباطئ وسأل «توم»: «ما الخبر يا «آل»؟». فأسرع «آل» المحرك وقال: «أنصت لها». كان دق القعقعة أكثر ارتفاعًا. وأنصت «توم» ثم قال: «أوقف المحرك وأبطئ». ثم فتح غطاء مقدمة السيارة وأطل داخله وقال: «والآن شغل المحرك بسرعة».

وأنصت لحظة ثم أغلق الغطاء وقال: «أعتقد أنك على صواب يا آل».

«ذراع التوصيل، أليس كذلك؟»

فقال «توم»: «يبدو ذلك».

فقال «آل» شاكيًا: «لقد وضعت لها زيت تشحيم بكمية كافية».

«حسنًا، لم يصل إليها، فهى أجف من القردة. ليس هناك ما يمكن أن نصنعه الآن إلا أن نفكها. اسمع، سأسحب إلى الأمام حتى أجد مكانًا مسطحًا يصلح للوقوف. تقدم أنت ببطء حتى لا تسقط مصارينها خارجها».

سأل «ويلسون»: «أهى سيئة؟».

فقال «توم»: «سيئة جدًا». ثم عاد إلى سيارة النقل وسار ببطء إلى الأمام. قال «آل» موضحًا: «لا أعرف ما الذى جعلها تفسد، لقد أعطيتها زيتًا كافيًا». كان «آل» يعلم أن اللوم يقع عليه وأحس بفشله.

وقالت الأم: «ليست غلطتك، لقد فعلت كل شىء كما يجب». ثم سألت بشىء من الخوف: «أهى سيئة جدًا؟».

«حسنًا، من الصعب معرفة شىء، ولابد أن نحصل على عمود توصيل

جديد، أو نصب سبيكة لإصلاح هذا العمود». ثم تنهد بعنف وقال: «أنا سعيد بالتأكيد لأن «توم» معنا، لم أصلح أبدًا عمود تحميل، أرجو أن يكون «توم» قد فعل ذلك بحق يسوع!».

كانت هناك لوحة إعلانات خشبية كبيرة حمراء على جانب الطريق تلقى بظل مستطيل فخم على الأرض، وخرج «توم» بسيارة النقل من الطريق العام وعبر المنخفض الواطئ بجانب الطريق. وتوقف فى الظل. وخرج وانتظر حتى وصل «آل». وصاح: «والآن على مهلك، على مهلك وإلا ستكسر سستها أيضًا».

واحمر وجه «آل» من الغضب فأوقف البنزين عن المحرك وصاح: «اللعنة، أنا لم أحرق عمود التحميل هذا، ماذا تقصد أننى سأكسر سستها أيضًا؟»

وابتسم «توم» وقال: «احفظ العجلات الأربع على الأرض، لم أقصد شيئًا، فقط قدها على مهلك فى هذا المنخفض».

وتذمر «آل» وهو يهبط بالسيارة ببطء ثم يصعد بها إلى الجانب الآخر، «لا يجب أن تعطى أى إنسان أى فكرة توحى بأننى قد أحرقت عمود التحميل هذا». كان المحرك يقعقع عاليًا الآن ووقف «آل» فى الظل ثم عطل المحرك.

رفع «توم» غطاء المحرك وثبته وقال: «لا يمكن أن أبدأ قبل أن تبرد». وتكومت العائلة من السيارتين وتجمعت حول سيارة «ويلسون».

وسأل الأب: «ما مدى الضرر؟» ثم تربع على الأرض.

والتفت «توم» إلى «آل» وسأله: «أركبَّت واحدة من قبل؟»

فقال «آل»: «لا، أبدًا.. طبعًا فككت المجموعة».

فقال «توم»: «حسنًا، لابد أن نفك المجموعة ونخرج العمود ثم نحصل على جزء جديد ونجلخه ثم نركب له: «شيميزًا» ونركبه، عمل يوم كامل، ولابد أن أعود إلى آخر مكان مررنا به من أجل قطعة الغيار، إلى سانتا روزا، فالبروكيرك على بعد خمسة وسبعين ميلاً. أوه، يا يسوع! غدًا الأحد، لن نستطيع الحصول على شىء غدًا». ووقفت العائلة فى صمت وزحفت «روثى» مقتربة وأطلت برأسها تحت الغطاء المرفوع على أمل أن ترى الجزء المكسور. واستمر «توم» يقول بصوت خافت: «غدًا الأحد، سنحصل على قطع الغيار يوم الاثنين، وربما لم نستطع تركيبها إلا يوم الثلاثاء، فليست لدينا الآلات التى تسهل علينا العمل، ستكون شغلة كبيرة». ومر على الأرض ظل صقر طائر ورفعت العائلة كلها رؤوسها لترى الطائر الأسود يسبح فى السماء.

قال الأب: «الذى يخيفنى أن نقودنا ستفرغ ولن نتمكن من الوصول إلى هناك، هنا نحن جميعًا نأكل ولابد أن نشترى بنزينًا وزيتًا، فإذا ما فرغت نقودنا، فلست أدرى ماذا سنفعل!»

فقال «ويلسون»: «يبدو أنها غلطتى، هذا الحطام يسبب لى المشاكل على الدوام، لقد كنتم طيبين معنا يا جماعة، والآن ليس أمامكم إلا أن تحزموا أمتعتكم وتنطلقوا إلى الأمام، وسأبقى أنا و«سيرى» وسندبر الأمر بطريقة أو بأخرى، فلسنا نريد أن نطلعكم يا جماعة على شىء».

فقال الأب ببطء: «لن نفعل هذا، لقد ارتبطنا ببعضنا البعض، الجد مات فى خيمتكم».

وقالت «سيرى» فى تعب: «نحن لسنا إلا مشكلة بالنسبة لكم، لسنا إلا مشكلة».

ولف «توم» سيجارة ببطء وتفحصها وأشعلها وخلع قلنسوته المتكسرة

ومسح جبهته وقال: «لدى فكرة، ربما لن تعجب أحدًا، ولكن ها هى ذى: كلما اقتربنا من كاليفورنيا أسرعت النقود إلينا، والآن هذه السيارة تسير أسرع من اللورى مرتين، والآن هاكم فكرتى، خذوا بعضًا من المتاع فى هذا اللورى واركبوا كلكم فيما عداى أنا والواعظ، وانطلقوا. سأتوقف أنا و«كيزى» هنا وسنصلح هذه السيارة ثم نسير بها ليلاً ونهارًا وسنلحق بكم. وإلا إذا لم نتقابل على الطريق فستحصلون على عمل بأى شكل، فإذا ما تعطلتم ما عليكم إلا أن تعسكروا على جانب الطريق حتى نصل فلن تكون حالكم أسوأ من الآن، فإذا ما وصلتم، فستحصلون على عمل ما، وتهون المسألة، يمكن «لكيزى» أن يساعدنى فى هذه السيارة وسنأتى إليكم بسرعة».

وتفكرت العائلة المجتمعة فى الأمر، وألقى العم «جون» بنفسه جالسًا على الأرض بجوار الأب.

وقال «آل»: «ألا تريدنى أن أساعدك فى عمود التوصيل هذا؟

«لقد قلت أنت إنك لم تصلح واحدًا من قبل».

فقال «آل» موافقًا: «هذا صحيح، كل ما تريده هو رجل قوى الجسم، ربما كان الواعظ لا يرغب فى البقاء».

فقال «توم»: «حسنًا.. أى واحد... لا يهمنى».

حك الأب التراب الجاف بسبابته وقال: «لدى إحساس أن «توم» على صواب، لن يفيدنا أن نبقى كلنا هنا، قد نقطع خمسين أو مائة ميل قبل الظلام».

فقالت الأم بقلق: «كيف ستجدنا؟»

فقال «توم»: «سنكون على نفس الطريق. على ٦٦ مباشرة، حتى نصل

إلى مكان اسمه باكسفيل،لقد رأيته على الخريطة التى معى، انطلقوا إلى هناك مباشرة.

«أيوه، ولكن حين نصل إلى كاليفورنيا ثم ننتشر على الطرق الجانبية خارج هذا الطريق».

فطمأنها «توم» قائلاً: «لا تقلقى، سنجدكم، فليست كاليفورنيا العالم كله».

فقالت الأم: «يبدو أنها مكان كبير جدًا على الخريطة».

وتلمس الأب النصيحة فقال: « «جون»، هل ترى سببًا يمنعنا من ذلك؟».

فقال «جون»: لا

مستر «ويلسون»، إنها سيارتك، هل لديك أى اعتراضات أن يصلحها ابنى ويحضرها؟

فقال «ويلسون»: «لا أرى مانعًا، يبدو يا جماعة أنكم قد رتبتم كل شىء لنا فعلاً، ولا أرى سببًا يمنعنى من أن أبقى أقدم المساعدة لابنكم».

فقال «توم»: «من الممكن أن تجد عملاً وتدخر بعض النقود إذا لم نستطع أن نلحق بكم على الطريق، وافترض أننا قد مكثنا هنا جميعًا، لا يوجد ماء هنا ولا يمكن تحريك هذه السيارة، وفى مقابل هذا افترضوا أنكم جميعًا وصلتم إلى هناك ووجدتم عملاً، ستحصلون على نقود، وربما حصلتم على منزل تعيشون فيه، ما رأيك فى هذا يا «كيزى»؟ هل تريد أن تبقى معى وتساعدنى؟

قال «كيزى»: «أريد أن أفعل ما تفضلونه أنتم يا جماعة، لقد أدخلتمونى فى زمرتكم، وأخذتمونى معكم، وسأفعل لكم أى شىء».

قال «توم»: «حسنًا، سترقد على ظهرك، ويسقط الشحم على وجهك إذا بقيت هنا».

«هذا مناسب لى تمامًا».

فقال الأب: «حسنًا، إذا استقر الرأى على هذا، فمن المستحسن أن ننطلق، فربما استطعنا أن نقطع مائة ميل قبل أن نتوقف».

خطت الأم أمامه وقالت: «لن أذهب».

قال الأب، وقد أدهشه هذا التمرد المفاجئ: «ماذا تقصدين بأنك لن تذهبى؟ لابد أن تذهبى، لابد أن ترعى العائلة». وخطت الأم إلى سيارة ويلسون ومدت يدها إلى أرضية المقعد الخلفى تتناول قضيبًا حديديًا يستخدم كرافعة وهزته فى يدها بيسر وقالت: «لن أذهب».

«قلت لك لابد أن تذهبى.. لقد حزمنا أمرنا».

ارتسمت علامات العزم على فم الأم وقالت بصوت خفيض: «الوسيلة الوحيدة التى تستطيع بها أن تجبرنى على الذهاب هى أن تضربنى». ثم حركت القضيب الحديد فى يدها برفق وقالت: «سأسبب لك الخزى يا رجل، أنا لا أقبل أن أضرب، ولن أبكى وأتوسل، سأنفجر فيك وأنت لست واثقًا على أى حال أنك تستطيع أن تضربنى وحتى إذا استطعت، أقسم بالله أننى سأنتظر حتى تدير ظهرك وتجلس، وسأضربك على أم رأسك بدلو، أقسم بحق يسوع المقدس أننى سأفعل هذا».

ونظر الأب فى يأس للجماعة الواقفة حوله وقال: «وقحة!، لم أرها أبدًا وقحة بهذا الشكل». وضحكت «روثى» بصوت عال...

وهزت الأم القضيب الحديدى فى يدها وهى على أهبة الاستعداد، وقالت: «تعال لقد حسمت أمرك، تعال، حاول أن ترغمنى على ذلك،

ولكننى لن أذهب، فإذا حدث وذهبت فلن أذوق النوم أبدًا، لأننى سأنتظر وسأنتظر، وفى اللحظة التى تغفل فيها عيناك وتنام سأضربك على رأسك بعود من خشب الوقود».

وتمتم: «وقحة، ملعونة، وهى ليست صغيرة لتفعل هذا».

وقفت الجماعة كلها ترقب هذا التمرد وترقب الأب وتتوقع أن ينفجر غضبًا، راقبوا يديه المرتجفتين وهما تتحولان إلى قبضات، ولكن غضب الأب لم يتزايد، وظلت يداه معلقتين فى استرخاء على جانبيه، وأدركت الجماعة فى لحظة أن الأم قد انتصرت، والأم أيضًا أدركت ذلك.

قال «توم»: «أمى؟ ما الذى يقلقك؟ ما الذى تريدينه بتصرفك هذا؟ ما الحكاية معك على أى حال؟ هل ترهبيننا؟»

ولانت تعابير وجه الأم وإن ظلت عيناها قاسيتين: «أتفكر كثيرًا مثلما أفعل أنا؟ ماذا بقى لنا فى العالم؟ لا شىء إلا نحن، لا شىء إلا الأهل، لقد خرجنا ومعنا الجد، وسرعان ما انحدر إلى قبره، والآن تريدون أن تشتتوا الأهل كلية؟».

فصاح «توم»: «أمى لقد كنا سنلحق بكم، لم نكن سنتأخر كثيرًا».

ولوحت الأم بالقضيب الحديدى: «افترض أننا كنا معسكرين، وأنكم مررتم بنا ولم تشاهدونا، افترض أننا وصلنا، كيف نعرف أين نترك لكم خبرًا، كيف تعرفون أين تسألون عنا؟ إن أمامنا طريقًا مريرًا، الجدة مريضة وها هى ذى فوق سيارة النقل تسير سريعًا نحو قبرها، فهى منهكة تمامًا، أمامنا طريق طويل مرير».

وقال العم «جون»: «ولكن من الممكن أن نكسب بعض النقود، ربما أمكننا أن نوفر القليل منها، عندما يأتى الوقت الذى يلحق فيه بنا الآخرون».

وعادت العيون جميعها إلى الأم، كانت هى السلطة الآن، لقد استولت على مقاليد الأمور وقالت: «لن تفيدنا النقود، كل ما نملكه هو وحدة العائلة، كقطيع البقر يتجمع معًا عندما تهجم الذئاب، أنا لا أخشى شيئًا ونحن جميعًا هنا، كلنا أحياء، ولن أسمح للجماعة أن تتبدد، عائلة ويلسون هنا معنا، والقس معنا، لا يمكن أن أعترض إذا أرادوا أن يذهبوا، ولكننى سأكون كالقطة المتوحشة، وها هو ذا القضيب الحديدى فى يدى، إذا ما حاول أحد أن يشتت أسرتى»، كانت نبرات صوتها باردة وحاسمة.

قال «توم» مهدئًا: «أماه، لن يمكننا أن نعسكر جميعًا هنا، لا يوجد ماء هنا، ولا حتى ما يكفى من الظل، الجدة تحتاج إلى الظل».

فقالت الأم: «حسنًا، سنستأنف المسير وسنقف فى أول مكان به ظل وماء، وستعود سيارة النقل وتأخذك إلى المدينة لتحصل على قطعة الغيار، وستعود بك، لا تمش فى الشمس، ولن تذهب وحدك، حتى إذا ما التقطوك هناك، لن يستطيع أحد من أهلك أن يقدم لك أى مساعدة».

وزمَّ «توم» شفتيه على أسنانه ثم فتحهما، وفرد ذراعيه يائسًا ثم أسقطهما بجانبه وقال: «أبى، إذا كنت تنوى أن تهاجمها من ناحية وأنا من الأخرى ويتكوم فوقها الآخرون وتقفز الجدة فوق الجميع، فربما نستطيع أن نأخذها، وقد تقتل اثنين أو ثلاثة منا بهذا القضيب الحديدى، أما إذا لم تكن ترغب فى أن تسحق رأسك فأعتقد أن الأم تستطيع أن تزهو بما فعلت، يا يسوع المسيح! إن شخصًا واحدًا حسم رأيه يستطيع أن يسوق عددًا كبيرًا من الناس أمامه، لقد انتصرت يا أمى، ابعدى هذا العود الحديدى قبل أن تصيبى به أحدًا».

ونظرت الأم فى دهشة إلى القضيب الحديدى وارتعشت يدها ثم ألقت بسلاحها على الأرض، وعندئذ التقطه «توم» بعناية خاصة وأعاده

إلى السيارة، وقال: «أبى، استجمع شتات نفسك، وأنت يا «آل» قد السيارة بالجماعة حتى يعسكروا، ثم ارجع بالسيارة ثانية هنا، سنفك المجموعة أنا والواعظ، فإذا استطعنا فعندئذ سنجرى إلى سانتا روزا ونحاول أن نجد عمود توصيل. ربما أمكننا أن نجده اليوم فالليلة مساء السبت، اقفزوا الآن كلكم حتى نبدأ، دعنى آخذ المفتاح الإنجليزى والزرديات من سيارة النقل». ثم رقد تحت السيارة وتحسس المجموعة المشحمة وقال: «أوه، أعطنى صفيحة، هذا الجردل القديم لكى أجمع الزيت، لابد أن نوفره»، وناوله «آل» الجردل ووضعه «توم» تحت السيارة ثم حل غطاء الزيت بزرادية. وانساب الزيت الأسود على ذراعه وهو يفك الغطاء بأصابعه ثم جرى السائل الأسود فى صمت فى الجردل، كان «آل» قد شحن العائلة على سيارة النقل عندما امتلأ الجردل إلى منتصفه، ونظر «توم» بوجه قد لطخه الزيت ومن خلال العجلات وناداه قائلاً: «ارجع بسرعة»!

وبينما كانت سيارة النقل تزحف ببطء عبر المنخفض الواطئ ثم تنطلق مبتعدة كان هو يحل مسامير المجموعة الكبيرة، ولف كل مسمار لفة واحدة وهو يفكها بنظام حتى لا يفسد التيلة.

وركع الواعظ بجوار العجلات وقال: «ماذا يمكننى أن أفعل؟».

«لا شىء، لا شىء الآن، عندما يفرغ هذا الزيت، وأحل أنا المسامير الكبيرة، تستطيع أن تساعدنى على إنزال المجموعة، وزحف داخلاً تحت السيارة وهو يفك المسامير الكبيرة بالمفتاح ثم يلفها بأصابعه، وترك المسامير معلقة على كل طرف لكى يحفظ المجموعة من السقوط وقال: «ما زالت الأرض ساخنة تحتى هنا»، ثم قال: «قل لى يا «كيزى»، لقد كنت هادئًا بشكل ملعون فى الأيام القليلة الماضية، لماذا! يا يسوع! عندما تقابلت معك أول مرة كنت تلقى خطبة كل نصف ساعة تقريبًا، والآن لم

تفه بعشر كلمات فى اليومين الأخيرين، ما الخبر! هل أصابك الملل؟».

كان «كيزى» قد تمدد على بطنه ينظر تحت السيارة وقد ارتكزت ذقنه التى تناثر فيها شعر قليل على ظاهر إحدى يديه، وقد دفع بقبعته إلى الخلف حتى غطت قفاه وقال: «لقد تكلمت كثيرًا عندما كنت واعظًا مما يكفى بقية حياتى!»

«أيوه، ولكنك قلت بعض الكلام المعقول أيضًا».

«أنا مضطرب تمامًا، بشكل لم أعرفه حين كنت أعظ فى هذه الأنحاء. ولكننى كنت أعبث كثيرًا وقتها، فإذا لم أكن أنوى الوعظ بعد ذلك فلابد أن أتزوج آه يا «توم»، كلى شبق لأجسام النساء!»

فقال «توم»: «وأنا أيضًا، أتعرف؟ فى اليوم الذى خرجت فيه من «ماك أليستر» كنت أحترق، اصطدت فتاة، مومس، كالأرنب، لا يمكن أن أحكى لك ما حدث، ولا يمكن أن أحكى لأحد ما حدث!»

فضحك «كيزى»: «أنا عارف ما حدث، لقد ذهبت مرة وصمت فى البرية وعندما خرجت من الصوم حدث لى نفس الشىء اللعين».

فقال «توم»: «يا للجحيم، حسنًا، لقد وفرت نقودى على أى حال، وهربت من هذه الفتاة، وظننت أننى نذل وأنه يجب أن أدفع لها، ولكن لم يكن معى إلا خمسة دولارات بالتحديد، وقد قالت إنها لا تريد نقودًا، هنا، ازحف إلى هنا يا «كيزى» وامسك طرفًا من المجموعة، سأفكها، وعندئذ لف هذا المسمار إلى الخارج وسألف أنا من ناحيتى أيضًا، ندعها تسقط بالراحة، حاسب على هذه التيلة، انظر ها هى ذى تخرج قطعة واحدة، هذه السيارات الدودج القديمة ذات أربعة سلندرات فقط، لقد فككت واحدة مرة، لها قواعد تحميل كبيرة كالبطيخة، والآن انزل بها، امسكها بيدك واجذب إلى أسفل تلك التيلة من حيث تبرز، على مهلك الآن، مضبوط».

استقرت المجموعة المشحمة على الأرض بينهما وما زال فى فجواتها قليل من الزيت، ومد «توم» يده فى واحدة من الفجوات الأمامية والتقط بعض قطع المعدن المتكسر وقال: «هذه هى» وقلب السبيكة فى يده، العمود فوق، انظر خلفك وامسك عمود الكرنك ولفه حتى أقول لك».

وقف «كيزى» وامسك عمود الكرنك ووضعه فى مكانه وسأل: «مستعد؟»

نعم، على مهلك الآن، زوِّد قليلاً، قليلاً، كفى هنا.

وركع «كيزى» ونظر أسفل السيارة ثانية، ودق «توم» كرسى عمود التوصيل بالعمود وقال: «هنا العطب».

فسأل «كيزى»: «ماذا تظن السبب؟».

«أوه، يا للجحيم!، لست أعرف، لقد ظلت هذه البقة تجرى على الطريق ثلاثة عشر عامًا... ويقول عداد السرعة إنها قطعت ستين ألف ميل وهذا معناه أنها قطعت مائة وستين، ويعلم الله كم مرة أعادوا أرقام العداد إلى الوراء، تسخن، ربما تسبب بعضهم فى انخفاض الزيت فتتحطم».

وجذب بعض الخوابير وثبت المفتاح على مسمار أحد كراسى الكرنك وشد بقوة فأفلت المفتاح، وظهر قطع طويل على ظهر يده، نظر «توم» إليه والدم يتدفق بهدوء فيتقابل مع الزيت ويقطر فى المجموعة.

قال كيزى: «شىء سيئ جدًا، أتريدنى أن أفعل هذا بدلاً منك بينما تربط أنت يدك؟».

«يا للجحيم. لا، لم أصلح سيارة فى حياتى دون أن أجرح نفسى، ولما كان هذا قد حدث الآن فعلاً، فلا داعى للقلق بعد ذلك، وثبت المفتاح مرة أخرى وقال: «يا ريت كان معى مفتاح هلالى». ثم دق على المفتاح

بكلوة يده حتى لانت المسامير فنزعها ووضعها مع مسامير المجموعة فى داخلها ومعها الخوابير ثم فك مسامير الكراسى ونزع البستم، ووضع البستم وعمود التوصيل فى الطاسة وقال: «هذه هى، يا إلهى». ثم تلوى خارجًا من تحت السيارة ساحبًا المجموعة معه، مسح يده بقطعة من الخيش وتفحص الجرح ثم قال: «إنه ينزف كابن زانية، حسنًا، يمكننى أن أوقفه، ثم بال على الأرض، والتقط حفنة من الطين الناتج عنها ووضعه على الجرح ولم يستمر النزف إلا لحظة واحدة ثم توقف، فقال: «أحسن شىء فى العالم لوقف النزيف».

فقال «كيزى»: «قطعة من نسيج العنكبوت تؤدى نفس الغرض».

«عارف، ولكن لا يوجد نسيج عنكبوت الآن، وأنت تستطيع على الدوام أن تبول». ثم جلس على الرفرف وتفحص كرسى التحميل المكسور: «والآن، لو أننا وجدنا سيارة دودج ٢٥، وحصلنا على عمود توصيل مستعمل وبعض الجلب، ربما أمكننا أن نصلحها، لابد أن: «آل» قد ذهب بعيدًا جدًا».

كان ظل لوحة الإعلانات الخشبية قد أصبح ٦٠ قدمًا الآن، وتقدم العصر كثيرًا، جلس «كيزى» على الرفرف ونظر ناحية الغرب وقال: «سنكون فى الجبال العالية وشيكًا، ثم سكت بضع لحظات ثم قال: «توم»

«أيوه»

« «توم»، لقد كنت أرقب السيارات على الطريق، تلك التى نمر بها، وتلك التى تمر بنا، ظللت أتابعها».

«تتابع ماذا؟»

« «توم»، هناك مئات من العائلات مثلنا تمضى جميعها إلى الغرب، لقد راقبتها، ليس منهم من هو ذاهب إلى الشرق، مئات منهم، هل لاحظت ذلك؟»

«أيوه، لاحظتها».

«لماذا؟ كأنهم يفرون من جنود وراءهم، كأن البلد كله يتحرك».

قال «توم»: «أيوه. إن البلد كله يتحرك، نحن أيضًا نتحرك».

«حسنًا. افترض أن كل الناس هنا.. كل الناس، افترض أنهم لن يجدوا عملاً هناك».

فصاح «توم»: «اللعنة، وكيف يمكن أن أعرف؟ أنا لا أفعل أكثر من أن أضع قدمًا أمام الأخرى، ولقد فعلت هذا فى «ماك اليستر» لمدة أربع سنوات. مجرد المشى داخل الزنزانة، وخارج الزنزانة داخل المطعم وخارج المطعم، يا يسوع المسيح! لقد ظننت أن الأمور ستختلف عندما أخرج، لم يكن يمكننى التفكير فى شىء هناك وإلا فإنك تفقد صوابك، والآن أنا لا أستطيع أن أفكر فى شىء أيضًا». ثم التفت إلى «كيزى» وقال: «هذا الكرسى هنا فسد. ولم نكن نعلم أنه سيفسد، ولهذا لم نقلق، والآن ها هى ذى قد فسدت وسنصلحها. وبحق المسيح هذا يسرى على بقية الأمور، لن أقلق نفسى، ليس فى إمكانى هذا، هذه القطعة الصغيرة من الحديد والسبيكة، أتراها؟ أتراها؟ حسنًا هذا هو الشىء الوحيد فى العالم الذى يشغل تفكيرى الآن... ترى، أين ذهب «آل» بحق الجحيم؟».

فقال «كيزى»: «والآن اسمع يا «توم» أوه يا للجحيم! إنه لمن الصعب جدًا أن يقول الإنسان شيئًا».

رفع «توم» ضمادة الطين من على يده وألقى بها على الأرض. كانت

حواف الجرح محوطة بالتراب، ورمق الواعظ وقال: «أنت تنوى أن تقول خطبة، حسنًا، هيا، انطلق فأنا أحب الخطب، لقد اعتاد مأمور السجن أن يخطب فينا طول الوقت، لم يكن ذلك يضرنا فى شىء وكان هو يحصل على تصفيق حاد من ورائه، ماذا يدور فى عقلك؟»

وامتص «كيزى» ظاهر أصابعه العظمية الطويلة: «هناك أمور تحدث، وأناس يفعلون شيئًا ما، هؤلاء الناس الذين يضعون قدمًا أمام الأخرى، كما تقول، لا يفكرون إلى أين هم ذاهبون كما تقول، ولكنهم جميعًا يخطون بأقدامهم فى نفس الاتجاه، نفس الاتجاه، وإذا أنت أنصت فستسمع حركة، زحفًا، حفيفًا، وتبرما، هناك أمور تجرى لا يدرى الناس الذين يفعلون عنها شيئًا بعد، سيخرج شىء ما من حركة هؤلاء الناس إلى الغرب، من كل مزارعهم التى تركت وحيدة، سيخرج شىء سيغير وجه البلاد كلها».

فقال «توم»: «مازلت أضع أقدامى واحدة واحدة فى كل مرة».

«أيوه. ولكن حين ستواجه سورًا، فإنك ستتسلق هذا السور».

فقال «توم»: «أنا أتسلق الأسوار، حين تكون هناك أسوار لابد من تسلقها».

فتنهد «كيزى»: «هذه أفضل طريقة، أنا أوافقك على هذا، ولكن هناك أسوارًا من أنواع مختلفة، وهناك أناس مثلى يتسلقون أسوارًا لم ترتفع عن سطح الأرض بعد، ولا يمكنهم أن يكفوا عن هذا».

سأل «توم»: «أليس هذا «آل» قادمًا؟».

«أيوه، يبدو ذلك».

وقف «توم» ولف عمود التوصيل ونصفى كرسى التحميل فى قطعة من الخيش وقال: «أريد أن أتأكد أننى سأحصل على ما يماثلها تمامًا».

وتوقفت سيارة النقل على الطريق وأطل «آل» من النافذة.

قال «توم»: «لقد غبت وقتًا طويلاً، كم بعدت عن هنا؟».

فتنهد «آل»: «هل أخرجت العمود؟».

فقال «توم» ممسكًا بالجوال: «أيـوه، لقد تكسرت السبيكة فى الداخل».

فقال «آل»: «حسنًا، لم تكن غلطتى».

«لا، إلى أين أخذت الجماعة؟».

قال «آل»: «واجهتنا بعض المتاعب، فقد بدأت الجدة تهذى، وهذا جعل «روزا شارن» هى الأخرى تهذى، وضعت رأسها تحت مرتبتها وبدأت فى الهذيان ولكن الجدة فتحت فمها وأخذت تنبح ككلب ضال مسعور، يبدو أن الجدة لم تعد تدرك شيئًا، كالطفل الصغير، وهى لا تتكلم إلى أى إنسان، ولا يبدو عليها أنها تعرف أحدًا، ولا تفعل إلا أنها تتكلم باستمرار، كأنها تتكلم مع الجد».

فألح «توم» فى سؤاله: «أين تركتهم؟».

«حسنًا. لقد وصلنا إلى مخيم به ظل ومياه تجرى فى مواسير ويتكلف نصف دولار يوميًا للإقامة فيه، ولكن كل واحد فينا كان متعبًا ومنهكًا وبائسًا، ولقد أقاموا هناك كلهم، قالت أمى إننا مضطرون لذلك لأن الجدة متعبة ومنهكة، أقمنا خيمة «ويلسون» وصنعنا من مشمعنا خيمة، أعتقد أن الجدة قد جنت».

ونظر «توم» إلى الشمس المنحدرة نحو المغيب وقال: « «كيزى»، أحدنا لابد أن يبقى بجوار هذه السيارة، وإلا نزع منها كل شىء، هل يمكنك أن تبقى؟»

«بالتأكيد، سأبقى».

وتناول «آل» كيسًا من الورق من المقعد وقال: «هنا بعض الخبز واللحم أرسلته أمى ومعى هنا قارورة ماء».

فقال «كيزى»: «إنها لا تنسى أحدًا».

ودخل «توم» بجوار «آل» وقال: «اسمع، سنعود بمجرد أن تستطيع، ولكننا لا يمكن أن نقول متى».

«سأظل هنا».

حسنًا، لا تلقى خطبًا على نفسك، هيا بنا يا «آل»، وتحركت سيارة النقل وقد دنا المغيب وقال توم: «رجل طيب، لا يكف عن التفكير طول الوقت».

«حسنًا، يا للجحيم، لو أنك صرت واعظًا وأعتقد أنه من اللازم أن تكون كذلك، أبى سيجن من أن إقامة مخيم تحت شجرة يكلفنا خمسين سنتًا، لا يرى أى منطق فى هذا، وهو جالس يسب ويلعن ويقول سيبيعون لنا بعد ذلك خزان هواء صغيرًا، ولكن الأم تقول: «إنه لابد أن نكون بالقرب من الظل والماء من أجل خاطر الجدة. وقعقعت سيارة النقل على الطريق ولما كانت غير محملة الآن فقد كان كل جزء منها يقعقع ويشخشخ. جوانب الأرضية والجسم المشقوق، كانت تجرى خفيفة ومسرعة وسار بها «آل» بسرعة ثمانية وثلاثين ميلاً فى الساعة، مما جعل المحرك يدق عاليًا وتصاعد دخان الزيت المحترق الأزرق من خلال ألواح الأرضية.

فقال «توم»: «أبطئ من سرعتها قليلاً، وإلا ستحترق حتى محاور العجلات، ما الذى أصاب الجدة؟»

«لا أعرف، أتذكر أنه فى اليومين الأخيرين كانت مبتئسة غريبة الأطوار

لا تكلم أحدًا؟ حسنًا إنها تصرخ الآن وتتكلم كثيرًا، ولكنها تكلم الجد، تصرخ فيه، وهى تبدو خائفة أيضًا، وإنك لتكاد تراه جالسًا هناك يزوم فى وجهها كما اعتاد أن يفعل، يضرب بإصبعه على صدره ويزوم، تبدو كأنها تراه جالسًا هناك أيضًا، إنها تسقيه العذاب، اسمع، لقد أعطانى أبى عشرين دولارًا لأعطيها لك، فهو لا يعلم كم ستحتاج، هل رأيت أمى أبدًا تقف فى وجهه كما فعلت اليوم؟».

«لا، لا أذكر، بالتأكيد أنا خرجت بالإفراج الشرطى فى الوقت المناسب، ظننت أننى سأنام وأستيقظ متأخرًا وآكل كثيرًا عندما أرجع إلى البيت، ظننت أننى سأخرج وأرقص وأعبث، وها أنذا ليس لدى الوقت لأفعل أى شىء من هذا».

فقال «آل»: «نسيت، لقد قالت لى الأم أشياء كثيرة لأقولها لك، فهى تقول: لا تشرب شيئًا، ولا تدخل فى مجادلات، ولا تتشاجر مع أحد لأنها تقول إنها تخاف أن يصيدوك».

فقال «توم» لديها الكثير لكى تنشغل به ولا ينقصها التفكير فى متاعبى».

«حسنًا، يمكننا أن نحصل على زجاجتى بيرة فأنا فى غاية الشوق لزجاجة بيرة».

فقال «توم»: «لا أدرى... أبى سيلد قطيعًا من السحالى إذا اشترينا بيرة».

«حسنًا، اسمع يا «توم» إن معى ستة دولارات، فى إمكانى أنا وأنت أن نحصل على زجاجتين ونركن جانبًا، لا يعلم أحد أن معى هذه الدولارات الستة بحق المسيح، من الممكن أن نستمتع بوقت طيب».

فقال «توم»: «احتفظ بنقودك، عندما نصل إلى بر الأمان سنأخذها أنا وأنت ونفعل ما نشاء، ربما نفعل ذلك عندما نعمل». ثم التفت فى مقعده وقال: «لم أكن أظن أنك ممن لهم مغامرات عابثة، تصورت أنك من الذين يتكلمون فقط».

«حسنًا، يا للجحيم، أنا لا أعرف أحدًا هنا، إذا كنت سأظل أسوق طويلاً فلابد أن أتزوج، سأقضى وقتًا طيبًا عندما نصل إلى كاليفورنيا».

فقال «توم»: «أرجو ذلك».

«أنت لست واثقًا من شىء بعد؟».

«لا... لست واثقًا من شىء».

«عندما قتلت ذلك الرجل، هل، هل حلمت بذلك أبدًا؟ هل أقلقك هذا؟»

«لا»

«حسنًا، ألم تفكر فى الأمر أبدًا؟».

«بالتأكيد، كنت آسفًا لأنه مات».

«ولكن ألم تلم نفسك؟».

«لا، لقد أمضيت فترة الحكم... لقد أنفقت وقتى أنا هناك..».

«هل كانت الحياة سيئة جدًا.. هناك؟.

فقال «توم» بعصبية: «اسمع يا «آل» لقد أمضيت مدتى، والآن انتهى كل شىء وأنا لا أحب أن أذكرها مرة بعد أخرى، هناك النهر أمامنا وهناك المدينة، دعنا فقط نحاول الحصول على عمود التوصيل وإلى الجحيم بما عدا ذلك».

فقال «آل»: «الأم متحيزة لك جدًا، لقد حزنت عندما ذهبت، ولكن فيما بينها وبين نفسها، كأنها كانت تبتلع دموعها، ومع ذلك كان فى إمكاننا أن نعرف فيما تفكر».

وجذب «توم» قلنسوته إلى أسفل على عينيه: «والآن اسمع «آل»، ما رأيك أن نتكلم فى موضوع آخر؟».

«كنت أخبرك فقط بما صنعت أمى».

«عارف، عارف، ولكن، أنا أفضل ألا، أفضل أن أضع قدمًا أمام الأخرى فقط».

وغرق «آل» فى صمته وكأنه أحس بإهانة وقال بعد لحظة: «كنت أحاول فقط أن أخبرك». ونظر «توم» إليه، فاحتفظ «آل» ببصره أمامه مباشرة وترنحت سيارة النقل الخفيفة وهى تتقدم وانفرجت شفتا «توم» الطويلتان عن أسنانه وضحك برفق: «أنا أعلم ذلك يا «آل»، ربما كنت متوترًا، وربما حكيت لك عنها فيما بعد، أنت تعلم أنها مجرد شىء تريد أن تعرفه، شىء مثير، ولكن لدى فكرة طريفة وهى أنه من الأفضل أن أنسى كل شىء عنها لفترة، ربما تغيرت بعد فترة قصيرة، ولكن الآن عندما أفكر فيما حدث تهتاج أحشائى، وينتابنى إحساس كريه، اسمع يا «آل» سأقول لك شيئًا واحدًا، إن السجن شىء يدفع الإنسان إلى الجنون، فاهم؟ وهم يفقدون عقولهم فعلاً وأنت تراهم وتسمعهم وسرعان ما لا تستطيع أن تعرف ما إذا كنت قد جننت أم لا، وعندما يبدأون فى الصراخ فى الليل أحيانًا تظن أنك أنت الذى تصرخ، وفى بعض الأحيان يكون الأمر كذلك فعلاً».

فقال «آل»: «أوه، لن أتكلم فى هذا بعد ذلك يا توم»

فقال «توم»: «لا بأس بثلاثين يومًا، لا بأس بمائة وثمانين يومًا، ولكن أكثر من سنة... لا أعرف، هناك شىء فى الأمر، ليس له شبيه آخر فى

العالم، شيء مدمر، شيء مدمر فيما يتعلق بفكرة حبس الناس أصلاً، أوه، إلى الجحيم، لست أريد أن أتحدث عنها، انظر إلى الشمس وهى تنعكس على هذه النوافذ.

سارت السيارة حتى حزام محطة الخدمة، وهناك على الجانب الأيمن من الطريق كان مخزن خردة ـ قطعة أرض مساحتها فدان يحوطها سور عال من السلك الشائك وأمامها سقيفة من الصاج المضلع بجوار أبوابها. إطارات مستعملة مكومة، وقد ثبتت عليها الأسعار، وخلف السقيفة كانت هناك عشة صغيرة مبنية من الخردة، خشب خردة، وقطع من الصفيح، كانت النوافذ عبارة عن زجاج العربات الأمامى، موضوعة فى الجدران، وفى الأرض المعشوشبة رقد الحطام، سيارة التوت وانسحقت مقدمتها، سيارات جريحة راقدة على جوانبها بلا إطارات، محركات علاها الصدأ على الأرض مسندة على السقيفة، كومة من الخردة، إكصدامات، جوانب سيارات نقل، عجلات ومحاور، وحل التفسخ على الأرض كلها، العفن والصدأ، حديد ملوى. آلات فقدت نصف أجزاءها، كتلة من النفايات.

وقاد «آل» سيارة النقل على الأرض المشبعة بالزيت أمام السقيفة، وخرج «توم» ونظر فى مدخل الباب المظلم وقال: «لا أرى أحدًا» ثم نادى: «أيوجد أحد هنا؟».

«يا يسوع! أرجو أن يكون لديهم دودج ٢٥!».

واصطفق باب داخل السقيفة، ولاح طيف رجل فى السقيفة المظلمة، مجرد جلد نحيف قذر مزيت على عجلات مشدودة، كانت إحدى عينيه مفقودة، وحين تتحرك العين السليمة كانت عضلاتها تتلوى فى محجرها الخالى المكشوف، كان بنطلونه وقميصه من قماش سميك يلمع من الشحم المتراكم، وقد ملأت يديه الشقوق والخطوط والخدوش، وتدلت شفته السفلى الغليظة فى جهامة وعبوس.

سأل «توم»: «أنت المعلم؟».

ولمعت العين الواحدة وقال متجهمًا: «أنا أعمل عند المعلم، ماذا تريد؟».

«ألديك دودج ٢٥ خردة؟ نريد عمود توصيل».

«لا أعرف، لو أن المعلم هنا لأمكنه أن يخبرك ـ ولكنه ليس هنا، لقد عاد إلى منزله».

«هل يمكن أن ننظر ونرى؟».

ونفض الرجل أنفه فى راحة يده ثم مسحها على بنطلونه: «أأنتم من هذه النواحى؟».

«أتينا من الشرق، ذاهبون إلى الغرب».

«فتشوا إذًا، احرقوا هذا المكان الملعون، فهو لا يهمنى».

«يبدو أنك لا تحب معلمك أبدًا».

واقترب الرجل منهم متثاقلاً، وقال بصوت خفيض وقد احمرت عينه الوحيدة: «أنا أكرهه، أنا أكره ابن العاهرة هذا، لقد ذهب إلى منزله الآن، ذهب إلى منزله وبيته» وتساقطت الكلمات من فمه وهو يقول: «عنده طريقة يقرص بها الإنسان وينقض عليه ويمزقه، ابن العاهرة، يأتى بفتاة جميلة فى التاسعة عشرة ويقول لى، ما رأيك فى أن تتزوجها؟ يقول هذا فى وجهى، والليلة قال لى، هناك حفلة رقص، ما رأيك أن تذهب إليها؟ أنا، إنه يقول ذلك لى أنا». وتجمعت الدموع فى عينيه وتساقطت الدموع من زاوية محجر عينه المحمر: «فى يوم من الأيام، والله، فى يوم من الأيام سأضع فى جيبى مفتاحًا إنجليزيًا عندما يقول لى مثل هذا الكلام فهو ينظر إلى عينى، عندئذ، عندئذ سأفصل رأسه عن رقبته بهذا المفتاح فى ضربة

واحدة، ولهثت أنفاسه من فرط الغضب: «فى ضربة واحدة على رقبته».

واختفت الشمس خلف الجبال وجال «آل» ببصره على الأرض بين السيارات المحطمة وقال: «هناك، أنظر يا «توم»، هذه هناك تبدو كطراز ٢٥ أو ٢٦».

والتفت «توم» إلى الرجل ذى العين الواحدة: «ألديك مانع أن نراها؟»

«يا للجحيم، لا... خذوا أى شىء تريدونه».

ومشيا، متلمسين طريقهما بين السيارات الميتة، حتى وصلا إلى سيارة ذات باب واحد «سيدان» صدئة، استقرت على إطارات فارغة، وصاح: «آل»... فعلا إنها ٢٥، هل يمكن أن نفك المجموعة يا سيدى؟». ورجع «توم» ونظر أسفل السيارة وقال: «المجموعة مفكوكة فعلاً، وقد أخذ منها عمود يبدو أن واحدًا قد أخذه». ثم تلوى زاحفًا تحت السيارة وقال: «امسك عمود الكرنك ولفه يا «آل»، ثم جرب العمود على المحور وقال: «إنها مجمدة بالشحم» وأدار «آل» عمود الكرنك ببطء وناداه «توم» قائلاً: «على مهلك». ثم التقط شظية من خشب من على الأرض وحك بها طبقات الشحم من فوق كرسى التحميل وأربطته.

وسأل «آل»: «هل هى محكمة؟».

«حسنًا، مفكوكة بعض الشىء ولكن لا بأس بها».

«حسنًا، هل بليت؟».

«بها جلبة جيدة لم تبل كلها، نعم إنها تصلح، لفها على مهلك الآن، أنزلها، على مهلك ها... كذا. اجر إلى سيارة النقل وأحضر بعض العدد».

فقال الرجل ذو العين الواحدة: «سأحضر لك صندوق عدة». ثم مشى متثاقلاً بين السيارات الصدئة وعاد بعد لحظة ومعه صندوق عدة صفيح، وأخرج «توم» مفتاح صامولة ناوله لـ«آل»: «فكها لا تفقد أى جلب ولا تضع أى مسامير، اتبع أماكن الخوابير بسرعة فالعتمة تزداد».

زحف «آل» تحت السيارة وصاح: «لابد أن نحصل على طقم من مفاتيح الصواميل، لا يمكن أن نصل إلى أى مكان بمفتاح إنجليزى.

فقال «توم»: «ازعق إذا أردت مساعدة».

وقف الرجل ذو العين الواحدة بلا حول، وقال: «سأساعدكم إن أردتم، أتعرف ماذا فعل ابن العاهرة؟ لقد أتى وأحضر معه بنطلونًا أبيض اللون وقال، تعال معى نذهب إلى يختى، يا إلهى، سأدق رأسه يومًا، وتتابعت أنفاسه ثقيلة وهو يقول: «ألم أخرج مع امرأة منذ أن فقدت عينى، ومع ذلك فهو لا يكف عن مثل هذا الكلام معى». وشقت دموع كثيرة مجرى لها على جانبى أنفه المتسخ.

فقال «توم» بصبر نافد: «ولماذا لا تمشى من هنا، لا يوجد حراس يبقونك هنا».

«نعم. من السهل أن تقول هذا، ولكن ليس سهلاً أن يجد الإنسان عملاً، خصوصًا بالنسبة لرجل ذى عين واحدة».

فالتفت «توم» له وقال: «والآن اسمع يا صاحبى، أنت تحتفظ بهذه العين مفتوحة وواسعة، وتعيش قذرًا، ورائحتك عفنة، إنك تريد هذا لا شك، وتحبه، وذلك يجعلك تشعر بالأسى على نفسك، طبعًا لا يمكنك أن تحصل على امرأة وأنت تتجول بعينك الخالية هذه، ضع شيئًا عليها واغسل وجهك، أؤكد لك أنك لن تضرب أحدًا بالمفتاح الإنجليزى».

فقال الرجل: «صدقت، الرجل ذو العين الواحدة يواجه مصيرًا صعبًا، لا يمكن أن يرى الأشياء والأمور كما يراها الآخرون، لا يمكن أن يتبين أبعاد الأشياء، كل شىء مسطح بالنسبة له».

فقال «توم»: «أنت ملآن قذارة، لماذا؟ لقد عرفت مرة عاهرة ذات ساق واحدة، وظننت أنها ستأخذ ربع دولار فى المرة، ولكن لا والله، لقد كانت تأخذ نصف دولار زيادة، كانت تقول، كم امرأة لها ساق واحدة ضاجعتها؟ ولا واحدة، ثم تقول: «أوكيه» إنك تحصل على شىء جميل وخصوصى هنا وهذا سيكلفك نصف دولار زيادة. ولقد كانت تحصل عليه والله. ويخرج الرجال وهم يظنون أنهم محظوظون جدًا فقد كانت تقول إنها تجلب الحظ، ولقد عرفت أحدب فى.. فى مكان كنت فيه كان يكسب عيشه كله بأن يسمح للناس بأن يمسحوا على حدبته من أجل جلب الحظ، يا يسوع المسيح إن كل ما ينقصك هو عين واحدة!».

فقال الرجل، وقد تعثرت كلماته: «حسنًا. يا يسوع! إنك حين ترى أحدهم يتحاشاك فإن ذلك يحز فى نفسك».

«غطها إذًا، اللعنة، أنت تبرزها كأنها شرج بقرة، أنت تحب أن تشعر بالأسى على نفسك، ليس فى الأمر شىء بالنسبة لك، اشتر لنفسك بعض البنطلونات البيضاء، أراهن أنك تشرب وتبكى على سريرك.. أتحتاج أى مساعدة يا «آل»؟».

فقال «آل»: «لا، لقد فككت محور التحميل هذا، وأحاول أن أنزل البستم».

فقال «توم»: «لا تجرح نفسك».

وقال الرجل ذو العين الواحدة بصوت خافت: «أتظن أن إحداهن قد تحبنى».

فقال «توم»: «لماذا، بالتأكيد، قل لهن إن قدرتك كرجل قد تضاعفت منذ أن فقدت عينك».

«إلى أين أنتم ذاهبون يا جماعة؟».

«كاليفورنيا، كل العائلة، ننوى الحصول على عمل هناك».

«حسنًا، هل تظن أن رجلاً مثلى يمكن أن يجد عملاً؟ سأضع رقعة سوداء على عينى».

«لم لا؟. أنت لست عاجزًا».

«حسنًا، هل يمكن أن أركب معكم يا جماعة؟».

«بحق المسيح! لا، إننا مزحومون الآن لدرجة لعينة لا تسمح لنا بالحركة، اذهب بأى طريقة أخرى... أصلح واحدة من هذا الحطام وانطلق بنفسك».

فقال الرجل ذو العين الواحدة: «ربما... سأفعل ذلك يومًا والله».

وعلا صوت رنين معدنى وقال «آل»: «حصلت عليها!».

«حسنًا، أحضرها خارجًا، دعنا نراها، فناوله «آل» البستم وعمود التوصيل والجزء الأسفل من كرسى التحميل.

مسح «توم» سطح السبيكة وتأمل جوانبها وقال: «تبدو لى صالحة، والله لو أن لدينا ضوءًا لركبناها الليلة».

فقال «آل»: «اسمع يا «توم» لقد كنت أفكر أنه ليس لدينا ورد حديدية، وسيكون من الصعب تركيب الورد، خصوصًا من أسفل».

فقال «توم»: «أتعرف، قال لى رجل مرة، إنه من الممكن أن نلف بعض قطع السلك الرفيع من النحاس الأصفر حول الحلقة لتمسكها».

«أيوه، ولكن كيف ستخرج قطع السلك؟».

«أنت لا تخرجها، فهى تذوب ولا تسبب ضررًا».

«ربما كان السلك النحاس الأحمر أفضل؟».

فقال «توم» ليس متينًا بدرجة كافية» ثم التفت إلى الرجل ذى العين الواحدة وقال: «ألديك أى سلك نحاس أصفر؟».

«لا أعرف، أظن هناك لفة فى مكان ما، أين تظن يمكن أن يجد الإنسان واحدة من هذه الرقع التى يرتديها الذين لهم عين واحدة؟».

فقال «توم»: «لا أعرف، دعنا نرى إذا كنت تستطيع أن تجد هذا السلك».

وبحث فى الصناديق فى السقيفة حتى وجدوا اللفة، وربط «توم» العمود على منجلة، ولف السلك بعناية حول حلقات البستم وهو يشد عليها فى أخاديدها بعمق. وحيث التوى السلك كان يدق عليه حتى يفلطحه. ثم لف البستم ودق على السلك من جميع الجهات حتى اختفى من على سطح البستم وجرى بأصابعه عليه كله ليتأكد من أن السلك والحلقات كانت فى مستوى السطح، كانت الدنيا تزداد ظلامًا فى السقيفة وأحضر الرجل ذو العين الواحدة بطارية يد وسلط ضوؤها على مكان العمل وقال «توم»: «انتهينا، اسمع كم تأخذ مقابل هذه البطارية؟».

«حسنًا، إنها ليست جيدة، تحتاج إلى بطاريات جديدة بخمسة عشر سنتًا، تستطيع أن تأخذها مقابل خمسة وثلاثين سنتًا».

«أوكى، وبكم نحن مدينون مقابل عمود التوصيل والبستم هذا؟».

ومسح الرجل ذو العين الواحدة جبهته بظافره فتقشر عنها خط من القذارة. وقال: «حسنًا يا سيدى، لست أعرف، لو أن المعلم كان هنا،

لذهب إلى كتاب قطع الغيار وعرف ثمن القطعة الجديدة، وبينما أنت تعمل يتبين مدى حاجتك لها وكم من النقود معك، وعندئذ ـ حسنًا افرض أنها بثمانية دولارات فى كتاب قطع الغيار ـ سيحدد لك سعرها بخمسة دولارات، فإذا ما صرخت فى وجهه فإنك ستحصل عليها مقابل ثلاثة دولارات، أنت تقول إنه أنا الذى أنوح، ولكن لا والله هو ابن الزانية، فهو يتبين مدى احتياجك لها، لقد رأيته يحصل على ثمن حلقة تروس أكثر مما يدفع فى سيارة كاملة».

«إيه، ولكن كم سأدفع لك مقابل هذه؟».

«حوالى دولار فيما أعتقد».

«حسنًا، وسأعطيك مقابل مفتاح الصواميل هذا ربع دولار، فهو يسهل الأمر». وناوله النقود وقال: «شكرًا، ولتغطى هذه العين اللعينة».

ودخل «توم» و«آل» فى سيارة النقل، كان الظلام دامسًا، وأدار «آل» المحرك وأضاء نورها، وصاح «توم»: «إلى اللقاء، ربما رأيناك فى كاليفورنيا»، ثم دارا على الطريق وانطلقا عائدين.

وراقبهما الرجل ذو العين الواحدة وهما يذهبان ثم عبر السقيفة الحديدية إلى العشة خلفها، كانت ظلامًا بالداخل فتحسس طريقه إلى المرتبة على الأرض وتمدد وبدا يبكى فى فراشه، ولم تفعل السيارات التى كانت تئز مارة على الطريق العام إلا أن فاقمت من إحساسه بالوحدة.

قال «توم»: «لو أنك قلت لى أننا سنجد هذه القطعة ونحصل عليها الليلة لقلت إنك مجنون».

فقال «آل»: «حسنًا، لقد حصلنا عليها فعلاً، لابد أن نركبها، ولو أننى أخشى أن تكون محكمة جدًا فتحترق أو سائبة جدًا فتنفلت».

فقال «توم»: «سأركبها، فإذا خرجت مرة أخرى فلتخرج، لن أفقد شيئًا».

وتفرس «آل» فى الغسق، كانت الكشافات لا تترك أثرًا فى الظلام، ولكن أمامهما لمعت عينان خضراوتان لقطة برية وهى تعكس الضوء، قال «آل»: «لقد نلت من هذا الرجل تمامًا، علمته فعلاً أين يضع قدميه».

«حسنًا، عليه اللعنة لقد كان يريد ذلك، فهو ينوح على نفسه لمجرد أنه ذو عين واحدة، واضعًا كل اللوم على عينه، إنه كسول، قذر، ابن زانية، ربما استطاع أن يخرج من هذه الحالة لو أن الناس يعاملونه بحكمة».

قال «آل»: «توم»، إن وصلة التحميل هذه لم تحترق بسبب شىء فعلته أنا».

سكت «توم» لحظة ثم قال: «سأكلمك بصراحة، يا «آل». إنك مجرد جحش يتمحك فى سيسى، يخشى أن يلقى عليه أحد اللوم، أنا أعرف ما الذى حدث، أنت مجرد شاب صغير ملىء بالبول.. ويريد أن يكون رجلاً طول الوقت. ولكن، اللعنة على هذا يا «آل»، لا داعى لأن تظل يقظًا طول الوقت بينما لا يهاجمك أحد، وستكون على ما يرام».

لم يرد عليه «آل». وشخص ببصره أمامه مباشرة وقعقعت وطرقعت السيارة على الطريق، وقفزت قطة من جانب الطريق فمال «آل» بالسيارة لكى يصدمها ولكن العجلات أخطأتها وقفزت القطة فى العشب.

قال «آل»: كدت أصيبها، اسمع يا «توم» هل سمعت «كونى» وهو يتحدث عن أنه سيدرس دراسات مسائية؟ لقد فكرت أنه يمكن أن أدرس فى المساء أيضًا، أنت عارف، راديو أو تليفزيون أو محركات ديزل، من الممكن أن يبدأ الإنسان بهذه الطريقة.

فقال «توم»: «ربما أعرف أولا كم سيستخلصون منك مقابل الدروس، وتبين ما إذا كنت تستطيع أن تذاكرها. لقد كان هناك من يدرس مثل هذه الدروس فى «ماك اليستر» ولم أر أحدًا منهم انتهى منها، فهم يملونها ويتركونها».

«يا إلهى القدير! لقد نسينا أن نأتى بشىء نأكله».

«حسنًا، لقد أرسلت الأم ما يكفى، والواعظ لا يمكن أن يأكله كله، سيبقى بعضه، يا ترى كم من الوقت يتطلبه الوصول إلى كاليفورنيا؟؟».

«بحق المسيح لست أعـرف! نحن ننطلق نحوها بكل طاقتنا فحسب».

وصمتا وحل الظلام وكانت النجوم بيضاء لامعة.

عُندما توقفت سيارة اللورى خرج «كيزى» من المقعد الخلفى لسيارة الدودج ومشى إلى جانب الطريق وقال: «لم أتوقع مجيئكم بهذه السرعة».

جمع «توم» قطع الغيار فى قطعة الخيش على الأرضية وقال: «كنا محظوظين، حصلنا على بطارية أيضًا، وسنصلحها الآن».

فقال «كيزى»: «نسيتما أن تأكلا».

«سأتناول طعامى عندما انتهى. هيا يا «آل» اجذب العمود قليلاً وتعال امسك لى النور». وذهب مباشرة إلى الدودج وزحف تحتها على ظهره، وزحف «آل» تحتها على بطنه، ووجه ضوء البطارية ناحية «توم»، فقال «توم»: «ليس فى عينى هنا، وجهه هناك فوق، وركب «توم» البستم فى السلندر وهو يلفه ويبرمه، واحتك السلك بعض الشىء فى جدار السلندر فدفعه بعنف وسرعة خلال الحلقات: «من حسن الحظ أنها سائبة وإلا عاقها الضغط عن الدخول، أعتقد أنها ستعمل بشكل لا بأس به».

فقال «آل»: «أرجو ألا يسد السلك الحلقات».

«حسنًا، هذا ما جعلني أدقه وأسويه، لن ينفك وأعتقد أنه سيذوب وربما بطن الجدار ببطانة نحاسية».

«أظن، ربما أضر بالجدران».

فضحك «توم» وقال: «يا يسوع المسيح! هذه الجدران يمكنها أن تتحمل، فهى تشرب الزيت كأنها جحور الجرذان الآن، وزيادة قليلة لن تضرها».

وركب العمود على المحور واختبر النصف الأسفل وقال: «سنحتاج إلى جلبة «كيزى»...».

«أيوه..».

«سأرفع كرسى التحميل هذا الآن. اذهب إلى عمود الكرنك ولفه ببطء حتى أقول لك». ثم ربط الصواميل بشدة.

«والآن، تأن ببطء». وبينما كان المحور ذو الزوايا يدور ركب عليه كرسى التحميل وقال:

«الجِلْبة كبيرة، امسكها يا «كيزى»، ثم فك المسامير وأزال طبقات رقيقة من كل جانب وأعاد المسامير. «حاول مرة أخرى يا «كيزى».. ثم ركب العمود ثانية، مازالت سائبة إلى حد ما، أخشى أن تصبح أكثر إحكامًا إذا أزلت طبقات أخرى،سأحاول». ومرة أخرى أزال المسامير ثم نزع زوجًا آخر من الطبقات الرقيقة وقال: «والآن حاول ثانية يا «كيزى».

فقال «آل»: «هذه تبدو جيدة».

ونادى «توم» قائلاً: «أمن الصعب تحريكها يا كيزى؟»

«لا، لا أظن ذلك».

حسنًا، أعتقد أنها مستريحة هكذا، أتمنى على الله أن تكون مستريحة، لا يمكن أن أحشو أى سبائك بدون عدد. إن مفتاح الصواميل هذا مسهل للأمر كثيرًا».

فقال «آل»: «سيجن صاحب مخزن الخردة حين يبحث عن مفتاح من هذا المقاس ولا يجده».

فقال «توم»: «هذا نتيجة عبثه، نحن لم نسرقه، ثم دق الخوابير وثنى أطرافها وقال: «أعتقد أن هذا جيد، انظر «كيزى»، امسك هذا الضوء حتى أرفع أنا و«آل» المجموعة».

وركع «كيزى» وأخذ البطارية، وظل محتفظًا بالنور فوق الأيدى التى تعمل وهى تدق على التيلة برفق فى أماكنها وتعيد مسامير المجموعة إلى الثقوب، وأنَّ الرجلان تحت ثقل المجموعة، وأمسكا بالمسامير الطرفية ثم ثبتا الآخرين، وعندما شبكوها كلها أخذ «توم» يرفعها ببطء حتى استقرت المجموعة أخيرًا على التيل، ثم أحكم الرباط على الصواميل.

قال «توم»: «أعتقد أنها أصلحت» وأحكم صنبور الزيت ونظر بعناية إلى المجموعة ثم أخذ البطارية وفحص الأرض، انتهينا، دعنا نعيد إليها الزيت».

وزحفا خارجين وصبا جردل الزيت فى خزانة الكرنك وتفحص «توم» التيل بحثًا عن أى رشح.

وقال: «أوكى «آل»، أدرها!». ودخل «آل» السيارة وداس على المارش وزأر المحرك وهو يدور، وانساب الدخان الأزرق من «ماسورة» العادم وصاح «توم»: «قلل البنزين فستظل تحرق الزيت حتى يذوب السلك،

ها هو ذا يخف الآن». وعندما دار المحرك أنصت بعناية ثم قال: «عشَّق، ودعها تدر ببطء» ثم أنصت، وقال: «أوكى «آل»، أوقفها أعتقد أننا قد أصلحناها، والآن إتنى باللحم».

فقال «آل»: «لقد قمت بعمل ميكانيكى جيد مثير للإعجاب»

«ولم لا؟ لقد عملت فى ورشة عامًا كاملاً، ستسير بها ببطء مسافة مائتى ميل لنعطيها فرصة لكى تلين».

ومسحا أيديهما المغطاة بالشحم بحزم من العشب ثم مسحاها فى آخر الأمر على البنطلونات وانكبا جائعين على لحم الخنزير المسلوق وعبا الماء من الزجاجة.

وقال «آل»: «أكاد أهلك جوعًا، ماذا سنفعل الآن، هل سنذهب إلى المعسكر؟».

فقال «توم»: «لا أعرف، ربما تقاضوا منا نصف دولار آخر، لنذهب ونتفاهم مع الجماعة نقول لهم إننا قد أصلحناها وعندئذ إذا أرادوا أن يأخذوا منا زيادة، سنمضى.. الجماعة تريد أن تعرف ماذا تم. يا يسوع! أنا سعيد لأن الأم قد أوقفتنا عصر اليوم، انظر حولك بالبطارية يا «آل» وتأكد أننا لم نترك شيئًا. أدخل مفتاح الصواميل هذا فقد نحتاج إليه ثانية». وتكشف «آل» الأرض بالبطارية وقال: «لا أرى شيئًا».

«حسنًا، سأقودها، أحضر أنت سيارة النقل». وأدار «توم» المحرك ودخل الواعظ إلى السيارة وتحرك «توم» ببطء محتفظًا بالمحرك على سرعة منخفضة. وتبعه «آل» فى سيارة النقل، وعبر المنخفض الواطئ ببطء وقال «توم»: «سيارات الدودج هذه تستطيع أن تجر منزلاً وهى على سرعة منخفضة، إنها فعلاً مصممة جيدًا، شىء مفيد لنا. أريد أن ألين كرسى التحميل هذا على مهل».

وعلى الطريق العام تحركت الدودج ببطء وقد ألقت كشافاتها الأمامية ذات الاثنى عشر فولتًا حزمة قصيرة من الضوء الأصفر على أرض الطريق.

والتفت «كيزى» إلى «توم» وقال: «إننى أعجب كيف يمكنكم يا جماعة أن تصلحوا سيارة، يكفى أن تلقوا نظرة عليها لكى تصلحوها، لا يمكننى أن أصلح أى سيارة، ولا حتى بعد أن شاهدتكم تفعلون هذا».

فقال «توم»: «لابد أن تتمرن على ذلك منذ الصغر، إنها ليست المعرفة فقط، إنها شىء أكثر من ذلك، إن الفتيان يستطيعون الآن أن يفكوا سيارة دون أن يكلفهم ذلك جهد التفكير».

وأحاطت الأنوار بأرنب برى يقفز على الطريق، ويتقدم على مهل وأذناه الكبيرتان تتهدلان مع كل قفزة، وبين الحين والحين يحاول أن يخرج من على الطريق ولكن حائط الظلام كان يصده راجعًا، وعلى البعد أمامهم لمعت كشافات أمامية انصبت عليهم. تردد الأرنب وارتبك ثم استدار ومشى مواجهًا أنوار الدودج الأضعف. وعندما وقع تحت العجلات اهتزت العربة هزة خفيفة صغيرة ومرت السيارة القادمة بسرعة.

قال «كيزى»: «لقد سحقناه بالتأكيد».

فقال «توم»: «بعض الناس يحبون أن يضربوهم، ولكن ذلك يصيبنى برعدة فى كل مرة، السيارة تبدو سليمة، لابد أن هذه الحلقات قد لانت الآن فهى لا تدخن بدرجة سيئة».

فقال «كيزى»: «لقد قمت بعمل طيب».

أرض المعسكر يشرف عليها منزل خشبى صغير. تعلق على مدخله الخارجى كلوب يضاء بالجاز، يئز، ويلقى دائرة واسعة من الوهج الأبيض

حوله، وهناك نصف دستة من الخيام قد دقت بالقرب من المنزل والسيارات تقف بجوارها. كان طبخ طعام المساء قد انتهى، ولكن الجمرات فى أكوام النار لا تزال متوهجة على الأرض بجوار أماكن المخيمات، تجمع جمع من الرجال عند المدخل الخارجى حيث يضىء الكلوب، وبدت وجوههم قوية مشدودة العضلات تحت النور الأبيض ذى الفحيح، النور الذى يلقى بظلال سوداء من قبعاتهم على جباههم وعيونهم، ويجعل ذقونهم تبدو كأنها أكثر بروزًا إلى الأمام، جلسوا على الدرج والبعض وقف على الأرض، وقد ارتكز بمرافقه على أرضية المدخل، جلس المالك، وهو رجل نحيل مكتئب فى كرسى على المدخل، مال إلى الخلف مستندًا إلى الحائط، وأخذ يضرب بأصابعه على ركبتيه ويضىء المنزل من الداخل مصباح جاز ولكن وهج الكلوب البترولى ذى الصفير كان يخسف ضوء المصباح، تجمع الرجال وتحوطوا المالك.

ساق «توم» سيارة الدودج إلى جانب الطريق وتوقف بينما ساق «آل» سيارة النقل عبر البوابة وقال «توم»: «لا ضرورة لإدخالها، ثم خرج ومشى عبر البوابة إلى وهج الكلوب الأبيض، وأنزل المالك قدمى كرسيه الأماميتين على الأرض ومال إلى الأمام وسأل: «هل تريدون أيها الرجل أن تعسكروا هنا؟».

فقال «توم»: «لا، لنا جماعة هنا، هاى، أبى».

كان الأب جالسًا على السلم السفلى وقال: «ظننت أنك ستمكث أسبوعًا، هل أصلحتها؟».

فقال «توم»: «كان لنا حظ خنزير! حصلت على قطعة غيار قبل الظلام، ويمكن أن نستأنف السير فى الصباح فورًا».

فقال الأب: «هذا شىء جميل جدًا، كانت أمك قلقة، وفقدت الجدة وعيها».

«أيوه، أخبرنى «آل»، ألم تتحسن الآن؟».

«حسنًا، على أى حال فهى نائمة».

قال المالك: «إذا أردت أن تدخل هنا وتعسكر فسيكلفك ذلك نصف دولار مقابل مكان تعسكر فيه، وماء وخشب، ولن يضايقك أحد».

فقال «توم»: «يا للجحيم فى إمكاننا أن ننام فى المنخفض بجوار الطريق ولن يكلفنا هذا شيئًا».

وضرب المالك على ركبته بأصابعه: «سيأتى الدرك فى الليل، ومن الممكن أن يتعبكم، قانون الولاية يمنع النوم فى العراء، وهناك قانون بخصوص المشردين».

«وإذا دفعت لك نصف دولار، لا أصبح مشردًا؟ هيه؟».

«هذا صحيح!».

ولمعت عينا «توم» من الغضب: «إن رجل الدرك ليس نسيبك على أى حال».

فمال المالك إلى الأمام وقال: «لا... ليس نسيبى. كما لم يحن الوقت بعد الذى يمكن أن يتطاول فيه الصياع الملاعين على أهالى المنطقة».

«لن يزعجك أبدًا أن تأخذ منا النصف دولار، ولكن متى نصبح صياعًا؟ نحن لا نسألك شيئًا، كلنا صياع هيه؟ حسنًا، نحن لا نطلب منك نقودًا مقابل منحك الفرصة فى أن ترقد وترتاح».

كان الرجال على المدخل الخارجى ساكتين متصلبين، لا يبدون حراكًا، غابت عن وجوههم التعابير وتحولت عيونهم فى الظل تحت قبعاتهم، تحولت خفية تنظر إلى وجه المالك.

ودمدم الأب قائلاً: «أوقف هذا الحديث يا توم».

«بالتأكيد سأوقفه».

كانت دائرة الرجال ساكنة وهم جالسون على السلالم أو واقفون وقد ارتكزوا على المدخل العالى، ولمعت عيونهم تحت ضوء الكلوب الشديد وقد كسى الضوء العنيف وجوههم بعلامات القسوة، وقفوا ساكنين بلا حراك، تحركت عيونهم تنظر من متكلم إلى متكلم، ووجوههم بلا تعبير وهادئة، واصطدمت فراشة ليل بالكلوب وحطمت نفسها وسقطت فى الظلام، وفى إحدى الخيام بكى أحد الأطفال شاكيًا وصوت امرأة عذب يهدهده ثم غنت فى صوت خفيض، يسوع يحبك فى الليل، نم جيدًا، نم جيدًا، يسوع يرعاك فى الليل، نم، هوه هوه هوه...».

صفر الكلوب فوق المدخل وحك المالك فى فتحة قميصه حيث برزت خصلة من شعر الصدر الأبيض، كان يقظًا ويتوقع المتاعب، راقب وجوه الرجال فى الحلقة، بحثًا عن أى تعبير فيها، ولكن الرجال لم تبد عليهم أى حركة.

وظل «توم» صامتًا لوقت طويل، ونظرت عيناه السوداوان ببطء إلى المالك وقال: «لست أريد أن أثير المشاكل، من الصعب أن يقال للإنسان إنه صايع، لست خائفًا». ثم استطرد بصوت خائفًا: «سأنازلك أنت ودركك بيدى... هيا الآن، أو تنح، يا يسوع ولكن لا فائدة فى هذا».

وتململ الرجال، وغيروا مواقفهم، وتحولت عيونهم اللامعة ببطء إلى فم المالك، وتعلقت عيونهم بشفتيه فى انتظار كلماته، عادت إليه طمأنينته وقد أدرك أنه قد كسب الجولة، ولكنه لم يكن واثقًا بدرجة تجعله يهاجم، فسأل: «أليس معك نصف دولار؟».

«أيوه، معى نصف دولار، ولكنى سأحتاج إليه، ولن أضيعه مقابل النوم».

«حسنًا، كلنا يجب أن يكسب عيشه».

فقال «توم»: «أيوه، ولكننى أود فقط أن تكون هناك طريقة أخرى غير أن تأخذه من شخص آخر».

وتململ الرجال ثانية، وقال الأب: «سنمضى مبكرًا جدًا، اسمع يا سيدى لقد دفعنا، وهذا الرجل واحد من جماعتنا، ألا يمكن أن يبقى؟ لقد دفعنا فعلاً».

فقال المالك: «السيارة بنصف دولار».

«حسنًا، ليس معه سيارة... السيارة هناك على الطريق».

فقال المالك: «لقد جاء فى سيارة، وإلا كان كل واحد يأتى إلى هنا ويترك سيارته خارجًا ويستخدم مكانى بلا مقابل».

فقال «توم»: «سنسير على الطريق، وسنقابلكم فى الصباح، سنترقبكم، يستطيع «آل» أن يبقى وليأت معنا العم «جون» ثم نظر إلى المالك وقال: أيناسبك هذا؟».

واتخذ المالك قراره بسرعة، متنازلاً فيه، وقال: «إذا كان نفس العدد الذى سيبقى هو الذى جاء من قبل ودفع... لا بأس».

وأخرج «توم» كيس التبغ وقد أصبح خرقة رمادية رخوة به بعض التبغ الرطب فى قاعه، ولف سيجارة رفيعة ثم طوح بالكيس وقال: «سنذهب حالاً».

وتكلم الأب موجهًا حديثه للحلقة كلها: «إنه لأمر قذر صعب أن

تتفرق الجماعة وتذهب، جماعة مثلنا كان لها بيتها، لم نكن معدمين حتى أخرجتنا الجرارات، كنا نمتلك مزرعتنا الخاصة».

وأدار رجل صغير السن نحيف بحاجبين أصفرين لوحتهما للشمس، أدار رأسه وسأل: «مزارعى غلال؟».

«فعلاً، كنا مزارعى غلال، كنا نملك أرضًا».

ونظر الشاب مرة أخرى أمامه وقال: «مثلنا».

وقال الأب: «من حسن الحظ أن ذلك لن يدوم طويلاً، سنذهب إلى الغرب وسنعمل وسنحصل على قطعة من أراضى الزراعة بها ماء».

وقف رجل مهلهل بالقرب من حافة المدخل الخارجى، وقد تدلت من معطفه الأسود أشرطة مهلهلة وبلى بنطلونه القطنى السميك الأزرق فوق الركبتين، واسود وجهه بفعل الغبار وقد تخطط حيث غسله العرق، وطوح رأسه ناحية الأب وقال: «لابد يا جماعة أن لديكم قدرًا معقولاً من المال».

فقال الأب: «لا.. لم يكن لدينا النقود، ولكن هناك كثيرين منا يستطيعون العمل، ونحن الرجال جميعًا بخير، وسنحصل على أجور طيبة هناك، سنجمعها معًا وذلك يعطى حصيلة طيبة».

وحملق الرجل ذو الأسمال والأب يتكلم ثم ضحك، ثم تحولت ضحكته إلى ما يشبه الصفير والصليل العالى، واستدارت إليه وجوه الحلقة كلها، وخرجت القهقهة عن سيطرة الرجل وتحولت إلى سعال واحمرت عيناه ودمعت حتى استطاع فى النهاية أن يسيطر على النوبات التى انتابته، وقال: «ستذهبون إلى هناك بحق المسيح!» ثم توقف وقال بخجل: «ربما ستجمعون البرتقال؟ ستجمعون الخوخ؟».

وتكلم الأب بنبرة إباء: «سنعمل فيما لديهم، إن لديهم العديد من الأشياء لنعمل فيها» وقهقه الرجل ذو الأسمال بأنفاس متقطعة والتفت إليه «توم» مهتاجًا وسأله: «ما الغريب فى هذا الأمر؟».

وأغلق الرجل ذو الأسمال فمه ونظر متجهمًا إلى ألواح المدخل الخشبية وقال: «أراهن على أنكم جميعًا يا جماعة ذاهبون إلى كاليفورنيا».

فقال الأب: «لقد قلت لك هذا، لم تستنتج شيئًا من نفسك».

فقال الرجل ذو الأسمال ببطء: «أنا.. أنا عائد، لقد كنت هناك!».

والتفت إليه الوجوه بسرعة وتوتر الرجال، وتحول فحيح الكلوب إلى تنهيدة، أنزل المالك رجلى الكرسى الأماميتين على الأرض ووقف ونفخ الكلوب حتى عاد الفحيح عاليًا حادًا مرة أخرى. وعاد إلى كرسيه، ولكنه لم يمل به إلى الوراء ثانية، واستدار الرجل ذو الأسمال والتفت إلى الوجوه وقال: «أنا عائد لكى أموت من الجوع، فأفضل أن أهلك جوعًا على الفور وأنتهى».

فقال الأب: «عن أى شىء تتكلم بحق الجحيم؟ معى إعلان يقول إن هناك أجورًا طيبة، ومنذ وقت قليل رأيت فى إحدى الصحف ما يقول إنهم يحتاجون إلى الناس هناك لكى يجمعوا الفاكهة».

والتفت الرجل ذو الأسمال إلى الأب وقال: «هل لديك مكان تذهب إليه هناك فى موطنك؟».

فقال الأب: «لا، لقد طردنا، لقد مرروا جرارًا على أنقاض البيت».

«ألن ترجع إذًا؟».

«بالطبع لا».

فقال الرجل ذو الأسمال: «إذًا لن أخيفك».

«طبعًا أنت لن تخيفني، معى إعلان يقول إنهم يحتاجون إلى الرجال، ليس من المعقول أنهم لا يحتاجون إلى الرجال، إن طبع هذه الإعلانات يكلفهم نقودًا وما كانوا ليضيعوها لو أنهم ليسوا محتاجين إلى الرجال فعلاً».

«لست أريد أن أخيفك».

فقال الأب بغضب: «لقد أثرت مخاوفى ولن تسكت الآن، إعلانى يقول إنهم يحتاجون إلى رجال، أنت تضحك وتقول إنهم لا يريدون، والآن من الكاذب فيكم؟».

ونظر الرجل ذو الأسمال فى عينى الأب الغاضبتين وبدا عليه الأسف وقال: «الإعلان مضبوط وهم يحتاجون إلى رجال».

«إذًا لماذا بحق الجحيم تقلقنا بضحكاتك؟».

«لأنك لا تعرف أى نوع من الرجال يريدون».

«عن أى شىء تتكلم؟».

واستقر الرجل ذو الأسمال على قرار وقال: «اسمع، كم عدد الرجال الذين يقولون إنهم فى حاجة إليهم فى إعلانك؟».

«ثمانمائة، وهذا فى مكان واحد صغير».

«إعلان لونه برتقالى؟».

«لماذا... نعم».

«يقول اسم الرجل، كذا وكذا، مقاول عمال».

ودس الأب يده فى جيبه وأخرج الإعلان المطوى وقال: «هذا صحيح، كيف عرفت؟».

فقال الرجل: «اسمع، ليست معضلة، هذا المقاول يريد ثمانمائة رجل، وهو لهذا يطبع خمسة آلاف من هذا الإعلان، وربما رآها عشرون ألفًا من الناس، وربما تحرك ألفان أو ثلاثة آلاف بناء على هذا الإعلان، أناس أفقدهم القلق عقولهم».

فصاح الأب: «ولكن هذا غير معقول».

«ستصدق حين ترى الرجل الذى وزع هذه الإعلانات، ستراه، هو أو من يعمل لحسابه، ستكون معسكرًا فى منخفض بجوار الطريق أنت وخمسون عائلة أخرى وسينظر داخل خيمتك ليرى ما إذا كان قد بقى لديك شىء لتأكله، فإذا لم يكن لديك شىء فسيقول: أتريد عملاً، وستقول أنت: بالتأكيد يا سيدى، سأشكرك حتمًا إذا منحتنى فرصة القيام بعمل ما، وسيقول، يمكننى أن استخدمك، وستقول أنت: ومتى يمكن أن أبدأ، وسيقول لك: إلى أين يجب أن تذهب، ومتى، ثم يذهب. وربما كان محتاجًا لمائتى رجل ولهذا فهو يتكلم مع خمسمائة وهم يقولون لآخرين وعندما تذهب إلى المكان ستجد ألف رجل. وهنا يقول الرجل، سأدفع عشرين سنتًا فى الساعة. وربما يغادر نصف الرجال المكان، ولكن ما زال هناك خمسمائة، جوعى لدرجة أنهم سيعملون بلا مقابل إلا الخبز الجاف، حسنًا هذا الرجل لديه عقد لجمع الخوخ أو لجمع القطن، أفهمت الآن؟ كلما استطاع أن يحصل على عدد أكبر من الرجال وأكثر جوعًا، قل ما سيدفعه. وسيستخدم رجلاً مع أطفاله إذا استطاع، لأنه.. يا للجحيم لقد قلت إننى لا أريد أن أفزعكم». ونظرت إليه حلقة الوجوه فى برود واختبرت العيون كلماته. وتزايد وعى الرجل ذى الأسمال وقال: «لقد قلت

إنى لا أريد أن أفزعكم وها أنذا قد فعلتها، لابد أن تستمروا، لن ترجعوا».
وتعلق الصمت فوق المدخل وفجّ النور وحامت الهوام حول الكلوب فى هالة، واستمر الرجل ذو الأسمال فى كلامه بعصبية: «دعونى أقل لكم ماذا تفعلون حين تقابلون ذلك الرجل الذى يقول إن لديه عملاً، دعونى أقل لكم: اسألوه كم سيدفع، اطلبوا منه أن يكتب ما سينوى دفعه، اطلبوا منه ذلك أنا أقول لكم يا رجال إنكم ستخدعون إن تفعلوا ذلك؟».

ومال المالك إلى الأمام فى مقعده ليتمكن من رؤية الرجل القذر ذى الأسمال بشكل أفضل.

وحك الشعر الرمادى فى صدره وقال فى برود: «أمتأكد أنت أنك لست واحدًا من مثيرى الشغب؟ أواثق أنك لست عاملاً مزيفًا؟».

وصاح الرجل ذو الأسمال: «أقسم بالله أننى لست كذلك».

فقال المالك: «هناك الكثيرون منهم، يتجولون فى هذه الأنحاء يثيرون الاضطرابات، يفقدون الناس صوابهم، يتسللون إلى نفوس الناس، هناك الكثيرون منهم سيأتى الوقت الذى نشنقهم فيه جميعًا، كل مثيرى الشغب هؤلاء، سنطردهم من البلاد، الإنسان يريد العمل، حسنًا إن لم يرغب فليذهب إلى الجحيم، لن نسمح له بإثارة الاضطرابات».

وجمع الرجل ذو الأسمال شتات نفسه وقال: «لقد حاولت أن أقول لكم يا جماعة شيئًا تطلب منى عامًا بأكمله لأدركه، كلفنى موت طفلين وموت زوجة، ولكن من الصعب أن أقول لكم كل شىء، وكان يجب أن أعرف هذا.. لم يستطع أحد أن يقول لى ذلك أيضًا، لا يمكن أن أحكى لكم عن حال هؤلاء الأطفال الراقدين فى الخيام وقد انتفخت بطونهم ولم يعد غير الجلد على عظامهم. يرتعدون ويئنون كالجراء، وأنا أجرى أحاول أن أجد عملاً، ليس مقابل نقود ولا أجور». ثم صاح: «يا يسوع

المسيح! مقابل كوب من الدقيق فقط وملعقة من الدهن ثم يأتى طبيب الصحة ويقول لقد مات هؤلاء الأطفال بهبوط فى القلب ويكتب هذا فى أوراقه، كانوا يرتعشون وبطونهم امتدت أمامهم مثل مثانة الخنزير».

صمتت الحلقة وقد انفرجت الأفواه قليلاً وتلاحقت أنفاس الرجال قصيرة، وهم يراقبون الرجل، وتلفت الرجل ذو الأسمال حوله فى الحلقة ثم استدار واختفى بسرعة بعيدًا فى الظلام، ابتلعه الظلام ولكن وقع خطواته المتثاقلة ظل مسموعًا لفترة طويلة بعد ذهابه، خطوات على الطريق، ثم جاءت سيارة على الطريق العام وأظهرت أنوارها الرجل ذو الأسمال وهو يهرول على الطريق وقد تدلت رأسه، ووضع يديه فى جيبى معطفه الأسود.

كان الرجال يتململون، وقال أحدهم: «الوقت متأخر لابد أن نذهب للنوم».

وقال المالك: «ربما كان عواطليًا، هناك الكثيرون منهم على الطريق هذه الأيام» ثم سكت ومال بكرسيه مرة أخرى إلى الوراء وأسنده إلى الحائط وتحسس حنجرته بأصابعه.

قال «توم»: «أعتقد أننى سأذهب وأرى أمى دقيقة واحدة ثم سننطلق مسافة ما». وابتعد الرجال من عائلة «جود».

وسأل الأب: «افرض أن هذا الرجل يقول الحق؟».

فأجاب الواعظ: «إنه يقول الحق فعلاً، الحق بالنسبة له، لم يكن يؤلف شيئًا».

فسأل «توم»: «ماذا عنا؟ أهى الحقيقة بالنسبة لنا أيضًا؟»

قال «كيزى»: «لست أعرف».

وقال الأب: «لست أعرف».

ومشوا إلى الخيمة التى لم تكن إلا المشمع مشدودًا على حبل. كانت ظلامًا فى الداخل، وساكنة، وعندما اقتربوا تحركت كتلة رمادية بالقرب من الباب ونهضت فى مثل قامة الإنسان، جاءت الأم لتقابلهم.

قالت: «الجميع نيام، لقد غفت الجدة». ثم رأت «توم» فسألت بقلق: «كيف أتيت إلى هنا؟ ألم تواجه متاعب؟».

فقال «توم»: «لقد أصلحتها ونحن على استعداد للذهاب عندما يستعد الباقون».

فقالت الأم: «الحمد لله العزيز على هذا، أنا تواقة جدًا للذهاب أريد أن أصل إلى حيث الخضرة والخصب، أريد أن أصل إلى هناك بسرعة».

وسلك الأب حنجرته وقال: «هناك رجل كان يقول...».

أمسك «توم» بيده وشدها وقال: «غريب ما يقوله هذا الرجل، يقول إن هناك أناسًا كثيرين على الطريق».

وحملقت الأم فى الظلام! نحوهم وعلا شخير «روثى» فى نومها وسعلت داخل الخيمة، وقالت الأم: «لقد حممتها، أول مكان نحصل فيه على ماء كاف لكى أحميها، ولقد تركت الدلاء فى الخارج لكم يا رجال لتغتسلوا أيضًا، لا يمكن الاحتفاظ بشىء نظيف على الطريق».

سأل الأب: «هل الجميع بالداخل؟».

«الجميع فيما عدا «كونى» و«روزا شارن»، ذهبا ليناما فى العراء، يقولان إن الحر شديد جدًا تحت الغطاء».

فقال الأب ملاحظًا فى تذمر: «روزا شارن» هذه تتحول إلى فتاة خوافة جدًا وكثيرة الشكوى».

فقالت الأم: «إنه طفلها الأول وهى و«كونى» لديهما حكايات كثيرة عنه، لقد فعلت أنت نفس الشىء».

فقال «توم»: «سنذهب الآن وسنمضى على الطريق مسافة قصيرة، خذوا بالكم منا إن لم نركم، التزموا الجانب الأيمن».

«هل سيبقى «آل»؟».

«أيوه، اترك العم «جون» يأتى معنا، تصبحين على خير يا أمى».

ومشوا مبتعدين فى المخيم النائم، أمام إحدى الخيام، كانت هناك نار صغيرة متقطعة، وجلست امرأة تراقب إناء تطبخ فيه إفطارًا مبكرًا، كانت رائحة الفول المطبوخ قوية ولطيفة.

قال «توم» بأدب وهو يمر بها: «وددت لو حصلت على طبق منها».

وابتسمت المرأة وقالت: «مرحبًا ولكنها لم تنضج بعد، تعال عند طلوع النهار».

فقال «توم»: «شكرًا يا سيدتى»، وسار هو و«كيزى» والعم «جون» إلى المدخل الخارجى، كان المالك ما زال جالسًا على كرسيه والكلوب يفح ويتوهج وقد أدار المالك رأسه عندما مر به الثلاثة. وقال «توم»: «لقد نفد الجاز منك».

«حسنًا، لقد آن وقت الإغلاق على أى حال».

فقال «توم»: «لا أعتقد أن هناك مزيدًا من أنصاف الدولارات ستتدحرج من على الطريق إليك».

ودقت أقدام الكرسى على الأرضية وقال المالك: «لا تمضِ فى استثارتى، أنا أتذكرك، أنت واحد من مثيرى الشغب هؤلاء».

فقال «توم»: «مضبوط.. تمام.. أنا بلشوفسكى».

«هناك كثيرون منكم أيها الملاعين فى هذه الأنحاء و...».

وضحك «توم» وهم يخرجون من البوابة وصعد فى السيارة الدودج والتقط قطعة طين جافة وقذف بها ناحية النور وسمعوها تضرب فى جدار البيت، وشاهدوا المالك يقفز على قدميه ويحملق فى الظلام، وأدار «توم» السيارة وانطلق فى الطريق وأنصت بعناية للمحرك وهو يدور. أنصت لأى خلل، وامتد الطريق معتمًا أمام أنوار السيارة الكلبلة.

الفصل السابع عشر

زحفت سيارات المهاجرين من الطرق الجانبية إلى الطريق الكبير الذى يمر عبر البلاد كلها، واتخذوا طريق الهجرة نحو الغرب. فى النهار يزحفون كأسراب البق إلى الغرب. وعندما تهبط عليهم الظلمة يتجمعون كالبق قرب المأوى والماء، ولأنهم كانوا يشعرون بالوحدة، والارتباك، ولأنهم جميعًا جاءوا من أرض الحزن والقلق والهزيمة، ولأنهم جميعًا ذاهبون إلى مكان جديد غامض، كانوا يتلاحمون معًا ويتكلمون معًا، يتشاركون حياتهم وطعامهم وآمالهم فى الأرض الجديدة وهكذا يمكن أن تعسكر عائلة بالقرب من نبع، وأخرى تعسكر من أجل النبع والصحبة، وثالثة لأن عائلتين قد ارتادتا هذا المكان ووجدتاه صالحًا، وعندما تهبط الشمس، ربما كانت هناك عشرون أو ثلاثون سيارة.

وفى المساء يحدث شىء غريب، العشرون عائلة تصبح عائلة واحدة، الأطفال أطفال الجميع، خسارة البيت تصبح خسارة واحدة والأحلام الذهبية عن الغرب حلمًا واحدًا. وربما ألقى مرض طفل واحد باليأس فى قلوب العشرين عائلة، قلوب مائة من الناس. ومولد طفل واحد فى خيمة يجعل مائة من الناس يجلسون فى صمت وترقب فى الليل، ويملأ مائة من الناس ببهجة الميلاد فى الصباح. وقد تبحث عائلة أمضت الليلة

السابقة فى خوف وضياع، قد تبحث فى أمتعتها عن هدية لطفل جديد، فى المساء، حول النار تجلس، العشرون عائلة فى عائلة واحدة، يصبح كل مخيم وحدة واحدة، وليالى المخيم وأمسياته وحدة واحدة.

ويستخرج أحدهم قيثارة من بطانية ويعزف.. والأغانى. أصبحت أغانى كل الناس، تصدح فى الأمسيات، الرجال يغنون الكلمات، والنساء يدندن بالنغمات.

فى كل ليلة يقوم عالم جديد كامل بكل مكوناته. تعقد الصداقات وتجدد العداوات، عالم ملىء بالهجاصين والجبناء، بالهادئين والمتواضعين، بالرجال العطوفين، فى كل ليلة تقوم العلاقات التى تخلق العالم وفى الصباح يفك هذا العالم كما يفك السيرك.

فى البداية تتعثر العائلات وهى تبنى عوالمها فى وجل، وبالتدريج تصبح عملية بناء هذه العوالم هى نظام حياتهم، ويبرز القادة وتشرع القوانين، ثم تستقر اللوائح، وبينما تتحرك العوالم نحو الغرب، تصبح أكثر اكتمالاً ودقة فى الصنع، لأن بنائيها يصبحون أكثر خبرة فى بنائها.

وتتعلم العائلات أى حقوق ينبغى أن تصان ـ حق الخصوصية فى الخيمة، حق الاحتفاظ بالماضى سرًا مغلقًا فى القلوب، الحق فى أن تنصت وتتكلم، الحق فى أن تقبل المساعدة أو أن ترفضها، أن تقدمها، أو أن تمنعها، حق الفتى فى أن يغازل وحق الفتاة فى أن تغازل، حق إسكات الجوع، حق المريض والحامل فى أن يتخطى كل الحقوق الأخرى.

وتتعلم العائلات، برغم أن أحدًا لا يقول لها شيئًا، ما هى الحقوق الشاذة التى ينبغى أن تتحطم: حق التدخل فى الخصوصيات، حق إحداث الضجيج بينما المعسكر قد نام، حق هتك العرض والمضاجعة بالعنف،

حق الزنى والسرقة والقتل، كل هذه الحقوق تسحق لأن العالم الصغير لا يمكن أن يقوم ولا ليلة واحدة وهذه الحقوق قائمة.

وبينما تتحرك العوالم نحو الغرب، يصبح العرف قانونًا، برغم أن أحدًا لا يعلن ذلك للعائلات، غير مسموح قانونًا أن يدنس الإنسان الأرض بالقرب من المعسكر، غير مسموح قانونًا بأى حال أن يوسخ بالقرب من مياه الشرب، غير مسموح قانونًا أن يأكل أحدهم طعامًا طيبًا دسمًا بجوار آخر جائع إلا إذا سأله أن يشاركه الطعام.

ومع القوانين، العقوبات وهناك عقوبتان فقط ـ شجار دموى خاطف، أو النبذ. والنبذ كان الأسوأ، لأنه إذا خرق أحدهم القوانين فإن اسمه ووجهه يصاحبانه فى كل مكان، ولا يجد له مكانًا بعد ذلك فى أى عالم أينما وجد.

فى هذا العالم يصبح السلوك الاجتماعى ثابتًا وجامدًا، بحيث يقول الرجل صباح الخير إذا طلب منه ذلك. بحيث يحصل الرجل على فتاة مطيعة إذا أقام معها وأصبح أبًا لأطفالها ومنحهم حمايته. ولكن ليس للرجل أن يحصل على فتاة فى ليلة وأخرى فى الليلة الأخرى، لأن هذا يعرض العوالم للخطر.

وتتحرك العائلات نحو الغرب، ويتحسن أسلوب بناء عوالمه حتى يأمن الناس فيها، ويتحدد الشكل ويثبت بحيث تدرك العائلة التى تسير وفق قواعده أنها فى أمان فى ظل هذه القواعد.

ثم تظهر الحكومة فى هذه العوالم، لها قادتها، لها كبارها، الرجل الحكيم يجد أن حكمته مطلوبة فى كل مخيم والحماقة عملة لا يستطيع الأحمق أن يروجها فى عالمه، وينمو نوع من التأمين فى هذه الليالى، الرجل الذى معه طعام يطعم الرجل الجائع، وهكذا يؤمن نفسه ضد

الجوع، وعندما يموت طفل ترتفع كومة من العملات الفضية بجوار مصراع الباب، لأن الطفل ينبغى أن يدفن بشكل لائق، لأنه لم يكن يملك سوى حياته، من الممكن أن يترك الرجل العجوز فى مقبرة الفقراء، ولكن ليس الطفل.

ولكى يبنى عالم لابد له مواصفات طبيعية محددة ـ ماء. ضفة نهر، نهير، نبع، أو حتى صنبور ماء ليس عليه حراسة، ولابد أن تكون هناك أرض مسطحة كافية لإقامة الخيام، ودغل أو غابة صغيرة لكى تشتعل النيران، فإذا كان هناك مقلب زبالة على بعد معقول فلا بأس، فهناك يمكن العثور على بعض المهمات، أغطية للفرن، حاجز مقوس ندرأ به النار، وأكواز لكى يطبخ فيها ويؤكل منها.

وتقوم العوالم فى الأمسيات، الناس الذين يأتون من الطريق العام يقيمونها بخيامهم وقلوبهم وعقولهم.

وفى الصباح تتقوض الخيام ويطوى قماشها وتربط أعمدة الخيام على الرفارف ويوضع الفراش فى مواضعه على السيارات والآنية فى أماكنها، ومع تحرك العائلات نحو الغرب يصبح أسلوب بناء منزل فى الليل وهدمه عندما يحل نور الصباح، ثابتًا، وتصبح الخيمة المطوية فى مكان ثابت وأوانى الطبخ معدودة فى صندوقها، وكلما تحركت السيارات إلى الغرب يتخذ كل عضو مكانه الملائم فى العائلة، وتتحد شخصيته من خلال نهوضه بواجباته، حتى يصبح لكل عضو، عجوزًا كان أو شابًا مكانه فى السيارة، عندما تتوقف السيارات فى الأمسيات الحارة المتعبة، تتوقف فى مواقع المخيمات، فلكل عضو واجب يقوم به دون تعليمات: الأطفال تجمع الخشب وتحمل الماء، والرجال ينصبون الخيمة وينزلون الفراش، النساء يطبخن العشاء ويقمن على خدمة العائلة فى أثناء الأكل، كل هذا

يتم دون قيادة، العائلات التى كانت وحدات لها حدودها، منزل فى الليل ومزرعة فى النهار، تغيرت هذه الحدود، فى خلال النهار الطويل الحار، يصمتون فى سياراتهم التى تتحرك ببطء إلى الغرب، ولكنهم فى الليل يندمجون مع أى جماعة يجدونها.

وهكذا تتغير حياتهم الاجتماعية، تتغير لأن الإنسان فى كل هذا الكون هو وحده الذى يستطيع أن يتغير، كفوا عن أن يكونوا مزارعين وأصبحوا مهاجرين، والأفكار، والتدبير والصمت الشاخص الطويل الذى كان من نصيب الحقول يصبح على الطريق الآن، للأفق، للغرب.. هذا الرجل الذى كانت الفدادين تحوط تفكيره يعيش الآن مع الأميال الخرسانية الضيقة.

لم يعد ذهنه مشغولاً بنزول المطر، بالريح والغبار، لم يعد ذهنه مشغولاً بما تجود به المحاصيل وإنما أصبحت العيون متعلقة بالإطارات والآذان بدق المحركات والأذهان مشغولة بالزيت والبنزين.. وبالإطارات ترق بين الهواء والطريق. وعندما ينكسر ترس فإنها المأساة، الناس تحن للماء عند المساء وتشتهى الطعام فوق النار، والناس بحاجة إلى صحتها لكى يمكنها أن تواصل السير وإلى القوة لكى تتماسك، وإلى المعنوية لكى تستمر مشاعرهم تسبقهم نحو الغرب، والخوف الذى عرف يومًا الجفاف والفيضان، يترقب الآن أى شىء يمكن أن يوقف الزحف نحو الغرب.

وتستقر المخيمات ـ كل منها على بعد مسيرة يوم واحد من سابقها. وعلى الطريق، قد يستولى الفزع على بعض العائلات فتمضى فى سياراتها ليلاً ونهارًا تقف لتنام فى سياراتها، وتمضى نحو الغرب، هاربة من الطريق، هاربة من الحركة، الرغبة فى الوصول تتملكهم، فيولون وجوههم نحو الغرب ويندفعون إليه، ويجبرون سياراتهم الصاخبة على مواصلة المسير.

ولكن معظم العائلات يتغير، ويتواءم بسرعة فى الحياة الجديدة، وعندما تهبط الشمس...

حان الوقت للعثور على مكان للوقوف.

و... هناك بعض الخيام أمامنا.

وتخرج السيارة عن الطريق وتقف، ولأن الآخرين وصلوا أولاً فلابد من بعض المراسيم، ويطل رجل، قائد العائلة، يطل من السيارة: «أيمكن أن نقف هنا وننام؟».

«لماذا! بالتأكيد يشرفنا أن تأتوا، من أى ولاية أنتم؟».

«جئنا على طول من أركانسس».

«هناك أناس من أركانسس فى الخيمة الرابعة».

«هكذا؟».

ثم السؤال العظيم: «كيف حال الماء؟».

«حسنا ليست جيدة المذاق ولكنها وفيرة».

«حسنًا... شكرًا..».

«لا شكر على واجب».

«إن المراسيم تأخذ مجراها وتمضى السيارة فى تثاقل على الأرض إلى الخيمة الأخيرة وتقف ثم يهبط الناس المنهكون من فوقها ويفردون أجسادهم المتصلبة. ثم تنصب الخيمة الجديدة ويذهب الأطفال من أجل الماء والصبيان الأكبر سنًا يقطعون الأحطاب أو الأخشاب. وتبدأ النيران وفوقها العشاء مسلوقًا أو مشويًا، ويأتى الذين وصلوا مبكرين ويتبادلون الحديث والتعارف عن الولايات والأصدقاء، ويكتشف البعض وجود أقارب لهم.

«من أوكلاهوما هه؟». «من أى إقليم؟».

«شيروكى».

«لى أقارب هناك. أتعرف عائلة الينز؟ هناك أفراد منها فى كل شيروكى، أتعرف عائلة ويلزى؟».

«لماذا؟ بالتأكيد!».

وهكذا تتشكل وحدة جديدة، ويهبط الغسق وقبل أن يحل الظلام تكون العائلة الجديدة جزءًا من المخيم، كلمة تمر على كل عائلة، إنهم قوم معروفون.. قوم طيبون.

لقد عرفت عائلة «إلينز» طول عمرى «سيمون إلينز» «سيمون الكبير» كان لديه بعض المشاكل مع زوجته الأولى. كان بها عرق شيروكى، كانت جميلة، جميلة كالمهر الأسود.

فعلاً «وسيمون الصغير»، تزوج من عائلة «ردولف». ألم يفعل؟ هكذا فهمت، لقد ذهبوا ليعيشوا فى أنيد، وقد تحسنت حالهم، تحسنت فعلاً.

«أَلِنْ» فقط ـ هو الذى تحسنت حاله فعلاً امتلك جراجًا.

وعندما يأتى الماء وتقطع الأخشاب يمشى الأطفال فى خجل وحذر بين الخيام، وهم يؤمنون بوقار العارفين، ويقف صبى بجوار صبى آخر ويتأمل حجرًا ثم يلتقطه ويختبره عن قرب، يبصق عليه ثم يمسحه وينظفه حتى يرغم الآخر على أن يسأله «ماذا وجدت؟».

فيجيب بلا اهتمام: «لا شىء، مجرد حجر».

«حسنًا، لماذا تنظر إليه بهذه الطريقة؟».

«ظننت أننى رأيت فيه ذهبًا».

«كيف يمكنك أن تعرف؟ ليس الذهب ذهبًا، إن لونه أسود فى الصخر».

«بالتأكيد، كل إنسان يعرف هذا».

«أعتقد أنه ذهب زائف وأنت ظننت أنه ذهب».

«لا... ليس كذلك، لقد وجد أبى ذهبًا كثيرًا، وعلمنى كيف أبحث عنه».

«ما رأيك لو أنك وجدت قطعة ذهب كبيرة قديمة؟».

«يا... سأحصل على أكبر قطعة حلوى بنت زنى رأيتها فى حياتك».

«أنا لا أستخدم مثل هذه الألفاظ وإن كنت سأفعل مثلك على أى حال».

«وأنا أيضًا، لنذهب إلى النبع».

والفتيات الصغيرات يجدن بعضهن ويتفاخرن فى خجل عن آمالهن وحكايتهن. والنسوة تعمل بسرعة على النار لكى تعد الطعام لبطون العائلة ـ لحم خنزير إن كان هناك وفرة من النقود، لحم خنزير وبطاطس وبصل، بقسماط هولندى فى الفرن أو عيش ذرة وفوقه كثير من الصلصة، لحم، أو كستليتة، وكوز من الشاى المغطى مر وأسود، زلابيا فى قليل من الدسم إذا كانت النقود قليلة، زلابيا محمصة مقرمشة بنية اللون وعليها دسم قليل.

العائلات الغنية جدًا أو التى تتصرف فى نقودها بحماقة تأكل الفاصوليا المحفوظة والخوخ المحفوظ والخبز المغلف وكعكًا مصنوعًا فى الفرن، ولكنهم يأكلون سرًا فى خيامهم لأنه ليس من اللائق أن تأكل مثل هذه الأشياء الفخمة علنًا، ومع ذلك فالأطفال يشمون رائحة الفاصوليا وهى تسخن وهم يأكلون الزلابيا الجافة فيشعرون بالتعاسة.

وعندما يفرغ العشاء وتغسل الأطباق وتجفف ويحل الظلام، عندئذ يتربع الرجال ويتحدثون.

يتكلمون عن الأرض التى خلفوها، يقولون: لست أدرى ما الذى سيحل بها، لقد فسدت الأرض.

«ستعود إليها خصوبتها ولكننا لن نكون هناك».

ويفكرون، وربما، ربما ارتكبنا خطيئة ما دون أن ندرى عنها شيئًا.

قال لى رجل، من رجال الحكومة إن الأرض قد تشققت منا، وإننا لو حرثناها بطريقة دائرية فلن تتشقق، لم أجد الفرصة أبدًا لكى أحاول هذا، والخولى الجديد لا يحرثها بطريقة دائرية.. بل يشق خطًا لمسافة أربعة أميال دون أن يتوقف أو يتعوج، يا يسوع المسيح!.

ويتحدثون برفق وتأثر عن بيوتهم «كان هناك بيت صغير رطيب تحت طاحونة الهواء، اعتدت أن أحفظ اللبن هناك حتى يتزبد، والبطيخ، أدخل هناك فى الظهيرة عندما يكون الجو أسخن من العجلة فأجدها رطيبة كما هى، رطيبة كما تحب وتشتهى، لو قطعت بطيخة هناك فستبرد حتى تؤلم أسنانك عند الأكل، والماء يقطر من سقف الخزان.

ويتحدثون عن مآسيهم: كان لى أخ اسمه «شارلى». شعره أصفر فى لون الحنطة، رجل يافع يعزف جيدًا على الأكورديون أيضًا. كان يزحف الأرض ذات يوم وتقدم لينقى خطوطه، حسنًا، خرجت عليه حية من ذات الأجراس فجمحت الخيل وانقلبت الزحافة فوق شارلى وانغرست أسلحتها فى أحشائه وبطنه وقطعت و.. يا إلهى القدير!.

ويتحدثون عن المستقبل: ترى ماذا ستكون عليه الحال هناك، حسنًا الصور تبدو جميلة، شاهدت واحدة حيث المكان دافئ وجميل، أشجار

جوز وتوت، وخلفها مباشرة-كشرج بغل بين فخذيه ـ جبل طويل عال مغطى بالثلج كانت صورة جميلة تستحق الرؤية.

لو أننا استطعنا الحصول على عمل. لكان هذا جميلاً، لكن يكون الشتاء باردًا، والأطفال لن يتجمدوا وهم ذاهبون إلى المدرسة، سأعتنى بأن لا تفوت أطفالى الدراسة بعد ذلك، أستطيع أن أقرأ جيدًا ولكننى لا أجد فيها المتعة التى يجدها من اعتاد عليها.

وربما يأتى رجل بجيتاره أمام خيمته، يجلس على صندوق ليعزف ويتحرك كل واحد فى المخيم نحوه ببطء منجذبين نحوه. كثيرون يستطيعون العزف على الجيتار، ولكن ربما كان هذا الرجل أكثر حذقًا. هنا ستسمع شيئًا له قيمة، النغمات العميقة تدق، بينما الألحان تجرى عبر الأوتار كأنها وقع أقدام صغيرة، والأصابع الثقيلة الجافة تمشى على حواف الجيتار، يعزف الرجل، والناس تتحرك ببطء نحوه، حتى تكتمل الحلقة وتزدحم، عندئذ يغنى أغنية «القطن بعشرة واللحمة بأربعين»، وتغنى الحلقة معه بصوت خافت. ثم يغنى «بتقصوا الشعر ليه يا بنات؟»، وتغنى الحلقة معه. وينوح بأغنية: «أنا راحل عن تكساس القديمة»؛ هذه الغنوة القديمة التى كانوا يغنونها قبل أن يأتى الأسبان... إلا أن الكلمات وقتها كانت هندية.

والآن تندمج الجماعة كلها فى كل واحد، وحدة واحدة، وهكذا تغوص عيون الناس فى الظلام وتنشغل أذهانهم بما مضى، الحزن عندهم مثل الراحة والنوم، ثم يغنى أغنية: «ماك أليستر الأزرق»، وليطرب المسنين منهم يغنى: «يسوع ينادينى إلى جانبه». ويغزو النوم عيون الأطفال مع الموسيقى ويدخلون الخيام ليناموا وتختلط أحلامهم بالغناء.

وبعد فترة يقف الرجل ذو الجيتار ويتثاءب ويقول «تصبحوا على خير يا جماعة».

فيتمتمون، «وتصبح أنت على خير».

وكل يود لو أن معه جيتارًا، فهو شيء طيب، ثم يذهب الناس إلى فراشهم ويهدأ المخيم، وتحوم البوم فوقهم، على البعد تعوى ذئاب البرارى، وفى المخيم تمشى الظربان تبحث عن بقايا طعام، تتهادى متعالية لا تخشى شيئًا.

ويمضى الليل، ومع أول خيوط الفجر تنهض النسوة فى الخيام ويشعلن النيران ويضعن فوقها آنية القهوة، ثم يخرج الرجال ويتكلمون همسًا فى ضوء الفجر.

يقولون، عندما تعبر نهر كلورادو، ستجد الصحراء، احذر من الصحراء، ورتب أمورك حتى لا تتعطل فيها، خذ معك ما يكفى من الماء، ينفعك إذا تعطلت.

سأجتازها فى الليل.

وأنا أيضا فستجعلك تكفر بالمسيح.

وتأكل العائلات بسرعة وتغسل الأطباق وتجفف وتقوض الخيام والكل يتعجل المسير، وعندما تشرق الشمس يخلون مكان المخيم ولا يبقى إلا قليل من القمامة خلفها الناس، ومكان المخيم جاهز لعالم جديد فى ليلة جديدة.

ولكن سيارات المهاجرين تزحف كأسراب البق على طول الطريق وأمامها يمتد الشريط الخراسانى الضيق.

الفصل الثامن عشر

تحركت عائلة «جود» ببطء تجاه الغرب، صعدوا فى جبال نيو مكسيكو وعبروا قممها وأهراماتها، ثم تسلقوا صاعدين إلى إقليم أريزونا المرتفع وأطلوا من فجوة على الصحراء الملونة، أوقفهم واحد من حراس الحدود.

«إلى أين تذهبون؟».

فقال «توم»: «إلى كاليفورنيا».

«إلى متى تنوون البقاء فى أريزونا؟».

«ليس أطول مما يكفى لكى نعبرها».

«أمعكم أى ممنوعات؟».

«لا ممنوعات».

«لابد أن أفتش أمتعتكم».

«قلت لك ليس معنا ممنوعات».

الصق الحارس بطاقة صغيرة على الزجاج الأمامى.

«أوكى، استمر، ولكن من الأفضل أن تظل متحركًا على الدوام».

«بالتأكيد هذا غرضنا».

وزحفوا صاعدين على المنحدرات وقد غطتها الأشجار الواطئة المعوجة، هولبروك، جوزيف سيتى، وينسلو، ثم بدأت الأشجار الطويلة تظهر ونفثت السيارات بخارها وهى تكد صاعدة المنحدرات، وهناك كانت فلاجستاف فى أعلى مكان، ومن فلاجستاف إلى المنبسط العظيم حيث يختفى الطريق فى الأبعاد، وتقل المياه. لابد من شراء المياه الآن، خمسة سنتات، عشرة سنتات، ثم خمسة عشر سنتًا للجالون، الشمس تستنزف الأرض الجافة الصخرية وأمامهم قمم مدببة متحطمة هى حائط أريزونا الغربى. هم يفرون الآن من الشمس والجفاف. طول الليل يسوقون السيارات، ويصلون إلى الجبال، عبروا الاستحكامات المدببة فى الليل وقد تراقصت أنوارهم الخابية على جدران الطريق الصخرية الشاحبة. عبروا القمة فى الظلام وبدأوا يهبطون ببطء فى وقت متأخر من الليل. عبروا بقايا الصخر المتناثر فى «أوتمان»، وعندما طلع النهار شاهدوا نهر كلورادو تحتهم. ساروا إلى توبوك وتوقفوا عند أحد الجسور حيث أزال واحد من الحراس البطاقة الملصقة على الزجاج الأمامى، ثم عبروا الجسر إلى برية من الصخور المتكسرة، ورغم أنهم كانوا موتى من التعب وحرارة الصباح تتزايد إلا أنهم توقفوا.

وصاح الأب: «لقد وصلنا، نحن فى كاليفورنيا». ونظروا فى بلادة إلى الصخر المتكسر يلمع تحت الشمس، وعبر النهر كانت استحكامات أريزونا الرهيبة.

فقال «توم»: «أمامنا الصحراء، لابد لنا من الحصول على الماء والراحة».

كان الطريق يجرى موازيًا للنهر وكان جميلاً أن تصل المحركات الملتهبة فى الصباح إلى نيدلز حيث يجرى النهر برفق بعد غابات البوص.

وساقت عائلتا «جود» و«ويلسون» سيارتيهما إلى النهر وجلسوا فيهما ينظرون إلى الماء العذب ينساب أمامهم والبوص الأخضر يتمايل فى التيار على مهل. كان هناك معسكر صغير بجوار النهر، إحدى عشرة خيمة بالقرب من الماء والعشب المبتل على الأرض، وأطل «توم» من نافذة سيارة النقل وقال: «هل يمكن أن نقف هنا قليلاً؟».

ورفعت امرأة بدينة، تغسل الملابس فى جردل، بصرها: «نحن لا نملكها يا سيدى، قف إذا أردت، سيأتى شرطى هنا ليراكم». ثم عادت إلى غسيلها فى الشمس.

ووقفت السيارتان فى مكان خال على العشب المبتل، وأنزلت الخيام وأقيمت خيمة ويلسون وشد مشمع جود على حباله.

ومشى «وينفلد» و«روثى» ببطء بين أشجار الصفصاف إلى مكان البوص، وقالت «روثى» بحماس عذب: «كاليفورنيا، هذه هى كاليفورنيا، ونحن فيها فعلاً».

وكسر «وينفلد» غابة ولواها حتى خلصها ووضع لبابها الأبيض فى فمه ومضغه ومشيا فى الماء ووقفا فى هدوء وقد وصل الماء إلى منتصف سيقانهما.

قالت «روثى»: «ما زالت أمامنا الصحراء».

«ما شكل الصحراء؟».

«لا أعرف، لقد رأيت صورة مرة مكتوبًا عليها إنها «صحراء»، وكانت العظام فى كل مكان».

«عظام آدمية؟».

«بعضها أظن، ولكن أغلبها عظام بقر».

«وهل سنرى نحن هذه العظام؟».

«ربما... لا أعرف، سنخترقها فى المساء، هذا ما قاله «توم»، إنه يقول إن المسيح الحى سيحترق فى داخلنا إذا سرنا بالنهار!».

فقال «وينفلد»: «هذا الماء بارد وجميل، ودس بإصبعه فى رمال القاع وسمعا الأم تنادى: «روثى»، «وينفلد» ارجعا.

فاستدارا ومشيا ببطء راجعين خلال البوص وأشجار الصفصاف.

كانت الخيام الأخرى ساكنة وعندما دخلت السيارتان أطلت منهما لحظة بعض الرؤوس من خلف المصاريع ثم انسحبت. وعندما أقيمت خيام العائلة، تجمع الرجال معًا.

قال «توم»: «سأنزل وأستحم، هذا ما سأفعله قبل أن أنام، كيف حال الجدة بعد أن دخلت الخيمة؟».

فقال الأب: «لا أعرف، لا يبدو أن فى استطاعتى أن أوقظها» والتفت ناحية الخيمة وبلغهم صوت مأمأة ونواح من داخل الخيمة، وأسرعت الأم إليها.

قال «نوح»: «لقد استيقظت فعلاً، كانت طول الليل فوق السيارة تنق، لقد فقدت عقلها تمامًا».

فقال «توم»: «يا للجحيم لقد أنهكت تمامًا، إذا لم تنل قسطًا من الراحة بسرعة، فلن تستمر على قيد الحياة، سأنام فى الظل طول النهار».

ومشى مبتعدًا وتبعه الرجال الآخرون، خلعوا ملابسهم بين أشجار

الصفصاف ثم مشوا فى الماء وجلسوا، جلسوا لوقت طويل ممسكين بكعوبهم التى غاصت فى الرمال ولم يكن يظهر من الماء إلا رؤوسهم.

وقال «آل»: «يا يسوع أنا فى حاجة إلى هذا». وأخذ قبضة من الرمال من القاع وحك جسمه بها. رقدوا فى الماء ونظروا عبر النهر إلى القمم الحادة التى تسمى نيدلز «الإبر» وعلى جبال أريزونا الصخرية البيضاء.

وقال الأب غير مصدق: «لقد عبرناها!».

وغطس العم «جون» برأسه تحت الماء ثم قال: «حسنًا ها نحن أولاء هنا، وهذه هى كاليفورنيا وهى لا تبدو مزدهرة كما يقال».

فقال «توم»: «ما زالت أمامنا الصحراء وقد سمعت أنها ابنة زانية».

وسأل «نوح»: «هل سنحاول عبورها الليلة؟».

فسأل «توم»: «ما رأيك يا أبى؟».

«حسنًا، لست أعرف، من المفيد لنا أن نحصل على بعض الراحة خصوصًا الجدة ولكن من ناحية أخرى أود لو عبرناها واستقرينا فى عمل ما، لم يبق معنا إلا حوالى أربعين دولارًا، سأشعر بالاطمئنان عندما نعمل جميعًا ونحصل على شيء من المال».

جلس الرجال فى الماء يستشعرون جذب التيار، ترك الواعظ ذراعيه ويديه تطفوان فوق سطح الماء، كانت الأجساد بيضاء حتى الرقبة والرسغين، والوجه واليدان ملوحة بنية اللون داكنة ومساحة بنية مثلثة على الصدر تحت الرقبة، جلسوا يحكون أجسادهم بالرمال.

وقال «نوح» فى كسل: «وددت لو أقمنا هنا. أحب أن أرقد هنا إلى الأبد، لن أجوع، ولن أحزن، وأنا راقد فى الماء طول عمرى، كسلان كالخنزيرة الوالدة فى الطين».

نظر «توم» إلى القمم الصخرية المسننة عبر النهر وجداول نيدلز وقال: «لم أر مثل هذه الجبال الخشنة، هنا أرض سلبت منها الحياة وتلك عظامها، يا ترى هل سنصل أبدًا إلى مكان يعيش فيه الناس دون أن ينحتوا أرزاقهم فى الصخر، لقد شاهدت صورًا فيها البلاد مستوية وخضراء، وبها منازل صغيرة بيضاء كما تقول أمى، إن أمى تحلم بمنزل أبيض، بدأت أظن أنه لا توجد مثل تلك البلاد التى شاهدت صورها.

فقال الأب: «انتظر حتى نصل إلى كاليفورنيا وسترى عندئذ أرضًا طيبة».

«يا يسوع! أبى... نحن فى كاليفورنيا فعلا!».

وجاء رجلان يرتديان بنطلونات وقمصانًا زرقاء تنضح بالعرق، جاءا خلال أشجار الصفصاف ونظرا إلى الرجال العراة وصاحا: «هل يمكن العوم هنا؟» فقال «توم»: «لا نعرف فنحن متعبون، ومع ذلك فالإنسان يحس بالراحة عندما يجلس هنا».

«أيمكن أن ندخل ونجلس؟».

«إنه ليس نهرنا، سنقرضكم جزءًا صغيرًا منه».

وتخلص الرجلان من سراويلهما وخلفا قميصيهما وجريا، كان التراب يغلف سيقانهما حتى الركبتين وأقدامهما شاحبة وطرية من العرق، جلسا متكاسلين فى الماء وهما يغسلان خاصرتيهما بتراخ، كانا والدًا وولده، لوحتهما الشمس تمامًا، يدمدمان ويزومان فى الماء.

وسأل الأب فى أدب: «أذاهبون إلى الغرب؟».

«لا... لقد أتينا من هناك عائدين إلى بلادنا. لم نستطع أن نكسب عيشنا هناك».

وسأل «توم»: «وأين بلادكم؟».

«بانها ندل. جئنا من مكان قريب من بانها ندل».

فسأل الأب: «هل يمكنكم أن تكسبوا عيشكم هناك؟».

«لا، ولكن من الأفضل أن نموت جوعًا بين قوم نعرفهم، لا بين عصبة من الناس تكرهنا».

فقال الأب: «أتعرف؟، أنت ثانى رجل يتكلم هكذا، ما الذى يجعلهم يكرهونكم؟».

فقال الرجل: «لا أعرف». وملأ كفيه بالماء ومسح وجهه وهو ينخر ويبقبق فى الماء وانساب الماء بالتراب من شعره وجرى على رقبته».

قال الأب: «أحب أن أسمع منك المزيد».

وأضاف «توم»: «وأنا أيضًا، لماذا يكرهكم الناس هناك فى الغرب؟».

ونظر الرجل بحدة إلى «توم»: «هل أنت ذاهب إلى الغرب؟».

«نحن فى طريقنا إليه».

«ألم تذهبوا إلى كاليفورنيا أبدًا؟».

«لا. لم نذهب».

«حسنا، لا تعتمد على كلمتى، اذهب لترى بنفسك».

فقال «توم»: «أيوه، ولكن الرجل يحب أن يعرف ما هو مقبل عليه».

«حسنًا، إذا كنت حقًا تريد أن تعرف فأنا رجل ممن يحب أن يطرح الأسئلة ويفكر فيها، إنها بلاد طيبة، ولكنها سرقت منذ أمد بعيد، فلتعبر

الصحراء، وتدخل الريف حول باكرسفيلد، أيمكن أن ترى أجمل من تلك البلاد، كلها بساتين وأعناب، أجمل ريف يمكن أن تراه فى حياتك، وستمر على أرض مستوية وبها ماء على عمق ثلاثين قدمًا، وقد تركت هذه الأرض بلا زرع، ولكنك لا تستطيع أن تأخذ أى جزء منها، فهى أرض شركة الأراضى والمواشى، وإذا لم يريدوا لها أن تزرع، فلن تزرع، وإذا دخلت هناك وزرعت الحنطة فى قطعة أرض صغيرة فستذهب إلى السجن».

«أتقول إنها أرض طيبة؟ وهم لا يزرعونها؟».

«نعم يا سيدى، أرض طيبة وهم لا يزرعونها، حسنًا يا سيدى، سيجعلونك تفقد عقلك، ولكنك لم تر شيئًا بعد، الناس تحمل فى عيونها نظرة ما، ينظرون إليك ووجوههم تقول، أنا لا أحبك يا ابن العاهرة! هناك رجال بوليس، وسيطردونك، تعسكر بجانب الطريق، وسيطردونك، سترى فى وجوه الناس كيف يكرهونك، و... سأقول لكم شيئًا إنهم يكرهونكم لأنهم خائفون، فهم يعلمون أن الرجل الجائع لابد أن يحصل على طعام حتى لو اضطر إلى أخذه، يا للجحيم إنك لم تدع «أوكى» بعد».

فقال «توم»: «أوكى!... ماذا تعنى هذه الكلمة؟».

«حسنًا، «أوكى»، كانت تعنى فيما مضى أنك من أوكلاهوما، أما الآن فهى تعنى أنك ابن زانية قذر، أوكى تعنى أنك من أرذل الناس، وهى نفسها لا تعنى شيئًا، ولكنها الطريقة التى يقولونها بها، ولكننى لا أستطيع أن أقنعكم بشىء، لابد أن تذهبوا هناك، لقد سمعت أن هناك ثلاثمائة ألف منا يعيشون هناك كالحلاليف، لأن كل شىء فى كاليفورنيا له صاحب، لم يتبق شىء، وهؤلاء الذين يملكون سيتشبثون بما يملكون ولو اضطروا القتل كل إنسان فى العالم، من أجل ذلك، وهم فزعون وهذا ما يجعلهم يفقدون

عقولهم، لابد أن تراها، لابد أن تسمعها، أجمل بلد شاهدته فى حياتك، ولكن هؤلاء الناس ليسوا طيبين معكم، إنهم فزعون وقلقون لدرجة أنهم لا يعاملون حتى بعضهم البعض بشكل لائق.

ونظر «توم» فى الماء ودس كعبيه فى الرمال وقال: «افرض أن رجلاً وجد عملاً وادخر نقودًا، ألا يمكنه أن يحصل على قطعة أرض».

فضحك الرجل الأكبر سنًا ونظر إلى ابنه وابتسم ابنه الصامت ساخرًا، قال الرجل: «لن تحصل على عمل ثابت وستنبش من أجل غذائك يومًا بيوم، وستفعل ذلك مع أناس يعاملونك بدناءة، إذا جمعت القطن، تأكد أن الموازين مغشوشة، بعضهم هكذا، وبعضهم ليس كذلك، ولكنك ستعتقد أن كل الموازين مغشوشة ولن تعرف أيها غير المغشوش، وعلى العموم فأنت لا تستطيع أن تفعل شيئًا فى ذلك».

فسأل الأب ببطء: «ألـيـس... أليس هناك شـىء طيب على الإطلاق؟».

«بالتأكيد، ولكن للفرجة فقط، لا يمكنك أن تحصل على شىء منهم، هناك بستان برتقال أصفر ورجل معه بندقية يملك الحق فى أن يقتلك إذا لمست واحدة، هناك رجل، من أصحاب الصحف بالقرب من الشاطئ يملك مليون فدان».

رفع «كيزى» بصره بسرعة: «مليون فدان؟ ما الذى يمكن فى هذا العالم أن يفعله بمليون فدان؟».

«لا أعرف، إنها ملكه فحسب، يربى قليلاً من الماشية ولديه حراس فى مكان ليبعدوا الناس، يتجول راكبًا فى سيارة لا يخترقها الرصاص، لقد رأيت صورة له، فهو رجل سمين ناعم، ذو عينين ماكرتين وفم يشبه فتحة الشرج، يخاف أن يموت، يملك مليون فدان ويخاف أن يموت».

فسأل «كيزى»: «ماذا بحق الجحيم يمكنه أن يفعل بمليون فدان؟ لماذا يريد المليون فدان هذه؟

وأخرج الرجل يديه المتغضنتين المبيضتين من الماء وفردهما، وضم شفته السفلى، وأحنى رأسه جانبًا على أحد أكتافه وقال: «لا أعرف، أعتقد أنه مجنون، لابد أنه مجنون، رأيت صورة له، يبدو أنه مجنون، مجنون وخبيث».

فسأله «كيزى»: «أتقول إنه خائف من الموت؟».

«هذا ما سمعته».

«يخشى أن يناله الله!».

«لا أعرف، خائف فحسب».

فقال الأب: «وماذا يهمه؟ يبدو أنه لا يستمتع بحياته».

وقال «توم»: «لم يكن الجد خوافًا، عندما يكون جدى فى أعلى درجات النشوة تهون عليه حياته، ذات مرة هاجم جدى ورجل آخر هاجما بالعصى جماعة من النافاجو فى الليل، كانت أحسن أيام حياتهم وكانوا فى نفس الوقت لا يملكون شيئًا...».

وقال «كيزى»: «يبدو أن الأمر هكذا، الرجل يستمتع حين لا يبالى بشىء ولكن حين يكون المرء خسيس النفس معزولاً عن الناس لا يرضيه شىء عندئذ يخاف الموت».

وسأل الأب: «ما الذى لا يرضيه إذا كان يملك مليون فدان؟».

وابتسم الواعظ وقد بدت عليه الحيرة، وأزاح بيده حشرة بق الماء الطافية إلى جواره وقال: «إذا كان فى حاجة إلى مليون فدان لكى يشعر

بأنه غنى، فيبدو لى أنه محتاج إليها لأنه يشعر بأنه فقير جدًا داخل نفسه، فإذا كان فقيرًا فى داخل نفسه فلا يوجد أى مليون فدان يمكن أن تجعله يشعر بالغنى، ربما كان غير راض لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا يجعله يشعر بالغنى، ليس غنيًا كما كانت مسز «ويلسون» عندما قدمت خيمتها وقت وفاة الجد... أنا لا أحاول أن ألقى موعظة، ولكنى لم أر أبدًا أى إنسان مسعور ككلب البرارى يجمع الممتلكات ولم يكن غير راض، ثم كشر قائلاً: «هذا كلام يبدو كالموعظة أليس كذلك؟».

كانت الشمس ترسل أشعتها لهيبًا الآن، وقال الأب: «من الأفضل أن نغطس تحت الماء، وإلا فسيحترق المسيح الحى فى داخلك» ثم استلقى وترك تيار الماء الهادئ ينساب حول رقبته وسأل الأب: «وإذا كان هناك رجل ينوى أن يعمل بجد، ألا يمكن أن يجد مكانًا فى هذه البلاد؟».

فجلس الرجل وواجهه قائلاً: «اسمع يا سيدى، أنا لا أعرف كل شىء، ربما تصل إلى هناك وتعثر على عمل ثابت وأكون أنا الكاذب، وأيضًا ربما لن تجد عملاً على الإطلاق، أنا لا أحذرك، ولكن يمكننى أن أقول لك إن معظم الناس هناك بؤساء». ثم رقد ثانية فى الماء وقال: «لا يعرف الإنسان كل شىء».

والتفت الأب برأسه ونظر إلى العم «جون» وقال: «لم تكن أبدًا من الذين يتكلمون كثيرًا ولكنك لم تفتح فمك على الإطلاق منذ أن تركنا بلادنا، ما رأيك فى هذا الذى يقال؟».

وعبس العم «جون» وقال: «ليس لى رأى، نحن ذاهبون إلى هناك، أليس كذلك؟ لن يوقفنا كلام من هذا النوع، وعندما نصل هناك سنكون هناك، وعندما نحصل على عمل سنعمل، وعندما لا نحصل على عمل سنقعد على ذيولنا، وهذا الحديث لن يفيد».

رقد «توم» وملأ فمه بالماء ثم بخه فى الهواء وضحك وقال: «العم «جون» لا يتكلم كثيرًا، ولكنه يتكلم كلامًا معقولاً، نعم والله إنه يتكلم كلامًا معقولاً، سنذهب الليلة أليس كذلك يا أبى؟».

«يستحسن ذلك، يستحسن أن ننتهى من هذه الرحلة».

«حسنًا، سأخرج إلى العشب إذًا وأنال قسطًا من النوم».

ووقف «توم» وجرى إلى الشاطئ الرملى وأسدل ملابسه على جسده المبتل وجفل تحت حرارة الملابس، وتبعه الآخرون».

جلس الرجل وابنه فى الماء يراقبان أفراد عائلة «جود» وهم يختفون وقال الابن: «أود لو رأيتهم بعد ستة أشهر، يا يسوع!».

ومسح الرجل زوايا عينيه بسبابته وقال: «ربما لم يكن من الواجب أن أفعل هذا، إن الإنسان يرغب دائمًا فى أن يكون حكيمًا ويخبر الناس بما يعرف».

«حسنًا، يا يسوع! هم الذين سألوا».

«أيوه أنا عارف، ولكن كما قال ذلك الرجل، سيذهبون على أى حال ولن يتغير شىء لو أخبرتهم إلا أنهم سيحسون بالتعاسة قبل أوانها».

مشى «توم» بين الصفصاف وزحف إلى كهف من الظل ليرقد، وتبعه «نوح».

قال «توم»: «سأنام هنا».

«توم».

«أيوه؟».

«توم» لن أذهب.

نهض «توم» جالسًا: «ماذا تقصد؟».

«توم» أنا لن أترك هذا الماء هنا، سأمشى هنا على شاطئ النهر.

فقال «توم»: «أنت مجنون».

«سأحصل على قطعة خيط، وسأصطاد السمك، لا يموت الرجل بجوار نهر جيد».

فقال «توم»: «وماذا عن العائلة؟ ماذا عن الأم؟».

«لا أستطيع مقاومة رغبتى، لا يمكن أن أترك هذا الماء، كانت عينا «نوح» المتباعدتان نصف مغمضتين «أنت تعرف حقيقة الأمر يا «توم»، أنت تعرف كيف كان الأهل طيبين معى، ولكنهم فى الحقيقة لا يعنيهم أمرى».

«أنت مجنون»

«لا، لست مجنونًا، أنا أعلم بحالى، وأعلم أنهم سيأسفون... ولكن..». حسنًا أنا لن أذهب معكم، ولتقل أنت لأمى يا «توم».

وبدا «توم» يقول: «والآن اسمعنى هنا»

«لا... لا فائدة، لقد كنت هناك فى الماء، ولن أتركه سأذهب الآن يا «توم» على النهر، سأصطاد السمك وأشياء أخرى ولكننى لا أستطيع أن أترك هذا الماء، لا أستطيع!». وزحف خارجًا من كهف الصفصاف وهو يقول: «قل أنت لأمى يا «توم» ثم مشى بعيدًا».

وتبعه «توم» إلى شاطئ النهر وقال: «اسمعنى أيها الأحمق».

فقال «نوح»: «لا فائدة، أنا حزين، ولكنى لا أستطيع التوقف، لابد أن أذهب». ثم استدار فجأة ومشى فى اتجاه على الشاطئ وبدا «توم» يتبعه

ثم توقف، رأى نوح يختفى فى الدغل ثم يظهر ثانية وهو يتتبع حافة النهر، وظل يرقبه وهو يتصاغر على حافة النهر حتى اختفى أخيرًا بين أشجار الصفصاف، وخلع «توم» قلنسوته وهرش فى رأسه ثم عاد إلى كهف الصفصاف ورقد لينام.

رقدت الجدة على مرتبة تحت المشمع المفرود وجلست الأم بجوارها، كان الجو حارًا خانقًا وطن الذباب فى ظل المشمع، كانت الجدة عارية تمامًا تحت قطعة صغيرة من ستارة وردية اللون، تحرك رأسها بلا توقف من جانب إلى جانب وهى تتمتم وتشرق، وجلست الأم بجوارها ممسكة بقطعة من الورق المقوى تذب بها الذباب وتروح تيارًا من الهواء الساخن فوق وجه العجوز المتوتر، وجلست «روزا شارن» على الجانب الآخر ترقب أمها.

نادت الجدة بغطرسة: «ويل»، «ويل»، تعال هنا يا «ويل»، وفتحت عينيها ونظرت بحدة فيما حولها ثم قالت: «قلت له أن يأتى هنا، سأمسكه، وسأنزع شعر رأسه»، ثم أغلقت عينيها وطوحت رأسها إلى الأمام والخلف وتمتمت بغلظة وروحت الأم بالورق المقوى.

ونظرت «روزا شارن» فى يأس للمرأة العجوز وقالت فى صوت خافت: «إنها مريضة جدًا».

«رفعت الأم بصرها إلى وجه الفتاة، كان فى عينيها صبر وجلد، ولكن خطوط الإرهاق ارتسمت على جبهتها، واستمرت تروح الهواء فأطارت قطعة الورق المقوى سربًا من الذباب وقالت: «عندما تكونين شابة يا «روزا شارن» فكل ما يحدث يكون شيئًا متفردًا، شيئًا فريدًا، أنا أعرف وأتذكر يا «روزا شارن»، كان فمها يحب أن ينطق اسم ابنتها: «سيكون لك طفل يا «روزا شارن» وهذا شيء فريد ووحيد بالنسبة لك، وسيؤلمك هذا وسيكون

ألمه ألمًا فريدًا، وهذه الخيمة هنا خيمة وحيدة فى العالم يا (روزا شارن)»، ثم ضربت فى الهواء لحظة لتطرد ذبابة كبيرة تطن، ودارت الذبابة الكبيرة اللامعة مرتين فى الخيمة ثم أزت خارجة إلى ضوء الشمس الغاشية، واستمرت الأم تقول: «ويأتى وقت يتغير فيه هذا الإحساس عندئذ يصبح موت أى إنسان جزءًا من الموت كله، ويصبح حمل أى امرأة جزءًا من الحمل كله، والحمل والموت يصبحان جزءين من نفس الشىء، وعندئذ لن تبدو الأشياء متفردة بعد ذلك، ولكن يسبب لك الألم عذابًا شديدًا، لأنه لن يكون متفردًا يا «روزا شارن» ووددت لو أننى أفهمتك هذا، وأنت تعرفينه ولكن لا أستطيع»، كان صوتها رقيقًا ومليئًا بالحب حتى تزاحمت الدموع فى عينى «روزا شارن» وملأت عينيها حتى غشيتها».

قالت الأم: «خذى وروِّحى للجدة». وناولتها قطعة الورق المقوى «هذا عمل طيب، وددت لو استطعت أن أفهمك وأن تعرفى».

وقطبت الجدة حاجبيها على عينيها المغمضتين ومأمأت قائلة: « «ويل» أنت قذر، لن تكون نظيفًا أبدًا» وتحركت أصابعها المجعدة وهرشت خدها، وجرت نملة حمراء على قماش الستارة وتعثرت فوق تجاعيد جلد رقبة السيدة العجوز وأسرعت الأم إليها والتقطتها وسحقتها بين سبابتها وإبهامها ثم نفضت يدها فى ردائها.

ولوحت «روزا شارن» بمروحة الورق المقوى ونظرت إلى الأم وقالت: «إنها...» ثم احتبست الكلمات فى حلقها.

وصاحت الجدة: «امسح قدميك يا «ويل» أيها الخنزير القذر».

وقالت الأم: «لست أعرف، ربما أفاد لو نقلناها إلى مكان ليس حارًا بهذه الدرجة، ولكننى لا أعرف، لا تقلقى نفسك يا «روزا شارن» خذى نفسك على راحتك».

وأطلت امرأة ضخمة فى رداء أسود بال داخل الخيمة، كانت عيناها زائغتين، ونظراتها غير محددة وقد تهدل جلدها على أصداغها وتدلى فى طيات صغيرة، كانت شفتاها مرتخيتين حتى تدلت شفتها العليا كالستارة على أسنانها، وتدلت شفتها السفلى خارجًا بحكم ثقلها كاشفة عن شفتها السفلى وقالت: «صباح الخير يا سيدتى، صباح الخير والمجد لله فى انتصاره».

ونظرت الأم حولها وقالت «صباح الخير!».

وخطت المرأة إلى داخل الخيمة وانحنت برأسها على الجدة وقالت: «سمعنا أن عندكم هنا روحًا تستعد للحاق بيسوع، المجد لله!».

وتجهم وجه الأم وازدادت عيناها حدة وقالت: «إنها متعبة، هذا كل شيء.. لقد أنهكها الطريق والحر، مجرد إنهاك، وعندما ترتاح قليلاً ستكون بخير».

ومالت المرأة على وجه الجدة وبدا كأنها تشمها ثم التفتت إلى الأم وأومأت برأسها بسرعة فاهتزت شفتاها وترجرجت أصداغها وقالت: «إن روحًا عزيزة ستذهب لملاقاة يسوع!».

فصاحت الأم: «ليست هكذا!».

فأومأت المرأة برأسها ببطء هذه المرة ووضعت يدًا منتفخة على جبهة الجدة، ومدت الأم يدها لتبعد اليد ولكنها منعت نفسها بسرعة وقالت المرأة: «نعم، إنها هكذا يا أختى لدينا ستة لهم القداسة فى خيمتنا! سأدعوهم وسنقيم اجتماعًا للصلاة، صلاة وبركة، من «شهود يهوه» كلهم، ستة بما فيهم أنا، سأذهب وأدعوهم».

فتصلبت الأم وقالت: «لا... لا... لا... لا... الجدة متعبة ولا يمكن أن تتحمل اجتماع صلاة».

فقالت المرأة: «ألا يمكنها أن تتحمل البركة؟ ألا يمكنها أن تتحمل أنفاس يسوع الحلوة؟ عم تتكلمين يا أختاه؟».

فقالت الأم: «لا... ليس هنا، إنها متعبة جدًا».

ونظرت المرأة فى عتاب للأم: «ألستم مؤمنين يا سيدتى؟».

فقالت الأم: «لقد كنا على الدوام فى القداسة ولكن الجدة متعبة، كنا مسافرين طول الليل، لن نزعجكم».

«ليس فى هذا إزعاج، وإذا كانت كذلك فنحن نحب أن نؤديه من أجل روح ستسمو إلى الحمل المقدس».

ونهضت الأم على ركبتيها وقالت فى برود: «نحن نشكرك، لن تقام أى صلاة فى هذه الخيمة».

ونظرت إليها المرأة طويلاً ثم قالت: «حسنًا، نحن لن ندع أختًا لنا تذهب بدون قليل من التمجيد، سنقيم الصلاة فى خيمتنا يا أماه وسنسامحك على قلبك القاسى».

وأرخت الأم ظهرها مرة أخرى واستدارت بوجهها للجدة، كان وجهها لا زال قاسيًا صارمًا وقالت: «إنها متعبة فقط، إنها متعبة فقط»، وطوحت الجدة رأسها إلى الأمام والخلف وتمتمت بأنفاس متقطعة.

ومشت المرأة متصلبة خارج الخيمة واستمرت الأم تنظر إلى الوجه العجوز، وروحت «روزا شارن» بقطعة الورق المقوى تحرك الهواء الساخن فى تيار مستمر ثم قالت: «ماما!».

«أيوه؟».

«لماذا لم تدعهم يقيمون الصلاة؟».

فقالت الأم: «لا أعرف «شهود يهوه» ناس طيبون، إنهم يصيحون ويتنططون، لا أعرف... شيء ما استولى عليَّ لا أظن أننى يمكن أن أتحملها، أخشى أن أنهار».

ومن على بعد قليل جاء صوت بداية الصلاة، ترتيلة خاصة بالمحرمات، لم تكن الكلمات واضحة، ولكن النغم كان واضحًا، وعلا الصوت وانخفض ومع كل مرة كان يعلو أكثر، ثم بدأ القرار يملأ فترات الصمت، ومضت ترتيلة المحرمات بنغمة الانتصار، وبرز فى الصوت هدير القوة، يتضخم ثم يتوقف، ثم يأتى طنين القرار. ثم أصبحت لجمل ترتيلة المحرمات نهايات قصيرة وأكثر حدة كالأوامر وفى القرار، جاءت نبرة الشكاية. وأسرع الإيقاع وامتزج صوت الرجال والنساء فى نغم واحد، ولكن فى منتصف القرار علا صوت امرأة فى صرخة معولة وحشية وقاسية كصرخة الوحش ثم ارتفع بجوارها صوت أعمق لامرأة أخرى، صوت كالعواء، ثم ملأ المكان كله صوت رجل فى عواء كالذئب، وتتوقف ترتيلة المحرمات ولا يخرج من الخيمة إلا صوت النباح الوحشى ممتزجًا بصوت الأقدام تضرب على الأرض، وارتعدت الأم وصارت أنفاس «روزا شارن» قصيرة لاهثة واستمر كورس النباح طويلاً حتى بدا أن الصدور ستنفجر.

قالت الأم: «إن ذلك يجعلنى عصبية، شيء ما حدث لى!».

وتحول الصوت العالى الآن إلى هيستريا، كصيحات وحشية من أنثى ضبع وازداد وقع ضرب الأقدام على الأرض، وبحت الأصوات وتنافرت ثم غرق الكورس كله فى نهنهة وهمهمة خفيفة ممزوجة بضرب على الأكف والصدور، وخبط على الأرض بالأقدام، ثم تحولت النهنهة إلى عويل خافت مثل عويل الجراء الصغيرة أمام طبق من الطعام.

بكت «روزا شارن» بعصبية وصوت خافت، وركضت الجدة الستارة من ساقيها اللتين امتدتا كالعصى المعقدة الرمادية، وأعولت الجدة مع العويل البعيد، وجذبت الأم الستارة إلى مكانها ثانية، عندئذ تنهدت الجدة بعمق وازداد تنفسها انتظامًا ويسرًا، وتوقف جفناها المسدلان عن الارتعاش، نامت بعمق وشخرت من فمها المنفرج، وخفت العويل البعيد شيئًا فشيئًا حتى لم يعد فى الإمكان سماعه.

نظرت «روزا شارن» إلى الأم وعيناها مغرورقتان بالدموع: «لقد أفادت، لقد أفادت جدتى، إنها نائمة».

نكست الأم رأسها، كانت خجلى وقالت: «ربما أخطأت فى حق هؤلاء الناس الطيبين، الجدة نائمة».

فسألت الفتاة: «لماذا لا تسألى واعظنا إذا كنت قد ارتكبت خطيئة؟»

«سأسأله ولكنه رجل غريب، ربما كان هو الذى جعلنى أقول لهؤلاء الناس إنهم لا يمكنهم أن يأتوا إلى هنا، هذا الواعظ يصل بتفكيره إلى أن ما يفعله الناس هو الصواب». ونظرت الأم إلى يديها وقالت «روزا شارن»: «ينبغى أن ننام، إذا كنا سنذهب الليلة، فلابد أن ننام». ثم تمددت على الأرض بجوار المرتبة.

وسألت «روزا شارن»: «وماذا عن الترويح للجدة؟»

«إنها نائمة الآن، ارقدى أنت واستريحى».

فقالت الفتاة شاكية: «يا ترى أين «كونى؟». لم أره حوالينا منذ وقت طويل».

فقالت الأم: «هش، استريحى قليلاً».

«ماما، «كونى» ينوى أن يدرس فى المساء وسيصبح رجلاً مهمًا».

«أيوه لقد قلت لى هذا، استريحى قليلاً».

ورقدت الفتاة على حافة مرتبة الجدة «كونى عنده خطة جديدة، إنه يفكر طول الوقت عندما يفرغ من دراسة الكهرباء سيكون له محله الخاص، وعندئذ ماذا تظنين أننا سنفعل؟».

«ماذا؟».

«ثلج، كل ما تريدين من ثلج، سيكون لدينا صندوق ثلج وسنحتفظ به مليئًا، إن الأشياء لا تفسد إذا حصلت على الثلج».

وقالت الأم وهى تضحك ضحكة مكتومة: «كونى يفكر طول الوقت، يستحسن أن تحصلى على قسط من الراحة الآن».

أغلقت «روزا شارن» عينيها واستدارت الأم على ظهرها وشبكت يديها تحت رأسها وأنصتت لأنفاس الجدة ولأنفاس الفتاة ثم حركت يدها لتطرد الذبابة من فوق جبهتها. كان المخيم هادئًا فى الحرارة الغاشية ولكن أصوات العشب الساخن ـ صراصير الغيط وطنين الذباب ـ تمازجت فى نغم قريب من الصمت، وتنهدت الأم بعنف وأغمضت عينيها وسمعت وهى شبه نائمة وقع أقدام تقترب، ولكنه كان صوت رجل، وهذا ما أيقظها على الفور.

«مَنْ هناك؟».

وجلست بسرعة وانحنى رجل بنى الوجه وأطل فى الداخل، كان يرتدى حذاء عاليًا وبنطلونًا كاكيًا وقميصًا كاكيًا له أكتاف عالية على الكتفين وقد تعلق مسدسه على حزام جلدى عريض وشبك نجمة فضية كبيرة فى قميصه فوق ثديه الأيسر وعلى رأسه من الخلف قلنسوة عسكرية واسعة، ضرب على المشمع بيده فردد المشمع ضربته كالطبلة.

وسأل ثانية: «من هنا فى الداخل؟».

وسألت الأم: «ما الذى تريده يا سيدى؟».

«تفتكرى ماذا أريد!. أريد أن أعرف من هنا؟».

«لماذا، نحن هنا ثلاثة، أنا والجدة والفتاة».

«أين الرجال؟».

«لماذا، لقد ذهبوا ليغتسلوا، لقد كنا على الطريق طول الليل».

«من أين أتيتم؟».

«بالقرب من ساليزو، فى أوكلاهوما».

«حسنًا لا يمكنكم البقاء هنا».

«نحن ننوى أن ننطلق هذا المساء ونعبر الصحراء يا سيدى».

«يستحسن ذلك، إذا وجدتكم هنا غدًا فى مثل هذا الوقت فسأقبض عليكم، نحن لا نريد أحدًا منكم يقيم هنا».

واسود وجه الأم من الغضب ونهضت على قدميها ببطء إلى صندوق أدوات الطعام والتقطت مقلاة حديدية وقالت: «يا سيدى، أنت تعلق نيشانًا ومسدسًا، وفى بلادى يتكلم أمثالك بصوت خفيض» ثم تقدمت نحوه بالمقلاة ففك المسدس فى الجراب وقالت الأم: «هيا، استمر، أتخيف النساء، الحمد لله أن الرجال ليسوا هنا وإلا مزقوك إربًا، فى بلادنا ينبغى أن تحفظ لسانك».

وخطا الرجل خطوتين إلى الخلف: «حسنا لست فى بلدك الآن، أنت فى كاليفورنيا، ونحن لا نريدكم يا أيها «الأوكيون» الملاعين أن تستقروا هنا».

وتوقفت الأم عن تقدمها وبدت محتارة وقالت بصوت خافت: «أوكى؟ أوكى؟».

«أيوه، «أوكيون»، وإذا كنتم هنا حينما أحضر غدًا فسأقبض عليكم، واستدار ومشى إلى الخيمة التالية وضرب بيده على القماش وقال: «من هنا؟».

وعادت الأم ببطء تحت المشمع ووضعت المقلاة فى صندوق الأدوات وجلست ببطء وراقبتها «روزا شارن» خفية وعندما رأت الأم تحاول السيطرة على انفعالاتها أغمضت عينيها وادعت النوم.

هبطت الشمس فى العصيرة ولكن الحرارة لم تهبط، كان «توم» متيقظًا تحت أشجار الصفصاف، وقد انفرج فمه وتبلل جسمه بالعرق، ولم يكن رأسه مرتاحًا فى استرخائه، وترنح واقفًا على قدميه ومشى ناحية الماء ثم نزع ملابسه وخاض فى التيار، رقد فى الماء الضحل وترك جسمه يطفو محافظًا على مكانه بوضع مرفقيه فى الرمال ونظر إلى أصابع قدميه التى برزت فوق سطح الماء.

ومن بين الغاب زحف طفل نحيف شاحب كالحيوان، ثم خلع ملابسه وانسل إلى الماء كأنه فأر المسك، ولم تظهر منه فوق السطح إلا عيناه وأنفه، وفجأة رأى رأس «توم» ولاحظ أنه كان يراقبه فأوقف لعبته وجلس.

قال «توم»: «هالو».

«ها... لو».

«يبدو أنك تلعب لعب فأر المسك».

«فعلاً».

ثم بدأ يبتعد إلى الشاطئ كأنه يتحرك بلا قصد ثم وقف خارجًا وجمع ملابسه بحركة من ذراعيه واختفى بين أشجار الصفصاف.

وضحك «توم» فى هدوء ثم سمع اسمه ينادى بصوت حاد: «توم»، أوه «توم» جلس فى الماء وصفر من بين أسنانه صفارة نافذة لها ذيل فى نهايتها، واهتزت أشجار الصفصاف ووقفت: «روثى» تنظر إليه.

قالت: «أمى تريدك، أمى تريدك الآن».

«حاضر». ووقف وخاض فى الماء حتى الشاطئ.. «روثى» تنظر بإمعان ودهشة إلى جسمه العارى.

ورأى «توم» اتجاه عينيها فقال: «اجر الآن هيا» وجرت «روثى» وسمعها وهى تنادى على «وينفلد» بانفعال وهى تجرى ولبس الملابس الساخنة على جسمه المبتل البارد، ومشى ببطء بين الصفصاف ناحية الخيمة.

كانت الأم قد أشعلت نارًا من أغصان الصفصاف الجافة، تسخن طاسة بها ماء وبدا عليها الارتياح عندما رأته.

سألها: «ما الخبر يا أمى؟».

فقالت: «أنا خائفة، كان هنا رجل بوليس وقال إننا لا يمكن أن نبقى هنا، كنت خائفة أن يكون قد تكلم معك، كنت خائفة أن تضربه إذا تكلم معك».

فقال «توم»: «وما الذى يجعلنى أضرب رجل بوليس؟».

فابتسمت الأم: «حسنًا، كان يتكلم بطريقة سيئة، وكدت أضربه أنا نفسى».

وأمسك «توم» بذراعها وهزها بشدة دون أن يحكم قبضته عليه، ثم جلس على الأرض وهو يضحك وقال: «يا إلهى يا أماه، لقد عرفتك فيما مضى حين كنت رقيقة ما الذى جرى لك؟» بدا عليها الصرامة وقالت: «لا أعرف يا «توم»».

«فى البداية أوقفتينا بقضيب من حديد، والآن تحاولين أن تضربى رجل بوليس» وضحك بلطف ثم مد يده وربت على قدميها العاريتين بحنان وقال: «يا لك من قطة عجوز شقية».

«توم».

«أيوه».

ترددت وقتًا طويلاً ثم قالت: «رجل البوليس هذا، اسمانا «أوكيون» وقال نحن لا نريد أحدًا منكم أيها «الأوكيون» يستقر هنا».

وتفحصها «توم» وما زالت يده مستقرة برفق على قدميها العاريتين وقال: «حكى لنا رجل عن هذا، حكى لنا عن الطريقة التى يقولونها بها». ثم فكر قليلاً وقال: «أمى أمن رأيك أننى شخص شرير ينبغى أن أسجن كما حدث؟».

فقالت: «... لقد حوكمت... لا... ما الذى يجعلك تسأل؟».

«حسنًا، لا أعرف، ربما كنت طعنت رجل البوليس هذا».

فابتسمت الأم وقد استهوتها الكلمة: «ربما كان علىّ أنا أن أسألك هذا السؤال فلقد كدت أن أضربه بالمقلاة».

«أمى، لماذا يقول إننا لا يمكننا أن نقف هنا؟».

«لمجرد أنهم يقولون إنهم لا يريدون أى «أوكى» ملعون يستقر هنا، وأنه سيقبض علينا إذا وجدنا هنا غدًا».

«ولكننا لم نعتد أن نطارد من رجال البوليس. فقالت الأم: «لقد قلت له هذا، فقال: إننا لسنا فى بلادنا الآن، وإننا فى كاليفورنيا، وإنهم يفعلون ما يريدون».

قال «توم» متململاً: «أمى عندى شيء أود أن أخبرك به «نوح»، لقد ذهب ليعيش على النهر، لن يذهب معنا». ومضت لحظة قبل أن تفهم الأم وتسأل بصوت خفيض:

«لماذا؟».

«لا أعرف، قال إنه لابد أن يفعل ذلك إنه لابد أن يبقى، وطلب منى أن أخبرك».

فسألت: «كيف سيأكل؟».

«لا أعرف، قال إنه سيصطاد سمكًا».

وصمتت الأم وقتًا طويلاً ثم قالت: «العائلة تتفتت، لا أعرف، يبدو أننى لم أعد أستطيع التفكير، لست قادرة على التفكير، هذا كثير!».

فقال «توم» بنبرة عاجزة: «سيكون بخير يا أماه، إنه نوع غريب من الرجال».

وأدارت الأم عينين ذاهلتين ناحية البحر: «خلاص، يبدو أننى لم أعد أستطيع التفكير.

ونظر «توم» إلى صف الخيام فرأى «روثى» و«وينفلد» واقفين أمام خيمة ومنشغلين فى محادثة بادية الأهمية مع شخص بالداخل، كانت «روثى» تلوى قميصها فى يديها بينما كان «وينفلد» يحفر حفرة فى الأرض بإصبع قدمه، ونادى «توم»: «روثى»، رفعت أنظارها ورأته وجاءت تقفز إليه و«وينفلد» فى أثرها، وعندما وصلت قال «توم»: «اذهبى ونادى الجماعة، إنهم نائمون تحت أشجار الصفصاف، ناديهم وأنت يا «وينفلد» اجر على «ويلسون» إننا سنبدأ السير فى أقرب وقت ممكن» ودار الطفلان على عقبيهما وانطلقا.

قال «توم»: «أمى كيف حال الجدة الآن؟».

«حسنًا لقد نامت اليوم، وربما تتحسن حالتها، فهى ما زالت نائمة».

«عظيم، كم لدينا من لحم الخنزير؟».

«ليس كثيرًا، ربع خنزير».

«حسنًا، لابد أن نملأ البرميل الثانى بالماء، لابد أن نأخذ ماء معنا»، كانت صرخات «روثى» تصل إليهما وهى تنادى الرجال بين الصفصاف.

دفعت الأم بأغصان الصفصاف الجافة فى النار فجعلت تطقطق تحت الوعاء المهيب قالت: «أرجو من الله أن ننال بعض الراحة، أرجو أن نستقر فى مكان طيب».

وغطست الشمس فى اتجاه المرتفعات المتكسرة والمحترقة فى الغرب، وغلى الإناء الموضوع فوق النار بشدة، وذهبت الأم تحت المشمع وعادت ومعها ملء مريلتها من البطاطس وأسقطتها فى الماء المغلى: «أرجو من الله أن يسمح لنا بغسل بعض الملابس، لم تبلغ بنا القذارة هذا الحد أبدًا، نحن حتى لا نغسل البطاطس قبل أن نغليها، لست أدرى السبب، يبدو أن قلوبنا قد نزعت منا».

وجاء الرجال فى أثر بعض من تحت أشجار الصفصاف وقد امتلأت عيونهم بالنوم واحمرت وجوههم وانتفخت من نوم النهار.

قال الأب: «ما الخبر؟».

وقال «توم»: «سنذهب، رجل البوليس قال ينبغى أن نذهب، ربما كان من الأفضل أن ننتهى من الرحلة، لنبدأ بداية طيبة وربما اجتزناها، أمامنا ثلاثمائة ميل لكى نصل».

قال الأب: «ظننت أننا سنحصل على بعض الراحة».

فقال «توم»: «حسنًا، لن نحصل، لابد أن نذهب يا أبى، نوح لن يذهب، لقد مضى ليعيش على النهر».

«لن يذهب؟ ما حكايته بحق جهنم؟ ثم سيطر على نفسه وقال فى تعاسة: «إنها غلطتى، هذا الولد كله غلطتى أنا».

«لا».

فقال الأب: «لست أريد أن أتكلم فى هذا الموضوع ثانية، لا أستطيع... غلطتى» فقال «توم»: «حسنًا لابد أن نذهب».

ومشى «ويلسون» مقتربًا عند سماعه الكلمات الأخيرة: «لن يمكننا الذهاب يا جماعة، «سيرى» منهكة تمامًا، لابد لها من الراحة، لن تستطيع أن تعبر هذه الصحراء وهى على قيد الحياة».

صمتوا عند سماع كلماته، ثم قال «توم»: «قال رجل البوليس إنه سيقبض علينا إن ظللنا هنا غدًا».

وهز «ويلسون» رأسه، ولمعت عيناه بالقلق وشحب جلده الأسمر: «ليس هناك مخرج، «سيرى» لا يمكنها أن تذهب، وإذا سجنونا، فليسجنوننا، لابد أن ترتاح حتى تقوى على الرحلة».

قال الأب: «ربما كان من الأفضل أن ننتظر حتى نذهب معًا».

فقال ويلسون: «لا... لقد كنتم طيبين معنا، كنتم عطوفين علينا، ولكن لا يمكنكم البقاء هنا، لابد أن تذهبوا وتحصلوا على عمل وتعملوا، لن نسمح لكم بالبقاء». فقال الأب منفعلاً: «ولكنك لا تملك شيئًا».

فابتسم «ويلسون»: «لم يكن لدينا أى شىء عندما أخذتمونا، ليس

هذا من شأنك، لا تخرجنى عن طورى، يجب أن تذهب وإلا خرجت عن طورى وفقدت عقلى». وجذبت الأم الأب تحت غطاء المشمع وتكلمت معه همسًا.

والتفت «ويلسون» إلى «كيزى» وقال: « «سيرى» تريدك أن تذهب وتراها.

فقال الواعظ: «بالتأكيد». ثم مشى إلى خيمة ويلسون الصغيرة الرمادية، وباعد ما بين مصاريعها ودخل، كان الجو فى الداخل حارًا ومظلمًا والمرتبة مفروشة على الأرض وقد تناثرت الأدوات حيث أنزلت فى الصباح من السيارة، رقدت «سيرى» على المرتبة، عيناها واسعتان لامعتان، وقف ونظر إليها وقد انحنى رأسه الكبير وبدت عضلات رقبته البارزة مشدودة جوانبها، وخلع قبعته وأمسكها فى يده.

قالت: «هل قال لكم زوجى إنه لن يمكننا الرحيل؟».

«هذا ما قاله».

واستمر صوتها الخفيض: «أريد أن نذهب، أنا أعلم أننى لن أعيش على الجانب الآخر ولكنه سيكون هناك على أى حال، ولكنه إن لم يذهب، فلن يعرف، إنه يظن أن كل شىء سيتحسن، ولكنه لا يعرف».

«إنه يقول: إنه لن يذهب».

فقالت: «عارفة، وهو عنيد، لقد طلبتك لكى تأتى وتصلى لى».

فقال برقة: «لست واعظًا، وصلواتى ليست جيدة».

وبللت شفتيها وقالت: «لقد كنت هناك عندما مات الرجل العجوز، ولقد قلت صلاة عندئذ».

«لم تكن صلاة».

فقالت: «لقد كانت صلاة».

«لم تكن صلاة من التى يقولها الوعاظ».

«كانت صلاة جيدة، أريدك أن تقول واحدة لى».

«لا أعرف ماذا أقول».

أغمضت عينيها دقيقة ثم فتحتهما ثانية: «إذًا قل واحدة فى سرك، لا تستخدم فيها الكلمات... سيكون ذلك كافيًا».

فقال: «ليس لى إله!».

«لك إله، ولا يختلف الأمر أن تكون لا تعرف شكله» وأحنى الواعظ رأسه ورقبته بإمعان وعندما رفع رأسه بدت مرتاحة وقالت «هذا حسن، هذا ما أنا محتاجة إليه، رجل قريب منى جدًا، ليصلى».

وهز رأسه كمن يوقظ نفسه وقال: «لم أفهم هذه الكلمات الأخيرة».

فأجابت: «هل أنت تعرف، أليس كذلك؟».

فقال: «أنا عارف، أنا عارف، ولكنى لم أفهم، ربما ارتحتم أيامًا قليلة ثم استأنفتم المسير».

وهزت رأسها ببطء من جانب إلى آخر: «أنا مجرد ألم مغطى بالجلد، أنا أعلم ما السبب، ولكنى لم أخبره، سيحزن كثيرًا وهو لا يعرف ماذا يمكنه أن يفعل على أى حال، ربما حدث ذلك فى المساء، عندما يكون نائمًا، وعندما يستيقظ. لن يكون الأمر سيئًا جدًا».

«أتريدين أن أبقى معك ولا أذهب؟»

فقالت: «لا... لا.. عندما كنت فتاة صغيرة تعودت أن أغنى والناس حولى، تقول إننى أغنى جيدًا مثل «جينى ليند»، كان الناس يأتون ويسمعوننى وأنا أغنى، وعندما كنت أقف بينهم وأنا أغنى كنت أنا وهم معًا أكثر قربًا مما يمكن أن تتصوره، كنت أشعر بالامتنان، ليس هناك كثير من الناس يمكنهم أن يشعروا بالرضا والألفة التى كنت أشعر بهما وهؤلاء الناس يقفون حولى وأنا أغنى ظننت أنه ربما استطعت أن أغنى فى المسارح ولكننى لم أفعلها أبدًا، وأنا سعيدة بذلك، لم يكن هناك شىء يقف بينى وبينهم، وهذا ما جعلنى أطلب منك أن تصلى، أردت أن أشعر بهذه الألفة، مرة أخرى، الغناء والصلاة شىء واحد، نفس الشىء وددت لو أنك سمعتنى أغنى».

ونظر إليها، إلى عينيها، ثم قال: «وداعًا».

وهزت رأسها ببطء إلى الأمام والخلف وأطبقت شفتيها بإحكام، وخرج الواعظ من الخيمة المظلمة إلى الضوء الغاشى.

كان الرجال يحملون سيارة النقل، العم «جون» فوق، بينما الآخرون يناولونه المهمات، كان يصفها بعناية محافظًا على استواء السطح وأفرغت الأم ربع برميل من لحم الخنزير المملح فى طاسة وأخذ «توم» و«آل» البرميلين الصغيرين إلى النهر وغسلاهما، ثم ربطاهما على الرفارف وحولا لهما الماء بالجرادل حتى امتلأت، ثم ربطا على فوهتيهما قطعًا من المشمع حتى لا تندلق المياه، ولم يبق إلا المشمع ومرتبة الجدة.

قال «توم»: «سيحترق محرك هذه السيارة القديمة بكل هذا الحمل الذى تحمله، لابد أن نأخذ معنا كمية كبيرة من الماء».

وأخرجت الأم البطاطس المسلوقة وأحضرت نصف جوال من الخيمة ووضعته مع طاسة لحم الخنزير، أكل أفراد العائلة وهم وقوف، وكل منهم

يبدل قدمًا مكان الأخرى وينقل البطاطس الساخنة من يد إلى أخرى حتى تبرد.

وذهبت الأم إلى خيمة «ويلسون» وبقيت عشر دقائق ثم خرجت بهدوء وقالت: «حان وقت الرحيل».

دخل الرجال الخيمة حيث الجدة ما تزال نائمة وفمها فاغرًا، رفعوا المرتبة كلها برفق ونقلوها إلى ظهر العربة، وشدت الجدة ساقيها النحيفتين وزامت في نومها، ولكنها لم تستيقظ.

ربط العم «جون» والأب المشمع فوق العارضة وصنعا بذلك خيمة محكمة إلى حد ما فوق الحمولة، ثم ربطاه على جوانب العربة، وأصبحوا جاهزين، ومد الأب يده إلى كيسه وأخرج ورقتين ماليتين متهرئتين وذهب إلى ويلسون ومد يده بها له وقال: «نحن نحب أن تأخذ هذا و... ثم أشار إلى لحم الخنزير والبطاطس وقال: «وهذا».

نكس ويلسون رأسه وهزها بحدة وقال: «لن أفعل ذلك، ليس لديكم الكثير».

فقال الأب: «لدينا ما يكفينا للوصول إلى هناك، لا نترك لك كل شيء وسنحصل على عمل هناك».

فقال ويلسون: «لن أفعل هذا، سأخرج عن طوري إذا حاولتم».

أخذت الأم الورقتين الماليتين من يد الأب وطوتهما بعناية ووضعتهما على الأرض، ووضعت فوقهما طاسة لحم الخنزير وقالت: «ستظل هنا وإذا لم تأخذها أنت، فسيأخذها إنسان آخر». واستدار ويلسون ومازال رأسه منكسًا، ومشى إلى الخيمة، وخطى داخلها وانسدلت مصاريعها خلفه وانتظرت العائلة لحظات قليلة ثم قال «توم»: «لابد أن نذهب، لقد اقتربت من الرابعة فيما أعتقد».

وتسكعت العائلة صاعدة إلى سيارة النقل، الأم فوق بجوار الجدة، «وتوم وآل» والأب فى المقعد و«وينفلد» على حجر الأب، و«كونى» و«روزا شارن» جلسا فيما يشبه العش مستندين إلى الكابينة بينما جلس الواعظ والعم «جون» و«روثى» بين العفش.

وصاح الأب: «وداعًا يا مستر ومسز «ويلسون»» ولم تأت إجابة ما من الخيمة. وأدار «توم» المحرك وبدأت سيارة النقل تبتعد فى تثاقل وبينما هم يصعدون على الطريق غير الممهد متجهين إلى نيدلز والطريق العام، نظرت الأم خلفها، كان «ويلسون» يقف أمام خيمته شاخصًا ببصره وراءهم وقبعته فى يده، سقطت أشعة الشمس على وجهه ولوحت الأم يدها له ولكنه لم يرد.

قاد «توم» السيارة على السرعة الثانية وهى على الطريق غير الممهد لكى يحافظ على السست، عند نيدلز دخل إلى محطة خدمة وفحص الإطارات المتهرئة ونفخها، وفحص الإطارات الإضافية المعلقة فى الخلف، ملأ الخزان بالبنزين واشترى صفيحتين من البنزين سعة جالون وصفيحة زيت سعة جالونين، ملأ الرادياتير واقترض خريطة وأخذ يدرسها.

وظل عامل محطة الخدمة فى ردائه الأبيض قلقًا حتى دفعت الفاتورة فقال:

«أنتم يا جماعة عندكم أعصاب قوية».

ورفع «توم» نظره من على الخريطة وسأله: «ماذا تقصد؟».

«حسنًا، أن تعبروا فى سيارة قديمة كهذه».

«هل عبرتها من قبل؟»

«بالتأكيد، كثيرًا، ولكن ليس فى حطام كهذا».

فقال «توم»: «لو تعطلنا فربما قدم لنا أحدهم المساعدة».

«ربما، ولكن الناس تخشى أن تقف فى الليل، أنا أكره أن أفعل ذلك، فهى تتطلب قوة أعصاب أكبر مما عندى».

وابتسم «توم» وقال: «ليس هناك حاجة إلى قوة أعصاب لتفعل شيئًا، إن لم يكن أمامك خيار أن تفعله، حسنًا، شكرًا، سنمضى، ثم صعد إلى سيارة النقل وقادها مبتعدًا.

دخل عامل المحطة إلى البناء الحديدى حيث جلس مساعده مشغولاً فى دفتر فواتير وقال: «يا يسوع! ما أقسى مظهرهم؟».

«هؤلاء «الأوكيون»؟ كلهم قساة المظهر».

«يا يسوع! أنا أكره أن أسافر فى مثل هذه السيارة القديمة».

«حسنًا، أنا وأنت نملك عقلاً، هؤلاء «الأوكيون» الملاعين لا يملكون عقلاً ولا شعورًا، ليسوا آدميين، فالآدمى لا يمكنه أن يعيش كما يعيشون، لا يمكن أن يتحمل الإنسان أن يكون على هذا الحد من القذارة والتعاسة، إنهم لا يتميزون عن الغوريلا فى شىء».

«مهما يكن، أنا سعيد أننى لا أعبر الصحراء فى سيارة هدسون سوبر ٦، إن صوتها يشبه ماكينة الدريس».

ونظر العامل الآخر إلى دفتر فواتيره وتدحرجت نقطة كبيرة من العرق على إصبعه وسقطت على الفواتير الوردية اللون وقال: «أتعرف، ليس لديهم متاعب كثيرة، فإنهم أغبياء ملاعين لدرجة أنهم لا يعرفون خطورتها، وبحق المسيح القدير فهم لا يعرفون أى شىء أفضل مما هم فيه فعلاً، فلماذا القلق؟».

«لست قلقًا، إنما أفكر فقط لو كنت أنا مكانهم، فما كنت لأحب ذلك».

«هذا لأنك تعرف ما هو أفضل، أمّا هم فلا يعرفون شيئًا أفضل».

ثم مسح العرق من فوق الفاتورة الوردية اللون بكمه.

اتخذت سيارة النقل طريقها ومضت تصعد التل العالى خلال صخور مفتتة متكسرة وسخنت الآلة بسرعة وأبطأ «توم» سيره وأخذها على مهل، وعلى طول المنحدر الطويل كان الطريق يتلوى ويدور فى أرض ميتة، أحالتها الشمس الحارقة بيضاء رمادية لا ذرة حياة فيها، وتوقف «توم» مرة لحظات لكى تبرد الآلة ثم استأنف السفر، ووصل إلى القمة بينما لا تزال الشمس فوق الأفق، ونظروا إلى الصحراء تحتهم ـ على البعد جبال سوداء متفحمة، والشمس صفراء تنعكس على الصحراء الرمادية والشجيرات الصغيرة التى هلكت من العطش تلقى ظلالاً سوداء على الرمال وقطع الصخر، كانت الشمس المتوهجة أمامهم مباشرة، ووضع «توم» يده أمام عينيه ليتمكن من الرؤية، وعبروا الحافة ثم بدأوا يهبطون، وقد أوقف «توم» المحرك لكى يبرد، انحدروا عبر المنحدر الطويل إلى قاع الصحراء والمروحة تدور لكى تبرد الماء فى الرادياتير.

ونظر الجالسون فى مقعد السائق، «توم» و«آل» و«الأب» و«وينفلد» على حجر الأب، نظروا إلى الشمس اللامعة وهى تهبط وقد تحجرت عيونهم ونضحت وجوههم البنية اللون بالعرق وعلى البعد، تكسرت الآفاق المستوية بمرأى الأرض المخترقة والتلال السوداء وبدا شكلها مهولاً فى أشعة الشمس الغاربة الحمراء.

قال «آل»: «يا إلهى، أى عالم هذا، ما رأيك لو عبرتها ماشيًا؟».

فقال «توم»: «الناس فعلتها، هناك أناس فعلوها وإذا كانوا قد استطاعوا فنحن إذًا نستطيع».

فقال «آل»: «لابد أن كثيرين ماتوا».

«حسنًا، نحن لم نخرج من هذه الرحلة بدون خسائر كلية».

وسكت «آل» برهة والصحراء المحجرة تنساب حواليهم ثم سأل: «هل تظن أننا سنرى عائلة «ويلسون» ثانية؟».

وخفض «توم» عينيه بسرعة إلى عداد الزيت: «عندى إحساس أن أحدًا لن يرى مسز «ويلسون» أبدًا، مجرد إحساس عندى».

قال «وينفلد»: «أبى، أريد أن أخرج حالاً».

فنظر إليه توم: «ربما كان من الأفضل أن نتيح هذا لكل واحد قبل أن نستقر فى سيرنا فى الليل». وأبطآ السيارة وتوقف وتعثر «وينفلد» خارجًا وبال على جانب الطريق وأطل «توم» خارجًا وقال: «أى واحد آخر؟».

فقال العم «جون»: «نحن نوفر ماءنا هنا».

وقال الأب: «وينفلد»، تسلق إلى فوق، فقد خدلت ساقى بالجلوس عليها». فزرر الصبى الصغير عفريتته وتسلق العوارض الخلفية وزحف على ركبتيه ويديه على مرتبة الجدة ووصل إلى «روثى».

تحركت سيارة النقل، ومست حافة قرص الشمس الأفق غير المستوى فاكتست الصحراء كلها باللون الأحمر.

قالت «روثى»: «لم يتركوك تجلس هناك، هه؟».

«لم أكن أريد الجلوس، ليس مكان طيب هناك، لا يمكننى أن أرقد».

فقالت «روثى»: «حسنًا، لا تزعجنى وتتكلم وتصيح، لأننى سأنام، وعندما أستيقظ سنكون قد وصلنا إلى هناك، لأن «توم» قال ذلك، إنه لشىء ظريف أن نرى بلدًا جميلاً».

غابت الشمس تاركة هالة كبيرة فى السماء وتزايد الظلام تحت المشمع

فأصبح كالكهف الطويل والنور على طرفيه، مثلث مفلطح من النور.

استند «كونى» و«روزا شارن» على ظهر الكابينة والريح الساخنة التى تمر فى الخيمة تضرب فى مؤخرات رأسيهما والمشمع فوقهما يخفق ويدق كالطبلة، جلسا يتكلمان معًا فى صوت خفيض يناسب صوت دقات المشمع بحيث لا يمكن لأحد أن يسمعهما، عندما كان «كونى» يتكلم كان يدير رأسه ويتكلم فى أذنها، وكانت هى تفعل مثله، قالت: «يبدو أننا لن نفعل شيئًا إلا السفر، أنا متعبة للغاية».

فأدار رأسه إلى أذنها وقال: «ربما فى الصباح، ما رأيك أن تبقى وحدك الآن؟». ومد يده فى الغسق وضربها على ردفها.

فقالت: «لا تفعل ذلك، ستجننى، لا تفعل ذلك». ثم أدارت رأسها لتسمع كيف ستكون استجابته.

«ربما عندما ينام الجميع».

فقالت: «ربما ولكن انتظر حتى يناموا، ستجننى، ربما لن يناموا».

فقال: «لا أكاد أستطيع الانتظار».

«عارفة، وأنا أيضًا، فلنتكلم عن ذلك عندما نصل إلى هناك، وأنت ابعد قليلاً قبل أن أجن».

وتحرك قليلاً بعيدًا عنها وقال: «حسنًا، سأذاكر فى المساء فورًا». تنهدت بعمق، سأحصل على واحد من هذه الكتب التى تتكلم عنها وسأقطع الكوبون فورًا».

فسألت: «كم من الوقت.. تعتقد؟».

«كم من الوقت ماذا؟».

«كم من الوقت، قبل أن تكون قادرًا على كسب نقود كثيرة ونحصل على ثلج؟».

فقال بأهمية: «لا يمكننى تحديد ذلك، لا يمكننى تحديد ذلك فعلاً، لابد أن يدرس الإنسان كثيرًا قبل عيد الميلاد».

«مجرد أن تنتهى من دراستك، يمكننا أن نحصل على ثلج وحاجات، أعتقد ذلك». فضحك مكتومًا وقال: «إنه الحر هو الذى يجعلك تقولين هذا ما الذى ستفعلينه بالثلج فى عيد الميلاد؟».

فهمهمت ضاحكة وقالت: «هذا صحيح، ولكننى أحب الثلج فى كل وقت، والآن لا... ستجننى».

وتحول الغسق إلى ظلام، وظهرت نجوم الصحراء فى المساء الصافية، النجوم نافذة حادة محوطة بنقط صغيرة وأشعة قليلة والسماء كالقطيفة، وتبدلت الحرارة، عندما كانت الشمس فوقهم كانت الحرارة تلسعهم وتضربهم، ولكنها الآن تأتى من أسفل، من الأرض نفسها، ثقيلة خانقة، وخرجت أضواء سيارة النقل الأمامية ولم تضئ إلا بقعة صغيرة من الطريق أمامها وشريطًا من الصحراء على جانبى الطريق، وفى بعض الأحيان كانت هناك عيون تلمع أمام الأنوار على البعد ولكن لم تكن تظهر أية حيوانات فى النور، كانت ظلمة دامسة تحت المشمع الآن، وقد تكوّم العم «جون» والواعظ فى منتصف السيارة مرتكزين على مرافقهما شاخصين خارجًا من خلال المثلث الأسود، كان فى إمكانهما أن يريا الكتلتين اللتين كانتا الأم والجدة وخلفهما السماء، كان فى إمكانهما أن يريا الأم تتقلب وذراعها الأسمر يتحرك بين حين وآخر.

وتكلم العم «جون» مع الواعظ وقال: «كيزى، أنت رجل يحب أن يعرف ما يفعله».

«ما أفعله فى ماذا؟».

فقال العم «جون»: «لا أعرف».

فقال «كيزى»: «حسنًا، هذا يسهل الأمر».

«لقد كنت واعظًا».

«اسمع يا جون، كل إنسان يستذلنى لأننى كنت واعظًا، ليس الواعظ إلا إنسان».

«أيوه، ولكن، هو نوعٍ معين من البشر وإلا لما أصبح واعظًا، أريد أن أسألك هل تظن أن رجلاً قد يجلب النحس لأهله؟».

فقال «كيزى»: «لا أعرف، لا أعرف».

«حسنًا، اسمع لقد كنت متزوجًا فتاة طيبة جميلة، وذات ليلة أصابها ألم فى بطنها وقالت: «يستحسن أن تستدعى طبيبًا، وأنا قلت يا للجحيم، لقد أكلت كثيرًا فقط»، ووضع العم «جون»، يده على ركبة كيزى وحلق خلال الظلمة واستطرد: «نظرت إليها نظرة، وظلت تئن طوال الليل وماتت عصر اليوم التالى»، وغمغم الواعظ بشىء ما واستمر جون يقول: «أرأيت؟ لقد قتلتها، ومنذ ذلك الحين وأنا أحاول أن أكفر، غالبًا مع الأطفال، حاولت أن أكون طيبًا فلم أستطع، فأنا أشرب وأفقد عقلى».

فقال «كيزى»: «كل إنسان يفقد عقله، أنا أيضًا كذلك».

«أيوه، ولكنك لا تحمل فى روحك خطيئة كما أحمل أنا».

فقال «كيزى» برفق: بالتأكيد لى خطاياى، كل إنسان له خطاياه، الخطيئة هى الشىء الذى لا تمتلك فيه يقينًا، فهؤلاء الناس المتأكدون من كل شىء ليس لديهم خطايا، حسنًا، مع هذا الصنف من أولاد الزنى، لو أننى كنت الله لركلتهم خارج السماوات، لا أستطيع أن أحتملهم.

فقال العم «جون»: عندى إحساس أننى أجلب النحس لأهلى لدى، إحساس أنه يجب أن أذهب وأتركهم لست مرتاحًا لوضعى هذا».

فقال «كيزى» بسرعة: أنا أعرف هذا ـ لابد مما ليس منه بد، لا يمكننى أن أفيدك بشىء، لا يمكن أن أفيدك بشىء، لا أظن أن هناك حظًا ونحسًا، شىء واحد فى هذا العالم متأكد منه، ذلك هو أننى على ثقة أنه ليس من حق أحد أن يعبث بحياة إنسان آخر، من حقه أن يفعل كل شىء بنفسه وربما نساعده ولكن لا نقول له ماذا عليه أن يفعل».

فقال العم «جون» متضايقًا: «إذًا أنت لا تعرف؟».

«لا أعرف».

«هل تظن أنها كانت خطيئة أننى تركت زوجتى تموت بهذا الشكل؟».

فقال «كيزى»: «حسنًا، بالنسبة لأى إنسان آخر كانت غلطة ولكن إذا ظننت أنها خطيئة فهى خطيئة، فالإنسان يبنى خطاياه بنفسه فوق الأرض».

فقال العم «جون»: لابد أن أفكر فى هذا الأمر جيدًا» ثم انقلب على ظهره ورقد وقد ثنى ركبتيه.

سارت سيارة النقل فوق الأرض الساخنة ومرت ساعات، ونامت «روثى» و«وينفيلد» وفك «كونى» ملاءة من الحمولة وتغطى بها هو و«روزا شارن» وفى الحرارة تشابكا معًا وقد أمسكا أنفاسهما وبعد فترة ألقى «كونى» الملاءة بعيدًا ومر الهواء الساخن على جسديهما الرطبين، باردًا.

على ظهر السيارة النقل رقدت الأم على المرتبة بجوار الجدة، لم تكن

تستطيع أن ترى بعينيها ولكن كان فى إمكانها أن تحس بالجسد الذى يقاوم والقلب الذى يقاوم وأنفاس التنهدات فى أذنيها، وظلت الأم تقول وتعيد القول: «لا بأس، ستكون بخير»، وتقول بصوت أجش: «أنت تعرفين أن العائلة لا بد أن تعبر الصحراء، أنت تعرفين هذا».

ونادى العم «جون»: «أأنتم بخير؟»

مرت لحظه قبل أن تجيب: «لا بأس، أعتقد أننى قد استغرقت فى النوم» .وبعد فتره سكنت الجدة ورقدت الأم بجوارها دون حراك.

مرت ساعات الليل، وسارت سيارة النقل تواجه الظلام، أحيانًا تمر بهم سيارات ذاهبة إلى الغرب بعيدًا، وأحيانًا تأتى سيارات نقل كبيرة من الغرب متجهة نحو الشرق، والنجوم تنساب هابطة فى موكب بطئ فوق الأفق الغربى، وقرب منتصف الليل اقتربوا من «داجيت» حيث محطة الحجر الزراعى، كان الطريق هناك تغمره الأضواء، وعليه لافتة مضيئة تقول: «الزم اليمين وقف»، وقد جلس الضباط متكاسلين فى المكتب ولكنهم خرجوا ووقفوا تحت السقيفة الطويلة المغطاة عندما وقف «توم»، وسجل أحد الضباط رقم السيارة ورفع غطاء المحرك.

وسأل«توم»: «ماذا هنا؟».

«الحجر الزراعى، لابد أن نفتش أمتعتهم، أمعكم أى خضراوات أو بذور؟».

فقال «توم»: «لا».

«حسنًا، لابد أن نفتش أمتعتكم، لابد أن تنزلوها».

عندئذ تسلقت الأم سيارة النقل هابطة فى عناء وقد انتفخ وجهها وقست نظراتها، «اسمع يا سيدى، معنا سيدة عجوز مريضة، ولابد لها

من طبيب، لا يمكن أن تنتظر»، بدا كأنها ستقاوم مقاومة هستيرية. «لا يمكنك أن تجعلنا ننتظر».

«إيه؟ولكن لابد أن نفتشكم».

فصاحت الأم: «أقسم أنه ليس معنا أى شيء، أقسم على ذلك، والجدة مريضة جدًا».

فقال الضابط: «أنت نفسك لست على ما يرام».

وتسلقت الأم ظهر السيارة إلى فوق ودفعت بجسمها فى قوة كبيرة وقالت: «انظر».

وألقى الضابط شعاع بطاريته على الوجه العجوز المتكرمش وقال: «يا إلهى إنها فعلاً مريضة جدًا، أتقسمين أن ليس معكم لا بذور ولا فاكهة ولا خضراوات ولا حنطة ولا برتقال».

«لا... لا... أقسم على ذلك».

«إذن، استمروا، يمكنكم الحصول على طبيب فى بارستور، إنها تبعد ثمانية أميال فقط، هيا استمروا».

وصعد «توم» إلى السيارة وانطلق بها.

والتفت الضابط لرفيقه وقال: «لم يكن فى استطاعتى أن أوقف هؤلاء».

فقال الآخر: «ربما كانت خدعة».

«أوه، يا يسوع! لا، كان لابد أن ترى وجه هذه المرأة العجوز، لم تكن خدعة».

وزاد «توم» من سرعته إلى بارستور وتوقف فى هذه المدينة الصغيرة

وخرج ومشى حول السيارة وأطلت الأم وقالت: «إنها بخير لم أكن أريد التوقف هناك خفت ألا نستطيع العبور».

«إيه... ولكن كيف حال الجدة؟».

«إنها بخير، بخير، ستمر، لابد أن نعبر».

وهز «توم» رأسه ومشى راجعًا، قال «آل» سأمون السيارة ثم تسوقها أنت قليلاً». وتوقف عند محطة بنزين تعمل طول الليل وملأ الخزان والرادياتير، وملأ خزانة الكرنك، عندئذ انتقل «آل» إلى عجلة القيادة واحتل «توم» مكانه على حافة المقعد والأب فى الوسط، ثم انطلقوا بسيارتهم فى الظلام تاركين التلال الصغيرة بالقرب من بارستور خلفهم، قال «توم»: «لست أدرى ماذا حل بالأم، لقد أصبحت تميل للقتال ككلب يقرصه برغوث فى أذنه، لم يكن تفتيش الأمتعة سيستغرق وقتًا طويلاً، وقالت إن الجدة مريضة والآن تقول إن الجدة بخير، ليس فى مقدورى أن أفهمها، ليست على ما يرام، فرض أنها فقدت عقلها فى الرحلة».

وقال الأب: «الأم تذكرنى تقريبًا بوقت أن كانت فتاة، كانت متوحشة حينذاك لا تخشى شيئًا، ظننت أن العمل وإنجاب كل هؤلاء الأطفال قد أبرأها من ذلك، ولكنى أعتقد أنها لم تبرأ، بحق المسيح عندما أمسكت بقضيب الحديد هناك، أعترف أننى لم أشأ أن أكون الرجل الذى يقف فى سبيلها.

فقال «توم»: «أدرى ماذا حل بها، ربما كانت متعبة فقط».

قال «آل»: «لا وقت عندى للبكاء والعويل، يكفينى هم هذه السيارة».

فقال «توم»: «لقد أحسنت صنعًا باختيارها، لم نواجه أى متاعب معها على الإطلاق تقريبًا».

الليل كله وهم يحفرون فى الظلام الحار، والأرانب البرية تبرز فى النور الأمامى وتندفع فى قفزات طويلة عالية، وعندما لاحت أنوار «موجان» أمامهم كان الفجر يبزغ خلفهم، وكشف الفجر الجبال العظيمة فى الغرب، وتمونوا بالماء والزيت فى «موجان» ثم زحفوا صاعدين الجبال، والفجر يلاحقهم.

قال «توم»: «يا يسوع! لقد انتهت الصحراء، أبى، «آل»، بحق المسيح لقد انتهت الصحراء!».

فقال «آل»: «أنا متعب جدًا لدرجة تجعلنى لا أهتم بشىء».

«أتريدنى أن أسوقها».

«لا، انتظر قليلاً».

واخترقوا «كيشاشابى» فى وهج الصباح، وبزغت الشمس خلفهم وعندئذ رأوا فجأة الوادى العظيم تحتهم، وداس «آل» على الفرامل ووقف فى منتصف الطريق وقال: «يا يسوع المسيح! انظروا، حدائق الكروم، والبساتين، الوادى المنبسط العظيم، أخضر وجميل، صفوف الأشجار والمنازل الريفية».

وقال الأب: «يا إلهى القدير!، الحواضر البعيدة والمدن الصغيرة فى أرض البساتين وشمس الصباح الذهبية فوق الوادى ومن خلفهم سمعوا نفير سيارة فركن «آل» سيارته إلى جانب الطريق وتوقف.

«أريد أن أنظر إليها.. حقول القمح الذهبية فى الصباح وأسوار من أشجار الصفصاف وصفوف أشجار الكافور».

وتنهد الأب: «لم أر شيئًا كهذا أبدًا». أشجار الخوخ ونخيل الجوز وبساتين البرتقال الخضراء الداكنة، والأسطح الحمراء بين الشجر، الحظائر، الحظائر الغنية». وخرج «آل» يفرد ساقيه.

وصاح: «أمى، تعالى وتفرجى.. وصلنا».

وتشعلقت «روثى» و«وينفلد» هابطين من السيارة ثم وقفا صامتين ذاهلين مرتبكين أمام الوادى العظيم، كانت غلالة من الضباب تغشى الأفق، وعلى البعد تزداد الأرض نعومة، وبرقت فى الشمس طاحونة هواء وريش مروحتها تبدو من بعيد كمبرقة شمسية صغيرة.

ونظرت «روثـى» و«وينفلد» لها ثم همست «روثـى»: «إنها كاليفورنيا».

وحرك «وينفلد» شفتيه فى صمت بمقاطع الكلمات ثم قال بصوت عال: «هناك الفاكهة».

وتسلق «كيزى» والعم «جون» و«كونى» و«روزا شارن» هابطين من السيارة ثم وقفوا فى صمت، كانت «روزا شارن» قد بدأت تمشط شعرها إلى الخلف عندما رأت الوادى فسقطت يدها ببطء إلى جوارها.

قال «توم»: «أين أمى؟ أريد أن تراها أمى، انظرى يا أمى تعالى هنا».

كانت الأم تتسلق العارضة الخلفية هابطة بطيئة مبتئسة، ونظر إليها «توم» وقال: «يا إلهى، ماما أنت مريضة». كان وجهها متصلبًا كالعجين الجاف وقد غاصت عيناها فى رأسها، احمرت جفونها من فرط الإرهاق، وحين مست قدماها الأرض أسندت نفسها على جوانب السيارة.

وحين تكلمت جاء صوتها كالنقيق: «أتقول إننا قد عبرنا؟».

فأشار «توم» إلى الوادى العظيم «انظرى!».

وأدارت رأسها وانفرج فمها قليلاً، وامتدت أصابعها إلى رقبتها وأمسكت بثنية صغيرة من الجلد أخذت تلويها فى رفق وقالت: «الحمد لله العائلة هنا» وخانتها ركبتاها فجلست على الرفرف».

«ماما، أنت مريضة؟».

«لا، مجرد تعب».

«ألم تنامى؟».

«لا».

«هل كانت الجدة بحالة سيئة؟».

ونظرت الأم إلى يديها وقد استقرتا فى حجرها كالمحبين المتعبين: «وددت لو استطعت أن أنتظر ولا أخبرك، وودت لو أن كل شىء كان على ما يرام».

فقال الأب: «إذًا فالجدة فى حالة سيئة».

ورفعت الأم بصرها ونظرت إلى الوادى وقالت: «الجدة ماتت».

ونظروا إليها جميعهم، وسألها الأب: «متى؟»

«قبل أن يوقفونا الليلة الماضية».

«إذًا فهذا هو السبب الذى جعلك لا تريدينهم يفتشوننا».

فقالت: «كنت خائفة ألا نعبر، وقلت للجدة إننا لا نملك لها مساعدة، فالعائلة يجب أن تعبر، لقد أخبرتها بذلك، أخبرتها حين كانت تموت، لا يمكن أن نقف فى الصحراء، هناك الصغار وطفل «روزا شارن» قلت لها» ورفعت يديها وغطت وجهها لحظة وقالت بصوت خافت: «يمكنها أن تدفن فى مكان أخضر رائع، الأشجار حولها والمكان طيب».

«لابد أن تريح رأسها فى كاليفورنيا».

ونظرت العائلة إلى الأمام وقد أصابها بعض الفزع من قوتها.

وقال «توم»: «يا يسوع المسيح! وأنت ترقدين معها طول الليل!!»

فقالت الأم فى تعاسة: «كان لابد للعائلة أن تعبر».

وتحركـ «توم» مقتربًا ليضع يده على كتفها.

فقالت: «لا تلمسنى.. يمكننى أن أتماسك إذا بعدت عنى، وإلا انهرت».

فقال الأب: «لابد أن نمضى الآن.. لابد أن نهبط».

فنظرت الأم إليه وقالت: «أيمكن، أيمكن أن أجلس قدام؟ لست أريد أن أرجع هنا بعد ذلك، أنا متعبة، متعبة جدًا».

وتسلقوا عائدين فوق الحمولة وتحاشوا الهيكل المتصلب الطويل المغطى المدثر فى الغطاء حتى الرأس. مغطى ومدثرًا، وتحركوا إلى أماكنهم محاولين أن يبعدوا أنظارهم عنها، عن البروز الظاهر فى الغطاء الذى يمكن أن يكون الأنف، وعن الحافة الحادة التى يمكن أن تكون نتوء الذقن، حاولوا أن تظل أبصارهم بعيدة عنها ولكنهم لم يستطيعوا وتكوم «وينفلد» و«روثى» فى ركن أمامى أبعد ما يمكنهما عن الجسد وحملقا فى الهيكل المدثر».

وهمست «روثى»: «هذه هى الجدة، إنها ميتة».

أومأ «وينفلد» برأسه فى عبوس وقال: «إنها لا تتنفس على الإطلاق، إنها ميتة جدًا».

وقالت «روزا شارن» لـ «كونى» بصوت خافت: «كانت تلفظ أنفاسها عندما كنا....»

فقال يسرّى عنها: «وكيف كان يمكن أن تعرف؟».

وصعد «آل» فوق الحمولة ليفسح مكانًا للأم فى المقعد، وترنح قليلاً وكان يشعر بالأسى، ونهض جالسًا بجوار «كيزى» والعم «جون» وقال: «إيه كانت عجوزًا، أظن أن عمرها قد انتهى، كل إنسان لابد أن يموت» ونظر إليه كيزى والعم جون بعيون خلت من التعبير، كأنه شجيرة غريبة تتكلم فسألهما: «أليس كذلك؟» واستدارت العيون بعيدًا تاركة «آل» مكتئبًا ومهزوزًا.

قال «كيزى» متعجبًا: «طول الليل وهى وحدها». ثم قال «جون» «هاك» امرأة عظيمة بالحب، إنها تخيفنى، تجعلنى أشعر بالخوف والصغر».

وسأله «جون»: «أكانت خطيئة؟ أفيها شيء يمكنك أن نسميها خطيئة؟».

والتفت إليه «كيزى» فى دهشة: «خطيئة؟ لا... ليس فيها أى شيء يمكن أن يكون خطيئة».

فقال «جون»: «لم أفعل شيئًا أبدًا لم يكن فيه خطيئة» ،ثم نظر إلى الجسد الطويل الملفوف.

صعد «توم» الأب والأم فى المقعد الأمامى، وترك «توم» السيارة تتدحرج هابطة وهو يدوس على الفرامل، وتحركت سيارة النقل الثقيلة، تشخر وتترجرج وتفرقع هابطة، الشمس خلفهم والوادى الذهبى الأخضر أمامهم، وهزت الأم رأسها ببطء من جانب إلى آخر وقالت:

«جميل، وددت لو أنهما رأياه».

فقال الأب: «وأنا أيضًا وددت هذا».

وطبطب «توم» على عجلة القيادة بيده، وقال: [كانا عجوزين، وما كانا ليريا شيئًا هنا، لقد رأى الجد الهنود والبرارى عندما كانا شابًا وربما قد

رأت الجدة وتذكرت أول بيت أقيم لقد كانا عجوزين جدًا، من يرى فى الحقيقة، هما: «روثى» و«وينفلد»].

وقال الأب: «ها هو ذا «توم» يتكلم كرجل ناجح، يتكلم كأنه واعظ تقريبًا».

وابتسمت الأم بأسى وقالت: «فعلاً، لقد كبر توم جدًا، كبر حتى أننى أحيانًا لا أستطيع أن ألحق به».

وقعقعت السيارة وهى تهبط الجبل، تدور وتتلوى، تفتقد الوادى أحيانًا ثم تجده مرة أخرى، وتصاعدت إليهم النسائم الحارة من الوادى تحمل أنفاسًا ساخنة خضراء، رائحة أشجار الصمغ والأعشاب المعطر، صراصير الغيط تنق على طول الطريق، وزحفت حية من ذات الأجراس على الطريق فداسها «توم» وسحقها وتركها تتلوى.

فقال «توم»: «أعتقد أن علينا أن نذهب إلى حكيم الصحة أينما يكون، لابد أن ندفنها دفنة محترمة، كم تبقى معك من النقود يا أبى؟».

قال الأب: «حوالى أربعين دولاراً».

فضحك «توم» وقال: «يا يسوع نحن نبدأ من العدم، فعلاً نحن لم نحضر شيئًا معنا».. وضحك بصوت خافت لحظة ثم استقام وجهه بسرعة، وشد حافة قلنسوته إلى أسفل فوق عينيه، ودرجت السيارة تهبط الجبل إلى الوادى العظيم.

انتهى الجزء الأول



الفصل التاسع عشر

كانت كاليفورنيا فيما مضى تابعة للمكسيك، وأرضها للمكسيكيين، ثم تدفعه عليها حشد من الأمريكيين محمومين مهلهلين، كان جوعهم إلى الأرض ضاريًا فأخذوها، سرقوا أرض سوتر وأرض جويريرو، أخذ هؤلاء الجوعى المتهوسون الوسايا وقسموها، وزمجروا وتعاركوا عليها، ووقفوا يحرسون الأرض التي سرقوها بالبنادق، أقاموا البيوت والحظائر، قلبوا الأرض وزرعوها غلالاً، وأصبحت كل هذه الأشياء حيازة، والحيازة أصبحت ملكية.

كان المكسيكيون ضعافًا شبعانين، لم يستطيعوا المقاومة، فلم تكن بهم لهفة على شيء. بينما الأمريكيون متهوسون لهفة على الأرض.

ومع الزمن، لم يعد الغاصبون غاصبين، بل أصبحوا ملاكًا، وكبر أطفالهم وأنجبوا أطفالاً على الأرض وولى عنهم الجوع، الجوع الضاري، الجوع الذي كان يأكلهم ويمزقهم من أجل الأرض، من أجل الماء والطين والسماء الطيبة، من أجل الجذور السمينة والعشب الأخضر الزاهي.

ثم تمكنوا من كل هذا تمامًا حتى لم يعودوا يعرفون عنه شيئًا، لم يعد يمزق أحشاءهم الحنين إلى فدان خصب ومحراث جديد لامع يشق أديمه،

أو إلى التقاوى والحبوب، أو إلى طاحونة تضرب الهواء بأجنحتها، ما عادوا يصحون قبل الفجر لينصتوا إلى شقشقة العصافير الوسنانة، ونسائم الفجر تدور حول الدار، بينما هم ينتظرون أول خيوط النور ليخرجوا إلى العمل فى الفدادين العزيزة، انتهى كل هذا، أصبحت المحاصيل تقدر بالدولارات والأراضى برأس المال مضافًا إليه الفوائد، المحاصيل تباع وتشترى قبل أن تزرع وما عاد هبوط المحاصيل ولا الجفاف ولا الفيضانات، تعنى ميتات صغيرة داخل الحياة، وإنما أصبحت مجرد خسائر مالية.

ثم نال المال من قدرتهم على الحب، ونالت الفوائد من خشونتهم حتى كفوا عن أن يكونوا فلاحين، أصبحوا مجرد تجار صغار يبيعون المحاصيل، أصحاب ورش صغيرة يتلهفون على بيع منتجاتهم قبل أن يصنعوها، ثم فقد الفلاحون الذين لم يكونوا تجارًا ناجحين أرضهم، واستولى عليها التجار الناجحون، وبغض النظر عن مهارة الرجل فى الفلاحة أو حبه للأرض والزرع فإنه لا يستطيع أن يتخطى عوامل الفناء إلا إذا كان تاجرًا ناجحًا. ومع مضى الزمن وضع رجال الاعمال أيديهم على المزارع، وازدادت المزارع اتساعًا، بينما قل عدد الملاك.

ثم أصبحت الزراعة صناعة، وفعل الملاك مثلما فعل سادة روما القديمة، برغم أنهم لم يعرفوها، استوردوا العبيد وإن لم يطلقوا عليهم اسم العبيد: عبيدًا من الصين واليابان، والمكسيك والفلبين، يقول أصحاب الأعمال إنهم يعيشون على الأرز والفاصوليا، ولا يحتاجون إلى الكثير، لا يعرفون ماذا يفعلون بالأجور الطيبة، انظروا كيف يعيشون، انظروا ماذا يأكلون، وإذا فقدوا توازنهم رحلوهم إلى حيث أتوا.

ومع الزمن تزداد مساحة المزارع، ويقل عدد الملاك، ولا يبقى على الأرض إلا أقل القليل من المزارعين، والأقنان المستوردين، نال منهم

الضرب والخوف والجوع حتى عاد بعضهم إلى أوطانهم، ولجأ البعض الآخر إلى العنف، فقتل أو طرد من البلاد، وتزداد مساحة المزارع ويقل عدد الملاك.

ثم تغيرت المحاصيل، حلت أشجار الفاكهة محل حقول القمح، وتحتها الخضراوات لتطعم العالم: خص، وقرنبيط، وخرشوف، وبطاطس، وغيرها من الثمار الأرضية، يستطيع الرجل أن يقف ليستخدم منجلاً، أو محراثًا أو شوكة، ولكنه لابد أن يزحف كالبقة بين صفوف الخص، لابد أن يحمى ظهره ويسحب كيسه الطويل بين صفوف القطن، لابد أن يركع على ركبتيه كالتائب بجوار أحواض القرنبيط.

ثم يجيء وقت حيث لا يعمل الملاك فى مزارعهم، حيث يزرع الملاك على الورق فحسب، لقد نسوا الأرض، ورائحتها، والإحساس بها ولم يعودوا يذكرون إلا أنهم يملكونها، يذكرون فقط كم يربحون منها أو يخسرون فيها، وكبرت مساحة بعض المزارع حتى لم يعد فى إمكان رجل واحد أن يتصور حدودها، كبرت حتى ليتطلب حساب مكسبها أو خسارتها جهود كتائب من المحاسبين، ويتطلب اختبار تربتها جهود الكيميائيين، وأصبح الملاحظون ضروريين لكى يدفعوا الرجال المنحنين إلى الحركة بأسرع ما يمكن أن تسمح به طاقة أبدانهم، هكذا يصبح هذا المزارع تاجرًا حقيقيًا، ويصبح له متجر حقيقى، يدفع أجر الرجال، ويبيعهم الطعام، فيسترد النقود، وبعد فترة لا يدفع لهم أجرًا على الإطلاق، ويوفر تكاليف الحسابات، وأصبحت هذه المزارع تقدم الطعام على الحساب، يمكن للرجل أن يعمل نظير طعامه وعندما ينتهى العمل ربما يتبين أنه مدين للشركة، لم يعد الأمر مقصورًا على أن الملاك لا يعملون فى المزارع فحسب، بل إن كثيرًا من بينهم لم يروا الحقول التى يتملكونها أبدًا.

ومن نزعت ملكيته يساق نحو الغرب، من كانساس وأوكلاهوما وتكساس ونيومكسيكو، من نيفادا وأركانساس - عائلات وعشائر طردها الجفاف واكتسحتها الجرارات، سيارات محملة، قوافل جوعى ومشردون، عشرون ألفًا خمسون ألفًا، ومائة ألف، ومائتا ألف يزحفون عبر الجبال جوعى لا يستقرون، كالنمل ينطلق مسرعًا بحثًا عن عمل يقوم به، ليحمل أى شىء أو يزقه أو يجره أو يلتقطه أو يقطعه. أى شىء، أى حمل، من أجل الطعام، الأطفال جوعى وليس لنا مكان نعيش فيه، كالنمل يهرول مسرعًا بحثًا عن عمل، عن الطعام، وأشد ما يكون بحثًا عن الأرض.

لسنا أجانب إننا أمريكيون من سبعة أجيال، وقبل ذلك أيرلنديون، أسكوتلنديون، إنجليز، أو ألمان، كان أحد أجدادنا فى الثورة وكثيرون من أسلافنا اشتركوا فى الحرب الأهلية، فى هذا الجانب أو ذاك، نحن أمريكيون.

كانوا جوعى، خشنين، كان أملهم أن يعثروا على وطن يأويهم ولكنهم لم يصادفوا إلا الكراهية، يسمونهم «أوكيين» إهانة وتحقيرًا وإن كانت فى مبدأ الأمر نسبة إلى أوكلاهوما - الملاك يكرهونهم لأنهم يعلمون أن فيهم طراوة بينما «الأوكيون» أشداء. وأنهم ممتلئوا البطون بينما «الأوكيون» جوعى. وربما سمع الملاك من أجدادهم كيف أنه من السهل أن تسرق الأرض من الرجل الطرى إذا كنت خشنًا ذا بأس، وكنت جائعًا ومسلحًا، الملاك يكرهونهم، وفى المدن يكرههم أصحاب المحلات لأنهم لا يملكون نقودًا لينفقوها. فليس هناك طريق أقصر من ذلك لكسب احتقار صاحب المتجر، وهو لا يعجب إلا بمن هم على نقيضهم، ورجال المدن من أصحاب بنوك الرهن الصغار يكرهون «الأوكيين» إذ ليس وراءهم ما يمكن أن يربحوه، ليس لديهم شىء والناس العاملون يكرهون «الأوكيين»، لأن الرجل الجائع يجب أن يعمل، فإذا كان يجب أن يعمل - إذا كان مضطرًا

إلى العمل ـ فإن صاحب العمل سيعطيه أجرًا أقل مقابل عمله، وعندئذ لن يستطيع أحد أن ينال أجرًا أفضل.

والذين نزعت ملكياتهم، المهاجرون، يتدفقون إلى كاليفورنيا، مائتان وخمسون ألفًا وثلاثمائة ألف، خلفهم كانت الجرارات الجديدة تجرى على الأرض والمستأجرون يطردون منها، موجات جديدة على الطريق، موجات من الذين لا ملكية هم ولا مأوى، فيهم صلابة وعزيمة وخطر.

وبينما أهل كاليفورنيا يريدون أشياء كثيرة، تراكم رأس المال، النجاح الاجتماعى، الترفيه والفخفخة، وضمان البنوك للأمن المالى، كان البرابرة الجدد لا يريدون إلا شيئين اثنين فحسب: الأرض والطعام، وبالنسبة لهم كان الاثنان شيئًا واحدًا، وبينما كانت رغبات أهل كاليفورنيا غامضة وغير محددة، كان ما يشتهيه «الأوكيون» على جنبات الطريق، ترقد حيث يمكن أن تراها العين وتشتهيها النفس، الأرض الزراعية الطيبة والماء فى باطنها، الحقول الخضراء الطيبة، تراب يتفتت فى الأيدى الخبيرة، وأعشاب عطرة، وأعواد الشوفان «تمضغ» فتشق حلاوتها الحلق، وإذ ينظر الرجال إلى الأراضى الزراعية المهجورة، ويتأملونها، يرون بخيالهم كيف يمكنهم، بأذرعتهم المشدودة، وظهورهم المحنية أن ينبتوا فيها الحنطة الذهبية والكرنب المزهر واللفت والجزر.

ويقود الرجل الجائع الذى لا مأوى له سيارته على الطرق، زوجته بجواره، وأطفاله الذين أصابهم الهزال ـ فى المقعد الخلفى، وينظر إلى الحقول المهجورة التى يمكنها أن تنتج الطعام لا الربح، وهو يعرف أن الحقل المهجور خطيئة، والأرض التى لا تزرع جريمة فى حق أطفاله النحاف، مثل هذا الرجل يسوق سيارته على الطرق، ويعرف طعم الإغراء عند كل حقل ويعرف طعم اشتهاء هذه الحقول ليأخذها، ويجعلها تنمو

قوية من أجل أطفاله، ومن أجل بعض الراحة لزوجته. الإغراء أمامه على طول الطريق، الحقول إغراء وقنوات الشركة ذات الماء الجارى إغراء أكبر.

وفى الجنوب يرى البرتقال الذهبى متدليًا من أشجاره، ثمار البرتقال الصغيرة الذهبية على الأشجار الخضراء الداكنة، وحراس ذوو بنادق يجوبون الحدود حتى لا يستطيع أى رجل أن يلتقط برتقالة لطفل هزيل، البرتقال يقذف إلى أكوام القمامة إذا كان السعر منخفضًا.

ويقود الرجل سيارته القديمة فى المدينة، بعد أن دار على المزارع بحثًا عن العمل، أين يمكن أن ننام الليلة؟.

حسنًا، هناك «هوفرفيل» على حافة النهر فهناك حشد كامل من «الأوكيين»، ويسوق سيارته القديمة إلى هوفرفيل، وهو لا يسأل بعد ذلك أبدًا، فعلى أطراف كل مدينة توجد، هوفرفيل.

ترقد المدينة المهلهلة بالقرب من الماء، المنازل خيام، خيش مسقوف بالقش، أو بيوت من ورق الكرتون، وأكوام كبيرة من النفاية، ويدخل الرجل بعائلته وسيارته ويصبح من مواطنى هوفرفيل ـ كان اسمها على الدوام هوفرفيل، ويقيم الرجل خيمته الخاصة فى أقرب موضع من الماء، أو إن لم تكن معه خيمة، يذهب إلى مقلب زبالة المدينة ويعود بعلب كرتون يبنى بيتًا من الورق المقوى، وعندما يسقط المطر يذوب المنزل فى البلل، يأوى الرجل إلى هوفرفيل، ثم يجوب البلاد بحثًا عن عمل وعن نقود قليلة تلزم لشراء مزيد من البنزين لمواصلة البحث عن عمل، وفى المساء يتجمع الرجال ويتبادلون الحديث، يتربعون ويتحدثون عن الأرض التى يرونها.

هناك ثلاثون ألف فدان ناحية الغرب، تمتد هناك، يا يسوع! ماذا يمكننى

أن أفعل بها، بخمسة أفدنة منها، بحق جهنم، يمكن أن أحصل على كل ما أشتهى من طعام.

لاحظ شيئًا، لا يوجد خضار أو دجاج أو خنازير فى المزارع، إنهم يزرعون شيئًا واحدًا.. قطن، أو خوخ، أو خص، وأماكن أخرى كلها دجاج، إنهم يشترون ما يمكنهم أن يربوه فى أفنيتهم.

يا يسوع! يمكننى أن أصنع الكثير بزوج من الخنازير.

حسنًا، إنها ليست لك، ولن تكون لك.

ماذا سنفعل؟ لا يمكن أن نربى أولادنا بهذا الشكل.

فى المخيمات تتداول كلمة فى همس، هناك عمل فى «شافتر» وتشحن السيارات فى الليل ويزدحم الطريق ـ اندفاع مجنون بحثًا عن العمل، كأنه البحث عن الذهب، وفى شافتر يتكدس الناس، خمسة أضعاف العدد الذى يحتاج إليه العمل، اندفاع مجنون للعمل، يمضى الناس الليل متلصصين، متعطشين للعمل، وعلى طول الطريق يرقد الإغراء، الحقول التى يمكنها أن تعطى الطعام.

إنها ملك آخرين، ليست ملكنا.

طيب... ربما استطعنا أن نحصل على قطعة صغيرة منها، ربما.. قطعة صغيرة، هنا بالضبط حوض، يملؤه النجيل، يا يسوع! أستطيع أن أحصل على ما يكفى من البطاطس من هذا الحوض الصغير لأطعم كل العائلة؟.

ولكنها ليست ملكنا، لابد أن يملأها النجيل.

وبين الحين والحين يقوم أحدهم بمحاولة، يزحف على الأرض ويطهر قطعة منها محاولاً كاللص أن يسرق ما يمكن أن تجود به الأرض،

بساتين سرية مخبأة بين الأعشاب، باكو من بذور الجزر وبعض ثمار اللفت، قشور بطاطس مخضرة، ويزحف فى المساء سرًا لكى يعزق الأرض المسروقة.

اترك العشب حول الأطراف، حتى لا يرى أحد ماذا نفعل، اترك بعض الأعشاب الكبيرة الطويلة فى الوسط.

زراعة الخضراوات تتم سرًا، فى الليل، ويحمل إليها الماء فى صفيحة صدئة.

وذات يوم يأتى الشرطى: عظيم، ماذا تظن أنك فاعل؟

أنا لا أفعل ما يضر أحدًا.

إن عينى لا تغفل عنكم، هذه ليست أرضك، أنت تعتدى.

الأرض مهجورة وأنا لا أضر أحدًا.

أيها الغاصبون الملاعين، بعد قليل ستظنون أنكم تملكونها وستقاتلون بشراسة، أتعتقد أنك تملكها، اخرج منها الآن.

وتسحق نباتات الجزر الخضراء الصغيرة بالأقدام، وتداس أوراق اللفت الخضراء ثم يزحف النجيل مرة أخرى، ولكن رجل البوليس على صواب، فزراعة الأرض تخلق الملكية، أرض خدمت وعزقت، وثمرات جزر أكلت، الإنسان يقاتل من أجل أرض أخذ طعامه منها، اطرده بسرعة وإلا أعتقد أنه يملكها. قد يموت مقاتلاً عن ذلك الحوض الصغير بين حشائش النجيل، هل رأيت وجهه عندما وطأت الأقدام نبتات اللفت؟ لماذا؟ إن نظرته قاتلة، لابد أن تبقى هؤلاء الناس بعيدًا وإلا استولوا على البلاد، إنهم سيستولون على البلاد.

غرباء، أجانب.

صحيح أنهم يتكلمون نفس اللغة، ولكنهم ليسوا مثلنا، انظر كيف يعيشون، اتظن أن أى واحد منا يمكنه أن يعيش هكذا؟ لا.. وحق الجحيم.

فى الأمسيات يتربعون ويتكلمون ويقول أحد الرجال منفعلاً: لماذا لا يأخذ عشرون منا قطعة من الأرض؟ عندنا بنادق، نأخذها ونقول، أخرجونا إن استطعتم، لماذا لا نفعل ذلك؟ سيطلقون الرصاص، كالجرذان.

ولكن أيهما أفضل: الموت أو البقاء على هذه الحال، أيهما أفضل: الدفن أو الحياة فى بيت من الخيش؟ أيهما أفضل لعيالك: يموتون الآن أو يموتون بعد عامين بذلك الداء الذى يسمونه سوء التغذية؟ أتعرف ماذا أكلنا طوال الأسبوع الماضى..؟ عصيدة، وقديدًا، أتدرى من أين حصلنا على الدقيق للقديد، كنسنا الدقيق من على أرضية سيارة نقل.

الحديث فى المخيمات يدور، ورجال الشرطة، رجال ذوو أرداف سمينة تعلقت المسدسات على خواصرهم البدينة يجوسون خلال المخيمات، اعطهم شيئًا يفكرون فيه، لابد أن تظل تشغلهم بشىء وإلا فالمسيح وحده يعلم ماذا سيفعلون، يا يسوع! إنهم خطرون كالزنوج فى الجنوب، إذا ما تجمعوا معًا فلن يوقفهم شىء.

ملحوظة: فى «لورانس فيل» طرد شرطى أحد الغاصبين وقاومه هذا الأخير مما دفع برجل البوليس إلى استعمال العنف، وقد أطلق ابن الغاصب البالغ من العمر أحد عشر عامًا الرصاص عليه فقتله ببندقية عيار ٢٢ ملليمترًا.

ثعابين وحيات! لا تعطهم فرصة، وإذا جادلوك أطلق النار أولاً، إذا كان الطفل يقتل شرطيًا فماذا سيفعل الرجال إذًا؟ المهم هو أن تكون أشد خشونة منهم، عاملهم بقسوة، ألق الرعب فى قلوبهم.

ولكن ـ ماذا لو لم يخافوا؟ ماذا لو وقفوا وقبلوا التحدى وبادلوك إطلاق النار؟ هؤلاء الرجال كانوا مسلحين منذ كانوا أطفالاً والبندقية جزء منهم، ماذا لو لم يخافوا؟ ماذا لو حدث مرة أن مشى جيش منهم فى الأرض كما فعل اللومبرديون فى إيطاليا، والجرمان فى بلاد الغال، والأتراك فى بيزنطة؟ كانوا جوعى إلى الأرض، وحشودهم سيئة التسليح أيضًا، ولم تستطع الفيالق المجهزة أن توقفهم، المذابح والرعب لم يستطع أن يوقفهم، كيف يمكن أن تخيف رجلاً لا يسكن الجوع فى أحشائه فقط، ولكن فى بطون أطفاله الخاوية؟ لا يمكنك أن تخيفه ـ لقد عرف خوفًا ما بعده خوف.

وفى هوفرفيل يتكلم الرجال: انتزع جدى أرضه من الهنود الحمر.

لا، ليس هذا صوابًا، الكلام يجرنا إلى أشياء سيئة، إن ما تتكلم عنه سرقة وأنا لست لصًا.

حقًا؟ ولكنك سرقت زجاجة لبن من أمام مدخل أحد المنازل فى الليلة قبل البارحة وسرقت أسلاكًا نحاسية وبعتها مقابل قطعة لحم.

أيوه، ولكن الأطفال كانوا جوعى.

إنها سرقة على أى حال.

أتعرف كيف حصل «فيرفيل» على مزرعته؟ سأحكى لك، كانت أرضًا حكومية من الممكن الاستيلاء عليها. وذهب «فيرفيل» الكبير إلى بارات سان فرانسيسكو وأتى بثلاثمائة صعلوك، هؤلاء الصعاليك استولوا على الأرض، واحتفظ بهم «فيرفيل» مقابل الطعام والخمر، وعندما أصلحوا الأرض أخذها منهم «فيرفيل» الكبير، وقد اعتاد أن يقول أنها كلفته نصف لتر من الخمر للفدان، هل ترى أن هذا سرقة؟

على أى حال، لم يكن تصرفًا سليمًا ولكنه لم يسجن بسببه.

لا لم يسجن بسببه، والرجل الذى وضع قاربًا فى عربة وكتب تقريرًا يقول إنه كان طول الوقت فى الماء، لأنه كان فى القارب لم يسجن أيضًا، وكذلك الرجال الذين يرشون رجال الكونجرس والمشرعين لا يسجنون.

وفى كل أنحاء الولاية لا يتوقف الكلام فى الهوفرفيلات.

ثم تأتى غارات الشرطة، ينقض رجال البوليس المسلحون على مخيمات المغتصبين، اخرجوا، أوامر من مصلحة الصحة، هذا المخيم يهدد الصحة العامة.

أين سنذهب؟.

ليس هذا من شأننا، لدينا أوامر بإخراجكم من هنا، سنشعل النار فى المخيم خلال نصف ساعة.

هناك حالة تيفود فى المخيم، أتريدون أن ينتشر المرض فى كل مكان؟.

لدينا أوامر بإجلائكم من هنا والآن هيا، فى نصف ساعة سنحرق المخيم.

وبعد نصف ساعة يتصاعد إلى السماء دخان المنازل المصنوعة من الورق الكرتون والعشش المسقوفة بالقش والناس فى سياراتهم يدرجون على الطرق العامة يبحثون عن هوفرفيل أخرى.

وفى كانساس وأركانساس، وأوكلاهوما، وتكساس ونيومكسيكو، تدخل الجرارات لتطرد المستأجرين، ثلاثمائة ألف فى كاليفورنيا، وسيأتى المزيد، وفى كاليفورنيا تمتلئ الطرق بالناس تجرى فى هوس كالنمل، لتحمل شيئًا أو تجره أو تدفعه، لتحمل خمسة أزواج من الأذرع تتزاحم

على حمل يستطيع أن يرفعه رجل واحد، خمسة أفواه مفتوحة لما يملأ معدة واحدة.

والملاك الكبار الذين يجب أن يفقدوا أراضيهم فى هبة من الهبات، هؤلاء الملاك الذين أمامهم عبر التاريخ، الذين لهم عيون يمكن أن تقرأ التاريخ، ولهم عقول يمكن أن تدرك الحقيقة التاريخية الكبرى ـ عندما تتركز الملكية فى أيد قليلة جدًا، يصبح ضياعها أمرًا حتميًا، والحقيقة الأخرى المكملة لها: عندما تكون أغلبية الناس جوعى ومقرورين فسيأخذون بالقوة ما يحتاجون إليه، والحقيقة الصغيرة التى تصرخ عبر التاريخ كله: القهر لا يؤدى إلا إلى تقوية المقهورين وتوحيدهم، ولكن الملاك الكبار يصمّون آذانهم عن صيحات التاريخ الثلاث. الأرض تتركز فى أيد أقل، وأعداد الذين تنزع ملكياتهم تتزايد، وكل جهود الملاك لا توجه إلا لأعمال القهر. الأموال تنفق فى شراء السلاح والغاز من أجل حماية ملكيات كبيرة، والجواسيس يتصيدون همسات التمرد لكى يسحقوه. تجاهلوا حال الاقتصاد المتغير، تجاهلوا خطط التغيير، ولم يتدبروا إلا فى وسائل تحطيم التمرد بينما أسبابه ما تزال تستشرى.

ويتزايد عدد الجرارات التى تطرد الرجال من أعمالهم، ويتزايد عدد الآلات التى تنتج، والسيور المتحركة التى تنقل الأحمال، ومزيد من العائلات تفر إلى الطرق تبحث عن الفتات من الممتلكات الضخمة، تشتهى الأرض بجانب الطرق، ويكوِّن الملاك الكبار جمعياتهم لكى يحموا مصالحهم، ويجتمعون ليناقشوا وسائل إثارة الفزع، وأساليب القتل وقنابل الغاز، وهم على الدوام فى فزع من قاعدة واحدة، الثلاثمائة ألف، لو أنهم تحركوا يومًا تحت قيادة واحدة ـ فإنها النهاية. ثلاثمائة ألف جوعى وبؤساء. لو أنهم عرفوا أنفسهم يومًا، فستصبح الأرض أرضهم وكل قنابل الغاز وكل البنادق التى فى العالم لن توقفهم. والملاك الكبار الذين جعلتهم ملكياتهم أكبر من الناس وأصغر منهم فى الوقت نفسه،

يسرعون إلى دمارهم ويستخدمون كل وسيلة ستحطمهم فى نهاية الأمر، كل وسيلة دنيئة، كل وسيلة للعنف، كل غارة على هرفوفيل، كل شرطى يتجول فى المخيمات المهلهلة يقرب ذلك اليوم خطوة، ويؤكد حتميته.

ويتربع الرجال على الأرض، رجال ذوو وجوه حادة التقاطيع، هزيلة من فرط الجوع وقاسية من طول مقاومته، العينان عابستان والفكان قاسيان والأرض الخصبة من حولهم.

هل سمعت عن ذلك الطفل فى الخيمة الرابعة هناك؟

لا، لقد جئت لتوى.

حسنًا، هذا الطفل كان يصرخ فى نومه، ويتقلب فى نومه وظن أهله أنه مصاب بالديدان فأعطوه شربة ومات. كان مصابًا بما يسمونه اللسان الأسود وهو مرض ينتج عن عدم أكل الطعام الجيد.

يا للصغير المسكين!.

أيوه، ولكن أهله لم يستطيعوا دفنه، لابد أن يذهبوا به إلى مقبرة الولاية العامة.

ياه. يا للجحيم!.

وتمتد الأيدى فى الجيوب، وتخرج العملات الصغيرة، وتتجمع كومة صغيرة من الدراهم الفضية أمام الخيمة، لتجدها العائلة هناك.

شعبنا شعب طيب، شعبنا شعب عطوف، لنصلى إلى الله ألا يصبح كل الناس الطيبين فقراء فى يوم من الأيام، فلنصل لله أن يستطيع الطفل أن يأكل فى يوم من الأيام.

وجمعيات الملاك تعلم أنه فى يوم من الأيام ستتوقف الصلوات وحينئذ ستكون النهاية.

الفصل العشرون

جلست الأسرة فوق حمولة السيارة، الأطفال و«كونى» و«روزا شارن» والواعظ، جلسوا متصلبين وقد تشنجت عضلاتهم، فقد جلسوا فى الحرارة أمام مكتب الصحة فى «باكر سفيلد» بينما دخل الأب والأم والعم «جون» إليه، ثم أخرجت محفة وأنزلت الربطة الطويلة من فوق السيارة، وجلسوا فى الشمس حتى تم الفحص، وتبين سبب الوفاة، ووقعت الشهادة.

ودرج «توم» و«آل» فى الشارع يتفرجان على فترينات المحلات، ويلاحظان الناس ذوى الهيئة الغريبة على الأرصفة.

وأخيرًا خرج الأب والأم والعم «جون». كانوا مقهورين وصامتين، وتسلق العم «جون» إلى مكانه فوق السيارة ودخل الأب والأم إلى المقعد، وكر «توم» و«آل» راجعين، وجلس «توم» خلف عجلة القيادة، جلس فى صمت منتظرًا أى تعليمات. كان الأب ينظر إلى الأمام مباشرة وقد جذب قبعته إلى أسفل ومسحت الأم جوانب فمها بأصابعها، وعيناها تنظران بعيدًا فى ضياع، وقد تحجرت من فرط الإجهاد.

وتنهد الأب بعمق وقال: «لم يكن هناك ما يمكن صنعه غير ذلك».

فقالت الأم: «أعرف، ومع ذلك فلكم كانت تود جنازة فخمة، كانت على الدوام تريد جنازة فخمة».

ونظر إليهما «توم» وسأل: «فى العمومى»؟

وهز الأب رأسه بسرعة كأنما يعود قليلاً إلى الواقع وقال: «أيوه، لم يكن معنا ما يكفى، ولم نتمكن من صنع شيء». ثم التفت إلى الأم وقال: «لست مستاءة؟ لم نكن لنستطيع مهما حاولنا، ومهما فعلنا، المشكلة أنها ليست فى طاقتنا: التحنيط، والكفن، والواعظ، وقطعة أرض فى جبانة، كانت ستتكلف عشرة أضعاف ما نملك، لقد فعلنا أقصى ما يمكننا صنعه».

فقالت الأم: «أعرف، ولكننى لا أستطيع أن أبعد من دماغى الحكاية التى كانت تقولها عن الجنازة الفخمة، لابد أن أنساها». ثم تنهدت بعمق ومسحت جوانب فمها «كان رجلاً طيبًا فى الداخل، مشغولاً جدًا، ولكنه طيب جدًا».

فقال الأب: «أيوه، لقد قال لنا الأمر بصراحة مباشرة».

ومسحت الأم بيدها على شعرها إلى الخلف وجزت على أسنانها وقالت: «لابد أن نمضى، لابد أن نجد مكانًا للإقامة، لابد أن نجد عملاً ونستقر، لا فائدة من ترك الصغار جوعى فلم يكن هذا طبع الجدة، كانت على الدوام تأكل أكلة طيبة فى الجنازات».

سأل «توم»: «إلى أين نذهب؟».

وخلع الأب قبعته وهرش فى شعره وقال: «فلنعسكر، لا ينبغى أن ننفق القليل الذى تبقى حتى نجد عملاً، اتجه بنا إلى الريف».

وأدار «توم» السيارة وساروا خلال الشوارع متجهين إلى الريف، وعند الكوبرى شاهدوا تجمعًا من الخيام والعشش وقال «توم»: «ربما كان من الأفضل أن نقف هنا، لنرى ماذا يدور وأين يوجد العمل».

وقاد السيارة عبر منحدر ترابى حاد ثم وقف عند حافة المخيم.

لم يكن هناك أى نظام فى المخيم، خيام صغيرة رمادية، وعشش، وسيارات مبعثرة بشكل جزافى، البيت الأول لا يمكن وصفه، الحائط الجنوبى مصنوع من ثلاثة ألواح من الصاج المضلع الصدئ، الحائط الشرقى قطعة مربعة من سجادة قديمة مشدودة بين قائمين، الحائط الشمالى شريط من ورق الأسقف وشريط من القماش السميك المتهرئ والحائط الغربى ست قطع من الأجولة الخيش، وفوقها برواز مربع على قوائم من الصفصاف غير المشذب وقد كومت فوقه الأعشاب دون ترتيب. كُومت فى رابية منخفضة، والمدخل فى الجانب المصنوع من الخيش، وقد تكومت أمامه الأمتعة بلا ترتيب، صفيحة كيروسين سعة خمسة جالونات قامت مقام الفرن، أرقدت على جانبها وقد ثبت على أحد أطرافها جزء من مدخنة فرن صدئة.

واستوت صفيحة غسيل على أحد جانبيها على الحائط، وحولها مجموعة من الصناديق: صناديق للجلوس، وأخرى للأكل فوقها، وبجوار العشة وقفت سيارة فورد من طراز قديم، ذات باب واحد «سيدان» ومقطورة ذات عجلتين، وخيم على المكان، ضياع لا مثيل له.

بعد العشة كانت هناك خيمة صغيرة ـ أحالها الجو إلى اللون الرمادى، ولكنها نظيفة، منصوبة جيدًا وقد رصت الصناديق أمامها بجوار جدارها، برزت مدخنة فرن من مصراع الباب وقد كنس التراب أمام الخيمة ورش، وفوق أحد الصناديق وضع دلو ملىء بالملابس القديمة المتنوعة فى الماء، كان هذا المكان نظيفًا ومتماسكًا، وبجوار الخيمة وقفت سيارة «رودستر» ومقطورة صنعت محليًا.

كانت الخيمة التالية خيمة ضخمة، مهلهلة، تمزقت إلى شرائط،

ووصلت بعضها ببعض بقطع من السلك وقد رفعت مصاريعها فظهر فى داخلها أربع مراتب عريضة مفروشة على الأرض وقد شد حبل غسيل على جانبها عليه ملابس قطنية وردية اللون، وعدد من العفريتات، كان هناك أربعون خيمة وعشة وبجانب كل مسكن نوع أو آخر من السيارات، وهناك فى نهاية الصف وقف قليل من الأطفال يحملقون فى السيارة التى وصلت أخيرًا ثم تحركوا تجاهها، صبيان صغار حفاة الأقدام يرتدون عفريتات وشعورهم رمادية من التراب.

أوقف «توم» سيارة النقل والتفت إلى الأب وقال: «ليس المكان طيبًا أتريد الذهاب إلى مكان آخر؟».

فقال الأب: «لا يمكن أن نذهب إلى أى مكان آخر حتى نعلم أين نحن، ثم لابد أن نسأل عن العمل».

فتح «توم» الباب وخطا خارجًا وتسلقت الأسرة هابطة من فوق الحمولة ونظرت بفضول إلى المخيم، «روثى» و«وينفلد» ـ بحكم عادات الطريق ـ أخذا الدلو وسارا تجاه أشجار الصفصاف حيث يمكن أن يكون الماء، وانفرج صف الأطفال لهما لكى يمرا ثم التأم بعدهما.

وانفرجت مصاريع العشة الأولى عن امرأة أطلت خارجًا، كانت قد عقصت شعرها الرمادى ترتدى مريلة قذرة ذات أزهار، ولها وجه بليد واهن وهالتان رماديتان غائرتان تحت عينيها الخامدتين وفم مفتوح مسترخ.

وسأل الأب: «هل يمكن أن نقف فى أى مكان ونعسكر؟».

انسحب رأس المرأة داخل العشة وساد الهدوء لحظة ثم انفرجت مصاريع العشة وخطا إلى الخارج رجل ملتح يرتدى قميصًا ذا أكمام، وأطلت المرأة خلفه ولكنها لم تخرج.

قال الرجل الملتحى: «كيف حالكم يا جماعة؟» وقفزت عيناه المتعبتان السوداوان على كل عضو من أعضاء العائلة ومنهم إلى سيارة النقل والأمتعة.

قال الأب: «لقد سألت امرأتك حالاً، عما إذا كان لا مانع من أن ننزل حاجاتنا هنا فى أى مكان».

ونظر الرجل الملتحى إلى الأب فى تمعن كأنه قال شيئًا حكيمًا جدًا يحتاج إلى التفكير ثم سأل: «تقيمون هنا فى أى مكان، هنا فى هذا المكان؟».

«بالتأكيد، هل يملك أحد هذا المكان ويجب علينا أن نقابله قبل أن نعسكر؟».

وضيق الرجل الملتحى إحدى عينيه وهو يتفحص الأب وسأل: «هل تريد أن تعسكر هنا؟».

وتزايد توتر الأب، وأطلت المرأة ذات الشعر الأشيب من العشة الخيش وقال الأب: «ماذا تظننى أقول إذًا؟».

«حسنًا، إذا كنت تريد أن تعسكر هنا؟ لماذا لا تفعل؟ أنا لا أمنعك».

فضحك «توم» وقال: «لقد فهمها أخيرًا».

وسيطر الأب على أعصابه وقال: «لقد أردت فقط أن أعرف ما إذا كان هناك أحد يملك هذا المكان؟ وهل يجب علينا أن ندفع شيئًا؟».

ومط الرجل الملتحى فكه وسأل: «من يملكها؟».

واستدار الأب مبتعدًا وهو يقول: «فليذهب إلى الجحيم».

وانسل رأس المرأة إلى داخل الخيمة.

وخطا الرجل الملتحى إلى الأمام متوعدًا وهو يسأل: «من يملكها؟ من الذى سيطردنا من هنا، قل لى!».

وخطا «توم» أمام الأب وقال: «من الأفضل أن تعود وتنام نومًا جيدًا». وتدلى فم الرجل الملتحى ووضع اصبعًا قذرًا أمام لثته السفلى واستمر ينظر لحظة متأملاً «توم» ثم استدار على عقبيه وانسل داخل الخيمة خلف المرأة ذات الشعر الأشيب.

والتفت «توم» إلى الأب وسأله: «ما هذا بحق الجحيم؟».

وهز الأب كتفيه،كان ينظر عبر المخيم، أمام إحدى الخيام وقفت سيارة بويك قديمة وقد رفع غطاؤها ووقف شاب ينظف الصمامات، وبينما هو ينحنى إلى الأمام والخلف، الأمام والخلف، فوق قطعة العدة رفع بصره ونظر إلى سيارة عائلة «جود». كان فى إمكانهم أن يروا أنه يضحك لنفسه وعندما ذهب الرجل الملتحى ترك الشاب عمله وتقدم منهم ببطء.

قال: «كيف حالكم؟» ولمع المرح فى عينيه الزرقاوين وقال: «رأيتكم وأنت تقابلون العمدة».

فسأل «توم»: «بحق الجحيم ما حكايته؟».

وضحك الشاب بصوت خافت وقال: «فقد عقله مثلك ومثلى، ربما كان أكثر منى قليلاً لست أعرف».

فقال الأب: «لقد سألته فقط ما إذا كان فى إمكاننا أن نعسكر هنا؟».

ومسح الشاب يديه المشحمتين على بنطلونه وقال: «بالتأكيد، ولم لا؟ هل اجتزتم الصحراء لتوكم يا جماعة؟».

فقال «توم»: «أيوه، وصلنا هذا الصباح فقط».

«ألم تكونوا فى هوفرفيل من قبل؟».

«أين هوفرفيل؟».

«هذه هى، هنا».

فقال «توم»: «أوه، لقد دخلنا توًا».

عاد «وينفلد» و«روثى» يحملان دلو الماء بينهما.

قالت الأم: «فلنقم خيمتنا، أنا منهكة تمامًا، ربما أمكننا أن نرتاح جميعًا».

وتسلق الأب والعم «جون» فوق السيارة لينزلا المشمع والفراش.

ومشى «توم» إلى الشاب وسار معه عائدين إلى السيارة التى كان يعمل فيها، كان مفك تجليخ الصمامات فوق المحرك المكشوف، والعلبة الصفراء الصغيرة التى تحوى بودرة التجليخ موضوعة على طرف الخزان الفارغ، وسأل «توم»: بحق الجحيم ما هى حكاية ذلك الرجل ذى اللحية؟».

والتقط الشاب مفكه وبدا يعمل وهو ينحنى إلى الأمام والخلف يجلخ الصمام فى فتحته: «العمدة، يعلم المسيح، أعتقد أنه تورانى».

«وماذا تعنى تورانى؟».

«أعتقد أن رجال الشرطة قد طاردوه كثيرًا حتى إنه لا يزال يدور حول نفسه».

وسأل «توم»: «وما الذى يجعلهم يطاردون رجلاً مثله؟».

وتوقف الشاب عن عمله ونظر فى عينى «توم» وقال: «يعلم المسيح، لقد وصلت لتوك، ربما أمكنك أن تكتشف السبب، بعض الناس يقول شيئًا

وآخرون يقولون شيئًا آخر، ولكن يكفى أن تعسكر فى مكان واحد فترة قصيرة وسترى كيف يأتى الدرك ليطردك بسرعة». ثم رفع صمامًا ووضع بودرة التجليخ فى فتحة الصمام.

«ولكن لماذا بحق الجحيم؟».

«قلت لك لا أعرف، البعض يقول إنهم لا يريدوننا أن ننتخب، يجعلونا نتحرك باستمرار حتى لا يمكننا أن ننتخب، والبعض يقول لكى لا يمكننا أن نأخذ إعانات، والبعض يقول إننا لو مكثنا فى مكان واحد فسننظم أنفسنا، أنا لا أعلم لماذا ولكننى أعلم فقط أننا نسير طول الوقت، انتظر وسترى».

فقال «توم» بإصرار: «نحن لسنا متشردين، نحن نبحث عن عمل، وسنقبل أى عمل».

وتريث الشاب قليلاً وهو يثبت مفكه فى شق الصمام ونظر إلى «توم» فى دهشة وقال: «أتبحث عن عمل؟ إذًا فأنتم تبحثون عن عمل؟ وعم يبحث الآخرون فى اعتقادك إذًا؟ عن الماس؟ عم أبحث وأنا أزحف حتى تهرأ دبرى»أ ولوى المفك إلى الأمام والخلف.

نظر «توم» حوله إلى الخيام القذرة، والعتاد الخردة، والسيارات القديمة، والمراتب غير المستوية المفروشة فى الشمس، إلى الصفائح السوداء فوق حفر مهببة حيث اعتاد الناس أن يطبخوا وسأل بهدوء: «ألا يوجد عمل؟».

«لا أعرف، لابد أن هناك عملاً، لا توجد محاصيل هنا الآن، جمع العنب بعد مدة، وجمع القطن بعد مدة، سنتحرك بمجرد أن ننتهى من تجليخ هذه الصمامات، أنا وزوجتى وأطفالى، سمعنا أن هناك عملاً فى الشمال، سنمضى إلى الشمال، هناك بالقرب من ساليناس».

رأى «توم» العم «جون» والأب والواعظ وهم يعلقون المشمع فوق أعمدة الخيمة والأم على ركبتيها فى الداخل تسوى المراتب على الأرض، ووقفت حلقة من الأطفال فى صمت يتفرجون على العائلة الجديدة وهى تلقى مراسيها، أطفال صامتون حفاة الأقدام وجوههم قذرة، قال «توم»: «هناك فى بلادنا جاء بعض الرجال ومعهم إعلانات، لونها برتقالى، تقول إنهم فى حاجة إلى أناس كثيرين ليعملوا فى المحاصيل».

وضحك الشاب: «إنهم يقولون إن هناك ثلاثمائة ألف منا هنا، وأراهن أن كل عائلة قد رأت هذا الإعلان».

«أيوه ولكن إذا كانوا لا يريدون أحدًا فما الذى يتعبهم ويجعلهم يوزعون هذه الأشياء؟».

«استخدم عقلك، لم لا تفكر؟».

«أيوه، ولكننى أريد أن أعرف».

فقال الشاب: «اسمع، افرض أن لديك مكانًا للعمل وهناك رجل واحد يريد هذا العمل ستضطر أن تدفع له ما يطلبه، ولكن افرض أن هناك مائة رجل...» ونحى أدواته، وقست نظرات عينيه وازداد صوته حدة «افرض أن هناك مائة رجل يطلبون هذا العمل، وافترض أن هؤلاء الرجال لديهم أطفال وهؤلاء الأطفال جياع، وافترض أن عشرة سنتات تافهة يمكن أن تشترى صندوقًا من الفريك لهؤلاء الأطفال، افترض أن خمسة سنتات ستشترى شيئًا على الأقل لهؤلاء الأطفال، وأنت أمامك مائة رجل، امنحهم فقط خمسة سنتات، لماذا؟ سيقتلون بعضهم بعضًا فى سبيل هذه السنتات الخمسة، أتعرف ماذا كانوا يدفعون لنا فى آخر عمل حصلت عليه؟ خمسة عشر سنتًا فى الساعة، عشر ساعات مقابل دولار ونصف دولار، ولا يمكنك أن تقيم فى مكان العمل، لابد أن تستنفد الوقود فى سبيل الوصول

إليه». كان يلهث من الغضب وقد لمعت عيناه بالحقد «هذا ما وزعت من أجله هذه الإعلانات، تستطيع أن تطبع كمية من هذه الإعلانات بما يتوافر لك من دفع خمسة عشر سنتًا فى الساعة للعمل فى الحقول».

قال «توم»: «شىء نتن!».

وضحك الشاب بفظاظة «ستبقى هنا قليلاً وإذا شممت وردًا فادعنى».

فألح «توم» قائلاً: «ولكن هناك عملاً، بحق المسيح القدير، كل هذه الأشياء التى تنمو: بساتين وكروم وخضراوات - لقد رأيتها، لابد لها من رجال، ولقد رأيت كل هذا».

وبكى طفل فى خيمة بجوار السيارة فدخل الشاب الخيمة وجاء صوته رقيقًا من خلال قماش الخيمة السميك. والتقط «توم» المفك وثبته فى شق الصمام وبدا يديره ويده تندفع إلى الأمام والخلف، وتوقف بكاء الطفل، وخرج الشاب ووقف يرقب «توم» وقال: «أتستطيع أن تفعل ذلك، شىء جميل، ستحتاج إليه».

فقال «توم» مواصلاً الحديث: «ما رأيك فيما قلت، لقد رأيت كل هذه الخيرات؟».

تربع الرجل على عقبيه وقال بهدوء: «سأقول لك، هناك بستان خوخ كبير ابن عاهرة عملت فيه، يأخذ تسعة رجال طوال العام». وسكت سكتة ذات معنى: «يحتاج لثلاثة آلاف رجل لمدة أسبوعين عندما ينضج الخوخ لابد منهم وإلا تعطن الخوخ، عندئذ ماذا يفعلون؟ يوزعون الإعلانات فى كل مكان حتى جهنم، إنهم فى حاجة إلى ثلاثة آلاف فيأتى لهم ستة آلاف وهكذا يحصلون على الرجال بالأجر الذى يريدونه هم، فإذا لم تكن تقبل الأجر الذى يدفعونه، اللعنة، هناك ألف رجل فى انتظار أن يحلوا محلك

فى العمل، وهكذا تجمع وتجمع، ثم ينتهى العمل، كل خوخ الإقليم ينضج معًا، وعندما تجمعها فإنها تجمع كلها بالواحدة، ولا يوجد أى عمل آخر فى هذا الجزء من الإقليم لتفعله، وعندئذ لا يحتاج إليك الملاك بعد ذلك، هناك ثلاثة آلاف منكم والعمل انتهى، ربما تسرق، ربما تسكر، ربما أثرت المتاعب فقط، وعلاوة على ذلك فإن مظهركم لا يسر العين، تعيشون فى خيام قديمة، وهذه البلاد جميلة وأنتم تلوثونها، إنهم لا يريدونكم بالقرب منهم وهكذا يطردونكم، يسوقونكم، هذا ما يحدث».

نظر «توم» تجاه خيمة عائلة «جود» فرأى أمه متثاقلة ومتباطئة من فرط الانهماك تشعل نارًا صغيرة من القمامة وتضع عليها أوانى الطبخ، واقتربت حلقة الأطفال وراقبت عيونهم الواسعة الهادئة كل حركة من يدى الأم، وخرج من إحدى الخيام رجل عجوز طاعن ذو ظهر محنى وجاء كالبائع المتجول يقترب متلصصًا، يشم الهواء وهو قادم، شبك ذراعيه خلفه ووقف مع الأطفال يراقب الأم ووقفت «روثى» و«وينفلد» بالقرب من الأم ينظران إلى الغرباء فى تحفز.

قال «توم» غاضبًا: «هذا الخوخ لابد أن يجمع الآن أليس كذلك؟ بمجرد أن ينضج؟».

«طبعًا سيجمع».

«حسنًا، افرض أن هؤلاء الناس تكاتفوا وقالوا: «دعوها تتعطن» والله لن يمضى وقت طويل إلا وترتفع الأجور».

ورفع الشاب بصره عن الصمامات ونظر مستهزئًا إلى «توم» وقال: «حسنًا، لقد اكتشفت شيئًا هامًا، أليس كذلك؟ اكتشافًا خاصًا من دماغك؟».

فقال «توم»: «أنا متعب، قدت السيارة طول الليل، ليست لى رغبة فى

النقاش، ومع ذلك فأنا متعب بدرجة تجعلنى أتجادل بسهولة، لا تتضايق منى أرجوك».

فابتسم الشاب وقال«: «لم أقصد شيئًا، أنت لم تكن هناك، لقد فكر الناس فى هذا والناس أصحاب بستان الخوخ فكروا فى ذلك أيضًا، اسمع، إذا تكاتف الناس معًا، فهناك من يقودهم، لابد من ذلك، رجل يجيد الكلام، حسنًا، عندما فتح هذا الرجل فمه لأول مرة شدوه ووضعوه فى السجن فإذا ما تقدم قائد آخر فسيضعونه فى السجن».

فقال «توم»: «حسنًا، إن الإنسان يأكل فى السجن على أى حال».

«ولكن أطفاله لا يأكلون، ما رأيك أن تكون فى الداخل وأطفالك يموتون جوعًا».

فقال «توم» ببطء: «آه آه».

«ثم هناك شيء آخر، هل سمعت أبدًا عن القائمة السوداء؟».

«ما هذا؟»

«حسنًا،فقط افتح فمك وتحدث عن تجمعنا معًا وسترى، سيأخذون صورتك ويوزعونها فى كل مكان، عندئذ لن تجد عملاً فى أى مكان، وإذا كان لديك أطفال».

خلع «توم» قبعته وأخذ يعصرها بين يديه وقال: «إذًا فلنقبل ما يمكننا الحصول عليه، هه، أو نموت من الجوع، إذا رفعنا صوتنا، نموت من الجوع».

ولوح الشاب بيده راسمًا حلقة كبيرة شملت الخيام المهلهلة والسيارات الصدئة.

ونظر «توم» إلى أمه مرة أخرى حيث جلست تقشر البطاطس وقد اقترب منها الأطفال أكثر من ذى قبل وقال: «لن أقبل هذا، اللعنة، أنا وأهلى لسنا نعاجًا، لابد أن أقتل أحدًا».

«شرطى مثلاُ؟».

«أى واحد».

فقال الشاب: «أنت مجنون، وسيلتقطونك بسرعة، ليس كل اسم ولا ملكية، سيجدونك فى حفرة وقد جفت الدماء حول فمك وأنفك، وتصبح مجرد سطر واحد فى صحيفة، أتعرف ماذا ستقول؟ ـ العثور على مشرد ميت ـ وهذا كل شىء، ستشاهد الكثير من هذه السطور الصغيرة، العثور على مشرد ميت».

فقال «توم»: «سيعثرون على جثة أخرى بجوار المشرد».

فقال الشاب: «أنت مجنون، ليس فى هذا أى فائدة».

«حسنًا، ماذا تفعل أنت؟» ونظر إلى الوجه الملطخ بالشحم، واكتست عينا الشاب بقناع خفيف وقال: «لا شىء، من أين أتيتم؟».

«نحن، بالقرب من ساليزو، أوكلاهوما».

«وصلتم حالاً».

«اليوم فقط».

«هل ستقيمون هنا طويلاً؟».

«لا أعرف، سنبقى حيث يمكننا أن نجد عملاً، لماذا؟».

«يمكنك أن تحاول».

واستدار «توم» مبتعدًا واتجه ناحية خيمة عائلة «جود».

وأمسك الشاب بعلبة بودرة الصمامات وغمس إصبعه فيها ونادى: «هاى» والتفت «توم»: «ماذا تريد؟».

«أريد أن أقول لك».. ثم أشار بإصبعه الذى تجمعت على طرفه كرة من البودرة: «فقط أريد أن أقول لك لا تمض باحثًا عن المتاعب، تذكر منظر الرجل التورانى».

«الرجل الذى فى الخيمة هناك؟».

«أيوه، الذى يبدو ذاهلاً بلا عقل».

«ماذا عنه؟».

«حسنًا، عندما يأتى رجال البوليس، وهم يأتون على الدوام، هذا ما يجب أن تكون عليه، ذاهل لا تعرف شيئًا، لا تفهم شيئًا، هذا ما يعجب الشرطة، لا تضرب أى شرطى فليس هذا إلا انتحارًا، «كن تورانيًا» (أى غفلة مثل الثور)».

«هل أدع رجال الشرطة الملاعين هؤلاء يدوسوننى ولا أفعل شيئًا؟».

«لا، اسمع، سأحضر عندك الليلة، ربما كنت مخطئًا ولكن هناك عملاء حولنا طول الوقت، وأنا أحاول أن أعيش ولدى طفل أيضًا، ولكننى سأحضر إليك، وأنت إذا رأيت أحد رجال الشرطة، فأنت «أوكى» مذهول ملعون، فاهم؟».

فقال «توم»: «لا بأس، إذا كنا سنفعل شيئًا».

«لا تقلق، نحن نفعل شيئًا، فقط نحن لا نعرض رقابنا للقطع، فالطفل

يموت من الجوع بسرعة، يومان أو ثلاثة فقط للطفل». ثم عاد إلى عمله ونثر البودرة على فتحة الصمام وتحركت يده بسعرة إلى الأمام والخلف فوق المفك وعلى وجهه سيماء الغباء والذهول.

كر «توم» راجعًا ببطء إلى خيمته وهو يدمدم «تورانى».

جاء الأب والعم «جون» إلى الخيمة وقد حملا أذرعتهما بأغصان الصفصاف الجافة وألقياها على الأرض بجوار النار ثم تربعا جالسين. قال الأب: «لقد انتقيناها جيدًا، اضطررنا إلى أن نسير طويلاً إلى الغابة» ثم رفع بصره إلى حلقة الأطفال وهم يحملقون وقال: «يا إلهى القادر العظيم، من أين أتى هؤلاء»، ونظر كل الأطفال بخجل إلى أقدامهم.

قالت الأم: «أعتقد أنهم شموا رائحة الطبخ، «وينفلد»، ابعد عن قدمى». ثم دفعته بعيدًا عن طريقها وقالت: «لا بد أن أطبخ قليلاً من اليخنى، لم نأكل شيئًا مطبوخًا منذ أخرجنا من البيت، اذهب يا أب إلى المخزن هناك واحضر لى بعض لحم الرقبة، سنطبخ يخنى جيدة هنا». ووقف الأب وسار مبتعدًا.

رفع «آل» غطاء المحرك ونظر إلى المحرك المشحم، وعندما اقترب «توم» رفع بصره وقال: «تبدو عليك السعادة كالصقر».

فقال «توم»: «أنا مبتهج كأنى ضفدعة فى أمطار الربيع».

وأشار «آل» قائلاً: «انظر إلى المحرك، جميل جدًا هه».

وتأمله «توم» وقال: «يبدو لى ألا بأس به».

«لا بأس؟ يا يسوع! إنه رائع، لا ينضح زيتًا ولا أى شىء»، وفك صمام إشعال ودس إصبعه فى فتحته وقال: «صدئ بعض الشىء ولكنه جاف».

فقال «توم»: «لقد أحسنت صنعًا بالاختيار، هذا ما تريدنى أن أقوله».

«حسنًا، أنا بالتأكيد كنت خائفًا طول الطريق، أخشى أن تتعطل وعندئذ ستكون غلطتى أنا».

«لا، لقد أحسنت صنعًا، الأفضل أن تجهزها لأننا سنخرج غدًا لكى نبحث عن عمل».

فقال «آل»: «ستجرى، لا تشغل نفسك بهذا»، وأخرج مطواة كشط بها أطراف صمام الإشعال.

ودار «توم» حول الخيمة فوجد «كيزى» جالسًا على الأرض يرقب إحدى قدميه العاريتين بإمعان، وارتمى «توم» جالسًا بجواره وقال: «أتعتقد أنها تصلح لشىء؟».

فسأل «كيزى»: «ماذا؟».

«أصابع قدميك هذه».

«أوه، مجرد جالس هنا لأفكر».

فقال «توم»: «أنت دائمًا تركن، وترتاح لذلك».

ورفع «كيزى» إصبع قدمه الكبير إلى أعلى وخفض الإصبع الثانى وابتسم بهدوء وقال: «من الصعب على الإنسان أن يفكر دون أن ينطوى على نفسه».

فقال «توم»: «لم أسمع صوتك منذ أيام، أتفكر طول الوقت؟».

«نعم أفكر طول الوقت».

وخلع «توم» قلنسوته القماشية وقد أصبحت الآن قذرة ومحطمة وحافتها مدببة كمنقار الطير، وأخرج شريط الورق خارجًا ووضع مكانه

شريطًا جديدًا من ورق الجرائد المطوى، وقال: «لقد شربت كثيرًا من العرق حتى تكرمشت»، ونظر إلى أصابع أقدام «كيزى» المتحركة: «هل يمكنك أن تهبط قليلاً من علياء تفكيرك وتنصت لى دقيقة».

ولفت «كيزى» رأسه على رقبته الشبيهة بالعصا: «أنا أنصت طول الوقت، وهذا ما يجعلنى أفكر، أنا أنصت للناس وهى تتحدث وقريبًا جدًا سأسمع الطريقة التى يشعرون بها، أنا أتقدم طول الوقت، أنا أسمعهم وأحسن بهم وهم يصفقون بأجنحتهم كأنهم طائر حبيس فى صندرة، يكاد يحطم جناحيه على نافذة متربة محاولاً الخروج».

وراقبه «توم» بعينين واسعتين ثم استدار ونظر إلى الخيمة الرمادية على بعد عشرين قدمًا وقد علقت على حبالها بنطلونات زرقاء وقمصان وفستان لتجف، ثم قال بصوت خافت: «هذا ما كنت أريد أن أتحدث فيه معك ولكنك قد رأيت فعلاً». فوافقه «كيزى» وقال: «رأيت فعلاً، هناك جيش منا دون قيادة». ثم أحنى رأسه وجرى بيده الممدودة على جبهته ببطء وخلال شعره، وقال: «رأيت ذلك على طول الطريق، فى كل مكان وقفنا فيه، رأيته، الناس جياع تشتهى اللحم وعندما يحصلون عليه لا يشبعون، وعندما يجوعون لا يمكنهم تحمل الجوع. وأخيرًا قد يطلب منى بعضهم أن أصلى له، وأحيانًا أفعل ذلك». وشبك يديه على ركبتيه المثنيتين وشد سيقانه، وقال: «لقد كنت أظن أن صلاتى ستفيدهم، تعودت أن أُفصِّل لهم صلاة تلصق بها كل متاعبهم كالذباب حين يلتصق بالورق المصمغ ثم أترك الصلاة تطير آخذة المتاعب معها، ولكن هذا لم يعد يفيد الآن».

فقال «توم»: «الصلاة لا تجلب اللحم أبدًا، وإذا أردت لحم الخنزير فلابد أن تذبح خنزيرًا».

فقال «كيزى»: «أيوه، والإله القدير لم يرفع الأجور أبدًا، والناس هنا

يريدون أن يعيشوا عيشة محترمة، وينشئون أطفالهم تنشئة محترمة، وعندما يطعنون فى السن يرغبون فى الجلوس داخل منازلهم يشاهدون الشمس وقت الغروب، وعندما يكونون فى سن الشباب يرغبون فى الرقص والغناء والمضاجعة، إنهم يريدون أن يأكلوا ويشربوا ويعملوا، وهذا كل شىء.. إنهم يريدون أن يُشغِّلوا عضلاتهم حتى ينالهم التعب، بحق المسيح، عن أى شىء أتكلم؟».

فقال «توم»: «لا أعرف، يبدو كلامًا طيبًا، متى تظن أنك تستطيع أن تعمل وتترك التفكير جانبًا؟ لابد أن نعمل فالنقود تفرغ منا، لقد دفع الأب خمسة دولارات لكى توضع لوحة من الخشب على قبر الجدة، لم يتبق لنا الكثير».

وجاء كلب رَعْى نحيل بنى اللون يتشمم حول الخيمة، كان عصبيًا على استعداد أن يجرى فى أى لحظة، واقترب متشممًا قبل أن يحس بوجود الرجلين، عندئذ رفع عينيه ورآهما فقفز جانبًا وهرب، أذناه مشدودتان للخلف وذيله العظمى يهتز لكى يحمى نفسه، وراقبه «كيزى» وهو يمضى، يقفز حول إحدى الخيام ليغيب عن البصر، وتنهد «كيزى» وقال: «أنا لا أفعل شيئًا مفيدًا لأحد، لا لنفسى ولا لأى إنسان آخر، كنت أفكر أنه يجب أن أمضى وحيدًا فأنا آكل طعامكم وأشغل مكانًا ولا أقدم لكم أى شىء. ربما استطعت الحصول على عمل ثابت وربما استطعت أن أرد لكم بعضًا مما قدمتم لى».

وفتح «توم» فمه ومط فكه الأسفل إلى الأمام ودق على أسنانه السفلى بقطعة جافة من غصون الخردل وشخصت عيناه فى المخيم، فى الخيام الرمادية وعشش الأعشاب والصفيح والكرتون وقال: «وددت لو أن عندى جوالاً من الطباق، لم أدخن منذ وقت طويل، لقد تعودت أن أحصل على

الدخان فى سجن «ماك أليستر»، أكاد أرغب فى العودة إلى هناك». ودق على أسنانه ثانية والتفت فجأة إلى الواعظ وقال: «هل دخلت السجن أبدًا؟».

قال «كيزى»: «لا، لم أدخله أبدًا».

فقال «توم»: «إذًا فأنت لم تتعلم أشياء كثيرة بعد».

«سأبحث عن عمل بسرعة، وسأحصل على عمل بسرعة».

وتفحصه «توم» بعينين نصف مغمضتين ولبس قلنسوته ثانية وقال: «اسمع.. ليست هذه هى أرض اللبن والعسل كما يقول الوعاظ، هناك شىء خسيس هنا، الناس هنا تخشاها نحن القادمين إلى الغرب، ولهذا فقد أتوا بالشرطة ليخيفونا ويرغمونا على العودة».

فقال «كيزى»: «أيوه، أعرف، لماذا سألتنى ما إذا كنت قد دخلت السجن من قبل؟»

فقال «توم» ببطء: «عندما تكون فى السجن تستطيع أن تحس الأشياء، غير مسموح للرجال بالكلام كثيرًا فيما بينهم، اثنان ممكن ولكن ليست الجماعة، وهكذا تصبح حساسًا، إذا كان هناك شىء سينفجر، مثلاً أحد الرجال سيثير المتاعب ويضرب حارسًا بيد مقشة فإنك تعرف ذلك قبل أن يحدث، وإذا كان سيقع تمرد أو شغب فلن يقول لك أحد بل ستحسه، فاهم؟».

«إيه؟».

«ابق هنا، ابق هنا حتى الصباح على الأقل، سيحدث شىء ما، لقد كنت أتحدث إلى أحد الشبان على الطريق فوجدته مكارًا حكيمًا كذئب البرارى، ولكنك حكيم للغاية، فحين يبدو ذئب البرارى مهتمًا بشئونه فقط، بريئًا طيبًا، أليفًا لا يضر، فلا بد أن هناك دجاجة راقدة بالقرب منه».

وراقبه «كيزى» بإمعان، وبدا يسأل سؤالاً ولكنه عاد وأغلق فمه بشدة وحرك أصابع قدميه ببطء وأرخى ركبته ومد قدمه حتى يمكنه أن يراها وقال: «أيوه، لم أتعلم أشياء كثيرة بعد».

قال «توم»: «عندما يدعى الناس الطيبون الهادئون أنهم لا يعرفون شيئًا عن أى شيء فلابد أن فى الأمر شيئًا».

فقال «كيزى»: «سأبقى».

وغدًا سنخرج بالسيارة ونبحث عن عمل».

فقال «كيزى»: «إيه». وحرك أصابع قدميه إلى أعلى وأسفل وتأملها فى أسى وارتكز «توم» على مرفقيه وأغمض عينيه وكان فى استطاعته أن يسمع داخل الخيمة غمغمة صوت «روزا شارن» و«كونى» يجيب عليها،

كان المشمع يلقى ظلاً قاتمًا على الأرض، وعلى طرفيه جناحان لامعان من الضوء، كانت «روزا شارن» راقدة على المرتبة و«كونى» يجلس بجوارها.

قالت «روزا شارن»: «كان ينبغى أن أساعد الأم، لقد حاولت، ولكن فى كل مرة أحاول القيام فيها لم أستطع». كانت عينا «كونى» متجهمتين: «لو أننى كنت أعرف أن الحال على هذا المنوال، ما أتيت، كنت درست دراسات مسائية عن الجرارات هناك فى بلادنا وحصلت على عمل بأجر ثلاثة دولارات، يستطيع الإنسان أن يعيش عيشة طيبة جدًا بثلاثة دولارات فى اليوم، ويذهب إلى االسينما كل ليلة أيضًا».

ونظرت إليه «روزا شارن» بإمعان وقالت: «ستدرس الراديو فى المساء». ومضى وقت طويل دون أن يجيب فسألته: «أليس كذلك؟»».

«أيوه بالتأكيد، مجرد أن أقف على قدمى، وأحصل على قليل من النقود».

فتقلبت على مرفقها وقالت: «أنت لن تتخلى عن الفكرة؟».

«لا... لا... بالطبع لا... ولكننى لم أكن أعرف أن هذه هى الأماكن التى سنعيش فيها».

واكتست عينا الفتاة بنظرة قاسية وقالت بهدوء: «لابد أن تدرس».

«فعلاً، فعلاً، أنا عارف، لابد أن أقف على قدمى، وأحصل على قليل من النقود، ولكن ربما كان من الأفضل لو أننى بقيت فى بيتنا ودرست الجرارات، إنهم يحصلون على ثلاثة دولارات فى اليوم، ويحصلون أيضًا على مبالغ إضافية»، وكانت عينا «روزا شارن» تحسب الحسبة وعندما نظر إليها وجد عينيها تزنه وتقيمه، فقال: «ولكننى سأدرس بمجرد أن أقف على قدمى».

فقالت بضراوة: «لابد أن نحصل على منزل قبل أن يأتى الطفل، لن يولد هذا الطفل فى خيمة».

فقال: «فعلاً، بمجرد أن أقف على قدمى»، ثم خرج من الخيمة ونظر إلى الأم المنكفئة على النار وتقلبت «روزا شارن» على ظهرها وحملقت فى سقف الخيمة ثم وضعت إبهامها فى فمها لتكتم صرخة وراحت تبكى فى صمت.

ركعت الأم بجوار النار تكسر الأغصان الجافة حتى تبقى اللهب تحت وعاء اليخنى، وأخذت النار تتوهج وتخبو، تتوهج وتخبو، ووقف خمسة عشر من الأطفال فى صمت يراقبونها، وعندما وصلت رائحة اليخنى إلى أنوفهم ارتعشت أنوفهم برفق، ولمع ضوء الشمس على الشعر المعفر بالتراب، وأحس الأطفال بحرج من وقوفهم هناك ولكنهم لم يذهبوا، تكلمت الأم فى هدوء مع فتاة صغيرة واقفة داخل دائرة الاشتهاء، كانت أكبر من الباقين وقد شبكت ذراعيها خلفها تراقب الأم بعينين صغيرتين

رماديتين ثابتتين، وقالت متطوعة: «أستطيع أن أكسر لك بعض الحطب لو شىءت يا سيدتى».

ورفعت الأم بصرها: «أتريدين أن تطلبى الأكل، هه؟».

فقالت الفتاة بثبات: «نعم يا سيدتى».

ودست الأم غصنًا تحت القدر فطقطقت النار: «ألم تتناولى إفطارك؟».

«لا يا سيدتى، لا يوجد عمل فى هذه الأنحاء، وأبى يحاول أن يبيع بعض المتاع ليحصل على بنزين حتى نستطيع أن نمضى من هنا».

ونظرت الأم إليها وسألت: «ألم يتناول أحد من الواقفين هنا إفطاره؟».

وتململت حلقة الأطفال الواقفين بعصبية، وحولوا أبصارهم عن القدر الذى يغلى، وقال طفل صغير فى ادعاء واضح: «أنا تناولته يا سيدتى، وأخى أيضًا، وهذان الاثنان، فقد رأيتهم، لقد أكلنا جيدًا، وسنذهب إلى الجنوب الليلة».

فابتسمت الأم وقالت: «إذًا فأنت لست جائعًا، لا يوجد هنا ما يكفى».

ومط الصبى الصغير شفتيه وقال: «لقد أكلنا جيدًا»، ثم استدار وجرى وغاص فى إحدى الخيام، ونظرت الأم إليه وهو يمضى، طويلاً، حتى نبهتها الفتاة الأكبر سنًا قائلة: «النار تخبو يا سيدتى، أستطيع أن أبقيها مشتعلة إذا شىءت».

وقفت «روثى» و«وينفلد» داخل الحلقة يحوطان أنفسهما بالبرود والأنفة المناسبة، كانا مترفعين يشعران بأنهما يملكان شيئًا، ونظرت

«روثى» إلى الفتاة الأخرى بعينين غاضبتين ثم تربعت على الأرض لتكسر الأغصان لأمها.

ورفعت الأم غطاء القدر وحركت اليخنى بعصا: «أنا سعيدة فعلاً، أن بعضكم ليس جائعًا، ذلك الفتى الصغير ليس جائعًا على أى حال».

فقالت الفتاة متهكمة: «أوه، هذا، كان يفشر، إنه مدعى الكبر والعنطزة، إنه لم يتناول عشاءه، أتعرفين ماذا يفعل؟ أمس خرج يقول إنهم أكلوا دجاجًا، ولكن حسنًا يا سيدتى، لقد أطللت عليهم وهم يأكلون، كان طعامهم زلابيا مثل كل الناس الآخرين».

«أوه!» ونظرت الأم تجاه الخيمة التى دخلها الصبى الصغير ثم عادت ونظرت إلى الفتاة وقالت: «منذ متى وأنتم فى كاليفورنيا؟»».

«أوه، حوالى ستة أشهر، لقد عشنا فى مخيم حكومى فترة ثم ذهبنا إلى الشمال وعندما عدنا كان قد امتلأ، تعرفين؟ إنه مكان جميل للمعيشة».

سألتها لأم: «أين هذا المعسكر» ثم تناولت الأغصان من يد «روثى» وغذت بها النار واشتعلت «روثى» حقدًا على الفتاة.

«هناك بالقرب من ويد باتش، هناك دورات مياه نظيفة وحمامات ويمكنك أن تغسلى الملابس فى حوض، وهناك ماء فى متناول اليد، ماء صالح للشرب، وفى الليل، يعزف الناس الموسيقى، وفى ليالى السبت يقيمون حفلات رقص، أوه، لم تر عيناى أبدًا شيئًا فى مثل جماله، به مكان للعب الأطفال، والمراحيض بها ورق خاص، تشدين على مقبض صغير فينساب الماء فى المرحاض، ولا يوجد رجال شرطة يأتون ليطلوا داخل خيمتك كلما شاءوا، والرجال الذين يديرون المعسكر مؤدبون جدًا، يأتون للزيارة ويتحادثون، لا متعالين ولا متكبرين، وددت لو أمكننا أن نعيش هناك مرة أخرى».

قالت الأم: «لم أسمع عنه أبدًا، أنا فعلاً أود استعمال حوض غسيل صحيح». واستمرت الفتاة تقول بانفعال: «لماذا، يا إلهى القدير، إن لديهم ماء ساخنًا فى المواسير وحين تقفين تحت الدش تجدينه دافئًا، لم تر عيناى أبدًا مثل هذا المكان».

وقالت الأم: «أنت تقولين إنه ممتلئ تمامًا الآن؟».

«أيوه، كان كذلك عندما سألنا آخر مرة».

قالت الأم: «لابد أنه يكلف كثيرًا».

«بالفعل، إنه يكلف ولكن إن لم يكن معكم نقود فإنهم يسمحون لكم بالعمل مقابلها، ساعتين كل أسبوع، نظافة، وصفائح الزبالة، وأشياء من هذا القبيل». وفى الأمسيات هناك الموسيقى، والناس تتكلم مع بعضها، والماء الساخن فى المواسير، لم تر أبدًا شيئًا مثل هذا».

لم تستطع «روثى» أن تتحمل أكثر من ذلك، فاندفعت تقول بكل قوتها: «جدتى ماتت هنا فوق السيارة»، نظرت إليها الفتاة متسائلة: فقالت «روثى»: «ماتت فعلاً وحكيم الصحة أخذها». ثم أحكمت إغلاق شفتيها وكسرت حزمة من الأغصان، وجفل «وينفلد» من جسارة هذا الهجوم فردد كرجع الصدى: «هنا فوق السيارة، وحكيم الصحة وضعها فى سلة كبيرة».

قالت الأم: «اسكت أنت وهى الآن، وإلا فامشوا بعيدًا». ثم غذت النار ببعض الأغصان.

كان «آل» قد ذهب عبر الخيام ليتفرج على عملية تجليخ الصمامات وقال: «يبدو أنك كدت تفرغ».

«باق اثنتان».

«هل هناك أى فتيات فى هذا المخيم؟».

فقال الشاب: «معى زوجتى وليس عندى وقت للفتيات».

فقال «آل»: «عندى وقت على الدوام للفتيات، وليس لدى وقت لأى شىء آخر».

«جرب الجوع قليلاً وستتغير».

فضحك «آل»: «ربما، ولكننى لم أتغير فى هذا الأمر أبدًا».

«الرجل الذى تكلمت معه منذ برهة، إنه معك، أليس كذلك؟».

«أيوه، أخى «توم»، يستحسن ألا تعبث معه، لقد قتل رجلاً».

«صحيح؟ لماذا؟».

«مشاجرة، هاجمه الرجل بسكين فقتله «توم» بجاروف».

«صحيح، هه؟ وماذا فعل القانون؟»

«فقال «آل»: «أطلقوا سراحه لأنها كانت مشاجرة».

«لا يبدو عليه أنه من الذين يتشاجرون».

«أوه، إنه ليس كذلك، ولكن «توم» لا يحتمل أى شىء من أى إنسان» كان صوته فخورًا للغاية «: «توم هادئ، ولكن... خذ حذرك».

«حسنًا لقد تكلمت معه، لا يبدو عليه أنه خبيث».

«لا، ليس كذلك، إنه طيب كالفطيرة حتى يستثار، وعندئذ خذ حذرك».

وبدا الشاب يجلخ آخر صمام وقال «آل»: «أتحب أن أساعدك فى تركيب هذه الصمامات ووضع الغطاء؟».

«بالتأكيد، إن لم يكن عندك شيء آخر تفعله».

فقال «آل»: «مفروض أن أنام قليلاً، ولكن بحق الجحيم لا أستطيع أن أبعد يدى عن سيارة معطلة، لابد أن أشتغل فيها».

فقال الشاب: «حسنًا، أكون شاكرًا لو ساعدتنى، اسمى فلويد نولز».

«أنا: (آل جود).

«يشرفنى أن أقابلك».

فقال «آل»: «وأنا أيضًا، استخدم نفس التيلة؟»

فقال «فلويد»: «ضرورى».

أخرج «آل» مطواته من جيبه وكشط بها قاعدة الصمام وقال: «يا يسوع، لست أحب شيئًا مثل أحشاء المحرك».

«وماذا عن الفتيات؟».

أيو، والفتيات أيضًا، وددت لو فككت سيارة رولز وركبتها ثانية، لقد نظرت مرة داخل غطاء محرك سيارة «كاديلاك ١٦»، يا إلهى القدير! لا ترى شيئًا فى حلاوتها طول عمرك، فى ساليزو ـ وهناك. كانت «كاديلاك ١٦» تقف أمام مطعم، رفعت غطاء المحرك، وخرج رجل يقول: ماذا تفعل بحق الجحيم؟ فقلت: نتفرج، أليست فخمة؟ وظل هو واقفًا، لا أعتقد أنه أطل فى داخلها من قبل، وقف هناك، رجل غنى فى قبعة عريضة، يرتدى قميصًا مخططًا ونظارات، لم نقل شيئًا، تفرجنا فقط، وسرعان ما قال: «ما رأيك لو قدتها؟».

فقال «فلويد»: «يا للجحيم؟».

«فعلا، ما رأيك لو سقتها؟ حسنًا بحق الجحيم، أنا أرتدى بنطلونًا غاية

فى القذارة، فقلت: سأوسخها، فقال: تعال، خذها حول المبنى فقط، حسنًا يا سيدى، جلست فى المقعد ودرت بها حول المبنى ثمانى مرات، وآه، يا إلهى القدير».

سأله «فلويد»: «حلوة؟».

فقال «آل»: «أوه يا يسوع! مستعد أن أدفع أى شىء لو أننى ركبتها حتى تبلى».

أبطأ «فلويد» من حركة ذراعه وخلع الصمام الأخير من مكانه ونظر إليه وقال: «يستحسن أن تتعود على سيارة قديمة، لأنك لن تقود أى سيارة من طراز ١٦» ووضع المفك على الرفرف والتقط أزميلاً لكى يزيل به الصدأ من قاعدة الصمام، ومرت بهما امرأتان ربعتان عاريتا الرأس، حافيتا الأقدام يحملان فيما بينهما دلوًا من الماء العكر فى لون اللبن، كانتا تمشيان فى تباطؤ تحت ثقل الدلو، ولم ترفع أى منهما بصرها من الأرض، كانت الشمس فى منتصف هبوطها ساعة العصر، قال «آل»: «ألا تحب شيئًا حبًا شديدًا؟».

وكشط «فلويد» بأزميله بقوة أكبر وقال: «أنا هنا منذ ستة أشهر، وقد جبت هذه الولاية أنبشها، أحاول أن أجد عملاً، وأتحرك بأقصى ما أستطيع لكى أحصل على لحم وبطاطس لى ولزوجتى وأطفالى، هلكت نفسى كالأرنب البرى ولم أفلح فى توفير هذا.. المشكلة أنه ليس هناك ما يكفى للطعام مهما فعلت، ولقد تعبت... هذا كل ما فى الأمر، لقد تعبت لدرجة أن النوم لم يعد يريحنى والمشكلة أننى لا أعرف ما يجب عمله».

فسأله «آل»: «ألا يمكن للإنسان أن يحصل على عمل ثابت؟».

«لا، ليس هناك عمل ثابت». ثم نزع الصدأ بأزميله من على الصمام ومسحه بخرقة مشحمة.

ودخلت إلى المخيم سيارة ركاب صدئة بها أربعة رجال، رجال ذوو وجوه سمراء قاسية، وانسابت السيارة ببطء خلال المخيم وناداهم «فلويد»: «هل وفقتم؟».

«توقفت السيارة وقال السائق: «لقد غطينا مساحة كبيرة من هذا البلد، لا يوجد أى عمل فى هذا البلد، لابد أن نرحل».

فقال «آل»: «إلى أين؟».

«يعلم الله، لقد انتهينا من العمل فى هذا المكان»، وعشَّق السائق السيارة وسار ببطء داخل المخيم.

ونظر «آل» خلفه ثم قال: «ألم يكن من المستحسن أن يذهب رجل واحد وحده؟ حتى إذا كان هناك عمل ما يمكن أن يحصل عليه».

ركن «فلويد» الأزميل وابتسم فى مرارة وقال: «لم تتعلم بعد، إن التجول فى البلد يحتاج إلى بنزين، والبنزين يتكلف خمسة عشر سنتًا للجالون، ولا يمكن لهؤلاء الرجال الأربعة أن يركبوا أربع سيارات، وهكذا يشارك كل منهم بعشرة سنتات ويحصلون على بنزين، أمامك الكثير لكى تتعلم».

«آه».

ونظر «آل» إلى «وينفلد» الذى وقف بجواره فى اهتمام.

«آل»، أمى تغرف اليخنى، وهى تقول لك تعال الحقه.

ومسح «آل» يديه فى بنطلونه وقال لـ «فلويد»: «لم نأكل اليوم، سآتى وأساعدك بعد أن آكل».

«لا داعى، إلا إذا كنت أنت ترغب فى ذلك».

«أرغب بالتأكيد»، ثم تبع «وينفلد» فى اتجاه خيمة عائلة «جود». كانت

مزدحمة الآن وقد وقف الأطفال الغرباء بالقرب من وعاء اليخنى، قريبين لدرجة أن مرفقى الأم كانا يحتكان بهم وهى تعمل. ووقف «توم» والعم «جون» بجوارها.

قالت الأم مستسلمة: «لست أعرف ماذا أفعل، لابد أن أطعم العائلة، ماذا ستفعل مع هؤلاء؟» وقف الأطفال متصلبين ينظرون إليها، وجوههم صماء بلا تعبير، وعيونهم تنتقل آليًا من الوعاء إلى الطبق الصاج الذى تمسكه، تتبع عيونهم المعلقة من الوعاء إلى الطبق، وعندما ناولت الطبق الذى يتصاعد منه البخار إلى العم «جون» تبعته عيونهم، وملأ العم «جون» ملعقته من اليخنى، وارتفعت عيونهم المستقرة على الملعقة معها، ودخلت قطعة من البطاطس فم «جون» فاستقرت العيون على وجهه، ترقب كيف سيكون أثرها عليه هل هى جيدة؟ هل سيجد طعمها لذيذًا؟»عندئذ بدا كأن العم «جون» يراهم لأول مرة، مضغ ببطء ثم قال «توم»: «خذ هذا لست جائعًا».

فقال «توم»: «إنك لم تأكل اليوم».

«عارف، ولكن عندى عسر هضم، لست جائعًا».

فقال «توم» بهدوء: «خذ هذا الطبق إلى داخل الخيمة وكله».

فأصر «جون»: «لست جائعًا، سأظل أراهم داخل الخيمة».

فاستدار «توم» إلى الأطفال «هيا... اذهبوا الآن... هيا».

وانتقل طابور العيون من اليخنى واستقر على وجهه فى تساؤل: «اذهبوا الآن، هيا، ليس هذا شيئًا طيبًا، لا يوجد ما يكفى لكم».

غرفت الأم اليخنى فى الأطباق الصاج، كمية قليلة من اليخنى فى كل طبق، ووضعت الأطباق على الأرض، وقالت: «لم أستطع إبعادهم

ولا أعرف ماذا أفعل، خذوا أطباقكم وادخلوا، سأترك لهم ما سيتبقى، خذ هذا الطبق إلى «روزا شارن»، وابتسمت للأطفال وقالت: «انظروا يا صغار، ليذهب كل منكم ويأتى بعصا مبططة وسأضع أمامكم ما سيتبقى ولكن لا تتشاجروا».

وتفرقت الجماعة فى سرعة وسكون، الأطفال الذين جروا ليحضروا العصى، جروا إلى خيامهم وأحضروا ملاعق، وقبل أن تفرغ الأم من الأطباق عادوا، صامتين، متنمرين، وهزت الأم رأسها: «لا أعرف ماذا أفعل، لا يمكن أن أسرق العائلة، لابد أن أطعم العائلة، «روثى»، «وينفلد»، وصاحت بقوة: «خذوا أطباقكم، أسرعوا، ادخلوا الخيمة بسرعة» ونظرت فى اعتذار للأطفال المنتظرين وقالت فى خجل: «لا يوجد ما يكفى، سأضع هذا الوعاء هنا فى الخارج، وستتذوقونه، ولكن هذا لن يفيدكم»، وتلعثمت وهى تقول: «لا أستطيع، لا يمكن أن أحرمكم منه».

ثم رفعت القدر ووضعته على الأرض وقالت: «انتظروا الآن، إنه ساخن جدًا». ثم دخلت الخيمة مسرعة حتى ترى شيئًا، جلست العائلة على الأرض، كل مع طبقه وكان فى استطاعتهم أن يسمعوا الأطفال فى الخارج وهم ينبشون فى القدر بملاعقهم وعصيهم وقطع الصفيح الصدئة التى معهم، كوم من الأطفال حجب القدر عن العيون، لم يتكلموا، لم يتشاجروا، أو يتجادلوا، بل امتلأوا جميعًا بعزم صامت، وضراوة خرساء، وأدارت الأم ظهرها لهم حتى لا ترى وقالت: «لا يمكننا أن نفعل ذلك بعد الآن، لابد أن نأكل بعيدًا».

وجاءهم صوت الحك فى قاع الوعاء، ثم انفضت كومة الأطفال وابتعدوا تاركين القدر بعد أن حكوه، على الأرض، ونظرت الأم إلى الأطباق الفارغة وقالت: «لا يبتعد أحدكم عن هنا كثيرًا».

ونهض الأب وغادر الخيمة دون أن يجيب، وابتسم الواعظ لنفسه واستلقى على ظهره وقد شبك كفيه تحت رأسه، ونهض «آل» واقفًا وقال: «لابد أن أساعد الرجل فى إصلاح سيارته».

وجمعت الأم الأطباق وخرجت بها لتغسلها.

ونادت: «روثى»، «وينفلد»، اذهبا واحضرا لى جردل ماء الآن».

ثم ناولتهما الجردل ودرجا تجاه النهر.

واقتربت امرأة عريضة قوية، كان رداؤها ملوثًا بالغبار وملطخًا بزيت السيارات وقد رفعت ذقنها إلى أعلى فى اعتزاز، وقفت على مسافة قصيرة وراقبت الأم فى تحد، وأخيرًا اقتربت وقالت فى جفاء: «مساء الخير».

فقالت الأم: «مساء الخير» ونهضت على ركبتيها وقدمت لها صندوقًا وقالت: «تفضلى بالجلوس» واقتربت المرأة وهى تقول: «لا... لن أجلس».

فنظرت إليها الأم متسائلة: «هل يمكن أن أقدم لك أى مساعدة؟».

ووضعت المرأة يديها على خصرها: «يمكن أن تساعدينى بالاهتمام بأطفالك أنت، وتتركى أطفالى فى حالهم».

واتسعت عينا الأم وبدأت تقول: «لم أفعل شيئًا».

وصاحت المرأة فى وجهها: «لقد جاء طفلى الصغير ورائحة اليخنى تملأه، أنت أعطيته له، لقد قال لى، لا داعى لكى تتفاخرى وتدعى أن عندكم يخنى، لا داعى لهذا، فلدى ما يكفى من المشاكل بغير هذا». لقد جاء إلىّ وقال: «لماذا ليس لدينا يخنى؟» كان صوتها يرتعش غضبًا...

واقتربت الأم منها وقالت: «اجلسى ولنتحدث قليلاً».

«لا، لن أجلس، أنا أحاول أن أطعم جماعتى، وأنت تأتين بطبيخك».

فقالت الأم: «اجلسى، لقد كانت هذه آخر مرة نطبخ فيها حتى نجد عملاً، افرضى أنك كنت تطبخين يخنى وجاءت جماعة من الصغار ووقفوا حولك يتأملون، ماذا كنت تفعلين؟ ليس لدينا ما يكفى ولكنك لا تستطيعين أن تمنعى عنهم شيئًا وهم ينظرون إليك بهذه الطريقة».

وسقطت يد المرأة من خاصرتها. وتفحصت عيناها الأم لحظة ثم استدارت المرأة وابتعدت مسرعة ودخلت إحدى الخيام وأرخت مصاريعها خلفها، وشخصت الأم ببصرها وراءها، ثم ركعت على ركبتيها ثانية بجوار كومة الأطباق الصاج.

اقترب «آل» مسرعًا مناديًا: «توم»... أمى، هل «توم» بالداخل؟

برز «توم» برأسه خارجًا: «ماذا تريد؟»

فقال «آل» بانفعال: «تعال معى».

ومشيا معًا وسأله «توم»: «ما حكايتك؟»

«ستعرف، انتظر»، وقاد «توم» إلى السيارة المعطلة وقال: «هذا هو «فلويد نولز»».

«أيوه، لقد تكلمت معه كيف حالك؟»

فقال «فلويد»: «ها أنا أعيدها إلى ما كانت عليه».

وجرى «توم» بإصبعه على قمة الصمام: «ما الذى يلعب فى عبك يا (آل)؟»

«لقد قال لى «فلويد» الآن... كلمه يا فلويد».

فقال «فلويد»: «ربما لم يكن من الواجب أن أقول ـ ولكن... إيه.. لقد

جاء أحد الرجال وهو يقول إن هناك عملاً فى الشمال».

«فى الشمال؟».

«أيوه... مكان يدعى وادى سانتا كلارا... على الطريق الجحيم وأكثر شمالاً».

«إيه؟ أى نوع من العمل؟»

«جمع برقوق وكمثرى، وتعليب، يقول إنه سيبدأ قريبًا جدًا».

فسأل «توم»: «كم تبعد عن هنا؟».

«أوه، يعلم المسيح، ربما مائتى ميل».

فقال «توم»: «يا للجحيم، هذه مسافة طويلة، كيف يمكن أن نعرف أننا سنجد عملاً عندما نصل إلى هناك؟».

فقال «فلويد»: «حسنًا، نحن لا نعرف ولكن لا يوجد شىء هنا، وهذا الرجل يقول: إنه تلقى خطابًا من أخيه وهو فى طريقه إليه، وقد طلب ألا أقول لأحد حتى لا يكون هناك تزاحم، يجب أن نخرج من هنا فى الليل، لابد أن نصل إلى هناك ونحصل على عمل ما».

ونظر إليه «توم» متفحصًا وسأل: «لماذا يجب أن نتسلل من هنا؟».

«حسنًا، إذا ذهب كل واحد إلى هناك لن يكون هناك عمل لأى واحد».

فقال «توم»: «إنها مسافة طويلة جدًا».

وأحس «فلويد» بأنه قد أهين فقال: «أنا أقدم لك فرصة مجانًا، ولست مضطرًا لقبولها، لقد ساعدنى أخوك وها أنذا أرد له الجميل».

«هل أنت متأكد أنه لا يوجد عمل هنا؟».

«اسمع، لقد ظللت استكشف لثلاثة أسابيع فى كل مكان ولم أحصل على أى عمل، لا شيء على الإطلاق، فإذا كنت تريد أن تجوب المكان وتحرق البنزين بحثًا، هيا، انطلق، لن أتضرع إليك، فكلما زاد عدد الذاهبين قلت فرصتى».

فقال توم: «لست أخطئك، كل ما فى الأمر أنه طريق طويل جدًا، ونحن كنا نأمل أن نجد عملاً هنا ونستأجر بيتًا لنعيش فيه».

فقال «فلويد» بصبر: «أنا أعرف أنكم وصلتم توًا، هناك أشياء يجب أن تتعلموها، فإذا سمحت لى بأن أخبركم، فستوفرون بعض الجهد، وإذا لم تسمحوا، فستتعلمون بالطريقة الصعبة، أنكم لن تستقروا لأنه ليس هناك عمل تستقرون فيه، ولن تسمح لكم بطونكم بالاستقرار، وفى النهاية هذا هو الكلام الصريح».

فقال «توم» متململاً: «وددت لو استطعت البحث فى هذه الأنحاء أولاً».

وصلت سيارة ذات باب واحد «سيدان» إلى المعسكر ووقفت أمام الخيمة المجاورة، وخرج منها رجل يرتدى عفريتة وقميصًا أزرق وناداه «فلويد»: «هل وفقتم؟».

«لا يوجد ولا عمل ليد واحدة فى كل هذا البلد اللعين، ولن يكون حتى موسم جمع القطن»، ثم دخل الخيمة المهلهلة.

فقال «فلويد»: «أرأيت؟».

«أيوه، ولكنها على بعد مائتى ميل، يا يسوع!».

«هه، أنت لم تستقر فى أى مكان منذ مدة، من المستحسن أن تستقر على رأى».

قال «آل»: «من الأفضل أن نذهب».

فسأل «توم»: «متى سيكون هناك عمل فى هذه الأنحاء؟».

«ربما، فى خلال شهر سيبدأ القطن، إذا كان لديكم ما يكفى من النقود يمكنكم انتظار القطن».

قال «توم»: «لن ترغب أمى فى السفر، فهى فى منتهى الإنهاك».

فهز «فلويد» كتفيه وقال: «أنا لا أحاول أن أدفعكم إلى الشمال، دبر نفسك، لقد أخبرتك فقط بما سمعت». والتقط التيلة المزيتة من فوق الرفرف وثبتها بعناية فى مكانها وضغط عليها وقال لـ «آل»: «والآن، هل لك أن تساعدنى فى رأس المحرك هذا» وراقبهما «توم» وهما ينزلان بالرأس الثقيل برفق على مساميره ويرسيانه بدقة. قال: «لابد أن نتكلم فى الأمر».

فقال «فلويد»: «لا أريد أحدًا غير أهلك أن يعرف شيئًا عن هذا الموضوع أنتم فقط، ولم أكن لأخبركم لولا أن أخاك قد ساعدنى الآن».

فقال «توم»: «حسنًا أشكرك فعلاً لأنك أخبرتنا، لابد أن نتدبر الأمر. ربما نذهب».

قال «آل»: «يا إلهى، أظن أننى سأذهب سواء ذهب الباقون أم لا، سأركب من على الطريق إلى هناك».

وسأله «توم»: «وتترك العائلة؟».

«بالتأكيد، سأعود وبنطلونى منتفخ مليء بالنقود، لم لا؟».

فقال «توم»: «أمى لن يعجبها مثل هذا التصرف، وأبى أيضًا لن يعجبه».

وثبت «فلويد» الصواميل وربطها إلى أقصى ما يستطيع بأصابعه وقال: «لقد خرجت أنا وزوجتى مع أهلى، ولم نكن نظن ونحن فى بيتنا أننا سنتركهم، كان من المستحيل أن تفكر فى ذلك، ولكن يا للجحيم كنا جميعًا فى الشمال فترة ثم جئت أنا إلى هنا، وهم أيضًا سافروا، والآن لا يعلم إلا الله أين هم، منذ ذلك الوقت وأنا أبحث واسأل عنهم». وثبت مفتاحه إلى صواميل مسامير رأس المحرك ولفها بعناية، لفة لكل صامولة، ثم عاد عليها كلها..

وتربع «توم» على الأرض بجوار السيارة وحدق فى صف الخيام، كانت بقايا أعواد الحنطة لا تزال تضرب فى الأرض بينها، وقال: «لا يا سيدى، لن ترضى الأم عن ذهابى مثلك».

«حسنًا، يبدو لى أن رجلاً واحدًا إذا ذهب وحده ستكون لديه فرصة أكبر فى العمل».

«ربما، ولكن الأم لن يعجبها هذا على الإطلاق».

دخلت المعسكر سيارتان محملتان برجال تعلو وجوههم الكآبة والغم، رفع «فلويد» عينيه ولكنه لم يسألهم إن كانوا قد وفقوا، كانت وجوههم المعفرة حزينة متوترة، كانت الشمس تهبط وسقط ضوء الشمس الأصفر على «الهوفر فيل» وأشجار الصفصاف وراءها. وبدا الأطفال يخرجون من الخيام ليتسكعوا حول المخيم، ومن الخيام خرجت النسوة ليوقدن نيرانهن الصغيرة، وتجمع الرجال فى جماعات تربعت على الأرض وأخذوا يتكلمون معًا.

وخرجت سيارة شيفروليه ذات بابين، جديدة، من على الطريق العام واتجهت ناحية المخيم، وقفت فى منتصف المخيم، قال «توم»: «مَنْ هؤلاء؟ ليسوا من أهل هذا المكان؟».

قال «فلويد»: «لا أعرف... رجال البوليس غالبًا».

وانفتح باب السيارة وخرج منها رجل وقف بجوارها، وبقى رفيقه فى مقعده، عندئذ نظر كل الرجال المتربعين إلى القادمين الجدد وتوقف حديثهم، ونظرت النسوة اللاتى يوقدن النيران خفية إلى السيارة اللامعة، وتحرك الأطفال فى حركة التفاف حذرة، يتقدمون إلى الداخل فى أقواس طويلة.

ووضع «فلويد» مفتاحه جانبًا ووقف «توم» ومسح «آل» يديه على بنطلونه ودرج ثلاثتهم نحو الشيفروليه، كان الرجل الذى خرج من السيارة يرتدى بنطلونًا كاكيًا وقميص فانلة، وعلى رأسه قبعة ستيتسن مفرطحة ذات حافة، وقد تعلقت فى جيبه رزمة من الأوراق بحاجز صغير من أقلام الحبر، وأقلام الرصاص الصفراء، ومن جيبه الخلفى برزت نوتة ذات غلاف معدنى، اتجه إلى واحدة من جماعات الرجال المتربعين فرفعوا إليه أبصارًا هادئة مستريبة، راقبوه ولم يتحركوا وقد ظهر بياض عيونهم تحت قزحياتهم لأنهم رفعوا أبصارهم دون أن يرفعوا رؤوسهم. ودرج «توم» و«آل» و«فلويد» مقتربين وكأنهم لا يقصدون ذلك.

قال الرجل: «هل تريدون عملاً أيها الرجال؟» ظلوا ينظرون بشك وهدوء، وأقبل رجال من كل أنحاء المعسكر.

وأخيرًا تكلم واحد من الرجال المتربعين: «بالتأكيد نريد عملاً، أين هذا العمل؟»

«فى تولار كونتى، الفاكهة تنضج وتحتاج إلى كثير من العمال».

وتكلم «فلويد»: «أنت الذى تقوم بالتعاقد».

«حسنًا، أنا تعاقدت على الأرض».

كان رجال المخيم جميعًا قد تجمعوا معًا، وخلع رجل يرتدى عفريتة قبعته ومشط شعره الأسود الطويل بأصابعه وسأل: «وماذا ستدفع؟».

«حسنًا، لا يمكننى أن أحدد بدقة بعد، حوالى ثلاثين سنتًا أعتقد».

«لماذا لا تستطيع أن تحدد؟ لقد أخذت العقد، أليس كذلك؟».

فقال الرجل الذى يلبس الكاكى: «هذا صحيح ولكنه مرهون بالسعر ربما يزيد قليلاً وربما ينقص قليلاً».

وتقدم «فلويد» إلى الأمام وقال بهدوء: «سأذهب يا سيدى، أنت مقاول، ومعك ترخيص، ما عليك إلا أن تظهر الترخيص ثم تعطينا أمر العمل، أين ومتى وكم سنأخذ وتوقع على ذلك وسنذهب جميعًا».

واستدار المقاول وهو يعوى: «أتعلمنى كيف أدير عملى؟».

فقال «فلويد»: «إذا كنا سنعمل عندك، فهو عملنا أيضًا».

«طيب، لن أسمح لك بأن تقول لى ماذا علىّ أن أفعل، لقد قلت لكم أنا فى حاجة إلى رجال».

فقال «فلويد» بغضب: «أنت لم تقل كم من الرجال تريد، وأنت لم تقل كم ستدفع؟»

«اللعنة، لست أعرف بعد».

إذا لم تكن تعرف، فليس من حقك أن تستأجر عمالاً».

«من حقى أن أدبر عملى بطريقتى الخاصة، إذا كنتم أيها الرجال تريدون أن تجلسوا هنا على أذيالكم أوكى، أنا ذاهب لأحصل على رجال لتولار كونتى، سأحتاج إلى عدد كبير من الرجال».

واستدار «فلويد» إلى جمهرة الرجال، كانوا واقفين الآن، ينقلون

أبصارهم فى هدوء من متحدث لآخر، قال «فلويد»: «لقد خدعت مرتين بهذه الطريقة، ربما كان فى حاجة إلى ألف رجل، سيحصل على خمسة آلاف هناك، وسيدفع خمسة عشر سنتًا فى الساعة وستضطرون يا أبناء الزنى المساكين إلى قبولها لأنكم ستكونون جوعى، إذا كان يريد أن يستأجر رجالاً، فليستأجرهم وليكتب ذلك وليعلن كم سيدفع، اطلبوا رؤية ترخيصه، ليس مسموحًا له أن يتعاقد مع عمال بدون ترخيص».

والتفت المقاول إلى الشفروليه ونادى: «جو»، وأطل رفيقه خارجًا ثم فتح باب السيارة وخطا خارجها، كان يرتدى بنطلون ركوب وحذاء برقبة، وقد تدلى مسدس كبير من حزام ذخيرة على وسطه، وعلى قميصه البنى شبكت نجمة رجل البوليس، ومشى إليهم فى خطوات ثقيلة وقد ارتسمت على وجهه ظل ابتسامة: «ماذا تريد؟» وتأرجح المسدس إلى الأمام وإلى الخلف على فخذه.

«هل رأيت هذا الرجل من قبل يا جو؟»

فسأله رجل البوليس: «أى واحد؟».

«هذا الرجل» وأشار إلى «فلويد».

وابتسم رجل البوليس لـ «فلويد» وقال: «ماذا فعل؟».

«يتكلم كلامًا كالمتجاوزين، ويثير المشاكل!».

«هم م م م م» وتحرك رجل البوليس ببطء جانبًا ليرى «بروفيل» وجه «فلويد»، وغاض الدم من وجه «فلويد» ببطء.

صاح «فلويد»: «أرأيتم؟ لو أن هذا الرجل موقفه سليم، أكان يحضر معه رجل بوليس؟».

وأصر المقاول على سؤاله: «ألم تره من قبل؟».

«هم م م م، يبدو أننى رأيته، فى الأسبوع الماضى عند السطو على مخزن السيارات القديمة، يبدو أننى رأيت هذا الرجل يحوم حول المخزن، بل أستطيع أن أقسم أنه نفس الرجل». وفجأة غادرت الابتسامة وجهه وقال: «ادخل فى هذه السيارة». وفك غطاء الجراب الذى يغطى مقبض مسدسه الأوتوماتيكى.

وقال «توم»: «ليس عندك أى شىء ضده».

ودار الشرطى على عقبيه وقال: «إذا أردت أن تدخل أنت أيضًا، فما عليك إلا أن تفتح فمك مرة أخرى، لقد كان هناك رجلان يحومان حول المخزن».

فقال «توم»: «لم أكن فى الولاية كلها فى الأسبوع الماضى».

«حسنًا، ربما كنت مطلوبًا فى مكان آخر، احفظ فمك مغلقًا».

واستدار المقاول للرجال: «أنتم أيها الرجال لا تحبون أن تسمعوا كلام هؤلاء المتجاوزين الملاعين، مثيرى المتاعب، سيزجون بكم فى المتاعب، والآن فى إمكانى استخدامكم جميعًا فى تولار كونتى».

لم يحر الرجال جوابًا.

والتفت لهم الشرطى وقال: «إنها فكرة طيبة أن تذهبوا». وعاد شبح الابتسامة إلى وجهه. «يقول مكتب الصحة إن علينا أن نزيل هذا المخيم، وإذا ما شاع أن بينكم بعض المتجاوزين، ربما أوذى بعضكم، إنها فكرة طيبة أن تنزحوا جميعًا إلى تولار، ليس هناك ما يمكن أن تفعلوه هنا، إنها طريقة أخوية لإخباركم فقط، ولكن هناك فرقة مسلحة بالشوم إذا لم تذهبوا».

قال المقاول: «لقد قلت لكم إننى فى حاجة إلى رجال، إذا لم تكونوا تريدون العمل، حسنًا هذا شأنكم».

وابتسم الشرطى: «إذا لم يكونوا يريدون العمل، فلن يكون لهم مكان فى هذه البلاد سنطردهم بسرعة».

وقف «فلويد» متصلبًا بجوار رجل البوليس وقد شبك إبهاميه على حزامه، ونظر إليه «توم» خلسة ثم حدق فى الأرض.

قال المقاول: «هذا كل ما فى الأمر، هناك حاجة إلى الرجال فى تولار كونتى، عمل كثير».

رفع «توم» بصره ببطء إلى يدى «فلويد» ورأى أوتارها تبرز فوق الرسغ من تحت الجلد، وارتفعت يدا «توم» وشبك إبهاميه على حزامه.

«أيوه، هذا كل ما هناك، لا أريد أحدًا منكم غدًا صباحًا».

وخطا المقاول داخل السيارة الشيفروليه.

قال الشرطى لـ «فلويد»: «والآن، أنت، ادخل هذه السيارة». ومد يدًا كبيرة أمسك بها ذراع «فلويد» اليسرى، دار «فلويد» وتطوح فى حركة واحدة واندفعت قبضته فى الوجه الكبير وفى نفس الحركة كان منطلقًا يجرى على طول صف الخيام، وترنح الشرطى وراءه فوضع «توم» قدمه أمامه ليفقده توازنه، وقع الشرطى على الأرض وتقلب مادًا يده إلى مسدسه. جرى «فلويد»، يظهر ويختفى بين الخيام، وأطلق الشرطى النار وهو راقد على الأرض وصرخت امرأة واقفة أمام إحدى الخيام، ثم نظرت إلى يدها التى أصبحت بلا أصابع، تعلقت أصابعها على أوتارها فى راحتها وكان اللحم الممزق أبيض لا دماء فيه، وظهر «فلويد» فى آخر الصف بعيدًا يعدو تجاه أشجار الصفصاف، ورفع الشرطى وهو جالس على الأرض مسدسه ثانية، وعندئذ فجأة من بين جماعة الرجال، تقدم القس «كيزى» ورفس الشرطى فى قفاه ثم وقف ثانية بينما الرجل الثقيل يتكوم غائبًا عن وعيه.

وزمجر محرك الشيفروليه وصرخت مبتعدة مثيرة خلفها الغبار، صعدت إلى الطريق العام وانطلقت كالقذيفة، كانت المرأة لا تزال أمام خيمتها تنظر إلى يدها المهشمة، بدأت قطرات قليلة من الدماء تنضح من الجرح، وبدأت تطلق من حلقها ضحكات هستيرية، ضحكات معولة تزايدت حدة وارتفاعًا مع كل نفس من أنفاسها.

رقد الشرطى على جنبه وقد فتح فمه فى التراب.

التقط «توم» مسدسه وسحب خزنته وألقاها بعيدًا فى العشب ثم أخرج الطلقة السليمة من الماسورة وقال: «رجل كهذا ليس من حقه أن يحمل مسدسًا»، ثم ألقى بالمسدس على الأرض.

تجمعت جمهرة حول المرأة ذات اليد المهشمة وقد ازدادت هستيريتها واكتسبت ضحكاتها نبرة صارخة، اقترب كيزى من «توم» وقال: «لا بد أن تخرج من هنا، اذهب إلى الصفصاف وانتظر، إنه لم يرنى وأنا أرفسه، ولكنه رآك وأنت تمد قدمك».

فقال «توم»: «لا أريد أن أذهب».

فقرب «كيزى» رأسه منه وقال همسًا: «سيأخذون بصماتك، لقد خرجت على نظام الإفراج الشرطى، سيعيدونك».

وكتم «توم» أنفاسه وقال: «يا يسوع لقد نسيت!»

قال «كيزى»: «اذهب بسرعة، قبل أن يفيق».

فقال «توم»: «وددت لو أخذت مسدسه».

«لا، اتركه إذا كان الجو صالحًا لكى تعود، سأصفر لك أربع صفارات عالية».

ومشى «توم» مبتعدًا وكأن لا اتجاه له، ولكنه ما إن ابتعد عن الجماعة حتى أسرع من خطاه واختفى بين الصفصاف الذى يحف بالنهر.

وخطا «آل» إلى الشرطى الممد على الأرض وقال معجبًا: «يا يسوع! لقد أوقعته فعلاً».

واستمرت جمهرة الرجال تحملق فى الرجل الغائب عن الوعى بينما صرخت على مسافة بعيدة سارنية تعلو وتنخفض، ثم تصرخ ثانية، تزداد قربًا، وفى الحال أصبح الرجال عصبيين، يبدلون أقدامهم لحظة ثم يعدون كل واحد منهم إلى خيمته ولم يبق إلا «آل» والواعظ.

والتفت «كيزى» لـ «آل» وقال: «ابعد، هيا، ابعد، إلى الخيمة، أنت لا تعرف شيئًا».

«إيه؟ وماذا عنك؟».

وكشر «كيزى» وقال: «لابد أن يتحمل واحد المسئولية، ليس عندى أطفال وسيضعوننى فى السجن فقط وأنا لا أفعل شيئًا إلا التسكع».

وقال «آل»: «ليس هناك سبب يدعو...».

فقال «كيزى» بحدة: «اذهب الآن، اخرج من هذا الموضوع».

وقال «آل» غاضبًا: «أنا لا أتلقى أوامر».

فقال «كيزى» بلطف: «إذا تورطت فى هذا الأمر، فكل عائلتك، كل أهلك، سيدخلون فى مشاكل.. أنا لا أهتم بك ولكن بأبيك وأمك، سيدخلون فى مشاكل، وربما أعادوا «توم» إلى (ماك أليستر)..».

وفكر «آل» فى الأمر لحظة ثم قال: «أوكى، ومع ذلك أعتقد أنك أحمق لعين».

فقال «كيزى»: «بالتأكيد، لم لا؟».

وصرخت السارينة مرة تلو مرة وهى تزداد اقترابًا، وركع «كيزى» بجوار الشرطى وقلبه وزام الرجل ورمش بعينيه وحاول أن يرى، مسح «كيزى» التراب عن شفتيه، كانت العائلات الآن فى الخيام التى أنزلت مصاريعها، وقد أحالت الشمس الغاربة الجو، أحمر، والخيام رمادية برونزية.

زعقت العجلات على الطريق، وانسابت سيارة مكشوفة داخل المعسكر وقفز منها أربعة رجال مسلحين بالبنادق، فوقف «كيزى» ومشى نحوهم.

«ماذا يجرى هنا بحق الجحيم؟».

فقال «كيزى»: «لقد صرعتُ رجلاً منكم هناك».

ذهب واحد من الرجال المسلحين إلى الشرطى، كان قد عاد إلى وعيه يحاول بضعف أن يجلس.

«والآن ما الذى حدث هنا؟».

قال «كيزى»: «حسنًا، كان فظًا وأنا ضربته فبدأ يطلق النار، وأصاب امرأة فى هذا الصف، فضربته ثانية...».

«هه، وماذا فعلت فى بادئ الأمر؟».

فقال «كيزى»: «كنت أرد عليه».

«اركب هذه السيارة».

فقال «كيزى»: «بكل ممنونية» وصعد إلى المقعد الخلفى وجلس وساعد رجلان الشرطى المضروب، لكى يقف على قدميه، وتحسس قفاه متنبهًا، وقال «كيزى»: «هناك امرأة فى الصف يمكن أن تنزف دماءها حتى الموت من أثر إطلاق النار خطأ».

«سنرى ذلك فيما بعد: «مايك»، هل هذا هو الرجل الذى ضربك؟».

ونظر الرجل الذاهل فى كلال إلى «كيزى» وقال: «لا يبدو أنه هو».

فقال «كيزى»: «إنه أنا فعلاً، لقد استخدمت العنف مع رجل آخر خطأ» وهز «مايك» رأسه ببطء وقال: «يبدو لى أنك لست الرجل المطلوب، يا إلهى سأمرض».

فقال «كيزى»: «سأذهب معكم دون مشاكل، من المستحسن أن تروا مدى إصابة المرأة».

«أين هى؟».

«فى هذه الخيمة هناك».

مشى قائد الشرطة إلى الخيمة والبندقية فى يده، وتكلم من خارج جدران الخيمة ثم دخل، وخرج فى لحظة وعاد ثم قال برنة من الفخر: «يا يسوع، أى لخبطة يمكن أن تنتج عن رصاصة عيار ٤٥ , ٠ لقد ربطوا لها حزامًا على ذراعها لوقف النزيف، سنرسل لها طبيبًا».

جلس شرطيان على جانبى «كيزى»، وضرب القائد نفيره، لم تكن ثمة حركة فى المخيم، كانت المصاريع مسدلة بإحكام والناس فى خيامهم ودار المحرك، ولفت السيارة حول نفسها، ثم انطلقت من المخيم، جلس «كيزى» بين حراسه فى اعتداد، رأسه عاليًا، وقد برزت عضلات رقبته الوترية وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة، وعلى وجهه نظرة انتصار غريبة.

عندما ذهب رجال البوليس خرج الناس من خيامهم، كانت الشمس قد غربت وضوء الأصيل الأزرق الهادئ يملأ المخيم، كانت الجبال فى الشرق لا تزال صفراء بضوء الشمس، وعادت النسوة إلى النيران التى خبت وتجمع الرجال ليتربعوا معًا ويتكلموا فى صوت خافت.

وزحف «آل» من تحت مشمع عائلة «جود» وسار تجاه الصفصاف ليصفر لـ «توم» وخرجت الأم وأشعلت نارًا صغيرة من الأغصان الجافة.

قالت الأب: «لن نعد شيئًا كثيرًا، فقد أكلنا متأخرين».

وجلس الأب والعم «جون» بالقرب من الخيمة يراقبان الأم وهى تقشر البطاطس وتقطعها نيئة فى مقلاة مليئة بالشحم، قال الأب: «والآن، ما الذى دفع الواعظ إلى ذلك بحق الجحيم؟».

وزحفت «روثى» و«وينفلد» مقتربين وقبعا على الأرض ليسمعا الحديث.

وخربش العم «جون» التراب بعمق بمسمار صدئ طويل: «إنه يعرف ما هى الخطيئة، لقد سألته عن الخطيئة فأخبرنى وإن كنت لا أعرف ما إذا كان مصيبًا أم لا، فهو يقول إن الإنسان يقع فى الخطيئة إذا أعتقد أنه وقع فى الخطيئة».

كانت عينا العم «جون» متعبتين حزينتين وقال: «لقد كنت كتومًا طول الوقت، لقد فعلت أشياء لم أعترف بها لأحد».

والتفتت الأم من النار وقالت: « (جون)، لا تحك شيئًا، اعترف بها أمام الله لا تحمِّل الناس الآخرين أوزارك، هذا لا يصح».

فقال «جون»: «إنها تؤرقنى».

«حسنًا، لا تحكها، اذهب إلى النهر وغطس رأسك فى الماء واهمس بها فى التيار».

وأومأ الأب برأسه مع كلمات الأم وقال: «إنها على صواب، إنه لشىء يريح الإنسان أن يحكى، ولكن هذا لا يؤدى إلا إلى نشر الخطيئة».

نظر العم «جون» إلى الجبال الذهبية فى ضوء الشمس، وانعكست الجبال فى عينيه وقال: «وددت لو أننى تغلبت عليه، ولكننى لا أستطيع، إنها تأكلنى فى أحشائى».

خرجت «روزا شارن» من خلفه مترنحة من الخيمة وسألت بعصبية: «أين «كونى» لم أر «كونى» منذ وقت طويل، أين ذهب؟».

فقالت الأم: «لم أره. إذا رأيته سأقول له إنك تريدينه».

فقالت «روزا شارن»: «لست بخير، ما كان يجب أن يتركنى (كونى)».

ونظرت الأم إلى وجه الفتاة المنتفخ وقالت: «لقد كنت تبكين».

وتجددت الدموع فى عينى «روزا شارن».

واستمرت الأم تقول فى حزم: «لابد أن تتمالكى نفسك، يوجد الكثيرون هنا، لابد أن تتمالكى نفسك، تعالى هنا الآن وقشرى بعض البطاطس، أنت تشعرين بالأسى على نفسك».

وهمت الفتاة بالعودة إلى الخيمة محاولة تجنب عينى الأم العابستين، ولكن نظرة الأم أرغمتها أن تتقدم ببطء ناحية النار، وقالت: «ما كان يجب أن يذهب»، غير أن دموعها كانت قد جفت.

قالت الأم: «يجب أن تعملى، لو بقيت فى الخيمة ستشعرين بالأسى على نفسك، لم يكن عندى وقت لكى آخذ بيدك، وسأفعل الآن، هيا خذى هذه السكين وأعدى البطاطس».

ركعت الفتاة وأطاعت وقالت بقسوة: «فلينتظر حتى أراه، سأريه».

وابتسمت الأم على مهل وقالت: «بما صفعك على وجهك، أنت

تستقبلينه بالعويل وبتدليل نفسك، إذا ضربك وأعاد إليك بعض العقل فسأدعو له بالخير». دمعت عينا الفتاة من الغضب ولكنها ظلت صامتة.

دفع العم «جون» بمسمار صدئ فى الأرض بإبهامه العريض وقال: «لابد أن أتكلم» قال الأب: «حسنًا احك إذن! اللعنة من الذى قتلته؟»

ودس العم «جون» بإبهامه فى جيب الساعة فى بنطلونه الأزرق وأخرج ورقة مالية مطوية قذرة وفردها أمامهم وقال: «خمسة دولارات».

سأله الأب: «هل سرقتها؟».

«لا لقد حصلت عليها وأخفيتها عنكم».

«كانت ملكك أليس كذلك؟».

«أيوه ولكن لم يكن من حقى أن أخفيها عنكم».

فقالت الأم: «لست أرى خطيئة كبرى فى هذا؛ إنها ملكك».

فقال العم «جون» ببطء: «لم أكن أخفيها عنكم وإنما أخفيتها لأسكر بها عندما أحس بالعذاب فى داخلى، كنت أنوى أن أسكر وقدرت أن الوقت لم يحن بعد، وعندئذ تقدم الواعظ ليسلم نفسه وينقذ (توم)».

وهز الأب رأسه إلى أعلى وأسفل وقد أدارها ليسمع جيدًا واقتربت «روثى» بأكثر من ذى قبل كالجرو وتزحف على مرفقيها و«وينفلد» فى إثرها وغاصت «روزا شارن» بطرف سكينها خلف عين عميقة فى ثمرة بطاطس، وازداد ضوء الأصيل عمقًا وزرقة، قالت الأم فى لهجة حادة قاطعة: «لست أرى فى إنقاذه لـ «توم» سببًا يدفعك إلى السكر».

فقال «جون» بحزن: «لا يمكننى التعبير، أحس إحساسًا فظيعًا، لقد فعلها بسهولة بالغة، خطا إلى هناك وقال ببساطة أنا فعلتها فأخذوه وأنا سأسكر».

وظل الأب يومئ برأسه وقال: «لست أدرى ما الذى يدفعك إلى أن تقول ذلك لو أننى كنت مكانك لغادرت المكان وسكرت، إذا كان من الضرورى ذلك».

فقال العم «جون» بأسى: لقد جاءت الفرصة لكى أفعل شيئًا أمحو به الخطيئة الكبرى عن روحى، ولكننى تركتها تمر، لم أقفز إليها و... وأفلتت، اسمع.. النقود معك أعطنى دولارين.

مد الأب يده فى جيبه على مضض وأخرج حافظته الجلدية: «لست فى حاجة إلى سبعة دولارات لكى تسكر لا داعى لأن تشرب شامبانيا».

فمد العم جون يده بورقته المالية: «خذا هذه وأعطنى الدولارين من الممكن أن أسكر سكرة جيدة بدولارين لا أريد أن أقع فى خطيئة التبذير وأصرف كل ما معى، كما تعودت أن أفعل دائمًا».

وأخذ الأب الورقة المالية المتسخة وأعطى العم «جون» دولارين فضيين وقال: «هاك» النقود ينبغى أن يفعل الرجل ما يريد أن يفعله لا أحد يملك من العلم ما يمكِّنه من تقديم النصيحة».

أخذ العم «جون» النقود وقال: «أنت لن تغضب جدًا؟ أنت تعرف أننى مضطر لهذا؟».

قال الأب: «بحق المسيح، نعم، أنت أعلم بما تحتاج إليه».

قال: «لن أستطيع أن أعيش حتى الصباح بأى طريقة أخرى».

ثم التفت إلى الأم وقال: «أنت لن تلومينني على هذا؟».

لم ترفع الأم بصرها وقالت برقة: «لا... لا... اذهب أنت».

وقف وابتعد وحيدًا تعيسًا فى ظلمة المساء، سار إلى الطريق العام

الخراسانى ثم عبره إلى محل البقالة، وأمام الباب ذى الستائر خلع قبعته وألقاها فى التراب ثم سحقها بكعبه حانقًا عِلى نفسه، محتقرًا لها، ترك قبعته السوداء هناك، محطمة قذرة ودخل المحل وسار إلى صف زجاجات الويسكى خلف الشباك السلك على الأرفف.

وراقب الأب والأم والطفلان العم «جون» وهو يمضى مبتعدًا، بينما ظلت «روزا شارن» تنظر إلى البطاطس فى امتعاض.

قالت الأم: «مسكين «جون»، إنى لأعجب هل فى هذا أى فائدة له؟ لا.. لا أظن... لم أر رجلاً مسلوب الإرادة مثله أبدًا».

وتقلبت «روثى» على جنبها على التراب، وقربت رأسها من رأس «وينفلد» وجذبت أذنه أمام فمها وهمست سأسكر!» وشخر «وينفلد» وزم فمه بإحكام، وزحف الطفلان بعيدًا، وهما يكتمان أنفاسهما، وقد احتقن وجهاهما تحت ضغط ضحكاتهما المكتومة، زحفا حول الخيمة ثم قفزا واقفين، وجريا وهما يصهلان بعيدًا عن الخيمة، جريا إلى أشجار الصفصاف، وما أن غابا عن الأنظار حتى صرخا ضاحكين، وحولت «روثى» عينيها وأرخت مفاصلها وترنحت ومشت متعثرة وقد تدلى لسانها خارجًا، وقالت: «أنا سكرانة».

فصاح «وينفلد»: «انظرى، انظرى لى، ها أنذا، أنا العم جون»، وفرد ذراعيه ونفخ وجهه ودار حول نفسه حتى داخ.

وقالت «روثى»: «لا... هذه هى الطريقة، هذه هى الطريقة، أنا العم «جون»، وأنا سكرانة جدًا».

مشى «آل» و«توم» بهدوء بين أشجار الصفصاف وفاجآ الطفلين وهما يترنحان كالمجانين، كان التراب كثيفًا فى المكان، وتوقف «توم» وحملق أمامه وقال: «أليس هذا هما: «روثى» و«وينفلد»؟ ماذا بهما بحق الجحيم؟»

واقتربا. وسألهما «توم»: «هل جننتما؟» وتوقف الطفلان فى ارتباك وقالت «روثى»: «كنا... نلعب فقط».

فقال «آل»: «إنها طريقة مجانين للعب».

فقالت «روثى» بوقاحة: «ليست أكثر جنونًا من أشياء كثيرة».

واستمر «آل» فى سيره وقال لـ «توم»: «روثى» تتحول الآن إلى فتاة ناضجة، إنها تكبر، وهى منذ مدة على وشك البلوغ».

وخلف ظهر «آل» مطت «روثى» فمها وفتحته على آخره بسبابتها، وأخرجت لسانها له، واستفزته بكل ما تعرف من وسائل، غير أن «آل» لم يلتفت لها، فنظرت إلى «وينفلد» مرة أخرى لكى يعودا إلى لعبتهما، ولكنها كانت قد فسدت، وأدرك الاثنان ذلك.

اقترح «وينفلد» قائلاً: «لنذهب إلى الماء ونغطس رؤوسنا فيه» ومشيا بين أشجار الصفصاف وهما حانقان على «آل».

مشى «آل» و«توم» بهدوء فى الغسق وقال «توم»: «لم يكن من الواجب أن يفعل «كيزى» ذلك ومع ذلك كان لابد أن أعرف أنه سيفعله، فقد كان يتحدث عن كيف أنه لا يفعل شيئًا لنا، إنه رجل غريب يا «آل»، يفكر طوال الوقت.

قال «آل»: «ذلك لأنه كان واعظًا، فالأمور تختلط عنده».

«إلى أين تظن «كونى» ذاهبًا؟».

«أعتقد، أنه ذهب ليستحم».

«ولكنه ابتعد كثيرًا جدًا».

ومشيا بين الخيام بجوار جدرانها، وعند خيمة «فلويد» أوقفهما نداء

خافت فاقتربا من مصراع الخيمة وجلسا، رفع «فلويد» القماش قليلاً وقال: «ستذهبان؟».

فقال «توم»: «لا أعرف، أعتقد أنه من الأفضل ذلك».

فضحك «فلويد» بمرارة وقال: «لقد سمعت ما قاله هذا الثور، سيحرقونكم إن لم تذهبوا.. إذا ظننتم أن هذا الرجل سيأخذ علقة دون أن يردها، فأنتم مجانين، سيأتى صبيان رجال الأعمال هذا المساء ليحرقوا المكان».

فقال «توم»: «أعتقد أنه من المستحسن أن نذهب إذًا، ولكن إلى أين سنذهب؟».

«لماذا، إلى الشمال، فوق ـ كما قلت».

فقال «آل»: «حكى لى أحدهم عن معسكر حكومى بالقرب من هنا، أين هو؟».

«أيوه، أعتقد أنه ممتلئ تمامًا».

«حسنًا أين هو؟».

«اذهب جنوبًا على طريق ٩٩ حوالى ١٢ أو ١٤ ميلاً ثم اتجه شرقًا إلى ويدباتش، إنه بالقرب من هناك، ولكننى أعتقد أنه ممتلئ تمامًا».

قال «آل»: «يقولون إنه مكان جميل».

«فعلاً، إنه مكان جميل، يعاملونك كإنسان لا ككلب، لا توجد شرطة هناك ولكنها ممتلئة تمامًا».

فقال «توم»: «الذى لا أستطيع أن أفهمه هو لماذا كان رجل البوليس على هذه الدرجة من الخسة، وبدا كأنه يسعى للمشاكل، بدا كأنه يدفع الإنسان لإثارة المتاعب».

قال «فلويد»: «أنا لا أعرف شيئًا عن هنا، ولكن هناك فى الشمال عرفت واحدًا من هؤلاء الرجال، كان رجلاً طيبًا، قال لى إن رجال البوليس هناك يجب أن يقبضوا على بعض الرجال، فالعمدة يتقاضى خمسة وسبعين سنتًا كل يوم عن كل سجين، وهو يطعمهم بربع دولار، فإذا لم يكن لديه مساجين فلن يربح شيئًا، قال لى الرجل إنه مرة لم يتصيد أحدًا لمدة أسبوع، فقال له العمدة إنه من الأفضل له أن يأتى بالبعض وإلا فعليه أن يسلم إشارته، وصاحبنا اليوم بدا كأنه قد خرج فعلاً لكى يتصيد واحدًا بأى طريقة».

فقال «توم»: «لابد أن نذهب، إلى اللقاء يا (فلويد)».

«إلى اللقاء. ربما رأيتكم، أرجو ذلك».

فقال «آل»: «وداعًا»، ومشيا فى المعسكر الرمادى المظلم إلى خيمة عائلة جود.

كانت مقلاة البطاطس تطش وتفح فوق النار، وقلبت الأم الشرائح السميكة بملعقتها وجلس الأب بالقرب منها محتضنًا ركبتيه وقد جلست «روزا شارن» تحت المشمع.

صاحت الأم: «إنه «توم»، الحمد لله».

قال «توم»: «لا بد أن نترك هذا المكان».

«ما الحكاية الآن».

«حسنًا، «فلويد» يقول إنهم سيحرقون المخيم الليلة».

سأل الأب: «ولماذا بحق الجحيم؟ لم نفعل شيئًا».

فقال «توم»: «ليس إلا أننا ضربنا شرطيًا».

«حسنًا، نحن لم نفعل ذلك إطلاقًا».

«مما قاله رجل البوليس يتضح أنهم يريدون إجلاءنا».

سألت «روزا شارن»: «هل رأيت «كونى»؟».

فقال «آل»: «أيوه، فى طريقه إلى الجحيم، مشى على شاطئ النهر متجهًا إلى الجنوب».

«هل... هل ذهب؟».

«لا أعرف».

والتفتت الأم إلى الفتاة وقالت: «(روزا شارن») أنت تتصرفين وتتكلمين بشكل غريب.. ماذا قال لك «كونى؟»».

فقالت «روزا شارن» فى كآبة: «قال إنه كان من الأفضل لو بقى فى البيت ودرس الجرارات».

كانوا فى غاية الهدوء.. ونظرت «روزا شارن» إلى النار ولمعت عيناها فى ضوء اللهب وطشت البطاطس بحدة فى المقلاة، وتشنفت «روزا شارن» ومسحت أنفها بظاهر يدها.

فقال الأب: «لم يكن «كونى» يصلح لشىء، لقد رأيت ذلك منذ وقت طويل، ليس لديه العزم، صغير جدًا على العفريتة التى يلبسها».

ونهضت «روزا شارن» ودخلت الخيمة ورقدت على المرتبة وتقلبت على بطنها ودفنت رأسها فى ذراعيها المتشابكتين.

قال «آل»: «أعتقد أنه لن يفيدنا أن نلاحقه؟».

فأجاب الأب: «لا، إنه لم يكن يصلح لشىء ونحن لا نريده».

وأطلت الأم في الخيمة حيث رقدت «روزا شارن» على مرتبتها وقالت: «هس، لا تقل هذا».

فأصر الأب «حسنًا، إنه لا يصلح لشيء، كل الوقت يتكلم عما ينوى أن يفعله، ولا يفعل شيئًا أبدًا، لم أكن أريد أن أقول شيئًا وهو هنا، ولكنه الآن قد هرب».

فقالت الأم بصوت خافت: «هس».

«لماذا بحق المسيح؟ لماذا يجب عليّ أن أسكت؟ لقد هرب، أليس كذلك؟ واستدارت الأم إلى البطاطس بملعقتها، وغلى الشحم وتناثر، وغذت النار بالأغصان فتوهجت ألسنة اللهب وأضاءت الخيمة وقالت الأم: «سيكون لـ«روزا شارن» طفل صغير، وهذا الطفل نصفه من «كونى» وليس من المفيد أن ينشأ طفل بين أهل يقولون إن أباه لم يكن يصلح لشيء» فقال الأب: «أحسن من الكذب عليه».

فقاطعته الأم: «لا، ليس أحسن، فلنتصرف وكأنه قد مات، لم تكن لتقول شيئًا عن «كونى» لو أنه مات».

وتدخل «توم»: «هاى، ما هذا؟ نحن لسنا متأكدين أن «كونى» قد ذهب ولن يعود، ليس لدينا وقت للكلام، علينا أن نأكل ثم نمضى فى طريقنا».

«فى طريقنا؟ لقد جئت هنا توًا». وحملقت الأم فيه خلال الظلام الذى تضيئه النار.

فقال يشرح لها باهتمام: «سيحرقون المعسكر الليلة يا أمى، وأنت تعرفين أننى لا أستطيع أن أقف وأشاهدهم يحرقون متاعنا، ولا أبى يمكنه أن يقف صامتًا ولا العم «جون»، ولقد كدنا أن ندخل فى معركة اليوم، وأنا لا أستطيع أن أطيق أن يأخذونى ويضربونى، ولقد كاد أن يحدث ذلك اليوم

لولا تدخل الواعظ». كانت الأم تقلب البطاطس فى الشحم الساخن، ثم اتخذت قرارها وصاحت: «تعالوا لنأكل هذا الطعام، ولنمض مسرعين». ثم أخرجت الأطباق الصاج.

قال الأب: «ماذا عن (جون)؟».

فسأل «توم»: «أى العم (جون)؟».

صمت الأب والأم لحظة ثم قال الأب: «لقد ذهب ليسكر».

فقال «توم»: «يا يسوع لقد اختار وقتًا غير مناسب بالمرة، أين ذهب؟»

فقال الأب: «لا أعرف».

.وقف «توم» وقال: «اسمعوا، كلوا أنتم واحملوا الأمتعة وسأذهب أنا للبحث عن العم «جون»، لابد أنه ذهب إلى هذا المحل عبر الطريق».

وابتعد «توم» بسرعة، كانت نيران الطبخ الصغيرة تشتعل أمام الخيام والعشش وقد أسقطت أنوارها على وجوه الرجال والنساء ذوى الأسمال والأطفال الجاثمين بجوارهم، وفى قليل من الخيام لمعت أضواء مصابيح الغاز من خلال القماش وقد ألقت عليه خيالات ضخمة للناس بداخلها.

مشى «توم» فى الطريق الترابى، ثم عبر الطريق العام الخراسانى إلى محل البقالة الصغير، وقف أمام الباب ذى الستائر وأطل فى الداخل، كان صاحب المحل وهو رجل أشيب صغير الحجم ذو شارب أشعث وعينين دامعتين مرتكزًا على البنك يقرأ جريدة، كانت ذراعاه النحيلتان عاريتين وهو يرتدى مريلة بيضاء اللون، وقد تكومت خلفه ومن حوله أكوام وأهرامات وحوائط العلب المحفوظة، نظر إلى «توم» عندما دخل وضاقت عيناه كأنه يصوب بندقية.

قال: «مساء الخير، أينقصك شيء؟».

فقال «توم»: «ينقصنى عمى، إذ أنه هرب، أو شيء من هذا القبيل».

وبدا الرجل الأشيب محتارًا وقلقًا فى نفس الوقت ولمس أرنبة أنفه بانفعال ثم أبعد يده ليوقف حكه وقال: «يبدو أنكم أيها الناس تفقدون إنسانًا ما على الدوام، أكثر من عشر مرات فى اليوم يدخل أحدهم ويقول، إذا رأيت رجلاً اسمه كذا وكذا وشكله كذا وكذا أيمكن أن تقول له إننا قد ذهبنا شمالاً، شيء من هذا القبيل دائمًا».

وضحك «توم» وقال: «حسنًا، إذا رأيت شابًا أنفه سائب اسمه «كونى» يشبه ذئب البرارى إلى حد ما، قل له أن يذهب إلى الجحيم، لقد ذهبنا جنوبًا، ولكنه ليس الرجل الذى أبحث عنه، هل جاء إلى هنا رجل فى حوالى الستين من العمر، يرتدى بنطلونًا أسود وشعره رمادى، واشترى ويسكى؟».

ولمعت عينا الرجل الأشيب وقال: «فعلاً، جاء واشترى، لم أر مثله أبدًا، لقد وقف أمام المحل وألقى قبعته على الأرض ثم وطأها، هذه هى قبعته»، وأحضر القبعة المهشمة المعفرة من تحت البنك.

وأخذها «توم» منه وقال: «إنه هو فعلاً».

«حسنًا يا سيدى لقد حصل على زجاجة ويسكى ولم يقل شيئًا، ونزع غطاءها ثم شرب الزجاجة، ليس لدى ترخيص بالشرب هنا، فقلت له.. اسمع، لا يمكنك أن تشرب هنا، لابد أن تذهب إلى الخارج، حسنًا يا سيدى، لقد خرج وأعتقد أن الزجاجة لم تتحمل معه إلا أربع جرعات وفرغت وألقاها بعيدًا واستند إلى الباب، عيناه بليدتان، وقال، شكرًا يا سيدى، ثم ذهب، لم أر سكرًا كهذا فى حياتى».

«ذهب؟ فى أى طريق؟ لابد أن ألحقه».

«حسنًا، سأقول لك ما حدث، لم أر سكرًا كهذا أبدًا ولهذا فقد خرجت وراءه لأراه، لقد ذهب إلى الشمال وعندئذ جاءت سيارة وألقت أنوارها عليه، فخرج إلى الجسر وكانت ساقاه قد بدأتا تتخبطان قليلاً، وكان قد فتح الزجاجة الأخرى بالفعل، لن يكون بعيدًا، ليس بهذه الحالة التى كان عليها».

قال «توم»: «شكرًا لك، لا بد أن أعثر عليه».

«أتريد أن تأخذ قبعته؟».

«أيوه، أيوه سيحتاج إليها، حسنًا، شكرًا لك».

فسأل الرجل الأشيب: «ما حكايته؟ لم يكن يشعر بأى لذة فى الشرب».

«أوه، إنه مبتئس إلى حد ما، حسنًا، مساء الخير، وإذا شاهدت ذلك العيل «كونى» فقل له إننا ذهبنا إلى الجنوب».

«عندى كثيرون مفروض أن أبحث عنهم. أخبرهم بأشياء مختلفة، لا يمكن أن أتذكرهم جميعًا».

فقال «توم»: «لا ترهق نفسك كثيرًا». وخرج من الباب ذى الستائر يحمل قبعة العم «جون» السوداء المعفرة وعبر الطريق الخرسانى ومشى على حافته، كانت «الهوفر فيل» ترقد تحته فى حقل واطئ وقد خفتت أضواء النيران الصغيرة ولمعت النوافذ فى الخيام، ومن مكان ما بالمخيم، جاء صوت جيتار، أنغامه بطيئة، تضرب بلا إيقاع، نغمات تدريب، وقف «توم» وأنصت ثم مشى ببطء على جانب الطريق، يخطو خطوات قليلة ثم يقف لينصت. سار حوالى نصف ميل قبل أن يسمع ما كان ينصت لسماعه،

هناك تحت الجسر جاءه صوت غليظ لا نغم فيه يغنى غناء مرهقًا، وأدار «توم» رأسه ليتمكن من أن يسمع بوضوح أكثر.

وغنى الصوت البليد «أعطيت قلبى ليسوع، فأعادنى يسوع إلى البيت، أعطيت روحى ليسوع، فأصبح يسوع بيتى» وخفتت الغنوة حتى صارت تمتمة ثم توقفت وأسرع «توم» هابطًا الجسر تجاه الأغنية وبعد برهة توقف وأنصت ثانية، كان الصوت قريبًا جدًا هذه المرة، نفس الغناء الخفيض الخالى من النغم» أوه، فى الليلة التى ماتت فيها ماجى، نادتنى إلى جوارها وأعطتنى سراويلها القديمة الحمراء، والفانلة التى كانت ترتديها وقد تهدلت من فوق الركبتين».

وتقدم «توم» بحذر فشاهد خيال الرجل الأسود يجلس على الأرض، فاقترب منه متلصصًا وجلس، ورفع العم «جون» الزجاجة على شفتيه فانساب الشراب مكركرًا من فوهتها.

قال «توم» بهدوء: «هاى، انتظر، أين نصيبى؟».

وأدار العم «جون» رأسه وقال: «من أنت؟».

«هل نسيتنى حالاً، لقد شربت أربع مرات مقابل مرة واحدة لى».

«لا يا «توم»، لا تحاول أن تخدعنى، أنا هنا وحدى، لم تكن هنا».

«حسنًا، أنا هنا الآن بالتأكيد، ما رأيك لو أعطيتنى جرعة».

ورفع العم «جون» الزجاجة ثانية وكركر الويسكى، وهز الزجاجة وكانت فارغة وقال: «لم يعد فيها شىء، عندى رغبة شديدة فى أن أموت، رغبة جامحة، أموت لفترة قليلة، لابد من ذلك، كالنوم، أموت لفترة قليلة، أنا منهك جدًا، منهك، ربما لا أستطيع بعد الآن، وتهدج صوته وهو يقول: «سأرتدى تاجًا، تاجًا ذهبيًا».

قال «توم»: «اسمعنى هنا يا عم «جون» سنرحل، تعال معى وتستطيع أن تنام فورًا فوق الحمولة» وهز «جون» رأسه: «لا، اذهبوا، لن أذهب، سأرتاح هنا، لا فائدة من العودة، لا فائدة فى ذلك لأى إنسان، فأنا أجرجر خطاياى كالسراويل القذرة بين أهل طيبين، لا.. لن أذهب».

«تعال، لا يمكننا أن نذهب إلا إذا ذهبت معنا».

«اذهبوا فى طريقكم، أنا لست طيبًا، لست طيبًا، أجرجر خطاياى فقط وأوسخ كل إنسان».

«ليست لديك خطايا أكثر من أى إنسان آخر».

واقترب «جون» برأسه وغمز بعينيه فى حكمة، كان فى إمكان «توم» أن يرى وجهه فى ضوء النجوم: «لا يعرف أحد خطاياى، لا أحد إلا يسوع، فهو وحده يعرف».

ركع «توم» على ركبتيه ووضع يده على جبين العم «جون»، كانت ساخنة حافلة وأزاح «جون» يده بفظاظة.

وتضرع إليه «توم» قائلاً: «تعال، تعال الآن يا عم (جون)».

«لن أذهب، أنا منهك، سأرتاح فى مكانى هنا، فى مكانى هنا!».

كان «توم» قريبًا منه جدًا ووضع قبضته على حافة ذقنه، وحركها فى قوس صغير مرتين مجربًا من أجل قياس المسافة وعندئذ تطوح بكتفه وضرب الذقن ضربة رقيقة متقنة، واندفعت ذقن «جون» إلى أعلى ووقع إلى الخلف، وحاول أن يجلس ثانية ولكن «توم» كان قد ركع فوقه وعندما استطاع «جون» أن يرفع أحد مرفقيه ضربه «توم» ثانية، فرقد العم «جون» على الأرض بلا حراك.

وقف «توم» وانحنى وحمل الجسم السائب المرتخى وألقاه فوق كتفه

ومشى مترنحًا تحت الثقل السائب، تضرب يد «جون» المتدلية على ظهره وهو يمشى ببطء يصعد الجسر إلى الطريق، ومرت به سيارة كشفته بأنوارها والرجل المرتخى فوق كتفه، وأبطأت لحظة ثم عادت وأسرعت.

كان «توم» يلهث عندما عاد إلى «الهوفر فيل» وقد نزل من على الطريق وسار به إلى سيارة «جود»، وقد بدأ «جون» يفيق وأخذ يقاوم فى ضعف، فأرقده «توم» برفق فوق الأرض.

كانت الخيمة قد انفكت فى أثناء غيابه، ورفع «آل» الرباطات فوق السيارة وبقى المشمع جاهزًا لكى يلف الحمولة.

قال «آل»: «لقد وصل بسرعة فعلاً».

وقال «توم» بلهجة اعتذار: «لقد اضطررت لضربه قليلاً لأجبره على المجيء، يا للرجل المسكين!».

فسألته الأم: «ولكنك لم تؤذه؟».

«لا أظن، ها هو ذا يفيق منها».

كان العم «جون» على الأرض ضعيفًا مريضًا وقد بدأت نوبات القيء تنتابه فى دفقات صغيرة.

قالت الأم: «لقد أبقيت طبق بطاطس لك يا (توم)».

فضحك «توم» بصوت خافت: «ليست لى شهية الآن».

ونادى الأب «آل» قائلاً: «حسنًا، علق المشمع يا (آل)».

كانت سيارة النقل محملة وجاهزة واستغرق العم «جون» فى النوم وسنده «آل» و«توم» ورفعاه إلى أعلى الحمولة، بينما وقف «وينفلد» يقلد صوت القيء خلف السيارة و«روثى» تضع يدها على فمها حتى لا تصيح».

قال الأب: «مستعدون؟».

وسأل «توم»: «أين روزا شارن؟».

فقالت الأم: «ها هى ذى هناك، تعالى يا «روزا شارن»، سنرحل الآن». جلست الفتاة بلا حركة وذقنها فى صدرها، ومشى إليها «توم» وقال: «تعالى» فأجابت دون أن ترفع رأسها «لن أذهب».

«لابد أن تذهبى».

«أريد «كونى»، لن أذهب حتى يعود».

خرجت ثلاث سيارات من المخيم، وصعدت الممر إلى الطريق العام، سيارات قديمة محملة بمهمات المعسكرات والناس، قعقعت حتى صعدت الطريق العام ثم مضت مبتعدة تتراقص أضواؤها الخابية على الطريق.

قال «توم»: «سيجدون «كونى» لقد تركت له كلمة فى المحل عن مكاننا وسيعثر علينا» وجاءت الأم ووقفت بجواره وقالت برقة: «تعالى يا «روزا شارن»، تعالى يا حبيبتى».

«أريد أن أنتظر».

«لا يمكننا أن ننتظر، وانحنت الأم وأخذت الفتاة من ذراعها وساعدتها على الوقوف».

وقال «توم»: «سيعثر علينا، لا تقلقى، سيعثر علينا، ومشيا على جانبى الفتاة».

قالت «روزا شارن»: «ربما قد ذهب ليحصل على تلك الكتب ليذاكر، ربما كان سيفاجئنا».

فقالت الأم: «ربما كان هذا هو ما فعله فعلاً» وقاداها إلى السيارة وساعداها فى الصعود إلى أعلى الحمولة وزحفت تحت المشمع واختفت فى الكهف المظلم.

عندئذ جاء الرجل الملتحى من العشة المصنوعة من الأعشاب، جاء خجلاً إلى السيارة وانتظر بالقرب منها وقد شبك يديه خلفه، وأخيرًا سألهم: «هل ستتركون أى متاع يمكن للمرء أن يستعمله؟».

فقال الأب: «لا أعتقد ذلك، ليس لدينا ما يمكن تركه».

وسأله «توم»: «ألن تترك هذا المكان؟».

وحملق فيه الرجل الملتحى وقتًا طويلاً ثم قال: «أنا عارف، لقد فعلوها من قبل».

«حسنًا لماذا لا تخرج بحق الجحيم؟».

وتطلع الرجل بعينيه المرتبكتين لحظة إلى أعلى ثم خفضهما ثانية وانعكست عليهما أضواء النار الخابية فاحمرتا: «لا أعرف أن تجميع المتاع يتطلب وقتًا طويلاً».

«لن يتبقى لك شىء إذا أحرقوا المعسكر».

«عارف، ألن تتركوا شيئًا يمكن للمرء أن يستعمله؟».

فقال الأب: «أنظف من الصينى» واستدار الرجل الملتحى مبتعدًا فى غموض وسأل الأب: «ما حكايته؟».

فقال «توم»: «جنون البوليس، كان الرجل يقول إنه «تورانى»، لقد ضربوه على رأسه كثيرًا».

وعبرت قافلة صغيرة أخرى المخيم وصعدت الطريق وابتعدت.

«تعال يا أبى، لنمض، اسمع يا أبى، أنت وأنا و«آل» نركب فى المقعد، أمى يمكنها أن تصعد فوق الحمولة... لا، اركبى أنت فى الوسط يا أمى، «آل».. ومد يده تحت المقعد وأحضر مفتاحًا كبيرًا «آل» اصعد أنت فى الخلف خذ هذا معك فى حالة ما إذا حاول أى إنسان أن يتسلق، اضربه به».

أخذ «آل» المفتاح وتسلق العارضة الخلفية ثم جلس شابكًا ساقيه والمفتاح فى يده، وجذب «توم» ذراع الرافعة الحديدية من تحت المقعد ووضعها على الأرضية تحت دواسة الفرامل وقال: «حسنًا، تعالى فى الوسط يا أمى».

قال الأب: «ليس معى شىء فى يدى».

قال «توم»: «يمكنك أن تمد يدك إلى ذراع الرافعة، أرجو ألا تحتاج إليها، من أجل خاطر يسوع!» وداس على المارش فقعقع ودار المحرك ثم توقف، ثم دار ثانية، وأضاء «توم» الكشافات وتحرك من المخيم على سرعة منخفضة، وتراقصت الأضواء الخابية تكشف الطريق، وصعدوا إلى الطريق العام ثم استداروا جنوبًا وقال «توم»: «يأتى وقت يفقد فيه الإنسان صوابه».

فتدخلت الأم وقالت: «توم» قل لى ـ لقد وعدتنى أنك لست كذلك، لقد وعدت.

فقال: «أنا عارف يا أمى، وأنا أحاول ذلك، ولكن رجال الشرطة هؤلاء ـ هل رأيت أبدًا شرطيًا ليس سمين الأرداف؟ وهم يمشون يهزون أردافهم تتحرك حولها مسدساتهم؟ إذا كانوا يدافعون عن القانون... لماذا.... نحن نقبله، ولكنه ليس القانون، إنهم يتلاعبون بأرواحنا، إنهم فقط يحاولون أن يرغمونا على أن نتذلل لهم وأن نزحف على بطوننا كالكلاب المضروبة،

إنهم يحاولون تحطيمنا، يا يسوع المسيح! يا أمى، تأتى لحظة لا يكون فيها أمام الإنسان لكى يحافظ على كرامته إلا أن يهاجم شرطيًا، إنهم يعبثون بكرامتنا».

قالت الأم: «أنت وعدت يا «توم»، هذا ما صار إليه: «برتى بو فلويد»، أنا أعرف أمه لقد آذوه».

أنا أحاول يا أمى، بشرفى أنا أحاول، أنت لا تحبين لى أن أزحف كالكلب المضروب وبطنى على الأرض، هل تقبلين ذلك؟».

«ما زال عندى أمل، لا بد أن تبتعد عن المشاكل يا «توم» فالعائلة تتفتت، لابد أن تبتعد عن المشاكل».

«سأحاول يا أمى، ولكن عندما يحاول أحد من ذوى الأرداف السمينة أن يعبث بى فإن المحاولة ستصبح مهمة شاقة، لو أنه كان حكم القانون لاختلف الأمر، ولكن القانون ليس هو حرق المخيم».

وسارت السيارة ترتج على الطريق، ثم ظهر أمامها صف صغير من الفوانيس الحمراء بعرض الطريق.

قال «توم»: «أظن أنها دورية»، وأبطأ السيارة وأوقفها وفى الحال تجمع حشد من الرجال حول السيارة كانوا مسلحين بالشوم والبنادق ومرتدين خوذات عسكرية، وبعضهم يرتدى قبعات الحرس الوطنى الأمريكى، وأطل واحد منهم من النافذة ففاحت منه رائحة الويسكى الدافئة.

قال وهو يقترب بوجهه الأحمر من وجه «توم»: «إلى أين تظنون أنكم ذاهبون؟».

وتصلب «توم» وزحفت يده إلى الأرضية وبحثت متحسسة عن ذراع الرافعة، فأمسكت الأم بذراعه وتشبثت به فى قوة وقال «توم»: «حسنًا».

ثم اكتسى صوته بنبرة ذليلة نائمة وقال: «نحن غرباء هنا وقد سمعنا أن هناك عملاً فى مكان يدعى تولار».

«حسنًا، اللعنة، أنتم تسيرون فى الطريق الخاطئ، نحن لن نقبل أى «أوكيين» ملاعين فى هذه المدينة.

توترت كتفا «توم» وذراعاه ومرت بجسده رعدة وتعلقت الأم بذراعه. كانت مقدمة العربة محوطة بالرجال المسلحين، وقد ارتدى بعضهم أردية وأحزمة عسكرية لكى يضفوا على أنفسهم مظهرًا عسكريًا.

وقال «توم» بلهجة نائمة: «أين الطريق إذًا يا سيدى؟».

«دُرْ وارجع شمالاً ولا تعد حتى موسم القطن».

وارتعدت كل جوانح «توم» وقال: «نعم يا سيدى» ودار بالسيارة، تقهقر بها ودار إلى الاتجاه الآخر المعاكس وانطلق بها راجعًا فى الطريق الذى أتى منه، وتركت الأم ذراعه وربتت عليه برفق، وحاول «توم» أن يكتم بكاءه المختنق.

قالت الأم: «ولا يهمك، ولا يهمك!».

ونفض «توم» أنفه خارج النافذة ومسح عينيه فى كمه وقال: «أولاد الزوانى!».

فقالت الأم بحنان: «لقد أحسنت صنعًا، لقد أحسنت صنعًا بالفعل».

ودار «توم» بالسيارة فى طريق جانبى مترب، وسار مائة ياردة ثم أطفأ الأنوار وأوقف المحرك وخرج من السيارة يحمل ذراع الرافعة.

فسألته الأم: «إلى أين أنت ذاهب؟».

«سأرى فقط، نحن لن نذهب شمالاً». تحركت الفوانيس الحمراء على الطريق وراقبهم «توم» وهم يعبرون مدخل الطريق الترابى ويستمرون فيه،

وفى لحظات وصلتهم أصوات نداءات وصيحات ثم علا ضوء متوهج من اتجاه الهوفر فيل وازداد الضوء وانتشر، ومن بعيد جاءت أصوات الطقطقة، عاد «توم» إلى السيارة ثانية ودار بها وجرى على الطريق الترابى بدون أنوار ثم على الطريق العام دار إلى الجنوب ثانية وأضاء أنواره».

سألت الأم فى وجل: «إلى أين سنذهب يا توم؟».

قال: «سنذهب إلى الجنوب، لا يمكننا أن نسمح لأولاد الزنى هؤلاء أن يطاردونا، لا يمكن، سنحاول أن ندور حول المدينة دون أن نخترقها».

وتكلم الأب لأول مرة: «أيوه، ولكن إلى أين سنذهب؟ هذا ما أريد أن أعرفه».

فقال «توم»: «سنبحث عن ذلك المخيم الحكومى، قال لى أحدهم إنهم لا يسمحون للشرطة بدخوله، أمى، لابد أن أبعد عنهم، فأنا أخشى أن أقتل واحدًا منهم».

فقالت الأم تهدئه: «اهدأ يا «توم»، اهدأ يا «توم»، لقد أحسنت صنعًا مرة وتستطيع أن تفعل ذلك مرة أخرى».

«أيوه، وبعد فترة لن يتبقى لدى أى كرامة».

فقالت: «اهدأ لا بد أن تصبر، لماذا يا «توم»، نحن الناس الذين سنستمر فى الحياة بعد أن يفنى كل هؤلاء، نحن الناس الذين سنعيش، لن يمحونا من الوجود، لماذا..! نحن الناس، نحن الذين سنستمر».

«نحن الذين نُضرب على الدوام».

فضحكت الأم وقالت «عارفة، ربما كان هذا ما يزيدنا صلابة، الناس الأغنياء يكبرون ويموتون، وأبناؤهم لا نفع فيهم وهم يندمون، أما نحن يا «توم» فنظل أحياء، لا تيأس يا «توم» فستنصلح الأحوال».

«كيف تعرفين؟».

«لا أعرف كيف».

دخلوا المدينة ودار «توم» فى طريق جانبى ليتفادى قلبها ونظر إلى أمه فى ضوء الشارع كان وجهها هادئًا وفى عينيها نظرة غريبة، كانت عيناها كعيون التمثال التى لا تحس بالزمن ومد «توم» يده اليمنى ولمس كتفها، أحس برغبة جامحة لذلك، ثم سحب يده وقال: «لم أسمعك فى حياتى أبدًا تتكلمين مثلما تكلمت».

فقالت: «لم أكن قد رأيت كل هذا».

وقاد السيارة خلال الشوارع الجانبية حتى ترك المدينة ثم عاد ثانية، وعند تقاطع يحمل لافتة: «٩٩» دار إلى الجنوب مرة أخرى.

وقال: «على أى حال لم يستطيعوا أن يسوقونا إلى الشمال، ما زلنا نمضى إلى حيث أردنا، حتى لو اضطررنا أن نزحف».

وسقطت أضواء السيارة الخابية على الطريق الأسود العريض.

الفصل الحادى والعشرون

الناس الرحل الباحثون أصبحوا الآن مهاجرين، تلك العائلات التى عاشت على قطعة صغيرة من الأرض، تعيش وتموت على أربعين فدانًا، تأكل أو تهلك جوعًا من إنتاج هذه الفدادين الأربعين، أصبح الغرب كله أمامهم يهيمون فيه، يضربون فى أرضه بحثًا عن العمل، الطرق العامة صارت أنهارًا من الناس، والمنخفضات على جانبها أصبحت مأواهم، والمزيد منهم على الطريق وراءهم، تدفق الناس الرحل على الطرق العامة الكبرى، هناك فى قلب الغرب وجنوبه عاش قوم بسطاء من الزراع لم تغيرهم الصناعة، لم يستخدموا الآلات فى الزراعة، ولم يعرفوا قوة وخطر الملكية الخاصة للآلات، لم ينشأوا فى ظل تناقضات الصناعة ومفارقاتها لم تكن مفارقات الحياة الصناعية قد أماتت مشاعرهم.

ثم.. فجأة طردتهم الآلات، فاحتشدوا على الطرق العامة، غيرهم الرحيل، غيرتهم الطرق، والمخيمات على جوانب الطرق، والخوف من الجوع، والجوع نفسه، غيرهم مبيت الأطفال بلا عشاء، غيرتهم الحركة التى لا نهاية لها، أصبحوا مهاجرين، غيرتهم العداوة، فتلاحموا وتوحدوا ـ هذه العداوة التى جعلت المدينة الصغيرة تتجمع وتتسلح كأنها ستصد غازيًا ـ فصائل مسلحة بالشوم، الكتبة والبقالون، بالبنادق يحرسون الناس ضد أهليهم.

وعندما تضاعف المهاجرون على الطرق تملك الغرب الفزع، الناس ذوو الملكية خافوا على ملكياتهم، الذين لم يجوعوا أبدًا، رأوا نظرات الجوع، والذين لم يعرفوا وطأة الحاجة رأوا لهيبها فى عيون المهاجرين، وتجمع الناس فى المدن، وفى الضواحى الريفية الناعمة، تجمعوا ليدافعوا عن أنفسهم وأقنعوا أنفسهم أنهم طيبون والغزاة أشرار، كما يفعل كل إنسان قبل أن يحارب، قالوا: «هؤلاء الأوكيون الملاعين أوساخ جهلة، إنهم منحلون، وعندهم شذوذ جنسى، هؤلاء الأوكيون الملاعين، لصوص، سيسرقون أى شىء، ليس لديهم أى إحساس بحق الملكية.

وهذه الصفة الأخيرة كانت صادقة، إذ كيف يمكن أن يعرف الذى لا ملكية له معاناة الملكية؟ ويقول المدافعون: «سيأتون بالمرض، إنهم موبوءون لا يمكن أن ندخلهم المدارس، إنهم غرباء، هل تحب أن تخرج أختك مع واحد منهم؟».

وأذاب السكان المحليون أنفسهم فى قالب من القسوة، شكلوا الوحدات والفصائل وسلحوها، سلحوها بالهراوات، بقنابل الغاز، بالبنادق، نحن نملك الأراضى، لا يمكن أن نسمح لهؤلاء الأوكيين بأن يفلتوا من سيطرتنا، ولم يكن الرجال المسلحون يملكون الأرض ولكنهم ظنوا أنهم يملكونها، والكتبة الذين يتدربون على القتال فى المساء لا يملكون شيئًا، كما لا يملك أصحاب المحلات الصغيرة إلا درجًا مليئًا بالديون، ولكن حتى الوظيفة لها كيان، وحتى الديون لها كيان، فالكاتب يفكر هكذا: أنا أحصل على خمسة عشر دولارًا فى الأسبوع، افترض أن واحدًا من هؤلاء الأوكيين اشتغل باثنى عشر دولارًا، وصاحب المحل الصغير يقول: كيف يمكننى أن أتنافس مع رجل بلا ديون؟.

ويتدفق المهاجرون على الطرق والجوع فى عيونهم والحاجة فى

نظراتهم، ليس لديهم لا منطق ولا نظام، إلا دموعهم وحاجاتهم، عندما يوجد عمل لرجل واحد، يتقاتل من أجله عشرة رجال، وسلاحهم الأجر المنخفض، فإذا كان العمل يساوى ثلاثين سنتًا، فإنه يؤدى نظير خمسة وعشرين.

إذا كان سيتقاضى خمسة وعشرين، سأقوم به مقابل عشرين.

لا، أنا، أنا جائع، سأعمل مقابل خمسة عشر، سأعمل مقابل طعامى، ينبغى أن ترى الأطفال، الدمامل الصغيرة تملأهم وهم لا يستطيعون اللعب، اعطهم بعض الفاكهة مما تسقطه الريح، سيسمنون، أنا، أنا سأعمل مقابل قطعة صغيرة من اللحم.

وكان هذا حسنًا، فالأجور تنخفض والأسعار تظل مرتفعة، والملاك الكبار سعداء بهذا، يوزعون المزيد من الإعلانات لكى يأتى المزيد من الناس، والأجور تنخفض والأسعار تظل مرتفعة، وسرعان ما سيصبح عندنا أقنان مرة أخرى.

ثم اخترع الملاك الكبار والشركات وسيلة جديدة، يشترى المالك الكبير مصنع تعليب، وعندما ينضج الخوخ والكمثرى يخفض سعر الفاكهة إلى أقل من تكلفة زراعتها، وهكذا يدفع لنفسه، كمالك لمصنع تعليب، يدفع سعرًا منخفضًا للفاكهة ويحافظ على سعر البضائع المعلبة عاليًا ويحصل هو على الأرباح، والمزارعون الصغار الذين لا يملكون مصانع تعليب يفقدون مزارعهم، ويستولى عليها الملاك الكبار والبنوك والشركات التى تملك مصانع تعليب أيضًا، وبمرور الوقت يقل عدد المزارع، ويرحل المزارعون الصغار إلى المدينة، يستنفدون أرصدتهم ويستنفدون أصدقاءهم ويستنفدون أقاربهم، ثم يمضون هم أيضًا على الطرق، وتزدحم الطرق بالناس المتعطشين للعمل ويتقاتلون من أجله.

والشركات والبنوك تسعى لحتفها دون أن تدرى، كانت الحقول خصبة والرجال على الطرق تهلك جوعًا، الصوامع ملآنة والأطفال تكبر مصابة بالكساح ودمامل البلاجرا تملأ جنوبهم، والشركات الكبيرة لا تدرى أن الخيط الذى يفصل الجوع من الغضب خيط رفيع، والنقود التى يجب أن تنفق فى الأجور، أنفقت فى الغاز والبنادق، فى العملاء والجواسيس، فى القوائم السوداء، فى التدريب على القتال، وعلى الطريق يتحرك الناس كالنمل يبحثون عن العمل، عن الطعام، وقد بدأ الغضب يختمر فيهم.

الفصل الثانى والعشرون

كان الوقت متأخرًا حين قاد «توم جود» سيارته عبر طريق ريفى يبحث عن مخيم «ويد باتش»، كانت هناك أضواء قليلة فى الريف المحيط بهم، ولم يكن يبين موقع ماكرسفيلد خلفهم إلا وهج منعكس على السماء، ومضت سيارة النقل تهتز بطيئة، تفر القطط البرية من على الطريق أمامها، وعند أحد تقاطع الطرق قامت مجموعة صغيرة من المنازل الخشبية البيضاء.

كانت الأم نائمة فى مقعدها، وجلس الأب صامتًا ومستغرقًا لوقت طويل.

قال «توم»: لست أعرف أين هذا المخيم، ربما انتظرنا حتى يطلع النهار لنسأل أحدهم»، ووقف عند إحدى علامات الطريق ووقفت سيارة عند تقاطع الطريق فأطل «توم» خارجًا: «هه، يا سيدى، أتعرف أين يوجد المخيم الكبير؟».

«أمامنا مباشرة».

ودار «توم» بالسيارة فى الاتجاه المقابل وسار بضع مئات من الياردات ثم توقف، فى مواجهة الطريق قام حاجز عال من السلك انفتحت فيه بوابة واسعة للسيارات، وعلى بعد قليل من البوابة منزل صغير يشع الضوء

من أحد نوافذه، ودار «توم» بالسيارة ليدخل فقفزت كلها فى الهواء ثم انحطت مرة ثانية.

فقال «توم»: «يا يسوع!، لم أر هذا المرتفع إطلاقًا».

ووقف حارس من فوق المدخل الخارجى ومشى إلى السيارة وارتكز على أحد جوانبها وقال: «لقد قدتها بسرعة، فى المرة القادمة خذها على مهل».

«ماذا هذا بالله؟».

فضحك الحارس: «حسنًا لقد لعب عدد من الأطفال هنا، وأنت تطلب من الناس أن يسيروا ببطء ولكنهم غالبًا ما ينسون، ولكن دعهم يصطدمون بهذه الكومة مرة ولن ينسوا مرة أخرى».

«أوه، إيه، أرجو ألا يكون قد تحطم منى أى شىء، قل لى، هل لديكم أى مكان لنا هنا؟».

«لدينا مكان لخيمة واحدة كم عددكم؟»

عد «توم» على أصابعه وهو يقول: «أنا والأب والأم و«آل» و«روزا شارن» والعم «جون» و«روثى» و«وينفلد»، والأخيران طفلان».

«حسنًا، أعتقد أن فى إمكاننا أن نقبلكم، ألديكم أى أدوات تعسكرون بها؟»

«لدينا فراش ومشمع كبير».

وصعد الحارس إلى الرفرف وقال: «سق إلى آخر هذا الصف ثم در يمينًا، ستكونون فى وحدة النظافة رقم ٤».

«ما هذا؟».

«مراحيض وأدشاش وأحواض غسيل».

فسألت الأم: «ألديكم أحواض غسيل وماء جار؟».

«بالتأكيد».

فقالت الأم: «أوه، الحمد لله».

وساق «توم» السيارة عبر صف معتم طويل من الخيام، كان هناك ضوء خافت يضيء فى مبنى النظافة وقال الحارس: قف هنا إنه مكان جميل، الناس الذين كانون فيه تركوه حالاً.

وأوقف «توم» السيارة وسأل: «هنا تمام؟».

«أيوه، والآن دع الآخرين يفرغون السيارة بينما أسجلكم، لابد أن أنام، ستستدعيكم لجنة المخيم فى الصباح وتسجلكم».

وضاقت عينا «توم» وهو يسأل: «البوليس؟».

ضحك الحارس وقال: «لا يوجد بوليس، لدينا بوليسنا الخاص، الناس هنا ينتخبون شرطتهم، تعال».

وقفز «آل» من فوق السيارة ودار حولها وسأل: «أسنقيم هنا؟».

فقال «توم»: «أيوه، فرّغا السيارة أنت وأبى، وسأذهب أنا إلى المكتب».

قال الحارس: «لا تثيروا ضجة فالكثيرون نيام».

تبعه «توم» فى الظلام وصعد سلالم المكتب ودخل غرفة ضيقة بها مكتب قديم وكرسى وجلس الحارس على المكتب وأخرج استمارة.

«الاسم؟».

«توم جود».

«أهذا أبوك؟»

«أيوه».

«ما اسمه؟».

«توم جود أيضًا».

واستمرت الأسئلة: «من أين، إلى أين، منذ متى وأنتم فى الولاية، أى عمل سابق؟ ورفع الحارس بصره وقال: «لست فضوليًا، وإنما يجب أن نحصل على هذه المعلومات».

فقال «توم»: «بالتأكيد».

«والآن، ألديكم أى نقود».

«القليل منها».

«لستم معدمين؟».

«لدينا القليل، لماذا؟».

«حسنًا إن مكان الإقامة يتكلف دولارًا فى الأسبوع ولكنكم تستطيعون العمل مقابله وتحملون القمامة، تحافظون على نظافة المخيم، أشياء من هذا القبيل»..

فقال «توم»: «سنعمل مقابل الإيجار».

«سترى اللجنة غدًا، سيشرحون لكم كيف تتصرفون فى المخيم، ويحيطونكم علمًا باللوائح».

قال «توم»: «قل لى... ما هذه؟ ما طبيعة هذه اللجنة؟».

واضطجع الحارس إلى الخلف وقال: «إنها تعمل بطريقة جميلة جدًا، هناك خمس وحدات نظافة لكل أن تنتخب مندوبًا للجنة المركزية، وهذه اللجنة هى التى تسن القوانين وما تقوله ينفذ».

فقال «توم»: «وافرض أنهم أساءوا استخدام سلطتهم؟».

«حسنًا تستطيع أن تسحب الثقة منهم بنفس السرعة التى أعطيتها لهم، لقد قاموا بعمل طيب، سأقول لكم ما قاموا به، أتعرف وعاظ «الهولى رولار» الذين يتبعون الناس طوال الوقت يعظونهم ويجمعون التبرعات؟ حسنًا لقد أرادوا أن يقدموا عظاتهم فى هذا المعسكر وكثير من المسنين كانوا يريدونهم وهكذا كان على اللجنة المركزية أن تقرر.. فاجتمعت وهاك ما قرروه، قالوا أى واعظ يمكنه أن يوعظ فى هذا المعسكر. ولكن ليس لأحد أن يجمع تبرعات فى هذا المعسكر، وكان هذا محزنًا للناس المسنين، فمنذ ذلك الوقت لم يحضر أى واعظ.

وضحك «توم» ثم سأله: «أتقصد أن الرجال الذين يديرون المخيم مجرد رجال مقيمين هنا؟».

«فعلاً، هكذا يدار المخيم».

«لقد تكلمت عن شرطة خاصة».

اللجنة المركزية تحفظ النظام وتسن اللوائح، ثم هناك السيدات سيذهبن إلى أمك وسيعتنين بالأطفال ويراقبن حالة وحدات النظافة، وإن لم تكن أمك تعمل فستعتنى بأطفال اللاتى يعملن، وعندما تحصل على عمل ستكون هناك أخريات، إنهن يشتغلن بالخياطة، وتأتى إحدى الممرضات وتعلمهن، وكل ما شابه ذلك من أمور».

«أتريد أن تقول إنه لا يوجد بوليس؟!».

«لا يا سيدى لا يمكن لأى شرطى أن يدخل هنا بدون أمر رسمى».

«حسنًا، افرض أن هناك رجلاً شريرًا، أو سكيرًا ويميل للشجار، ما العمل فى هذه الحالة؟».

وغرس الحارس قلمه فى ورقة النشاف وقال: «حسنًا فى المرة الأولى تنذره اللجنة المركزية، وفى المرة الثانية ينذرونه إنذارًا جديًا، وفى المرة الثالثة يطردونه من المخيم».

«يا إلهى القدير، أنا لا أكاد أصدق هذا، الليلة فقط قام البوليس ورجال ذوو قلانس عسكرية بإحراق المخيم بجوار النهر».

فقال الحارس: «إنهم لا يدخلون هنا، فى بعض الليالى يحرس الفتيان الأسوار.. خصوصًا فى ليالى الرقص».

«ليالى الرقص؟ يا يسوع المسيح!».

«لدينا أحسن حفلات رقص فى الإقليم كل ليلة سبت».

«حسنًا، بحق المسيح، لِمَ لا توجد أماكن كثيرة كهذا المكان؟».

تجهم الحارس وقال: «ستكتشف ذلك بنفسك، لابد أن أحصل على قسط من النوم».

قال «توم»: «أسعدت مساءً، ستحب أمى هذا المكان، فلم تحظ بالمعاملة الكريمة منذ وقت طويل».

قال الحارس: «أسعدت مساء يجب أن ننام فهذا المخيم يستيقظ مبكرًا».

مشى «توم» فى الشارع بين صفوف الخيام وقد بدأت عيناه تتعودان ضوء النجوم، لاحظ أن صفوف الخيام كانت مستقيمة ولا توجد قمامة حولها، وقد كنست أرض الشارع ورشت، وتصاعد من الخيام شخير النائمين، كل المخيم يطن ويشخر، مشى «توم» ببطء واقترب من وحدة النظافة رقم ٤ ونظر إليها بفضول، مبنى بدون طلاء، واطئ وخشن، وأسفل

السقف، وبدون جوانب، توجد صفوف أحواض الغسيل، ورأى سيارة الأسرة تقف بالقرب منها فسار بهدوء إليها.

كان المشمع قد شد، والخيمة هادئة، وحين اقترب منه تحرك شبح من ظل السيارة وجاء نحوه.

قالت الأم بصوت خافت: «أهذا أنت يا (توم)؟».

«أيوه..».

فقالت: «هس، الكل نيام، فهم منهكون».

فقال «توم»: «كان يجب أن تنامى أيضًا».

«حسنًا.. أردت أن أراك هل كل شىء على ما يرام؟».

فقال «توم»: «جميل، لن أقول لك شيئًا، سيقولون لك فى الصباح، ستحبين هذا المكان».

فهمست: «سمعت أن لديهم ماء ساخنًا؟».

«أيوه، والآن اذهبى لتنامى، لا أعرف متى نمت آخر مرة».

فألحت قائلة: «ما الذى لن تقوله لى؟».

«لن أقول، لابد أن تنامى».

وفجأة، قالت وكأنها فتاة صغيرة «كيف يمكننى أن أنام بينما أنا أفكر فيما لم تقله لى؟».

فقال «توم»: «لا لن تعرفى، أول شىء تفعلينه فى الصباح هو أن ترتدى رداءك الآخر ثم... ستعرفين كل شىء».

«لا أستطيع النوم وشىء كهذا معلق فوق رأسى».

وضحك «توم» فى سعادة وقال: «لابد أن تنامى، لابد لك من ذلك».

فقالت الأم برفق: «أسعدت مساء» ثم انحنت واندست تحت المشمع المظلم.

وتسلق «توم» العارضة الخلفية للسيارة ورقد على ظهره على الأرضية الخشبية، وقد توسدت رأسه يديه المتشابكتين وضغط بساعديه على أذنيه، وازداد الليل برودة، فزرر «توم» معطفه فوق صدره ونام ثانية، كانت النجوم واضحة متألقة فوق رأسه.

كانت الدنيا لا تزال ظلامًا عندما استيقظ، أيقظه من نومه صوت ارتطام صغير، وأنصت «توم» ثانية ـ وسمع صوت الحديد على الحديد، تحرك متصلبًا مرتعشًا فى نسيم الصباح ولا يزال المخيم نائمًا، وقف ونظر عبر جانب السيارة، كانت الجبال الشرقية داكنة زرقاء اللون، ولاحظ أن الضياء خلفها بدا خافتًا، فتلونت حوافى الجبال بحمرة ذابلة، ثم تزداد السماء برودة، وعتمة، وظلامًا وهى تمر فوق رأسه حتى تستحيل فى مكان قريب من الأفق الغربى إلى ليل حالك، أما فى الوادى فقد كانت الأرض رمادية زرقاء بلون الفجر.

وعاد صوت ارتطام الحديد ثانية، ونظر «توم» إلى صف الخيام التى بدت أفتح قليلاً من الأرض الرمادية، وبجوار إحدى الخيام رأى بريق نار برتقالية يتسرب من الشقوق فى أحد الأفران الحديدية القديمة، وقد تصاعد الدخان الرمادى من مدخنة قصيرة غليظة.

تسلق «توم» جانب السيارة وهبط إلى الأرض وتحرك ببطء تجاه الفرن، شاهد فتاة تعمل بجواره ورأى أنها تحمل طفلاً على ذراعها المنثنى، كان الطفل يرضع ورأسه تحت بلوزتها والفتاة تتحرك تقلب النار، وتزيح أغطية الفرن الصدئة لكى تعدل فتحة باب الفرن، والطفل يرضع طول الوقت، والأم تنقله بحذق من ذراع إلى الذراع الأخرى، لم يعقها الطفل عن عملها،

أو عن حركاتها الرشيقة السريعة، وخرجت ألسنة اللهب البرتقالية من شقوق الفرن فألقت ظلالاً راقصة على الخيمة.

تحرك «توم» مقتربًا وشم رائحة لحم مقدد مقلى وخبز طازج، ومن الشرق تزايد انسياب الضياء واقترب «توم» من الفرن ومد يديه نحوه ونظرت إليه الفتاة وأومأت برأسها فاهتزت ضفيرتاها.

قالت: «صباح الخير» وقلبت اللحم فى الطاسة.

وانفرج مصراع الخيمة وخرج منها شاب صغير، وتبعه رجل أكبر سنًا كانا يرتديان بنطلونات من التيل الأزرق، ومعاطف من التيل مفرودة بالحشو، تلمع أزرارها النحاسية، كان وجهاهما حادى التقاطيع، يشبهان بعضهما كثيرًا، للأصغر منهما لحية صغيرة قصيرة سوداء، بينما للأكبر لحية قصيرة بيضاء، رأساهما ووجهاهما مبللان والماء يقطر من شعرهما وقد تعلقت حباته على شعر الذقن الخشن.

ولمعت وجناتهما المبتلة، ووقفا معًا ينظران فى هدوء إلى الشرق المضيء، وتثاءبا معًا وهما يراقبان الضياء على حواف التل ثم استدارا فرأيا «توم».

قال الرجل الأكبر سنًا: «صباح الخير» ولم تكن سيماء وجهه صدوقة ولا معادية.

قال «توم»: «صباح الخير».

وقال الرجل الأصغر: «صباح الخير».

جف الماء ببطء على وجهيهما واقتربا من الفرن يدفئان أيديهما فوقه، وظلت الفتاة فى عملها وقد أنزلت الطفل مرة على الأرض وربطت ضفيرتيها معًا بخيط خلف رأسها، فأخذتا تقفزان وتتطوحان فى أثناء

عملها، وصفت أكوابًا من الصاج على صندوق شحم كبير، ثم وضعت أطباق صاج وسكاكين وشوكًا، ثم أخرجت اللحم من الشحم الذائب ووضعته على صينية من الصاج فطقطق اللحم ونشنش وهو يجف، ثم فتحت باب الفرن وأخرجت طاسة مربعة مليئة بقطع من البقسماط الكبيرة الضخمة.

وعندما فاحت رائحة البقسماط فى الهواء تشمم الرجلان الهواء بعمق وقال الأصغر بصوت خافت: «يا يسوع!».

عندئذ قال الرجل الأكبر لـ «توم»: «هل تناولت إفطارك؟».

«حسنًا، لا، لم أتناوله، ولكن جماعتى هناك، لم يستيقظوا بعد، فهم فى حاجة إلى النوم».

«حسنًا، اجلس معنا إذًا، لدينا الكثير والحمد لله».

فقال «توم»: «لماذا، شكرًا لك، إن رائحتها جميلة حتى أننى لا أستطيع أن أرفض دعوتك».

فسأل الأصغر: «أليست كذلك فعلا؟ هل شممت شيئًا جميلاً مثل هذا فى حياتك؟». ومشوا إلى الصندوق وتربعوا حوله.

سأل الرجل الأصغر: «أتعمل فى هذه الأنحاء؟».

فقال «توم»: «نحن نسعى لذلك، لقد جئنا الليلة الماضية فقط، لم تكن أمامنا فرصة للبحث عن عمل».

فقال الرجل الأصغر: «لقد حصلنا على اثنى عشر يومًا من العمل».

قالت الفتاة وهى تعمل عند الفرن: «لقد حصلوا حتى على ملابس جديدة». ونظر كلا الرجلين إلى ملابسه الزرقاء المفرودة وابتسما فى

خجل، ووضعت الفتاة طبق اللحم والبقسماط الكبير البنى اللون وسلطانية من صلصة اللحم وبراد قهوة ثم تربعت بجوار الصندوق هى الأخرى، والطفل لا يزال يرضع ورأسه تحت بلوزتها.

ملأوا أطباقهم وصبوا الصلصة على البقسماط ووضعوا سكرًا على قهوتهم.

وملأ الرجل الأكبر فمه وأخذ يمضغ ويمضغ ثم ابتلع ما مضغه وقال: «يا إلهى القدير، هذا عظيم، ثم ملأ فمه ثانية.

وقال الرجل الأصغر: «أثنا عشر يومًا ونحن نأكل طعامًا جيدًا، لم تفتنا وجبة فى الاثنى عشر يومًا ـ ولا واحد منا، نعمل ونحصل على أجرنا ونأكل» وعاد يأكل ثانية كالملهوف، وملأ طبقه من جديد، شربوا القهوة الملتهبة وألقوا برواسبها على الأرض وملأوا أكوابهم من جديد.

بدأ الضياء يتلون بلمعان محمر وتوقف الأب والابن عن الأكل، كان وجهاهما ناحية الشرق وقد أضاءهما نور الفجر وانعكست على عيونهما صورة الجبال، والضياء يغمرهما، عندئذ ألقيا ببقايا كوبيهما على الأرض ووقفا معًا.

قال الرجل الأكبر: «لابد أن نذهب».

واستدار الرجل الأصغر إلى «توم» وقال: «اسمع، نحن نمد بعض المواسير فإذا كنت ترغب فى أن تأتى معنا فإن فى إمكاننا أن نصحبك».

فقال «توم»: «حسنًا، هذا شىء جميل جدًا منكما، وأنا شاكر لكما جدًا هذا الإفطار».

فقال الرجل الأكبر: «نحن سعداء بصحبتك وسنحاول أن نجد لك عملاً إذا أردت».

فقال «توم»: «أنت مصيب تمامًا فيما تقول، أنا أحتاج إلى العمل فعلاً، فقط انتظر دقيقة حتى أقول لعائلتى». وأسرع إلى خيمة الأسرة وانحنى مطلاً داخلها، وفى العتمة تحت المشمع رأى الأجساد النائمة المكدسة ولكن حركة صغيرة بدأت بين الأغطية، وخرجت «روثى» وهى تتلوى كالثعبان وقد انسدل شعرها على عينيها وتثنى رداؤها وتكرمش، زحفت بحذر حتى خرجت، كانت عيناها الرماديتان صافيتين هادئتين بعد النوم، لا أثر فيهما للشقاوة، وتحرك «توم» بعيدًا عن الخيمة وأشار إليها لتتبعه وعندما التفت لها تطلعت إليه فقال: «يا إلهى، إنك تكبرين».

فالتفتت بعيدة وقد ارتبكت فجأة وقال «توم»: «اسمعى ـ لا توقظى أحدًا. ولكن عندما ينهضون قولى لهم إننى وجدت فرصة للعمل وإننى ذهبت له، قولى لأمى إننى تناولت إفطارى مع بعض الجيران، أتسمعيننى؟».

أومأت «روثى» برأسها والتفتت بعيدًا وكانت عيناها عينى فتاة لا طفلة وحذرها «توم» قائلاً: «لا توقيظهم». ثم أسرع عائدًا إلى أصدقائه الجدد واقتربت «روثى» بحذر من وحدة النظافة وانسلت داخلة من بابها المفتوح.

كان الرجال فى انتظار عودة «توم» وقد جرجرت السيدة الصغيرة مرتبة ووضعت الطفل فوقها بينما أخذت تنظف الأطباق.

قال «توم»: «أردت أن أخبر أهلى أين أنا، لم يستيقظوا بعد». وسار ثلاثتهم فى الشارع بين الخيام.

بدأت الحياة تدب فى المخيم وجلست النسوة يعملن عند النيران التى أشعلنها، يقطعن اللحم ويخبزن خبز الصباح، بينما الرجال يحومون حول الخيام والسيارات، كانت السماء وردية اللون الآن، ووقف أمام المكتب

رجل نحيل عجوز فى يده شوكة يسوى بها الأرض بعناية، كان يسحب شوكته على الأرض بطريقة تركت آثارها الدقيقة مستقيمة وعميقة.

قال الشاب، وهم يمرون به: «لقد بدأت مبكرًا يا أبى».

«أيوه، أيوه، لابد أن أفى دينى».

فقال الشاب: «دين، يا للجحيم، لقد سكر فى السبت الماضى وأخذ يغنى فى خيمته طول الليل وقد عاقبته اللجنة بالعمل بسبب هذا». مشوا على حافة الطريق الذى كسته زيوت السيارات وقد نما قليل من أشجار الجوز على جانبيه، وبرزت الشمس بحافتها فوق الجبال.

قال «توم»: «أليس هذا غريبًا؟ لقد أكلت إفطاركم ولم أقل لكم اسمى ولا أنتم ذكرتم أسماءكم. أنا (توم جود)».

ونظر إليه الرجل الأكبر ثم ابتسم قليلاً وقال: «أنت حديث عهد بهذا المكان؟».

«فعلاً.. يومان فقط».

«لقد أدركت ذلك، شىء ظريف أن تحتفظ بعادة ذكر اسمك، لم يعد الكثيرون يفعلون ذلك، مجرد صحاب، رجال، حسنًا يا سيدى، أنا (تيموثى ولاس)، وهذا ابنى (ويلكى)..».

فقال «توم»: «تشرفى معرفتكم، هل أنتم هنا منذ وقت طويل؟».

فقال «ويلكى»: «عشرة شهور، جئنا هنا فى أعقاب السيول فى العام الماضى، يا يسوع!! لقد رأينا أيامًا! أيامًا! هلكنا تقريبًا من الجوع». كانت أقدامهم تضرب على الطريق ومرت بهم سيارة نقل محملة بالرجال وقد استغرق كل رجل فى أفكاره وكوّم نفسه فى السيارة متجهمًا.

قال «تيموثى»: «ذاهبون إلى شركة الغاز، هناك عمل جيد».

فقال «توم» مقترحًا: «فى إمكانى أن آخذ سيارتنا».

انحنى «تيموثى» على الأرض والتقط جوزة خضراء وقال: «لا». وفحص الجوزة بإبهامه ثم صوبها ناحية طائر أسود يجلس فوق السور السلك، فطار الطائر ومرت الجوزة تحته ثم عاد واستقر على السلك وأخذ يسوى ريشه الأسود بمنقاره.

سأل «توم»: «أليس لديكم سيارة؟».

سكت كلاهما، وحين نظر «تـوم» إلى وجهيهما لاحظ أنهما خجلان.

قال «ويلكى»: «المكان الذى نعمل فيه على بعد ميل واحد فقط من هنا».

وقال «تيموثى» بغضب: «لا، ليس لدينا سيارة، لقد بعنا سيارتنا، اضطررنا إلى ذلك، فرغ طعامنا وفرغ كل شيء ولم نستطع الحصول على عمل، هناك رجال يأتون كل أسبوع يشترون السيارات، يأتون هنا فإذا كنت جائعًا فسيشترون سيارتك وإذا كنت جائعًا جدًا فلن يدفعوا فيها شيئًا، وقد كنا جائعين جدًا ودفعوا لنا فيها عشرة دولارات». وبصق على الطريق.

قال «ويلكى» بهدوء: «كنت فى باكرسفيلد فى الأسبوع الماضى وقد رأيتها موضوعة فى مخزن سيارات مستعملة، موضوعة هناك وعليها لافتة بخمسة وسبعين دولارًا».

قال «تيموثى»: «كان لابد لنا من ذلك فلم يكن أمامنا إلا أن نجعلهم يسرقون سيارتنا أو نسرق نحن شيئًا منهم، ونحن لم نضطر إلى السرقة بعد، ولكن عليهم اللعنة، كنا فى مأزق».

قال «توم»: «أتعرف، قبل أن نترك بيتنا سمعنا أن هناك عملاً كثيرًا هنا ورأينا إعلانات تطلب من الناس الحضور».

فقال «تيموثى»: «أيوه، لقد رأيناها نحن أيضًا، ولكن لا يوجد هنا عمل كثير والأجور تنخفض بشكل مستمر، لقد تعبت من كثرة التفكير فى الحصول على طعام».

فقال «توم»: «إنكما تعملان الآن».

«أيوه، ولكن ذلك لن يستمر طويلاً، نحن نعمل عند رجل طيب لديه قطعة أرض صغيرة ويعمل معنا، ولكن يا للجحيم إن ذلك لن يستمر طويلاً».

فقال «توم»: «لماذا إذًا بحق الجحيم تأخذاننى معكما، سأقصر المدة؟ لماذا تذبحون رقابكم بأنفسكم؟».

وهز «تيموثى» رأسه ببطء: «لا أعرف، ليس عندى عقل فيما أعتقد، لقد فكرنا أن نحصل على قبعة لكل منا، ولكننى أعتقد أن ذلك ليس ممكنًا، هذا هو المكان هناك على اليمين، عمل جيد أيضًا تحصل على ثلاثين سنتًا فى الساعة والرجل الذى نعمل عنده طيب وصدوق».

وداروا تاركين الطريق العام ومشوا فى طريق مفروش بالحصى عبر بستان خلفى صغير، وخلف الأشجار وصلوا إلى منزل ريفى أبيض صغير وبعض الأشجار الظليلة وحظيرة، وخلف الحظيرة كرم وحقل قطن، وعندما مر الرجال الثلاثة بالبيت انفتح باب ذو ستائر ونزل على السلالم الخلفية رجل ربعة لوحته الشمس، كان يرتدى مظلة ورقية واقية من الشمس وقد أخذ يشمر أكمامه وهو يعبر الفناء وقد قطب حاجبيه اللذين لوحتهما الشمس، أحالت الشمس وجنتيه إلى لون أحمر كلحم البقر.

قال «تيموثى»: «صباح الخير يا مستر توماس».

فقال الرجل بعصبية: «صباح الخير».

فقال «تيموثى»: «هذا «توم جود»، لقد فكرنا أنه ربما أمكنك أن تستخدمه».

وعبس توماس فى وجه «توم» ثم ضحك ضحكة قصيرة وإن ظل حاجباه مقطبين: «أوه فعلاً، سأستخدمه، سأستخدم كل إنسان، وربما استخدمت مائة رجل».

فبدأ «تيموثى» يقول معتذرًا: «لقد فكرنا فقط...»

وقاطعه توماس: «نعم، وأنا أيضًا كنت أفكر». ثم استدار وواجههم وقال: «عندى ما أقوله لكم، لقد كنت أدفع لكم ثلاثين سنتًا فى الساعة، صحيح؟».

«لماذا.. فعلاً. ولكن يا مستر توماس».

«وكنت أحصل على عمل مقابل الثلاثين سنتًا». وشبك يديه الخشنتين مع بعضهما: «ونحن نحاول أن نؤدى عملنا على أكمل وجه طول اليوم».

«طيب، اللعنة، اليوم ستحصلون على خمسة وعشرين سنتًا فى الساعة، وإما أن تقبلوها أو تتركوا العمل» وازداد وجهه احمرارًا من الغضب.

قال «تيموثى»: «لقد أدينا لك عملاً جيدًا، أنت نفسك قلت هذا».

«أنا عارف، ولكن يبدو أنه لم يعد من حقى أن استخدم عمالى بنفسى». ثم ابتلع ريقه وقال: «اسمع، أنا أملك خمسة وستين فدانًا هنا، هل سمعت عن اتحاد المزارعين؟».

«لماذا؟ بالتأكيد سمعنا».

«حسنًا، أنا عضو فيه، كان عندنا اجتماع أمس، والآن هل تعرفون من الذى يدير اتحاد المزارعين؟ سأقول لكم، بنك الغرب، هذا البنك يملك معظم أراضى الوادى، ويملك كمبيالات على كل مالاً يملكه، وهكذا قال لى عضو البنك: أنت تدفع ثلاثين سنتًا فى الساعة من المستحسن أن تخفضها إلى خمسة وعشرين، فقلت: لدى رجال طيبون، وهم يستحقون الثلاثين، فقال: ليست هذه هى القضية، الأجر الآن خمسة وعشرون فإذا أنت دفعت ثلاثين فذلك سيسبب القلاقل، ثم قال لى: وبالمناسبة، هل ستحتاج إلى القرض المعتاد لتمويل محصولك فى العام القادم؟» وتوقف توماس عن الكلام وأنفاسه لاهثة: «أترون؟ الفية الآن خمسة وعشرون سنتًا، أو ما يشبه ذلك؟».

فقال «تيموثى» بلا حول: «نحن نؤدى عملنا على أكمل وجه».

«ألم تفهم بعد؟ «المستر بنك» يستخدم ألفين من الرجال وأنا أستأجر ثلاثة، ولدى كمبيالة حان موعدها، والآن إذا كنتم تستطيعون أن تجدوا لى مخرجًا، بحق المسيح سأنفذه، لقد أحاطوا بى».

فهز «تيموثى» رأسه وقال: «لست أعرف ماذا أقول».

«انتظروا هنا» ومشى توماس مسرعًا إلى البيت واصطفق الباب خلفه وعاد فى لحظة وهو يحمل صحيفة فى يده: «هل رأيت هذه؟ اسمع، سأقرأها: الأهالى يستفزهم المهيجون المتجاوزون فيحرقون مخيمًا للمغتصبين أمس قامت جماعة من الأهالى الذين استفزتهم أعمال الإثارة الدائرة فى مخيم المغتصبين فأحرقوا الخيام حتى آخرها وأنذروا الكثيرين بالخروج من البلاد».

بدأ «توم» يتكلم: «لماذا... أنا» ثم عاد وأغلق فمه وصمت.

وطوى توماس صحيفته بعناية ووضعها فى جيبه وقد سيطر على نفسه ثانية وقال بهدوء: «هؤلاء الرجال الذين أحرقوا المخيم أرسلهم اتحاد المزارعين، ها أنا ذا أبوح بسرهم، وإذا ما اكتشفوا ذلك يومًا فسأفقد مزرعتى فى العام القادم».

قال «تيموثى»: «لست أعرف ما يمكن قوله، إذا كانوا قد أصبحوا مهيجين. فأنا أفهم لماذا خرجوا عن صوابهم».

قال «توماس»: «لاحظت منذ وقت طويل أن هناك على الدوام مهيجين حمر يظهرون قبل كل تخفيض فى الأجور، دائمًا، اللعنة، لقد وضعونى فى مأزق، والآن ماذا ستفعلون؟ خمسة وعشرون سنتًا؟»

أطرق «تيموثى» وقال: «سأعمل».

وقال «ويلكى»: «وأنا أيضًا».

وقال «توم»: «يبدو أننى دخلت فى الموضوع، بالتأكيد سأعمل، لابد أن أعمل».

أخرج توماس من جيب بنطلونه الخلفى منديلاً كبيرًا ومسح به فمه وذقنه وقال: «لست أعرف إلى متى يستمر هذا، لست أعرف كيف يمكنكم أيها الرجال أن تطعموا أسرة بما تحصلون عليه الآن».

فقال «ويلكى»: «نستطيع طالما نحن نعمل، المشكلة هى عندما لا نجد عملاً».

ونظر توماس فى ساعته وقال: «حسنًا، لنخرج ونحفر بعض الخنادق، يا إلهى سأخبركم أتقيمون يا رجال فى مخيم الحكومة؟ أليس كذلك».

ووقف «تيموثى» متصلبًا وقال: «نعم يا سيدى».

«وتقيمون حفلات رقص فى مساء كل سبت؟».

فابتسم «ويلكى» وقال: «نعم بالتأكيد».

«حسنًا، خذوا حذركم فى السبت القادم».

وانتصب «تيموثى» فجأة واقترب منه وسأل: «ماذا تقصد؟ أنا فى اللجنة المركزية ويجب أن أعرف».

نظر توماس بإمعان: «لن تقول أبدًا إننى أخبرتك؟».

فسأله «تيموثى»: «ما الخبر؟».

«حسنًا، اتحاد المزارعين لا يحب مخيمات الحكومة، لا يمكن لشرطى أن يدخل هناك والناس يسنون قوانينهم بأنفسهم كما سمعنا، ولا يمكن أن نلقى القبض على أحد بدون إذًا من النيابة، والآن إذا قامت مشاجرة كبيرة وربما إطلاق رصاص فإن فرقة من شرطة الولاية يمكنها أن تدخل وتصفى المخيم».

انقلب حال «تيموثى»، اعتدلت كتفاه، واكتست عيناه بنظرة باردة وقال: «ماذا تقصد؟».

فقال توماس بقلق: «لا تقل أبدًا من أين سمعت هذا، ستقوم مشاجرة فى المخيم فى مساء السبت وسيكون رجال الشرطة متأهبين لاقتحامه».

فسأله «توم»: «لماذا بالله عليك؟ هؤلاء الناس لا يضايقون أحدًا».

فقال توماس: «سأقول لك لماذا؟... هؤلاء الناس فى المخيم يعتادون على المعاملة الإنسانية وعندما يعودون إلى مخيمات المغتصبين المتشردين سيكون من الصعب التحكم فيهم». ومسح وجهه ثانية: «لنخرج للعمل الآن يا يسوع يا ليتنى ما تكلمت عن أى شىء لا يخص مزرعتى، ولكننى أحبكم أيها الناس».

وخطا «تيموثى» أمامه ومد له يدًا نحيلة خشنة فأخذها توماس: «لن يعرف أحد من الناس من الذى قال لنا، نحن نشكرك، لن يكون هناك شجار».

قال توماس: «لنبدأ العمل والأجـر خمسة وعشرون سنتًا فى الساعة».

قال «ويلكى»: «سنقبله.. منك أنت».

ومشى توماس إلى البيت وقال: «سأخرج بعد برهة اذهبوا أنتم إلى العمل يا رجال» واصطفق الباب ذو الستائر خلفه.

مشى الرجال الثلاثة عبر الحظيرة الصغيرة المطلية باللون الأبيض، ثم على حافة الحقل حتى وصلوا إلى خندق طويل على جانبه قطع من المواسير الخراسانية.

قال «ويلكى»: «هذا هو المكان الذى نشتغل فيه».

فتح أبوه الحظيرة، وأخرج أزمتين وثلاثة جواريف، ثم قال لـ«توم» هذه عدتك المفضلة، التقط «توم» الأزمة وقال: «يا يسوع لكم هى جميلة».

فقال «ويلكى»: «انتظر حتى الساعة الحادية عشرة وسترى كم تحس بجمالها عندئذ».

ومشوا حتى نهاية الخندق وخلع «توم» معطفه على كومة التراب ودفع قلنسوته إلى الخلف وقفز إلى داخل الخندق ثم بصق فى كفه وارتفعت الأزمة فى الهواء ونزلت كالبرق، وزام «توم» بصوت خافت وارتفعت الأزمة ونزلت وهو يطلق زمجرته فى اللحظة التى تخترق فيها الأزمة التربة وتقلقلها، قال «ويلكى»: «عظيم يا سيدى، أبى، إن معنا هنا رجلاً أوسطى من الدرجة الأولى كأن هذا الفتى قد تزوج تلك الحفارة الصغيرة».

فقال «توم»: «لقد علمنى الزمان: «هف» نعم يا سيدى، أنا فعلاً تعلمت: «هف» علمتنى سنين عمرى: «هف» شىء فى دمى: «هف» وتخلخلت التربة أمامه.

كشفت الشمس أشجار الفاكهة وظهرت أوراق العنب خضراء ذهبية على أشجارها وبعد ست أقدام خطا «توم» جانبًا ومسح جبهته وجاء «ويلكى» خلفه وارتفع الجاروف الممتلئ وألقى بالتراب خارجًا على الأكوام بجوار الخندق الممتد.

قال «توم»: «لقد سمعت عن هذه اللجنة المركزية، إذًا فأنت واحد منها».

فأجاب «تيموثى»: «نعم يا سيدى، وإنها لمسئولية، كل هؤلاء الناس، ونحن نفعل أقصى ما نستطيع، وددت لو أن هؤلاء المزارعين الكبار لا يكرهوننا بهذه الدرجة، لكم تمنيت ذلك».

ونزل «توم» ثانية فى الخندق ووقف «ويلكى» بجانبه وقال «توم»: «وماذا عن هذه المشاجرة: «هف» فى حفلة الرقص التى قال عنها: «هف» ما الذى يريدونه من وراء ذلك؟».

تبع «تيموثى» «ويلكى» مسويًا قاع الخندق بحيث يصبح ممهدًا جاهزًا للماسورة وقال: «يبدو أنهم يريدون أن يطردونا، أعتقد أنهم فزعون لأننا منظمون، وربما كانوا على صواب فى هذا، فهذا المخيم تنظيم بالفعل، فالناس هنا يعتزون بأنفسهم ولدينا هنا أحسن فرقة وترية موسيقية فى هذه الأنحاء ولدينا حساب جار صغير فى محل البقالة لصالح الناس الجائعين دولارات تحصل بها على طعام كثير ويستطيع المعسكر أن يتحملها، ولم يحدث أبدًا أن كانت لنا أى مشاكل مع القانون، أعتقد أن هذا ما يفزع المزارعين الكبار، لا يمكنهم إلقاؤنا فى السجن، هذا ما

يفزعهم، فهم يدركون أننا لو استطعنا أن نحكم أنفسنا فربما استطعنا أن نفعل أشياء أخرى».

وخطا «توم» خارج الخندق ومسح العرق على عينيه: «هل سمعت ما قالته هذه الصحيفة عن المهيجين هناك فى الشمال من «باكرسفيلد».

قال «ويلكى»: «فعلا إنهم يفعلون ذلك دائمًا».

«حسنًا لقد كنت هناك، ولم يكن هناك مهيجون ممن يسمونهم بالحمر، بالمناسبة من هم الحمر بحق الجحيم؟».

وكشط «تيموثى» تلاً صغيرًا فى قاع الخندق وقد لمعت ذقنه البيضاء القصيرة فى ضوء الشمس وضحك قائلاً: «هناك كثيرون يريدون أن يعرفوا من هم المتمردون هؤلاء؟ ولقد اكتشف أحد فتياننا الأمر» ودق على التراب المكوم بجاروفه برفق وقال: «رجل يدعى هاينز، لديه ثلاثون ألف فدان، خوخ وعنب، لديه مصنع تعليب ومعمل تقطير، حسنًا إنه يتكلم طول الوقت عن: «هؤلاء المتمردين الملاعين»، «المتمردون الملاعين يسوقون البلاد للخراب»، ويقول: لا بد لنا أن نطرد هؤلاء المتمردين أولاد الزوانى، كان هناك شاب صغير حضر لتوه إلى الغرب هنا، وسمعه فى يوم من الأيام فحك رأسه وقال: مستر هاينز لم أكن هنا منذ وقت طويل، من هم هؤلاء المتمردون الملاعين؟ حسنًا يا سيدى، قال له هاينز: المتمرد هو أى ابن زانية يطلب ثلاثين سنتًا فى الساعة بينما نحن لا ندفع إلا خمسة وعشرين، حسنًا، فكر هذا الشاب الصغير فى الأمر ثم هرش رأسه وقال: «طيب يا سيد هاينز، بحق يسوع، أنا لست ابن زانية ولكن إذا كان المتمرد هكذا، لماذا أنا أريد ثلاثين سنتًا فى الساعة، وكل إنسان يريد ذلك، يا للجحيم يا مستر هاينز، كلنا متمردون» ودفع «تيموثى» بجاروفه على قاع الخندق ولمعت التربة حيث شقها الجاروف.

ضحك «توم»: «وأظن أننى أيضًا كذلك» وعلت أزمته ثم نزلت بشدة فتشققت الأرض تحتها، كان العرق يتصبب على جبهته وعلى جانبى أنفه، ولمع فوق رقبته، وقال: «اللعنة إن الأزمة أداة جيدة: «هف» إذا لم تقاتل بها: «هف» أنت والأزمة: «هف» تعملان معًا: «هف»، واشتغل ثلاثتهم فى صف خلف بعضهم، وتقدم الخندق أمامهم شبرًا شبرًا، وكلما ارتفعت الشمس فى السماء انصبت أشعتها عليهم حارة قوية.

حملقت «روثى» بعد أن تركها «توم»، فترة فى باب وحدة النظافة لم تواتها الشجاعة التى تدعيها و«وينفلد» معها، وضعت قدمًا حافية على الأرض الخراسانية ثم سحبتها، وعبر صف الخيام خرجت امرأة من إحداها وأوقدت نارًا فى فرن من الصفيح، خطت «روثى» بضع خطوات فى اتجاهها ولكنها لم تستطع أن تترك المكان، زحفت نحو مدخل خيمة عائلة «جود» وأطلت داخلها، كان العم «جون» يرقد فى أحد جوانبها وقد فتح فمه وخرج شخيره مكركرًا فى حلقه، كان الأب والأم مغطيين بملاءة ورأساهما بداخلها تحاشيًا للنور، و«آل» على الجانب الآخر من العم «جون» وقد وضع ذراعه على عينه وقرب مقدمة الخيمة رقدت «روزا شارن» و«وينفلد»، ثم المكان الذى كانت ترقد فيه «روثى» بجوار «وينفلد» تربعت جالسة وحملقت داخل الخيمة واستقرت عيناها على رأس «وينفلد» الكتانية، وعندئذ فتح الصبى الصغير عينيه وشخص ببصره فيها.

كانت عيناه مكتئبتين، ووضعت «روثى» إصبعها على شفتيها وأشارت له بأن يتبعها بيدها الأخرى فجرى «وينفلد» بعينه على «روزا شارن»، كان وجهها المحتقن الوردى قريبًا منه وقد انفرج فمها قليلاً، وأرخى «وينفلد» البطانية بحرص وانسل خارجها، وزحف خارج الخيمة حذرًا ولحق بـ «روثى» وهمس: «منذ متى استيقظت؟».

فقادته بعيدًا بحرص واهتمام حتى صارا فى أمان، وقالت: «لم أنم أبدًا لقد كنت مستيقظة طول الليل».

«لم تكونى، أنت كذابة قذرة».

فقالت: «حسنًا، إذا كنت كذابة فلن أقول لك شيئًا مما حدث، لن أقول لك كيف قتل الرجل بطعنة سكين ولا كيف جاء الدب واختطف طفلاً صغيرًا».

فقال «وينفلد» بقلق: «لم يكن هناك دببة». ومشط شعره بأصابعه وجذب عفريتته إلى أسفل من فوق خاصرته.

قالت ساخرة: «حسنًا لا وجود للدب ولا وجود للأشياء البيضاء المصنوعة من الصينى كما فى الكتالوجات».

حدجها «وينفلد» باهتمام وأشار إلى وحدة النظافة وسأل: «هناك؟»

فقالت «روثى»: «أنا كذابة قذرة.. لن يفيدنى أن أقول لك أى شىء».

فقال «وينفلد»: «لنذهب ونرى».

فقالت «روثى»: «لقد كنت هناك بالفعل، جلست عليها بالفعل، أنا حتى قضيت حاجتى فى إحداها».

فقال «وينفلد»: «أنت لم تفعلى أى شىء».

وذهبا إلى بناية الوحدة وفى هذه المرة لم تكن «روثى» خائفة، وشقت طريقها بجسارة داخل البناية، كانت المراحيض فى صف واحد على جانب غرفة كبيرة ولكل مرحاض خانة وأمامه باب، كان الخزف أبيض لامعًا، وعلى الحائط الآخر صفت أحواض غسيل الأيدى بينما كانت هناك أربعة أدشاش على الحائط الثالث.

وقالت «روثى»: «هنا، هذه هى المراحيض، رأيتها فى الكتالوج». واقترب الطفلان من أحد المراحيض. ورفعت «روثى» قميصها فى نوبة من التظاهر بالشجاعة وجلست وقالت: «قلت لك إننى كنت هنا». ولكى تثبت ذلك سمع خرير ماء فى المرحاض.

ارتبك «وينفلد» ولوت يده مقبض السيفون فعلَت زمجرة الماء، وقفزت روثى فى الهواء وابتعدت ووقفت هى و«وينفلد» فى منتصف الحجرة ونظرا إلى المرحاض واستمر أزيز الماء فى داخله.

قالت «روثى»: «أنت الذى فعلتها، أنت الذى كسرتها، لقد رأيتك».

«أبدًا، بالشرف أبدًا..».

فقالت «روثى»: «أنا رأيتك، أنت لا يمكن أن يطمأن عليك فى أى شىء جيد».

وخفض «وينفلد» ذقنه وارتفعت عيناه إلى «روثى» وقد امتلأتا بالدموع، وارتعشت ذقنه فندمت «روثى» فى الحال.

وقالت: «لا تهتم، لن أفتن عليك، سندعى أنها كانت مكسورة بالفعل، سندعى أننا لم ندخل هنا أبدًا». وقادته إلى خارج البناية.

كانت الشمس تعلو الجبال الآن، وقد لمع ضوؤها على الأسطح المصنوعة من الصاج المضلع لوحدات النظاف الخمس، وعلى الخيام الرمادية وعلى أرض الشارع المكنوسة بين الخيام وكان المخيم يستيقظ من نومه، النيران تشتعل فى أفران مصنوعة من صفائح الجاز ورقائق المعدن وملأت رائحة الدخان الهواء وانفرجت مصاريع الخيام وخرج الناس إلى الشوارع. وأمام خيمة عائلة «جود» وقفت الأم تذرع الشارع بعينها، رأت الطفلين فأتت نحوهما.

قالت الأم: «قلقت عليكما، أين كنتما؟»

فقالت «روثى»: «كنا نتفرج فقط».

«حسنًا، أين «توم»، هل رأيتماه؟».

وأحست «روثى» بالأهمية وقالت: «نعم يا ماما، لقد أيقظنى وقال لى أن أقول لكم..» وتوقفت لكى تبرز أهميتها.

فسألتها الأم: «حسنًا، ماذا؟».

«قال أن أقول لكم..» وتوقفت ثانية لترى ما إذا كان «وينفلد» يقدر أهميتها، ورفعت الأم يدها وظهرها ناحية «روثى» وسألت: «ماذا؟».

فقالت «روثى»: «لقد حصل على عمل، خرج للعمل». ونظرت بخوف ليد الأم المرفوعة ونزلت اليد ثانية ثم امتدت لـ «روثى» واحتضنت الأم كتفى «روثى» فى حضنة عصبية سريعة ثم تركتها.

وحملقت «روثى» فى الأرض بارتباك وغيرت الموضوع قائلة: «عندهم مراحيض هناك، مراحيض بيضاء».

سألتها الأم: «دخلتيها؟».

فقالت: «أنا و«وينفلد» ثم استطردت فى غدر: «وينفلد» أفسد مرحاضًا».

احمر وجه «وينفلد» وصاح فى وجه «روثى» بشراسة: «وأنت تبولت فى واحد».

وتأملتهما الأم فى خوف وقالت: «والآن ماذا فعلتما؟ هيا لنرى؟». وساقتهما إلى الباب ودخلوا: «والآن ماذا فعلتما؟».

وأشارت «روثى»: «كان الماء يئز ويخشخش، لقد توقف الصوت الآن، فسألتهما الأم: «أرنى ماذا فعلت؟».

ذهب «وينفلد» محجمًا إلى المرحاض وقال: «لم أضغط عليها بشدة مجرد إمساك هذه هنا و...» وأز الماء ثانية فقفز مبتعدًا.

ألقت الأم إلى الوراء برأسها وضحكت، وبينما وقف «وينفلد» و«روثى» يرقبانها فى امتعاض، وقالت الأم: «هذه هى الطريقة التى تعمل بها، لقد رأيتها من قبل، عندما تفرغ، تضغط على هذه اليد».

كان الخجل من الجهل أكبر مما يمكن أن يتحمله الطفلان فخرجا من الباب ومشيا فى الشارع ليحملقا فى أسرة كبيرة جلست للإفطار.

وراقبتهما الأم من خلال الباب ثم دارت ببصرها فى المكان، ذهبت إلى الأدشاش ونظرت فيها، ذهبت إلى أحواض الغسيل وجرت بإصبعها على الخزف الأبيض، وفتحت صنبور الماء قليلاً ووضعت إصبعها تحت تيار الماء، وأبعدت يدها بسرعة عندما لامست الماء الساخن، وتأملت الحوض ثم وضعت السدادة وملأت طاسة بقليل من الماء من الصنبور الساخن وقليل من الصنبور البارد، ثم غسلت يديها فى الماء الدافئ وغسلت وجهها، كانت تمسح شعرها من الماء بأصابعها عندما سمعت وقع أقدام خلفها على الأرض الخرسانية فاستدارت ملتفتة وهناك وقف رجل عجوز ينظر إليها وارتسمت على وجهه علامات المفاجأة.

قال بصوت أجش: «كيف دخلت هنا؟».

وابتلعت الأم ريقها وأحست بالماء يقطر من ذقنها يبلل رداءها وقالت معتذرة:

«لم أكن أعرف، ظننت أنها صنعت لكى يستعملها الناس».

عبس الرجل العجوز فى وجهها وقال بجفاء: «للرجال» ثم مشى إلى الباب وأشار إلى لافتة مكتوب عليها: «رجال» وقال: «هذا، هذا ما يثبت لك، ألم تريها؟».

فقالت الأم فى خجل: «لا لم أرها أبدًا، أليس هناك مكان يمكن أن أذهب إليه؟».

وانفثأ غضب الرجل وسأل بلطف: «أوصلتِ توًا؟».

فقالت الأم: «فى منتصف الليل».

«إذًا أنت لم تتحدثى مع اللجنة؟».

«أى لجنة؟»

«لماذا، لجنة السيدات».

«لا، لم أتحدث».

فقال بفخر: «ستأتى إليك اللجنة حالاً وتوضح لك، نحن نهتم بالوافدين الجدد. والآن إذا أردت مرحاض السيدات عليك أن تذهبى إلى الناحية الأخرى من البناية. ذلك الجانب للسيدات».

قالت الأم بقلق: «أقلت لجنة سيدات ـ ستأتى إلى خيمتى؟».

فأومأ برأسه مؤمنًا: «حالاً فيما أعتقد».

قالت الأم: «شكرًا»، وأسرعت خارجة وهى تجرى تقريبًا إلى الخيمة، فنظرت إليها عيون مفاجئة وسنانة وصاحت الأم: «اسمعوا كلكم انهضوا واغسلوا وجوهكم ومشطوا شعوركم». وكان العم «جون» يبدو شاحبًا مريضًا وعلى ذقنه كدمة حمراء.

وسأل الأب: «ما الخبر؟».

صاحت الأم: «اللجنة، هناك لجنة، لجنة سيدات، ستأتى لزيارتنا، انهضوا الآن واغتسلوا، وبينما نحن نائمون نشخر خرج «توم» وحصل على عمل، انهضوا الآن».

وخرجوا من الخيمة والنوم يملأ عيونهم وترنح «العم جون» قليلاً وعلت وجهه سيماء الألم.

وأمرته الأم قائلة: «اذهبوا إلى هذا المكان واغتسلوا، لابد أن نتناول إفطارنا ونستعد للجنة، وذهبت إلى كومة صغيرة من كسر الخشب بين حاجيات الخيمة وأشعلت نارًا، وضعت عليها أوانى الطبخ وقالت لنفسها: «زلابيا، زلابيا وصلصة، من الممكن إعدادها بسرعة، يجب أن أسرع». واستمرت تكلم نفسها و«روثى» و«وينفلد» بجوارها يتعجبان.

وعلا دخان نيران الصباح فوق المخيم كله وعلت همهمات الكلام من كل جانب.

زحفت «روزا شارن» خارج الخيمة مشعثة والنوم يملأ جفنيها وتركت الأم عجين الذرة الذى أخذت تقطعه بقبضتها قطعًا متساوية، والتفتت لها ونظرت إلى رداء الفتاة القذر المتكسر، وإلى شعرها المفلفل غير الممشط وقالت بسرعة: «عليك أن تنظفى نفسك اذهبى ونظفى نفسك، لديك رداء نظيف غسلته أنا ومشطى شعرك وأزيلى الغماص من عينيك». كانت الأم منفعلة وهى تتكلم.

فقالت «روزا شارن» فى كآبة: «لست أشعر أننى بخير يا ليت «كونى» يأتى، لا أشعر أننى أستطيع أن أفعل أى شىء بدون: (كونى)».

واستدارت الأم لها وقد تعلق عجين الذرة فى يديها ورسغيها وقالت بجفاء: «روزا شارن» أفيقى إلى نفسك، لقد حزنت بما فيه الكفاية ـ هناك لجنة سيدات ستأتى ولا يجب أن تبدو عائلتنا فى محزنة».

«ولكنى لا أشعر أننى بخير».

وتقدمت الأم منها ومدت يديها المغطين بالعجين وقالت: «هيا، هناك وقت ينبغى أن تكتمى فيه ما تشعرين به».

وناحت «روزا شارن» وهى تقول: «سأ..تقيأ».

«حسنًا، اذهبى وتقيئى، طبعًا ستتقيئين، كل إنسان يفعل ذلك، تقيئى ثم نظفى نفسك واغسلى ساقيك والبسى حذاءك». وعادت إلى عملها وقالت: «وضفرى شعرك».

وعلى النار طشطش الشحم فى المقلاة، ثم طرطش ونشنش عندما أسقطت فيه الأم الزلابيا بالملعقة، ثم خلطت الدقيق بالشحم فى وعاء وأضافت إليهما الماء والملح، وأخذت تقلب الصلصة وبدأت القهوة تغلى فى الصفيحة ثم تصاعدت رائحة اللبن منها.

ودرج الأب عائدًا من وحدة النظافة ونظرت الأم إليه متفحصة وقال الأب: «أقلت إن «توم» حصل على عمل؟».

«نعم يا سيدى، خرج قبل أن نستيقظ والآن انظر فى هذا الصندوق وخذ لنفسك عفريتة نظيفة وقميصًا واسمع يا بابا، أنا مشغولة جدًا أهتم أنت بآذان «روثى» و«وينفلد». هناك ماء ساخن، هل يمكن أن تفعل ذلك؟ أهتم بما حول آذانهما جيدًا، ورقابهما، نظفهما حتى يحمرا ويلمعا».

فقال الأب: «لم أرك ملهوفة هكذا أبدًا».

فصاحت الأم: «حان الوقت الذى يجب أن تبدو فيه العائلة فى صورة محترمة، عندما كنا على الطريق لم تكن هناك أى فرصة، ولكننا نستطيع الآن، اترك عفريتتك المتسخة فى الخيمة وسأغسلها».

دخل الأب الخيمة وعاد بعد لحظة وهو يرتدى عفريتة زرقاء نظيفة حائلة اللون وقميصًا، وقاد الطفلين الحزينين المفزوعين إلى وحدة النظافة.

وصاحت الأم وراءه: «اهتم بما خلف آذانهما جيدًا».

خرج العم «جون» إلى باب دورات مياه الرجل وأطل خارجًا ثم عاد وجلس على المرحاض لوقت طويل وقد أمسك رأسه المصدوع بيديه.

أخرجت الأم ملء طاسة من الزلابيا الناضجة، كانت تسقط ملاعق العجين فى الشحم لكى تملأ طاسة أخرى حين سقط بجوارها على الأرض ظل إنسان، التفتت من فوق كتفها فرأت رجلاً ضئيل الحجم يرتدى ملابس بيضاء يقف خلفها ـ نحيل الوجه، بنى البشرة، مرح العينين، ملأت وجهه التجاعيد، كان نحيلاً كأنه وتد، كانت ملابسه البيضاء النظيفة قد تفتقت خياطاتها، ابتسم للأم وقال: «صباح الخير».

نظرت الأم إلى ملابسه البيضاء وقست ملامح وجهها بالريبة وقالت: «صباح الخير».

«هل أنت مسز (جود)».

«نعم».

«حسنًا، أنا «جيم روالى»، أنا مدير المخيم، لقد جئت لأرى فقط ما إذا كان كل شىء على ما يرام، ولديك كل ما تريدين».

وتفحصته الأم فى ريبة وقالت: «نعم».

قال رولى: «كنت نائمًا عندما جئتم الليلة البارحة، من حسن الحظ أن لدينا مكانًا لكم» كان صوته دافئًا.

قالت الأم ببساطة: «إنه مكان جميل خصوصًا أحواض الغسيل هناك».

«انتظرى حتى تبدأ النسوة فى الغسيل، حالاً، الآن، لم تسمعى أبدًا مثل هذه الجلبة كأنه اجتماع، أتعرفين ماذا فعلن بالأمس يا مسز «جود»؟، شكلن «كورس» وأخذن يغنين ترنيمة وهن يغسلن الملابس فى نفس الوقت، الحق أنه كان شيئًا يستحق السماع».

بدأت الريبة تنقشع من وجه الأم «لا بد أنه كان شيئًا جميلاً، هل أنت الرئيس؟».

قال: «لا.. لقد أعفانى الناس هنا من العمل، فهم يحافظون على المخيم نظيفًا، ويحافظون على النظام، إنهم يفعلون كل شىء، لم أر مثل هؤلاء الناس أبدًا، إنهم يخيطون الملابس فى صالة الاجتماعات، وهم يصنعون اللعب، لم أر مثل هؤلاء الناس أبدًا».

ونظرت الأم إلى ردائها المتسخ وقالت: «لم ننظف بعد.. إنك لن تستطيع أن تحتفظ بنظافتك فى أثناء السفر».

فقال: «مفهوم» ثم تشمم الهواء وقال: «قولى لى... أهذه قهوتك ذات الرائحة الجيدة؟».

فابتسمت الأم قائلة: «رائحتها فعلاً جيدة ـ أليس كذلك؟ إنها على الدوام ذات رائحة جيدة فى العراء». ثم قالت بإعزاز: «سنشربها على شرفك «لتكريمك» إذا تناولت الإفطار معنًا».

فاقترب من النار ثم تربع جالسًا، فانهار تحفظ الأم تمامًا وقالت: «يشرفنا وجودك معنا، ليس لدينا الكثير، ولكنك على الرحب والسعة».

وضحك الرجل الضئيل الحجم فى وجهها وقال: «لقد تناولت إفطارى ولكننى أحب فعلاً أن آخذ فنجانًا من هذه القهوة فرائحتها جيدة».

«أهلاً وسهلاً، حالاً»

«على مهلك».

وملأت الأم كوبًا من الصفيح بالقهوة من صفيحتها وقالت: «لم نحصل على سكر بعد، ربما حصلنا على شىء منه اليوم، إذا كنت تشربها بالسكر فلن تكون جيدة المذاق».

فقال: «أنا لا أستعمل السكر أبدًا، فهو يفسد طعم القهوة الجيدة».

فقالت الأم: «حسنًا، أنا أحب القليل من السكر». وفجأة تأملته الأم لترى كيف زالت بينهما الكلفة بهذه السرعة، بحثت عن دوافع ذلك فى وجهه فلم تجد غير الصداقة، ثم نظرت إلى الخياطة المتفتقة فى معطفه الأبيض واطمأنت.

شرب قهوته وقال: «أعتقد أن السيدات سيأتين هنا لرؤيتك هذا الصباح».

فقالت الأم: «مازلنا بتراب السفر، لا يجب أن يأتين حتى ننظف أنفسنا قليلاً».

فقال المدير: «ولكنهم يعرفون الحال، فلقد جاءوا بنفس الطريقة، لا يا سيدتى إن اللجنة فى هذا المخيم لجنة طيبة لأنها مجربة». وفرغ من قوته وقال: «حسنًا، لابد أن أمضى، إذا أردت أى شىء، تعالى إلى المكتب أنا هناك طول الوقت، قهوة عظيمة، شكرًا لك» ووضع كوبه على الصندوق بجوار الأكواب الأخرى ولوح بيده ومشى عبر صف الخيام، وسمعته الأم وهو يتكلم مع الناس فى أثناء مشيه، وطأطأت الأم رأسها وقاومت البكاء.

عاد الأب يقود الطفلين، وما زالت عيونهما مليئة بالألم من تنظيف الآذان، كانا مستسلمين، وقد تسلخ جلد أنف «وينفلد» الذى أحرقته الشمس وقال الأب: «ها هما، أخرجت القذارة وطبقتين من الجلد وكدت أن أجلدهما حتى أجعلهما يقفان بلا حركة». وحيتهما الأم قائلة: «حلوين، هيا إلى الزلابية والصلصة، لابد أن نرتب المتاع وننظف الخيمة».

وملأ الأب الأطباق للطفلين ولنفسه: «يا ترى أين ذهب توم؟».

«لا أعرف».

«حسنًا، إذا كان قد تمكن من العمل فستتمكن نحن أيضًا».

عاد «آل» إلى الخيمة منفعلاً وقال: «يا له من مكان، وملأ لنفسه فنجانًا من القهوة، أتعرفون ماذا يفعل أحد الرجال؟ إنه يبنى منزلاً على مقطورة. هناك خلف هذه الخيام بها أسرة وفرن وكل شىء، سيعيش فيها يا إلهى هذه هى الحياة حقًا، أن تعيش حيثما تتوقف».

فقالت الأم: «أنا أفضِّل أن يكون لى منزل صغير بمجرد أن نتمكن من ذلك، أريد منزلاً صغيرًا».

فقال الأب: «آل» بعد أن نأكل، سنركب أنا والعم «جون» وأنت السيارة ونخرج لنبحث عن عمل».

فقال «آل»: «بالتأكيد أود أن أجد عملاً فى جراج، لو أن هناك أى عمل من هذا النوع، هذا ما أحبه حقيقة، ثم أحصل على سيارة فورد قديمة وأطلبها باللون الأصفر وأتجول بها كالديك، لقد رأيت فتاة جميلة هناك على الطريق غمزت لها غمزة كبيرة جهنمية».

فقال الأب بصرامة: «من الأفضل أن تحصل على عمل قبل أن تبدأ عبثك».

خرج العم «جون» من دورة المياه واقترب ببطء، وعبست الأم فى وجهه وقالت له: «أنت لم تغتسل» ولكنها توقفت إذ رأت كم يبدو مريضًا وضعيفًا وحزينًا فقالت: «ادخل الخيمة وارقد لست بحالة طيبة».

فهز رأسه وقال: «لا لقد ارتكبت خطيئة ولابد أن آخذ عقوبتى». ثم تربع على الأرض فى كآبة وصب لنفسه فنجانًا من القهوة.

أخرجت الأم آخر الزلابيا من الطاسة وقالت كأنما بشكل عارض: «لقد جاء مدير المخيم وجلس وشرب فنجانًا من القهوة».

فرفع الأب بصره ببطء وقال: «إيه؟ وماذا يريد الآن؟» فقالت الأم برقة: «جاء، جاء ليقضى بعض الوقت فقط، جلس وتناول فنجانًا من القهوة وقال إنه لا يشرب مثل هذه القهوة الجيدة كثيرًا، وقد جذبته رائحة قهوتنا».

فسأل الأب ثانية: «ماذا كان يريد؟».

«لم يكن يريد شيئًا، جاء ليطمئن علينا».

فقال الأب: «لا أصدق هذا، ربما جاء يتحرى عنا؟».

فصاحت الأم بغضب: «لم يكن الأمر كذلك، يمكننى أن أعرف الرجل الذى يتلصص بمجرد رؤيته».

طوح الأب ببقايا قهوته من فنجانه.

فقالت الأم: «ينبغى أن تتوقف عن هذه العادة، فهذا مكان نظيف».

فقال الأب بضيق: «أرجو ألا يكون نظيفًا لدرجة يصعب على الإنسان أن يعيش فيه، بسرعة يا «آل» فسنخرج للبحث عن عمل».

مسح «آل» فمه بيده وقال: «أنا مستعد».

والتفت الأب إلى العم «جون» وسأله: «هل ستأتى؟».

«نعم، سآتى».

«لا يبدو أنك فى حالة طيبة».

«لست فى حالة طيبة ولكننى سآتى».

ودخل «آل» فى السيارة وقال: «لابد من الحصول على بنزين» وأدار

المحرك وصعد الأب والعم «جون» بجواره وابتعدت بهم السيارة عبر الشارع.

راقبتهم الأم وهم يذهبون، ثم أخذت دلوًا وذهبت إلى أحواض الغسيل تحت الجزء المكشوف من وحدة النظافة وملأت دلوها بالماء الساخن وحملته عائدة إلى خيمتها، كانت تغسل الأطباق فى الدلو عندما عادت «روزا شارن».

قالت الأم: «وضعت نصيبك على طبق». ثم نظرت بإمعان إلى الفتاة، كان شعرها ممشطًا يقطر منه الماء وجلدها وردى لامع وقد ارتدت الرداء الأزرق المطبوع بزهور بيضاء صغيرة، وفى قدميها حذاء زفافها ذو الكعب العالى، واحمر وجهها تحت وطأة نظرات الأم، قالت الأم: «هل أخذت حمامًا؟».

تكلمت «روزا شارن» بصوت مبحوح: «لقد كنت هناك عندما جاءت إحدى السيدات وأخذت حمامًا، أتعرفين ماذا تفعلين؟ تدخلين فى غرفة صغيرة وتديرين المقابض فتتدفق المياه عليك، ماء بارد أو ساخن، حسبما تريدين، وقد فعلتها».

وصاحت الأم «وسأفعلها أنا أيضًا، بمجرد أن أنتهى من هنا، سترينني الطريقة».

فقالت الفتاة: «سأفعلها كل يوم، وهذه السيدة، لقد رأتنى، ولاحظت حكاية الطفل أتعرفين ماذا قالت؟ قالت إن هناك ممرضة تأتى كل أسبوع وأن على أن أذهب وأقابل هذه الممرضة، وستقول لى ما الذى يجب أن أعمله لكى يولد الطفل قويًا، قالت إن كل السيدات هنا يفعلن هذا وسأفعل ذلك». وتدفقت الكلمات من فمها وهى تقول: «و... أتعرفين؟ فى الأسبوع الماضى ولد طفل وأقام كل المخيم حفلة وقدموا ملابس

وأشياء هدية للطفل، حتى أنهم قدموا له عربة أطفال مصنوعة من الجريد ـ لم تكن جديدة ولكنهم طلوها بلون وردى فبدت كأنها جديدة، وأطلقوا على الطفل اسمًا وأعدوا كعكة، أوه يا إلهى!»، ثم تهاوت جالسة وهى تتنفس بصعوبة.

قالت الأم: «الحمد لله لقد عدنا لأهلنا، سأذهب وآخذ حمامًا».

قالت الفتاة: «أوه، إنه جميل».

جففت الأم الأطباق الصاج وصفتها، وقالت: «نحن من عائلة «جود» لا نتكل على أى إنسان، جد الجد كان فى الثورة وكنا من ذوى المزارع حتى ركبنا الدين وعندئذ، هؤلاء الناس، لقد فعلوا بنا شيئًا ما، فى كل مرة كانوا يأتون، كانوا كأنهم يجلدوننى، بل يجلدوننا كلنا، وفى نيدلز ذلك الشرطى، لقد ترك فى نفسى أثرًا فظيعًا، جعلنى أشعر بالخسة، جعلنى أشعر بالعار، أما الآن فأنا لا أشعر بالعار، هؤلاء هم الأهل، أهلنا وهذا المدير، جاء وجلس وشرب القهوة، وقال أنت يا مسز «جود» وكيف الحال يا مسز (جود)». وتوقفت وتنهدت ثم قالت: «لماذا، أنا أحس كأننى عدت بشرًا مرة أخرى».

ووضعت آخر طبق فى مكانه ودخلت الخيمة وبحثت فى صندوق الملابس عن حذائها وردائها النظيف، ووجدت ربطة صغيرة من الورق بها حلقانها، ومرت بـ «روزا شارن» قالت: «إذا جاءت السيدات قولى لهن إننى سأعود حالاً» ومشت حتى اختفت وراء وحدة النظافة.

ألقت «روزا شارن» بنفسها جالسة على الصندوق وأخذت تتأمل حذاء زفافها، كان من الجلد المدبوغ الأسود وقد خيطت فيه حليات سوداء، مسحت أصابع قدميها بأصابعها، ثم مسحت أصابعها على قميصها من الداخل، وعندما مالت إلى أسفل ضغطت بذلك على بطنها المنتفخة،

فاستقامت جالسة وتحسست نفسها بأصابع متفحصة وابتسمت قليلاً وهى تفعل ذلك.

مشت على الطريق امرأة ربعة، تحمل صندوق تفاح ملىء بالملابس القذرة، متجهة نحو أحواض الغسيل، كان وجهها بنيًا لوحته الشمس وعيناها سوداوين حادتين، ترتدى مريلة كبيرة مصنوعة من كيس قطن فوق ردائها التيل المقلم فى قدميها حذاء رجالى، ورأت «روزا شارن» وهى تطبطب على نفسها ورأت البسمة الخفيفة على وجه الفتاة فصاحت وهى تضحك فى سرور «هكذا... ماذا تظنينه سيكون؟».

واحمر وجه «روزا شارن» خجلاً ونظرت إلى الأرض، ثم رفعت عينيها ترمقان خلسة ولكن عينى المرأة السوداوين الحادتين الصغيرتين ضبطتاها فتمتمت قائلة: «لا أعرف».

ووضعت المرأة صندوق التفاح على الأرض وقالت: «عندك ورم حى». وضحكت فى صوت كالدجاجة السعيدة وسألتها: «أيهما تفضلين؟».

«لا أعرف، ولد فيما أعتقد، بالتأكيد ولد؟».

«لقد وصلتم توًا، أليس كذلك؟».

«أمس مساء، فى وقت متأخر».

«هل ستقيمون؟».

«لا أعرف، إذا أمكننا الحصول على عمل أظننا سنبقى».

وعبرت سحابة وجه المرأة وازدادت عيناها السوداوان الصغيرتان حدة وقالت: «إذا استطعتم الحصول على عمل، هذا ما نقوله كلنا».

«لقد حصل أخى على عمل فعلاً هذا الصباح».

«صحيح ـ هه؟ ربما كنتم محظوظين، خذى بالك من الحظ، لا يمكنك أن تثقى بالحظ». ثم خطت مقتربة: «ليس لك إلا حظ واحد فقط، لا يمكن أن تحصلى على أكثر من ذلك، كونى فتاة طيبة». ثم قالت بحدة: «كونى طيبة، إذا ارتكبت خطيئة ـ من المستحسن أن تتجنبى ذلك من أجل خاطر هذا الطفل». ثم تربعت أمام «روزا شارن» هناك أشياء فاضحة تجرى فى هذا المخيم». وقالت متجهمة: «فى مساء كل سبت يرقصون ليس فقط رقص جماعة، ولكن أيضًا رقص به «عناق واحتضان»، لقد رأيتهم».

قالت «روزا شارن» متحوطة لنفسها: «أنا أحب الرقص، الرقص الجماعى». ثم قالت فى تعفف: «لم أرقص أبدًا ذلك النوع الآخر».

فهزت المرأة السمراء رأسها فى أسى وقالت: «حسنًا، البعض يفعلون والله لن يتسامح فى هذا أبدًا، أتظنين أنه يسمح بذلك؟».

فقالت الفتاة فى رقة: «لا يا أماه».

وضعت المرأة يدًا بنية متغضنة على ركبة «روزا شارن»، وجفلت الفتاة من لمستها: «دعينى أحذرك من الآن، لم يبق إلا القليلون الذين يكمن فى أعماقهم حب يسوع، فى مساء كل سبت عندما تبدأ هذه الفرقة الوترية فى العزف، وكان يجب أن تعزف التراتيل، يتمايل الناس، نعم يا سيدتى، يتمايلون، لقد رأيتهم، أنا لا أقترب منهم ولا أسمح لزوجة ابنى أن تقترب، هناك عناق واحتضان، صدقينى» وتوقفت لتؤكد معانى كلماتها، ثم قالت فى همس مبحوح: «إنهم يفعلون أكثر من ذلك، إنهم يقدمون المسرحيات». وتطوحت إلى الخلف وأدارت رأسها لترى أثر هذا الكلام على «روزا شارن».

قالت الفتاة فى رهبة «ممثلون؟!».

وانفجرت المرأة تقول: «لا يا سيدتى، ليسوا ممثلين، ليسوا من أولئك

الذين حلت بهم اللعنة، إنهم أهلنا أنفسهم، أهلنا نحن وفيهم أطفال صغار لا يدركون شيئًا، وهم يتشبهون بما ليس فيهم، وأنا لا أقربهم ولكننى سمعتهم يتكلمون عما يفعلون، إن الشيطان يجوس فى هذا المخيم».

وأنصتت «روزا شارن» وقد فتحت فمها وعينيها وقالت: «مرة فى المدرسة قدمنا مسرحية الطفل يسوع ـ فى الكريسماس».

«حسنًا، أنا لا أقول هذا شىء طيب أو مسيئ، هناك قوم طيبون يعتقدون أن مسرحية الطفل يسوع لا غبار عليها، ولكن ـ حسنًا أنا لا يهمنى أن أقول ذلك بوضوح، ولكن هذه المسرحية لم تكن الطفل يسوع، ها هنا خطيئة وأوهام وأفعال شيطانية، يخطرون ويستعرضون ويتكلمون كأنهم أناس آخرون غيرهم، ويرقصون ويحضنون ويحتضنون».

وتنهدت «روزا شارن».

واستمرت المرأة السمراء: «وهم ليسوا قلة مع ذلك، إن الذين يجرى الإيمان عميقًا فى دمائهم يعدون على أصابعك ولا تظنى أن هؤلاء الخطاة قادرون على أن يغالطوا الله، أبدًا، إنه يحسب خطاياهم فى لوح محفوظ، خطيئة خطيئة، وهو يرسم طريقه ويجمع خطاياهم خطيئة خطيئة، إن الله يرقبهم، وأنا أيضًا أرقبهم، وقد أحرق اثنين منهم بالفعل».

ولهثت «روزا شارن» وهى تسأل: «حقًا؟».

وتزايد صوت المرأة السمراء حدة وهى تقول: «لقد رأيتها، فتاة تحمل طفلاً صغيرًا، مثلك تمامًا، وكانت تمثل وترقص رقص الأحضان و... وأصبح صوتها منذرًا متوعدًا هزلت حتى أصبحت جلدًا على عظم وأخيرًا ولدت طفلها ميتًا».

وشحبت الفتاة وصاحت: «أوه، يا عينى!».

«ميت وغارق فى الدماء، طبعًا لم يعد أحد يتكلم معها بعد ذلك، فاضطرت إلى مغادرة المكان، لا يمكن أن تلمسى الخطيئة إلا وتنال منك، لا يا سيدتى، وكانت هناك أخرى فعلت نفس الشيء وهزلت و... أتعرفين؟ ذات ليلة ذهبت وبعد يومين عادت قالت إنها كانت فى زيارة ولكن... لم يكن معها أى طفل، أتعرفين ماذا أعتقد؟ أعتقد أن المدير أخذها بعيدًا لكى تجهض طفلها، إنه لا يعتقد فى الخطيئة، لقد قال لى ذلك بنفسه، يقول إن الخطيئة هى أن يكون الإنسان جائعًا، ويقول إن الخطيئة هى أن يكون الإنسان مقرورًا، يقول ـ صدقينى، لقد قال لى ذلك بنفسه ـ لا يمكنه أن يرعى الله فى هذه الأمور، يقول إن أولئك الفتيات يصيبهن الهزال لأنهن لا يحصلن على طعام كاف، ولكننى كشفته». ونهضت على قدميها وخطت إلى الخلف، كانت عيناها حادتين وشهرت سبابتها المتصلبة، فى وجه «روزا شارن» وقالت: «قلت ارجع.. قلت: أنا أعلم أن الشيطان يعربد فى هذا المكان والآن عرفت من هو الشيطان، ارجع يا شيطان، وبحق المسيح.. تراجع، كان يرتعش متذللاً وهو يقول: أرجوك، أرجوك لا تجعلى الناس تعساء، فقلت تعسا؟ وماذا عن أرواحهن؟ ماذا عن هؤلاء الأطفال الميتين، هؤلاء الخطاة المساكين الذين تحطموا بسبب التمثيل؟ ولكنه اكتفى بأن نظر إلىّ وابتسم ابتسامة صفراء وانصرف، كان يعرف أنه قد تقابل مع أحد شهود الله الحقيقيين قلت له: أنا أساعد يسوع فى مراقبة سير الأمور، ولن تفلت أنت والخطاة الآخرون من الرقابة»، والتقطت صندوقها الملىء بالملابس القذرة وقالت: «التفتى لنفسك، لقد حذرتك..». ومشيت مبتعدة فى خطوات متجبرة والفضيلة تلمع فى عينيها.

راقبتها «روزا شارن» وهى تذهب ثم خفضت رأسها ووضعتها بين يديها ونشجت باكية فى راحتيها، وجاءها صوت رقيق بجوارها فرفعت

عينيها وهى خجلى، كان المدير الضئيل الحجم فى ثيابه البيضاء وقال: «هونى عليك، هونى عليك».

كانت الدموع تغشى عينيها... صاحت: «ولكننى فعلتها، رقصت بالأحضان، لم أقل لها، لقد فعلتها فى ساليزو أنا و(كونى)».

فقال «هونى عليك».

«إنها تقول إننى سأجهض».

«أنا أعلم أنها قالت ذلك، أنا أضع عينى عليها باستمرار تقريبًا، إنها امرأة طيبة، لكنها تجعل الناس تعساء».

وشنفت «روزا شارن» أنفها السائبة وقالت: «إنها تعرف فتاتين فقدتا طفليهما هنا فى هذا المخيم».

فتربع المدير جالسًا أمامها وقال: «انظرى، انصتى لى، أنا أعرفهما أيضًا، كانتا جائعتين جدًا ومتعبتين جدًا، أنهكهما العمل وركبتا سيارة نقل فوق أرض غير ممهدة، كانتا مريضتين، لم تكن غلطتهما».

«ولكنها قالت...».

«لا تلقى بالاً لها، هذه المرأة تحب إثارة المشاكل».

«ولكنها قالت إنك أنت الشيطان».

«أنا أعرف أنها قالت ذلك، لأننى لا أسمح لها بأن تجعل الناس تعساء» وربت على كتفها وقال: «هونى عليك، إنها لا تعرف شيئًا». ثم ابتعد مسرعًا.

ونظرت «روزا شارن» وراءه، كانت كتفاه النحيفتان تهتزان وهو يمشى، كانت لا تزال ترقب هيئته الضامرة عندما عادت الأم نظيفة ووردية، شعرها

مبتل ممشط، وقد جمعته فى عقدة، وارتدت رداءها المشجر وحذاءها القديم المتشقق، وتدلى من أذنيها قرطاها الصغيران.

قالت: «لقد فعلتها، وقفت هناك وتركت الماء الدافئ يتدفق وينساب على، وهناك سيدة قالت إنك تستطيعين أن تفعلى هذا كل يوم إذا أردت... هل أتت لجنة السيدات؟».

فقالت الفتاة: «أوه أوه».

قالت الأم: «وأنت تجلسين هنا ولم تعدى شيئًا فى الخيمة». وأخذت تجمع الأطباق وهى تتكلم:

«لا بد أن نبدو بمظهر حسن، تعالى تحركى، أحضرى الجوال، وحاولى أن تمسحى الأرض». والتقطت الأدوات ووضعت الأوانى فى صندوقها ووضعت الصندوق فى الخيمة ومرت الفتاة قائلة:

«نظمى هذا الفراش، صدقينى لم أشعر بشىء فى مثل حلاوة هذه المياه».

ونفذت «روزا شارن» الأوامر فى فتور: «هل تظنين أن «كونى» سيعود اليوم؟»

«ربما، وربما لا، لا يمكننى أن أعرف».

«هل أنت متأكدة أنه يعلم إلى أين يحضر؟».

«بالتأكيد».

«ماما، أنت لا تظنين... إنهم قد قتلوه عندما أحرقوا...».

فقالت الأم بثقة: «ليس هو، إنه يستطيع أن يهرب عندما يريد، فهو سريع كالأرنب البرى وماكر كالثعلب».

«أتمنى أن يحضر».

«سيحضر عندما يعرف».

«ماما».

«أتمنى أن تشتغلى».

«حسنًا هل تظنين أن الرقص والتمثيل خطايا ستجعلنى أجهض؟».

توقفت الأم عن عملها ووضعت يديها على ردفيها: «والآن عن أى شىء تتكلمين؟ أنت لم تمثلى أبدًا؟».

«ولكن بعضهم هنا فعل ذلك، واحدة من الفتيات أجهضت، نزل طفلها ميتًا وغارقًا فى الدماء، كان ذلك عقابًا لها».

وحملقت الأم فيها وسألتها: «من قال لك هذا؟».

«سيدة جاءت هنا، وهذا الرجل الضئيل فى الملابس البيضاء جاء وقال إن ذلك لم يكن السبب».

عبست الأم وقالت: « «روزا شارن»، كفى عن تأمل نفسك، أنت تدفعين نفسك للبكاء، لست أدرى ما الذى جرى لك؟ لم يفعل أحد من أهلنا هذا، فهم يقبلون ما يحدث لهم دون بكاء، أعتقد أن «كونى» هو الذى علمك كل هذه الأفكار، كان لا يزال صغيرًا على عفريتته». ثم قالت بجفاء: «روزا شارن»، أنت مجرد شخص واحد وهناك أناس كثيرون غيرك، اعرفى نفسك لقد عرفت أناسًا بنوا أنفسهم بالخطيئة حتى ظنوا أنهم أكبر من أن تدركهم يد الرب.

«ولكن يا ماما».

«لا.. اسكتى وهيا إلى العمل، لست من الكبر أو من الخطر حتى تقلقى

الرب، وسأصفعك بظهر يدى إن لم تكفى عن تأمل نفسك». وأزاحت الرمال فى حفرة النار ومسحت الأحجار التى على حافتها، ورأت اللجنة آتية فى الطريق فقالت: «اشتغلى، السيدات آتيات، اشتغلى الآن حتى يمكن أن أفخر أمامهن» ولم تنظر ثانية، ولكنها كانت يقظة لاقتراب اللجنة.

لم يكن هناك أى شك فى أنها اللجنة: ثلاث سيدات، مغتسلات، يرتدين أفضل ملابسهن، امرأة نحيلة ذات شعر مسبسب ونظارات ذات شنبر من الصلب، وامرأة قصيرة ممتلئة ذات شعر رمادى مجعد وفم عذب صغير وامرأة بدينة كالطفل، ضخمة الفخذين والأرداف ضخمة الثديين، عضلية كحصان عربات النقل، قوية وواثقة من نفسها، جاءت اللجنة تمشى عبر الشارع فى اعتزاز.

تعمدت الأم أن يكون ظهرها للقادمات عندما يصلن، توقفن ودرن، ووقفن فى صف واحد، وهدرت المرأة الضخمة قائلة: «صباح الخير، مسز «جود» أليس كذلك؟».

فدارت الأم على عقبيها وكأنها أخذت على غرة وقالت: «طبعًا، نعم، نعم، كيف عرفتن اسمى؟».

فقالت المرأة الضخمة: «نحن اللجنة، لجنة سيدات وحدة النظافة رقم ٤، حصلن على اسمك من المكتب».

قالت الأم فى اضطراب: «لسنا فى هيئة جيدة بعد، يشرفنى أن تدخلن يا سيدات وتجلسن حتى أقدم لكن فنجانًا من القهوة».

وقالت المرأة البدينة: «نقدم لك أسماءنا، «جيسى» اذكرى أسماءنا لمسز «جود». وقالت موضحة: «جيسى هى الرئيسة».

فقالت «جيسى» بلهجة رسمية: «يا مسز «جود» هذه «آنى لتل فيلد» و«إيلا سيمرز» وأنا «جيسى بوليت».

فقالت الأم: «يشرفنى التعارف إليكن، ألا تجلسن؟ لا يوجد ما يمكن الجلوس عليه بعد» ثم أضافت: ولكننى سأصنع فنجان قهوة».

فقالت آنى بطريقة رسمية: «أوه، لا، لا ترهقى نفسك، لقد جئنا لنراك، ولنرى أحوالك ونجعلك تشعرين أنك فى بيتك».

قالت «جيسى بوليت» بجفاء «آنى»، أكون شاكرة لك لو تذكرت أننى الرئيسة».

«أوه فعلاً، فعلاً، ولكن الأسبوع القادم سأكون أنا الرئيسة».

«حسنًا، انتظرى للأسبوع القادم إذًا» ثم وضحت الأمر للأم: «نحن نغير الرئاسة كل أسبوع».

سألت الأم بإلحاح: «ألا ترغبين حقًا فى قليل من القهوة؟».

وأخذت «جيسى» المبادرة وقالت: «لا، شكرًا لك، وحدة النظافة أولاً وعندئذ إن أردت سنسجلك فى نادى السيدات ونحدد لك واجباتك وبالطبع لست ملزمة بالاشتراك».

«هل، هل تكلف كثيرًا؟».

«لا تكلف إلا العمل، وعندما تصبحين معروفة ربما تنتخبين فى هذه اللجنة» وقاطعتها «آنى» قائلة: «جيسى» معنا، عضو فى لجنة كل المعسكر، إنها عضو فى اللجنة الكبيرة».

ابتسمت «جيسى» فى فخر وقالت: «انتخبت بالإجماع، حسنًا يا مسز «جود». حان الوقت فيما أعتقد لكى نوضح لك كيف تسير الأمور فى المخيم».

قالت الأم: «هذه ابنتى «روزا شارن».

فقلن: «كيف حالك؟».

«من الأفضل أن تنضمى لنا أيضًا».

فتكلمت «جيسى» الضخمة، وكل تحركاتها تنم عن الاعتزاز والرقة وقد أعدت كلماتها من قبل: «لا تظنى أننا نتدخل فى شىءونك يا مسز «جود»، فى هذا المخيم أشياء كثيرة يستعملها كل إنسان، ولدينا لوائح وضعناها لأنفسنا، والآن سنذهب إلى الوحدة هناك، كل واحد يستعملها، وعلى كل واحد أن يعتنى بها». ودرجوا إلى القسم غير المسقوف حيث أحواض الغسيل، عشرون حوضًا، ثمانية منها كانت مشغولة، والنساء منحنيات عليها ليغسلن الملابس وقد تكومت الملابس المعصورة على الأرضية الخراسانية النظيفة وقالت جيسى: «فى إمكانك أن تستعملى هذه فى أى وقت تشائين، الشىء الوحيد المطلوب هو أن تتركيها نظيفة».

رفعت النسوة اللاتى كن يغسلن الملابس أبصارهن فى اهتمام، وقالت «جيسى» بصوت مرتفع: «هذه مسز «جود» و«روزا شارن»، جاءتا لتقيما». فحيت النسوة الأم فى تحية جماعية فانحنت لهن الأم انحناءة صغيرة قصيرة وقالت: «يشرفنى أن أقابلكن».

وقادت «جيسى» اللجنة داخل مبنى المراحيض والأدشاش.

قالت الأم: «لقد جئت هنا فعلا، بل إننى أخذت حمَّامًا أيضًا».

قالت جيسى: «هذا ما أقيمت من أجله، وهى بنفس القاعدة، لا بد أن تتركيها نظيفة، وكل أسبوع تقوم لجنة جديدة بمسحها مرة فى اليوم، ربما أصبحت عضوًا فى هذه اللجنة، لابد أن تحضرى صابونك الخاص».

فقالت الأم: «لابد أن نحصل على بعض الصابون، لقد فرغ ما لدينا تمامًا».

اكتسى صوت «جيسى» برنة تبجيل وهى تسأل: «هل سبق لك أن استعملت هذا النوع؟». وأشارت إلى المراحيض.

«نعم يا سيدتى، اليوم صباحًا فقط».

فتنهدت «جيسى» وقالت: «هذا حسن».

قالت إيلا سمرز: «الأسبوع الماضى فقط...».

فقاطعتها «جيسى» بجفاء: «مسز سمرز، سأتكلم أنا».

فاستسلمت إيلا وقالت: «أوه، حاضر».

قالت جيسى: «فى الأسبوع الماضى عندما كنت رئيسة، قمت بكل شىء وأكون شاكرة لو أنك تنحيت هذا الأسبوع».

فقالت إيلا: «طيب، احكى ماذا فعلت السيدة».

فقالت جيسى: «ليس من مهام اللجنة أن تثرثر، ولكنى لن أذكر أسماء، لقد وصلت إحدى السيدات فى الأسبوع الماضى وجاءت إلى هنا قبل أن تصل إليها اللجنة ووضعت بنطلون زوجها فى المرحاض وقالت: «إنها واطئة جدًا، وليست كبيرة بدرجة كافية، تقطم ظهرك فوقها، لماذا لا ترفعونها قليلاً؟» وابتسمت اللجنة ابتسامات متعالية.

وتدخلت إيلا وقالت: «لا يمكننى أن أضع الكثير من الملابس فى كل مرة» وتحاشت نظرة «جيسى» المتجهمة.

قالت جيسى: «مشاكلنا هى ورق التواليت، اللائحة تقول إنه لا يجب أن تأخذى شيئًا منها بعيدًا عن هنا». وطرقعت بلسانها بحدة: «ولكن كل المخيم لا يراعى ذلك، وسكتت لحظة ثم قالت معترفة: والوحدة رقم ٤ تستهلك أكثر من غيرها، بعضهم يسرقه، وقد ذكر ذلك فى اجتماع عام

للسيدات، قسم السيدات فى الوحدة رقم ٤ يستهلك كثيرًا من الورق، ذكر ذلك فى أحد الاجتماعات».

كانت الأم تلاحق الحوار بصعوبة: «يسرقون، لماذا؟».

قالت «جيسى»: «حسنًا، لقد واجهنا هذه المشاكل من قبل، آخر مرة كانت ثلاث فتيات صغيرات يصنعن عرائس من الورق منه، لقد أمسكناهن ولكن لا نعرف هذه المرة، لا نكاد نضع لفة حتى تختفى، ولقد ذكرت ذلك فى الاجتماع، قالت إحدى السيدات إننا يجب أن نضع جرسًا صغيرًا يدق كلما دارت اللفة مرة وعندئذ يمكننا أن نعدكم من الأشخاص الذين يأخذون الورق». وهزت رأسها وقالت: «ولكننى لا أدرى.. لقد شغلنى هذا الأمر طوال الأسبوع، بعضهم يسرق ورق التواليت من الوحدة رقم ٤».

وجاء من الباب صوت ينوح «مس بوليت» والتفتت اللجنة «مس بوليت» لقد سمعت ما تقولين» وقفت امرأة محتقنة الوجه ينضح منها العرق عند الباب وقالت: «لم أستطع أن أقف وأتكلم فى الاجتماع يا مس بوليت، لم أستطع ربما كن سيسخرن منى لو تكلمت».

فتقدمت منها «جيسى» وقالت: «عن أى شىء تتكلمين؟»

«حسنًا، حسنًا، ربما... كنا نحن، ولكننا لا نسرق يا مس بوليت».

وتقدمت «جيسى» منها وقد تجمعت حبات العرق على وجه المعترفة المضطربة: «لا يمكننا تحاشى ذلك يا مس بوليت».

قالت جيسى: «والآن، وضحى ما تقولين، لقد نال الخزى من هذه الوحدة بسبب ورق التواليت».

«طوال الأسبوع يا مس بوليت، اضطررنا إلى ذلك، أنت تعرفين أن عندى خمس فتيات».

وتساءلت جيسى فى لهجة منذرة: «ماذا كن يفعلن به؟»

«يستعملنه فقط، بالشرف، يستعملنه فقط».

«ليس هذا من حقهن، أربع أو خمس ورقات تكفى، ما الحكاية؟».

ومأمأت المرأة باعترافها «إسهال، كن الخمسة عندهن إسهال، لقد فرغت نقودنا فأكلن عنبًا أخضر وأصبن هن الخمس بإسهال شديد.. كل عشر دقائق». ثم دافعت عنهن وقالت: «ولكنهن لا يسرقنه».

وتنهدت «جيسى» وقالت: «كان ينبغى أن تقولى لنا، ينبغى أن تخبرينا، هذه هى الوحدة رقم ٤ ينال منها الحرج والخزى لأنك كتمت عنا هذا، أى إنسان قد يصاب بالإسهال».

وناح الصوت الوديع: «لم أستطع أن أمنعهن عن أكل هذا العنب الأخضر وحالتهن تتزايد سوءًا».

فاندفعت إيلا سيمرز تقول: «الإسعاف، لابد أن يأتى لهن الإسعاف».

قالت جيسى: «إيلا سيمرز... أنا أنبهك لآخر مرة، لست أنت الرئيسة». ثم استدارت إلى المرأة الصغيرة التى احمرت خجلاً: «أليس لديكم نقود يا مسز جويس؟».

خفضت بصرها خجلاً: «لا، ولكن قد نحصل على عمل فى أى وقت»..

فقالت جيسى: «والآن ارفعى رأسك، ليست هذه جريمة، ما عليك إلا أن تذهبى إلى بقالة ويدبادج وتحصلى على بعض الطعام، للمخيم رصيد من عشرين دولارًا» ثم قالت بجفاء: «كيف حدث أن تركت بناتك نهبًا للجوع».

فقالت مسز جويس: «لم نأخذ إحسانًا أبدًا».

قالت «جيسى» فى غضب: «ليس هذا إحسانًا، وأنت تعرفين ذلك، انتهينا من هذا الكلام، لا يوجد فى هذا المخيم إحسان، ولن يكون هناك صدقة، والآن امشى على الفور واحصلى على بعض الأطعمة من البقال واحضرى لى الفاتورة».

قالت مسز جويس بخجل: «افرضى أننا لم نتمكن من الدفع أبدًا؟ افرضى أننا لم نحصل على عمل لوقت طويل».

«ستدفعون إن تمكنتم من ذلك، وإن لم تتمكنوا فليست هذه مسئوليتنا ولا مسئوليتكم، لقد رحل أحد النزلاء وبعد شهرين أرسل لنا النقود، ليس من حقك أن تتركى بناتك نهبًا للجوع فى هذا المخيم».

رضخت مسز جويس وقالت: «نعم يا سيدتى».

وأمرتها جيسى: «أحضرى بعض الجبن للبنات، فذلك سيفيد فى الإسهال». وخرجت مسز جويس من الباب وهى تقول: «نعم يا سيدتى».

واستدارت «جيسى» إلى اللجنة فى غضب وقالت: «ليس من حقها أن تعاند، ليس من حقها هذا، ليس بين الأهل».

قالت آنى لتل فيلد: «لم تقم هنا طويلاً، ربما لم تكن تعرف، ربما أخذت صدقة مرة، أو..» ثم قالت: «لا تسكتينى يا جيسى، من حقى أن أتكلم». والتفتت إلى الأم: «إذا أخذ إنسان صدقة مرة، فإنها تترك فيه جرحًا لا يندمل، ليس هذا إحسانًا ولكن إن أخذته مرة، فلن تنسيه أبدًا، أعتقد أن «جيسى» لم تجرب ذلك بعد».

وقالت جيسى: «لا، لم أجرب».

فقالت آني: «حسنًا، لقد أخذت أنا مرة إحسانًا، في الشتاء الماضي، وكنا نموت من الجوع أنا والأب والصغار وكانت السماء تمطر، نصحنا رجل أن نذهب إلى جيش الخلاص». وازدادت نظرتها قسوة وهي تقول: «كنا جائعين، وجعلونا نزحف على بطوننا من أجل عشائنا، سلبونا كرامتنا، إنه..، أنا أكرههم و... ربما أخذت مسز جويس إحسانًا مرة، ربما لم تكن تعرف أن هذا ليس إحسانًا، مسز: «جود»، نحن لا نسمح لأحد في هذا المخيم، أن يتصرف بهذه الطريقة، نحن لا نسمح لأحد بأن يعطي شيئًا لإنسان آخر، في إمكانهم أن يعطوه للمخيم، والمخيم يوزعه، ليس لدينا إحسان». كان صوتها عنيفًا أجش وقالت: «أنا أكرههم، لم أر زوجي يُضرب من قبل أبدًا، ولكن في جيش الخلاص هذا ضربوه».

فأومأت «جيسي» برأسها وقالت: «لقد سمعت ذلك، لقد سمعت به، لابد أن نفرِّج مسز «جود» على المخيم».

قالت الأم «إنه جميل فعلاً».

قالت آني مقترحة: «نذهب إلى حجرة الخياطة، لدينا ماكينتان، هناك تنجيد ويصنعون الفساتين، ربما تحبين أن تشتغلي هناك».

* * *

عندما جاءت اللجنة إلى الأم اختفت «روثي» و«وينفلد» في هدوء بعيدًا عن الأنظار..

وسألها «وينفلد»: «لماذا لا نذهب ونسمعهم؟».

فقبضت «روثي» على ذراعه وقالت: «لا لقد اغتسلنا من أجل بنات الزواني هؤلاء ولن أذهب معهن».

فقال «وينفلد»: «لقد فتنت على بخصوص المرحاض وسأقول عن الكلام الذى قلتيه عن السيدات».

وعبر وجه «روثى» ظل من الخوف: «لا تفعل ذلك، لقد قلت لأننى كنت أعرف أنك لم تكسره فعلاً».

فقال «وينفلد»: «لا.. غير صحيح».

قالت «روثى»: «تعال لنتفرج» ومشيا إلى صف الخيام، يحملقان داخل كل منها بلا تهيب، وعند آخر الوحدة كانت هناك أرض مستوية أقيم عليها ملعب كروكيت.

كان ستة من الأطفال مستغرقين فى اللعب، وجلست سيدة عجوز أمام إحدى الخيام، فوق دكة تراقبهم، ودخلت «روثى» و«وينفلد» قفزا، وصاحت «روثى»: «دعونا نلعب، دعونا نشترك فى اللعب معكم».

نظر الأطفال لهما، وقالت فتاة عقصت شعرها فى ضفيرة ذيل حصان: «فى اللعبة التالية يمكنكما أن تشتركا».

فصاحت «روثى»: «أريد أن ألعب الآن».

«ولكن لا يمكن، ليس قبل اللعبة التالية».

ودخلت «روثى» غاضبة فى الملعب وقالت: «سألعب».

وأحكمت الفتاة ذات الضفائر قبضتها على مضربها، فهجمت عليها «روثى» وصفعتها، ودفعتها ولوت ذراعها وأخذت منها المضرب وقالت فى لهجة ظافرة: «أنا قلت سألعب».

وقفت السيدة العجوز ومشت إلى الملعب، وعوت «روثى» بعنف وتصلبت يداها على المضرب، قالت السيدة: «دعوها تلعب، كما فعلتم مع رالف فى الأسبوع الماضى».

وضع الأطفال مضاربهم على الأرض وخرجوا من أرض الملعب في طابور ووقفوا بعيدًا ينظرون بعيون صماء، وراقبتهم «روثى» وهم ينصرفون، ثم ضربت إحدى الكرات وجرت وراءها وصاحت: «تعال يا «وينفلد»، خذ لك عصا». ثم نظرت فى دهشة. كان «وينفلد» قد لحق بالأطفال الذين وقفوا يرقبونها، وهو أيضًا وقف ينظر لها بعينين جامدتين، ضربت الكرة مرة ثانية فى تحد فأثارت ترابًا كثيرًا وتظاهرت أنها مسرورة فى اللعب، والأطفال وقفوا يرقبونها، وضعت «روثى» كرتين بجوار بعضهما وضربتهما وأدارت ظهرها للعيون التى ترقبها ثم استدارت ثانيًا، وفجأة تقدمت منهم والمضرب فى يدها وقالت بلهجة آمرة: «تعالوا والعبوا»، وتراجعوا فى صمت وهى تقترب، وحملقت فيهم لحظة، ثم طوحت بالمضرب على الأرض وجرت تبكى إلى خيمتها، وعاد الأطفال إلى الملعب.

قالت الفتاة ذات الضفائر لـ «وينفلد»: «تستطيع أن تشترك فى اللعبة التالية».

وحذرتهم السيدة التى تراقبهم قائلة: «عندما تعود، وتطلب فى أدب أن تشترك، اسمحوا لها، لقد كنت أنت مثلها يا آمى».

واستمرت اللعبة، بينما كانت «روثى» تبكى فى تعاسة فى خيمة العائلة.

* * *

سارت السيارة عبر الطريق الجميلة، عبر البساتين حيث بدأت ثمار الخوخ تتلون، عبر بساتين الكروم والعناقيد بيضاء وخضراء، تحت صفوف من أشجار الجوز تتدلى أغصانها لتغطى نصف الطريق، وعند كل مدخل

كان «آل» يبطئ السيارة، وعلى كل بوابة كانت هناك لافتة تقول: «لا نريد مساعدة، ممنوع الدخول».

قال «آل»: «أبى، من المؤكد أنه سيكون هناك عمل عندما تنضج هذه الفاكهة، مكان غريب، يقولون لك لا يوجد عمل قبل أن تسألهم». واستمر يقود السيارة ببطء.

قال الأب: «ربما أمكننا أن ندخل بأى طريقة ونسأل ما إذا كانوا يعرفون مكانًا للعمل، ربما كان يجب علينا أن نفعل هذا؟».

كان أحد الرجال يرتدى عفريتة زرقاء وقميصًا، يمشى على حافة الطريق. ووقف «آل» بجواره وقال: «هاى، مستر... أتعرف أى مكان به عمل؟».

وقف الرجل وابتسم وظهر فمه خاليًا من الأسنان وقال: «لا... هل تعرف أنت؟ أنا أمشى من أسبوع ولم أتمكن من العثور على عمل».

فسأله «آل»: «هل تقيم فى مخيم الحكومة هذا؟».

«أيوه».

«تعال إذًا، اصعد فى الخلف وسنبحث معًا». وتسلق الرجل جانب العربة ونزل على أرضيتها.

قال الأب: «لا أشعر أننا سنجد أى عمل، ومع ذلك لابد أن نبحث، نحن لا نعرف حتى أين نبحث؟».

قال «آل»: «كان من الواجب أن نتكلم مع الرجال فى المخيم، كيف حالك يا عم «جون»؟»

قال العم «جون»: «متوجع، كلى متوجع، وأحس بالمصيبة آتية، لابد أن أرحل حتى لا يحل القصاص على أهلى بسببى».

وضع الأب يده على ركبة «جون» وقال: «اسمع، لا تتركنا، نحن نفقد الأهل طول الوقت، الجد والجدة ماتا، و«نوح» و«كونى» هربا، والواعظ دخل السجن».

قال «جون»: «عندى إحساس أننا سنرى هذا الواعظ ثانية».

وأمسك «آل» بمقبض محول السرعة وقال: «لست فى حالة طيبة تسمح لى بالتنبؤ، إلى الجحيم بكل هذا، لنرجع ونسأل ونعرف أين يوجد بعض العمل، نحن كمن يحاول صيد الظربان تحت الماء»، وأوقف السيارة وأطل إلى الخلف وقال: «هاى، اسمع، سنرجع إلى المخيم ونحاول أن نعرف أين يوجد عمل، لا فائدة من أن نحرق البنزين بهذا الشكل».

ومال الرجل على جانب السيارة وقال: «وأنا أرحب بهذه الفكرة، لقد، بليت قدماى حتى الكاحلين، وليس عندى ولا لقمة».

ودار «آل» بالسيارة فى منتصف الطريق وكر بها راجعًا.

قال الأب: «ستتألم الأم كثيرًا، خصوصًا أن «توم» حصل على عمل بسهولة».

قال «آل»: «ربما لم يحصل على أى عمل، ربما خرج للبحث هو الآخر، ووددت لو حصلت على عمل فى جراج أستطيع أن أدرس هذه المهنة بسرعة، وسأحبها».

ودمدم الأب وكروا راجعين إلى المخيم فى صمت.

* * *

عندما انصرفت اللجنة جلست الأم على أحد الصناديق أمام خيمة العائلة ونظرت إلى «روزا شارن» فى عجز وقالت: «إيه، حسنًا، لم أهتم بهندامى هكذا منذ سنين، ما أطيب هؤلاء السيدات؟».

قالت «روزا شارن»: «سأعمل فى الحضانة، لقد قالوا لى ذلك، من الممكن أن أجد هناك كل ما يتعلق بالأطفال، وعندئذ سأتعلم».

وأومأت الأم برأسها متعجبة وتساءلت: «ألن يكون الأمر جميلاً إذا ما اشتغل كل الرجال، هم يعملون، ونحصل على قليل من النقود؟». وجالت عيناها فى الفناء: «هم يعملون، ونحن نعمل هنا، وكل هؤلاء الناس الطيبون أول شىء سأفعله بعد أن نستقر فترة هو أن أحصل على فرن صغير... فرن جيد، إنه لا يكلف كثيرًا، وربما حصلنا على خيمة كبيرة تسعنا، وربما على ملل سلك مستعملة للأسرة، ويمكننا أن نستعمل هذه الخيمة فى تناول الطعام، وفى أمسيات السبت نذهب لحفلات الرقص، يقولون إن فى إمكاننا أن ندعو آخرين إن أردنا، وددت لو أن لنا بعض الأصدقاء لندعوهم، ربما تعرف الرجال على بعضهم لندعوهم».

وحملقت «روزا شارن» فى الطريق أمامها وبدأت تقول: «هذه هى السيدة التى قالت إننى سأفقد طفلى...».

فقالت الأم محذرة: «والآن كفى عن هذا».

فقالت «روزا شارن» بصوت خافت: «رأيتها، أعتقد أنها آتية هنا، أيوه، ها هى آتية، ماما لا تسمحى لها...».

واستدارت الأم ونظرت إلى المرأة المقبلة.

قالت المرأة: «كيف حالكم؟ أنا مسز ساندرى.. إليزابيث ساندرى تعرفت على ابنتك هذا الصباح».

قالت الأم: «كيف حالك؟».

«هل أنت سعيدة فى الرب؟».

فقالت الأم: «سعيدة جدًا».

«هل خلصت؟».

«لقد خلصت» كان وجه الأم مشدودًا ومترقبًا.

قالت إليزابيث: «حسنًا، أنا سعيدة، الخطاة أقوياء جدًا هنا، لقد جئتم إلى مكان فظيع، هناك شرور فى كل مكان يحيط بنا، ناس أشرار شرورًا لدرجة أن المسيحى الوديع كالحمل لا يمكنه أن يتحملها، الخطاة فى كل مكان حولنا».

واحتقن وجه الأم قليلاً وأحكمت إغلاق فمها وقالت فى اقتضاب: «يبدو لى أن الناس هنا طيبون».

واتسعت عينا مسز ساندرى وصاحت: «طيبون؟!.. أتظنين أنهم طيبون بينما هم يرقصون ويتحاضنون؟ أنا أقول لك إن روحك الخالدة ليس لها أى فرصة فى هذا المخيم، لقد ذهبت إلى صلاة فى «ويدباتش» الليلة الماضية، أتعرفين ماذا قال الواعظ؟ قال: هناك شرور فى ذلك المخيم. قال: إن الفقراء يحاولون أن يصبحوا أغنياء، قال: إنهم يرقصون ويتحاضنون بينما كان يجب أن يعولوا وينوحوا من الخطيئة، هذا ما قاله، قال: كل إنسان ليس هنا الآن تركبه الذنوب السوداء، صدقونى إن سماع هذا الكلام يجعل الإنسان يحس بسعادة، وعرفت أننا فى أمان فنحن لم نرقص».

أحمّر وجه الأم ووقفت ببطء فى مواجهة مسز ساندرى وقالت: «هيا، هيا اذهبى الآن قبل أن أصبح خاطئة وأقول لك أين تذهبين، اذهبى إلى نواحك وعويلك».

فغرت مسز ساندرى فاها، وخطت إلى الخلف، ثم قالت فى شراسة: «ظننت أنكم مسيحيون؟».

فقالت الأم: «نحن مسيحيون فعلاً»

«لا.. لستم مسيحيين، أنتم خطاة، ستحترقون فى جهنم، كلكم، وسأذكر ذلك فى اجتماع الصلاة أيضًا، أستطيع أن أرى روحك السوداء تحترق، أستطيع أن أرى هذا الطفل البرىء فى بطن هذه الفتاة يحترق».

وأفلتت صرخة معولة خافتة من شفتى «روزا شارن» وانحنت الأم والتقطت عصا من الخشب، وقالت فى جفاء: «اذهبى، لا تعودى هنا أبدًا، لقد رأيت أمثالك من قبل، أنت تستمتعين بذلك؟ أليس كذلك؟» وتقدمت الأم من مسز ساندرى، وتراجعت المرأة لحظة ثم ألقت برأسها فجأة إلى الخلف وعوت. ابيضت عيناها وارتخت كتفاها، وتدلى ذراعاها بجوارها وسال من زاوية فمها خيط من اللعاب اللزج، عوت مرة أخرى وثالثة، عواء حيوانيًا عميقًا، وجرى الرجال والنساء من الخيام الأخرى ووقفوا بالقرب منها.. خائفين ساكتين، جثت المرأة ببطء على ركبتيها، وتحول العواء إلى زمجرة متشنجة متلعثمة والزبد يملأ فمها ثم وقعت على الأرض يتقلص ذراعاها وساقاها، وظهر بياض عينيها تحت جفنيها المفتوحتين..

قال أحد الرجال بصوت خافت: «الروح، إن بها روحًا»، ووقفت الأم تنظر إلى الجسد المتقلص.

جاء المدير الصغير فى هدوء وسأل: «أى مشاكل؟». وانفرجت جمهرة الواقفين لتسمح له بالمرور، فنظر إلى المرأة وقال: «شىء سيئ جدًا، هل يمكن أن يساعدنى بعضكم فى إرجاعها إلى خيمتها؟». وتململ الناس الصامتون وانحنى رجلان ورفعا المرأة، حملها أحدهما من تحت إبطيها ورفع الآخر قدميها، حملاها بعيدًا وتحرك الناس ببطء خلفهما ودخلت «روزا شارن» تحت المشمع ورقدت هناك وغطت وجهها بالبطانية.

نظر المدير إلى الأم وأرخى بصره إلى العصا فى يدها، وابتسم ابتسامة متعبة وسألها: «هل ضربتيها؟».

واستمرت الأم تشخص خلف الناس المنسحبين وهزت رأسها ببطء: «لا، ولكننى وددت لو فعلت، لقد أزعجت ابنتى مرتين اليوم».

قال المدير: «حاولى ألا تضربيها، ليست بخير، إنها ليست بخير فقط». ثم أضاف برفق: «وددت لو ذهبتْ من هنا، هى وكل عائلتها،فهى تثير من المشاكل فى المخيم أكثر من كل الآخرين».

وسيطرت الأم على نفسها ثانية وقالت: «إذا عادت ثانية، فربما ضربتها، لست متأكدة، لن أدعها تزعج ابنتى ثانية».

قال: «لا تشغلى نفسك بها يا مسز «جود»، لن تريها أبدًا مرة أخرى، فهى تهتم بالقادمين الجدد، لن تعود ثانية أبدًا، إنها تعتقد الآن أنك خاطئة».

قالت الأم: «حسنًا، أنا خاطئة».

«بالتأكيد، كل إنسان كذلك، ولكن ليس بالشكل الذى تعنيه، إنها ليست بخير يا مسز «جود».

ونظرت إليه الأم فى امتنان وصاحت: «اسمعتِ هذا يا «روزا شارن»؟ إنها ليست بخير، إنها مجنونة». ولكن الفتاة لم ترفع رأسها وقالت الأم: «أنا أنذرك يا سيدى، إذا عادت ثانية فلا تطمئن لى، سأضربها».

فاغتصب ابتسامة وقال: «أنا أعرف ما تشعرين به، ولكن حاولى ألا تضربيها، هذا كل ما أرجوه، حاولى ألا تضربيها فقط». مشى مبتعدًا فى بطء ناحية الخيمة التى حملوا إليها مسز ساندرى.

دخلت الأم الخيمة وجلست بجوار «روزا شارن» وقالت: «اسمعى..» رقدت الفتاة بلا حراك، فرفعت الأم البطانية برقة من فوق وجه ابنتها وقالت: «هذه المرأة مجنونة، لا تصدقى أى شىء مما تقول».

فهمست «روزا شارن» بفزع: «عندما تكلمت عن الحرق، أحسست أننى أحترق».

فقالت الأم: «أوهام».

فهمست الفتاة: «لقد تعبت، لقد تعبت مما يحدث لى، أريد أن أنام، أريد أن أنام».

«حسنًا، نامى إذًا، هنا مكان جميل تستطيعين النوم فيه».

«ولكن ربما عادت».

فقالت الأم: «لن تعود، سأجلس هنا فى الخارج ولن أسمح لها بالعودة استريحى الآن، لأنك لابد أن تذهبى إلى العمل فى الحضانة، فى القريب العاجل».

ونهضت الأم واقفة وذهبت لتجلس عند مدخل الخيمة، جلست على أحد الصناديق ووضعت مرفقيها على ركبتيها وأسندت ذقنها فى يديها المضمومتين، شاهدت الحركة فى المخيم، وسمعت أصوات أطفال وطرقات مطرقة، ولكن عينيها كانتا تشخصان فى الفراغ أمامها.

وعندما عاد الأب عبر الطريق وجدها هناك، فتربع بالقرب منها، نظرت إليه ببطء وسألت: «أوجدتم عملاً؟».

فقال بخجل: «لا، لقد بحثنا».

«أين «آل» و«جون» والسيارة؟».

«آل» يصلح شيئًا ما، واضطر لاقتراض بعض الأدوات وقال الرجل إن على «آل» أن يصلحها هناك بجواره».

فقالت الأم بحزن: «المكان جميل هنا، يمكننا أن نعيش سعداء هنا لبعض الوقت».

«إذا استطعنا أن نجد عملاً».

«أيوه، إن استطعنا أن نجد عملاً».

وأحس بأنها حزينة فتفحص وجهها وسأل: «ما الذى يجعلك مكتئبة؟ إذا كان هذا المكان جميلاً فلماذا تكتئبين؟».

حملقت فيه الأم وأغلقت عينيها ببطء وقالت: «غريبة، أليس كذلك؟ طول الوقت ونحن نتحرك وننتقل لم نفكر أبدًا، والآن، هؤلاء الناس هنا كانوا طيبين معى، طيبين جدًا، فما الذى فعلته فورًا؟ عدت بذاكرتى إلى الأشياء المحزنة، لتلك الليلة التى مات فيها الجد ودفناه، كنت متعبة تمامًا من الطريق والخضخضة والحركة ومع ذلك لم يكن الأمر شديد الوطأة، ولكن الآن وقد وصلنا إلى هنا فالحال أسوأ.. والجدة، و«نوح» يرحل كما فعل، يمضى بعيدًا ليعيش على النهر، كل هذه الأشياء جزء من كل، والآن تتوارد كلها على خاطرى، الجدة معدمة ودفنت كمعدمة، ما أشد ما أشعر بالألم الآن، ما أشد الألم و«نوح» يمضى بعيدًا على النهر، لا يعرف ماذا هناك، لا يعرف أبدًا، ونحن لا نعرف أيضًا، لن نعرف أبدًا ما إذا كان حيًا أم ميتًا، لن نعرف أبدًا. و«كونى» يتسلل هاربًا، لم يكن لكل هذا مكان فى أفكارى من قبل ولكنها الآن تتوارد راجعة، هذا بينما يجب أن أكون سعيدة لأننا فى مكان جميل..» جلس الأب ينظر إلى فمها وهى تتكلم، كانت عيناها مغمضتين».. أستطيع أن أذكر كيف كان منظر تلك الجبال، حادة كأسنان العجوز بجوار النهر حيث مشى «نوح»، أستطيع أن أذكر كيف كان منظر بقايا الحنطة على الأرض حيث رقد الجد، أستطيع أن أذكر قرمة الذبح هناك فى البيت وقد تعلقت بها ريشة وتقاطعت على سطحها آثار السكين، سوداء بدماء الدجاج».

واندمج الأب فى جوها وقال: «اليوم رأيت أسراب البط تطير عالية نحو الجنوب، تبدو مستعجلة جدًا ورأيت الطيور السوداء فوق الأسلاك، والحمائم فوق الأسوار».

وفتحت الأم عينيها ونظرت إليه، واستمر يقول: «رأيت دوامة هوائية وكان رجلاً يدور حول نفسه عابرًا الحقل، والبط يندفع إلى هناك، إلى الجنوب».

فابتسمت الأم وقالت: «أتذكر؟ أتذكر ما كنا نقوله على الدوام فى البيت؟ كنا نقول: الشتاء جاء مبكرًا، عندما يطير البط فوقنا، دائمًا كنا نقول ذلك والحق أن الشتاء يأتى عندما يحين موعده، ولكننا كنا دائمًا نقول: إن الشتاء أتى مبكرًا، يا ترى ماذا كنا نقصد بهذا؟».

قال الأب: «رأيت الشحارير على الأسلاك، تقف متلاصقة، ورأيت الحمام، ليس مثل الحمام طائر يقف على أسلاك الأسوار بلا حركة، ربما ترى العين حمامتين واقفتين متجاورتين وتلك الدوامة الصغيرة كبيرة فى حجم الرجل ترقص عبر الحقل، كبيرة كالرجل وتعبث كالصغار».

قالت الأم: «وددت لو استطعت ألا أفكر فى حال البيت الآن، لم يعد بيتنا. وددت لو استطعت أن أنساه، و(نوح)...».

«لم يكن أبدًا بخير ـ أقصد ـ إنها كانت غلطتى».

«قلت لك لا تقل ذلك أبدًا، ربما ما كان ليعيش أبدًا».

«ولكن كان يجب أن أعرف أكثر مما كنت أعرف».

فقالت الأم: «كفى الآن، كان «نوح» غريبًا، ربما عاش حياة طيبة بجوار النهر، ربما كان ذلك أفضل، لا يمكن أن نشغل أنفسنا، هنا مكان جميل، ربما استطعتم أن تجدوا عملاً بسرعة».

وأشار الأب إلى السماء وقال: «انظرى، مزيد من البط، مجموعة كبيرة، ماما، الشتاء يأتى مبكرًا».

وضحكت الأم بصوت خفيض: «هناك أشياء تفعلها وأنت لا تعرف لماذا؟».

قال الأب: «لقد أتى «جون»... تعال يا «جون» واجلس».

وانضم «جون» إليهما، تربع أمام الأم وقال: «لم نذهب إلى مكان محدد... مجرد جرينا فى هذه الأنحاء، اسمع، «آل» يريد أن يراك، يقول إنه يجب أن يحصل على إطار فلم يعد فى الإطار القديم غير طبقة واحدة من التيل كما يقول».

وقف الأب: «أرجو أن يستطيع الحصول عليها رخيصة، لم يتبق لدينا الكثير، أين «آل»؟».

«هناك بعد التقاطع الثانى در يمينًا، يقول إنها ستنفجر وتفسد الأنبوب الداخلى إن لم نحصل على أخرى جديدة». ومشى الأب مبتعدًا وعيناه تتبعان سرب البط المنطلق كالسهم فى السماء.

والتقط العم «جون» حجرًا، وأسقطه من راحته ثم التقطه ثانية، وقال دون أن ينظر إلى الأم: «لا يوجد عمل».

فردت الأم: «أنتم لم تبحثوا فى كل مكان».

«لا، ولكن هناك لافتات فى كل مكان».

«حسنًا، لابد أن «توم» قد حصل على عمل، فهو لم يرجع».

وقال العم «جون» متسائلاً: «ربما تركنا وذهب، كما فعل «كونى» أو «نوح»؟».

نظرت إليه الأم بحدة ثم لانت نظراتها وقالت: «هناك أشياء يعرفها الإنسان، هناك أمور يكون على ثقة منها، لقد حصل «توم» على عمل وسيعود فى المساء، هذه حقيقة». وابتسمت فى رضا وقالت: «يا له من ولد لطيف، يا له من ولد طيب».

بدأت السيارات واللوريات تعود إلى المخيم، ومشى الرجال فى طوابير إلى وحدة النظافة، وكل منهم يحمل عفريتة وقميصًا نظيفين فى يده.

تنبهت الأم لنفسها وقالت: «جون» اذهب وابحث عن الأب لكى يذهب إلى المحل، أنا فى حاجة إلى فاصوليا وسكر وقطعة من لحم التحمير وجزر، قل للأب أن يحضر معه أى حاجة حلوة.. أى حاجة.. ولكن حلوة للمساء.. الليلة لابد أن يكون عندنا حاجة حلوة».

الفصل الثالث والعشرون

كان المهاجرون وهم فى لهفتهم على العمل ونبشهم وراء الرزق، يبحثون على الدوام عن المتعة، يغوصون وراءها، يصنعونها، كانوا جوعى للترفيه والمرح، فى بعض الأحيان يكمن المرح فى الكلام، فيتسلقون شعاب حياتهم بالنكات، وفى المخيمات على طول الطرق وفى المنخفضات على شطآن الأنهار، وتحت أشجار الجميز، نمت مكانة الرواة، حيث يتجمع الناس على ضوء النار الخافت لكى يسمعوا الموهوبين منهم، ينصتون للحكايات وهى تروى فتزداد عظمة بإنصاتهم.

«كنت مجندًا ضد جيرونيمو».

«والناس ينصتون، وعلى عيونهم الهادئة تنعكس أضواء النار الخابية».

«هؤلاء الهنود كانوا أذكياء ـ يزحفون كالحيات، ويتوقفون فى هدوء عندما يريدون».

«يستطيعون أن يمشوا على أوراق الشجر الجافة ولا تصدر عنهم أى خشخشة، حاول أن تفعل ذلك مرة».

والناس تنصت وتتذكر صوت تكسر الأوراق الجافة تحت أقدامهم.

وتتغير الفصول، وتتكاثر السحب، زمن سيئ، هل سمعت أبدًا عن جيش يفعل أى شىء كما ينبغى؟ اعط الجيش عشر فرص يضيعها، إن قتل مائة شجاع يحتاج إلى ثلاث كتائب... على الدوام..

والناس تنصت، والوجوه مستغرقة فيما تسمع، والرواة يجذبون الانتباه إلى حكايتهم، فيتكلمون فى إيقاع عظيم، ويستخدمون كلمات عظيمة، لأن الحكايات كانت عظيمة والذين ينصتون يتحولون إلى عظماء خلالها.

كان الشجاع فوق القمة، أمام الشمس، يعرف أنه قد أحيط به، ففرد ذراعيه، ووقف عاريًا كالصباح أمام الشمس، ربما كان مجنونًا، لا أعرف، وقف هناك، ذراعاه مفرودتان فبدا كالصليب، وعلى بعد أربعمائة ياردة وقف الرجال..، رفعوا أبصارهم وتحسسوا اتجاه الريح بأصابعهم ثم لم يفعلوا شيئًا إلا أن رقدوا، ولم يستطع أحدهم أن يطلق النار، ربما كان ذلك الهندى يعرف السر، يعرف أننا لم نتمكن من إطلاق النار، رقدنا هناك وبنادقنا مرفوعة الزناد، ولم نستطع حتى أن نرفعها إلى أكتافنا، نظرنا إليه، عصابة على الرأس، وريشة واحدة، كنا نراه عاريًا كالشمس، رقدنا هناك وقتًا طويلاً ننظر وهو لا يتحرك أبدًا، ثم جن الكابتن وصاح: أطلقوا النار يا أبناء الزنى يا مجانينُ، أطلقوا، ولم يتحرك واحد منا من رقدته، رفعنا بنادقنا ببطء وكل إنسان تمنى أن يطلق أحدهم النار أولاً، لم أكن حزينًا فى حياتى مثلما كنت يومها، وركزت أنظارى على بطنه لأنك لا يمكنك أن تصيب الهندى فى أى مكان آخر... و.. عندئذ... حسنًا، تهاوى الرجل وتدحرج وصعدنا إليه لم يكن كبير الحجم وإن بدا عظيمًا هناك فى المكان العالى، وقد تمزق إربًا، هل رأيت مرة ديكًا بريًا، مشدودًا وجميلاً وكل ريشة من ريشه مرسومة وملونة، وحتى عيناه مرسومتان فى جمال أخاذ؟ وطاغ، وتلتقطه غارقًا فى الدماء مكومًا فتحس بأنك أفسدت شيئًا

جميلاً فى داخلك، ولا يخطر فى بالك أبدًا أن تأكله لأنك أفسدت شيئًا فى داخلك، ولا يمكنك أن تصلحه.

ويومئ الناس، وربما تنفث النار ضوءًا بسيطًا يكشف عن عيونهم التى تتأمل نفوسهم من الداخل.

فى مواجهة الشمس وذراعاه ممدوتان، بدا كبيرًا كإله.

وربما يوازن رجل معه عشرون سنتًا بين الطعام والمتعة ثم يذهب إلى السينما فى ماريزفيل أو طولار، فى سيريس أو ماونتن فيو، ويعود إلى المخيم فى المنخفض بجوار الطريق بذاكرة مزدحمة ويحكى كيف كان الفيلم.

كان هناك هذا الرجل الغنى وادعى أنه فقير، وكانت هناك فتاة غنية ادعت أنها فقيرة هى الأخرى وتقابل الاثنان فى بوفيه ساندويتشات.

لماذا؟

لا أدرى لماذا... ولكن هكذا كان الفيلم.

لماذا ادعوا أنهم فقراء؟

حسنًا، لقد تعبوا من كونهم أغنياء.

كلام فارغ.

أتريد أن تسمع القصة أم لا؟

حسنًا، استمر، فعلاً، أريد سماعها، ولكن لو كنت غنيًا ـ لو كنت غنيًا لأحضرت كثيرًا من ضلوع لحم الخنازير ووضعتها حولى كالغابة ثم أشق طريقى أكلاً خلالها، استمر.

حسنًا، ظن كل منهما أن الآخر فقير، ثم قبض عليهما ووضعا فى

السجن ولم يخرجا لأن كلاً منهما خشى أن يعرف الآخر أنه غنى، وعاملهما حارس السجن بخسة، لأنه ظن أنهما فقيران، كان يجب أن ترى كيف كان منظره عندما اكتشف الحقيقة، اغمى عليه تقريبًا، هذا كل ما هناك.

ولماذا دخلا السجن؟

حسنًا، لقد ألقى القبض عليهما فى اجتماع راديكالى ولكنهما لم يكونا راديكاليين، لقد حدث أنهما كانا هناك بالمصادفة ولم يكن أحد منهما يريد الزواج من أجل المال، فاهم؟

وهكذا بدأ أبناء العاهرة بالكذب على بعضهما البعض من البداية.

حسنًا، فى الفيلم، بدا كأنهما يفعلان شيئًا طيبًا، كانا طيبين مع الناس فاهم.

ذهبت مرة إلى فيلم، كان عن نفسى وأكثر من نفسى، عن حياتى وأكثر من حياتى، كل شىء كان أكبر مما هو.

حسنًا، لدى ما يكفى من الأسى وددت لو انصرفت.

بالتأكيد، إذا استطعت أن تصدق ما ترى.

وهكذا تزوجا، ثم اكتشفا الحقيقة، وعرفها كل الناس الذين عاملوهما بخسة، كان هناك شخص عاملهما بفظاظة وقد أغمى عليه تقريبًا عندما دخل عليه الرجل مرتديًا قبعة عالية، تقريبًا أغمى عليه، وكانت هناك جريدة إخبارية فيها جنود ألمان من الذين يدقون بكعوبهم... غريبة جدًا.

وعلى الدوام، إذا حصل رجل على قليل من النقود فهو يذهب ويسكر، فتتبدد المتاعب، ويحس بدفء الحياة، ثم لا يشعر الإنسان بالوحدة لأن الإنسان عندئذ يستطيع أن يحشد مخيلته بالأصدقاء، وأن يعثر على أعدائه ويحطمهم، وإذا كان جالسًا على الأرض بجوار الطريق تستطيب الأرض

تحته وتتوارى هزائمه ولا يصبح المستقبل خطرًا يتهدده، ولا يحوم الجوع حوله، بل يصبح العالم رقيقًا وسهلاً، ويستطيع الإنسان أن يصل إلى المكان الذى بدأ طريقه إليه، وتقترب منه النجوم، وتصفو السماء، ويصبح الموت صديقًا، والنوم شقيق الموت، وتعود ذكرى الأيام الخوالى ـ فتاة ذات أقدام جميلة رقصت مرة فى البيت ـ حصان ـ منذ وقت طويل، حصان وسرج،وجلد السرج عليه نقوش، متى كان ذلك؟ لابد من فتاة للتحدث معها، هذا جميل، ربما ضاجعتها أيضًا ولكن الدفء هنا، والنجوم جد قريبة، والحزن والفرح متلازمان، شىء واحد فى الحقيقة، يود الإنسان لو ظل يشرب طول الوقت، من الذى قال إنه سيئ، من يجرؤ على هذا القول؟ الوعاظ ـ ولكنهم يسكرون بطريقتهم الخاصة، نساء نحيلات عواقر ولكنهن أتعس من أن يدركن ـ مصلحون، ولكنهم لا يتعمقون الحياة حتى يمكنهم أن يعرفوا لا ـ النجوم قريبة وعزيزة ولقد تآخيت مع الكون، وكل شىء مقدس، كل شىء... حتى أنا.

من السهل أن يحمل الإنسان هارمونيكا. تخرجها من جيبك وتضرب بها على راحتك لكى تنظفها من التراب وبقايا الجيب وذرات التبغ، وتصبح جاهزة، تستطيع أن تفعل أى شىء بالهارمونيكا، نغمة مفردة حادة كنغمات الناى، أو أنغام وترية، أو نغم ذو إيقاع وترى، تستطيع أن تشكل الموسيقى بيديك المقوستين فتجعلها تعول وتصبح كموسيقى القرب، ممتلئة ومستديرة كأنها عضو من أعضائك، حادة وآسية كناى التلال، يمكنك أن تعزف ثم تعيدها إلى جيبك. وفى كل مرة تعزف فيها تتعلم مزيدًا من الحيل، والطرق الجديدة لكى تخرج النغم بيديك، لكى تقطع اللحن بشفتيك، ولا أحد يعلمك، تملأ المكان حولك، أحيانًا وأنت وحيد فى الظل ساعة الظهيرة وأحيانًا أخرى على باب الخيمة بعد العشاء عندما تنشغل النساء فى غسيل الأطباق، وقدمك تدق برفق على الأرض،

وحاجباك يرتفعان وينخفضان مع الإيقاع، وإذا فقدتها أو كسرتها، فليست خسارة كبيرة، تستطيع أن تشترى غيرها بربع دولار.

والجيتار أكثر قيمة، ينبغى أن تتعلم هذا، أصابع اليد اليسرى لا بد لها من أطراف خشنة، وعلى إبهام اليد اليمنى طبقة من الجلد اليابس، افرد أصابع اليد اليسرى، افردها كأطراف العنكبوت لكى تتمكن من وضع راحة يدك على حافة الجيتار.

كان هذا صندوق أبى، لم أكن أكبر من البقة حين بدأ يعلمنى وتر «السى»، وعندما تعلمت مثله لم يعد يعزف تقريبًا، تعود أن يجلس عند الباب وينصت ويدق بقدمه على الأرض، وعندما أتعثر فى لحن ناشز يظل متجهمًا حتى أنجح ثم يضطجع ثانية بارتياح، ويومئ برأسه ويقول: «اعزف، اعزف جيدًا إنه صندوق جيد، أترى كيف بليت رأس الجيتار، هناك ملايين الأغنيات عزفت على هذا الخشب وأكلت منه، وسيأتى يوم تتجوف كقشرة البيضة، ولكنك لا تستطيع أن ترقعها أو تصلحها بأى طريقة وإلا فقدت أنغامها، اعزف عليها فى المساء، هناك عازف هارمونيكا فى الخيمة المجاورة إنهما معًا شىء جميل».

الكمان نادر، من الصعب تعلمه، ولا يوجد مدرسون.

انصت فقط إلى رجل عجوز وحاول أن تلتقط منه الطريقة، لن يقول لك كيف تعزف لحنًا مزدوجًا، يقول إنها سر، ولكننى راقبته.

الكمان حادة كالريح، سريعة وعصبية وحادة.

لم يتبق من هذا الكمان شىء كثير، سأدفع فيها دولارين، ويقول الرجل إن هناك كمانًا عمرها أربعمائة سنة وأنها تزداد جودة مع الزمن مثل الويسكى، يقول: «إن ثمنها يبلغ خمسة وسبعين ألف دولار، لست أدرى، قد يبدو ذلك كاذبًا، ابن الزانية، لها صوت أجش، أليست كذلك؟

أتريد أن ترقص؟ سأمسح قوسى بكثير من الصمغ، يا رجل ستصرخ عندئذ وستسمعها على بعد ميل.

هذه الثلاثة فى المساء، الهارمونيكا والكمان والجيتار، تعزف لحنًا راقصًا، وتوقع النغمات وتضرب أوتار الجيتار الكبيرة العميقة كالقلب، وأنغام الهارمونيكا الحادة وصريخ وصرير الكمان، ولا يملك الناس إلا أن يقتربوا، لا يمكنهم المقاومة، والآن «رقصة الدجاج» وتدق الأقدام، ويخطو شاب متأنق يحجل ثلاث خطوات سريعة وقد تدلت ذراعاه بجواره، وينغلق المربع ويبدأ الرقص، الأقدام على الأرض العارية تدق بخفة، اضرب بكعبيك، الأيدى تنفرد وتدور والشعر ينسدل والأنفاس تتقطع، مل الآن، أترى هذا الفتى من تكساس ذا السيقان المرتخية يدق بها أربع مرات لكل خطوة، لم أر فتى يدور مثله، انظر إليه وهو يدور مع هذه البنت من شيروكى والحمرة فى خديها وأصابع قدميها بارزة، انظر إليها وهى تلهث، انظر إليها وهى تنهج، أظن أنها متعبة؟ أظن أنها دائخة؟ حسنًا إنها ليست كذلك، لقد انسدل شعر فتى تكساس على عينيه وفتح فمه واسعًا، لا يستطيع أن يلتقط أنفاسه ولكنه يضرب الأرض أربع مرات فى كل خطوة وسيواصل الرقص مع فتاة شيروكى.

وتصرخ الكمان ويدق الجيتار ويحمر وجه الرجل الذى ينفخ بفمه فى الهارمونيكا، والفتى التكساسى والفتاة الشيروكية يلهثان كالكلاب ويدقان الأرض، والناس الكبار واقفون يصفقون بأيديهم وبابتسامة خفيفة يدقون الأرض بأقدامهم.

كان ذلك، هناك فى بلادنا، فى مبنى المدرسة، والقمر يمخر عباب السماء نحو الغرب، وسرنا معًا هو وأنا، سرنا قليلاً لم نتكلم، وقد احتبست الكلمات فى حلوقنا، لم نتكلم على الإطلاق وسرعان ما وجدنا كومة من العشب فذهبنا إليها ورقدنا هناك، أترى هذا الفتى من تكساس، وتلك

الفتاة، وهما يخطوان مبتعدين فى الظلال يظنان أن أحدًا لا يراهما، أوه يا إلهى!! وددت لو أننى ذهبت مع هذا الفتى، سيبزغ القمر بعد قليل، رأيت والد هذه الفتاة يتحرك ليوقفهما ثم يعدل، إنه يعرف جيدًا، هل يمكنه أن يوقف سقوط الندى، أو يمنع العصارة من الحركة فى أشجارها؟ والقمر سيبزغ بعد قليل.

اعزف ثانية، اعزف أغانى الحكايات «عندما مشيت فى شوارع لاريدو» النار تخبو ولا يليق أن نشعلها، سيبزغ الهلال بعد قليل.

وعلى جانب الترعة، يكافح الواعظ والناس من حوله يتلوون، يجول كالنمر، ينهال على الناس بصوته وهم على الأرض يتلوون ويتأوهون والواعظ يزن الناس من حوله ويلعب بهم وعندما أصبحوا جميعًا يتلوون على الأرض ركع وبدا يلتقطهم بقوته العظيمة واحدًا واحدًا بذراعيه ويصيح «خذهم يا يسوع!» ثم يلقى بكل منهم فى الماء وعندما يصبحون جميعًا فى الماء إلى خواصرهم» ينظرون إلى السيد بعيون فزعة، يركع على الشاطئ ويصلى من أجلهم، يصلى لكى يزحف كل النساء والرجال على الأرض وينوحون والنساء والرجال بملابسهم التى تقطر ماء وقد التصقت على أجسادهم ويراقبونه، ثم يعودون يخوضون ويخبون فى أحذيتهم إلى المخيم، إلى الخيام وهم يتكلمون بصوت خافت: لقد خلصنا، لقد اغتسلنا حتى صرنا فى بياض الثلج، لن نرتكب خطيئة بعد اليوم والأطفال فزعون مبللون يتهامسون:

لقد خلصنا، لن نرتكب خطيئة بعد ذلك.

وددت لو عرفت ما هى كل أنواع الخطايا التى أُرُتكبت، حتى أرتكبها أنا.

والمهاجرون يبحثون عما تيسر من متعة على الطرق.

الفصل الرابع والعشرون

فى صباح السبت ازدحمت أحواض الغسيل، فاجتمعت النساء يغسلن الفساتين وثياب التيل الوردية والملابس القطنية المشجرة، ويعلقنها فى الشمس ويفردن القماش لكى يستوى، وفى الأصيل ماج المخيم بالحركة وازداد انفعال الناس، وسرت العدوى إلى الأطفال، فأحدثوا من الصخب أكثر مما اعتادوا، وفى ساعات العصر بدأ استحمام الأطفال، ومع كل طفل يؤخذ ويستسلم ويغتسل، كانت الضجة فوق أرض الملعب تخفت تدريجيًا، وقبل الخامسة انتهت عملية تنظيف الأطفال، وحذروا من أن يلطخوا أنفسهم ثانية، فيمشوا متصلبين فى ملابسهم النظيفة، تُعساء بهذه العناية.

وفوق حلبة الرقص المكشوفة الكبيرة، كانت إحدى اللجان مشغولة، تعيد فحص كل قطعة سلك كهربى، لقد زاروا مقلب القمامة العام بالمدينة بحثًا عن السلك، وكل صندوق عدة فى المخيم شارك بقطعة سلك، حتى أمكن أن يمتد سلك مرقع ممزق إلى حلبة الرقص، وقد استخدمت أعناق الزجاجات كعوازل، فهذه الليلة ستضاء جلبة الرقص بالكهرباء لأول مرة، وفى السادسة عاد الرجال من العمل أو من البحث عن عمل وبدأت موجة جديدة من الاستحمام، وفى السابعة انتهى العشاء وارتدى

الرجال أحسن ملابسهم: عفريتات غسلت حديثًا، قمصان زرقاء نظيفة، وفى بعض الأحيان حلل سوداء محترمة، والفتيات متأهبات فى ملابسهن المنقوشة، المفرودة النظيفة وشعورهن المضفرة المزدانة بالشرائط، والنساء مشغولات يرقبن عائلاتهن وهن يغسلن أطباق العشاء، وعلى المنصة كانت الفرقة الموسيقية تتدرب وقد أحاط بها سوار من الأطفال صفًا بعد صف، كانت أعصاب الجميع مشدودة ومنفعلة.

فى خيمة عزرا هستون، الرئيس، اجتمعت اللجنة المركزية المشكلة من خمسة رجال، وتكلم هستون، وهو رجل طويل نحيل، ملوح الوجه ذو عينين حادتين دقيقتين، تكلم إلى لجنته المشكلة من مندوب واحد عن كل وحدة نظافة.

قال: «إننا محظوظون لأننا عرفنا أنهم ينوون إفساد حفلة الرقص».

قال مندوب الوحدة رقم ٣ الذى يشبه البرميل الصغير: «أظن أنه يجب أن نحطمهم ونريهم».

فقال هستون: «لا، هذا ما يريدونه، لا يا سيدى، إذا استطاعوا أن يحدثوا مشاجرة فسيمكنهم أن يقحموا الشرطة بدعوى أننا لم نحافظ على النظام، لقد حاولوا ذلك من قبل فى أماكن أخرى». والتفت إلى الفتى الأسمر الحزين من الوحدة رقم ٢: «هل جمعت الرجال للمرور على الأسوار حتى لا يتسلل أحد؟».فأومأ الفتى الحزين برأسه وقال: «أيوه، اثنا عشر، قلت لهم ألا يضربوا أحدًا، يدفعونهم إلى الخارج فحسب».

قال هستون: «يمكن أن تذهب وتنادى ويلى إيتون؟ إنه رئيس حفلة الترفيه أليس كذلك؟».

«أيوه».

«حسنًا، قل له إننا نريد أن نراه».

خرج الفتى وعاد بعد لحظة ومعه رجل نحيف من تكساس، كان ويلى إيتون ذا فك طويل هزيل، وشعر رمادى فى لون التراب، كانت ذراعاه وساقاه طويلين سائبين وله عينان رماديتان لوحتهما شمس الصحراء، وقف فى الخيمة يبتسم ويداه تدوران بلا توقف حول رسغيه.

قال هستون: «اسمعت شيئًا عن الليلة؟».

فابتسم ويلى وقال: «أيوه».

«هل أعددت شيئًا فى هذا الشأن؟».

«أيوه».

«قل لنا ماذا أعددت».

ابتسم ويلى إيتون فى سعادة وقال: «حسنًا يا سيدى لجنة الاحتفال العادية خمسة، جمعت عشرين آخرين ـ كلهم فتيان أقوياء طيبون، سيرقصون وعيونهم مفتوحة وآذانهم مرهفة، وعند أول إشارة سيحيطون أى كلام أو جدل بإحكام، لقد دبرت كل شيء بدقة بحيث لا يمكن لأحد أن يلحظ شيئًا، ثم يتحركون إلى الخارج ويأخذون المشاغب معهم».

«قل لهم ألا يؤذوا أحدًا».

ضحك ويلى فى فرح وقال: «لقد نبهتهم».

«حسنًا، قل لهم ثانية حتى يعرفوا».

«إنهم يعرفون، وضعت خمسة رجال عند البوابة لمراقبة الناس الذين يدخلون ويحاولون أن يكتشفوهم قبل أن يبدأوا».

وقف هستون، كانت عيناه اللتان فى لون الصلب صارمتين «والآن

اسمعنى يا ويلى، نحن لا نريد أى أذى لهؤلاء الرجال، سيكون هناك شرطة عند البوابة الأمامية، فإذا أسلتم دماءهم، فإن الشرطة ستقبض عليكم».

فقال ويلى: «لقد دبرت هذا، سنأخذهم عبر الطريق الخلفى إلى الحقل وسيتكفل الفتيان بصرفهم».

قال هستون فى اضطراب: «حسنًا، يبدو الأمر على ما يرام، ولكن لا تدع شيئًا للمصادفة، ويلى، أنت مسئول لا تصيبوا هؤلاء الرجال بأذى، لا تستخدموا أى عصا أو سكين أو سلاح أو ماشابه ذلك».

فقال ويلى: «لا يا سيدى، لن نترك فيهم أثرًا».

فقال هستون مستريبًا: «وددت لو شعرت بثقة فيما تقول يا ويلى، إذا كنت تنوى أن تضربهم، اضربهم بطريقة لا تسيل الدماء».

فقال ويلى: «حاضر يا سيدى».

«هل أنت واثق من الرجال الذين اخترتهم؟».

«نعم يا سيدى».

«عظيم، وإذا أفلتت الأمورمن يدك، سأكون فى الركن الأيمن، على هذا الجانب من حلبة الرقص».

وحياهم ويلى بطريقة مضحكة وخرج.

قال هستون: «لا أعرف، كل الذى أرجوه ألا يقتل رجال ويلى أى إنسان، لماذا بحق الجحيم يريد رجال الشرطة الأذى لهذا المخيم؟ لماذا لا يمكنهم أن يتركونا فى حالنا؟»

قال الفتى الحزين من الوحدة الثانية: «لقد عشت فى أراضى شركة

«سانلاند آند كاتل»، والله إن لديهم شرطيًا لكل عشرة أشخاص ولديهم صنبور ماء واحد لكل مائتين».

قال الرجل البدين: «يا يسوع! يا إلهى يا «جرمى» لن تقول لى، لقد كنت هناك، كان عندهم بلوك من العشش، خمسة وثلاثون فى صف، وخلفها خمسة عشر، ولديهم عشرة مراحيض لكل السكان، وبحق المسيح يمكن أن تشم رائحتها النتنة على بعد ميل، قال لى أحد رجال الشرطة بسفالة، وكان يجلس بالقرب منى: مخيمات الحكومة اللعينة هذه تعطى الناس ماء ساخنًا، والنتيجة أنهم سيطلبون الماء الساخن منا، تعطيهم مراحيض بسيفونات، والنتيجة أنهم سيطلبونها منا، ثم قال: إنك لو أعطيت: «الأوكيين» الملاعين هذه الأشياء، فسيطلبونها، وقال إنهم يعقدون اجتماعات حمراء فى مخيمات الحكومة تلك، والكل يفكر فى الوسيلة التى يحصل بها على إعانة».

سأل هستون: «ألم يضربه أحد؟».

«لا، كان هناك رجل صغير، وقال له: ماذا تقصد بالإعانة؟».

«أقصد إعانة، ما ندفعه نحن دافعى الضرائب، وتأخذونه أنتم أيها الأوكييون الملاعين؟».

قال الرجل الصغير: «نحن ندفع ضريبة بيع وضريبة بترول وضريبة تبغ، وقال: المزارعون يحصلون على أربعة سنتات على كل رطل قطن من الحكومة، أليست هذه إعانة؟ وقال: وشركات السكك الحديدية والسفن تأخذ المنح المالية، أليست هذه إعانة؟».

فقال رجل الشرطة: «إنهم يقومون بأشياء لابد من أدائها».

فقال الرجل الصغير: «طيب، وكيف يمكن أن تجمع محاصيلكم اللعينة لولانا؟».

ونظر الرجل البدين حوله.

فسأل هستون: «وماذا قال الشرطى؟».

«فقد صوابه وقال: «أنتم أيها الحمر الملاعين تثيرون الاضطرابات على الدوام، وقال: «من الأفضل أن تأتى معى، وهكذا قبض على الرجل الصغير وحكموا عليه بستين يومًا فى السجن بتهمة التشرد».

فسأل «تيموثى ولاس»: «وكيف يمكنهم ذلك مادام لديه عمل؟».

وضحك الرجل البدين وقال: «أنت تعرف أكثر من ذلك، أنت تعرف أن المشرد هو أى إنسان لا يحبه الشرطى، وهذا هو السبب الذى يكرهون من أجله هذا المخيم، لا يمكن لأى شرطى أن يدخله، هنا الولايات المتحدة، وليست كاليفورنيا».

وتنهد هستون وقال: «وددت لو أقمنا هنا، لابد أن أمضى بعد قليل، أنا أحب هذا المكان فالسكان يعيشون بشكل طيب، يا إلهى القدير! لماذا لا يتركوننا نفعل ذلك بدلاً من الإبقاء علينا فى تعاسة ووضعنا فى السجن؟ أقسم بالله أنهم سيدفعوننا دفعًا إلى المعركة، إذا لم يتوقفوا عن إزعاجنا»، ثم خفض من صوته وقال مذكرًا نفسه:

«ليس أمامنا إلا أن نحافظ على السلم، ليس من حق اللجنة أن تفقد أعصابها».

قال الرجل البدين ممثل الوحدة رقم ٣: «أى واحد يظن أن اللجنة عملها هين يأتى ويجرب. كانت هناك مشاجرة فى وحدتى اليوم ـ نساء ـ تبادلن السباب وتقاذفن بالقمامة، ولم تستطع لجنة السيدات أن تسيطر على الموقف وجئن إلىّ، كان من رأيهن أن أنقل أمر المشاجرة إلى هذه اللجنة، قلت لهن إن عليهن أن يتصرفن فى مشاكل النساء بأنفسهن، هذه اللجنة لن تزج بنفسها فى معارك القمامة».

فأومأ هستون برأسه وقال: «لقد أحسنت صنعًا».

كان الغسق قد بدأ يهبط، ومع تزايد العتمة بدا أن أصوات تدريب فرقة الموسيقى تزداد علوًا، ولمعت الأضواء وفحص رجلان السلك الموصول إلى حلة الرقص، وتزاحم الأطفال بكثرة حول الموسيقيين، وغنى فتى معه جيتار أغنية: «العودة إلى المنزل». وهو يعزف برقة لنفسه، وعندما بدأ يغنى ثانية شاركه ثلاثة بالهارمونيكا وواحد بالكمان، وتدفق الناس من الخيام إلى المنصة، الرجال بالحلل الزرقاء النظيفة والنساء بالفساتين التيل، اقتربوا من المسرح ثم وقفوا فى هدوء منتظرين وقد كشفت الأضواء عن وجوههم اللامعة المتحفزة.

كان هناك سور عال من السلك حول المخيم، وعلى طول السور وفى كل خمسين قدمًا، جلس الحراس فى العشب، يترقبون.

بدأت سيارات الضيوف تصل، مزارعون صغار وعائلاتهم، مهاجرون من مخيمات أخرى، وكان كل ضيف يذكر اسم ساكن المخيم الذى دعاه وهو يعبر البوابة.

اختارت الفرقة الموسيقية لحنًا راقصًا وعزفته بصوت عال، فقد انتهى التدريب.

وجلس محبو المسيح أمام خيامهم يراقبون وقد ارتسمت على وجوههم علامات الجمود والازدراء، لم يتبادلوا أى حديث فيما بينهم، بل أخذوا يرقبون الخطيئة ووجوههم تلعن كل ما يجرى.

فى خيمة «جود» التهمت «روثى» و«وينفلد» بنهم العشاء القليل الذى حصلا عليه وانطلقا إلى المنصة، ونادتهما الأم ثانية، ورفعت وجه كل منهما بيدها من تحت ذقنه ونظرت فى منخاره وشدت آذانهما ونظرت فى داخلها، وأرسلتهما إلى وحدة النظافة ليغسلا أيديهما مرة أخرى،

وجريا حول مؤخرة البناية، ثم جريا إلى المنصة ليقفا بين الأطفال الذين تزاحموا حول الفرقة.

فرغ «آل» من عشائه وقضى نصف ساعة يحلق بموسى «توم». كان عنده بذلة صوف محبوكة وقميص مخطط، واستحم وغسل ومشط شعره إلى الخلف، وعندما فرغت غرفة الغسيل لحظة ابتسم متأملاً نفسه فى المرآة ثم استدار وحاول أن يرى نفسه فى البروفيل حين يبتسم، ثم ارتدى أسوار أكمامه الوردية ولبس معطفه المحبوك ومسح حذاءه الأصفر بقطعة من ورق التواليت، ودخل رجل جاء متأخرًا ليستحم فخرج «آل» مسرعًا ومشى باستهتار ناحية المنصة وعيناه تبحثان عن البنات، وقرب حلبة الرقص رأى فتاة شقراء جالسة أمام إحدى الخيام، فتلكأ بالقرب منها وفتح معطفه لكى يظهر قميصه.

سألها: «هل سترقصين الليلة؟».

ونظرت الفتاة بعيدًا ولم تجب.

«ألا يمكن لرجل أن يبادلك كلمة؟ ما رأيك لو رقصت أنا وأنت؟». ثم قال بصوت لا نغم فيه: «أستطيع أن أرقص الفالس».

رفعت الفتاة عينيها فى خجل وقالت: «ليست هذه مشكلة ـ أى إنسان يمكنه أن يرقص الفالس».

قال «آل»: «ليس مثلى». وصخبت الموسيقى، فدق بأحد قدميه مع كل مرة وقال: «تعالى».

وبرزت امرأة بدينة جدًا برأسها خارج الخيمة وعوت فى وجهه وقالت بعنف: «امض فى طريقك، هذه الفتاة مخطوبة، ستتزوج وسيأتى لها رجلها».

وغمز «آل» بفجور للفتاة، ومضى فى طريقه وهو يوقع أقدامه مع الموسيقى ويطوح كتفيه ويدور بذراعيه والفتاة تنظر وراءه بإمعان.

وضع الأب طبقه ووقف وقال: تعال يا «جون» وقال يشرح الأمر للأم: «سنذهب لنتكلم مع بعض الرجال حول البحث عن عمل». ومشى الأب والعم «جون» معًا تجاه منزل المدير.

غمس «توم» قطعة من الخبز الجاهز فى صلصة اليخنى على طبقه وأكل الخبز، وناول طبقه للأم فوضعته فى دلو الماء الساخن وغسلته وناولته» لـ «روزا شارن» لتجففه. وسألته الأم: «ألن تذهب للرقص؟».

فقال «توم»: «بالتأكيد، أنا فى لجنة، سنحتفل ببعض الصحاب».

فقالت الأم متسائلة: «حالاً فى لجنة؟ أعتقد أن ذلك لأنك وجدت عملاً».

استدارت «روزا شارن» لتضع الطبق بعيدًا، فأشار إليها «توم» وقال: «يا إلهى، إنها تكبر!».

واحمر وجه «روزا شارن» وأخذت طبقًا آخر من الأم، وقالت الأم: «فعلاً... تكبر».

فقال «توم»: «إنها تزداد جمالاً».

وازداد وجه الفتاة احمرارًا وطوحت رأسها وقالت برفق: «اسكت».

قالت الأم: «طبعًا، الفتاة التى تحمل طفلاً تـزداد جمالاً على الدوام».

ضحك «توم»: «إذا استمرت تنتفخ هكذا فستحتاج إلى عربة نقل لكى تحملها».

قالت «روزا شارن»: «والآن اسكت» ثم دخلت الخيمة بعيدًا عن الأنظار، وضحكت الأم ضحكة خافتة: «لا يجب أن تزعجها».

فقال «توم»: «إنها تحب ذلك».

«أعرف أنها تحب ذلك، ولكنه يزعجها أيضًا، وهى حزينة على «كونى».

«حسنًا، يجب عليها أن تنساه هى الأخرى فربما كان يدرس ليصبح رئيسًا للولايات المتحدة الآن».

قالت الأم: «لا تزعجها، ليست فى ظروف هينة للهزر معها».

اقترب «ويلى إيتون» وابتسم وقال: «أنت «توم جود»؟».

«أيوه».

«حسنًا، أنا رئيس لجنة الترفيه، سنحتاج إليك، قال أحدهم عنك».

قال «توم»: «بالتأكيد، تحت أمرك، هذه أمى».

قال «ويلى»: «كيف حالك؟».

«تسعدنى مقابلتك».

قال «ويلى»: «سأضعك عند البوابة فى البداية ثم على حلبة الرقص، أريدك أن تراقب الرجال وهم داخلون وتحاول أن تحدد من هم، سيكون معك رجل آخر وبعد ذلك أريدك أن ترقص وتراقب».

قال «توم»: «إيه، أستطيع أن أؤدى ذلك على ما يرام».

قالت الأم متوقعة شرًا: «أهناك متاعب؟».

قال «ويلى»: «لا يا سيدتى، لن تكون هناك متاعب».

قال «توم»: «أبدًا على الإطلاق، سآتى حالاً وأراك فى الحفلة يا أمى».

ومشى الشابان بسرعة ناحية البوابة الرئيسية.

كومت الأم الأطباق فوق أحد الصناديق ونادت: «اخرجى» وعندما لم تتلق إجابة ما عادت تنادى: «روزا شارن» تعالى، اخرجى».

خطت الفتاة خارج الخيمة ثم عادت إلى تجفيف الأطباق.

«كان «توم» يضحك معك فقط»

«أعرف، لست متضايقة، كل ما فى الأمر أننى أكره أن ينظر إلى الناس».

«ليس هناك مفر من ذلك، فالناس سينظرون، ولكن منظر فتاة حامل يسر الناس ـ يجعل الناس سعداء فرحين، ألن تذهبى إلى حفلة الرقص؟»

«كنت أنوى، ولكننى لا أعرف، وددت لو أن «كونى» كان هنا». وعلا صوتها وهى تقول: «ماما، وددت لو كان هنا، ليس فى طاقتى الاحتمال».

نظرت إليها الأم بإمعان وقالت: «أعرف، ولكن يا «روزا شارن»، لا تكسفى أهلك».

«لست أتعمد ذلك يا ماما».

«حسنًا، لا تكسفينا، لقد تحملنا الكثير للآن دون خجل».

وارتعشت شفتا الفتاة وهى تقول: «أنا.. أنا لن أذهب للرقص، لا أستطيع يا أمى، ساعدينى..». ثم جلست ودفنت رأسها بين ذراعيها.

جففت الأم يدها فى فوطة الأطباق وتربعت أمام ابنتها ثم وضعت

يديها على شعر «روزا شارن» وقالت: «أنت فتاة طيبة، كنت دائمًا فتاة طيبة، سأكون دائمًا بجوارك... لا تجزعى». واكتسى صوتها بنبرة اهتمام وقالت: «أتعرفين ماذا سأفعل أنا وأنت؟ سنذهب معًا إلى هذه الحفلة ونجلس هناك ونتفرج، فإذا طلبك أى واحد للرقص سأقول له إنك لست فى حالة تسمح بذلك.. سأقول إنك ضعيفة، ويمكنك أن تسمعى الموسيقى وما إلى ذلك».

فرفعت «روزا شارن» رأسها وسألتها: «لن تدعينى أرقص؟».

«لا، لن أدعك».

«ولن تسمحى لأحد أن يلمسنى؟».

«لا، لن أسمح».

فتنهدت الفتاة وقالت فى استسلام: «لست أعرف ماذا سأفعل يا أمى، لا أعرف، لا أعرف».

وربتت الأم على ركبتها وقالت: «انظرى، انظرى لى وانصتى، بعد قليل لن يستمر الحال على هذه الدرجة من السوء، بعد قليل، هذه حقيقة، والآن تعالى، سنذهب ونغتسل ونرتدى أحسن ثيابنا ونجلس بجوار حلبة الرقص». ثم قادت «روزا شارن» تجاه وحدة النظافة.

تربع الأب والعم «جون» مع عدد من الرجال بالقرب من مدخل المكتب. قال الأب: «كدنا نحصل على عمل اليوم، ولكننا تأخرنا دقائق قليلة فقط، كانوا قد استخدموا رجلين بالفعل، أو... حسنًا يا سيدى، كان شيئًا غريبًا، كان هناك ملاحظ عمال وقال: «يمكننا أن نستخدم الكثيرين بعشرين سنتًا، اذهبوا إلى مخيمكم وقولوا للرجال إننا نستطيع أن نستخدم الكثيرين مقابل عشرين سنتًا للساعة».

تململ الرجال المتربعون فى عصبية. وربت رجل عريض المنكبين ووجهه كله فى ظل قبعة سوداء، ربت على ركبته براحته وصاح: «أعرف ذلك، عليهم اللعنة، وسيحصلون على الرجال، سيحصلون على الرجال جائعين، لا يمكنك أن تطعم أسرتك بعشرين سنتًا فى الساعة، ولكنك ستضطر إلى قبول أى شىء، بعد أن تروح وتجىء حتى تتعب، إنها مناقصة على الأجر، يا يسوع المسيح، عما قريب سيحاولون إرغامنا على أن ندفع لهم لكى نعمل».

قال الأب: «كان من الممكن أن نقبل العمل، ليس لدينا عمل، بالتأكيد كان من الممكن أن نقبله ولكن هناك بعض الرجال فى الداخل وقد فزعنا من منظرهم فلم نقبل».

قال الرجل ذو القبعة السوداء: «لدى أفكار مجنونة، كنت أعمل عند رجل ولم يكن يستطيع أن يجمع محصوله، فذلك سيكلفه أكثر مما قد يحصل عليه مقابله، ولم يكن يعرف ماذا يفعل».

«يبدو لى»، ثم توقف الأب عن الكلام، وصمتت الحلقة فى انتظار بقية حديثه: «حسنًا فكرت فقط فيما لو أن للرجل منا فدانًا، تستطيع زوجتى أن تزرع بعض الخضار وتربى زوجًا من الخنازير وبعض الدجاج ونحن الرجال يمكننا أن نخرج ونبحث عن عمل ونعود، وربما أمكن للأطفال أن يذهبوا إلى المدرسة، لم أر مدارس كثيرة مثلما رأيت فى هذه البلاد».

قال الرجل ذو القبعة السوداء: «أطفالنا ليسوا سعداء فى هذه المدارس».

«لم لا؟ إنها مدارس جميلة جدًا».

«حسنًا، طفل فى هلاهيل بلا حذاء، وأولئك الأطفال بجواربهم وبنطلوناتهم الجميلة يصيحون حوله: اوكى، ذهب ابنى للمدرسة، وكان

يتشاجر كل يوم، لقد أحسن صنعًا طبعًا، هذا الشيطان الصغير، كان يتشاجر كل يوم ويعود إلى البيت وهو ممزق الملابس وأنفه دامية، وتضربه أمه علقة، فمنعتها عن ذلك، لا داعى لأن يضربه كل إنسان، الولد الصغير المسكين، يا يسوع، ومع ذلك، فقد ضرب بعض هؤلاء الأطفال، أبناء الزوانى هؤلاء ذوو البنطلونات الجميلة، لا أعرف.. لا أعرف».

فسأل الأب: «حسنًا، ماذا سأفعل إذًا بحق الجحيم؟ لقد فرغت نقودنا، لقد حصل أحد أبنائى على عمل قصير الأجل ولكن هذا لن يطعمنا، سأذهب وأقبل العشرين سنتًا، لابد من ذلك».

ورفع الرجل ذو القبعة السوداء رأسه وبرزت ذقنه النابتة الشعر فى الضوء ورقبته الطويلة التى سال عليها شعر فوديه كالفراء، وقال بمرارة: «أيوه، ستفعل ذلك، أنا أعمل بخمسة وعشرين سنتًا، وستأخذ أنت العمل منى بعشرين سنتًا وعندئذ سأجوع وسأستعيد عملى ثانية مقابل خمسة عشر، أيوه، اذهب واقبل».

فسأل الأب: «حسنًا، ماذا أفعل إذًا بحق الجحيم؟ لا يمكننى أن أموت من الجوع حتى تحصل أنت على الخمسة والعشرين سنتًا».

ونكس الرجل ذو القبعة السوداء رأسه ثانية فغلبت ذقنه فى الظل وقال: «لا أعرف... أنا لا أعرف. إنه لأمر سيئ جدًا أن تعمل اثنتى عشرة ساعة فى اليوم ثم تخرج من ذلك وأنت أكثر جوعًا، ولكن لابد لنا أن نفكر على الدوام أيضًا، طفلى لا يحصل على ما يكفيه من طعام، لا يمكننى أن أفكر طول الوقت، اللعنة، إن ذلك يدفع الإنسان للجنون وبدل الرجال فى الحلقة أقدامهم فى عصبية.

وقف «توم» عند البوابة يراقب الداخلين إلى حفلة الرقص وقد انعكس ضوء الكشاف على وجوههم، قال «ويلى إيتون»: «افتح عينيك باستمرار،

سأرسل لك «جول فيتلا» إنه نصف شيروكى، رجل طيب، افتح عينيك على الدوام وحاول أن تلتقط هؤلاء الأشخاص».

قال «توم»: «أوكى» ووقف يراقب العائلات الريفية وهى تدخل، الفتيات ضفرن شعورهن والفتيان متألقون، متأهبون للرقص، وجاء «جول» ووقف بجواره.

قال: «أنا معك».

نظر «توم» إلى أنف الصقر وعظمتى الوجنتين البارزتين البنيتين، والذقن الدقيقة المنخفضة وقال: «يقولون إنك نصف هندى أحمر، تبدو لى أنك هندى أحمر كامل».

قال «جول»: «لا، نصف هندى فقط، وددت لو أننى كنت هندسيًا أحمر كاملاً، كنت قد حصلت على أرض فى المهجر، هؤلاء الهنود الخالصون يعيشون فى رغد، بعضهم على الأقل».

قال «توم»: «انظر لهؤلاء الناس».

كان الضيوف يتحركون عبر البوابة، عائلات من المزارعين، ومهاجرون من مخيمات جوانب الطرق، وأطفال يحاولون أن يتخلصوا من قبضات آبائهم الذين كانوا يستعيدونهم.

قال «جول»: «حفلات الرقص هذه تصنع أشياء غريبة، أهلنا لا يملكون شيئًا، ومجرد أنهم يستطيعون أن يدعوا أصدقاءهم للمجئ هنا فى حفلات الرقص، فذلك يريحهم ويجعلهم يحسون بالفخر، والناس يحترمونهم بسبب هذه الحفلات، الرجل الذى كنت أعمل عنده يملك قطعة أرض صغيرة وقد أتى لحفلة الرقص هنا، أنا دعوته بنفسى فجاء، قال إن لدينا حفلات الرقص الوحيدة المحترمة فى هذه الأنحاء حيث يمكن للرجل أن يأخذ بناته وزوجته معه، هاى، انظر!».

ثلاثة شبان كانوا يعبرون البوابة.. عمال شبان فى بنطلونات زرقاء يمشون متلاصقين، سألهم الحارس عند البوابة فأجابوه ومروا.

قال «جول»: «راقبهم بعناية» وذهب إلى الحارس وسأله: «من الذى دعاء هؤلاء الثلاثة؟».

«رجل يدعى «جاكسون» فى الوحدة الرابعة».

عاد «جول» إلى «توم»: «أعتقد أن هؤلاء أصحابنا».

«كيف عرفت؟».

«لا أعرف كيف، مجرد إحساس، يبدو عليهم الاضطراب، اتبعهم وقل لـ «ويلى» أن يراقبهم وأن يسأل «جاكسون» فى الوحدة الرابعة، اجعله يرى ما إذا كانوا لا شبهة عليهم، سأبقى هنا».

مشى «توم» خلف الشبان الثلاثة، ساروا فى اتجاه حلبة الرقص واتخذوا أماكنهم فى هدوء على حافة الزحام، رأى «توم» «ويلى» بالقرب من الفرقة الموسيقية فأشار له.

سأل «ويلى»: «ماذا تريد؟».

«هؤلاء الثلاثة... أتراهم هناك؟».

«أيوه».

«قالوا إن رجلاً اسمه «جاكسون» فى الوحدة الرابعة دعاهم».

أدار «ويلى» رقبته ورأى «هستون» وناداه:

قال: «هؤلاء الرجال الثلاثة، يستحسن أن ندعو «جاكسون» من الوحدة الرابعة ونرى إن كان قد دعاهم».

ودار «هستون» على عقبيه ومشى مبتعدًا وعاد بعد لحظات برجل من كانساس، نحيل بارز العظام، قال «هستون»: «هذا هو جاكسون، انظر يا جاكسون، هل ترى هؤلاء الشبان الثلاثة؟».

«أيوه».

«هل دعوتهم؟».

«لا».

«أرأيت أحدًا منهم من قبل؟».

حملق «جاكسون» فيهم وقال: «بالتأكيد، لقد عملت معهم فى جريجوريو».

«وهكذا عرفوا اسمك؟».

«بالتأكيد، كنت أعمل بجوارهم تمامًا».

قال «هستون»: «لا بأس، لا تذهب بالقرب منهم، لن نطردهم إن كانوا طيبين، شكرًا يا مستر (جاكسون)».

ثم قال لـ «توم»: «أحسنتم صنعًا، أعتقد أن هؤلاء هم الرجال».

قال «توم»: «لقد اكتشفهم (جول)».

قال «ويلى»: «يا للجحيم، ليس هذا غريبًا فقد شمهم بدمه الهندى، حسنًا، سأشير للفتيان عليهم».

جاء صبى فى السادسة عشرة من عمره يجرى خلال الزحام ووقف وهو يلهث أمام «هستون» وقال: «مستر «هستون»، فعلت كما أمرتنى، هناك سيارة بها ستة رجال توقفت هناك تحت شجرة الكافور، وسيارة بها

أربعة رجال على الطريق الشمالى، طلبت منهم عود ثقاب، معهم بنادق، لقد رأيتها».

وازدادت عينا «هستون» قوة ووحشية وقال: «ويلى»، هل أنت متأكد أنك قد أعددت كل شيء؟»

وابتسم «ويلى» فى سعادة وقال: «بالتأكيد يا مستر «هستون»، لن تكون هناك متاعب».

«حسنًا، لا تصبهم بأذى، تذكر الآن، إذا أمكنك فى هدوء وبدقة، فإننى أحب أن أراهم، سأكون فى خيمتى».

قال «ويلى»: «سأرى ما يمكننا أن نفعله».

لم يكن الرقص قد بدأ رسميًا بعد، ولكن «ويلى» صعد إلى المنصة ونادى: «والآن اختاروا أماكنكم». توقفت الموسيقى وجرى الفتيان والفتيات والشبان والشابات حتى تشكلت ثمانية مربعات واستعدت على الحلبة الكبيرة، متأهبة منتظرة، الفتيات يمددن أذرعتهن أمامهن ويلعبن أصابعهن، الفتيان يدقون بأقدامهم بلا توقف، وحول حلبة الرقص جلس المسنون يبتسمون فى رقة وهم يبعدون الأطفال عن الحلبة، وعلى البعد جلس أحباء يسوع، وجوههم قاسية تدين ما يحدث، يراقبون الخطيئة.

جلست الأم و«روزا شارن» على كنبة تتفرجان، وكلما طلب فتى من الفتيان من «روزا شارن» أن تشاركه الرقص تقول الأم: «لا، إنها ليست بخير» ويحمر وجه «روزا شارن» وتلمع عيناها.

وتقدم المنادى إلى منتصف الحلبة ورفع يديه عاليًا وقال: «جاهزون؟ إذًا فلنبدأ»، وصخبت الموسيقى برقصة الدجاج عالية وواضحة، الكمان تزعق، والهارمونيكات حادة ذات رنين والجيتارات تدق على الأوتار الخفيضة.

ودعا المنادى على الأدوار وتحركت مربعات الراقصين، رقصوا إلى الأمام وإلى الخلف، أفردوا الأذرع، ودوروا مع السيدات، والمنادى فى حماس يدق بقدميه ويقفز إلى الأمام وإلى الخلف ويؤدى الحركات وهو ينادى عليها، دوروا بسيداتكم مع الألحان، اشبكوا أيديكم مع الخلان، وتعلو الموسيقى وتخفت، وإيقاع الأحذية المنتظم فوق المنصة كالطبل • در إلى اليمين، در إلى الشمال، اتركوا بعضكم الآن، ابعدوا... إلى الخلف، إلى الخلف ـ ويعلو صوت المنادى بالأغنية العالية الرنين، انتكش شعر الفتيات ونضح العرق على جباه الفتيان وأظهر الخبيرون منهم براعتهم فى الرقص، والتقط الكبار على حافة الحلبة الإيقاع وأخذوا يصفقون معهم بأيديهم فى رفق ويدقون بأقدامهم ويبتسمون فى رقة ثم تتلاقى عيونهم ويومئون لبعضهم البعض.

مالت الأم برأسها مقتربة من أذن «روزا شارن» وقالت: «ربما لم تفكرى أبدًا أن أباك كان راقصًا جيدًا لم أر مثله عندما كان شابًا». وابتسمت الأم وقالت: «يذكرنى هذا بالأيام الخوالى، وعلى وجوه المتفرجين علت ابتسامة الأيام الخوالى.

«هناك بالقرب من ماسكوجى منذ عشرين عامًا كان هناك رجل أعمى معه كمان...»

«رأيت رجلاً ذات مرة، يستطيع أن يضرب كعبيه بعضهما ببعض أربع مرات فى كل قفزة».

«السويديون فى داكوتا... أتعرف ماذا يفعلون أحيانًا؟ يفرشون الأرض بالفلفل فيتصاعد تحت أقمصة السيدات ويجعلهن يمتلئن حيوية، حيوية مثل حيوية المهرة فى موسم العشار، السويديون يفعلون هذا أحيانًا».

وعلى البعد وقف أحباء يسوع يراقبون أطفالهم الجامحين ويقولون:

«انظروا إلى الخطيئة، هؤلاء الناس يذهبون إلى جهنم فوق جاروف، إنه عار يجب أن يشهده الأتقياء». ويقف أطفالهم فى صمت وعصبية.

وينادى المنادى بصوت منغم: «دورة واحدة أخرى ثم قليل من الراحة، ارقصوا بقوة فسنتوقف حالاً» والفتيات ينضحن بالعرق، واحمرت وجوههن وهن يرقصن بأفواه مفتوحة ووجوه جادة ووقورة، والفتيان يطوحون شعورهم الطويلة إلى الخلف ويخطرون على أطراف أصابعهم ويدقون كعوبهم، وتتحرك المربعات إلى الداخل والخارج، تتقابل وتتراجع وتدور الموسيقى تصخب بشدة.

ثم توقفت فجأة، ووقف الراقصون بلا حركة يلهثون من التعب، وأفلت الأطفال من قيودهم واندفعوا إلى الحلبة يصطدمون ببعض فى جنون، يجرون ويتزحلقون ويتخاطفون القلانس ويشدون الشعور، جلس الراقصون يروحون على وجوههم بأيديهم ووقف أعضاء الفرقة وفردوا أجسادهم ثم جلسوا ثانية، وعزف عازفو الجيتارات برفق على أوتارهم.

ونادى «ويلى»: «اختاروا مرة ثانية، مربعات أخرى إن أمكنكم»، فنهض الراقصون على أقدامهم وهرع راقصون جدد فى طلب شريكات، وقف «توم» بالقرب من الشبان الثلاثة ورآهم يشقون طريقهم إلى الحلبة تجاه واحد من المربعات التى تتشكل، لوح بيده لـ «ويلى» وتكلم «ويلى» مع عازف الكمان وشد عازف الكمان قوسه على أوتاره فتقدم عشرون رجلاً ببطء عبر الحلبة، وصل الثلاثة إلى المربع وقال واحد منهم: «سأرقص مع هذه الفتاة».

ونظر إليه فتى أشقر فى دهشة وقال: «إنها معى».

«اسمع أنت يا ابن الزانية».

من الظلام سمعت صفارة حادة، كان الثلاثة قد أحيط بهم الآن وقد

أحس كل منهم بالقبضات التى أطبقت على ذراعيه، ثم تحرك جدار الرجال ببطء خارج المنصة، وصاح «ويلى» «لنبدأ» وصخبت الموسيقى ووقف المنادى ينغم الحركات وهدرت الأقدام فوق المنصة.

وجاءت سيارة إلى البوابة وقال السائق: «افتح، سمعنا أن لديكم شغبًا».

وظل الحارس فى مكانه وقال: «ليس لدينا شغب، أتسمع هذه الموسيقى من أنت؟».

«شرطة».

«ألديكم إذًا رسمى؟».

«لسنا فى حاجة إلى إذًا إن كان هناك شغب».

فقال حارس البوابة: «حسنًا، ليس لدينا شغب هنا».

وأنصت الرجال فى السيارة إلى الموسيقى وإلى صوت المنادى ثم ابتعدوا بسيارتهم ووقفوا عند تقاطع الطريق وانتظروا مترقبين.

كان كل واحد من الشبان الثلاثة فى الفصيلة المتحركة مقيدًا وفوق فمه يد تكممه، وعندما وصلوا إلى الظلام انفرجت حلقة الرجال.

قال «توم»: «تم كل شيء بدقة». كان يمسك ذراعى ضحيته من الخلف.

وجرى «ويلى» إليهم من حلبة الرقص وقال: «أحسنتم صنعًا، نحن فى حاجة إلى ستة فقط الآن، «هستون» يريد أن يرى هؤلاء».

برز «هستون» نفسه من الظلام وسأل: «هل هم أولئك؟».

فقال «جول»: «بالتأكيد.. ذهبوا مباشرة وبدأوا الشغب، ولكنهم لم يستطيعوا حتى أن يديروا رؤوسهم».

«لنلق عليهم نظرة»، وأدير الأسرى ليواجهوا «هستون»، كانت رؤوسهم منكسة، وسلط «هستون» شعاعًا من بطاريته على وجه كل منهم وسأل: «لصالح من أردتم أن تفعلوا هذا؟». ولم تكن هناك إجابة: «من بحق الجحيم أمركم بهذا؟».

«اللعنة، لم نفعل شيئًا، كنا نريد أن نرقص فقط».

فقال «جول»: «لا، لم تكن تريد أن ترقص فقط، ولكنك كنت ستضرب ذلك الفتى».

قال «توم»: «مستر «هستون»، بمجرد أن خطا هؤلاء الرجال إلى داخل الحلبة، أطلق أحدهم صفارة».

«أيوه، أعرف، وعندها تقدم الشرطة إلى البوابة، ثم التفت لهم وقال: «لن نؤذيكم، والآن من الذى أمركم بالمجىء إلى هنا لتفسدوا حفلنا». وانتظر الإجابة ثم قال بحزن: «أنتم من أهلنا، أنتم تنتمون لنا، كيف يحدث ذلك؟».

وأضاف: «نحن نعرف كل شيء».

«اللعنة، الإنسان يجب أن يأكل».

«طيب، من أرسلكم؟ من دفع لكم أجر مجيئكم؟».

«لم يدفع لنا أحد أجرًا».

«ولن يدفعوا لكم، لا مشاجرة، لا أجر، أليس هذا صحيحًا؟».

قال أحد الرجال المكبلين: «افعل ماتريد، لن نقول شيئًا».

وأطرق «هستون» لحظة ثم قال برفق: «أوكى.. لا تقولوا شيئًا، ولكن اسمعوا لا تطعنوا أهلكم، نحن نحاول أن نعيش، نمرح ونحافظ على

النظام، لا تهدموا كل ذلك فكروا فى الأمر فقط، أنتم تؤذون أنفسكم فحسب».

«حسنًا يا فتيان، أخرجوهم من فوق السور الخلفى، ولا تؤذوهم، إنهم لا يعرفون ما يفعلون».

وتحركت الفصيلة نحو مؤخرة المخيم ونظر «هستون» وراءهم.

قال «جول»: «دعونا نعطهم شلوتًا حلوًا واحدًا فقط».

فصاح «ويلى»: «لا، لا تفعل، قلت لن تفعل».

فتضرع إليه «جول» قائلاً: «أرجوك يا سيدى، شلوت صغير جيد، واحد فقط، مجرد أن أرفعهم به فوق السور».

فأصر «ويلى»: «لا يا سيدى».

ثم قال: «اسمعوا، سنطلق سراحكم هذه المرة ولكن احملوا معكم كلماتنا، لو تكرر هذا، فمن الطبيعى أننا سنضرب الذى يأتى كائنًا من كان، سنسحق كل عظمة فى جسمه، والآن أخبروا أصحابكم بهذا، لقد قال: «هستون» إنكم من أهلنا.. ربما، أنا أكره أن أفكر فى هذا».

واقتربوا من السور فوقف اثنان من الحراس الجالسين وتحركوا نحوهم، وقال «ويلى»: «ها هم بعض من يريدون العودة إلى منازلهم مبكرًا». وتسلق الرجال الثلاثة السور واختفوا فى الظلام.

وعادت الفصيلة بسرعة إلى حلبة الرقص، وكانت موسيقى «بان توكر العجوز» تنبعث وتنوح من الفرقة الموسيقية.

وهناك بالقرب من المكتب كان الرجال لا يزالون متربعين يتكلمون والموسيقى الصاخبة تصل إليهم.

قال الأب: «لا بد أن تغييرًا سيحدث، لست أعرف ما هو، وربما لا نعيش حتى نراه، ولكنه آت ولا شك، هناك شعور قلق، والإنسان لا يستطيع أن يتدبر أمره ولهذا فهو يفقد أعصابه».

ورفع الرجل ذو القبعة السوداء رأسه ثانية وسقط الضوء على فوديه النابتين وجمع بعض الأحجار الصغيرة من على الأرض ثم قذفها كالبلى بإبهامه وقال: «لا أعرف، سيأتى التغيير لا شك، كما قلت أنت، أخبرنى أحدهم بما حدث فى أكرون، وأوهيو، وشركات المطاط، جاءوا بالناس الجبليين لكى يعملوا بأجور منخفضة، وهب هؤلاء الناس الجبليون وكونوا نقابة، حسنًا يا سيدى، لقد انفجر الجحيم على الفور، كل هؤلاء التجار ورجال الحرس الوطنى وأمثالهم أخذوا يصيحون ويولولون: «المتمردون»، وقد عزموا على حل النقابة فى أكرون،هاجمها الوعاظ فى خطبهم وتصايحت الصحف ونظمت شركات المطاط فرقًا من حاملى الهراوات، واشترت قنابل الغاز أيضًا يا يسوع! يهيأ إليك أن فتية الجبال هؤلاء طول عمرهم شياطين».

توقف لحظة، والتقط مزيدًا من الحجارة ليقذفها، واستطرد: «حسنًا يا سيدى.. كان ذلك فى مارس الماضى، وفى أحد أيام الآحاد قام خمسة آلاف منهم باستعراض رماية خارج المدينة، خمسة آلاف منهم عبروا المدينة ببنادقهم ثم أقاموا حفلاً للرماية ثم عاودوا ثانية، وهذا كل ما فعلوه، حسنًا يا سيدى لم تحدث أى متاعب منذ ذلك الوقت، وسلمت اللجان الأهلية هراواتها، وعاد التجار إلى محالهم، ما عاد واحد يضرب بالشوم أو ينتف ريشه أو يسلخ جلده أو تزهق روحه».

وساد صمت طويل ثم قال ذو القبعة السوداء: «إنهم يزدادون خسة هنا، حرقوا ذلك المخيم وضربوا الأهالى، ما توقفت عن التفكير أبدًا، كل

الناس هنا معها بنادق، ربما كان من الواجب أن نقيم ناديًا للرماية ونعقد اجتماعًا كل يوم أحد».

ورفع الرجال أبصارهم إليه ثم خفضوها إلى الأرض وتحركت أقدامهم بلا توقف وهم ينقلون ثقل أجسامهم من ساق إلى أخرى..

الفصل الخامس والعشرون

الربيع جميل فى كاليفورنيا، الوديان تزهر فيها الفاكهة بنوار وردى عطر والمياه صافية فى البحر الضحل، والمحاليق المبكرة لعناقيد العنب تتدلى من أشجار الكروم المعقدة العجوز، وتنهدل لتغطى الجذوع، التلال تغطيها الخضرة، مستديرة وناعمة كالنهود، وعلى السهول، حقول الخضار حيث صفوف الخس الأخضر الفاتح طولها ميل، والقنبيط الصغير كالمغازل، وأشجار الخرشوف الرمادية الخضراء تنبت من التربة.

ثم تنبت الأوراق فوق الشجر، وتتساقط أوراق الزهور من أشجار الفاكهة فتكسو الأرض ببساط وردى أبيض، ويتفتح قلب النوار وينمو ويتلون، بالكرز والتفاح، والخوخ والكمثرى، والتين الذى يحتوى زهرته فى ثمرته، كل كاليفورنيا ترعص بالنتاج، والفاكهة تنمو كثيفة والغصون تميل تحت ثقلها بالتدريج حتى يصبح من الضرورى أن توضع المساند الصغيرة تحتها لترفعها.

خلف هذه الخصوبة، رجال ذوو فهم ومعرفة وخبرة، رجال يجرون التجارب على البذور، لا يكفون عن تطوير وسائلهم من أجل محاصيل أكبر لنباتات ستقاوم جذورها مليون عدو فى باطن الأرض: الحفار، والحشرات، والصدأ، والآفات، هؤلاء الرجال لا يكفون عن العمل

من أجل تحسين البذور والجذور، وهناك رجال الكيمياء الذى يرشون الأشجار ضد الأوبئة، الذين يرشون الكبريت على العناقيد، الذين يقطعون الطريق على الآفات، والتعطن والتصوف والمرض، أطباء فى الطب الوقائى، رجال على الحدود يفتشون عن فراشات الفاكهة، عن الخنافس اليابانية، رجال يحجزون الأشجار المريضة ويستأصلونها ويحرقونها. رجال ذوو معرفة، والرجال الذين يهجنون الأشجار الشابة، الكروم الصغيرة، هم أمهر الجميع، لأن عملهم من اختصاص الجراحين، إحساس رقيق، وهؤلاء الرجال يجب أن يكون لهم أيدى الجراحين وقلوبهم حتى يمكنهم أن يشقوا الخشب ويضعوا الرقع مكانها، لكى يضمدوا الجراح ويحفظوها من الهواء، هؤلاء الرجال عظماء.

المحاريث تجرى على طول الخطوط، تقطع عشب الربيع، وتقلبه فى الأرض لتزداد خصوبة، تكسر الأرض حتى تحفظ الماء بقرب سطحها، تقسم الأرض فى أحواض صغيرة حتى تروى، تسحق بذور الأعشاب التى قد تشرب الماء وتحرم الأشجار منها.

وعلى الدوام تنتفخ الفاكهة، وتنتفخ الأزهار فى عناقيد طويلة فوق الكروم ومع تقدم العام يزداد الدفء وتتحول الأوراق إلى خضراء داكنة، وتستطيل ثمار البرقوق كأنها بيض طائر أخضر صغير وتتدلى الأفرع على مساندها تحت ثقلها وتتشكل ثمار الكمثرى الصغيرة الصلبة ويبدأ النمش ينتشر على جذور الخوخ، ويسقط نوار العنب أوراقه الصغيرة وتتحول رؤوسه الصلبة إلى أزرار خضراء، وتزداد الأزرار ثقلاً، والرجال الذين يعملون فى الحقول أصحاب البساتين الصغيرة، يرقبون ويحسبون، العام وفير الإنتاج والرجال فخورون لأنه بفضل معارفهم استطاعوا أن يجعلوا العام وفيرًا، لقد حولوا العالم بالمعرفة، القمح الصغير النحيل أصبح كبيرًا

ومثمرًا، التفاح الصغير الحامض أصبح كبيرًا وحلوًا، وذلك العنب القديم الذى كان ينمو بين الأشجار لتصبح طعامًا للطيور، أخرجت ثمرته الصغيرة ألف نوع متغير، أحمر وأسود وأخضر ووردى فاتح وبنفسجى وأصفر، وكل نوع له طعمه الخاص، الرجال الذين يعملون فى مزارع التجارب استنبطوا فاكهة جديدة: خوخ ذو رائحة، أربعون نوعًا من البرقوق، جوز ذو غلاف ورقى، وهم يعملون على الدوام، ينتقون ويهجنون ويغيرون يتقدمون ويدفعون الأرض إلى نتاج.

وفى البدء ينضج الكريز، الرطل بسنت ونصف، يا للجحيم! لا يمكننا أن نجمعها مقابل ذلك، كريز أسود وكريز أحمر، ممتلئ وحلو، والطيور تأكل نصف الثمرة وتدخل الزنابير فى الثقوب التى تخلفها الطيور وتسقط البذور على الأرض وتجف وبقايا القشرة سوداء متعلقة بها.

ويصبح البرقوق الأرجوانى طريًا حلوًا. يا إلهى ليس فى إمكاننا أن نجمعها ونجففها ونرشها بالكبريت، لا يمكننا دفع الأجور، ويكسو البرقوق الأرجوانى سطح الأرض، وفى البداية يتكرمش جلدها قليلاً وتأتى أسراب الذباب لتقيم عليها الولائم ويمتلئ الوادى برائحة تخمر الفاكهة، ويسوّد لون اللحم، ويتعطن المحصول على الأرض.

والكمثرى تزداد اصفرارًا وطراوة، خمسة دولارات للطن، خمسة دولارات لأربعين صندوقًا سعة خمسين رطلاً، أشجار مشذبة ومرشوشة، بساتين محروثة ـ اجمع الفاكهة، ضعها فى صناديق، اشحن اللوريات، سلم الفاكهة إلى مصانع التعليب ـ أربعون صندوقًا بخمسة دولارات، لا يمكن أن نفعل ذلك، وتسقط الفاكهة الصفراء كثيفة، تطرطش عصارتها على الأرض ويحفر الدود فى لحمها الطرى وتضيع رائحة التخمر والتعطن.

ثم العنب، لا يمكننا أن نصنع نبيذًا جيدًا، الناس لا يمكنهم شراء النبيذ الجيد، انزع العناقيد من فوق الكروم، العناقيد الجيدة والعناقيد المتعطنة والعناقيد المصابة، واعصر الأغصان، اعصر التراب والعفن.

ولكن هناك ندبة وحامض الفورمالين على الثمار.

أضف كبريتًا وحمض تنيك.

رائحة الخمير ليست هى رائحة النبيذ الحلوة، ولكنها رائحة التحلل والمواد الكيميائية.

أوه، حسنًا، إن بها كحولاً على أى حال، فى إمكانهم أن يسكروا.

ويرقب المزارعون الصغار الدين وهو يزحف صاعدًا كالمد، إنهم يرشون الأشجار ولا يبيعون أى محاصيل، يشذبون ويهجنون ولا يمكنهم جمع المحصول، كان الرجال ذوو المعرفة قد اشتغلوا وفكروا والفاكهة تتعطن على الأرض، والخليط المهروس المتحلل فى دنان النبيذ يسمم الهواء، ومذاق النبيذ ـ ليس فيه طعم العنب على الإطلاق، مجرد كبريت وحمض تنيك وكحول.

هذه البساتين الصغيرة ستصبح جزءًا من ملكية كبيرة فى العام التالى لأن الدَّين سيخنق المالك.

هذا الكرم سيصبح ملك البنك، الملاك الكبار فقط يمكنهم أن يعيشوا لأنهم يملكون مصانع التعليب أيضًا، وما زالت الأربع ثمرات كمثرى مقشرة ومقطعة كل فى نصفين، مسلوقة ومعلبة، ما زالت بخمسة عشر سنتًا، والكمثرى المحفوظة لا تفسد بل يمكنها أن تبقى لسنوات.

وينتشر التحلل فوق الولاية، تحلق الرائحة الحلوة النفاذة كالأسى العظيم فوق الأرض، والرجال الذين يمكنهم أن يهجنوا الأشجار ويجعلوا

البذرة مخصبة وكبيرة، لا يمكنهم أن يجدوا الوسيلة التى تسمح للجائعين أن يأكلوا إنتاج أيديهم، الرجال الذين خلفوا فاكهة جديدة فى العالم لا يمكنهم أن يخلقوا نظامًا يمكن فيه أكل فاكهتهم، ويحوم الفشل فوق الولاية كالأسى العظيم.

ينبغى أن يهدم كل عمل فى جذور الكروم والأشجار حتى يظل السعر مرتفعًا، وهذا هو أكثر الأمور إثارة للحزن والمرارة. سيارات بأكملها محملة بالبرتقال تلقى على الأرض ويأتى الناس أميالاً لكى يأخذوا الثمار ولكن هذا لا يتم، كيف يمكن أن يشتروا البرتقال بسعر عشرين سنتًا للدستة إذا كانوا يستطيعون أن يأتوا ويأخذوه مجانًا؟ ويرش الرجال بخراطيمهم الكيروسين على البرتقال وهم غاضبون من الجريمة، غاضبون من الناس الذين جاءوا ليلتقطوا الفاكهة، مليون إنسان جائع فى حاجة إلى الفاكهة... والكيروسين يرش فوق الجبال الذهبية.

وتملأ رائحة العطن البلاد.

احرق البن فى مواقد السفن بدل الوقود. احرق الحنطة من أجل الدفء فهى تعطى نارًا حامية، اغرق البطاطس فى الأنهار وضع حراسًا يمنعون الناس من اصطيادها، اذبح الخنازير وادفنها، ودع العفن يقطر فى باطن الأرض.

ها هنا جريمة تفوق كل تشهير، ها هنا أسى لا يمكن للبكاء أن يعبر عنه، ها هنا فشل يقف فوق قمة كل نجاحاتنا، الأرض المخصبة، صفوف الأشجار المستقيمة الجذوع الميتة، والفاكهة الناضجة والأطفال الذين يموتون من البلاجرا يجب أن يموتوا لأن أكل برتقالة يقلل الربح، وأطباء الصحة يجب أن يملأوا شهاداتهم ـ مات من سوء التغذية ـ لأن الطعام لابد أن يتعطن، لابد أن يدفع دفعًا للتعطن.

ويأتى الناس بالشباك لكى يصطادوا البطاطس من الأنهار والحراس يبعدونهم، يجيئون فى سيارات مقعقعة لكى يأخذوا البرتقال الملقى فى القمامة ولكن الكيروسين مرشوش عليها، يقفون فى سكون ويرقبون البطاطس تطفو أمامهم، ينصتون إلى صراخ الخنازير وهى تقتل فى الحفر وتغطى بالجير الحى، يراقبون جبال البرتقال وهى تتهاوى فى عصارة متعفنة، الفشل فى عيون الناس والغضب المتعاظم فى عيون الجائعين.

أعناب الغضب تنمو وتثقل فى صدور الناس، تنمو ويدنو موعد قطافها.

الفصل السادس والعشرون

في مخيم «ويد باتش»، وفي إحدى الأمسيات عندما تعلقت خطوط السحاب فوق الشمس الغاربة واحمرت أطرافها، تجمعت عائلة «جود» بعد تناول العشاء، وترددت الأم قبل أن تبدأ غسيل الأطباق.

قالت: «لابد أن نفعل شيئًا». ثم أشارت إلى «وينفلد» وقالت: «انظروا إليه» وعندما حملقوا في الطفل الصغير قالت: «إنه يتلوى ويتثنى وهو نائم، انظروا إلى لونه». وأطرق أفراد العائلة إلى الأرض مرة أخرى من الخزي وقالت الأم: «من أكل القديد، منذ شهر ونحن هنا، حصل «توم» على خمسة أيام عمل والباقون يخرجون كل يوم ولا عمل، وتخافون من الكلام، النقود فرغت، أنتم تخافون من الحديث في هذا الأمر، كل ليلة تأكلون ثم تتمشون بعيدًا ليس في إمكانكم أن تتحادثوا في الأمر، حسنًا، لابد لكم من ذلك، لم يبق وقت طويل أمام «روزا شارن»، وانظروا إلى لونها، لابد أن تتحادثوا في الأمر، لدينا ما يكفي يومًا واحدًا من الدهن ويومين من الدقيق وعشرة من البطاطس، اجلسوا الآن واشغلوا أنفسكم بالأمر».

أطرقوا إلى الأرض.. انشغل الأب بتنظيف أظافره السميكة بمطواته،

والعم «جون» التقط شظية خشب من فوق الصندوق وجلس عليه، وقرص «توم» شفته السفلى وأبعدها عن أسنانه.

ترك شفته السفلى وقال بصوت خافت: «لقد كنا نبحث يا أمى، كنا نمشى منذ لم يعد فى إمكاننا أن نستخدم البنزين، ذهبنا إلى كل بوابة، مشينا إلى كل بيت، حتى عندما كنا نعرف أننا لن نجد شيئًا، إنه شىء ثقيل على النفس عندما يخرج الإنسان للبحث عن شىء يعرف أنه لن يجده».

فقالت الأم بحدة: «ليس من حقك أن تتخاذل، ليس من حقك هذا».

وتفحص الأب ظفره الذى نظفه وقال: «يجب أن نرحل، لم نكن نريد ذلك، إن المكان هنا جميل والناس طيبون، لقد كنا نخاف أن نضطر للعيش فى واحدة من الهوفرفيلات».

«حسنًا، إذا كان لابد من أن نذهب، فلنذهب، إن أول شىء هو أننا لابد أن نأكل».

وتدخل «آل»: «عندى خزان السيارة مملوء بالبنزين، لم أسمح لأحد أن يمد يده إليه».

فابتسم «توم»: «هذا هو «آل» يملك قدرًا من العقل إلى جانب عبثه».

فقالت الأم: «والآن تدبروا فيما بينكم، لن أتفرج بعد ذلك على العائلة وهى تهلك من الجوع، دهن ليوم آخر، هذا كل ما نملك، وسيأتى الوقت الذى تلد فيه «روزا شارن» ويجب أن تتغذى.. فكروا».

وبدا الأب: «هذا الماء الساخن هنا، والمراحيض..».

«هيه... لا يمكننا أن نأكل المراحيض..».

قال «توم»: «جاء رجل اليوم يبحث عن رجال ليذهبوا إلى ماريزفيل لجمع الفاكهة».

فسألت الأم: «حسنًا، لم لا نذهب إلى ماريزفيل؟».

فقال «توم»: «لا أعرف، لا يبدو هذا صوابًا بشكل ما، كان فى غاية القلق ولم يذكر كم سيكون الأجر، قال إنه لا يعرف بالتحديد».

قالت الأم: «سنذهب إلى ماريزفيل، لا يهمنى كم سيكون الأجر، سنذهب».

فقال «توم»: «إنها بعيدة جدًا، وليس لدينا نقود للبنزين، لا يمكننا أن نصل إلى هناك يا أمى، لقد قلت إننا يجب أن نفكر، أنا لم أفعل شيئًا إلا التفكير طول الوقت».

قال العم «جون»: «قال أحدهم إن هناك قطنًا سيجمع فى الشمال، بالقرب من مكان يدعى طولار، ليست بعيدة جدًا كما يقول الرجل».

«حسنًا، لابد أن نذهب، وأن نذهب بسرعة. لن أبقى هنا بعد ذلك مهما يكن المكان جميلاً». ورفعت الأم دلوها ومشت تجاه وحدة النظافة لتأتى بماء ساخن.

قال «توم»: «الأم تزداد عنفًا.. أرى أنها تفقد أعصابها منذ فترة قليلة، إنها تغلى».

قال الأب فى ارتياح: «حسنًا، لقد وضعت الأمر على المكشوف على أى حال، لقد كنت أرقد الليالى أحترق من التفكير، والآن فى إمكاننا أن نناقش الأمر على أى حال».

عادت الأم بدلوها المملوء بالماء يتصاعد منه البخار وقالت: «حسنًا، هل فكرتم فى شىء؟».

قال «توم»: «نحن نقلب الأمر، نفكر فى أن نرحل إلى الشمال حيث يوجد القطن، لقد جلنا هذه الأراضى كلها ونحن نعرف أنه لا يوجد فيها شيء.. نفكر فى أن نحزم أمتعتنا ونذهب شمالاً، عندئذ، عندما يحين موسم القطن سنكون هناك، أنا شخصيًا أحب أن أضع يدى على بعض القطن، ألديك خزان ملآن يا «آل»؟».

«تقريبًا... ناقص حوالى بوصتين».

«يجب أن توصلنا إلى ذلك المكان».

وأمسكت الأم بطبق فوق الدلو وسألت: «علام انتهيتم؟».

قال «توم»: «لقد انتصرت، سنذهب فيما أعتقد، هه، يا بابا؟».

قال الأب: «أعتقد أنه لابد من أن نذهب».

ورمقته الأم بعينيها: «متى؟».

«لا داعى للانتظار، ربما كان من الأفضل أن نذهب فى الصباح».

«لابد أن نذهب فى الصباح لقد أخبرتكم بما تبقى لدينا».

«والآن يا ماما، لا تظنى أننى لا أريد الذهاب، لم أحصل على ما يملأ بطنى منذ أسبوعين، بالطبع شبعت ولكننى لم أستفد شيئًا مما أكلت».

وأنزلت الأم الطبق فى الدلو وقالت: «سنذهب فى الصباح».

ونفخ الأب وقال فى سخرية: «يبدو أن الزمن قد تغير، الزمن الذى كان يحدد فيه الرجل ماذا يفعل، يبدو أن النساء هن اللائى يحددن الآن، يبدو أنه قد حان الوقت الذى يسلم فيه الرجل عصاه».

وضعت الأم الطبق الصاج النظيف الذى يقطر منه الماء فوق أحد الصناديق وابتسمت وهى تعمل وقالت: «عصاك معك يا بابا، وفى الوقت

الذى يتوافر فيه الطعام ومكان للإقامة، ربما استطعت أن تستعمل عصاك وتحافظ على مكانك، ولكنك لا تقوم بعملك لا فى التفكير ولا فى العمل، لو أنك كنت تقوم به، لاستطعت أن تستخدم سلطانك ولزحفت حولك النساء وأنوفهن فى التراب، أنت ما زلت تملك عصاك، ولكن لا يمكنك أن تضرب بها أى امرأة، هل أنت خائف لأن عندى عصا أشهرها أنا أيضًا».

وابتسم الأب فى ارتباك وقال: «والآن... ليس من المناسب أن يسمعك الصغار وأنت تتكلمين هكذا».

فقالت الأم: «الأفضل أن تضع بعض اللحم فى بطون الصغار قبل أن تأتى وتتكلم عما هو مناسب بالنسبة لهم».

نهض الأب فى ضيق وابتعد وتبعه العم «جون».

كانت يدا الأم مشغولتين فى الماء ولكنها راقبتهما وهما يذهبان، وقالت لـ «توم» فى اعتزاز: «لقد أحسن صنعًا، لم يضربنى، كان يبدو عليه أنه يريد ذلك».

ضحك «توم» وقال: «لقد كدت تدوسين عليه».

فقالت الأم: «فعلاً، خذ أى رجل، إنه قد يقلق ويقلق ويأكله القلق وسرعان ما يرقد ويموت وقد تآكل قلبه، ولكن إن استطعت أن تجعله يفقد أعصابه، فإنه سيصبح بخير، لم يقل الأب شيئًا ولكنه الآن فقد أعصابه، وسنرى الآن أنه بخير».

نهض «آل» وقال: «سأمشى قليلاً بين الخيام».

فقال له «توم» محذرًا: «من الأفضل أن ترى ما إذا كانت السيارة جاهزة للرحيل».

«إنها جاهزة».

«إن لم تكن فسأحيل عليك الأم».

«إنها جاهزة».. ثم مشى فى خفة إلى صف الخيام.

تنهد «توم» وقال: «أنا متعب يا أمى، ما رأيك فى أن تفقدينى أعصابى؟».

«إنك أرجح عقلاً يا «توم» ولست فى حاجة لأن أفقدك أعصابك، لابد أن أعتمد عليك، أما الآخرون فإنهم كالأغراب، كلهم إلا أنت، أنت لن تستسلم يا (توم)».

وأحس بالعبء يثقل كاهله فقال: «أنا لا أحب ذلك، أريد أن أخرج مثلما يفعل «آل»، وأن أفقد أعصابى مثلما يفعل أبى، وأن أسكر مثلما يفعل العم (جون)».

وهزت الأم رأسها، وقالت: «لا يمكنك ذلك يا «توم»، أنا أعرف، أعرف ذلك منذ أن كنت صغيرًا، لا تستطيع، من الناس من لا يفيض جهدهم عن أشخاصهم، خذ «آل» مثلاً إنه مجرد شاب يجرى وراء البنات، لم تكن أنت أبدًا هكذا يا (توم)».

فقال «توم»: «لقد كنت بالتأكيد، وما زلت».

«لا، لم تكن، كل ما تفعله أكبر منك، عندما أرسلوك إلى السجن كنت أعرف ذلك، أنت موعود».

«والآن يا أمى، كفى عن هذا الكلام، ليس صحيحًا، كله من نسج أفكارك».

وضعت الأم السكاكين والشوك فوق الأطباق وقالت: «ربما، ربما كان من نسج أفكارى، «روزا شارن»، جففى هذه الأشياء هنا وخذيها».

ونهضت الفتاة مقطوعة الأنفاس على قدميها وقد تدلى بطنها المنتفخ أمامها تحركت فى كسل إلى الصندوق والتقطت طبقًا مغسولاً..

قال «توم»: «لقد انتفخت حتى اتسعت عيناها».

قالت الأم: «لا تبدأ الهزر، إنها بخير، اذهب أنت وودع أى إنسان تريد أن تودعه».

قال: «أوكى، سأذهب لأرى كم يبعد ذلك المكان».

قالت الأم للفتاة: «إنه لا يقول هذا لكى يؤذى شعورك، أين «روثى» و«وينفلد»؟».

«تسللا خلف بابا، وقد رأيتهما».

«لا بأس، دعيهما يذهبان».

تحركت «روزا شارن» بكسل فى عملها وتفحصتها الأم فى عناية وقالت: «أتشعرين أنك بخير؟ تبدو وجنتاك غائرتين».

«لم أحصل على لبن كما قالوا لى».

«أعرف، المشكلة أنه ليس لدينا لبن».

فقالت «روزا شارن» فى بلادة: «لو أن «كونى» لم يذهب لكان من الممكن أن يكون عندنا منزل صغير الآن وهو يدرس، وكل شىء، ربما كنت قد حصلت على اللبن الذى أحتاج إليه، ربما حصلت على طفل لطيف، هذا الطفل لن يكون بخير، يجب أن أحصل على لبن». ومدت يدها فى جيب مريلتها ووضعت شيئًا ما فى فمها.

قالت الأم: «أراك تمضغين شيئًا، ماذا تأكلين؟».

«لا شىء».

«قولى، ما الذى تمضغينه؟».

«مجرد قطعة من الجير المطفى وجدت كومة كبيرة منها».

«لماذا، إنك كمن يأكل التراب».

«أحس أننى فى حاجة إليه».

وصمتت الأم، وفردت ركبتها وأحكمت قميصها وقالت أخيرًا: «أنا عارفة، لقد أكلت فحمًا مرة عندما كنت حاملاً، أكلت قطعة كبيرة من الفحم، وقالت لى الجدة إننى لا يجب أن أفعل ذلك، لا تقولى ذلك عن الطفل ثانية، ليس من حقك حتى أن تفكرى بهذا الشكل».

«ليس لدى زوج، ليس لدى لبن».

قالت الأم: «لو أنك كنت بصحة طيبة لصفعتك على وجهك». ونهضت ودخلت الخيمة ثم خرجت ووقفت أمام «روزا شارن» ومدت يدها أمامها وقالت: «انظرى». كان القرط الذهبى الصغير فى يدها «هذا لك».

لمعت عينا الفتاة لحظة، ثم أشاحت بوجهها وقالت: «أذناى ليستا مثقوبتين».

«حسنًا، سأثقبهما». وأسرعت عائدة داخل الخيمة وعادت بصندوق من الورق المقوى، ولضمت خيطًا مزدوجًا فى إبرة وعقدت الخيط، ثم أحضرت من الصندوق قطعة فلين.

«ستؤلم، ستؤلم».

خطت الأم نحوها ووضعت قطعة الفلين خلف حلمة الأذن ودفعت بالإبرة خلال الأذن فى الفلين.

وتلوت الفتاة وهى تقول: «إنها توخز، تؤلم».

«لا شيء أكثر من هذا».

«نعم، تؤلم».

«حسنًا، دعينا نرى الأذن الأخرى أولاً». ثم وضعت الفلينة وثقبت الأذن الأخرى.

«تؤلم».

فقالت الأم: «هس، لقد انتهى الأمر».

نظرت إليها «روزا شارن» فى عجب، وقصت الأم الخيط وسحبت عقدة واحدة من كل خيط خلال حلمة الأذن.

قالت: «والآن، كل يوم اسحبى عقدة واحدة، وخلال أسبوعين ستصبح على ما يرام ويمكنك أن ترتدى القرط، خذى، إنه ملكك الآن، تستطيعين الاحتفاظ به».

وتلمست «روزا شارن» أذنيها بخفة ونظرت إلى بقعة الدم الصغيرة على أصابعها وقالت: «لم تؤلم، ولكنها وخزت قليلاً».

قالت الأم: «كان يجب أن تكون أذناك مثقوبتين منذ وقت طويل» ونظرت إلى وجه الفتاة وابتسمت ظافرة وقالت: «والآن أفرغى من كل هذه الأطباق، سيكون لك طفل جميل، لقد كدت تضعين طفلك دون أن تثقب أذناك، ولكنك فى أمان الآن».

«هل يعنى هذا شيئًا؟».

«أكيد، إنه يعنى شيئًا بالطبع».

درج «آل» فى الشارع تجاه حلبة الرقص، وخارج إحدى الخيام الصغيرة النظيفة صفر صفارة خافتة ثم واصل مسيره، سار حتى أطراف المخيم وجلس على العشب.

كانت حواف السحب فوق الأفق الغربى قد فقدت لونها الأحمر الآن، واسود باطنها، وهرش «آل» ساقيه ونظر إلى سماء الأصيل.

بعد لحظات قليلة جاءت فتاة شقراء، كانت جميلة وحادة التقاطيع، جلست بجواره على العشب ولم تتكلم، ووضع «آل» يده على خصرها وأخذ يتحسسها بأصابعه.

قالت: «لا تفعل، إنك تدغدغنى».

قال «آل»: «سنرحل غدًا».

نظرت إليه وقد أخذتها المفاجأة وقالت: «غدًا؟ إلى أين؟».

فقال بخفة: «إلى الشمال».

«حسنًا، سنتزوج أليس كذلك؟».

«بالتأكيد، بعد قليل».

فصاحت فى غضب: «لقد قلت حالاً».

«طبعًا، حالاً تعنى عندما تحين حالاً».

«لقد وعدت» وتسللت أصابعه حول خصرها.

فصاحت: «ابعد، لقد قلت إننا...».

«حسنًا، بالتأكيد نحن...».

«والآن سترحلون».

فسألها «آل»: «ما حكايتك؟ هل أنت حامل؟».

«لا، لست كذلك».

فضحك «آل» وقال: «إذًا كنت أضيع وقتى معك! هه؟».

اندفعت ذقنها إلى الأمام وقفزت واقفة على قدميها: «ابعد عنى يا «آل جود»، لا أريد أن أراك بعد ذلك».

«أوه.. تعالى، ماذا حدث؟».

«أتظن أنك... آخر شقاوة؟».

«والآن انتظرى دقيقة واحدة».

«أتظن أن على أن أهرب معك، حسنًا، لا، أمامى فرص كثيرة».

«والآن انتظرى لحظة».

«لا يا سيدى... امش».

اندفع «آل» فجأة وأمسكها من رسغ قدمها وأوقعها، جذبها إليه وهى تقع وأمسكها ووضع يده على فمها الغاضب، حاولت أن تعض راحته ولكنه قوسها إلى أعلى فوق فمها وأمسكها تحته بذراعه الأخرى، وفى لحظة رقدت بلا حركة وفى لحظة أخرى كانا يقهقهان معًا على العشب الجاف!

قال «آل»: «لا يهمك، سنعود قريبًا جدًا، وسيكون معى ملء جيبى الكثير من النقود، وسنذهب إلى هوليوود ونرى الأفلام».

كانت ترقد على ظهرها وقد انحنى «آل» فوقها، رأى نجمة المساء اللامعة تنعكس فى عينيها، ورأى السحابة السوداء تنعكس فى عينيها وقال: «سنسافر بالقطار».

فسألته: «كم سيطول ذلك فيما تظن؟».

فقال: «أوه، ربما شهرًا».

* * *

هبطت ظلمة المساء والأب والعم «جون» يتربعان مع رؤوس العائلات خارج المكتب.. تدارسوا الليل والمستقبل. والمدير الصغير فى ملابسه البيضاء مفرودة ونظيفة، ارتكز بمرفقيه على سور المدخل الخارجى ووجهه متعب وشاحب.

نظر «هستون» إليه وقال: «من المستحسن أن تحصل على قسط من النوم يا سيدى».

«يجب ذلك فيما أعتقد، لقد ولد طفل فى الليلة الماضية فى الوحدة الثالثة، سأصبح قابلة ماهرة».

قال «هستون»: «ينبغى للرجل أن يعرف، الرجال المتزوجون يجب أن يعرفوا».

قال الأب: «سنرحل غدًا».

«إيه... إلى أين ستذهبون؟».

«فكرنا، إنه ربما ذهبنا إلى الشمال قليلاً، سنحاول أن نلحق بأول جمع للقطن.. لم نحصل على عمل وقد نفد طعامنا».

سأله «هستون»: «أتعرف ما إذا كان هناك عمل؟».

«لا، ولكننا متأكدون أنه لا يوجد عمل هنا».

فقال «هستون»: «سيوجد هنا بعد قليل، سنتحمل».

فقال الأب: «نحن نكره أن نرحل، الناس هنا طيبون للغاية، والحمامات وكل شىء، ولكننا يجب أن نأكل، لدينا خزان من البنزين، وقد يوصلنا مسافة من الطريق.. نحن نستحم كل يوم هنا، لم أكن نظيفًا فى حياتى مثلى الآن. شىء غريب ـ لقد تعودت أن أستحم مرة واحدة فى الأسبوع ولم

أشعر أبدًا بأنى متسخ، ولكن الآن إن لم أستحم مرة كل يوم، أنتن وإنى لأتساءل إن كان الاستحمام الكثير هو الذى يصنع هذا؟».

فقال المدير: «ربما لم تكن تستطيع أن تشم نفسك من قبل؟».

«ربما، وددت لو أمكننا البقاء».

وأمسك المدير الضئيل الجسم بصدغيه بين راحتيه وقال: «أعتقد أنه سيولد طفل آخر الليلة».

قال الأب: «سيولد لنا طفل فى العائلة بعد قليل، وددت لو أنه ولد هنا، أود ذلك بالتأكيد».

جلس «توم» و«ويلى» و«جول» و«الخلاصى» على حافة حلبة الرقص يطوحون أقدامهم، قال «جول»: «عندى كيس تبغ، أتحب التدخين؟».

قال «توم»: «بالتأكيد، ولم أدخن منذ وقت طويل». ولف السيجارة البنية فى عناية ليقلل من التبغ الضائع.

قال «ويلى»: «حسنًا يا سيدى سنأسف كثيرًا لرحيلك، أنتم يا جماعة قوم طيبون».

أشعل «توم» سيجارته: «لقد فكرت كثيرًا فى الأمر، يا يسوع المسيح! وددت لو استطعنا الاستقرار».

وأخذ «جول» كيس تبغه ثانية وقال: «شىء سيئ، عندى طفلة صغيرة وقد ظننت، عندما جئنا إلى هنا، أنها قد تدخل مدرسة ما، ولكن بحق الجحيم، نحن لا نقيم فى مكان واحد وقتًا كافيًا، سفر مستمر وهرولة دائمة».

قال «توم»: «أرجو ألا ندخل فى هوفرفيلات أخرى، لقد كنت مفزوعًا بالفعل هناك».

«هل طردتكم الشرطة؟».

قال «توم»: «كنت خائفًا أن أقتل إنسانًا ما، كنت هناك لوقت قصير ولكنى كنت مستثارًا طول الوقت وجاء رجال الشرطة وقبضوا على صديق لمجرد أنه تكلم الحق، كنت مستثارًا طول الوقت».

سأله «ويلى»: «هل اشتركت فى إضراب من قبل؟».

«لا».

«حسنًا، لقد فكرت كثيرًا لماذا لم يدخل الشرطة هنا ويثيرون المتاعب ككل مكان آخر؟ أتظن أن هذا الرجل الصغير فى المكتب هو الذى يمنعهم؟ لا يا سيدى».

فسأله «جول»: «حسنًا، ماذا إذًا؟».

«سأقول لك، إن السبب هو أننا نعمل معًا، لا يمكن لشرطى أن يقبض على رجل واحد فى هذا المخيم، فهو بهذا سيلقى القبض على كل المخيم، وهو لا يجرؤ على ذلك، كل ما سنفعله هو أن نطلق صيحة وسيخرج مائتا رجل على الفور، كان الرجل الذى يدعو إلى تنظيم نقابة يتكلم على الطريق، قال: إننا نستطيع أن نصنع هذا فى أى مكان، ليس علينا إلا أن نتكاتف معًا، فلن يثيروا المتاعب مع مائتى رجل، إنهم يصطادون رجلاً واحدًا فقط».

قال «جول»: «إيه، وافرض أنك كونت نقابة؟ لابد للنقابة من قادة عندئذ سيلتقطون قادتك فحسب، فماذا يكون مصير نقابتك عندئذ؟».

قال «ويلى»: «حسنًا، لابد أن نفكر فى الأمر بعض الوقت، لقد جئت هنا منذ عام، والأجور تهبط على الدوام، لا يمكن للرجل أن يطعم عائلته بعمله الآن، والحال تزداد سوءًا طول الوقت، لن يفيدنا أن نجلس ونموت

من الجوع، لست أعرف ما يجب عمله، إذا ملك الإنسان زوجًا من الخيول فهو لا ينكر أن عليه أن يطعمهما عندما لا يشتغلان، ولكن إن كان الرجل يستخدم بشرًا للعمل عنده، فهو لا يهتم بمصيرهم أبدًا، الخيول إذًا أكثر قيمة من الإنسان، أنا لا أفهم هذا».

قال «جول»: «ولهذا لا أريد أن أفكر فى الأمر، ولكن لابد أن أفكر فيه، عندى هذه الطفلة الصغيرة أنت تعرف كم هى جميلة، فى أحد الأسابيع أعطوها جائزة فى هذا المخيم لأنها جميلة جدًا، حسنًا ماذا سيحدث لها؟ إنها تهزل على الدوام، لن أستطيع تحمل ذلك، إنها جميلة جدًا، سأنفجر».

فسأله «ويلى»: «كيف؟ ماذا ستفعل، تسرق وتدخل السجن؟ تقتل إنسانًا وتشنق؟».

قال «جول»: «لا أعرف، التفكير يفقدنى الصواب، يفقدنى الصواب تمامًا».

قال «توم»: «سأفتقد حفلات الرقص، لقد كانت من أحسن حفلات الرقص التى رأيتها فى حياتى، إيه.. سأذهب لأنام، إلى اللقاء، سأراكم فى مكان ما». وتصافحوا بالأيدى.

قال «جول»: «بالتأكيد سنراك».

«حسنًا، إلى اللقاء، وابتعد «توم» فى الظلام.

رقدت «روثى» و«وينفلد» فى ظلام خيمة عائلة «جود» على مرتبتهما، ورقدت الأم بجوارهما، همست «روثى»:

«ماما».

«أيوه، ألم تنامى بعد؟».

«ماما، هل عندهم لعبة كروكيت فى المكان الذى سنذهب إليه؟».

«لا أعرف، نامى قليلاً، نريد أن ننطلق مبكرين».

«طيب، وددت لو بقينا فنحن متأكدون من وجود لعبة الكروكيت».

قالت الأم: «هس».

«ماما، «وينفلد» ضرب صبيًا الليلة».

«ما كان يجب ذلك».

«أنا عارفة، وقلت له ذلك، ولكنه ضرب الصبى فى أنفه مباشرة وبحق يسوع لقد سالت دماؤه بغزارة».

«لا تتكلمى بهذه الطريقة، ليست هذه طريقة طيبة للكلام».

وتقلب «وينفلد» وقال فى صوت ملىء بالغضب: «الولد يقول إننا «أوكيون» ويقول إنه ليس «أوكيًا» لأنه جاء من أريجون، يقول إننا «أوكيون» ملاعين، فضربته».

«هس، ما كان يجب أن تفعل ذلك، الشتيمة لا تؤذى».

فقال «وينفلد» بحدة: «ولكنى لن أسمح له».

«هس، نم قليلاً».

قالت «روثى»: «كان يجب أن تشاهدى الدماء وهى تسيل على ملابسه كلها».

ومدت الأم يدها من تحت الملاءة وصفعت «روثى» على خدها بأصابعها، وتصلبت الفتاة لحظة ثم ارتخت وأخذت تبكى وتشنف فى صمت.

جلس الأب والعم «جون» فى وحدة النظافة فى خانتين متجاورتين، قال الأب: «من المستحسن أن نودعها بواحدة طيبة أخيرة، إنها جيدة فعلاً أتذكر كيف فزع الصغار عندما شدوا السيفون لأول مرة؟».

قال العم «جون»: «لم أكن أنا نفسى مرتاحًا»، ثم شد عفريتته بعناية حول ركبتيه وقال: «إن حالتى تسوء، أحس بالخطيئة».

قال الأب: «لا يمكنك أن ترتكب أى خطيئة، ليس معك نقود، اجلس وتماسك، فإن الخطيئة تكلفك دولارين على الأقل، وليس معنا جميعًا دولاران».

«أيوه، ولكننى أفكر فى الخطيئة».

«لا بأس، تستطيع أن تفكر فى الخطيئة مجانًا».

فقال العم «جون»: «إنها تتساوى فى الشر».

قال الأب: «ولكنها أرخص كثيرًا».

«ألم تذهب وتتخفف من الخطيئة؟».

«لا، اذهب أنت، أنت دائمًا تشعر بالخطيئة عندما تتعقد الأمور فقط».

قال العم «جون»: «أنا عارف، إنها دائمًا هكذا، لم أحك أبدًا نصف ما فعلته».

«حسنًا، ابقه لنفسك».

«هذه المراحيض الجيدة هنا تجعلنى أشعر بالخطيئة».

«اذهب إلى الخارج وبين الشجيرات إذًا، هيا ارفع سراويلك ودعنا نذهب لننال قسطًا من النوم».

وشد الأب أحزمة عفريتته إلى أماكنها وشد يد السيفون، اندفعت المياه فى المرحاض ووقف الأب يراقبها متفكرًا بينما المياه تدور مندفعة فى «سلطانية» المرحاض.

كانت الدنيا لا تزال ظلامًا عندما أيقظت الأم خيمتها، وقد ظهرت أضواء الليل الخافتة من خلال أبواب وحدات النظافة المفتوحة وجاء صوت شخير سكان المخيم المتنوع من الخيام على طول الطريق.

قالت الأم: «تعالوا، انهضوا، لابد أن نكون على الطريق الآن، النهار قرب». صر غطاء الفانوس حين رفعته وأشعلت الفتيل: «هيا كلكم»، ودبت حركة بطيئة فى أرضية الخيمة، أزيحت الأغطية والبطاطين، وأحولت العيون الوسنانة فى الضوء دون أن ترى، وأسدلت الأم رداءها على ملابسها الداخلية التى تلبسها للنوم وقالت: «ليس لدينا بن، لدى قليل من البقسماط يمكننا أن نأكله على الطريق، انهضوا الآن وسنشحن السيارة، هيا الآن، لا تحدثوا أى ضجة، لا نريد أن نوقظ الجيران».

مضت بضع لحظات قبل أن يستيقظوا تمامًا، حذرت الأم الأطفال قائلة: «والآن لا تبتعدوا عن هنا».

وارتدت العائلة ملابسها وأنزل الرجال المشمع وشحنوا السيارات وحذرتهم الأم قائلة: «رتبوها جيدًا، واجعلوها مستوية وضعوا المرتبة فوق الحمولة».

قال «توم»: «حسنًا يا أمى، إنها جاهزة».

أمسكت الأم فى يدها طبق البقسماط البارد وقالت: «حسنًا، هاكم كل واحد قطعة، هذا كل ما لدينا».

أخذت «روثى» و«وينفلد» بقسماطهما وتسلقا صاعدين فوق الحمولة

وغطيا نفسيها ببطانية وعادا إلى النوم وما زالا يمسكان بالبقسماط البارد فى أيديهما، جلس «توم» فى مقعد السائق وداس على المارش، فأزّت السيارة قليلاً ثم توقف المحرك.

صاح «توم»: «الله يلعنك يا «آل» لقد تركت البطارية تفرغ».

فقال «آل» صاخبًا: «وكيف كان يمكننى بحق الجحيم أن أحفظها إن لم يكن عندى بنزين لأديرها؟».

فضحك «توم» فجأة وقال: «حسنًا، لست أعرف كيف، ولكنها غلطتك، عليك أن تدير المانيفلا».

«قلت لك إنها لم تكن غلطتى».

وخرج «توم» وأخرج المانيفلا من تحت المقعد وقال: «إنها غلطتى».

فأمسك «آل» المانيفلا وقال: «أعطنى هذه المانيفلا، وافتح الكونتاكت حتى لا تخلع ذراعى.

«أوكى... إلو ذيلها».

وأدار «آل» المانيفلا مرات ثم دار المحرك وقعقع وزمجر وتحرك «توم» بالسيارة برفق، ثم هدأ المحرك.

وتسلقت الأم إلى مكانها بجواره وقالت: «لقد أيقظنا كل إنسان فى المخيم».

«سيستغرقون فى النوم ثانية».

وتسلق «آل» فى الناحية الأخرى من المقعد وقال: «بابا والعم «جون» صعدا إلى فوق، سينامان ثانية».

قاد «توم» السيارة إلى البوابة الرئيسية وجاء الحارس من المكتب وحرك بطاريته على السيارة وقال: «انتظر دقيقة».

«ماذا تريد؟».

«هل سترحلون؟».

«بالتأكيد».

«حسنًا، لابد أن أشطب أسماءكم».

«أوكى».

«أتعرف إلى أين أنت ذاهب؟».

«سنجرب الشمال».

قال الحارس: «حسنًا، حظ سعيد».

«ولك أيضًا، إلى اللقاء».

ودرجت السيارة ببطء فوق المطلع ثم إلى الطريق، وتبع «توم» الطريق الذى سار فيه من قبل، ترك ويدباتش ثم غربا حتى وصل إلى الطريق ٩٩، ثم شمالاً على الطريق المرصوف العظيم فى اتجاه باكرسفيلد، كان الضياء ينتشر عندما وصل إلى أطراف المدينة.

قال «توم»: «فى كل مكان ترى مطاعم، وهذه الأماكن كلها فيها مقاه، انظر كلها تعمل طول الليل، أراهن أن عندهم عشرة جالونات قهوة ساخنة».

قال «آل»: «أوه، أسكت».

ابتسم «توم» وقال له: «حسنًا، أرى أنك قد حصلت على فتاة بسرعة».

«حسنًا، وماذا فى ذلك؟».

«إنه متضايق هذا الصباح يا أمى، ليس رفيقًا طيبًا».

فقال «آل» متوترًا: «سأنطلق وحدى فى القريب العاجل، يستطيع الإنسان أن يشق طريقه وحده أسهل بكثير مما إذا كانت له عائلة».

قال «توم»: «ستكون لنفسك عائلة فى تسعة أشهر، لقد شاهدتك تعبث».

قال «آل»: «أنت مجنون، سأحصل لنفسى على عمل فى جراج وأتناول طعامى فى المطاعم».

«وسيكون لك زوجة وطفل بعد تسعة أشهر».

«قلت لك.. لا».

قال «تـوم»: «أنت فتى حكيم يا «آل»... ستأخذ علقة على أم رأسك».

«من الذى سيفعل ذلك؟».

قال «توم»: «سيكون هناك من يفعل ذلك على الدوام».

«أنت تظن ذلك لمجرد أنك...».

فتدخلت الأم: «والآن أوقفا هذا الحديث».

قال «توم»: «أنا الذى بدأته، لقد كنت أغيظه ولم أكن أقصد أى سوء «آل»، لم أكن أعرف أنك تحب هذه الفتاة لهذه الدرجة».

«أنا لا أحب أى فتاة لدرجة كبيرة».

«حسنًا إذًا، أنت لا تحب، أنت لن تستطيع أن تجرنى إلى جدال».

ووصلت السيارة إلى حافة المدينة وقال «توم»: «انظر إلى بوفيهات السجق هذه... مئات منها».

قالت الأم: «توم»، عندى دولار، هل أنت فى حاجة شديدة إلى القهوة.. يمكن أن ننفقه.

«لا يا أمى، أنا أمزح فقط».

«تستطيع أن تأخذه لو أنك فى حاجة شديدة إليه».

«لن آخذه».

فقال «آل»: «إذًا كيف عن الكلام عن القهوة».

سكت «توم» بعض الوقت ثم قال: «يبدو أننى أتورط فى الأمر على الدوام، هذا هو الطريق الذى هربنا منه فى تلك الليلة».

قالت الأم: «أرجو ألا نواجه مثل ما واجهناه فى تلك الليلة، كانت ليلة سيئة».

وقال «توم»: «وكانت بغيضة إلى نفسى أنا أيضًا».

أشرقت الشمس على يمينهم، وكان ظل السيارة الكبيرة يجرى بجوارهم، يظهر ويختفى على قوائم السور بجوار الطريق، ومروا على الهوفرفيل التى أعيد بناؤها مرة أخرى.

قال «تــوم»: «انظرى، لقد جاء أناس جدد هنا، يبدو كالمكان السابق».

وخرج «آل» عن تجهمه ببطء وقال: «قال لى أحدهم إن هؤلاء الناس أحرق مخيمهم خمس عشرة أو عشرين مرة، قال إنهم يذهبون إلى الصفصاف ويختبئون ثم يخرجون ويبنون لأنفسهم عشًا من الأعشاب

مرة أخرى، تمامًا كقوارض الأرض، اعتادوا الأمر حتى إن هذا لم يعد يغيظهم، وهم يعتبرون ذلك أمرًا طبيعيًا، كتقلبات الجو».

قال «توم»: «فعلاً كانت تلك الليلة بالنسبة لى جوًا عاصفًا»، وساروا على الطريق العام العريض وقد أصابهم دفء الشمس بقشعريرة، قال «توم»: «البرد قارس فى الصباح، الشتاء فى طريقه إلينا، أرجو أن نتمكن من الحصول على قليل من المال قبل أن يحل، لن تصلح الخيمة فى الشتاء».

تنهدت الأم ثم رفعت رأسها وقالت: «توم»، لا بد أن نحصل على منزل فى الشتاء، لابد من ذلك، «روثى» لا بأس بها ولكن «وينفلد» ليس قويًا، لابد أن يكون لنا منزل عندما تهطل الأمطار، سمعت أنها تمطر بشدة فى هذه الأنحاء».

«سيكون لنا منزل يا أمى، اهدئى، سيكون لنا منزل».

«مجرد بيت له سقف وأرضية، حتى يمكن أن نحفظ الصغار بعيدًا عن الأرض».

«سنحاول يا أمى».

«لست أريد أن أشغلك الآن».

«سنحاول يا أمى».

قالت الأم: «أحيانًا يسيطر علىّ الفزع، أحيانًا أفقد شجاعتى».

«لم أشاهدك أبدًا وأنت على هذه الحال».

«عندما يجن الليل أفقدها أحيانًا».

وعلا صوت فحيح خشن من مقدمة السيارة، فأمسك «توم» بعجلة

القيادة بشدة وأنزل الفرملة حتى الأرضية فتوقفت السيارة فجأة، تنهد «توم» وقال: «حسنًا، لقد قضى الأمر»، ومال إلى الخلف فى مقعده، قفز «آل» خارجًا وجرى إلى الإطار الأيمن الأمامى وصاح: «مسمار كبير ضخم».

«هل عندنا أى رقع للإطارات؟».

قال «آل»: «لا، لقد استخدمناها كلها، عندى رقعة ولكنها ليست من نوع جيد».

التفت «توم» إلى الأم وابتسم فى أسى وقال: «ما كان يجب أن تذكرى ذلك الدولار، كنا سنصلحها بأى طريقة» وخرج من السيارة وذهب إلى الإطار الفارغ». أشار «آل» إلى مسمار كبير بارز من الإطار الخارجى وقال: «هذا هو».

«لو أن هناك مسمارًا واحدًا فى هذه الأنحاء، فقد مررنا نحن عليه».

ونادت الأم متسائلة: «أهى سيئة؟».

«لا، ليست سيئة، ولكن يجب أن نصلحها».

ونزلت العائلة من فوق السيارة وسأل الأب: «ثقبت؟» ثم شاهد الإطار وسكت.

أبعد «توم» الأم عن المقعد، وأخرج علبة الرقع من تحت المخدة وفرد رقعة المطاط وأخرج أنبوبة اللحام واعتصرها برفق وقال: «لقد جفت تقريبًا ربما كان هذا يكفى، حسنًا، «آل»، احبس العجل الخلفى ولنرفعها على الرافعة».

اشتغل «توم» و«آل» معًا، وضعا حجارة خلف العجلات ووضعا الرافعة تحت المحور الأمامى ورفعا الثقل من فوق الإطار المثقوب،

أخرجا الإطار ووجدا الثقب وغمسا قطعة من القماش فى خزان الوقود وغسلا الأنبوب فيما حول الثقب، ثم أمسك «آل» بالأنبوب مشدودًا على ركبته بينما شق «توم» أنبوبة اللحام نصفين ونشر السائل القليل منها فى طبقة رفيعة من المطاط بمطواته، ثم حك المادة اللاصقة برقة وقال: «والآن اتركها تجف حتى أقطع الرقعة» وقص الرقعة الزرقاء ورقق حوافيها وامسك «آل» بالأنبوب مشدودًا ووضع «توم» الرقعة فى مكانها بحرص: «تمامًا، والآن تعال بها إلى الرفرف لأدق عليها بالمطرقة». ودق على الرقعة بعناية، ثم فرد الأنبوب وتأمل أطراف الرقعة: «انتهينا، ستتحمل، ركبها على الدنجل وسننفخها، يبدو أنك ستحتفظين بدولارك يا أمى».

قال «آل»: «وددت لو أن عندنا إطارًا احتياطيًا، «توم» لابد لنا من إطار احتياطى على دنجل ومنفوخ، عندئذ يمكننا أن نصلح أى ثقب فى الليل».

قال «توم»: «عندما يكون معنا نقود لإطار احتياطى سنحصل لأنفسنا على بعض القهوة واللحم بدلاً منه».

كانت حركة الصباح الخفيفة تطن على الطريق، والشمس تزداد دفئًا ولمعانًا، وريح خفيفة حانية تهب فى موجات من الجنوب الغربى والجبال على جانبى الوادى العظيم تختفى فى الضباب المتلألئ.

كان «توم» ينفخ الإطار عندما وقفت سيارة ركوب آتية من الشمال على الجانب الآخر من الطريق، خرج منها رجل ذو وجه بنى اللون، يرتدى بذلة رجل أعمال رمادية فاتحة، ومشى عبر الطريق إلى السيارة النقل، كان عارى الرأس، وابتسم فظهرت أسنانه الشديدة البياض بالنسبة لجلده الداكن، كان يرتدى خاتم زواج ضخمًا فى الإصبع الثالث من يده اليسرى، وقد تدلت كرة قدم ذهبية صغيرة من سلسلة دقيقة على صدره، قال فى حبور:

«صباح الخير».

توقف «توم» عن النفخ وقال: «صباح الخير».

جرى الرجل بأصابعه فى شعره الرمادى القصير الخشن وسأل: «أتبحثون عن عمل يا جماعة؟».

«بالتأكيد يا سيدى، نبحث حتى تحت ألواح الخشب».

«هل يمكنكم جمع الخوخ؟».

قال الأب: «لم نفعل ذلك من قبل».

قال «توم» بسرعة: «نستطيع أن نفعل أى شىء، نستطيع أن نجمع أى شىء موجود».

قال الرجل وهو يعبث بكرته الذهبية: «حسنًا، هناك عمل كثير لكم على بعد حوالى أربعين ميلاً شمالاً».

قال «توم»: «سيسعدنا جدًا أن نحصل عليه، قل لنا كيف نصل إلى هناك وسنذهب قفزًا».

«حسنًا، اذهب شمالاً إلى «باكسلى»، وهى على بعد خمسة وثلاثين أو ستة وثلاثين ميلاً ثم در شرقًا وسر حوالى ستة أميال، اسأل أى إنسان أين توجد مزرعة «هوبر» وستجدون عملاً كثيرًا هناك».

«سنفعل بالتأكيد».

«أتعرفون أين يوجد أناس آخرون يبحثون عن عمل؟».

قال «توم»: «بالتأكيد، هناك فى مخيم ويد باتش يبحثون عن عمل».

«سأجرى إلى هناك، يمكننا أن نستخدم بعضهم، تذكر الآن، در شرقًا عند باكسلى وسر شرقًا إلى مزرعة هوبر».

قال «توم»: «بالتأكيد، ونحن نشكرك يا سيدى، نحن فى حاجة شديدة إلى العمل».

«حسنًا، اذهبوا بأسرع ما يمكنكم». ثم مشى عائدًا وعبر الطريق وصعد إلى سيارته المكشوفة وانطلق بها نحو الجنوب.

ألقى «توم» بثقله على المنفاخ وصاح: «عشرون فى المرة، واحد، اثنان، أربعة..» وعند العشرين أخذ «آل» المنفاخ ثم العم «جون». وبدا الإطار يمتلئ وينتفخ ويصبح أملس، وبعد ثلاثة دورات أفلت المنفاخ، قال «توم»: «لننزلها، ولنرى».

وأرخى «آل» الرافعة وأنزل السيارة وقال: «أخذت زيادة، ربما أكثر من المطلوب قليلاً».

وألقوا بالأدوات فى السيارة وقال «توم»: «هيا، لنذهب، أخيرًا سنحصل على عمل ما».

جلست الأم بينهما ثانية وقاد «آل» السيارة هذه المرة.

«والآن، خذها على مهلها، لا تحرقها يا (آل)».

وانطلقوا بين الحقول المشمسة فى الصباح وقد انقشع الضباب عن قمم التلال فبدت بوضوح بنية اللون تجرى عليها أخاديد سوداء أرجوانية، والبط البرى يطير من فوق الأسوار عندما تمر به السيارة، وبلا وعى زاد «آل» من سرعته.

قال «توم» يحذره: «على مهلك ستنفجر لو أرهقتها، لابد أن تصل إلى هناك، ربما استطعنا أن نحصل على عمل اليوم أيضًا».

قالت الأم بانفعال: «قد أستطيع بأربعة رجال يعملون أن أحصل على بعض الأشياء على الحساب، أول شىء سأحصل عليه هو القهوة لأنك

تريدها، ثم بعض الدقيق والخميرة واللحم، من الأفضل ألا نشترى اللحم فورًا، فلنؤجل ذلك فيما بعد، ربما يوم السبت، وصابونًا، لابد أن أحصل على صابون، يا ترى أين سنقيم؟».

واستمرت تثرثر: «ولبن، سأحصل على بعض اللبن لأن «روزا شارن» يجب أن تحصل على لبن، السيدة الممرضة قالت ذلك».

زحف ثعبان على الطريق الدافئ فانحرف نحوه «آل» وداسه ثم عاد إلى طريقه.

قال «توم»: «ثعبان غيط، ما كان يجب أن تفعل هذا».

قال «آل» بمرح: «أكرهها، أكره كل أنواعها، توجع بطنى».

وعند الضحى ازدادت حركة النقل على الطريق، باعة فى سيارات فاخرة لامعة نقشت على أبوابها شارات شركاتهم، سيارات نقل بترول حمراء وبيضاء تجرجر خلفها سلاسل تصلصل على الأرض، سيارات نقل كبيرة مربعة الأبواب تنقل البضائع لمحلات بقالة الجملة وعلى جانبى الطريق كانت الأرض خصبة والبساتين كثيفة الأوراق، والكروم بمحاليقها الخضراء الطويلة تكسو الأرض بين الخطوط، كانت هناك حقول بطيخ، وحقول قمح، ومنازل بيضاء بين الخضرة تنمو عليها الورود والشمس ذهبية ودافئة.

جلست الأم و«توم» و«آل» فى المقعد الأمامى وقد غلبتهم البهجة، قالت الأم: «لم أشعر منذ وقت طويل أننى بخير كما أشعر الآن، لو أمكن أن نجمع كمية من الخوخ ربما حصلنا على منزل، وقد ندفع إيجار شهرين مقدمًا، لابد لنا من منزل».

قال «آل»: «سأدخر، سأدخر ثم أذهب إلى المدينة وأحصل على عمل فى جراج، وأقيم فى حجرة وآكل فى المطاعم، وأذهب إلى السينما كل

ليلة، إنها لا تكلف كثيرًا، أفلام رعاة البقر»، وتوترت قبضتاه على عجلة القيادة.

وعلا صوت الماء يغلى فى الرادياتير، وفح منه البخار فسأله «توم»: «هل ملأته؟».

«أيوه، الريح تأتى من خلفنا وهذا ما يجعلها تغلى».

قال «توم»: «يوم جميل جدًا، اعتدت أن أعمل هناك فى «ماك أليستر» وأفكر فى الأشياء التى سأفعلها. كنت سأظل أمشى على هواى دون توقف فى أى مكان، يبدو كأن ذلك حدث منذ وقت طويل، كأننى هناك منذ سنين، كان هناك سجان فظ، كنت سأضربه، أعتقد أن هذا ما يجعلنى أفقد صوابى مع الشرطة، يبدو لى كأن كل شرطى يحمل وجه هذا السجان، كان أحمر الوجه مثل الخنزير، كانوا يقولون إن له أخًا فى الغرب واعتاد أن يفرج عن الرجال بالإفراج الشرطى ويسلمهم لأخيه، وهناك يعملون بلا مقابل، وإذا ما احتجوا فسيعيدهم لخروجهم على النظام، هذا ما كان يقوله المسجونون».

فتوسلت إليه الأم قائلة: «لا تفكر فى هذا، سأحضر أشياء كثيرة لنأكلها، كمية من الدقيق والدهن».

قال «توم»: «ربما كان من الأفضل أن أفكر فيها، أحاول دائمًا أن أبعدها ولكنها تعود وتلطمنى، كان هناك فتى مهووس، لم أحك لك عنه من قبل، يشبه هوليجان المجنون، من النوع غير المؤذى وينتوى الهرب على الدوام، وأطلق عليه الرجال اسم هوليجان». وضحك «توم» لنفسه.

وتوسلت إليه الأم: «لا تفكر فيه».

وقال «آل»: «استمر، احك حكاية هذا الرجل».

فقال «توم»: «لا ضرر فى هذا يا أمى، هذا الرجل كان ينتوى الهرب على الدوام، يستطيع أن يضع خطة ولكنه لا يستطيع أن يكتمها لنفسه، وسرعان ما يعرفها كل واحد حتى المأمور، ثم ينفذ الخطة وعندئذ يمسكونه فورًا ويعيدونه ثانية، حسنًا، مرة رسم خطة عن المكان الذى سيخرج منه، وبالطبع عرضها على المحيطين به، وسكت الجميع، ثم نفذها، وسكت الجميع، حصل لنفسه على حبل من مكان ما وقفز فوق الحائط، وهناك خارج السور كان ستة من الحراس يقفون ومعهم جوال كبير، ونزل هوليجان فى هدوء على الحبل ووقفوا هم ممسكين بالجوال مفتوحًا فدخل فيه مباشرة، ربطوا فتحة الجوال ودخلوا به، وضحك الرجال بشدة حتى كادوا يموتون من الضحك، ولكن ذلك حطم روح «هوليجان» فظل يبكى ويبكى حتى مزق شرايين يده بدبوس ونزف حتى الموت لأن مشاعره جرحت، لم يكن يؤذى أحدًا على الإطلاق، هناك كل أنواع المهاويس فى الحبس».

قالت الأم: «لا تتكلم فى هذا، لقد عرفت أم «برتى بو فلويد»، لم يكن ولدًا شريرًا، ولكنهم ضيقوا عليه الخناق ودفعوه إلى الجنون».

تحركت الشمس نحو كبد السماء وتضاءل ظل السيارة وزحف تحت عجلاتها.

قال «آل»: «لابد أن تكون باكسلى أمامنا الآن، رأيت لافتة منذ قليل»، ودخلو المدينة الصغيرة وداروا إلى الشرق على طريق ضيق، وحوطت البساتين الطريق كجناحين أسطوريين.

قال «توم»: «أرجو أن نجدها بسهولة».

قالت الأم: «قال ذلك الرجل إن اسمها مزرعة هوبر، ربما سألنا أى واحد فيخبرنا، أرجو أن يكون هناك محل بقالة قريب، ربما استطعت أن

أحصل على شيء على الحساب ولي أربعة رجال يعملون، في إمكاني أن أحصل على عشاء طيب فعلاً إذا أعطوني شيئًا على الحساب، ربما طبخت كمية كبيرة من اليخني».

قال «توم»: «قهوة، ربما أحضرت لي كيسًا من التبغ، لم أحصل على تبغ منذ وقت طويل».

وعلى البعد، كان الطريق أمامهم مسدودًا بالسيارات، وقد وقف صف من الدراجات البخارية البيضاء على جانب الطريق، قال «توم»: «لابد أنها حادثة تصادم».

وعندما اقتربوا خرج من جوار آخر السيارات الواقفة رجل من شرطة الولاية يرتدي حذاء عاليًا وحزامًا عريضًا، رفع يده وأوقف «آل» السيارة، مال الشرطي على جانب السيارة وقال بصوت خفيض: «إلى أين أنتم ذاهبون؟».

قال «آل»: «قال لنا رجل إن هناك جمع خوخ على هذا الطريق».

«أتريدون العمل؟».

قال «توم»: «طبعًا».

«أوكي، انتظروا هنا دقيقة واحدة»، ثم مشى إلى جانب الطريق ونادى: «واحدة أخرى، ست سيارات الآن، يستحسن أن تمروا بهذه الدفعة».

صاح «توم»: «هاي، ما الخبر؟».

وأطل رجل المرور خلفه وقال: «هناك قليل من المتاعب، قدام، لا تقلق ستمرون،اتبعوا الطابور فقط».

وجاءت أصوات فرقعات الدراجات البخارية وهي تدور، وتحرك طابور السيارات وسيارة عائلة «جود» في آخره، دراجتان بخاريتان في المقدمة على الطريق واثنتان في المؤخرة.

قال «توم» فى قلق: «يا ترى ما الحكاية؟».

فقال «آل»: «ربما كان الطريق مسدودًا».

«لا يحتاج ذلك إلى أربعة من رجال الشرطة لكى يقودونا، أنا لا أرتاح لذلك».

وأسرعت الدراجات البخارية فى المقدمة، وأسرع وراءها طابور السيارات القديمة، وأسرع «آل» لكى يلاحق السيارة الأخيرة.

قال «توم»: «الناس الذين هنا جميعًا من صنفنا، كلهم، أنا لا أرتاح لذلك».

وفجأة دار رجال الشرطة فى المقدمة خارج الطريق إلى مدخل مفروش بالحصى ودارت السيارات القديمة خلفهم، وزمجرت محركات الدراجات البخارية ورأى «توم» صفًا من الرجال واقفين فى المنخفض بجانب الطريق، رأى أفواههم مفتوحة كأنهم يصيحون، رآهم يلوحون بقبعاتهم ووجوههم غاضبة، وجرت امرأة بدينة نحو السيارات ولكن إحدى السيارات البخارية المزمجرة وقفت فى طريقها، وانفتحت بوابة عالية مصنوعة من الأسلاك ومرت السيارات الست القديمة ثم انغلقت البوابة خلفهم، واستدارت الدراجات البخارية الأربع وعادت مسرعة فى الاتجاه الذى جاءت منه، والآن، عندما اختفت الدراجات، أمكن سماع صياح الرجال فى المنخفض من بعيد، ووقف رجلان بجوار الطريق المفروش بالحصى وكل منهما يحمل بندقية.

صاح أحدهم: «استمروا، استمروا، ماذا تنتظرون بحق الجحيم؟». وتحركت السيارات الست إلى الأمام ثم استدارت حول منحنى ووصلت فجأة إلى معسكر الخوخ.

كان هناك خمسون صندوقًا مربعًا على مستوى السطح، لكل منها باب ونافذة والمجموعة كلها تشكل مربعًا واحدًا، وانتصب خزان مياه عال فى أحد أطراف المعسكر وعلى الجانب الآخر قام محل بقالة صغير، وعند نهاية كل صف من المنازل المربعة وقف رجلان مسلحان بالبنادق وقد شبكا على قميصيهما نجمة فضية كبيرة.

وقفت السيارات الست، وتحرك كاتبان من سيارة إلى سيارة.

«أتريد العمل؟».

أجاب «توم»: «بالتأكيد، ولكن ما هذا؟».

«ليس هذا من شأنك، أتريد العمل؟».

«بالتأكيد، نريد العمل».

«الاسم؟».

«جود».

«كم عدد الرجال؟».

«أربعة».

«النساء؟».

«اثنتان».

«الأطفال؟».

«اثنان».

«هل يمكنكم العمل جميعًا؟».

«طبعًا، أعتقد ذلك».

«أوكى، اذهب إلى المنزل رقم ٦٣، الأجور خمسة سنتات للصندوق، لا تقبل الفاكهة المخدوشة، حسنًا، تحركوا الآن..واذهبوا إلى العمل فورًا».

وتحركت السيارات، على باب كل منزل مربع أحمر رقم مكتوب، قال «توم»: «ستون، هذا ستون، لابد أنه من هذا الطريق، هناك، واحد وستون، اثنان وستون، هذا هو».

أوقف «آل» السيارة أمام باب المنزل الصغير ونزلت العائلة من فوق السيارة ونظرت حولها فى ارتباك واقترب شرطيان وتفحصا كل وجه بعناية «الاسم؟».

«جود» ثم قال «توم» بصبر نافد: «قل لى، ما الذى يجرى هنا؟»

وأخرج أحد رجال الشرطة قائمة طويلة من جيبه وقال: «ليسوا هنا.. هل رأيت هؤلاء من قبل؟ انظر إلى الرخصة، لا، ليسوا هنا، أعتقد أنه لا مانع».

«والآن اسمعوا، نحن لا نريد أى متاعب معكم، فلتؤدوا عملكم فقط، واهتموا بشئونكم فقط وسيكون كل شىء على ما يرام». واستدار الاثنان فجأة وابتعدا، وعند نهاية الشارع جلسا على صندوقين ومن موضعهما يشرفان على الشارع بطوله.

حملق «توم» خلفهما وقال: «إنهم بالتأكيد يريدوننا أن نشعر كأننا فى منزلنا».

فتحت الأم باب المنزل وخطت بداخله، كانت الأرضية ملطخة بالشحم وفى إحدى الغرف قام فرن صغير صدئ ولا شىء غير ذلك، استقر الفرن الصفيح فوق أربعة قوالب وخرجت مدخنته الصدئة من

السقف، كانت رائحة الغرفة شحمًا وعرقًا، وقفت «روزا شارن» بجوار الأم وسألت: «هل سنقيم هنا؟».

سكتت الأم لحظة وقالت: «طبعًا، بالتأكيد، لن تكون سيئة بعد أن نغسلها ونمسحها».

قالت الفتاة: «أفضل الخيمة».

فقالت الأم: «هذه لها أرضية ولن تنشع عندما تمطر»، ثم استدارت إلى الباب وقالت: «ربما كان من الأفضل أن ننزل المتاع».

أفرغ الرجال السيارة فى صمت، حل عليهم خوف ما، كان مربع الصناديق الكبيرة ساكنًا، ومرت امرأة فى الشارع ولكنها لم تنظر نحوهم، كانت تنكس رأسها وقد تمزق ذيل ثوبها التيل القذر إلى هلاهيل صغيرة.

وحل الوجوم على «روثى» و«وينفلد» فلم يندفعا لاستكشاف المكان، بقيا بالقرب من السيارة، بالقرب من العائلة، تأملا الشارع المترب فى اكتئاب من أوله إلى آخره، ووجد «وينفلد» قطعة من السلك ظل يثنيها ويفردها حتى انكسرت وصنع مانيفلا صغيرة من القطعة الأقصر وأخذ يلفها فى يده.

كان «توم» والأب يحملان مرتبة إلى داخل المنزل عندما ظهر كاتب، كان يرتدى بنطلونًا كاكيًا وقميصًا أزرق وربطة عنق سوداء، كان يرتدى نظارات ذات حواف فضية وعيناه تبدوان من خلال العدسات السميكة، كليلتين حمراوين، وحدقتاهما تحدقان كعيون الثور الصغير، مال إلى الأمام ونظر إلى «توم».

قال: «أريد أن أتمم عليكم، كم منك سيعمل؟».

قال «توم»: «هنا أربعة رجال، أهو عمل شاق؟».

قال الكاتب: «جمع خوخ، عمل هين، خمسة سنتات للصندوق».

«أيوجد أى سبب يمنع الصغار من المساعدة؟»

«بالتأكيد لا، إذا كانوا حريصين».

قالت الأم: «بمجرد أن أستقر سآتى للمساعدة، ليس لدينا ما نأكله يا سيدى.. هل ستدفعون أجورنا فورًا؟».

«لا، ليست نقودًا على الفور، ولكنك تستطيعين أن تحصلى على حساب فى محل البقالة بضمان أجوركم».

قال «توم»: «هيا، لنسرع، أريد بعض اللحم والخبز فى بطنى الليلة، إلى أين نذهب يا سيدى؟».

«أنا ذاهب إلى هناك الآن، تعالوا معى».

ومشى «توم» والأب والعم «جون» و«آل» معهم عبر الطريق المترب إلى البستان ثم بين أشجار الخوخ، كانت الأوراق الصغيرة قد بدأت تتحول إلى لون أصفر فاتح، كانت ثمار الخوخ مثل كرات صغيرة من الذهب محمرة فوق الأغصان، وبين الأشجار أكوام من الصناديق الفارغة، كان العمال يهرعون حولها، يملأون سلالهم من الغصون ويضعون الخوخ فى الصناديق، ثم يحملون الصناديق إلى محطة الفرز، وعند المحطات، حيث صفوف الصناديق المليئة المرصوصة، تنتظر سيارات النقل ويقف الكتبة لكى يسجلوا أسماء العمال.

قال الكاتب لأحد زملائه: «هاك أربعة آخرون».

«أوكى، هل جمعتم فاكهة من قبل؟».

قال «توم»: «أبدًا».

«حسنًا، اجمعوا بعناية، لا فاكهة مخدوشة، ولا سقط، إذا أفسدت الثمار لن نسجلها لك، ها هنا بعض السلال».

التقط «توم» سلة سعة ثلاثة جالونات وتأملها وقال: «قاعها ملىء بالثقوب».

فقال الكاتب الكليل البصر: «فعلا، هذا يمنع الناس من سرقتها، حسنًا هنا فى هذا القسم، هيا».

أخذ الأربعة سلالهم ودخلوا البستان وقال «جون»: «إنهم لا يضيعون وقتهم».

قال «آل»: «بحق المسيح القدير، أفضل العمل فى جراج».

كان الأب يتبعهم منقادًا إلى الحقل فاستدار فجأة إلى «آل» وقال: «والآن كف عن هذه الفكرة، لقد كنت تولول وتنوح وتصرخ، هيا إلى العمل، لست كبيرًا، مازلت أستطيع أن أضربك».

واحمر وجه «آل» من الغضب وبدا يزوم فى تبجح.

اقترب منه «توم» وقال مهدئًا: «تعال يا «آل»، خبز ولحم، لا بد أن نحصل عليهما».

وصلوا إلى الأشجار وبدأوا يسقطون الثمار فى سلالهم، وأسرع «توم» فى عمله، ملأ السلة الأولى ثم الثانية وقلبهما فى الصندوق، ثلاثة سلال، امتلأ الصندوق، وصاح: «لقد عملت بخمسة سنتات». والتقط الصندوق ومشى مسرعًا إلى المحطة وقال للفراز: «هاك ما يساوى خمسة سنتات».

ونظر الرجل فى الصندوق، وقلب خوخة أو اثنتين وقال: «ضعه هناك

هذا غير صالح، قلت لكم لا تخدشوا الفاكهة، قلبتها من السلة أليس كذلك؟ حسنًا، لقد خدشت كل خوخة فيها، لا يمكن أن نسجل هذا الصندوق، ضمها على مهل وإلا كأنك تضيع عملك هباء».

«لماذا.. اللعنة».

«والآن اهدأ، لقد حذرتك قبل أن تبدأ».

ونكس «توم» ناظريه فى اكتئاب وقال: «أوكى، أوكى»، ثم عاد مسرعًا للآخرين.

«من المستحسن أن تقلبوا ما معكم، فهو مثلما كان معى، لن يقبلوه منكم».

بدأ «آل» يقول: «والآن ماذا بحق الجحيم؟».

«لابد أن نجمع على مهل، لا تسقطها فى السلة، ولابد أن ترصها واحدة واحدة فى الصندوق».

وبدأوا مرة أخرى، فى هذه المرة تناولوا الثمار برقة، امتلأت الصناديق بسرعة أقل وأبطأ وقال «توم»: «أعتقد أننا نستطيع أن ندبر شيئًا، لو أن «روثى» و«وينفلد» و«روزا شارن» جاءوا وما عليهم إلا أن يرصوها فى الصناديق، فإننا نستطيع أن نعمل فى نظام»، ثم حمل صندوقه الجديد إلى محطة الفرز «أيستحق هذا الخمسة سنتات؟».

فحصه الفراز، وقلب عدة طبقات منها ثم قال: «هذا حسن» ثم سجل الصندوق وقال: «على مهلك فقط».

وأسرع «توم» عائدًا وصاح: «حصلت على خمسة سنتات، على نكلة! على أن أفعل هذا عشرين مرة من أجل دولار واحد فقط».

اشتغلوا دون توقف خلال فترة بعد الظهر، جاءت «روثى» و«وينفلد» بعد فترة فقال لهما الأب: «لابد أن تعملا، عليكما أن تضعا هذه الثمار بعناية فى الصندوق، هيا الآن، واحدة واحدة».

وتربع الطفلان على الأرض يلتقطان الخوخ من السلة الزائدة، وفى انتظارهما صف من السلال، وحمل «توم» الصناديق الممتلئة إلى المحطة، قال: «هذا السابع»، «هذا هو الثامن»، «حصلنا على أربعين سنتًا»، «سنحصل على قطعة لحم جيدة بالأربعين سنتًا».

ومرت فترة العصر وحاولت «روثى» أن تذهب قائلة فى صوت نائح: «أنا تعبت، لابد أن أرتاح».

قال الأب: «فلتبق حيث أنت».

كان العم «جون» يجمع ببطء، كان يملأ سلة مقابل سلتين يملأهما «توم»، ولم تتغير سرعته.

وفى منتصف العصيرة جاءت الأم تدرج متعبة وقالت: «كان من الممكن أن آتى من قبل لولا أن «روزا شارن» أغمى عليها تمامًا».

قالت للطفلين: «كنتما تأكلان الخوخ، حسنًا سيفجر أمعاءكما». وتحركت الأم بجسمها الغليظ بسرعة، وسرعان ما تركت سلتها وأخذت تجمع فى مريلتها، وعندما غربت الشمس كانوا قد جمعوا عشرين صندوقًا.

أنزل «توم» الصندوق العشرين وقال: «دولار، إلى متى سنعمل؟».

«اشتغل حتى الظلام، طالما يمكنك أن ترى».

«حسنًا أيمكن أن نفتح حسابًا الآن؟ ينبغى أن تذهب أمى وتشترى شيئًا لنأكله».

«بالتأكيد، سأعطيك الآن إيصالاً بدولار»، وكتب شيئًا على قصاصة ورق ناولها (لتوم)».

أخذها وأعطاها للأم وقال: «إليك هذه، يمكنك أن تحصلى على ما يساوى دولارًا من المحل».

أنزلت الأم سلتها وشدت كتفيها.

«متعبة لأنها أول مرة، أليس كذلك».

«فعلاً، سنعتادها جميعًا بسرعة، أسرعى وأحضرى بعض الطعام».

قالت الأم: «ماذا تحبون أن تأكلوا؟».

قال «توم»: «لحم وخبز، وبراد كبير من القهوة بالسكر، قطعة لحم كبيرة».

وأعولت «روثى»: «ماما، تعبنا».

«من الأفضل أن تأتيا معى إذًا».

قال الأب: «كانا متعبين منذ أن بدآ، إنهما يصيران كالأرانب البرية، لن تكون هناك أى فائدة فيهما ما لم نستطع أن نحكمهما».

قالت الأم: «سيذهبان إلى المدرسة عندما نستقر». ثم درجت بعيدًا و«روثى» و«وينفلد» يتبعانها فى خجل.

سأل «وينفلد»: «سنعمل كل يوم؟».

وقفت الأم قليلاً، ثم أخذت يده ومشت وهى تمسكه وقالت: «ليس عملاً شاقًا، وسيفيدكما، أنتما تساعداننا، إذا اشتغلنا كلنا فسرعان ما نسكن فى منزل جميل، ينبغى أن نساعد بعضنا جميعًا».

«ولكننى تعبت جدًا».

«أعرف، أنا تعبت أيضًا، كل واحد منا تعب، ولكن يجب أن نفكر فى الأشياء الأخرى، فكر فى الوقت الذى ستذهب فيه إلى المدرسة».

«لا أريد أن أذهب إلى أى مدرسة، ولا «روثى» أيضًا، هؤلاء الأطفال الذين يذهبون إلى المدرسة يا أمى، سفلة، يسموننا «أوكيين»، لقد رأيناهم، لن أذهب».

نظرت الأم بإشفاق إلى شعره الأصفر وتوسلت إليه قائلة: «لا تتعبنا الآن، عندما نقف على أقدامنا يمكنك أن تصبح ولدًا شقيًا، ولكن الآن لا، عندنا من الهموم ما يكفينا».

قالت «روثى»: «أكلت ستًا من هذا الخوخ».

«حسنًا، ستصابين بالإسهال، ونحن هنا لسنا قريبين من أى مراحيض».

كانت بقالة الشركة عبارة عن سقيفة كبيرة من الصاج المضلع، ليس لها نافذة تهوية، فتحت الأم الباب ذا الستائر ودخلت، كان هناك رجل نحيف يقف خلف البنك، أصلع تمامًا ورأسه أبيض مزرق، وقد غطى عينيه حاجبان كبيران بنيان على هيئة قوسين عاليين حتى بدا وجهه مندهشًا وخائفًا إلى حد ما، أنفه طويلة ونحيفة ومقوسة كمنقار الطيور وقد انسد منخاراه بشعر بنى فاتح، وارتدى فوق أكمام قميصه الأزرق كمين من الساتان الأسود لحمايتهما، كان يرتكز بمرفقيه على البنك عندما دخلت الأم.

قالت: «مساء الخير».

تفحصها باهتمام وازدادت الأقواس فوق عينيه ارتفاعًا: «كيف حالك؟».

«معى إيصال بدولار».

قال: «تستطيعين أن تأخذى بما يساوى الدولار». ثم ضحك بشدة وقال: «نعم يا سيدتى، ما يساوى الدولار، يساوى دولارًا واحدًا». وحرك يده على البضائع وقال: «ماذا تريدين منها؟». وشد أكمامه السوداء بعناية.

«ربما حصلت على قطعة من اللحم».

قال: «عندى كل الأنواع، لحم فخذ، أتحبين لحم الفخذ؟ عشرون سنتًا للرطل، لحم الفخذ».

«أليس هذا السعر مرتفعًا جدًا؟ اذكر أن سعر لحم الفخذ كان خمسة عشر سنتًا، وآخر مرة حصلت على بعض منه».

فضحك برفق وقال: «حسنًا، إنه سعر مرتفع وفى نفس الوقت ليس مرتفعًا، فالذهاب إلى المدينة من أجل رطلين من لحم الفخذ سيكلفك جالون بنزين، وهكذا ترين أن السعر ليس مرتفعًا فى الحقيقة، لأنك لا تملكين جالونًا من البنزين».

فقالت الأم بجفاء: «ولكنها لم تكلفك جالون بنزين لتحضرها هنا».

فضحك الرجل بخفة وقال: «أنت تنظرين إليها بالمعكوس، نحن لا نشترى اللحم، نحن نبيعه، لو كنا نشتريه لاختلف الأمر».

وضعت الأم اصبعين على فمها وقطبت مفكرة: «تبدو مليئة بالدهن والغضاريف».

فقال البقال: «لست أضمنها لك إن لم تنضج، لا أضمنها، قد آكلها أنا نفسى ولكن هناك الكثير لا يمكن أن آكله».

ونظرت إليه الأم بقسوة لحظة ثم سيطرت على نفسها وقالت: «أليس لديك نوع أرخص من اللحم؟».

قال: «عظام الشوربة، الرطل بعشرة سنتات».

«ولكنها عظام فقط».

قال: «عظام فقط، ولكنها تعطى شوربة جيدة، مجرد عظام».

«ألديك أى لحم سليق؟».

«أوه، أيوه، طبعًا، بخمسة وعشرين سنتًا للرطل».

فقالت الأم: «قد لا أستطيع الحصول على لحم إذًا، ولكنهم يريدون اللحم، لقد قالوا إنهم يريدون اللحم».

«كل إنسان يريد اللحم... يحتاج اللحم، لحم الفخذ هذا نوع جيد جدًا، وفى إمكانك أن تستعملى الدسم الذى يتخلف عنه فى الصلصة، جيد جدًا لحم مشفى، ولا يتبقى منها عظام لإلقائها».

«كم، كم ثمن اللحم البوفتيك؟».

«حسنًا، والآن ها أنت تنتقلين إلى صنف غير معقول، خاص بعيد الميلاد، أو بعيد صلاة الشكر، خمسة وثلاثون سنتًا للرطل، الديك الرومى أرخص، لو كان عندى ديكة رومية».

تنهدت الأم وقالت: «أعطنى رطلين من لحم الفخذ».

«حاضر يا سيدتى، ووضع قطعة اللحم الشاحبة على ورقة مشمع: وماذا أيضا؟».

«حسنًا، بعض الخبز».

«موجود... رغيف كبير جميل... خمسة عشر سنتًا».

«إن ثمنه اثنا عشر سنتًا».

«بالتأكيد اذهبى إلى المدينة واحصلى عليه باثنى عشر سنتًا، جالون بنزين، ماذا يمكن أن أبيعك أيضًا؟ بطاطس؟».

«نعم، بطاطس».

«خمسة أرطال بربع دولار».

وتحركت نحوه الأم فى هياج: «لقد سمعت منك ما يكفى، أنا أعرف سعرها فى المدينة».

أطبق الرجل فمه وقال: «إذًا اذهبى واحصلى عليها من المدينة».

نظرت الأم إلى أصابعها وسألته برفق: «ما هذا؟ هل تملك هذا المحل؟».

«لا، أنا أعمل فيه فقط».

«أهناك أى سبب يدعوك إلى السخرية؟ هل يريحك هذا؟» وأخذت تتأمل يديها المتغضنتين اللامعتين، وسكت الرجل الصغير: «من يملك هذا المحل؟».

«مزارع هوبر المتحدة، يا سيدتى».

«وهم الذين يحددون الأسعار؟».

«نعم يا سيدتى».

رفعت بصرها إليه وهى تبتسم ابتسامة خفيفة: «وكل من يدخل يتكلم مثلى؟ يفقد أعصابه؟».

تردد لحظة ثم قال: «نعم يا سيدتى».

«وهذا ما يدعوك إلى السخرية؟».

«ماذا تقصدين؟».

«القيام بعمل قذر كهذا يخجلك، أليس كذلك؟ وهكذا تتصرف بخفة، هه؟».

كان صوتها رقيقًا، ووقف الرجل يرقبها مبهورًا ولم يحر جوابًا، وأخيرًا قالت الأم: «حسابنا كالآتى: أربعون سنتًا للحم، وخمسة وعشرون للخبز وربع دولار للبطاطس، المجموع = ثمانين سنتًا، قهوة؟».

«أرخص نوع بعشرين سنتًا يا سيدتى».

قالت: «ويكتمل الدولار، سبعة منا يشتغلون مقابل العشاء». ثم تأملت يدها وقالت بسرعة: «لفها».

قال: «حاضر يا سيدتى، شكرًا». وضع البطاطس فى كيس، وطوى فتحته بعناية، رفع عينيه إلى الأم لحظة ثم عاد وخبأهما مرة أخرى فى عمله، وقفت الأم ترقبه وابتسمت ابتسامة خفيفة ثم سألته: «كيف حصلت على عمل كهذا؟».

بدأ يجيب قائلاً: «لابد أن يأكل الإنسان». ثم استطرد فى تحد: «من حق الإنسان أن يأكل».

سألته الأم: «أى إنسان؟».

وضع الربطات الأربع على البنك وقال: «لحم، بطاطس، خبز، قهوة، دولار واحد بالكامل»، ناولته قصاصة الورق وراقبته وهو يسجل الاسم والكمية فى دفتر الحسابات وقال: «خلاص، والآن نحن خالصون!».

التقطت الأم أكياسها وقالت: «قل لى، ليس لدينا سكر للقهوة، و«توم» ابنى يريدها بسكر، اسمع، إنهم يعملون هناك، أعطنى بعض السكر، وسأحضر الإيصال فيما بعد».

والتفت الرجل الصغير بعيدًا، مبعدًا عينه عن الأم إلى أبعد ما يمكنه وقال برفق: «لا يمكننى ذلك، هذه هى القاعدة، لا أستطيع، قد أدخل فى مشاكل، ربما فصلت».

«ولكنهم يشتغلون فى الحقل الآن، وسيحصلون على أكثر من عشرة سنتات، أعطنى بعشرة سنتات سكرًا، «توم» يريد قهوته محلاة بالسكر، قال لى ذلك».

«لا أستطيع يا سيدتى، هذه هى القاعدة، لا إيصال، لا بضائع، المدير يتحدث عن ذلك طول الوقت، لا، لا يمكننى ذلك، لا... لا أستطيع قد يضبطوننى إنهم دائمًا يضبطون الرجال، دائمًا، لا أستطيع...».

«بعشرة سنتات؟».

«بأى شىء يا سيدتى» ونظر إليها باستعطاف، ثم زال الخوف عن وجهه، وأخرج من جيبه عشرة سنتات وضعها فى الخزينة الحاسبة وقال فى ارتياح: «خلاص»! وجذب كيسًا صغيرًا من تحت البنك وفتحه ووضع بعض السكر فيه، ووزن الكيس، وأضاف قليلاً من السكر وقال: هكذا، والآن، كل شىء على ما يرام، احضرى إيصالك وسأستعيد سنتاتى العشرة».

تأملته الأم مليًا، وامتدت يدها دون أن تنظر ووضعت الكيس الصغير فوق الكومة التى على ذراعها، وقالت بهدوء: «شكرًا لك»، وبدأت تتجه نحو الباب، وعندما وصلت إليه استدارت وقالت:

«أنا أتعلم شيئًا طيبًا واحدًا، أتعلمه طول الوقت، كل يوم، إذا كنت فى مشكلة أو فى حاجة أو مصابًا، اذهب إلى الناس الفقراء، فهم الوحيدون الذين يساعدون... الوحيدون..». واصطفق الباب ذو الستائر خلفها.

وارتكز الرجل الصغير بمرفقيه على البنك ونظر خلفها بعينين دهشتين، قفزت قطة بدينة فى لون صدفة السلحفاة إلى البنك وتسللت فى تكاسل مقتربة منه، تمسحت فى ذراعيه بجنبها فمد يده إليها وجذبها إلى وجنته، وهرت القطة بصوت عال وطرف ذيلها يهتز إلى الأمام والخلف.

عاد «توم» و«آل» والأب والعم «جون» من البستان عندما زادت عتمة الغسق، كانوا يجرجرون أقدامهم متثاقلة على الطريق.

قال الأب: «أتعرف أنه مجرد أن يشب الإنسان لكى يجمع الثمار، تصيبه الآلام فى ظهره».

قال «توم»: «ستكون على ما يرام فى يومين، اسمع يا أبى، بعد أن نأكل سأخرج وأرى ما كل هذه الضجة خارج البوابة، لقد شغلتنى طول الوقت، أتأتى معى؟».

فقال الأب: «لا، أود أن أقضى فترة أعمل فيها فقط ولا أفكر فى شىء، كأننى كنت أهلك نفسى بالتفكير لمدة طويلة، لا، سأجلس قليلاً، ثم أنام».

«وأنت يا «آل»؟».

نظر «آل» بعيدًا وقال: «أعتقد أننى سأتفرج على هذا المكان أولاً».

«حسنًا، أعرف أن العم «جون» لن يأتى، أعتقد أننى سأذهب وحدى، إنها تثير فضولى».

قال الأب: «لابد أن أكون فضوليًا جدًا قبل أن أفعل أى شىء بهذا الخصوص.. وكل رجال الشرطة هؤلاء هناك».

قال «توم»: «ربما لن يكونوا هناك فى الليل».

«حسنًا، لن أذهب لاكتشف ذلك، ومن المستحسن ألا تقول لأمك إلى أين أنت ذاهب، فسيتشتت عقلها من الانشغال».

واستدار «توم» إلى «آل» وسأله: «ألا تحب أن تعرف؟».

قال «آل»: «أعتقد أننى سأتفرج على هذا المعسكر».

«تبحث عن فتيات؟ هه».

فقال «آل» فى حدة: «إنى أهتم بشئونى فقط».

فقال «توم»: «ومع ذلك، سأذهب».

وخرجوا من البستان إلى الشارع المترب بين العشش الحمراء وقد ظهرت أضواء خافتة لبعض فوانيس الجاز من بعض الأبواب، وفى الداخل، فى العتمة، تتحرك خيالات الناس السوداء، وعند نهاية الطريق كان الحارس لا يزال جالسًا مكانه وبندقيته على ركبتيه.

وتوقف «توم» قليلاً وهو يمر بالحارس: «هل هناك مكان يمكن للإنسان أن يستحم فيه يا سيدى؟».

وتأمله الحارس فى الضوء الخافت وقال أخيرًا: «أترى خزان المياه هذا».

«أيوه».

«حسنًا، يوجد خرطوم هناك».

«هل يوجد ماء ساخن؟».

«قل لى، من تظن نفسك بحق الجحيم ج.ب. مورجان؟».

قال «توم»: «لا، لا، لست هو بالتأكيد، أسعدت مساء يا سيدى».

وزمجر الحارس بازدراء: «ماء ساخن!! بحق المسيح سيطلبون أحواض استحمام بعد ذلك». ثم حملق عابسًا خلف الرجال الأربعة.

وجاء حارس ثان من خلف المنزل الأخير وسأل: «ما الحكاية يا ماك؟».

«هؤلاء الأوكيون الملاعين، إنه يقول: هل يوجد ماء ساخن؟». وأسند الحارس الثانى كعب بندقيته على الأرض وقال: «إنها مخيمات الحكومة أراهن أن هذا الرجل كان فى مخيم حكومة، لن نرتاح إلا بعد أن نمسح هذه المخيمات، سيطلبون ملاءات نظيفة، لم نر مثل هذا من قبل».

سأل «ماك»: «كيف الحال عند البوابة الرئيسية، أسمعت شيئًا؟».

«حسنًا، لقد كانوا فى الخارج هناك يصيحون طول النهار وأخذت شرطة الولاية الأمر بين يديها، وهم يطاردون الآن الرجال المتمردين، سمعت أن هناك رجلاً طويلاً نحيفًا ابن زانية هو الذى يشعل الموقف. يقول أحدهم إنهم سينالونه الليلة وعندئذ يتحطم كل شىء».

قال «ماك»: «سنفقد عملنا إذا انتهى الأمر بهذه السهولة».

«ستحصل على عمل، بالتأكيد، هؤلاء الأوكيون الملاعين لا بد أن تراقبهم طول الوقت، وعندما تهدأ الأمور إلى حد ما يمكننا أن نستثيرهم قليلاً».

«أعتقد أنه عندما يُخفض الأجر هنا ستحدث متاعب».

«بالتأكيد، لا، لا تقلق على مصير عملنا، لا تقلق وهوبر موجود فى هذه الأنحاء».

زمجرت النار فى منزل «جود»، وطرطشت شرائح لحم الفخذ وطشت فى الشحم وغلت البطاطس، امتلأ المنزل بالدخان وألقى ضوء الفانوس

الأصفر ظلالاً كثيفة سوداء على الجدران، ووقفت الأم تعمل بسرعة بجوار النار بينما جلست «روزا شارن» على أحد الصناديق وقد أراحت بطنها الثقيل على ركبتيها.

سألتها الأم: «أتشعرين بتحسن الآن؟».

«رائحة الطبيخ تتعبنى، وأنا جائعة أيضًا».

«اخرجى واجلسى عند الباب، فسأضطر إلى تكسير هذا الصندوق على أى حال».

ودخل الرجال وراء بعضهم وقال «توم»: «لحم.. يا إلهى، وقهوة؟ أنا أشمها، يا يسوع! أنا جائع، لقد أكلت كثيرًا من الخوخ ولكنها لا تشبع، أين يمكن أن نغتسل يا أمى؟».

«اذهب إلى خزان المياه هناك، اغتسل هناك، لقد أرسلت «روثى» و«وينفلد» توًا ليغتسلا». فخرج الرجال ثانية.

وقالت الأم: «هيا الآن يا «روزا شارن»، إما أن تجلسى عند الباب أو على الفراش، لابد أن أكسر هذا الصندوق».

اعتمدت الفتاة على يديها لكى تقوم، وذهبت فى ثقل إلى إحدى المراتب وجلست فوقها، دخلت «روثى» و«وينفلد» فى هدوء، وهما يحاولان بهدوئهما ومشيهما بجوار الحائط أن يظلا بعيدين عن الأنظار.

التفتت لهما الأم وقالت: «عندى شعور أنكما يا صغار محظوظان إذ لا يوجد ضوء كاف». وتقدمت من «وينفلد» وتحسست شعره وقالت: «حسنًا، لقد بللته، ولكننى أراهن أنك لست نظيفًا».

فقال «وينفلد» شاكيًا: «لم يكن هناك صابون».

هذا صحيح، لم أستطع أن أشترى صابونًا، ليس اليوم، ربما أمكننا أن نحصل عليه غدًا». وعادت إلى الفرن وأخرجت الأطباق وبدأت تغرف العشاء: شريحتان لحم لكل واحد، وثمرة بطاطس واحدة كبيرة.

ووضعت ثلاث شرائح من الخبز فى كل طبق، وعندما أخرجت كل اللحم من المقلاة، صبت قليلاً من الشحم فى كل طبق، عاد الرجال ثانية ووجوههم تقطر ماء وشعورهم تلمع.

صاح «توم»: «أتركونى عليها!».

أخذوا الأطباق، وأكلوا فى صمت، بشراهة ومسحوا الشحم بالخبز وانزوى الطفلان فى ركن الحجرة ووضعا طبقيهما على الأرض وركعا أمام الطعام كالحيوانات الصغيرة.

ابتلع «توم» آخر خبزه وقال: «هل عندك المزيد يا أمى؟».

قالت: «لا، هذا كل شىء، لقد اشتغلتم بدولار وهذا ما يساوى الدولار».

«هذا....؟».

«إنهم يأخذون أسعارًا إضافية هنا لابد لنا من الذهاب إلى المدينة كلما أمكن ذلك».

قال توم: «لم أشبع».

«حسنًا، غدًا سنحصل على يوم كامل، غدًا مساء سيكون لدينا الكثير».

مسح «آل» فمه على كمه وقال: «أعتقد أننى سألقى نظرة على ما حولنا».

فقال «توم»: «انتظر.. سأذهب معك». وتبعه إلى الخارج واقترب «توم» فى الظلام من أخيه وقال: «أمتأكد أنك لا تريد أن تأتى معى؟».

«لا، سألقى نظرة حولنا كما قلت».

قال «توم»: «أوكى» واستدار ومشى فى الشارع، تعلق دخان البيوت بالقرب من سطح الأرض وألقت الفوانيس بضيائها من الأبواب والنوافذ، وعلى العتبات جلس الناس ينظرون فى الظلام، كان «توم» يستطيع أن يرى رؤوسهم تستدير، وعيونهم تتبعه عبر الشارع، وفى نهاية الشارع استمر طريق ترابى عبر حقل حنطة محصود، وقد ظهرت فى ضوء النجوم أكوام أعواد الحنطة السوداء، كان هلال القمر صغيرًا على ارتفاع قليل من السماء ناحية الغرب، والمجرة كالسحابة الطويلة تشق السماء فوق الرؤوس، دبت أقدام «توم» برفق فوق الطريق المترب، مجرد بقع سوداء فوق بقايا الأعواد الصفراء، وضع يديه فى جيبه ومشى ناحية البوابة الرئيسية، واقترب أحد الجسور من الطريق وأصبح فى إمكان «توم» أن يسمع خرير الماء بين الأعشاب فى القناة، تسلق الجسر، ونظر إلى المياه الداكنة ورأى خيالات النجوم التى استطالت فيها، كان طريق الولاية أمامه تكشف عن مكانه أضواء السيارات المارة، ومضى «توم» ناحيته مرة أخرى، كان فى إمكانه أن يرى البوابة العالية المصنوعة من الأسلاك فى ضوء النجوم.

تحرك خيال بجوار الطريق وقال صوت: «هالو، مَنْ هناك؟».

توقف «توم» بلا حركة: «من أنت؟».

وقف رجل ومشى مقتربًا، كان فى إمكان «توم» أن يرى البندقية فى يده، ثم جرى شعاع بطارية على وجهه: «إلى أين أنت ذاهب؟».

«حسنًا، ظننت أنه فى إمكانى أن أتمشى قليلاً، أهذا ممنوع قانونًا؟»

«من الأفضل أن تمشى فى طريق آخر»

فسأل «توم»: «ألا يمكن حتى أن أخرج من هنا؟»؟.

«ليس الليلة، لا يمكنك، انصرف عائدًا وإلا صفرت طالبًا النجدة»

فقال «توم»: «يا للجحيم! ليس من المهم أن أتمشى إذا كان ذلك سيسبب مشكلة، لا يهمنى هذا، سأرجع بالتأكيد».

واستراح الخيال الداكن وانطفأ نور البطارية، «إنه لصالحك أنت، أتفهم، قد ينالك سوء من الطوابير المجنونة هذه».

«أى طوابير؟».

«هؤلاء الحمر الملاعين».

قال توم: «أوه، لم أكن أعرف شيئًا عنهم».

«لقد رأيتهم وأنتم داخلون، أليس كذلك؟».

«حسنًا، لقد رأيت جمعًا من الرجال ولكن كان هناك عدد كبير من رجال الشرطة، فظننت أنها حادثة».

«حسنًا، من الأفضل لك أن ترجع».

«أوكى يا سيدى» ثم استدار وبدا فى العودة، مشى فى هدوء على الطريق مائة ياردة ثم توقف وأنصت، جاء صوت زقزقة الراكون قرب قناة الماء، ومن بعيد جدًا جاء نباح غاضب لكلب مقيد، جلس «توم» على جانب الطريق وأنصت، سمع ضحكة صقر الليل الناعمة العالية وحركات حيوان متلصص بين بقايا الحنطة فى الحقل، وتفحص السماء من الاتجاهين، براويز سوداء على الجانبين، لا شىء يمكن تبينه، توقف وسار ببطء إلى يمين الطريق ثم فى الحقل المحصود ثم سار منحنيًا فى

مثل ارتفاع الديكة البرية، تحرك ببطء يتوقف بين الحين والآخر وهو ينصت، وأخيرًا وصل إلى السور المقام من الأسلاك، خمسة صفوف من السلك الشائك المشدود، ورقد بجوار السور على ظهره وحرك رأسه تحت السلك الأخير، ثم أمسك السلك بيديه وانزلق تحته بجسمه دافعًا الأرض بقدميه.

كان على وشك الوقوف عندما جاءت مجموعة من الرجال تمشى على الطريق العام، وانتظر «توم» حتى ابتعدوا ثم وقف وتبعهم، فتش عن الخيام على جانب الطريق ومر به عدد قليل من السيارات، وجرى نهر صغير يشق الحقول.

وعبر الطريق العام فوق قنطرة خراسانية صغيرة، ونظر «توم» على جانب القنطرة فرأى فى قاع الوهدة العميقة خيمة بداخلها فانوس مشتعل، راقبها لحظة ورأى خيالات الناس بداخلها على الجدران القماشية، تسلق «توم» سورًا وهبط فى الوهدة ومشى بين الشجيرات وأشجار الصفصاف الصغيرة، وفى القاع بجوار نهير صغير وجد طريقًا ضيقًا، كان أحد الرجال يجلس فوق صندوق أمام الخيمة.

قال: «توم» «مساء الخير».

«من أنت؟».

«حسنًا، أعتقد، حسنًا، مجرد عابر سبيل».

«أتعرف أحدًا هنا؟».

«لا، لقد قلت لك إننى مجرد عابر سبيل».

وبرز رأس إنسان من داخل الخيمة وسأل بصوت مرتفع: «ما الخبر؟» صاح «توم»: «كيزى»، «كيزى»، بحق المسيح ماذا تفعل هنا؟».

«لماذا، يا إلهى، إنه: «توم جود»، تعال ادخل يا «توم»، تعال ادخل».

سأل الرجل الجالس أمام الخيمة: «أتعرفه؟».

«أعرفه؟ بحق المسيح!، نعم، أعرفه منذ سنوات، لقد جئت إلى الغرب معه، تعال ادخل يا «توم»، وامسك بمرفق «توم» وجذبه داخل الخيمة.

جلس ثلاثة رجال آخرون على الأرض وقد اشتعل فانوس فى منتصف الخيمة، ورفع الرجال أبصارهم مستريبين، ومد رجل أسمر الوجه؛ عابسه يده وقال: «تسعدنى مقابلتك، لقد سمعت ما قاله كيزى، أهذا هو الرجل الذى كنت تتحدث عنه؟».

«بالتأكيد، إنه هو، حسنًا بحق الله أين أنتم يا جماعة؟ ماذا تفعلون هنا؟».

قال «توم»: «حسنًا، لقد سمعنا أن هناك عملاً فى هذه النواحى فجئنا، وأدخلتنا مجموعة من شرطة الولاية فى هذه المزرعة وظللنا نجمع الخوخ طول فترة بعد الظهر، رأيت مجموعة من الرجال يصيحون، لم يقولوا لى شيئًا، وهكذا خرجت إلى هنا لأرى ماذا يجرى، كيف أتيت إلى هنا بحق الجحيم يا «كيزى»؟».

مال الواعظ إلى الأمام وسقط ضوء الفانوس الأصفر على جبهته العالية وقال: «إن السجن مكان طريف، ها أنذا أهيم فى البرية كيسوع أحاول أن أجد شيئًا ما، أجده تقريبًا فى بعض الأحيان ولكننى وجدته فى السجن حقيقة». كانت عيناه حادتين مرحتين واستطرد: «زنزانة كبيرة ضخمة قديمة مليئة طول الوقت، رجال جدد يدخلون ورجال يخرجون، وبالطبع تكلمت معهم جميعًا».

قال «توم»: «طبعًا، تتكلم على الدوام، لو أنك وقفت على المشنقة

فستقضى وقتك تتحدث مع الجلاد، لم أر متحدثًا مثلك أبدًا».

ضحك الرجال فى الخيمة وقال واحد منهم، وكان رجلاً نحيلاً قصيرًا ذا وجه متغضن وهو يضرب ركبته: «إنه يتكلم طول الوقت، ومع ذلك فالناس تحب أن تسمعه».

قال «توم»: «لقد كان واعظًا، ألم يقل لكم ذلك؟».

«بالتأكيد، قال لنا».

وابتسم «كيزى» وقال: «حسنًا يا سيدى، بدأت أتعرف على الأمور، بعض الذين كانوا معى فى الحجز كانوا سكارى، ولكن أغلبهم كان بسبب سرقة شيء ما، وفى الغالب شيء يحتاجون إليه ولا يمكنهم أن يحصلوا عليه بطريقة أخرى، فاهم؟».

قال «توم»: «لا».

حسنًا، كانوا رجالاً طيبين فاهم، والحاجة هى التى جعلتهم أشرارًا، وبدأت أفهم إذًا، إنها الحاجة التى تخلق كل المتاعب، لم أتمعن فى الأمر، فى يوم من الأيام أعطونا فاصوليا حامضة وبدا واحد من الرجال فى الصباح، ولم يحدث شيء، صاح حتى انفلقت دماغه، وجاء الحارس وأطل ثم ذهب، ثم صاح رجل آخر، حسنًا يا سيدى، ثم بدأنا نصيح كلنا، وكلنا بنغمة واحدة، وصدقنى لقد بدا كأن الزنزانة قد انتفخت وتضخمت واتسعت، يا إلهى ثم حدث شيء ما: جاءوا جريًا وأعطونا شيئًا آخر لنأكله.... أعطونا... فاهم؟».

قال «توم»: «لا».

أسند «كيزى» ذقنه على يديه وقال: «ربما لم يكن فى إمكانى أن أشرح لك، ربما فإن عليك أن تكتشف الأمر بنفسك، أين قلنسوتك؟».

«خرجت بدونها».

«كيف حال أختك؟».

«يا للجحيم ضخمة مثل البقرة، أراهن أن بها توأمين، ستحتاج إلى عجلات تحت بطنها، لابد أن تمسكها بيديها الآن، ألن تقول لى ماذا يجرى هنا؟».

قال الرجل الواهن: «لقد أضربنا، هنا إضراب».

«حسنًا، خمسة سنتات للصندوق ليست كثيرة، ولكن الرجل يجب أن يأكل».

فصاح الرجل الواهن: «خمسة سنتات؟ أيدفعون لكم خمسة سنتات؟».

«بالتأكيد اشتغلنا بدولار ونصف».

ساد صمت ثقيل على الخيمة، وحملق «كيزى» خلال المدخل فى الليل الحالك ثم قال أخيرًا:

«اسمع يا «توم» لقد جئنا لنعمل هنا، قالوا إنهم سيدفعون خمسة سنتات، كان هناك كثيرون منا، ذهبنا إلى هناك فقالوا إنهم سيدفعون سنتين ونصف سنت، لا يمكن أن يعيش الإنسان على هذا خاصة إذا كان لديه أطفال.. وهكذا قلنا إننا لن نقبل ذلك، فطردونا، وهجم علينا كل رجال الشرطة فى العالم، وها هم أولاء يدفعون خمسة سنتات وعندما يحطمون هذا الإضراب.. أتظن أنهم سيدفعون خمسة سنتات؟».

قال «توم»: «لا أعرف، إنهم يدفعون خمسة الآن».

قال «كيزى»: «اسمع، لقد حاولنا أن نقيم مخيمًا معًا فشتتونا وضربوا

بعض الرجال ضربًا مبرحًا، وساقونا كالخنازير، ولقد أدخلوكم كالخنازير أيضًا، لا يمكن أن نستمر أطول من ذلك، بعض الناس لم يأكل منذ يومين، هل ستعود الليلة؟».

قال «توم»: «أنوى ذلك».

«حسنًا، قل للناس هناك ما يحدث يا «توم»، قل لهم إنهم يميتوننا جوعًا، إنهم يطعنون أنفسهم فى ظهورهم، لأنه من المؤكد أن الأجر سيهبط إلى سنتين ونصف بمجرد إبعادنا من هنا».

قال «توم»: «سأخبرهم... لست أدرى كيف؟ لم أر أبدًا هذا العدد الكبير من الرجال المسلحين بالبنادق، لا أعرف، إذا كانوا يسمحون للرجل حتى بالكلام، والناس لا يضيعون وقتهم بالنهر فهم ينكسون رؤوسهم فقط ولا يقولون لأى إنسان مجرد كيف حالك».

«حاول أن تخبرهم يا «توم»، سيحصلون على سنتين ونصف سنت فى الدقيقة التى نذهب فيها، أتعرف ماذا تعنى سنتين ونصف ـ معناها طن من الخوخ يجمع ويحمل بدولار». ونكس رأسه وقال: «لا... لا يمكنك أن تفعل هذا، لا يمكنك أن تحصل على طعامك بهذا الأجر، لا يمكن أن تأكل خبزك بهذا الأجر».

«سأحاول أن أخبر الناس».

«كيف حال أمك؟».

«بخير جدًا، لقد أحبت مخيم الحكومة ذاك، حمامات وماء ساخن».

«أيوه.. سمعت».

«لقد كان جميلاً جدًا، ولكننا لم نستطع العثور على عمل، واضطررنا للرحيل».

قال «كيزى»: «أحب أن أذهب إلى واحد منها، أحب أن أراها، قال أحد الرجال إنه لا يوجد هناك شرطة».

«الناس هم شرطة أنفسهم».

نظر «كيزى» بانفعال: «ألم يكن هناك أى متاعب؟ شجار، سرقة، مُسكْر؟».

قال «توم»: «لا»»

«حسنًا، إذا ما تصرف رجل تصرفًا سيئًا، مـاذا يحدث؟ ماذا يفعلون؟».

«نطرده من المخيم».

«ولكن هذا لا يحدث كثيرًا؟».

«يا للجحيم، لا، لقد كنا هناك لمدة شهر، وواحد فقط هو الذى طرد».

ولمعت عينا «كيزى» بالانفعال والتفت إلى الرجال الآخرين وصاح: «أرأيتم؟ لقد قلت لكم، رجال الشرطة يسببون من المشاكل أكثر مما يمنعون، اسمع يا «توم»، حاول أن تجعل الناس هناك يخرجون، يستطيعون أن يفعلوا ذلك فى يومين، هذا الخوخ ناضج، قل لهم».

فقال «توم»: «لن يفعلوا هذا، إنهم يحصلون على خمسة سنتات، ولن يبالوا بأى شىء آخر».

«ولكن فى اللحظة التى لا يكون فيها إضراب، لن يحصلوا على خمسة».

«لا أظن أنهم سيقبلون هذا، إنهم يحصلون على خمسة وهذا كل ما يهمهم».

«حسنًا، قل لهم على أى حال».

قال «توم»: «أبى لن يفعل هذا، أنا أعرفه، سيقول إن ذلك ليس من شأنك».

قال «كيزى» فى كآبة: «نعم، أعتقد أنك على صواب، لا بد أن يلدغ قبل أن يدرك».

قال «توم»: «كان طعامنا قد نفد، والليلة أكلنا لحمًا، ليس كثيرًا، ولكننا حصلنا عليه، أتظن أن أبى سيفرط فى اللحم لصالح رجال آخرين؟ و«روزا شارن» ينبغى أن تحصل على لبن، أتظن أن أمى ستهلك الجنين جوعًا لمجرد أن مجموعة من الرجال تصرخ خارج البوابة؟».

قال «كيزى» بأسى: «وددت لو استطاعوا أن يدركوا الوسيلة الوحيدة للحصول على طعامهم، أوه، يا للجحيم، ينالنى التعب أحيانًا، متعب جدًا، لقد عرفت رجلاً أحضروه بينما كنت فى السجن، كان يحاول أن يكوِّن نقابة، وكانت قد بدأت فى العمل، ثم جاء العملاء وحطموها، أتعرف ماذا حدث؟ أهله أنفسهم، وهم الذين كان يحاول أن يساعدهم، نبذوه، لم يفعلوا له أى شىء، كانوا خائفين أن يراهم أحد فى صحبته، قالوا: ابعد، أنت خطر علينا، حسنًا يا سيدى لقد جرحت مشاعره ببشاعة ولكنه قال عندئذ: إن الأمر ليس سيئًا لو عرفتم، ففى الثورة الفرنسية... كل الرجال الذين دبروها أطيح برؤوسهم، هكذا على الدوام، شىء طبيعى كالمطر، وأنت لا تفعل هذا للتسلية على أى حال، بل تفعلها لأنك لا بد أن تفعلها، لأنك أنت كذلك، انظر إلى جورج واشنطن، قاد الثورة وبعد ذلك انقلب عليه أبناء الزوانى، ولنكولن نفس الشىء، نفس الناس يصرخون ليقتلوه، أمر طبيعى كالمطر».

قال «توم»: «لا يبدو هذا هزلاً».

«لا، ليس هزلا، لقد قال صاحبى فى السجن: على أى حال أنت تفعل ما يمكنك أن تفعله، والشىء الوحيد الذى تهتم به هو أنك فى كل مرة تحقق خطوة صغيرة إلى الأمام، وربما تنزلق إلى الخلف قليلاً، ولكنها لا ترجع كلية أبدًا، تستطيع أن تثبت ذلك وهذا ما يجعل الموقف كله سليمًا، هذا معناه أن كل شىء لا يضيع حتى وإن بدا الأمر كذلك».

قال «توم»: «تتكلم، دائمًا تتكلم، خذ أخى «آل» مثلاً.. لقد خرج يبحث عن بنت وهو لا يهتم بأى شىء آخر، وبعد يومين سيحصل على بنت، يفكر فى هذا طول النهار ويفعله طول الليل، وهو لا يهتم أبدًا بالخطوات إلى الأمام أو إلى الخلف أو إلى الجانبين».

قال «كيزى»: «بالتأكيد إنه يفعل ما يجب عليه أن يفعله، كلنا كذلك».

وجذب الرجل الجالس فى الخارج مصراع الخيمة جانبًا وقال: «اللعنة.. أنا لا أرتاح لذلك».

نظر إليه «كيزى» وسأله: «ما الخبر؟».

«لا أعرف، أنا شديد القلق عصبى كالقطة».

«حسنًا، ما الخبر؟».

«لا أعرف، يبدو أننى سمعت شيئًا ما، ثم أنصت فإذا بى أسمع شيئًا».

قال الرجل الواهن: «إنك عصبى فقط». ونهض وخرج وبعد لحظة أطل داخل الخيمة وقال: «هناك سحابة كبيرة ضخمة سوداء تشرع ولكنها ترعد هذا ما يستثيره... الكهرباء...» ثم سحب رأسه ثانية ونهض الرجلان الآخران من على الأرض وخرجا.

قال «كيزى» بصوت خافت: «كلهم متوترون، فرجال الشرطة يقولون إنهم سيضربوننا ضربًا مبرحًا ويطردوننا خارج الإقليم، إنهم يظنون أننى القائد لأننى أتكلم كثيرًا».

أطل الرجل الواهن ثانية وقال: «كيزى» اطفئ هذا الفانوس وتعال إلى الخارج، هناك شىء ما».

وأدار «كيزى» مفتاح الشريط فنزل اللهب ثم توهج وانطفأ، وتلمس «كيزى» طريقه إلى الخارج وتبعه «توم»، سأل «كيزى» بصوت خافت: «ما الحكاية؟».

«لا أعرف، أنصت».

كان جدار من نقيق الضفادع وصرير صراصير الغيط العالى الحاد يمزق السكون، ولكن من خلال هذه الأرضة جاءت أصوات أخرى... وقع أقدام خافت من الطريق، وطأ الطين الجاف على الجسر، وحفيف خافت فى الشجيرات على النهر».

وقال «كيزى» مطمئنًا: «لا يمكن أن أقول فعلاً إننى أسمع شيئًا، إن الأصوات تخدعك، إننا عصبيون، كلنا عصبيون، لا يمكن التأكد، هل تسمع شيئًا يا «توم»؟».

قال «توم»: «نعم، اسمع، فعلاً أسمع أصواتًا، أعتقد أن هناك رجالاً يأتون من كل اتجاه، يستحسن أن نخرج من هنا».

وهمس الرجل الواهن: «تحت قوس الجسر، خارج الطريق، أكره أن أترك خيمتى».

قال «كيزى»: «هيا بنا».

تحركوا بهدوء على حافة النهر، كان قوس الجسر كالكهف أمامهم، وانحنى «كيزى» ومر تحتها ووراءه «توم» انزلقت أقدامهم فى الماء ومشوا

ثلاثين قدمًا والسقف المقوس فوقهم يردد صدى أنفاسهم، ثم خرجوا من الجانب الآخر واستقامت قاماتهم.

وعلت صيحة حادة: «ها هم». وسقط شعاع بطاريتين على الرجال، أحاطت بهم وأغشت عيونهم «قفوا حيث أنتم». وجاءت الأصوات من الظلام: «إنه هو، ابن الزنى الأصلع، هذا هو».

حملق «كيزى» فى الضوء كالأعمى وأخذ يتنفس بصعوبة وقال: «اسمعوا، أنتم يا رجال لا تعرفون ماذا تفعلون، أنتم تقتلون الأطفال جوعًا».

«اخرس، يا أحمر يا ابن الزانية».

وخطا رجل قصير بدين فى الضوء، كان يحمل هراوة جديدة بيضاء

واستمر «كيزى»: «أنتم لا تعرفون ماذا تفعلون».

هوى الرجل البدين بهراوته، وترنح «كيزى» تحت الضربة وقد ارتطمت العصا الثقيلة بجانب رأسه، فتحطمت عظامها فى صوت مكتوم، ووقع «كيزى» خارج الأضواء.

«يا يسوع يا جورج، أعتقد أنك قتلته!».

قال جورج: «وجه الضوء إليه، هذا ما يستحقه ابن الزانية».

وسقط شاع الضوء وجاس على الأرض وعثر على رأس «كيزى» المهشم.

نظر «توم» إلى الواعظ، وعبر الضوء على ساقى الرجل البدين وهراوته البيضاء الجديدة. وقفز «توم» فى صمت وانتزع الهراوة منه، وفى المرة الأولى أدرك أن ضربته قد طاِشت وأصابت الكتف ولكن فى المرة الثانية

وجدت ضربت الساحقة طريقها إلى رأس الرجل، وبينما كان الرجل البدين يتهاوى انهالت ثلاث ضربات أخرى على رأسه، وتراقصت الأضواء وعلا الصياح وأصوات الأقدام تجرى تتدافع بين الشجيرات، وقف «توم» فوق الرجل المسجى وعندئذ أصابته ضربة على رأسه، ضربة خاطفة، أحس بالضربة كأنها مس كهربى، وشعر بنفسه يجرى على طول النهر وهو منحن، سمع اندفاع الأقدام وراءه وفجأة استدار وانسل داخلاً فى الدغل، فى أعماق غابة أشجار البلوط، ورقد بلا حراك، اقترب وقع الأقدام وتراقصت الأضواء على حافة النهر وزحف «توم» خلال الغابة إلى القمة ودخل فى بستان، وهو ما يزال يسمع أصوات النداءات، أصوات المطاردة على حافة النهر.

انحنى وجرى فوق الأرض المحروثة، وكتل الطين الجافة تنزلق وتتفتت تحت قدميه، رأى أمامه الشجيرات التى تحد الحقل، شجيرات على حافة إحدى قنوات الرى، انزلق مارًا من خلال السور وانطلق بين شجيرات الكروم والعليق، ثم رقد ساكنًا يلهث بشدة وتحسس وجهه وأنفه الخدرين، كانت أنفه قد انكسرت وقطر الدم من ذقنه، رقد بلا حركة على بطنه حتى عاد إليه وعيه ثم زحف ببطء على حافة القناة، غسل وجهه فى الماء البارد ومزق ذيل قميصه الأزرق وبلله ثم وضعه على وجنته وأنفه المجروحين، فلسعه الماء وأحرقه.

عبرت السحابة السوداء السماء كرقعة من الظلام تحجب النجوم، وعاد الليل ساكنًا مرة أخرى.

وخطا «توم» فى الماء وأحس بالقاع يغيض من تحت قدميه، فعبر القناة فى قفزتين والتقط أنفاسه بصعوبة على الشاطئ الآخر، التصقت ملابسه بجسمه وتحرك فصدر عنه صوت انزلاق وحذاؤه يخبخب، فجلس وخلع

حذاءه وأفرغه وعصر أطراف بنطلونه وخلع معطفه وعصره من الماء.

كان يرى أضواء البطاريات تتراقص على طول الطريق تبحث فى القنوات ولبس «توم» حذاءه وتحرك بحذر عبر الحقل المحصود، لم تعد تصدر عن حذائه أصوات الخبخبة وذهب مدفوعًا بغريزته إلى الجانب الآخر من الحقل، وأخيرًا وصل إلى الطريق، واقترب بحذر بالغ من مربع المساكن.

وصاح أحد الحراس وقد ظن أنه سمع صوتًا: «مَنْ هناك؟!».

فانبطح «توم» على الأرض وتجمد بلا حركة حتى مر فوقه شعاع البطارية، زحف فى صمت إلى باب منزل «جود» وصرَّ الباب على مفصلاته وجاء صوت الأم هادئًا، وثابتًا، بالغ اليقظة.

«ما هذا؟»

«أنا: (توم)».

«حسنًا، يستحسن أن تنام قليلاً، لم يعد «آل» إلى الآن».

«لابد أنه وجد بنتًا».

فقالت الأم بصوت خافت: «اذهب ونم، هناك تحت النافذة».

وجد مكانه وخلع ملابسه حتى تعرى تمامًا ورقد يرتعش تحت البطانية، وأفاق وجهه الممزق من خدره وأخذ رأسه كله يدق ألمًا.

مضت ساعة أخرى قبل أن يرجع «آل»، تحرك مقتربًا فى حذر وخطا فوق ملابس «توم» المبتلة، قال «توم»: «هس».

فهمس «آل»: «أنت متيقظ؟ كيف ابتللت؟».

فقال «توم»: «هس، سأحكى لك فى الصباح».

وأدار الأب ظهره وملأ الحجرة شخيرًا وصفيرًا.

قال «آل»: «أنت بردان».

«هس، نم» كانت النافذة تلقى ضوءًا رماديًا فى ظلام الحجرة.

لم ينم «توم». عادت أعصاب وجهه الممزق إلى الحياة وخفقت بالألم، وصرخت عظام وجنته، وتضخمت أنفه المكسورة ونبضت بالألم حتى بدت كأنها تتقاذفه وتهزه، وراقب النافذة المربعة الصغيرة ورأى النجوم وهى تنزلق فوقها وتغيب عن ناظريه، وبين الحين والآخر كان يسمع وقع أقدام الخفير.

وأخيرًا صاحت الديكة من بعيد، وشيئًا فشيئًا بان الضوء فى النافذة، وتحسس «توم» وجهه المتورم بأطراف أصابعه، عندما تحرك زمجر «آل» وتمتم فى نومه.

وأخيرًا جاء الفجر، وفى المنازل المتجمعة معًا علت أصوات الحركة، أصوات تكسير الأغصان وصليل الطاسات الخافت، جلست الأم فجأة فى العتمة الرمادية، كان فى إمكان «توم» أن يرى وجهها منتفخًا من أثر النوم، نظرت إلى النافذة لحظة طويلة ثم ألقت بطانيتها عنها وتناولت رداءها، وضعت الرداء فوق رأسها وهى لا تزال جالسة وقد رفعت ذراعيها ثم تركت الرداء ينسدل حتى خصرها، ووقفت وشدت الرداء حتى كعبيها، ثم خطت حافية القدمين إلى النافذة وأطلت خارجها، وبينما هى تشخص فى الضياء المتزايد، حلت أصابعها السريعة ضفائر شعرها وسوت الضفائر ثم عقصتها ثانية، وشبكت يديها أمامها ووقفت لحظة بلا حركة، أضاء وجهها نور النافذة، استدارت وخطت بحذر بين المراتب ووجدت الفانوس، وصر غطاء الفانوس وهى ترفعه ثم اشعلت فتله.

تقلب الأب، ورمشت عيناه وهو ينظر إليها، فقالت: «بابا هل معك نقود أخرى؟».

«هه؟ أيوه، ورقة مكتوبة بالستين سنتًا».

«حسنًا، انهض واذهب واشتر بعض الدقيق والدهن، بسرعة الآن».

وتثاءب الأب: «ربما لم يكن المحل مفتوحًا».

«اجعلهم يفتحوه، لابد أن تأكلوا شيئًا يا رجال، لابد أن تخرجوا للعمل».

وارتدى الأب عفريتة وفوقها معطفه القديم، وخرج متباطئًا من الباب يتثاءب ويتمطى.

استيقظ الطفلان ومكثا يرقبان ما حولهما من تحت بطانيتهما كالفئران، كان الضياء الشاحب يملأ الحجرة الآن، ولكنه ضياء بلا لون، ضياء ما قبل الشمس، ونظرت الأم إلى المراتب، كان العم «جون» متيقظًا و«آل» ينام نومًا عميقًا وتحركت عيناها إلى «توم»، وحملقت فيه لحظة ثم مشت مسرعة إليه، كان وجهه أزرق منتفخًا وقد جف الدم واسود لونه على شفتيه وذقنه، وكانت حوافى الوجنة الممزقة مضمومة ومشدودة.

همست: «توم»، ما الخبر؟.

فقال: «هس... لا تتكلمى بصوت عال، دخلت فى مشاجرة».

«توم!».

«لم أستطع تحاشيها يا أمى».

وركعت بجواره وقالت: «هل أنت فى ورطة؟».

ومضى وقت طويل قبل أن يجيب: «أيوه، فى ورطة، لا يمكن أن أخرج للعمل، لابد أن أختبئ».

وزحف الطفلان مقتربين على أيديهما وأرجلهما وهما يحملقان بشدة «ما حكايته يا ماما؟».

قالت الأم: «هس، اذهبا واغتسلا».

«ليس لدينا صابون».

«حسنًا، استخدما الماء».

«ما حكاية: «توم»؟».

«والآن هس، ولا تقولوا لأى واحد».

تراجعا مبتعدين وتربعا بجوار الحائط البعيد وهما يعلمان أن أحدًا لن يلتفت إليهما.

سألته الأم: «أهى سيئة؟».

«الأنف مكسورة».

«أقصد الورطة؟».

«أيوه... سيئة».

فتح «آل» عينيه ونظر إلى «توم»: «حسنًا، بحق المسيح؟ ما الذى تورطت فيه؟».

وسأل العم «جون»: «ما الخبر؟».

ودخل الأب وقال: «كان المحل مفتوحًا بالفعل». ووضع كيسًا صغيرًا من الدقيق وباكو من الدهن على الأرض بجوار الفرن وسأل: «ما الخبر؟».

ورفع «توم» نفسه على أحد مرفقيه لحظة ثم رقد ثانية «يا يسوع! أنا منهك سأحكى لكم الحكاية مرة واحدة، سأحكيها لكم كلكم، ماذا عن الأطفال؟».

نظرت الأم لهما وقد تكوما بجوار الحائط وقالت: «اذهبا واغتسلا».

قال «توم»: «لا، لابد أن يسمعا، لابد أن يعرفا، ربما يثرثران لو لم يعرفا».

سأل الأب: «ما الحكاية بحق جهنم؟».

«سأحكى، أمس خرجت لأرى سبب ذلك الصياح فقابلت (كيزى)».

«الواعظ؟!».

«أيوه يا بابا، ولكنه كان يقود الإضراب فجاءوا فى طلبه».

فسأل الأب: «من الذى جاء فى طلبه؟».

«لا أعرف، رجال من نفس نوع الذين أعادونا على الطريق فى تلك الليلة، معهم هراوات». وتوقف قليلاً، لقد قتلوه، حطموا رأسه، كنت واقفًا هناك فجننت، خطفت الهراوة». وسرحت عيناه بكآبة فى الليل والظلال والبطاريات ثم تكلم: «أنا، أنا، ضربت رجلاً على أم رأسه بالشومة».

توقفت أنفاس الأم فى حلقها، وتصلب الأب وسأل بصوت خافت: «قتلته؟».

«لا أعرف، كنت فاقد الصواب، حاولت أن أقتله».

سألت الأم: «هل رآك أحد؟».

«لا أعرف، لا أعرف، أعتقد ذلك، كانت أضواؤهم علينا».

وحملقت الأم لحظة فى عينيه وقالت: «بابا، كسر بعض الصناديق، لابد أن نعد الإفطار، لابد أن تذهبوا إلى العمل، «روثى»، «وينفلد»، لو سألكما أحد... «توم» مريض، سامعين؟ إذا قلتم شيئًا، س... سيرسلونه إلى السجن، سامعين؟».

«نعم يا ماما».

«راقبهما يا «جون»، لا تدعهما يتحدثان إلى أى إنسان». وأوقدت النار بينما كان الأب يكسر الصناديق التى كانت تضم المتاع، وانتهت من صنع القديد ثم وضعت براد القهوة ليغلى، وسرت النار فى الخشب الخفيف وتصاعدت منه ألسنة اللهب فى المدخنة.

انتهى الأب من تكسير الصناديق، واقترب من «توم»: «كيزى»... كان رجلاً طيبًا، ما الذى دفعه إلى التورط فى هذا الأمر؟».

قال «توم» ببطء: «لقد جاءوا للعمل مقابل خمسة سنتات للصندوق».

«وهذا ما نحصل عليه».

«أيوه، ما كنا نفعله هو أننا كنا نحطم الإضراب، كانوا يدفعون لهؤلاء الناس سنتين ونصفًا».

«لا يمكن أن يعيش الإنسان على هذا الأجر».

قال «توم» منهكًا: «أعرف، ولهذا أضربوا، حسنًا أعتقد أنهم حطموا هذا الإضراب فى الليلة الماضية، ربما يعطونا اليوم سنتين ونصفًا».

«لماذ، أولاد الزوانى».

«أيوه، يا أبى، أترى؟ كان «كيزى» لا يزال رجلاً طيبًا، اللعنة ليس فى إمكانى أن أبعد هذا الواعظ من دماغى، وهو راقد هناك ورأسه مهشم تنضح منه الدماء، يا يسوع» وغطى عينيه بيده.

سأل العم «جون»: «حسنًا، ماذا سنفعل؟».

كان «آل» قد وقف الآن وقال: «يا إلهى، أنا أعرف ماذا سأفعل سأنفض يدى من كل هذا، سأهرب بنفسى».

فقال «توم»: «لا، لن تفعل ذلك يا «آل»، نحن نحتاج إليك الآن، أنا الذى سأمشى، أنا الخطر الآن، بمجرد أن أستطيع الوقوف على قدمى سأرحل».

انشغلت الأم عند الفرن، والتفتت برأسها لتسمع، وضعت الشحم فى المقلاة وعندما علا صوت الشحم الذائب فوق النار أخذت تضع فيه العجين بالملعقة، واستمر «توم»: «لابد أن تبقى يا «آل» لابد أن تعتنى بالسيارة».

«لا، لا شأن لى بهذا».

«لا مفر من ذلك يا «آل»، إنهم أهلك، وفى إمكانك أن تساهم، أنا خطر عليهم».

وزمجر «آل» بغضب: «أنا لا أعرف لماذا لا تتركوننى أحصل على عمل فى جراج».

«فيما بعد... ربما». ونظر «توم» وراءه ورأى «روزا شارن» راقدة على المرتبة وقد اتسعت عيناها المنتفختان.

وناداها قائلاً: «لا تقلقى، سنحضر لك اليوم بعض اللبن». ورمشت عيناها ببطء ولم تجب.

قال الأب: «لابد أن نتأكد يا «توم»، أتعتقد أنك قتلت هذا الرجل؟».

«لا أعرف، كانت الدنيا ظلامًا، وأحدهم ضربنى، لا أعرف، أرجو ذلك، أرجو أن أكون قد قتلت ابن الزانية هذا فعلاً».

صاحت الأم: «توم»، لا تتكلم هكذا».

وجاءت من الشارع أصوات سيارات كثيرة تتحرك ببطء وخطا الأب ناحية النافذة وأطل ثم قال: «هناك عدد كبير من الناس الجدد».

قال «توم»: «أعتقد أنهم حطموا الإضراب فعلاً، أعتقد أنكم ستعودون إلى سِنتْين ونصف سنت».

«ولكن مهما أسرع الإنسان فى عمله لا يمكنه أن يأكل بهذا الأجر».

قال «تـوم»: «أنـا عـارف، كلوا خوخ سقط، سيساعدكم على الاستمرار».

قلبت الأم العجين، وحركت القهوة وقالت: «اسمعونى، سأشترى اليوم دقيق ذرة، سنأكل ثريدًا من دقيق الذرة، وما إن نحصل على ما يكفينا من بنزين سنرحل من هنا، ليس هذا مكانًا مناسبًا، ولن أسمح بأن يمضى «توم» وحده، لا يا سيدى».

«لا يمكنك أن تفعلى هذا يا أمى، قلت لك إننى خطر عليكم».

تصلب فكها وقالت: «هذا ما سنفعله، هيا، تعالوا كلوا هذا ثم اخرجوا للعمل».

«سآتى بمجرد أن أغتسل، لابد أن نكسب بعض النقود».

كان الثريد ساخنًا جدًا حتى أنه حين طش فى أفواههم ابتلعوه، وملأوا أكوابهم وابتلعوا منه المزيد.

هز العم «جون» رأسه فوق طبقه وقال: «لا يبدو أننا سنخرج من هذا المأزق، أعتقد أنها خطيئتى».

صاح الأب: «أوه، اسكت، ليس لدينا وقت لخطيئتك الآن، تعال الآن، لنخرج للعمل هيا يا أولاد، تعالوا لمساعدتنا، الأم على صواب ينبغى أن نترك هذا المكان».

عندما ذهبوا أخذت الأم طبقًا وكوبًا «توم»: «يستحسن أن تأكل شيئًا ما».

«لا أستطيع يا أمى، أنا فى غاية الألم ولا أستطيع أن أمضغ».

«من الأفضل أن تحاول».

«لا، لا أستطيع يا أمى».

ثم جلست على حافة المرتبة وقالت: «لابد أن تحكى لى، لابد أن أعرف كيف حدث هذا، ينبغى أن أكون على بينة، ماذا كان يفعل «كيزى»؟ لماذا قتلوه؟».

«كان يقف هناك والنور يسقط عليه».

«ماذا قال؟ أيمكن أن تتذكر ما قاله؟».

قال «توم»: «بالتأكيد... قال «كيزى»، ليس من حقكم أن تقتلوا الناس من الجوع، وعندئذ نعته ذلك الرجل البدين بأنه ابن عاهرة أحمر، وقال «كيزى»: أنتم لا تعرفون ماذا تفعلون، وعندئذ ضربه الرجل».

خفضت الأم بصرها وتركت يديها وقالت: «أهذا ما قاله؟ أنتم لا تعرفون ماذا تفعلون؟».

«أيوه».

قالت الأم: «وددت لو سمعت الجدة هذا».

«أمى، لم أكن أعرف ما سأفعله، لم يستغرق كل هذا أكثر من الوقت الذى تأخذين فيه نفسك، لم أكن أعرف حتى أننى سأفعل هذا».

«لا بأس بما فعلت، لم أكن أود أن تفعله، لم أكن أود حتى أن تكون هناك، ولكنك فعلت ما كان يجب أن تفعله، لا أرى أنك ارتكبت خطأ فى هذا».

وذهبت إلى الفرن وغمست قطعة من القماش فى الماء الساخن وقالت: «خذ هذه وضعها على وجهك».

وضع قطعة القماش الدافئة على أنفه ووجنته وجفل من حرارتها ثم قال: «ماما، سأهرب الليلة، لا يمكننى أن أستمر فى تحميلكم مسئولية هذا العمل».

فقالت الأم غاضبة: «توم»، هناك أشياء كثيرة لا أفهمها ولكن هربك لن يريحنا، بل سيكون عبئًا ثقيلاً علينا». ثم استمرت تقول: «لقد مضى الوقت الذى كانت لنا فيه قطعة أرض، كانت لنا حدود عندئذ، الكبار يموتون، ويأتى الصغار ونظل على الدوام شيئًا واحدًا ـ كنا عائلة ـ شيئًا متكاملاً وواضحًا، والآن لم يعد هناك شىء واحد، لست على بينة من شىء لم يعد هناك ما يوضح لنا طريقنا، «آل» يرغى ويزبد على الدوام لكى يمضى فى طريقه الخاص، العم «جون» يجرجر أيامه بصعوبة، والأب فقد مكانته، لم يعد هو رأس العائلة، نحن نتفتت يا «توم»، لم تعد هناك عائلة الآن، و«روزا شارن»». والتفتت حولها لترى عينى الفتاة الواسعتين «ستضع طفلها، ولن تكون له عائلة مع ذلك، لا أعرف، هل أنا أحاول أن أجعل العائلة تستمر، و«وينفلد»، ماذا سيكون مصيره بهذه الطريقة إنه يزداد توحشًا، وهو و«روثى» كالحيوانات، لم يعد ما يمكن أن أثق به، لا تذهب يا «توم» بل ابق وساعدنى».

فقال مرهقًا: «أوكى، أوكى وإن لم يكن صائبًا، أنا أدرك هذا».

ذهبت الأم إلى طاسة الأطباق، وغسلت الأطباق الصاج وجففتها وقالت: «أنت لم تنم».

«لا!».

«حسنًا، نم، رأيت ملابسك مبتلة، سأعلقها بجوار الفرن لتجف، وانتهت من عملها وقالت: «سأذهب الآن، سأجمع الخوخ، «روزا شارن» إذا جاء أحد.. «توم» مريض.. سامعة؟ لا تدعى أحدًا يدخل.. سامعة؟»

وأومأت «روزا شارن»، «سنعود فى الظهيرة، نم قليلاً يا «توم»، ربما أمكنا أن نخرج من هنا الليلة، وتحركت إليه بخفة وسألته: «توم» أنت لن تتسلل هاربًا؟»

«لا يا أمى».

«أمتأكد أنت؟ ألن تذهب؟».

«لا يا أمى، سأكون هنا».

«حسنًا، تذكرى يا «روزا شارن» وخرجت وأغلقت الباب خلفها بإحكام».

رقد «توم» ساكنًا ـ ثم حملته موجة من النوم حتى حافة فقدان الوعى وهبطت به ببطء، وحملته ثانية.

«أنت... يا (توم)».

«هه؟ أيوه». وفزع متيقظًا ونظر إلى «روزا شارن»، كانت عيناها تتأججان بالاستياء: «ماذا تريدين؟».

«أنت قتلت رجلاً؟».

«أيوه، لا ترفعى صوتك، أتريدين أحدهم أن يسمع؟».

فصاحت: «وماذا يهمنى؟ لقد حدثتنى تلك السيدة عن عاقبة الخطيئة، أى فرصة أمامى الآن لكى أحصل على طفل جميل؟ ذهب «كونى»، وأنا لا أحصل على طعام جيد، ولا أحصل على لبن». وارتفع صوتها فى هستيرية: «والآن أنت ذا تقتل رجلاً، أى فرصة أمام ذلك الطفل لكى يولد بخير؟ أنا عارفة سيولد مشوهًا، مشوهًا، أنا لم أرقص أبدًا».

نهض «توم» وقال: «هس، ستحضرين الناس إلى هنا».

«لا يهمني، سألد طفلاً مشوهًا، لم أرقص رقص الأحضان أبدًا».

اقترب منها وقال: «اهدئي».

«ابعد عني، ليس هذا هو الرجل الأول الذي تقتله». وازداد وجهها احمرارًا من الهستيريا وتلعثمت كلماتها: «لا أريد أن أنظر إليك». وغطت رأسها ببطانيتها.

سمع «توم» بكاءها المكتوم المختنق فعض على شفته السفلى ونظر مليًا إلى الأرض ثم ذهب إلى فراش الأب وهناك تحت حافة المرتبة، رقدت البندقية، بندقية من طراز وينشستر ٣٨ بترباس، طويلة وثقيلة، التقطها «توم» وانزل الترباس ليرى أن الخرطوشة في مكانها في الخزنة، واختبر الزناد بنصف شدة، ثم عاد مرة أخرى إلى مرتبته ووضع البندقية على الأرض بجواره، كعبه إلى أعلى وماسورتها إلى أسف، وخفت صوت «روزا شارن» إلى نهنهات، ورقد «توم» مرة أخرى وغطى نفسه، غطى وجنته المرضوضة بالبطانية وقد قوسها إلى قمع صغير لكي يتنفس منه، وتنهد قائلاً: «يا يسوع!، أوه، يا يسوع».

وفي الخارج مرت مجموعة من السيارات وعلت الأصوات منها: «كم عدد الرجال؟».

«نحن فقط.. ثلاثة، كم تدفعون؟».

«اذهبوا إلى المنزل ٢٥، الرقم مكتوب على الباب».

«أوكي يا سيدي، كم تدفعون؟».

«سنتين ونصفًا».

«لماذا، اللعنة لا يمكن أن يحصل المرء على عشائه».

«هذا ما ندفعه، هناك مائتا رجل جاءوا من الجنوب سيكونون سعداء لو حصلوا عليها».

«ولكن يا يسوع. يا سيدى!».

«هيا الآن. إما أن تقبلها، أو تذهب من هنا.. ليس عندى وقت للمناقشة».

«ولكن...».

«اسمع، لم أحدد أنا السعر، أنا هنا لمجرد تسجيل اسمك وأنت داخل، إذا كنت تريدها خذها، وإذا لم تكن، در إلى اليمين وعد وامض».

«أقلت رقم ٢٥؟».

«نعم، خمسة وعشرين».

غفا «توم» على مرتبته، أيقظه صوت متلصص فى الحجرة، زحفت يده إلى البندقية وقبضت عليها بشدة وأزاح الأغطية من على وجهه، كانت «روزا شارن» تقف بجوار مرتبته.

سألها «توم»: «ماذا تريدين؟».

قالت: «نم أنت، فلتنم أنت، سأراقب الباب، لن يدخل أحد أبدًا».

وتفحص وجهها لحظة وقال: «أوكى». وغطى وجهه بالبطانية مرة أخرى.

عادت الأم إلى المنزل مع بداية الغسق، توقفت عند العتبة وطرقت وقالت لكى لا تقلق «توم»: «هذه أنا»، ثم فتحت الباب، ودخلت تحمل كيسًا، أاستيقظ «توم» وجلس على مرتبته أصبحت جراحه جافة وجلده مشدودًا ويبدو لامعًا، وعينه اليسرى مغلقة تقريبًا.

سألت الأم: «هل أتى أحد ونحن بالخارج؟»

قال: «لا، لا أحد، سمعت أنهم خفضوا السعر».

«كيف عرفت؟».

«سمعت الناس يتكلمون فى الخارج».

نظرت «روزا شارن» ببلادة إلى الأم.

أشار «توم» إليها بإبهامه وقال: «لقد قلبت الدنيا يا ماما، تظن أن كل هذه المتاعب تهدف إلى تحطيمها هى، إذا كنت سأضايقها بهذا الشكل سأذهب».

التفتت الأم إلى «روزا شارن» وسألتها: «ماذا فعلت؟».

قالت الفتاة باستياء: «كيف يمكن أن ألد طفلاً جميلاً مع كل الذى يحدث؟».

قالت الأم: «هس، اسكتى الآن، أنا أعرف ما تشعرين به، وأعرف أنك لا تستطيعين له ردًا، ولكن اقفلى فمك الآن».

ثم استدارت إلى «توم»: «لا تلق بالاً إليها يا «توم»، إن الأمر شاق عليها جدًا، وأنا ما زلت أذكر كيف كان ذلك، كل شىء يصيبك عندما تكون فى طريقك للحصول على طفل وكل شىء يقوله أى إنسان، إهانة، وكل شىء ضدك، لا تلق إليها بالاً، ليس فى إمكانها تحاشى ذلك، فهذا ما تشعر به فعلاً».

«لا أريد أن أؤذيها».

«هس لا تتكلم. ووضعت كيسها فوق الفرن البارد وقالت: «لم نكسب شيئًا تقريبًا، لقد قلت لك، سنغادر هذا المكان الليلة، «توم» حاول أن تجمع

لى بعض الخشب، لا، أنت لا تستطيع، خذ، لدينا صندوق واحد فقط، كسره، قلت للرجال الآخرين أن يجمعوا بعض الأخشاب وهم راجعون، سنضع ثريدًا عليه قليل من السكر.

نهض «توم» وكسر الصندوق الأخير إلى قطع صغيرة وأوقدت الأم نارها بعناية فى أحد أطراف الفرن، مشعلة اللهب تحت فتحة واحدة فيها، ملأت وعاء بالماء ووضعته فوق اللهب، وفرقع الوعاء فوق النار وأز أزيزًا مسموعًا.

سأل «توم»: «كيف كان الجمع اليوم؟».

غطست الأم كوبًا فى كيس دقيق الذرة وقالت: «لا أريد أن أتكلم فى هذا، لقد كنت أفكر اليوم فى النكت.. لم أعد أحبها يا «توم». لم نعد نكت، وعندما تقال نكتة، فهى نكتة خسيسة مرة وليس فيها ما يضحك، قال أحدهم اليوم: لقد انتهت الأزمة، رأيت أرنبًا بريًا ولم أر أحدًا يجرى وراءه، فقال آخر: ليس هذا هو السبب، السبب هو أنه لم يعد فى استطاعتهم أن يقتلوا أرنبًا، إنهم يمسكونه ويحلبونه حتى يصفوه، ربما الذى رأيته كان قد جف منه اللبن، هذا ما أقصده... ليست نكتًا مضحكة حقيقة، ليست مضحكة كما حدث عندما هدى العم «جون» هنديًا إلى المسيحية وأتى به إلى المنزل فأكل هذا الهندى كل ما فى الصومعة من فاصوليا حتى وصل إلى القاع، ثم غطى عليها بويسكى العم «جون». «توم» ضع قماشة بماء بارد على وجهك».

ازدادت عتمة الغسق، أوقدت الأم فانوسًا وعلقته على مسمار، وغذت النار وصبت دقيق الذرة بالتدريج فى الماء الساخن، قالت «روزا شارن» هل يمكنك أن تقلبى الثريد؟».

جاء من الخارج وقع أقدام تجرى، وانفتح الباب فجأة فاصطدم

بالحائط واندفعت «روثى» داخلة وصاحت: «ماما، ماما، «وينفلد» أصيب بنوبة».

«أين؟ قولى لى».

قالت «روثى» وهى تلهث: «ابيض وجهه ووقع، أكل خوخًا كثيرًا وأصيب بإسهال طول النهار، وقع على الأرض شاحبًا».

قالت الأم: «خذينى إليه، «روزا شارن»، لاحظى أنت الثريد».

خرجت مع «روثى»، جرت بسرعة عبر الشارع خلف الفتاة الصغيرة، قابلها فى الطريق ثلاثة رجال يمشون فى الغسق يحمل أوسطهم: «وينفلد» بين ذراعيه، جرت الأم إليه وصاحت:

«إنه ابنى، أعطنى إياه».

«سأحمله لك يا سيدتى».

«لا، هنا، أعطنى إياه». وخطفت الصبى الصغير واستدارت، ثم تذكرت نفسها وقالت للرجال: «أشكركم جدًا».

«على راحتك يا سيدتى، الصغير ضعيف جدًا، يبدو أنه مصاب بالديدان».

أسرعت الأم عائدة وجسد «وينفلد» بين ذراعيها سائب رخو، حملته الأم إلى داخل المنزل ثم ركعت وأرقدته على مرتبة وقالت: «قل لى؟ ما الخبر؟» فتح عينيه دائخًا وهز رأسه ثم أغلقهما ثانية.

قالت «روثى»: «أنا قلت لك يا ماما، كان يسهل طول النهار، كل فترة قليلة، أكل خوخًا كثيرًا».

تحسست الأم رأسه: «ليس محمومًا، ولكنه شاحب ومخطوف اللون».

اقترب «توم» وخفض الفانوس وقال: «أنا أعرف، أنه ضعيف من الجوع، ليس لديه قوة أحضرى له علبة لبن واسقيها له، ضعى له لبنًا على الثريد».

قالت الأم: «(وينفلد)، قل لى بماذا تشعر

قال «وينفلد»: «دائخ، دائخ، والدنيا تدور بى فقط».

قالت «روثى» باهتمام: «لم أر مثل هذا الإسهال أبدًا».

عاد الأب والعم «جون» و«آل» إلى المنزل وقد ملأوا أذرعتهم بالأغصان وقطع الخشب ألقوا أحمالهم بجوار الفرن وسأل الأب: «والآن ما هذا؟»

إنه: «وينفلد»... يحتاج لقليل من اللبن.

«بحق المسيح القدير، كلنا فى حاجة له».

قالت الأم: «بكم اشتغلنا اليوم؟».

«دولارًا واثنين وأربعين سنتًا».

«حسنًا، اذهب هناك وأحضر علبة لبن: لـ (وينفلد)»

«والآن، ما سبب مرضه؟».

«لا أعرف، ولكنه مريض، والآن هيا»، خرج الأب من الباب وهو يدمدم «أتقلبين الثريد؟».

«أيوه». وأسرعت «روزا شارن» فى تقليبها لتثبت قولها.

وقال «آل» شاكيًا: «ماما، يا إلهى القدير، هل كل ما نحصل عليه بعد أن اشتغلنا حتى الظلام هو الثريد».

« (آل)، أنت تعرف أنه يجب علينا أن نذهب من هنا، سنوفر كل ما حصلنا عليه للبنزين، أنت عارف».

«ولكن، يا إلهى القدير يا أمى، إن الإنسان يحتاج إلى اللحم لكى يعمل»

قالت: «اسكت أنت لابد أن تهتم بالشيء الكبير وتخلص منه أولاً، وأنت تعرف ما هو؟».

سأل «توم»: «أتتحدثون عنى؟».

قالت الأم: «ستتكلم بعد أن نأكل، «آل»، لدينا ما يكفى من البنزين للذهاب، أليس كذلك؟».

قال «آل»: «ربع الخزان تقريبًا».

قال «توم»: «وددت لو قلت لى».

«بعدين، انتظر قليلاً».

«استمرى فى تقليب هذا الثريد أنت، هنا، دعينى أضع بعض القهوة على النار، يمكن أن تضع السكر على القهوة أو على الثريد، ليس هناك ما يكفى للاثنين».

عاد الأب وفى يده علبة طويلة وقال بامتعاض: «أحد عشر سنتًا».

«هات». وأخذت الأم العلبة وثقبتها وصبت السائل الذى فى الكوب وناولته إلى «توم»: «اعط هذا لـ (وينفلد)».

ركع «توم» بجوار المرتبة «هيا، اشرب هذا».

«لا أستطيع، قد أتقيأها كلها، اتركنى».

وقف «توم» وقال: «إنه لا يستطيع أن يشربها الآن يا أمى، انتظرى قليلاً».

أخذت الأم الكوب ووضعته على حافة النافذة وقالت محذرة: «لا يلمس أحد منكم هذا، إنه: لـ (وينفلد)».

قالت «روزا شارن» متجهمة: «لم أحصل على لبن إطلاقًا، لابد أن أحصل على قليل منه».

«عارفة، ولكنك ما زلت على قدميك، هذا الصبى الصغير وقع، هل الثريد جيد وسميك؟».

«أيوه، لا يمكننى حتى أن أستمر فى تقليبه».

«حسنًا، لنأكل، والآن ها هو ذا السكر، هناك ملعقة تقريبًا لكل واحد، أضيفوها إما على القهوة أو على الثريد».

قال «توم»: «أنا أحب الملح والفلفل على الثريد».

قالت الأم: «ملح إن أردت، لقد فرغ الفلفل».

كانت الصناديق قد اختفت كلها، جلست العائلة على المراتب لتأكل ثريدها، وكل منهم يستزيد مرات حتى كاد الوعاء أن يفرغ فقالت الأم: «ابقوا نصيبا: لـ (وينفلد)».

جلس «وينفلد» وشرب اللبن، وفى الحال أصبح كالوحش المفترس، وضع وعاء الثريد بين ساقيه وأكل ما تركوه، ولعق ما جف منه على جوانب الوعاء، صبت الأم ما تبقى من اللبن المحفوظ فى كوب ودفعت به سرًا إلى «روزا شارن» لتشربه خفية فى أحد الأركان، ثم صبت القهوة السوداء فى الأكواب ووزعتها عليهم.

سألها «توم»: «والآن هل يمكن أن تقولى لنا ماذا سيحدث؟ أريد أن أعرف».

قال الأب بقلق: «وددت لو أن «روثى» و«وينفلد» لا يسمعان، ألا يمكنهما أن يذهبا إلى الخارج».

قالت الأم: «لا، لابد أن يتصرفا كالكبار الآن، وإن لم يكونا كذلك لا مفر من ذلك، «روثى»، أنت و«وينفلد» لا تتحدثان بما ستسمعان أبدًا وإلا جلبتما لنا الدمار».

قالت «روثى»: «لن نتكلم، لقد كبرنا».

«حسنًا، اجلسا فى هدوء إذن...». كانت أكواب القهوة على الأرض، ولهب الفانوس القصير يومض كجناحى فراشة، يلقى ظلالاً صفراء على الجدران.

قال «توم»: «والآن تكلمى».

قالت الأم: «بابا، تكلم أنت».

ابتلع العم قهوته، وقال الأب: «حسنًا، لقد خفضوا الأجر كما قلت، وجاء جمع كبير من العمال الجدد جائعين بشكل لعين وعلى استعداد أن يتقبلوا العمل مقابل رغيف من الخبز، تمد يدك إلى خوخة فتجد من يسبقك إليها، سيجمعون المحصول كله حالاً، الناس تجرى إلى شجرة جديدة على الدوام، رأيت مشاجرات، رجل يزعم أنها شجرته وآخر يريد أن يجمع منها الثمار، أحضروا هؤلاء الناس من أماكن بعيدة مثل «إل سنترو» أكثر جوعًا من جهنم، يعملون طول النهار مقابل كسرة خبز، قلت للفران: لا يمكننا أن نعمل مقابل سنتين ونصف للصندوق، فقال: اذهب إذًا، اترك العمل، هؤلاء الرجال يمكنهم، قلت: بمجرد أن يشبعوا

لن يفعلوا هذا، فقال بحق الجحيم سنجمع هذا الخوخ كله قبل أن يشبعوا. وتوقف الأب عن الكلام، قال العم «جون»: «كانت شرًا، يقولون إن هناك مائتى رجل غيرهم سيأتون الليلة».

قال «توم»: «إيه، وماذا عن الموضوع الآخر؟».

سكت الأب برهة وقال: « (توم)، يبدو أنك فعلتها».

«أعتقد ذلك، لم أستطع أن أرى شيئًا، ولكننى شعرت بذلك».

«يبدو أن هذا هو الموضوع الذى يشغل الناس كلها تقريبًا، لقد أخرجوا دوريات وهم يتحدثون عن شنق القاتل على شجرة ـ طبعًا عندما يمسكونه».

نظر «توم» إلى الطفلين اللذين اتسعت عيونهما، لم تكن تطرف لهما عين تقريبًا، كأنهما يخشيان أن يحدث شىء فى لمحة إظلامها، قال «توم»: «حسنًا، هذا الرجل الذى فعلها، فعلها فقط بعد أن قتلوا (كيزى)».

فقاطعه الأب: «إنهم لا يحكون الحكاية بهذه الطريقة الآن، إنهم يقولون إنه هو البادئ».

تنهد «توم» بصوت عال «آه.. آه».

إنهم يثيرون الشعور ضدنا، يثيرون كل رجال الشرطة والسكان المحليين وكل الناس، يقولون إنهم سيقبضون على هذا الرجل».

فسأل «توم»: «أيعرفون شكله؟».

«حسنًا، ليس بالدقة، ولكن بالطريقة التى سمعتها فهم يعتقدون أنه مصاب.. إنهم يظنون أنه مصاب بـ...».

رفع «توم» يده ببطء وتحسس وجنته المرضوضة.

صاحت الأم: «ليس صحيحًا ما يقولون».

قال «توم»: «اهدئى يا أمى، كل ما يقوله هؤلاء الرمم مصدق إذا كان ضدنا».

حملقت الأم فى الضوء الشاحب ولاحظت وجه «توم» وبالذات شفتيه وقالت: «لقد وعدت».

«أمى، أنا.. ربما كان من الواجب أن يهرب هذا الرجل.. إذا...كان هذا الرجل قد فعل خطأ ما، فربما فكر هكذا: أوكى لننته من الشنق، لقد ارتكبت خطأ وأنا أستحق ذلك، ولكن هذا الرجل لا يشعر أنه ارتكب خطأ، لا يشعر أنه فعل شيئًا بأكثر مما لو كان قد قتل ظربانًا عفنًا.

تدخلت «روثى» قائلة: «ماما، أنا و«وينفلد» نعرف، ليس هناك داع للحديث عن هذا الرجل».

ضحك «توم»: «حسنًا، هذا الرجل لا يريد الشنق لأنه ربما يفعلها ثانية وفى نفس الوقت فهو لا يريد أن يجلب المتاعب لأهله، أمى.. يجب أن أذهب».

غطت الأم فمها بأصابعها وكحت لكى تتمالك صوتها وقالت: «لا يمكنك ذلك، ليس أمامك سبيل للاختفاء، لا يمكن أن تثق بأحد ولكن فى إمكانك أن تثق بنا، يمكننا أن نخبئك، ونحن نستطيع أن ندبر أمر طعامك حتى يشفى وجهك».

«ولكن يا أمى...».

وقفت على قدميها وقالت: «لن تذهب، سنأخذك، «آل» اجعل ظهر السيارة على الباب، والآن، لقد فكرت فى الأمر سنضع مرتبة واحدة على الأرضية وعندئذ يدخل «توم» بسرعة إليها ثم نضع مرتبة أخرى مطوية

فتصنع ما يشبه الكهف ثم نسندها نحن، يستطيع أن يتنفس من نهايتها، فاهمين، لا تناقشوا، هذا ما سنفعله».

تكلم الأب شاكيًا: «يبدو أنه لم يعد ثمة مكان لكلام الرجال، إنها كأحد زبانية جهنم، سيأتى وقت نستقر فيه وأعطيها علقة».

قالت الأم: «عندما يأتى ذلك الوقت، يمكنك أن تفعل ذلك، انهض يا «آل»، الظلام يسمح لنا بالرحيل».

خرج «آل» إلى السيارة، وتفحصها وعاد بظهرها حتى عتبة الباب.

قالت الأم: «بسرعة الآن، ادخلوا هذه المرتبة».

طوح الأب والعم «جون» بالمرتبة فوق الباب الخلفى. «والآن خذ هذه» وألقى الثانية فوق الأولى، «والآن «توم»، اقفز وادخل تحتها، بسرعة».

تسلق «توم» بسرعة وارتمى، سوى إحدى المراتب وجذب الأخرى فوقه وثناها الأب فوقه مكومًا جوانبها حتى غطى قوسها «توم». كان فى إمكانه أن يرى الخارج من بين ألواح جانب السيارة، وسرعان ما أكمل الأب و«آل» والعم «جون» تحميل السيارة، كوموا البطاطين فوق كهف «توم» وأسندوا الدلاء على جوانبه وفردوا المرتبة الأخيرة فى الخلف، ووضعت الأوعية والأوانى والملابس الزائدة سائبة، فقد أحرقت صناديقها، كانوا قد فرغوا تقريبًا من شحن السيارة عندما اقترب أحد الحراس يحمل بندقية فوق ذراعه.

سأل: «ما الذى يجرى هنا؟».

قال الأب: «سنرحل».

«لماذا؟».

«حسنًا، أمامنا فرصة للعمل، عمل جيد».

«إيه؟ أين هذا؟».

«هناك بالقرب من ويد باتش».

«فلنلق عليكم نظرة» وصوب بطاريته على وجه الأب والعم «جون» و«آل» ثم سأل: «ألم يكن معكم شخص آخر؟».

فرد «آل»: أتقصد عابر السبيل؟ رجل قصير ضئيل ذو وجه شاحب».

«أيوه، أعتقد أنه كان بهذا الشكل».

«لقد التقطناه فقط على الطريق، ذهب هذا الصباح عندما خفضوا الأجر».

«قل لى ثانية، ماذا كان يشبه؟».

«رجل قصير وجهه شاحب».

«هل كانت به إصابات هذا الصباح؟».

قال «آل»: «لم أر شيئًا، هل مضخة البنزين مفتوحة؟».

«أيوه، حتى الثامنة».

فصاح «آل»: «ادخلوا، إن كان علينا أن نصل إلى ويد باتش قبل الصباح فلابد أن نجرى، ادخلى بسرعة يا أمى».

قالت: «لا، سأجلس فى الخلف، بابا، أhجلس فى الخلف أنت أيضًا ودع «روزا شارن» تجلس قدام هى والعم «جون» مع (آل)».

قال «آل»: «اعطنى إيصال العمل يا أبى، سأحصل على بنزين ونقود إن استطعت». وراقبهم الحارس وهم يذهبون عبر الشارع ثم يدورون إلى اليسار ناحية مضخات البنزين.

قال «آل»: «ضع جالونين».

«ألن تذهبوا بعيدًا؟».

«لا، ليس بعيدًا، هل يمكن أن آخذ الباقى نقدًا من إيصال العمل هذا؟».

«لا، ليس من المفروض أن أعطيكم».

فقال «آل»: «اسمع يا سيدى لدينا عرض بعمل جيد لو وصلنا الليلة، فإن لم نصل فسنفقده، كن رجلاً طيبًا».

«حسنًا، أوكى، وقع لى هنا».

خرج «آل»، ودار حول مقدمة السيارة الهدسون وقال: «بالتأكيد سأوقع». وفك غطاء الماء وملأ الرادياتير.

«هل طلبت اثنين؟».

«أيوه اثنين».

«فى أى طريق ستذهبون؟»

«إلى الجنوب حصلنا على عمل».

«إيه؟ العمل نادر.. العمل المنتظم».

قال «آل»: «لنا صديق، العمل ينتظرنا، حسنًا إلى اللقاء».

ودارت سيارة النقل وانطلقت من فوق الشارع الترابى إلى الطريق، وأنوارها الخافتة تتراقص أمامها والنور الأيمن الأمامى ينطفئ ويضىء بسبب ماس فى الأسلاك.

ومع كل مطب تقرقع وتصلصل الأوانى والأوعية السائبة فى أرضية السيارة.

أتت «روزا شارن» بصوت خافت.

سألها العم «جون»: «أتشعرين بسوء؟».

«أيوه، أشعر بسوء طول الوقت، وددت لو جلست بلا حركة فى مكان مريح، وددت لو كنا فى بيتنا ولم نأت أبدًا، ربما لو كنا فى البيت ما كان «كونى» قد هرب، كان من الممكن أن يذكر ويذهب إلى مكان ما». لم يجبها لا «آل» ولا العم «جون» فقد كانا محتارين فى أمر «كونى».

عند بوابة المزرعة ذات الطلاء الأبيض، جاء أحد الحراس إلى جانب اللورى وسأل: «خارجين على طول؟».

قال «آل»: «أيوه، سنذهب شمالاً، حصلنا على عمل».

وأدار الحارس بطاريته على السيارة، ثم فوق إلى داخل الخيمة فنظرت الأم والأب نظرات متحجرة فى وهج الضوء. «أوكى». وفتح الحارس البوابة ودارت السيارة إلى اليسار، وتحركت تجاه الطريق ١٠١، الطريق العظيم الذى يجرى من الشمال إلى الجنوب.

سأل العم «جون»: «أتعرف إلى أين نحن ذاهبون؟».

قال «آل»: «لا، نحن ذاهبون فقط، ولقد زهقت من هذا تمامًا».

قالت «روزا شارن» مهددة: «لم يعد أمامى وقت طويل، من الأفضل أن نجد مكانًا مناسبًا لى».

كان نسيم الليل باردًا مع أول بشائر الصقيع، وعلى جانبى الطريق بدأت أوراق أشجار الفاكهة تتساقط، وفوق ظهر الحمولة جلست الأم وقد أسندت ظهرها إلى جانب السيارة، وجلس الأب على الجانب الآخر فى مواجهتها.

وقالت الأم «أنت بخير يا «توم»؟».

وجاء صوته المكتوم: «المكان ضيق هنا إلى حد ما، هل خرجنا من المزرعة تمامًا؟».

قالت الأم: «كن حذرًا، ربما أوقفونا».

رفع «توم» أحد جوانب كهفه، قرقعت الأوانى فى عتمة اللورى، قال «توم»: «أستطيع أن أنزلها ثانية بسرعة، كما لا أحب أن يصطادونى داخلها».

وارتكز على مرفقه وقال: «يا إلهى، الجو يزداد بـرودة، أليس كذلك؟».

قال الأب: «هناك سحب فى السماء، يقول الناس إن الشتاء سيأتى مبكرًا».

فسأله «توم»: «هل بدأ السنجاب يبنى جحوره، أو كونت الأعشاب بذورها؟ يا إلهى يمكنك أن تتنبأ بالطقس من أى شىء، أراهن أنك قد تجد رجلاً ينبئك بالطقس برؤية زوج قديم من السراويل».

قال الأب: «لا أعرف ولكن يبدو لى أنها بشائر الشتاء، لابد أن يعيش الإنسان هنا طويلاً لكى يعرف».

سأل «توم»: «فى أى طريق نسير؟».

«لا أعرف، لقد دار «آل» إلى اليسار، يبدو أنه عائد من الطريق الذى جئنا منه».

قال «توم»: «ليس فى إمكانى أن أحدد ما هو الأفضل، يبدو أننا لو ظللنا على الطريق الرئيسى فسنجد مزيدًا من الشرطة، سيصطادوننى على الفور، وأنا وجهى على هذا الشكل، ربما كان من الأفضل أن نظل على الطرق الجانبية».

قالت الأم: «دق على الظهر، ليقف (آل)».

دق «توم» على اللوح الأمامى بقبضته وتوقفت السيارة على جانب الطريق، خرج «آل» ومشى إلى الخلف ونظرت «روثى» و«وينفلد» خلسة من تحت البطانية.

سأل «آل»: «ماذا تريدون؟».

قالت الأم: «لابد أن نتدبر فيما يجب أن نفعله، ربما كان من الأفضل أن نظل فى الطرق الجانبية، «توم» يقول ذلك».

وأضاف «توم»: «إنه وجهى، أى واحد يمكن أن يتعرف علىّ، أى شرطى سيعرفنى».

«حسنًا، أى طريق تريدون أن نذهب فيه؟ أنا رأيى الشمال، لقد كنا فى الجنوب».

فقال «توم»: «أيوه، ولكن يجب أن نظل على الطرق الجانبية».

فسأل «آل»: «ما رأيكم لو توقفنا ونمنا قليلاً، ونستأنف السير فى الصباح».

فقالت الأم بسرعة: «لا، ليس الآن، فلنقطع مسافة كبيرة أولاً».

«أوكى» وعاد «آل» إلى مقعده، وانطلق بالسيارة.

غطت «روثى» و«وينفلد» رأسيهما ثانية ونادتهما الأم: «هل «وينفلد بخير؟».

قالت «روثى»: «بالتأكيد بخير، لقد كان نائمًا».

وأسندت الأم ظهرها على جانب السيارة وقالت: «إنك لتشعر بشعور غريب عندما تكون مطاردًا هكذا، إننى أزداد شراسة».

قال الأب: «الكل يزداد شراسة، الجميع، رأيت مشاجرة اليوم، لقد تغير الناس، هناك فى مخيم الحكومة لم نكن هكذا».

دار «آل» إلى اليمين على طريق مفروش بالحصى، وتراقصت الأنوار الصفراء فوق الأرض، كانت أشجار الفاكهة قد اختفت الآن وحلت محلها شجيرات القطن، ساروا عشرين ميلاً بين القطن وهم يدورون ويلفون على الطرق الريفية، وحاذى الطريق مجرى ماء محوطًا بالشجيرات ثم دار فوق جسر خرسانى، ثم تبع النهر على الجانب الآخر، وعلى حافة المجرى المائى، أظهرت الأضواء صفًا طويلاً من صناديق السيارات الحمراء بلا عجلات، ولافتة كبيرة على حافة الطريق تقول: «مطلوب جامعو قطن»، أبطأ «آل»، وحملق «توم» من خلال جوانب السيارة، وبعد ربع ميل من صناديق السيارات دق «توم» على السيارة ثانية ووقف «آل» على جانب الطريق وخرج مرة أخرى.

«والآن ماذا تريدون؟».

«أوقف المحرك، وتعال هنا فوق».

دخل «آل» إلى مقعده، وقاد السيارة إلى المنخفض المجاور للطريق وأطفأ النور والمحرك ثم تسلق فوق البوابة الخلفية وقال: «حسنًا».

زحف «توم» فوق الأوانى وركع أمام الأم وقال: «اسمعى، إن اللافتة تقول إنهم يحتاجون إلى جامعى قطن، لقد رأيت هذه اللافتة، وأنا الآن أفكر فى طريقة للإقامة معكم دون أن أسبب لكم أى مشاكل، عندما يشفى وجهى ربما يصبح الأمر على ما يرام، ولكن ليس الآن، أرأيت تلك السيارات هناك، حسنًا، العمال يقيمون فيها ربما يوجد عمل فى هذا المكان، ماذا لو اشتغلتم هنا وسكنتم فى واحدة من هذه السيارات؟».

فسألت الأم: «وماذا عنك أنت؟».

«حسنًا، هل رأيت هذا الخور المليء بالشجيرات؟ فى إمكانى أن أختبئ بين هذه الشجيرات وأظل بعيدًا عن الأنظار، وفى الليل يمكنك أن تحضرى لى شيئًا آكله، رأيت بربخًا إلى الخلف قليلاً، ربما استطعت أن أنام هناك».

قال الأب: «يا إلهى! يا ليتنى أستطيع أن أضم بيدى شيئًا من القطن، هذا هو العمل الذى أجيده».

قالت الأم: «ربما كانت هذه السيارات أماكن جيدة تصلح للإقامة، جيدة وجافة، أتظن أن هناك ما يكفى من شجيرات لاختبائك يا «توم»؟».

«بالتأكيد، لقد رأيتها، فى إمكانى أن أمهد مكانًا صغيرًا واختبئ تمامًا وبمجرد أن يشفى وجهى سأظهر».

قالت الأم: «ستخلف لك ندبة سيئة جدًا».

«وماذا يهم، كل إنسان فيه ندوب».

قال الأب: «لقد جمعت أربعمائة رطل مرة، بالطبع كان محصولاً كثيفًا وجيدًا، لو جمعنا كلنا قد نحصل على بعض المال».

قال «آل»: «قد نحصل على بعض اللحم، ماذا سنفعل الآن؟».

قال الأب: «سنذهب إلى هناك، وننام فى السيارة حتى الصباح، ونحصل على العمل فى الصباح، أستطيع أن أرى اللوزات المتفتحة حتى فى الظلام».

سألت الأم: «وماذا عن «توم»؟».

«ما عليك إلا أن تنسينى، سآخذ بطانية، انظرى ونحن راجعون، هناك بربخ لا بأس به، فى إمكانك أن تحضرى لى بعض الخبز والبطاطس أو الثريد وتتركيه هناك فحسب، وسآخذه».

«حسنًا».

قال الأب: «يبدو لى هذا كلامًا معقولاً».

فأصر «توم»: «إنه كلام معقول فعلاً، بمجرد أن يتحسن وجهى قليلاً سأخرج من مخبأى وآتى إلى العمل».

فوافقت الأم قائلة: «حسنًا، لا بأس، ولكن لا تتهاون، لا تدع أحدًا يراك لفترة من الوقت».

زحف «توم» إلى ظهر السيارة وقال: «سآخذ هذه البطانية فحسب، وأنت يا أمى لاحظى هذا البربخ على الطريق وأنتم راجعون».

فتوسلت إليه قائلة: «خذ حذرك، خذ حذرك!».

قال «توم»: «بالتأكيد سأكون حذرًا». وتسلق العارضة الخلفية وخطى نازلاً جسر الطريق وقال: «أسعدتم مساء».

راقبت الأم خياله وهو يتوه فى ظلام الليل ويختفى بين الشجيرات بجوار النهر وقالت: «يا يسوع الحبيب!، أرجو ألا يحدث له مكروه!».

سأل «آل»: «أتريدون أن أرجع الآن؟».

قال الأب: «أيوه».

قالت الأم: «سر ببطء، أريد أن أتأكد وأرى ذلك البربخ الذى قال عنه، لابد أن أراه».

وعاد «آل» بظهر السيارة ودار على الطريق الضيق حتى عكس اتجاهها، وسار ببطء راجعًا إلى صف صناديق السيارات، وأظهرت أنوار السيارة سقالات ضيقة أمام أبواب السيارات الواسعة، كانت الأبواب مظلمة، لم يتحرك أحد فى الليل، اطفأ «آل» أنواره.

قال لـ «روزا شارن»: «اصعدى أنت والعم «جون» إلى الخلف، سأنام فى المقعد هنا».

وساعد العم «جون» الفتاة الثقيلة لكى تصعد فوق عارضة الباب الخلفى وكومت الأم الأوانى فى مكان صغير، ورقدت العائلة متلاصقة معًا على ظهر اللورى.

وفى أحد صناديق السيارات سمع بكاء طفل، صرخات طويلة متقطعة، وجرى كلب خارجًا يتشمم ويزمجر، ودار ببطء حول سيارة عائلة «جود»، وعلا صوت خرير الماء فى مجرى النهر.

الفصل السابع والعشرون

مطلوب جامعو قطن ـ لوحات إعلانات على الطريق، إعلانات فى كل مكان، إعلانات برتقالية اللون ـ مطلوب جامعو قطن.

هنا، على هذا الطريق، كما تقول.

الشجيرات ذات اللون الأخضر الداكن أصبحت حطبًا الآن، والبذور الممتلئة متجمعة فى كأسها والقطن الأبيض يتفتح كالفشار.

جميل أن نضع أيدينا على النوار، بحنان، بأطراف الأصابع.

أنا أجمع جيدًا

هذا هو الرجل، بالدقة.

أود أن أجمع بعض القطن.

ألديك كيس؟

حسنًا، لا ليس معى كيس.

الكيس يساوى دولارًا، نخصمه من أول مائة وخمسين سنتًا تنالها، من ثمانين إلى مائة سنت للجمعة الأولى، وتسعين سنتًا للجمعة الثانية، خذ كيسك من هناك، دولار واحد، إن لم يكن معك دولار، سنخصمه من أول مائة وخمسين سنتًا تحصل عليها، هذا عدل، أنت تعرف هذا.

بالتأكيد هذا عدل، كيس قطن جيد، يستمر طول الموسم، وعندما يبلى ويجرجر على الأرض أقلبه، استعمل الناحية الأخرى خط الطرف المفتوح وأفتح الطرف البالى، وعندما يبلى من طرفيه، لماذا؟ إنه مصنوع من قماش جيد، من الممكن أن تأخذ منه سروالاً صيفيًا جيدًا أو قميص نوم، حسنًا، بحق الجحيم إن كيس القطن شىء قيم.

علقه حول خصرك، وافتح فتحته، وجرجره بين ساقيك، سيكون خفيفًا فى البداية، وأطراف أصابعك تجمع الزغب اليدان تعتصران داخل الكيس بين ساقيك، الأطفال يأتون فى الخلف، لا توجد أكياس للأطفال استخدم كيس خيش أو استعمل كيس أبيك، إنه يبدو لى ثقيلاً الآن، انحن إلى الأمام واجذبه معك، أنا أجيد العمل فى القطن، الأصابع مفرودة، خبيرة بالنوار، امض إلى الأمام وأنت تتحدث، أو ربما تغنى حتى يثقل الكيس، الأصابع تذهب إليها مباشرة، الأصابع تدرك، العيون ترى العمل.. ولا تراه.

الحديث عبر الخطوط...

هناك سيدة كانت فى بلدنا ـ بدون ذكر الأسماء ـ أنجبت طفلاً زنجيًا فجأة، دون علم أحد، لم يعرف أحد أبدًا من هو الزنجى، لم تعد تستطيع أن ترفع رأسها بعد ذلك، ولكن، كنت أريد أن أقول.. كانت تجيد جمع القطن.

الكيس ثقيل الآن، اسنده وجره، ثبت وسطك وجره معك كحصان النقل، والأطفال يجمعون فى جوال الأب، محصول جيد هنا، يقل فى الأماكن الواطئة، يخف ويجف، لم أر ابدًا قطنًا كقطن كاليفورنيا هذا، ألياف طويلة، أحسن قطن رأيته فى حياتى، يستهلك الأرض بسرعة، الإنسان يود لو اشترى قطعة تزرع قطنًا ـ لا تشتريها أجرها. وعندما يستهلكها القطن انتقل إلى مكان آخر جديد.

صفوف من الناس تتحرك عبر الحقول، أصابع خبيرة، الإصبع المنتصبة تندفع هنا وهناك وتلتقط النوار، ليس هناك ضرورة للنظر تقريبًا.

أراهن أن فى إمكانى أن أجمع القطن حتى وأنا أعمى، أنا أحس بنوار القطن، جمع نظيف، نظيف كالأنفاس.

الكيس امتلأ الآن، خذه إلى الميزان، ناقش، الوزان يقول لكإنك وضعت حجارة لكى تثقله، ماذا عنه هو؟ موازينه ثابتة، فى بعض الأحيان يكون على صواب وتكون قد وضعت حجارة فى الكيس فعلاً، وفى بعض الأحيان أنت على صواب وموازينه هى المغشوشة، وفى بعض الأحيان الاثنان معًا، حجارة وموزاين مختلة، ناقش على الدوام وتشاجر على الدوام واحفظ رأسك مرفوعًا ورأسه مرفوعًا، وماذا تعنى بضعة أحجار قليلة؟ واحدة فقط، ربما، ربع رطل؟ ناقش دائمًا.

عد بالكيس الفارغ، احتفظ بنوتة خاصة، سجل فيها الميزان، لابد من ذلك، إذا عرفوا أنك تسجل، لن يغشوك، ولكن كان الله فى عونك لو لم تحتفظ بنوتتك الخاصة، هذا عمل جيد، الأطفال تجرى من حولنا أسمعت عن آلة جمع القطن؟.

أيوه، سمعت.

حسنًا، إذا وصلت ـ يقول أحدهم إنها ستحل محل الجمع اليدوى.

ويأتى المساء، الكل متعب، ومع ذلك فالجمع جيد، حصلنا على ثلاثة دولارات أنا والمرأة العجوز والأطفال.

وتأتى السيارات إلى حقول القطن، وتقوم مخيمات القطن، سيارات اللورى الضخمة ذات الجوانب، والمقطورات، تحمل عالية بالزغب الأبيض، القطن يتعلق بأسلاك الأسوار وعندما تهب الريح يتدحرج فى

كرات صغيرة عبر الطريق، القطن الأبيض النظيف ينقل إلى المحلج، والبالات الضخمة المليئة بالكتل تصف، فى طريقها للكبس، القطن يتعلق بملابسك ويلصق بفوديك، انفض أفنك... هناك قطن فى أنفك.

احم ظهرك وتقدم الآن، املأ كيسك قبل الظلام، الأصابع الخبيرة تنقب عَن النوار، الظهر انحنى يجرجر الكيس، الأطفال تعبوا الآن فى المساء، إنهم يقفزون على أقدامهم فوق الأرض المحروثة والشمس تمضى إلى المغيب.

أتمنى لو دام الحال، لم أشتغل بعد بما يكفى من النقود، يعلم الله، كم أتمنى أن تدوم الحال.

وعلى الطريق العام تتكوم السيارات القديمة، تجذبها الإعلانات، ألديك كيس قطن؟

لا، إذًا فسيكلفك الكيس دولارًا.

لو أننا كنا خمسين فقط لبقينا فترة طويلة، ولكن هناك خمسمائة، لن يستمر هذا الحال أبدًا، أعرف رجلاً لم يسدد أبدًا ثمن كيسه، فى كل عمل يحصل على كيس جديد، وكل حقل كان يفرغ قبل أن يحصل على ما يساويه.

حاول بالله أن تدخر قليلاً من المال! الشتاء قادم بسرعة، لا يوجد عمل فى كاليفورنيا كلها خلال الشتاء، املأ الكيس قبل حلول الظلام، رأيت هذا الرجل يضع كتلتين من الطين داخله.

حسنًا، يا للجحيم، ولم لا! أنا أوازن فقط الموازين المغشوشة.

والآن ها هى نوتتى، ثلاثمائة وأثنا عشر رطلاً.

مضبوط.

يا يسوع! إنه لا يجادل أبدًا، لابد أن ميزانه مغشوش، حسنًا، إنه يوم طيب على أى حال.

يقولون إن هناك ألف رجل فى طريقهم إلى هذا الحقل، سنقاتل من أجل خط واحد غدًا، سنتخاطف القطن.

مطلوب جامعو قطن، رجال أكثر للجمع، أسرع للمحلج.

والآن إلى مخيم القطن.

لحم بفتيك الليلة، يا إلهى! لدينا نقود نشترى بها بفتيك، أضيفى قطعة للصبى الصغير فهو منهك تمامًا، اجرى بسرعة وأحضرى لنا أربعة أرطال من لحم البفتيك، ستصنع المرأة العجوز بعض البقسماط الجيد الليلة، إن لم يمنعها الإرهاق.

الفصل الثامن والعشرون

صفت صناديق السيارات ـ اثنا عشر صندوقًا ـ عند نهاية مسطح صغير بجوار الجدول، كانت صفين، كل صف ستة صناديق نزعت عجلاتها، وأمام الأبواب المنزلقة صفت شرائح الخشب السميك كسقالات توصل إليها، كانت تصلح كمنازل جيدة، لا يتسرب إليها الماء، ولا تيارات الهواء، تتسع لأربع وعشرين عائلة، عائلتان فى كل صندوق، لا نوافذ، ولكن الأبواب الواسعة مفتوحة على الدوام، فى بعض الصناديق يعلق مفرش قماش سميك، فى منتصفها بينما الباب فى بقية الصناديق هو الذى يقسمها. احتلت عائلة «جود» جانبًا فى أحد الصناديق، وكان أحد السكان السابقين قد ثبت فيه صفيحة زيت بمدخنة تخترق الجدار.. حتى والباب مفتوح على آخره، كان ركنا السيارة مظلمين، وعلقت الأم المشمع فى منتصف السيارة.

قالت الأم: «لا بأس، أفضل من أى مكان آخر تقريبًا باستثناء مخيم الحكومة».

فى كل مساء تفرد الأم المراتب على الأرضية ومع كل صباح تلفها ثانية، وكل يوم يذهبون إلى الحقول ويجمعون القطن وفى كل مساء يحصلون على لحم، وفى أحد أيام السبت ذهبوا بالسيارة إلى «طولار»

ـ واشتروا فرنًا من الصفيح وعفريتات جديدة «لآل» والأب و«وينفلد» والعم جون، واشتروا فستانًا جديدًا للأم، وأعطت الأم أحسن فساتينها: لـ «روزا شارن».

قالت: «إنها منتفخة جدًا، من التبذير أن نشترى لها رداء جديدًا الآن».

كانت عائلة «جود» محظوظة، فقد وصلت فى وقت مبكر أتاح لهم الحصول على مكان فى صناديق السيارات، والآن، ملأت خيام القادمين الجدد المسطح الصغير، وهؤلاء الذين يسكنون صناديق السيارات أصبحوا قدامى، وأرستقراطيين إلى حد ما.

انساب الجدول بجوارهم خارجًا من بين اشجار الصفصاف وعائدًا إليها ثانية وامتد أمام كل سيارة ممشى مهدته الأقدام، حتى النهر، وبين السيارات تعلقت حبال الغسيل، تنشر عليها كل يوم الملابس لكى تجف.

وفى المساء يعودون من الحقول يحملون أكياسهم المطوية تحت الإبط، يذهبون إلى محل البقالة القائم عند مفارق الطرق، وهناك يجدون عمالاً كثيرين، يشترون تموينهم.

«كم اليوم؟»

«نحن نعمل جيدًا، اشتغلنا بثلاثة ونصف اليوم، يا ريت نستمر، هؤلاء الأطفال بدأوا يتحولون إلى جامعين جيدين، الأم صنعت لكل منهم كيسًا صغيرًا، لا يمكنهم أن يسحبوا الكيس الكبير، إنهم يفرغون فى أكياسنا، صنع لهم أكياسًا من زوج من القمصان القديمة، عمل لا بأس به».

وتذهب الأم إلى قسم اللحوم، وقد وضعت سبابتها على شفتها

تنفخ فيها، مفكرة بعمق، وقالت: «يمكن أن أحصل على أضلاع خنزير، بكم؟».

«ثلاثين سنتًا للرطل يا سيدتى».

«حسنًا، أعطنى ثلاثة أرطال، وقطعة أخرى جيدة من لحم السليق.، يمكن لابنتى أن تطبخها غدًا، وزجاجة لبن لابنتى، إنها شغوفة باللبن ستلد قريبًا، أشارت عليها السيدة الممرضة بأن تشرب لبنًا كثيرًا، عندك بطاطس؟».

واقترب الأب يحمل زجاجة من الشربات بين يديه وقال: «فلنأخذ هذه، ربما صنعنا بعض الفطير الساخن».

وقطبت الأم وقالت: «حسنًا، حسنًا، نعم، اسمع، سنأخذ هذه، والآن، عندنا دهن كفاية».

واقتربت «روثى» وبين يديها علبتان كبيرتان من الفشار المسكر، وفى عينيها نظرة متسائلة منكسرة، قد تتحول بإيماءة أو هزة من رأس الأم إلى مأساة أو انفعال بهيج: «ماما؟».

ورفعت العلبتين وهى تهزهما فوق وتحت على سبيل الإغراء.

«والآن، أعيديهما».

بدأت المأساة تتجمع فى عينى «روثى»، قال الأب: «العلبة بخمسة سنتات فقط، وهذان الصغيران اشتغلا جيدًا اليوم».

«حسنًا...». وبدا الانفعال يظهر فى عينى «روثى»: «لا بأس».

استدارت «روثى» وجرت، وفى منتصف الطريق إلى الباب أمسكت «وينفلد» ودفعته خارج الباب إلى عتمة المساء.

أدخل العم «جون» أصابعه فى زوج من القفازات القماشية على راحتيه الصفراوين المتجلدتين، جربه ثم خلعه وأعاده ثانية إلى مكانه، تحرك شيئًا فشيئًا ناحية رف المشروبات، ثم وقف يتفحص البطاقات الملصقة على الزجاجات. رأته الأم وقالت: «بابا». ثم أشارت برأسها ناحية العم «جون».

اتجه الأب إليه وسأله: «أعطشان أنت يا «جون»؟».

«لا، لست عطشان».

فقال الأب: «أنتظر فقط حتى ينتهى القطن، وعندئذ تستطيع أن تسكر على كيفك».

فقال العم «جون»: «إنها لا تلح على أبدًا، أنا أعمل كثيرًا وأنام جيدًا، لا أحلام ولا أى شىء.

لقد رأيتك فقط تنظر بإمعان إلى هذه الزجاجات.

«لم تلفت نظرى تقريبًا، شىء غريب، أريد أن أشترى أى شىء، أشياء لا أحتاج إليها، واحد من هذه الأمواس مثلاً، أعتقد أننى من الممكن أن أحصل على هذا الزوج من القفازات هناك رخيصة جدًا».

قال الأب: «لا يمكنك أن تجمع القطن بقفازات».

«أعرف هذا، وأنا لا أحتاج إلى الأمواس أيضًا، الأشياء موضوعة هناك وأنت تشعر برغبة فى شرائها سواء كنت تحتاج إليها أم لا؟».

قالت الأم: «تعالوا، لقد حصلنا على كل شىء». حملت كيسًا وحمل كل من الأب والعم «جون» ربطة، وفى الخارج كانت «روثى» و«وينفلد» ينتظران، وقد جحظت عيونهما وانتفخت أشداقهما بالفشار المسكر.

قالت الأم: «أعتقد أنكما لن تتناولا عشاءكما».

تدفق الناس ناحية مخيم صناديق السيارات، أضيئت الخيام، وتصاعد الدخان من المداخن، وتسلقت عائلة «جود» سقالتها ودخلوا إلى الجانب الذى يقيمون فيه من الصندوق، جلست «روزا شارن» على أحد الصناديق بجوار الفرن، وقد أوقدت النار، وأصبح الفرن الصفيح فى لون النبيذ من شدة الحرارة، سألت: «هل أحضرت لبنًا؟».

«أيوه، هنا».

«اعطه لى، لم أشرب شيئًا منذ الظهيرة».

«إنها تظن إنه كالدواء».

«السيدة الممرضة قالت ذلك».

«هل أعددت البطاطس؟».

«هنا، مقشرة».

قالت الأم: «سنقليها، أحضرت أضلاع خنزير، قطعى هذه البطاطس فى المقلاة الجديدة وألقى عليها بصلة، أخرجوا يا رجال واغتسلوا وأحضروا دلوًا من الماء، أين: «روثى» و«وينفلد» لابد أن يغتسلا..» وقالت الأم لـ «روزا شارن»: «لقد حصل كل منهما على فشار مسكر... كل حصل على علبة كاملة».

خرج الرجال ليغتسلوا فى النهر وقطعت «روزا شارن» البطاطس فى المقلاة وقلبتها بسن السكين.

«وفجأة نزح المشمع جانبًا وأطل وجه ممتلئ مبلل بالعرق من الجانب الآخر من السيارة: «كيف حالكم جميعًا يا مسز «جود»؟»

واستدارت الأم وقالت: «مساء الخير يا مس وينرايت، لقد اشتغلنا جيدًا، ثلاثة دولارات ونصف دولار، ثلاثة وخمسة وسبعون بالدقة».

«اشتغلنا نحن بأربعة دولارات».

فقالت الأم: «حسنًا، بالطبع أنتم أكثر عددًا».

«أيوه، جوناس كبر، أرى أنكم تطبخون أضلاع خنزير».

زحف «وينفلد» خلال الباب «ماما..».

«اسكت دقيقة.. نعم، رجالنا يحبون أضلاع الخنزير».

قالت مسز وينرايت: «أنا أطبخ لحم خنزير مملح، هل تشمين رائحتها؟».

«لا أستطيع أن أشم غير رائحة البصل هنا على البطاطس».

صاحت مسز وينرايت: «إنها تحترق» واختفى رأسها خلف الستار.

قال «وينفلد»: «ماما!».

«ماذا؟ هل زهقت من الفشار المسكر؟».

«ماما...: «روثى» قالت...».

«قالت ماذا؟»

«عن: (توم)».

حملقت الأم وقالت؟». ثم ركعت أمامه وسألته «: «وينفلد، قالت لمن؟».

تملك «وينفلد» الارتباك، وتراجع مبتعدًا: «حسنًا، لقد قالت شيئًا قليلاً فقط».

«: «وينفلد»، قل لى الآن ماذا قالت؟».

«إنها، إنها لم تأكل كل فشارها المسكر، احتفظت ببعضه، تأكل واحدة فقط كل مرة ببطء كما تفعل دائمًا، وقالت: أراهن أنك كنت تريد أن تبقى بعضه».

فألحت الأم قائلة: «وينفلد»، قل لى الآن» ونظرت خلفها فى عصبية إلى الستارة وقالت: «روزا شارن» اذهبى وتكلمى مع مسز و«وينرايت» حتى لا تسمع الحديث».

«وماذا عن هذه البطاطس؟».

«سألاحظها أنا، اذهبى الآن، لا أريدها أن تسترق السمع خلف هذه الستارة». وخطت الفتاة ثقيلة نازلة من السيارة ودارت حول المشمع المعلق.

قالت الأم: «والآن يا «وينفلد»، قل لى».

«كما قلت لك، أكلت قطعة صغيرة فى كل مرة وكسرت بعضها إلى قطعتين حتى تستمر وقتًا أطول».

«استمر اسرع».

«حسنًا، بعض الأطفال جاءوا حولنا، وبالطبع حاولوا أن يحصلوا على بعض الفشار، ولكن «روثى» استمرت تأكل على مهل ولم تعطهم شيئًا، وهكذا فقدوا صوابهم وجذب أحد الأطفال علبتها».

«وينفلد، قل بسرعة عن الشىء الآخر».

قال: «حاضر، وهكذا فقدت: «روثى» صوابها وهاجمته وضربت واحدًا ثم ضربت آخر، وعندئذ جاءت بنت كبيرة وضربتها ضربة قوية

فصاحت: «روثى» عندئذ وقالت إنها ستأتى بأخيها الكبير وسيقتل هذه البنت الكبيرة، وهذه البنت الكبيرة قالت: أوه، أيه؟ حسنًا إن لها أخًا كبيرًا هى الأخرى». كان «وينفلد» يلهث وهو يحكى: «وهكذا اشتبكتا معًا وضربت هذه البنت الكبيرة: «روثى» علقة جيدة وقالت: «روثى»: إن أخاها سيقتل أخا هذه البنت الكبيرة وقالت هذه البنت الكبيرة، ماذا لو قتل أخوها أخانا؟ وعندئذ... عندئذ قالت: «روثى» إن أخانا قد قتل بالفعل رجلين و... و... هذه البنت الكبيرة قالت: أوه، إيه، أنت مجرد كذابة، وقالت: «روثى» أوه إيه؟ حسنًا، أخونا مختبئ الآن لأنه قتل رجلاً ويستطيع أن يقتل أخا هذه البنت الكبيرة أيضًا، ثم تبادلتا السباب وألقت: «روثى» حجرًا على البنت فهاجمتها هذه البنت الكبيرة وعدت أنا إلى البيت».

قالت الأم بقلق: «أوه يا مصيبتى! أوه يا أيها الرب يسوع الحبيب العزيز الجالس فى ملكوتك، ماذا نفعل الآن؟». وأراحت جبهتها على يدها وفركت عينيها «ماذا نفعل الآن؟». تصاعدت رائحة البطاطس المحترقة من الفرن المتأجج وتحركت الأم دون وعى وقلبتها وصاحت: «روزا شارن» ظهرت الفتاة من خلف الستارة «تعالى ولاحظى هذا العشاء «وينفلد»، اخرج وابحث عن: «روثى» وأحضرها إلى هنا».

فسألها بنبرة فيها أمل: «هل ستضربينها يا ماما؟».

«لا، هذا أمر لا حيلة لنا فيه، لماذا يا ترى فعلت هذا؟ لا، ليس من المفيد أن أضربها، أجر الآن، ابحث عنها وأحضرها هنا».

جرى «وينفلد» إلى باب السيارة فقابل الرجال الثلاثة عائدين يصعدون السقالة فتنحى جانبًا وهم يدخلون.

قالت الأم بصوت خافت: «بابا، لابد أن أتكلم معك، قالت: «روثى» لبعض الأطفال كيف يختبئ: (توم)».

«ماذا؟».

«قالت.. دخلت فى مشاجرة وقالت».

«لماذا؟ هذه الكلبة الحقيرة!».

«لا، لم تكن تعرف ماذا تفعل.. والآن اسمع يا بابا، أريدك أن تبقى هنا، سأخرج وأحاول أن أعثر على: «توم» وأخبره، لابد أن أخبره ليأخذ حذره، لا تتحرك من هنا يا بابا وحاول أن تراقب تطور الأمور، سآخذ معى بعض الطعام لعشائه».

فوافقها الأب قائلاً: «لا مانع».

«لا تذكر شيئًا: «لروثى» أبدًا عما فعلته، سأكلمها أنا».

وفى هذه اللحظة عادت «روثى» و«وينفلد» وراءها، كانت الفتاة الصغيرة متربة، فمها لزج وأنفها مازال يقطر قليلاً من الدم من المشاجرة، كان يبدو عليها الخجل والخوف، وتبعها «وينفلد» فى ترقب، نظرت «روثى» حولها فى تحفز ولكنها ذهبت إلى أحد أركان السيارة وأسندت ظهرها إليه وقد امتزج إحساسها بالحرج والتحفز.

قال «وينفلد»: «أخبرت ماما بما فعلت».

كانت الأم تضع ضلعين وبعض البطاطس المقلية فى طبق صاج وقالت: «هس، «وينفلد» لا داعى لجرح أحاسيسها أكثر مما هى مجروحة».

مرقت «روثى» عبر السيارة واحتضنت الأم من خصرها ودفنت رأسها فى بطن أمها وقد أخذت نهنهاتها المخنوقه تهز جسمها كله، حاولت الأم أن ترخى قبضتها ولكن الأصابع المتشنجة تشبثت بها فى قوة، مسحت الأم على شعر مؤخرة رأسها برقة وربتت على كتفيها وقالت: «هس، لم تكونى تعرفين».

رفعت «روثى»، وجهها المتسخ المخضب بالدموع والدماء وصاحت: «سرقوا علبة الفشار، هذه البنت الكبيرة بنت الزانية كتفتنى..» ثم انخرطت ثانية فى بكائها المر.

قالت الأم: «هس، لا تتكلمى هكذا،هنا، دعينى أذهب، سأذهب الآن».

«لماذا لا تضربيها يا ماما؟ لو أنها لم تتفاخر بصندوق الفشار ما حدث هذا، هيا اضربيها».

فقالت الأم بحزم: «اهتم بشئونك فقط يا سيدى، ستأخذ علقة أنت نفسك، والآن اتركينى يا (روثى)».

تراجع «وينفلد» إلى أحد المراتب المطوية وجلس يرقب العائلة ببلادة وامتعاض واتخذ لنفسه موقعًا جيدًا للدفاع فقد تهاجمه «روثى» عند أول فرصة، وهو يعلم هذا، وذهبت «روثى» فى هدوء كسيرة القلب إلى الجانب الآخر من السيارة.

وضعت الأم قطعة من ورق الصحف على الطبق الصاج وقالت: «سأذهب الآن».

فسألها العم «جون»: «ألن تأكلى أنت شيئًا؟».

«فيما بعد، عندما أعود، لا أريد شيئًا الآن». ومشت الأم إلى الباب المفتوح ونزلت بتأن على السقالة المعلقة المائلة.

على جانب صناديق السيارات من ناحية الجدول أقيمت الخيام بالقرب من بعضها، تداخلت حبالها، وأوتاد كل خيمة عند حافة قماش الخيمة الأخرى، ولمعت الأضواء من خلال القماش والمداخن تنفث الدخان، ووقف الرجال والنساء فى المداخل يتحادثون والأطفال يجرون حولهم

فى نشاط، وسارت الأم فى جلال عبر صف الخيام، كانت معروفة هنا وهناك «مساء الخير يا مسز «جود»».

«مساء الخير».

«إلى أين تنوين الذهاب يا مسز «جود»؟».

«صديق أعيد إليه بعض الطعام».

وصلت أخيرًا إلى نهاية صف الخيام، وقفت ونظرت خلفها، فوق المخيم تعلق وهج من الضياء وخليط أصوات المتكلمين الخافت وبين الحين والحين يعلو صوت خشن من بين الهمهمة المختلطة، أحدهم كان يعزف بصوت خافت على هارمونيكا، يحاول أن يضبط النغم فأخذ يكرر جملة واحدة مرات عديدة.

خطت الأم بين أشجار الصفصاف بجوار جدول الماء، تركت الممشى وانتظرت فى صمت تنصت لتتبين إن كان أحد يتبعها، مشى رجل عبر الممشى فى اتجاه المخيم وهو يعلق حمالاته على كتفيه ويزرر بنطلونه وهو يمشى، جلست الأم بلا أدنى حركة ومر بها دون أن يراها، انتظرت خمس دقائق، ثم وقفت وزحفت على الممشى بجوار النهر، تحركت فى هدوء، لدرجة أنه كان فى إمكانها أن تسمع صوت الماء يعلو على صوت قدميها وهى تطأ أوراق الصفصاف. ودار الممشى والجدول إلى اليسار ثم إلى اليمين ثانية حتى اقتربا من الطرى العام، كان فى إمكانها أن ترى، فى ضوء النجوم الرمادى، الجسر وفتحة البربخ السوداء المستديرة حيث كانت تترك على الدوام طعام «توم»، تقدمت فى حذر ودفعت بربطتها فى الفتحة وأخذت الطبق الفارغ المتروك هناك وزحفت إلى الخلف بين أشجار الصفصاف ثم شقت طريقها فى دغل كثيف وجلست تنتظر، كانت ترى من خلال الشجيرات المتلاحمة فتحة البربخ السوداء، ضمت ركبتها

وجلست فى صمت، بعد لحظات قليلة عادت الحياة إلى الدغل ثانية.. تحركت فئران الغيط حذرة فوق الأوراق ودب ظربان بثقل وبلا وجل على الممشى وهو ينشر معه رائحة نتنة خفيفة، ثم حركت الريح أشجار الصفصاف قليلاً كأنها تختبرها، فتساقط رذاذ من الأوراق الذهبية على الأرض كالمطر، وفجأة قامت هبة ريح هزت الأشجار وأسقطت سيلاً من الأوراق على الأرض.

كانت الأم تشعر بها على رأسها وكتفيها، وفى السماء تحركت سحابة سوداء ثقيلة تحجب النجوم، وتناثرت حبات المطر الثقيلة تطرطش عاليًا فوق الأوراق على الأرض.

وتحركت السحابة وكشفت عن النجوم ثانية، ارتجفت الأم ومرت الريح وخلفت الدغل ساكنًا، ولكن حفيف الأشجار استمر على جانب النهر، ومن بعدى جاءت من المخيم نغمة حادة لعازف كمان يحاول أن يجد لحنًا.

سمعت الأم خطوة متلصصة بين الأوراق من بعيد على يسارها، فازدادت توترًا، فردت ركبتيها ورفعت رأسها لتحسن السمع، توقفت الحركة وبعد لحظة طويلة بدأت ثانية، احتك غصن كرمة بصوت عال فوق الأوراق الجافة ورأت الأم خيالاً معتمًا يزحف فى البقعة المكشوفة ويقترب من البربخ، واختفت الفتحة السوداء المستديرة لحظة ثم تحرك الخيال راجعًا، نادت بصوت رقيق: «توم». توقف الخيال بلا حركة ساكنًا وواطئًا حتى لتظنه جذع شجرة مقطوعة، نادت ثانية: «توم، أوه توم!» عندئذ تحرك الخيال.

«أهذه أنت يا أمى؟».

«أنا هنا». ووقفت وذهبت لملاقاته:

فقال: «ما كان يجب أن تأتى».

«بل كان يجب أن أراك يا «توم»، يجب أن أتكلم معك».

«نحن بالقرب من الممشى، قد يمر أحدهم بنا».

«ألم تُعد لنفسك مكانًا يا «توم»؟».

«أيوه.. ولكن.. حسنًا، افرضى أن أحدهم رآك معى، ستقع كل العائلة فى ورطة».

«لابد من ذلك يا (توم)».

«إذًا تعالى، تعالى بهدوء». عبر الجدول الصغير خوضًا فى الماء وتبعته الأم، مشى خلال الدغل ثم خرج إلى حقل على الجانب الآخر من الدغل الكثيف على حافة حقل محروث كانت أعواد القطن الجافة ملقاة على الأرض وقد تعلق بها قليل من الزغب، مشيا على حافة الحقل لمسافة ربع ميل ثم استدار ودخل الدغل ثانية، اقترب من رابية ضخمة من شجيرات العليق البرية ومال عليها، وأزاح جانبًا حصيرة من أغصان الكروم وقال: «لابد أن تزحفى لكى نصل».

ركعت الأم على يديها وركبتها، شعرت بالرمال تحتها ثم لم تعد تشعر به فى ظلام الرابية فى الداخل، وأحست ببطانية «توم» على الأرض، أعاد ترتيب أغصان الكروم فى أماكنها ثانية، كان الكهف ظلامًا دامسًا.

«أين أنت يا أمى؟».

«هنا، هنا، تكلم بصوت خافت يا (توم)».

«لا تقلقى، لقد عشت فترة مثل الأرنب».

سمعته وهو يكشف الطبق الصاج.

قالت: «أضلاع خنزير وبطاطس مقلية».

«يا إلهى القدير، وما تزال ساخنة».

«لم يكن فى إمكان الأم أن تراه على الإطلاق فى الظلام ولكنها كانت تسمعه وهو يمضغ اللحم ويبتلعها.

قال: «إنه مخبأ جيد جدًا».

قالت الأم فى تردد « «توم» «روثى» تكلمت عنك..» وسمعته يشرق.

«روثى» لماذا؟».

«حسنًا، لم تكن غلطتها، دخلت فى مشاجرة وقالت إن أخاها سيضرب أخا البنت الأخرى. أنت تعرف ما يفعله الصغار، ثم قالت: إن أخاها قتل رجلاً، وهو مختبئ الآن».

ضحك «توم»: «كنت دائمًا أحاول أن أحرض العم «جون» على الأطفال ولكنه لم يطعنى أبدًا ـ هذا مجرد حديث أطفال يا أمى، كل شيء على ما يرام».

قالت الأم: «لا، ليس كذلك، هؤلاء الأطفال سيحكون فى كل مكان وعندئذ يسمع الناس وسيتناقلون الكلام وسرعان ما... حسنًا،.. ربما أحضروا رجالاً للبحث فى هذه الحالة، «توم» لابد أن تهرب».

«هذا ما قلته من قبل، أنا على الدوام خائف أن يراك أحد وأنت تضعين ما تحضرينه فى هذا البربخ، ثم يراقبون المكان».

«عارفة، ولكننى كنت أريدك بالقرب منا، كنت خائفة عليك، لم أرك ولا أستطيع أن أراك الآن، كيف حال وجهك؟».

«يتحسن بسرعة».

«اقترب منى يا «توم». دعنى أتحسسك، تعالى بالقرب منى». زحف مقتربًا ومدت يدها تتحسس رأسه فى العتمة وتحركت أصابعها ونزلت إلى أنفه ثم فوق وجنته اليسرى وقالت: «لقد خلف ندب سيئة يا «توم»، ما زالت أنفك مكسورة».

«ربما كان هذا أفضل، لن يعرفنى أحد، ربما لو لم تكن بصماتى فى السجلات لكان هذا من دواعى سرورى». ثم عاد إلى طعامه.

قالت: «هس، اسمع!»

«إنها الريح يا أمى، الريح فقط». صفعت هبة الريح صفحة الجدول، وخشخشت الأشجار.

زحفت بالقرب من صوته «أريد أن ألمسك ثانية يا «توم»، كأننى عمياء، إن الظلام دامس أريد أن أتذكر حتى ولو أن أصابعى هى التى ستتذكر أنت ستهرب وستبعد عنا».

«أيوه، أدركت ذلك من البداية».

قالت: «نحن نكسب جيدًا، كنت أدخر بعض النقود، افرد يك يا «توم» معى سبعة دولارات».

قال: «لن آخذ نقودكم، سأمضى هكذا».

«افرد يك يا «توم»، لن أذوق طعم النوم إن لم تأخذ النقود، ربما أردت أن تركب أتوبيسًا، أو أى شىء. أريدك أن تمضى بعيدًا جدًا ثلاثمائة أو أربعمائة ميل».

«لن آخذها».

فقالت بحزم: « «توم»، خذه هذه النقود، سامعنى؟ ليس من حقك أن تعذبنى».

قال: «ليس هذا عدلاً».

«فكرت إنه ربما استطعت أن تذهب إلى مدينة كبيرة، لوس أنجلوس مثلاً، إنهم لن يبحثوا عنك هناك أبدًا».

قال: «هم م.. اسمعى يا ماما، لقد كنت اختبئ طول النهار والليل وحدى، خمنى فيم كنت أفكر؟: «كيزى»! كان يتكلم كثيرًا، كان يضايقنى حديثه ولكننى الآن أفكر فيما كان يقول، وفى إمكانى أن أتذكر... كل ما كان يقوله، قال مرة إنه خرج إلى البرية ليبحث عن روحه وإنه اكتشف أنه ليس له روح فى داخله، قال إنه اكتشف أنه لا يملك قطعة صغيرة من روح كبيرة وقال إن البرية ليست شيئًا طيبًا لأن قطعة الروح الصغيرة التى لديه لا تكون بخير إلا مع الباقى وكانت كلاً واحدًا معها، غريب أننى أتذكر كل هذا، ما كنت أظن حتى أننى كنت أنصت إليه ولكننى أدرك الآن ألا فائدة فى رجل وحده».

قالت الأم: «كان رجلاً طيبًا»».

استطرد «توم»: «ذكر مرة بعض الآيات، ولكن لم يكن يبدو عليها أنها آيات من الكتاب المقدس، قالها مرتين وأنا أذكرها، يقول إنها من سفر الواعظ».

«ماذا تقول يا «توم»؟».

«تقول: اثنان أفضل من واحد، لأن لهما مكافأة طيبة على عملهما، لأنهما إن سقطا فسيرفع الرجل رفيقه، ولكن يالتعاسة الوحيد عندما يسقط، لأنه ليس له آخر يساعده على النهوض، هذا جزء من الآية».

قالت الأم: «استمر، استمر يا (توم)».

«كلمة صغيرة بعد ذلك: ومرة أخرى إذا رقد اثنان فهناك الدفء ولكن كيف يمكن أن يتدفأ الوحيد؟ وإذا هاجمه واحد، سيقاومه اثنان والحبل المجدول من ثلاث لا يتمزق بسهولة».

«أليست هذه آيات؟».

(كيزى) يقول إنها كذلك وإنها من سفر الواعظ».

«هس، اسمع».

«إنها الريح فقط يا أمى، أنا أعرف الريح، وظللت أفكر يا أمى، معظم الوعظ عندنا عن الفقر الذى سيصاحبنا على الدوام، وإذا لم تكن تملك شيئًا ما عليك إلا أن تطوى يديك وتذهب إلى الجحيم، سنحصل على آيس كريم على أطباق من الذهب عندما نموت، ثم جاء هذا الواعظ ليقول: إن اثنين يحصلان على مكافأة أكبر على عملهما».

قالت الأم: «توم»، ماذا تنوى أن تفعل؟».

سكت طويلاً قبل أن يقول: «لقد فكرت فيما كانت عليه حال مخيم الحكومة، لم يكن هناك شرطة يلوحون ببنادقهم ولكن كان هناك نظام أفضل مما كان يمكن أن تقيمه الشرطة، كنت أتعجب، لماذا لا نعمم هذا، ونطيح برجال الشرطة الذين ليسوا منا، والجميع يعملون معًا من أجل مصلحتنا كلنا، الجميع يزرعون أرضنا».

فكررت الأم سؤالها: «توم» ماذا تنوى أن تفعل؟».

قال: «ما فعله (كيزى)».

«ولكنهم قتلوه».

قال «توم»: «أيوه، لأنه لم يهرب فى الوقت المناسب، لم يكن يفعل شيئًا ضد القانون يا أمى، فكرت كثيرًا فى الأمر، فكرت فى أهلنا وهم يعيشون كالخنازير والأرض الطيبة الخصبة متروكة بلا زراعة، ربما يملك رجل واحد مليون فدان، فى حين أن مائة ألف من المزارعين المجدين يموتون جوعًا، وأخذت أفكر، ماذا لو أن كل أهلنا قاموا معًا وصاحوا كما صاح أولئك الرجال، قليل منهم فقط فعلوا هذا فى مزرعة هوبر».

قالت الأم: «توم»، سيطاردونك، حتى يقطعوك عن العالم كما فعلوا مع (فلويد)».

«سيطاردوننى على أى حال، إنهم يطاردوننا جميعًا».

«هل فى نيتك أن تقتل أحدًا يا «توم»؟».

«لا، لقد فكرت ولكن طالما كنت طريد القانون فربما فعلتها، يا للجحيم لم أفكر فى هذا الأمر بوضوح، ماما، لا تثيرى همى من الآن، لا تقلقينى».

جلسا صامتين فى ظلام كهف الكروم الدامس، قالت الأم: «كيف سأسمع أخبارك؟ ربما قتلوك وأنا لا أعرف، ربما أصابوك بأذى، كيف سأعرف؟».

ضحك «توم» فى اضطراب: «ربما كان الأمر كما قال «كيزى»، ليس للرجل روحه الخاصة ولكنه قطعة من روح كبيرة.. وعندئذ..».

«وعندئذ ماذا يا «توم»؟».

«عندئذ ليست هناك مشكلة، سأكون حولكم فى الظلام، سأكون فى كل مكان حيث تنظرين، حيث يكون هناك قتال لكى يأكل الجوعى... سأكون هناك، حيث يوجد شرطى يضرب أحد الرجال، سأكون هناك،

يا ليت «كيزى» يعرف، سأكون فى الطريق مع الرجال الذين يصيحون وقد فقدوا صوابهم... سأكون فى الطريق مع الأطفال الذين يضحكون عندما يعضهم الجوع ثم يعرفون أن العشاء قد أعد، وعندما يأكل أهلنا ما يزرعون ويسكنون فى المنازل التى يبنونها.. سأكون هناك، فاهمة؟ يا إلهى أنا أتكلم كما كان «كيزى» يتكلم، ذلك بسبب التفكير فيه كثيرًا، أحس كأننى أراه أحيانًا».

قالت الأم: «لم أفهم، لست أدرك فى الحقيقة».

قال «توم»: «ولا أنا... إنها مجرد أفكار كنت أفكر فيها، الإنسان يفكر كثيرًا وهو يهيم على وجهه، لابد أن تعودى الآن يا أمى».

«خذ النقود إذًا».

سكت لحظة ثم قال: «لا بأس».

«توم».. عندما ينتهى كل شىء ستعود وستجدنا».

قال: «بالتأكيد، والآن من الأفضل أن تذهبى، هيا أعطنى يدك».

قادها نحو المدخل، تشبثت أصابعها برسغه، أزاح أغصان الكروم جانبًا وتبعها إلى الخارج. «امش على حافة الحقل حتى تأتى إلى شجرة التوت ثم اعبرى الجدول.. وداعًا».

قالت: «وداعًا» ثم مشت مبتعدة بسرعة، كانت عيناها دامعتين تحرقانها ولكنها لم تبك، كان وقع أقدامها عاليًا مستهينًا فوق أوراق الشجر، وهى تعبر الدغل، وعندما ذهبت بدأت الأمطار تسقط من السماء المعتمة، حبات كبيرة متناثرة تطرطش بشدة فوق الأوراق الجافة. توقفت الأم، ووقفت ساكنة فى الدغل الذى يقطر منه الماء، استدارت.. خطت ثلاث خطوات تجاه رابية الكروم، ثم استدارت بسرعة وعادت تسير نحو مخيم

السيارات، ذهبت مباشرة إلى البربخ وتسلقت صاعدة إلى الطريق، كانت الأمطار قد توقفت الآن ولكن السماء كانت ملبدة بالغيوم. سمعت خلفها وقع أقدام على الطريق فاستدارت فى عصبية، كان ضوء بطارية خابية تتراقص على الطريق فاستدارت الأم ثانية وبدأت طريقها إلى المنزل... بعد لحظة لحقها رجل، واحتفظ فى أدب بضوء بطاريته على الأرض ولم يوجهه إلى وجهها.

قال: «مساء الخير».

قالت: «كيف حالك».

«يبدو أنها ستمطر قليلاً».

«أرجو ألا تفعل فذلك يوقف الجمع ونحن فى حاجة إليه».

«أنا فى حاجة إلى الجمع أيضًا، أتعيشين فى هذا المخيم هناك؟».

«نعم يا سيدى».

ودق وقع أقدامهما على الطريق.

«عندى عشرون فدانًا من القطن، تأخر قليلاً، ولكنه جاهز الآن، ظننت أننى لو جئت فربما حصلت على بعض العمال».

«ستحصل عليهم فعلاً، الموسم كاد ينتهى».

«أرجو ذلك، أرضى على بعد ميل من هذا الطريق».

«سنكون هناك فى الصباح».

«أرجو ألا تمطر».

قالت الأم: «وأنا أيضًا، عشرون فدانًا لن تأخذ وقتًا طويلاً».

«كلما انتهت بسرعة، كان ذلك أفضل، قطنى متأخر لم يتفتح إلا متأخرًا».

«ماذا ستدفع يا سيدى؟».

«تسعين سنتًا».

«سنجمع، سمعت الناس يقولون إنها فى العام التالى ستصبح خمسة وسبعين وربما ستين».

«هذا ما سمعته».

قالت الأم: «ستثور المتاعب عندئذ».

«بالتأكيد، أنا عارف، ولكن رجلاً صغيرًا مثلى لا يستطيع أن يفعل شيئًا، الاتحاد يحدد الأجر ولا بد لنا من احترامه، إذا لم نفعل ـ لن نظل نملك مزارعنا، الخناق يضيق من حول الصغار على الدوام».

وصلا إلى المخيم وقالت الأم: «سنكون هناك، لم يبق هنا جمع كثير». وذهبت إلى صندوق السيارة الأخيرة وتسلقت السقالة المربوطة، كان ضوء الفانوس الخافت يلقى ظلالاً شاحبة فى السيارة وقد تربع الأب والعم «جون» ورجل كبير السن واستندوا إلى جدار السيارة.

قالت الأم: «أهلاً، مساء الخير يا مستر وينرايت».

رفع الرجل وجهًا رقيقًا كأنه تمثال منحوت، عيناه عميقتان تحت حاجبيه البارزين، شعره ناعم أزرق فاتح، ويغطى فكه وذقنه لحية قصيرة فضية.

قال: «مساء الخير يا سيدتى».

قالت: «لدينا جمع فى الصباح، على بعد ميل، عشرون فدانًا».

قال الأب: «يستحسن أن نأخذ السيارة فيما أعتقد، سنجمع أكثر».

رفع و«وينرايت» رأسه بحماس: «أعتقد أنه فى إمكاننا أن نجمع؟».

«لماذا، بالتأكيد، لقد سرت قليلاً مع أحد الرجال.. جاء هنا ليحصل على عمال، لقد كاد القطن أن يفرغ، الجمعات الثانية هنا خفيفة جدًا، سيكون من الصعب أن يحصل الإنسان على أجر مناسب فى الجمعات الثانية، لقد نظفناها تمامًا فى الجمعات الأولى».

قالت الأم: «يمكن لعائلتك أن تركب معنا ونتقاسم البنزين».

«حسنًا، هذا جميل منك يا سيدتى».

قالت الأم: «فى هذا وفر لكلينا».

قال الأب: «مستر وينرايت، لديه مشكلة جاء لنا بشأنها، كان يتحدث عنها الآن».

«ما الخبر؟».

أطرق و«وينرايت» إلى الأرض وقال: «بنتنا آجى، إنها فتاة كبيرة، فى حوالى السادسة عشرة وقد كبرت».

قالت الأم: «آجى فتاة جميلة».

قال الأب: «اسمعيه».

«حسنًا، هى وابنكم «آل» يخرجان معًا كل ليلة، وآجى فتاة طيبة بصحة جيدة ويلزم لها زوج وإلا وقعت فى مشكلة، لم تحدث لنا مشاكل أبدًا فى عائلتنا، ولكن كيف الحال ونحن الآن فقراء جدًا، مسز و«وينرايت» وأنا فى منتهى القلق، افرضى أنها وقعت فى مشكلة؟».

طوت الأم مرتبة وجلست وسألته: «هل هما فى الخارج معًا الآن؟».

قال وينرايت: «على الدوام معًا، كل ليلة».

«هم م م، يا للجحيم، «آل» ولد طيب، إنه يظن نفسه ديكًا بريًا هذه الأيام ولكنه ولد طيب ومستقيم، وأنا لم أكن أحلم بولد أفضل منه».

«أوه، نحن لا نشكو من «آل» كرجل، نحن نحبه، ولكن ما يفزع مسز و«وينرايت» وأنا، أنها فتاة كبيرة، بالغة، وماذا لو ذهبنا من هنا، أو أنتم ذهبتم من هنا واكتشفنا أن آجى فى مشكلة؟ لم يلحق بنا فى عائلتنا من قبل أى عار».

قالت الأم برفق: «سنحاول وسنرى ألا يلحق بكم أى عار».

وقف بسرعة: «شكرًا يا سيدتى، آجى فتاة كبيرة بالغة، وهى فتاة طيبة، طيبة وجميلة، سنشكرك بالتأكيد يا سيدتى إذا ما أبعدت العار عنا، إنها ليست غلطة آجى، لقد كبرت!».

قالت: «بابا سيكلم «آل»، وإن لم يكلمه، سأكلمه أنا».

قال وينرايت: «أسعدتم مساء إذًا، ونحن شاكرون لكم بالتأكيد». وذهب خلف حافة الستارة وكان فى إمكانهم أن يسمعوه يتحدث بصوت خافت فى الجانب الآخر من السيارة، يشرح نتائج سفارته.

أنصتت الأم لحظة ثم قالت: «أنتم يا رجال تعالوا واجلسوا هنا».

نهض الأب والعم «جون» بتثاقل من جلستهما، وجلسا على المرتبة بجوار الأم: «أين الصغار؟».

أشار الأب إلى مرتبة فى ركن السيارة: «لقد قفزت «روثى» على «وينفلد» وضربته، فأمرتهما هما الاثنين بالرقاد، أعتقد أنهما قد ناما، و«روزا شارن» ذهبت لتجلس مع السيدة التى تعرفها».

تنهدت الأم وقالت بصوت خافت: «قابلت «توم».. وأرسلته بعيدًا بعيدًا جدًا».

أومأ الأب برأسه ببطء ونكس العم «جون» ذقنه على صدره، قال الأب: «لم يكن فى إمكانه أن يفعل شيئًا آخر، أتظن أنه كان يستطيع يا (جون)؟».

رفع العم «جون» بصره وقال: «لا يمكننى أن أفكر فى شىء، لم أعد فى تمام وعيى».

قالت الأم: (توم) ولد طيب». ثم قالت للأب بلهجة اعتذار: «لم أكن أقصد الإساءة إليك عندما قلت أننى سأتكلم مع (آل)».

قال الأب بهدوء: «عارف، لم أعد صالحًا، أنفق وقتى كله فى التفكير فى الأيام الخوالى، أنفق كل وقتى فى التفكير فى البيت القديم وكيف أننى لن أراه بعد اليوم أبدًا».

قالت الأم: «هنا أجمل... الأرض أفضل».

«عارف، لم أر مثلها أبدًا، أفكر فى أوراق شجر الصفصاف الذى يتساقط الآن، وأحيانًا أفكر فى أن أرمم الفتحة التى فى السور الجنوبى، غريب، المرأة تقود العائلة، المرأة تقول ماذا سنفعل هنا وإلى أين سنذهب هناك، وأنا لا أهتم أبدًا».

قالت الأم تTسرى عنه: «المرأة قد تستطيع أن تتغير أسرع من الرجل، المرأة حياتها كلها فى ذراعيها والرجل حياته فى رأسه، لا تهتم، ربما استطعنا أن نستقر فى مكان ما فى العام المقبل».

قال الأب: «ليس لدينا شىء الآن، وأمامنا وقت طويل بلا عمل، ولا محاصيل، ماذا سنفعل عندئذ؟ كيف سنحصل على ما نأكله؟ وأنا أنبهك

أن «روزا شارن» قد حان وقت ولادتها، بلغ بى الأمر أننى صرت أكره التفكير، ولهذا أسرح فى الأيام الخوالى لكى لا أفكر، يبدو أن حياتنا قد انتهت وفنيت».

ابتسمت الأم وقالت: «لا، لم تنته، لم تنته يا بابا، وهذا أمر آخر تعرفه المرأة، لقد لاحظت ذلك، الرجل يعيش فى قفزات. الطفل يولد والرجل يموت، وهذه قفزة، يحصل على مزرعة، ويفقد مزرعة، وهذه قفزة، أما المرأة فإنها تنساب كالتيار، دوامات صغيرة وشلالات صغيرة، ولكن النهر يمضى قدمًا، المرأة تنظر للأمور هكذا، لن نموت، الناس يواصلون الحياة، ربما يتغيرون قليلاً ولكنهم يستمرون دائمًا».

سألهم العم «جون»: «كيف يمكنك معرفة ذلك؟ ما الذى يمنع كل شيء عن التوقف، ما الذى يمنع كل الناس من أن يتعبوا ويرقدوا؟».

فكرت الأم، وحكّت ظاهر إحدى يديها اللامعتين بالأخرى ودفعت بأصابع يدها اليمنى بين أصابع اليسرى وقالت: «من الصعب أن أشرح، يبدو لى أن كل ما نفعله يهدف إلى الاستمرار، هكذا تبدو لى الأمور حتى عندما نجوع، حتى عندما نمرض، يموت البعض ولكن الباقى يشتد عوده، حاولوا أن نعيش يومنا، مجرد يومنا».

قال العم «جون»: «لو أنها فقط لم تمت فى ذلك الوقت...».

قالت الأم: «عش فى يومك، لا تشغل نفسك».

قال الأب: «ربما كان العام المقبل طيبًا فى بلدتنا هناك».

قالت الأم: «اسمع».

mسمعوا وقع خطوات متلصصة فوق السقالة، ثم دخل «آل» من خلف الستارة وقال: «هالو، ظننت أنكم نائمون الآن».

قالت الأم: «آل»... كنا نتكلم، تعال واجلس هنا».

وقد شبكت يديها أمامها. كانت الريح المضطربة تفح وهى تمر بها وفى الجو لسعة صقيع، انتابت الأم رعشة فحكت يديها معًا، زحفت راجعة وبحثت عن الثقاب بجانب الفانوس وصر غطاء الفانوس عندما رفعته، وأشعلت الفتيل ولاحظته وهو يحترق بلهب أزرق لحظة ثم تحيط بضوئه الأصفر هالة رقيقة مقوسة، حملت الفانوس إلى الفرن ووضعته عليه وأخذت تكسر أغصان الصفصاف الجافة الهشة فى داخله، وبعد لحظة كانت النار تزمجر فى المدخنة.

تقلبت «روزا شارن» متثاقلة وجلست وقالت: «سأنهض الآن».

فسألتها الأم: «لم لا تنامى دقيقة حتى يدفأ الجو؟».

«لا، سأنهض».

ملأت الأم براد القهوة من الدلو ووضعته فوق الفرن ثم وضعت المقلاة مليئة بالدهن لكى تسخنها من أجل الزلابيا وقالت برفق: «ماذا بكِ؟».

قالت «روزا شارن»: «سأخرج».

«إلى أين؟».

«سأذهب لأجمع قطنًا».

قالت الأم: «لا تستطيعين، أنت لا تصلحين لهذا الآن».

«لا، لست كذلك، وسأذهب».

وضعت الأم معيارًا من البن فى الماء وقالت: «روزا شارن»، لم تكونى موجودة ساعة صنع الزلابيا أمس». لم تجب الفتاة: «لماذا تريدين أن تجمعى قطنًا؟»: ولكن لا إجابة. «هل السبب هو «آل» و«آجى؟». فى

هذه المرة دققت الأم النظر إلى ابنتها: «أوه، حسنًا، لست بحاجة لأن تجمعى شيئًا».

«سأذهب».

«لا بأس، ولكن لا ترهقى نفسك».

«قم يا بابا، استيقظ، انهض».

طرفت عينا الأب وتثاءب وزمجر قائلاً: «لم أنم بعد، لا بد أنها كانت الحادية عشرة عندما رقدنا».

«هيا قوموا كلكم، واغتسلوا!».

عادلت الحياة تدريجيًا إلى سكان السيارة، وانثنوا خارجين من تحت البطاطين، وانسلوا فى ملابسهم، قطعت الأم شرائح من لحم الخنزير المملح فى المقلاة الثانية وأمرتهم: «اخرجوا واغتسلوا».

وأضيء النور فى الجانب الآخر من السيارة ومن هناك جاءت أصوات كسر الأغصان من ناحية وينرايت، ثم سمع نداء يقول: «مسز «جود» نحن نستعد، سنكون جاهزين».

زمجر «آل»: «لماذا ننهض مبكرًا هكذا؟».

قالت الأم: «إنها عشرون فدانًا فقط، لا بد أن نصل إلى هناك، لم يتبق كثير من القطن، لا بد أن نكون هناك قبل أن يجمع». ودفعتهم الأم إلى ارتداء ملابسهم، وساقتهم سوقًا فى أثناء الإفطار وقالت: «تعالوا، اشربوا قهوتكم، لا بد أن نبدأ المسير».

«لا يمكن أن نجمع القطن فى الظلام يا أمى».

«سنكون هناك عندما ينتشر الضياء».

«ربما كانت مبتلة».

«لم تمطر كثيرًا، تعالوا الآن، اشربوا قهوتكم، «آل» بمجرد أن تفرغ، يستحسن أن تدير المحرك».

ثم نادت: «هل أنتم مستعدون تقريبًا يا مسز وينرايت؟».

«نحن نأكل، سنكون جاهزين فى دقيقة».

فى الخارج كان المخيم قد دبت فيه الحياة، النيران موقدة أمام الخيام والمداخن تنفث دخانها من صناديق السيارات.

جرع «آل» قهوته، وملأ فمه بالحب ونزل على السقالة وهو يبصق.

ونادت الأم: «نحن مستعدون يا مسز وينرايت»، ثم التفتت إلى «روزا شارن» وقالت: «لابد أن تبقى».

أطبقت الفتاة فكيها وقالت: «سأذهب، أمى، لابد أن أذهب».

«حسنًا ليس لديك كيس قطن، لا يمكنك أن تسحبى أى كيس».

«سأجمع فى كيسك».

«أود لو لم تذهبى».

«سأذهب».

فتنهدت الأم قائلة: «سأظل أرقبك، وددت لو استطعنا أن نستشير طبيبًا».

مشت «روزا شارن» بعصبية إلى السيارة، ارتدت معطفًا خفيفًا وخلعته، وقالت الأم: «خذى بطانية، حتى إذا ما رغبت فى الراحة تظلين فى الدفء». سمعوا محرك اللورى يزمجر خلف صندوق السيارة، قالت الأم فى ابتهاج

«سنكون أول من يصل إلى هناك، هاتوا أكياسكم، «روثى» لا تنسى القمصان التى صنعتها لك لكى تجمعى فيها».

تسلقت عائلتا «وينرايت» و«جود» سيارة اللورى فى العتمة، كان الفجر يبزغ بطيئًا وشاحبًا.

قالت الأم لـ «آل»: «در إلى اليسار، ستكون هناك لافتة حيث سنذهب».

وساروا فى الطريق المظلم وتبعتهم سيارات أخرى، وفى المخيم خلفهم بدأت سيارات أخرى تتحرك والعائلات مزدحمة فيها، السيارات تخرج إلى الطريق وتدور إلى اليسار.

كانت قطعة من الورق المقوى مربوطة فى صندوق بريد على الجانب الأيمن من الطريق وقد كتب عليها بالطباشير الأزرق: «مطلوب جامعو قطن». دار «آل» إلى المدخل وقاد السيارة إلى فناء الحظيرة، كان فناء الحظيرة قد امتلأ بالسيارات فعلاً، وقد أضيئت لمبة كهربائية عند نهاية الحظيرة البيضاء، انعكست أضواؤها على مجموعة من الرجال والنساء الواقفين بالقرب من الموازين وقد طووا أكياسهم تحت أذرعتهم، وبعض النسوة ارتدين الأكياس حول أكتافهن وشبكنها من الأمام.

قال «آل»: «لسنا مبكرين كما كنا نظن» وقاد اللورى إلى جانب أحد الأسوار وتوقف، وتسلقت العائلتان هابطتين وذهبتا لتلحقا بالمجموعة المنتظرة. وجاء مزيد من السيارات من الطريق وتوقفت وانضم مزيد من العائلات إلى المجموعة. ووقف المالك تحت الضوء فى آخر الحظيرة يسجل أسماءهم.

قال: «هولى؟... هـ.. و.. ل.. ى.. كم عددكم؟».

«أربعة، ويل».

«ويل».

«بنتون».

«بنتون».

«اميليا».

«أميليا».

«كلير».

«كلير.. من بعده؟ كاربنتر كم عددكم؟».

«ستة».

كتبهم فى كراسته وأمام كل منهم ترك مسافة للموازين. «هل معكم أكياسكم؟ عندى قليل منها، ستكلفكم دولارًا واحدًا للكيس الواحد». والسيارات تتدفق فى الفناء، ورفع المالك سترته الجلدية المبطنة بالفراء حول رقبته، ونظر إلى المدخل بإمعان وقال: «هذه العشرون فدانًا لن تأخذ وقتًا طويلاً فى جمعها مع كل هؤلاء الناس».

كان الأطفال يتسلقون فى مقطورة القطن الكبيرة وهم يدسون أصابع أقدامهم فى جوانبها المصنوعة من السلك الضيق، صاح المالك: «اخرجوا من هنا، انزلوا، ستمزقون هذا السلك وتوسعونه». وتسلق الأطفال هابطين ببطء، مرتبكين فى صمت، وحل الفجر الرمادى، قال المالك: «لا بد أن أخصم شيئًا مقابل الندى، وسأغيره عندما تبزغ الشمس حسنًا، ابدأوا حين تريدون، الضوء يكفى للرؤية».

خرج الناس بسرعة إلى حقل القطن، واتخذوا صفوفهم، ربطوا الأكياس إلى خصورهم، وصفقوا أيديهم ببعضها ليدفئوا الأصابع المتيبسة والتى لا

بد لها أن تكون خفيفة الحركة، وتلون الفجر فوق التلال الشرقية وتحرك صف الجامعين العريض على الخطوط، والسيارات ما زالت تدخل من الطريق ونشطت الريح فوق الحقل، قال المالك: «لا أعرف كيف عرفتم جميعًا، لابد أن هناك الكثير من أشجار الكروم، لن تستمر العشرون فدانًا حتى الظهيرة، ما اسمه؟ هيوم؟ كم عددكم؟».

تحرك صف الناس عبر الحقل والريح الغربية القوية تهب بلا انقطاع وتطيّر ملابسهم، طارت أصابعهم إلى النوار المتفتح ثم إلى الأكياس الطويلة التى أخذت تزداد ثقلاً خلفهم.

تكلم الأب مع الرجل الذى يجمع على يمينه: «هناك فى بلادنا قد تمطر السماء إذا هبت ريح كهذه، يبدو أنها أبرد من أن تمطر، منذ متى وأنتم هنا؟» عيناه على عمله وهو يتكلم:

لم يرفع جاره بصره «أنا هنا منذ حوالى عام».

«أيمكنك أن تقول إنها ستمطر؟».

«لا يمكننى القول، وليس هذا عيبًا مع ذلك، الناس الذين عاشوا هنا كل حياتهم لا يستطيعون التنبؤ، إذا كانت الأمطار ستقف فى طريق محصول من المحاصيل فستمطر، هذا ما يقولونه هنا».

نظر الأب بسرعة إلى التلال الغربية، كانت هناك سحب كبيرة رمادية تعبر فوق حافتها تركب الريح مسرعة وقال: «تبدو كأنها مقدمة الأمطار».

وسرق جاره لمحة سريعة وقال: «لا أعرف» وعلى طول صف الخطوط نظر الناس خلفهم إلى السحاب وعندئذ ازدادوا انحناء على عملهم وأسرعت أيديهم إلى القطن، كانوا فى سباق وهم يجمعون، سباق

مع الزمن، ومع ثقل القطن، سباق مع الآخرين، وسباق مع المطر، ولا يدور فى ذهنهم إلا كمية القطن التى سيجمعونها والنقود التى سيكسبونها.

وصلوا إلى الجانب الآخر من الحقل، وجروا ليلحقوا بخط جديد، والآن، أصبحوا يواجهون الريح وأصبح فى إمكانهم أن يروا السحب الرمادية العالية تتحرك فى السماء تجاه الشمس المشرقة، وتوقف المزيد من السيارات على جانبى الطريق ودخل عمال جدد لكى تسجل اسماؤهم. وتحرك صف الناس فى هوس عبر الحقل إلى نهايته حيث يزنون ويسجلون قطنهم ثم يسجلون أوزانهم فى كراريسهم ويجرون إلى خطوط جديدة.

وفى الساعة الحادية عشرة كان الحقل قد جمع وانتهى العمل، وقطرت المقطورات ذات الجوانب المصنوعة من الصلب خلف لوريات ذات جوانب من نفس النوع، وتحركت إلى الطريق وانطلقت إلى المحلج، والقطن يتطاير خلال فتحات السلك الضيقة وسحابات القطن تطير فى الجو وندف القطن تتعلق وتخفق على الأعشاب على جانبى الطريق، وتجمع العمال فى كآبة عائدين إلى فناء الحظيرة ووقفوا فى طابور لكى يصرفوا أجورهم.

«هيوم، جيمس، اثنان وعشرون سنتًا، رالف ثلاثون سنتًا، جود توماس تسعون سنتًا، «وينفلد» خمسة عشر سنتًا». النقود ترقد فى رصات من مختلف الفئات، فضية ومعدنية وبرونزية وكل رجل ينظر فى كراسته وهو يقبض «وينرايت، اجلس أربعة وثلاثون سنتًا، توبين ثلاثة وستون سنتًا». وتحرك الطابور ببطء وعادت العائلات إلى السيارات فى صمت، ثم انصرفوا بها متباطئين.

وانتظرت عائلتا «جود» و«وينرايت» حتى خلا الطريق، وبينما هم ينتظرون بدأت قطرات المطر الأولى تسقط، أخرج «آل» يده من الكابينة

ليتحسسها، جلست «روزا شارن» فى الوسط والأم خارجها، وعادت عينا الفتاة مرة أخرى كابيتين.

قالت الأم: «ما كان يجب أن تأتى، لم تجمعى أكثر من خمسة عشر رطلاً». نظرت «روزا شارن» إلى بطنها الضخم البارز ولم تجب، وارتعشت فجأة ورفعت رأسها عاليًا، وفَرَت الأم التى كانت ترقبها عن كثب، كيسها القطنى، ونشرته على أكتاف «روزا شارن» وضمتها إليها.

وأخيرًا خلا الطريق وأدار «آل» المحرك وقاد السيارة إلى الطريق، كانت قطرات المطر الكبيرة المتناثرة تنزل كالرماح وتطرطش على الطريق، ومع تقدم السيارة صغرت قطرات المطر وازدادت غزارة. دق المطر فوق كابينة السيارات بصوت عال يمكن سماعه فوق جلبة المحرك القديم البالى، وفى أرضية السيارة فرد أفراد عائلتى «جود» و«وينرايت» أكياسهم القطنية فوق رؤوسهم وأكتافهم.

وارتعشت «روزا شارن» بعنف بين ذراعى الأم وصاحت الأم: «أسرع يا «آل»، «روزا شارن» مصابة برعشة، لابد أن نضع قدميها فى الماء الساخن».

زاد «آل» من سرعة المحرك الذى أخذ يدق، وعندما وصل إلى مخيم الصناديق قاد اللورى إلى جوار السيارات الحمراء، كانت الأم تلقى بالأوامر قبل أن يتوقفوا «آل»، أنت والأب والعم «جون»، اذهبوا إلى أشجار الصفصاف واجمعوا كل ما يمكن أن تجمعوه من أغصان وأوراق جافة، لابد أن نحافظ على الدفء».

«يا ترى السقف يرشح؟».

«لا، لا أظن ذلك، إنه جيد وجاف، ولكن ينبغى أن نحصل على خشب، لابد أن نحافظ على الدفء، خذوا «روثى» و«وينفلد» أيضًا، يمكن أن

يأتيا ببعض الأغصان، هذه الفتاة ليست فى حالة طيبة». وخرجت الأم وحاولت «روزا شارن» أن تتبعها ولكن ركبتيها اصطكتا فارتمت جالسة على الرفرف.

رأتها مسز و«وينرايت» السمينة وقالت: «ما الخبر؟ هل جاء موعدها؟».

قالت الأم: «لا، لا أظن ذلك، لديها رعشة، قد تكون مصابة بنزلة برد، ساعدينى لو سمحت؟». وساندت المرأتان «روزا شارن» وعادت إليها قوتها بعد خطوات قليلة... واستطاعت ساقاها أن تحملاها.

قالت: «أنا بخير يا أمى، كانت مجرد دقيقة واحدة هناك».

ظلت أيدى المرأتين الكبيرتين على مرفقيها وقالت الأم عن خبرة: «الأقدام فى الماء الساخن» وساعداها عبر السقالة إلى صندوق السيارة.

قالت مسز وينرايت: «دلكيها، سأوقد النار»، وجمعت بقايا الأغصان وأوقدت النار فى الفرن، كانت الأمطار تنهمر بشدة الآن، وتسيل بغزارة من فوق سقف السيارة، نظرت الأم إلى أعلى وقالت: الحمد لله إن لدينا سقفًا محكمًا، الخيام هناك ترشح، مهما كانت جيدة، ضعى قليلاً من الماء فقط يا مسز وينرايت».

رقدت «روزا شارن» ساكنة فوق المرتبة، تركتهم يخلعون حذاءها ويدلكون قدميها، وانحنت عليها مسز و«وينرايت» وسألتها: «هل تشعرين بآلام؟».

«لا، لا أشعر إنى بخير، حالتى سيئة فقط».

قالت مسز وينرايت: «عندى مسكن وأملاح، يسعدنى أن تأخذيها لو احتجت إليها، يسعدنى تمامًا».

وارتعشت الفتاة بعنف «غطينى يا ماما، أنا بردانة». وأحضرت الأم كل البطاطين وكومتها فوق الفتاة، وزمجر المطر متساقطًا فوق السقف.

وعاد الذين ذهبوا لجمع الخشب، أذرعتهم محملة بأكوام عالية من قطع الخشب، وقبعاتهم ومعاطفهم تقطر ماء، وقال الأب: «يا يسوع! هذا سيل، الأمطار تغرقك فى دقيقة واحدة».

قالت الأم: «يستحسن أن تعودوا وتأتوا بالمزيد، إنها تحترق بسرعة وسيحل الظلام بعد قليل». ودخلت «روثى» و«وينفلد» وألقيا بقطع الخشب على الكوم واستدارا ليذهبا مرة أخرى فقالت الأم: «ابقيا هنا، قفا بجوار النار حتى تجفا».

اكتست فترة العصر بلون فضى من المطر، ولمعت الطرقات بالماء، وساعة بعد أخرى بدا كأن أشجار القطن يسودَّ لونها وتتغضن، وقام الأب و«آل» والعم «جون» بالرحلة تلو الأخرى فى الأدغال وعادوا بأحمال من الأغصان الجافة كوموها بالقرب من الباب حتى كادت الكومة تصل إلى السقف، وأخيرًا توقفوا ومشوا ناحية الفرن، انسابت المياه تجرى من قبعاتهم على أكتافهم، وحوافى معاطفهم تقطر ماء وأحذيتهم تخبخب وهم يمشون.

قالت الأم: «حسنًا، والآن، اخلعوا هذه الملابس، عندى بعض القهوة الجيدة لكم يا رجال ولديكم عفريتات جافة لترتدوها، لا تقفوا هناك».

وحل المساء مبكرًا، وفى صناديق السيارات تجمعت العائلات معًا، تنصت لصوت الماء ينصب فوق السقوف.

الفصل التاسع والعشرون

عبرت السحابة الرمادية جبال الشاطئ العالية آتية من المحيط، وحلقت فوق الوديان، كانت الريح تهب عنيفة صامتة فى طبقات الجو العليا، وتحف حفيفًا فى الأدغال، وتزمجر راعدة فى الغابات، وكانت السحب تصل ندفًا وموجات وكتلاً رمادية ضخمة، ثم تتكوم وتهبط على الغرب، ثم تقف الريح وتترك السحاب كثيفًا متراكمًا، ويبدأ المطر رذاذًا متقطعًا، ثم ينهمر بشدة، ثم يستقر تدريجيًا على وتيرة واحدة: قطرات صغيرة فى خيوط متصلة لا تتوقف، أمطار تحيل الرؤية رمادية وتجعل ضياء الظهيرة كالمساء، وفى البدء تمتص الأرض الجافة البلل ويصبح لونها داكنًا، وتشرب الأرض الأمطار يومين حتى تمتلئ، عندئذ تتكون البرك، وفى الأراضى الواطئة فى الحقول تتكون البحيرات وتزداد البرك الموحلة اتساعًا وعمقًا وتضرب قطرات المطر المنهمر سطح الماء اللامع. وأخيرًا تمتلئ الجبال، وتفيض جوانب التلال بأحمالها فى النهيرات فتحيلها سيولاً تمضى مزمجرة خلال الوديان الصغيرة إلى الوديان الكبيرة، ينهمر المطر باستمرار، وتعلوا المياه فى النهيرات والجداول فوق شطآنها، وتأكل ما حول جذور أشجار القطن وتسقطها، وتتدفق المياه الموحلة على جوانب الشطآن وتزحف فوقها حتى تفيض عليها، وتدخل الحقول والبساتين ومزارع القطن حيث تقف أعواده السوداء، الحقول الواطئة

تصبح بحيرات واسعة ورمادية، والمطر يضرب فوق صفحتها، ثم يعلو الماء إلى الطرق، فتتحرك السيارات ببطء، تشق المياه أمامها وتترك خلفها أثرًا من أوحال متحركة، وتئن الأرض تحت ضربات المطر وتزمجر الجداول تحت وطأة السيول المتدفقة.

عندما تبدأ الأمطار يتجمع المهاجرون فى خيامهم ويقولون: «ستنتهى حالاً»، ثم يتساءلون: «إلى متى يمكن أن تستمر؟».

وعندما تتكون البرك، يخرج الرجال بالجواريف فى المطر ويبنون سدودًا صغيرة حول الخيام، وتظل الأمطار تضرب قماش الخيام حتى تنفذ منه وتنهمر داخلها، ثم تنجرف السدود الصغيرة ويدخل الماء يبلل الفراش والبطاطين، ويجلس الناس فى ملابسهم مبتلة، يقيمون الصناديق ويصفون فوقها الألواح الخشبية ثم يجلسون ليلاً ونهارًا فوق هذه الألواح.

بجوار الخيام تقف السيارات القديمة، الماء يفسد الأسلاك والكاربراتير، وتقبع الخيام الرمادية الصغيرة فى قلب البحيرات، وأخيرًا يضطر الناس إلى الرحيل، عندئذ لا تدور السيارات لأن الأسلاك بها ماس، وحتى إذا دارت المحركات فالوحل الكثيف يحوط بالعجلات، ويخوض الناس على أقدامهم يحملون بطاطينهم بين أذرعهم، يخوضون وهم يحملون الأطفال ويحملون الطاعنين فى السن، وإذا ما وجدت حظيرة فوق أرض عالية، فإنها تمتلئ بالمرتعدين الضائعين.

ثم يذهب البعض إلى مكاتب المعونة... ويعودون آسفين إلى أهلهم.

هناك قواعد ـ لابد أن تقضى هنا عامًا كاملاً قبل أن تأخذ معونة، يقولون إن الحكومة ستقدم المساعدة، ولا يعرفون متى.

ويحل الفزع الأعظم تدريجيًا.لن يكون هناك أى نوع من أنواع العمل لمدة ثلاثة أشهر.

وفى الحظائر يجلس الناس معًا متزاحمين، يحل الفزع عليهم، وتصبح وجوههم رمادية من الخوف، الأطفال تبكى من الجوع، ولا يوجد طعام.

ثم يأتى المرض، الالتهاب الرئوى، والحصبة التى تزحف للعيون والآذان.

والأمطار لا تتوقف، والمياه تتدفق على الطريق لأن البرابخ لا تستطيع أن تصرفها كلها.

عندئذ تخرج من الخيام ومن الحظائر المزدحمة جماعات من الرجال الغارقين فى البلل، ملابسهم خرق رثة، أحذيتهم كتل من الطين، يخوضون فى الماء إلى المدن، إلى المحلات، ومكاتب المعونة، يتسولون الخبز، يتذللون ويستنجدون الخبز والمعونة، أو يحاولون السرقة والكذب، ومن وراء التسول والتذلل والاستجداء يبدأ الغضب اليائس الدفين فى التوقد، وفى المدن الصغيرة تتحول الشفقة على الرجال الغارقين فى البلل إلى غضب، والغضب من الناس الجوعى يتبدل إلى خوف منهم.

عندئذ يجند عمد المدن أفواجًا من الخفراء، وتسرع الأوامر فى طلب البنادق، والغاز المسيل للدموع والذخيرة، ثم يتجمع الرجال الجوعى فى الطرقات خلف المحال يتسولون الخبز، يستجدون الخضراوات المتعطنة، أو يسرقون إن أمكنهم.

وعلى أبواب عيادات الأطباء، رجال يدقون فى هوس، ولكن الأطباء مشغولون، ويأتى رجل حزين إلى أحد المحلات ويترك كلمة لحكيم الصحة، وحكيم الصحة ليس مشغولاً كالأطباء، وتأتى سيارته تخوض فى الوحل وتأخذ الميت.

والمطر ينهمر بلا توقف، والأنهار تنهدم جسورها فتغطى مياهها الأراضى.

وفى الزحام تحت السقائف، والرقاد على القش المبتل، يولد الجوع والخوف والغضب، عندئذ يخرج الفتيان لا لكى يتسولوا ولكن ليسرقوا. ويخرج الرجال واهنين يحاولون السرقة.

ويجند عمد المدن خفراء جددًا، ويطلبون بنادق جديدة، والناس المنعمون فى المنازل المحكمة تتملكهم الشفقة فى البداية ثم الضيق، وأخيرًا تتملكهم الكراهية للمهاجرين.

على القش المبتل فى الحظائر القديمة، تلد النساء اللاتى يلهثن من الالتهاب الرئوى، أطفالهن، ويتكور الطاعنون فى السن على أنفسهم فى الأركان ويموتون فى أماكنهم حتى لا يستطيع اللحّاد أن يفرد جثثهم، وفى الليل يذهب الرجال المفزوعون فى جسارة إلى حظائر الدجاج ويأخذون الدجاج المتصايح، فإذا ما أطلقت عليهم النار، لم يجروا ولكن يبتعدون خائضين فى الماء، فإذا ما أصيبوا، تهاووا فى الوحل منهكين.

توقف المطر، وتجمعت المياه فوق الحقول تعكس السماء الرمادية، ووشوشت المياه المتحركة فوق الأرض، ويخرج الرجال من الحظائر ومن السقائف يتربعون ليتفرجوا على الأرض الغارقة، يجلسون فى صمت، وفى بعض الأحيان يتكلمون بهدوء.

لا عمل حتى الربيع، لا عمل.

وحيث لا عمل - فلا نقود ولا طعام.

الرجل الذى يملك زوجًا من الخيول، يستخدمها فى الحرث والزرع والحصاد لا يمكن أن يتركهما يموتان من الجوع عندما لا يوجد عمل.

إنها خيول، أما نحن، فنحن البشر.

وتقف النسوة يراقبن الرجال لترى ما إذا كان الانهيار قد حل فى النهاية، يقفن فى صمت ويرقبن، وعندما كان عدد من الرجال يتجمع معًا، يزايل

الخوف وجوههم ويحل محله الغضب، وتتنهد النسوة فى ارتياح، لأنهن كن يعرفن ألا بأس عليهم حينذاك، لم يحل الانهيار بعد، والانهيار لا يأتى طالما يمكن أن يتحول الخوف إلى غضب.

برزت أطراف العشب الدقيقة من سطح التربة، وفى أيام قليلة اكتست التلال بلون أخضر فاتح مع بدء العام الجديد.

الفصل الثلاثون

تجمعت برك المياه فى مخيم صناديق السيارات، وطرطش المطر فى الوحل، وزحف النهر الصغير تدريجيًا نحو الأرض المسطحة الواطئة حيث أقيمت الصناديق.

فى اليوم الثانى للأمطار أنزل «آل» المشمع من منتصف السيارة وحمله خارجًا ونشره فوق مقدمة اللورى، ثم عاد إلى السيارة وجلس على المرتبة، والآن حيث لم يعد ثمة حاجز أصبحت العائلتان فى السيارة عائلة واحدة، الرجال يجلسون معًا وقد تدهورت معنوياتهم، حافظت الأم على نار صغيرة موقدة على الدوام فى الفرن، حافظت على بعض الأغصان المشتعلة، واقتصدت فى استخدام أخشابها، وانهمرت الأمطار على سقف صندوق السيارة المسطح.

وفى اليوم الثالث ازداد قلق عائلة وينرايت، وقالت مسز وينرايت: «يبدو أنه من الأفضل أن نذهب».

وحاولت الأم أن تبقيهم: «إلى أين يمكن أن تذهبوا وتضمنوا سقفًا سليمًا؟».

«لا أعرف، ولكن عندى إحساس أننا يجب أن نذهب» وتناقشا معًا والأم تراقب «آل».

حاولت «روثى» و«وينفلد» أن يلعبا بعض الوقت ولكنهما لم يلبثا أن ركنا إلى خمول كئيب، ودقت الأمطار منهمرة فوق السقف.

فى اليوم الثالث علا صوت النهر فوق صوت المطر المنهمر، وقف الأب والعم «جون» فى الباب المفتوح ونظرا إلى النهر الذى كانت مياهه تعلو باستمرار، ووصل الماء من طرفى المخيم حتى الطريق تقريبًا، وأصبح المخيم معزولاً، بحيث كان يحده جسر الطريق من الخلف، والنهر يكمل الحلقة من الأمام، وقال الأب: «كيف ترى الأمر يا «جون»؟ يبدو لى أنه لو ارتفعت هذه الموجة فستغرقنا».

وفتح العم «جون» فمه ودلك لحيته النامية وقال: «أيوه، يبدو ذلك».

رقدت «روزا شارن» مصابة بنزلة برد شديدة وقد احتقن وجهها ولمعت عيناها من الحمى، وجلست الأم بجوارها ممسكة بكوب من اللبن الساخن وقالت: «هيا، خذى هذا، وضعت فيه شحم خنزير لتقويته، هيا اشربيه».

هزت «روزا شارن» رأسها بضعف وقالت: «لست جائعة».

رسم الأب خطًا منحنيًا بإصبعه فى الهواء وقال: «لو أننا جميعًا أخذنا جواريفنا وأقمنا جسرًا، ربما منعنا ذلك، فقط لا بد أن يمتد من هنا إلى هناك».

وافقه العم «جون» قائلاً: «أيوه، ربما، لا أعرف ما إذا كان الرجال الآخرون سيوافقون، ربما فضلوا أن يذهبوا إلى مكان آخر».

فأصر الأب: «ولكن هذه السيارات جافة لا ينفذ الماء إلى داخلها لا يمكن أن نجد مكانًا جافًا مثل هذا، انتظر». والتقط من كومة الشجيرات فى السيارة غصنًا، وجرى نازلاً بالسقالة وخاض فى الوحل إلى النهر، ثم ثبت الغصن على حافة الماء المتدفق وعاد فى لحظة إلى السيارة وقال: «يا يسوع، لقد ابتللت بسرعة».

ثبت الرجلان أبصارهما على الغصن الصغير على حافة الماء، ورأوا الماء يتحرك، يعلو حوله ببطء ويزحف على الجسر، تربع الأب على المدخل وقال: «إنها تعلو بسرعة، أعتقد أنه يجب أن نتكلم مع الرجال الآخرين لنرى ما إذا كانوا سيساعدوننا فى إقامة الجسر وإلا فعليهم أن يذهبوا من هنا». نظر الأب عبر السيارة الطويلة إلى ناحية وينرايت. كان «آل» معهم جالسًا بجوار «آجى». ذهب إليهم الأب وقال: «الماء يرتفع، ما رأيكم لو أقمنا جسرًا، يمكننا أن نقيمه لو اشترك كل إنسان فى العمل».

قال وينرايت: «كنا نتكلم فى الموضوع الآن، يبدو أنه يجب علينا أن نذهب من هنا». قال الأب: «لقد تجولت فى هذه الأنحاء، وأنت تعلم أننا لن نجد مكانًا جافًا لنقيم فيه».

«أعرف، ولكن فى نفس الوقت...».

قال «آل»: «أبى، إذا ذهبوا فسأذهب معهم».

جفل الأب وقال: «لا يمكنك يا «آل»، السيارة.. ليس فينا من يصلح لقيادتها».

«لا يهمنى، لابد أن نبقى معًا أنا وآجى».

قال الأب: «والآن انتظر، تعال هنا». نهض و«وينرايت» و«آل» واقتربا من الباب، قال الأب مشيرًا إلى الخارج: «انظروا، مجرد جسر من هنا لهناك». نظر إلى عصاته كانت المياه تدوم حولها الآن وقد زحفت فوق الجسر.

فاعترض وينرايت: «سيتطلب عملاً كثيرًا، ومع ذلك ربما ينهار».

«حسنًا، نحن هنا لا نفعل شيئًا، كأننا كنا نعمل، لن نجد لأنفسنا مكانًا مثل هذا لنعيش فيه، تعال، لنذهب الآن ونتكلم مع الآخرين، يمكننا أن نقيمه لو شارك كل إنسان».

قال «آل»: «إذا ذهبت «آجى»، فسأذهب أنا أيضًا».

قال الأب: «اسمع يا «آل»، إذا لم يحفر معنا هؤلاء الرجال، عندئذ لابد أن نذهب جميعًا، تعالوا، هيا لنتحدث معهم». أحنوا أكتافهم وجروا نازلين السقالة إلى السيارة التالية ثم صعدوا إلى بابها المفتوح.

وقفت الأم بجوار الفرن تغذى نارها الضعيفة بقليل من قطع الخشب، اقتربت منها «روثى» وقالت بصوت باك: «أنا جائعة».

قالت الأم: «لا، لست جائعة، لقد أكلت ما يكفى من الثريد».

«يا ريت عندى علبة فشار مسكر، ليس هناك ما أفعله، لا توجد أى تسلية».

قالت الأم: «ستكون هناك تسلية، انتظرى فقط ستأتى التسلية حالاً وسنحصل على منزل وأرض حالاً».

قالت «روثى»: «يا ريت كان عندنا كلب».

«سيكون عندنا كلب، وقطة أيضًا».

«قطة صفراء؟».

فتوسلت إليها الأم قائلة: «لا تضايقينى، لا تعذبينى الآن يا «روثى»، «روزا شارن» مريضة، كونى بنت طيبة ولو قليلاً، ستكون هناك تسلية»، وابتعدت «روثى» تهيم شاكية.

من مرتبة «روزا شارن» ارتفعت صيحة حادة سريعة توقفت فى منتصفها فاستدارت الأم بسرعة وذهبت إليها، كانت «روزا شارن» تكتم أنفاسها وقد امتلأت عيناها بالفزع.

صاحت الأم: «ما الخبر؟». أخرجت الفتاة نفسها ثم كتمته ثانية وفجأة

أدخلت الأم يدها تحت الأغطية ثم وقفت ونادت: «مسز وينرايت».

جاءت المرأة القصيرة البدينة عبر السيارة: «نعم».

أشارت الأم إلى وجه «روزا شارن»: «انظرى». كانت قد أطلقت أسنانها على شفتها السفلى وجبهتها تنضح بالعرق وعيناها تلمعان بالفزع.

قالت الأم: «أعتقد أنه المخاض، لقد جاء مبكرًا».

أطلقت الفتاة تنهيدة طويلة واسترخت، تركت شفتها وأغلقت عيونها وانحنت مسز «وينرايت» فوقها وسألتها.

«هل يتملكك الألم فى كل جسدك، بسرعة-؟ أفيقى وجاوبينى». أومأت «روزا شارن» برأسها فى ضعف، والتفتت مسز و«وينرايت» إلى الأم وقالت: «نعم، لقد جاءها المخاض، أتقولين إنه جاء مبكرًا؟».

«ربما عجلت به الحمى».

«حسنًا، لا بد أن تقف على قدميها وتتمشى».

قالت الأم: «لا تستطيع، ليس بها قوة».

«حسنًا، من الضرورى ذلك» وازدادت مسز و«وينرايت» هدوءًا وصرامة، مبدية قدرتها وقالت: «لقد ساعدت فى حالات كثيرة، تعالى، لنغلق هذا الباب تقريبًا ونمنع تيار الهواء، دفعت المرأتان معًا الباب المنزلق الثقيل، نقلناه إلى الأمام دفعة دفعة حتى بقيت مسافة قدم واحدة مفتوحة، قالت مسز وينرايت: «سآتى بمصباحنا أيضًا»، كان وجهها أرجوانيًا من فرط الانفعال وصاحت: «آجى» اعتنى بهذين الطفلين. فأومأت الأم برأسها «هذا صواب، «روزى»، اذهبى أنت و«وينفلد» مع آجى، هيا الآن».

فسألا: «لماذا؟».

«لأنه يجب أن تذهبا، «روزا شارن» ستلد طفلاً».

«أريد أن أتفرج يا ماما، أرجوك اسمحى لى».

«روثى»، اذهبى الآن، اذهبى بسرعة، لم يكن مسموحًا بالنقاش إزاء مثل هذه اللهجة. مشت «روثى» و«وينفلد» على مضض عبر السيارة، أوقدت الأم فانوسًا وأحضرت مسز و«وينرايت» مصباحها ووضعته على الأرض، فأضاء لهبه الكبير الدائرى صندوق السيارة بشدة.

وقفت «روثى» و«وينفلد» خلف كومة الأغصان الجافة وحملقا خلالها.

قالت «روثى» برفق: «ستلد طفلاً وسنرى، لا تحدث صوتًا الآن، لن تسمح لنا ماما بالفرجة، إذا نظرت فى هذا الاتجاه أنحن خلف الأغصان الجافة حتى يمكننا أن نرى».

قال «وينفلد»: «قليل من الأطفال من رأى هذا».

وقالت «روثى» فى افتخار: «لم يرها أحد من الأطفال، نحن فقط».

وهناك بجوار المرتبة وفى ضوء المصباح اللامع، عقدت الأم ومسز و«وينرايت» مؤتمرًا صغيرًا، علت أصواتهما قليلاً فوق صوت المطر المنهمر وأخرجت مسز و«وينرايت» سكينة خضار من جيب مريلتها ووضعتها تحت المرتبة وقالت معتذرة: «ربما لم تكن لها فائدة، ولكن أهلنا يفعلون ذلك على الدوام لا تضر على أى حال».

أومأت الأم قائلة: «نحن نستعمل سن المحراث، أعتقد أن أى شىء حاد ينفع طالما يخفف آلام الولادة، أرجو ألا يطول بها الوقت».

«أتشعرين بخير الآن؟».

فأومأت «روزا شارن» بعصبية «هل سيأتى؟».

قالت الأم: «بالتأكيد، سيكون لك طفل جميل، لا بد أن تساعدينا أتشعرين أن فى إمكانك أن تنهضى وتمشى؟».

«سأحاول».

قالت مسز وينرايت: «إنها فتاة طيبة، إنها فتاة طيبة، سنساعدك يا حبيبتى، سنمشى معك». وساعداها فى الوقوف على قدميها وشبكا بطانية على كتفها ثم أمسكت الأم بإحدى ذراعيها من جانب ومسز و«وينرايت» من الجانب الآخر، مشوا جميعًا إلى كومة الأغصان وعادا بها، مرة ومرات والمطر يدق عاليًا فوق السطح.

وقفت «روثى» و«وينفلد» يرقبان فى لهفة، سأل «وينفلد»: «متى ستلد؟».

«هس، لا تلفت أنظارهم، لن يسمحوا لنا بالفرجة».

ولحقت بهما «آجى» خلف كومة الأغصان وقد لمع وجهها النحيل وشعرها الأصفر فى ضوء المصباح، كانت أنفها طويلة وحادة، وظل رأسها على الجدار.

وهمست «روثى»: «هل رأيت طفلاً يولد من قبل؟».

فقالت «آجى»: «بالتأكيد».

«حسنًا، متى ستلده؟».

«أوه بعد قليل».

«حسنًا، كم من الوقت؟».

«ربما لا تلد حتى غدًا صباحًا».

قالت «روثى»: «اخص، لا فائدة من الفرجة الآن إذًا، أوه.. انظرى». كانت المرأتان قد توقفتا وتصلبت «روزا شارن» وأنتَّ من الألم، أرقدتاها

على المرتبة وجففتا جبهتها بينما هى تزوم وتطبق قبضتيها، وأخذت الأم تكلمها برفق، قالت: «على مهلك، سيكون كل شىء على ما يرام ـ على ما يرام. طبقى يديك، والآن هيا، عضى على شفتيك، هذا حسن ـ هذا حسن». ومرت موجة الألم، وتركتاها تستريح برهة ثم ساعدتاها على الوقوف ثانية وعادت الثلاث يمشين جيئة وذهابًا، جيئة وذهابًا بين آلام نوبات المخاض.

أدخل الأب رأسه من الفتحة الضيقة وقبعته تقطر ماء وسأل: «لماذا أغلقتم الباب؟» ثم رأى النسوة يمشين.

فقالت الأم: «جاء وقتها».

«إذن، فلن نستطيع الذهاب، حتى لو أردنا».

«لا».

«إذًا لا بد أن نقيم هذا الجسر».

«لابد من ذلك».

خوض الأب فى الوحل حتى النهر، كانت عصاته قد غاصت فى الماء أربع بوصات، ووقف عشرون رجلاً تحت المطر، صاح الأب: «لابد أن نقيمه، ابنتى جاءها المخاض». وتجمع الرجال حوله.

«طفل؟».

«أيوه، لا يمكننا أن نذهب الآن».

فقال رجل طويل: «ليس طفلنا، يمكننا أن نذهب نحن».

فقال الأب: «بالتأكيد، يمكنك أن تذهب، تفضل لن يمنعك أحد، هناك ثمانية جواريف فقط» وأسرع إلى أكثر مواضع الجسر انخفاضًا

ودفع بجاروفه فى الوحل، ارتفع الجاروف الممتلئ محدثًا صوتًا كمن يلعق الأرض، ودفعه ثانية وألقى بالوحل فى المكانا الواطئ من جسر النهر، واصطف بجواره الرجال الآخرون يكومون الوحل فى جسر طويل، وهؤلاء الذين ليس معهم جواريف يقطعون أغصان الصفصاف الخضراء ويجدلونها على شكل حصر ثم يدقونها بأرجلهم فى الجسر، وتملك الرجال حماس للعمل، حماس للمعركة وعندما يلقى أحدهم بجاروفه يلتقطه آخر، خلعوا قبعاتهم ومعاطفهم والتصقت قمصانهم وسراويلهم بشدة إلى أجسادهم وأصبحت أحذيتهم كتلاً لا شكل لها من الطين، وجاءت صرخة حادة من سيارة «جود». توقف الرجال وأنصتوا فى قلق ثم اندفعوا إلى العمل ثانية، وامتد الجسر الصغير حتى تقابل مع جسر الطريق العام من طرفيه، كان التعب قد حل بهم الآن، والجواريف تتحرك بشكل أبطأ، والنهر يعلو ببطء وطفت فوق أول موضع ألقى فيه الطين.

ضحك الأب فى انتصار وصاح: «كانت المياه ستغمره لو لم نبن هذا الجسر».

علا النهر ببطء بجوار الحائط الجديد وهو يمزق حصيرة الصفصاف، وصاح الأب: «أعلى من هذا، لابد أن نقيمها أعلى من هذا».

وحل المساء، واستمر العمل، وأصبح الرجال فى غاية الإنهاك، وجوههم جامدة وميتة، كانوا يعملون بلا وعى كالآلات، وعندما حل الظلام وضعت النسوة الفوانيس على أبواب السيارات واحتفظن بأوانى القهوة فى متناول الأيدى، وجرت النسوة واحدة بعد الأخرى إلى سيارة «جود» وانزلقن داخلها.

كانت نوبات آلام الولادة تتلاحق الآن، بين كل منها والتى تليها عشرون دقيقة، وفقدت «روزا شارن» قدرتها على المقاومة، كانت تصرخ بوحشية

تحت وطأة الآلام القاسية، والجارات ينظرن لها ويربتن عليها برقة ثم يعدن إلى سياراتهن.

كانت الأم قد أوقدت نارًا قوية ووضعت كل آنيتها مملوءة بالماء فوق الفرن لتسخن، وبين الحين والحين كان الأب يطل من باب السيارة ويسأل: «هل كل شيء على ما يرام؟».

وتجيبه الأم مطمئنة: «أيوه، أعتقد ذلك».

وعندما ازدادت العتمة، أتى أحدهم ببطارية لكى يعملوا على ضوئها، واندفع العم «جون» إلى العمل يقذف بالطين فوق قمة الجدار.

قال الأب: «على مهلك، ستقتل نفسك».

«لا أستطيع، لا أستطيع تحمل هذا الصراخ، إنه مثل... مثل... عندما...».

قال الأب: «أعرف، ولكن اشتغل على مهلك».

فدمدم العم «جـون»: «سأهرب، يا إلهى! ولابد أن أعمل أو سأهرب».

وتركه الأب والتفت وسأل: «إلى أين وصلت العلامة؟».

ألقى الرجل الذى يحمل البطارية الضوء على العصا، كانت الأمطار تبدو بيضاء فى الضياء: «المياه ترتفع».

قال الأب: «سترتفع ببطء الآن. ستفيض بعيدًا عن هنا كثيرًا فى الجانب الآخر».

«إنها تعلو مع ذلك».

ملأت النسوة أوانى القهوة وأخرجنها مرة أخرى، زحف الليل وتباطأت

حركة الرجال وهم يرفعون أقدامهم الثقيلة كخيول الجر، مزيد من الطين على الجسر الصغير، مزيد من الصفصاف المجدول، الأمطار تهطل بلا توقف، وعندما دار ضوء البطارية على الوجوه كانت العيون محملقة وعضلات أصداغهم مرتخية.

واستمرت الصرخات وقتًا طويلاً من السيارة، وأخيرًا سكتت.

قال الأب: «ستنادينى الأم إذا تم الميلاد». واستمر ينقل الوحل فى صمت كئيب.

كان النهر يدوم ويهدر الجسر، ثم جاء تشقق وانهيار من أعلى النهر وأظهر ضوء البطارية شجرة قطن كبيرة تميل، ووقف الرجال يرقبون، مالت أغصان الشجرة وغطست فى الماء وتحركت مع التيار بينما النهر يجرف الطين كاشفًا جذوره االصغيرة، وانخلعت الشجرة وانسابت بطيئة فى النهر، وقف الرجال المنهكون يرقبونها وقد فغروا أفواههم، تحركت الشجرة ببطء مع التيار ثم تعلق أحد الغصون بجذع شجرة، اشتبك به، وببطء شديد دارت جذور الشجرة حول الجذع وانغرست فى الجسر الجديد، وتجمعت المياه خلفه وتحركت الشجرة ومزقت الجسر وانساب خلاله تيار صغير من الماء، ألقى الأب بنفسه إلى الأمام وهو يدفع الطين فى الشرخ، تجمعت المياه خلف الشجرة ثم جرفت المياه الجسر بسرعة وغطت كعوب الرجال ووصلت حتى ركبهم، وتفرق الرجال وجروا، وانساب التيار يسر فوق الأرض المسطحة تحت المنازل والسيارات.

رأى العم «جون» الماء يقتحم الجسر، كان فى إمكانه فى عتمة الليل أن يراه، وجذبه ثقله إلى الأرض دون أن يستطيع التحكم فى نفسه، جثى على ركبتيه والماء المتدفق يدوم حول صدره.

رآه الأب وهو يسقط فصاح: «هاى ـ ما الخبر؟». وأوقفه على قدميه، «أأنت مريض؟ تعال، السيارات عالية».

واستجمع العم «جون» قواه وقال فى اعتذار: «لا أعرف، لقد تهاوت ساقاى، تهاوت فقط»، وساعده الأب ومشيا ناحية السيارات.

عندما انجرف السد الصغير استدار «آل» وانطلق يعدو، كانت قدماه ثقيلتين وهما تتحركان، والماء يعلو حتى منتصف ساقيه، عندما وصل إلى اللورى، نزع المشمع من مقدمتها وقفز داخلها، داس على المارش ودار المارش مرات ولكن المحرك لم يدر، أدار المارش بشدة، فأدارت البطارية المحرك المبتل فى بطء متزايد، مرة بعد مرة، حمل «آل» البطارية إلى أقصى طاقتها، وتلمس المانيفلا تحت المقعد وقفز خارجًا، كانت المياه أعلى من الرفرف، جرى إلى المقدمة، وكانت فتحة المانيفلا تحت الماء الآن. ركب المانيفلا بسرعة وأدارها مرات ويده القابضة عليها تطرطش فى الماء المنساب ببطء مع كل لفة وأخيرًا زايله اندفاعه، لقد امتلأ المحرك بالماء وفسدت البطارية، وفوق قطعة أرض أعلى قليلاً دارت سيارتان وأنارتا أضواءهما، تخبطا فى الوحل وغاصت عجلاتهما حتى أوقف سائقاهما المحركين، وجلسا بلا حركة يشخصان فى أشعة الأنوار الأمامية، كانت الأمطار تهطل فى خيوط بيضاء خلال الضوء.

دار «آل» ببطء حول السيارة ثم دخل وقفل التوصيلة.

عندما وصل الأب إلى السقالة وجد طرفها السفلى عائمًا، أنزلها بقدمه فى الطين تحت الماء وسأل: «أظن أنك تستطيع صعودها بسلام يا «جون»؟».

«سأكون بخير، استمر فقط».

تسلق الأب السقالة بحذر وحشر نفسه داخلاً من الفتحة الضيقة، كان المصباحان قد خفض ضياؤهما وجلست الأم على المرتبة بجوار «روزا شارن» وهى تروح عن وجهها بقطعة من الورق المقوى، دفعت

مسز و«وينرايت» بأغصان جافة فى الفرن، فتسرب دخان رطب من حوله فتحاته وملأ السيارة برائحة الورق المحترق، نظرت الأم إلى الأب عندما دخل ثم أرخت بصرها بسرعة.

سأل الأب: «كيف... حالها؟».

لم ترفع بصرها إليه وقالت: «لا بأس فيما أعتقد، إنها نائمة».

كان الجو معبقًا يفوح برائحة الولادة، وتشعلق العم «جون» داخلاً واستند واقفًا على جانب السيارة. تركت مسز و«وينرايت» عملها وجاءت إلى الأب وجذبته من مرفقه ناحية ركن السيارة، التقطت فانوسًا ورفعته فوق صندوق تفاح فى الركن، وهناك فوق إحدى الجرائد، رقدت مومياء صغيرة زرقاء متغضنة.

قالت مسز وينرايت: «لم يتنفس أبدًا، لم يعش أبدًا».

استدار العم «جون» وذهب متثاقلاً متعبًا إلى الجانب المظلم من السيارة، كانت الأمطار تطرق بخفة الآن على السقف، حتى أنهم كانوا يستطيعون أن يسمعوا أنفاس العم «جون» المتعبة فى الظلام.

نظر الأب إلى مسز و«وينرايت» ثم أخذ منها الفانوس وأنزله على الأرض، كانت «روثى» و«وينفلد» نائمين على مرتبتهما وقد غطيا عيونهما بأذرعتهما ليبعدا عنها الضوء.

مشى الأب ببطء إلى مرتبة «روزا شارن»، حاول أن يتربع جالسًا ولكن ساقيه كانتا منهكتين، فركع إلى جوارها على ركبتيه، روحت الأم بقطعة الورق المقوى المربعة، نظرت إلى الأب لحظة وكانت عيناها واسعتين شاخصتين كعينى السائر فى نومه قال الأب: «لقد... فعلنا.. كل ما فى وسعنا».

«عارفة».

«اشتغلنا طول الليل ثم قطعت إحدى الأشجار الجسر».

«عارفة».

«يمكنك أن تسمعي الماء تحت السيارة».

«عارفة... سمعتها».

«هل تظنين أنها ستكون بخير».

«لا أعرف».

«هل كان في إمكاننا أن نفعل أي شيء؟».

كانت شفتاها باهتتين جافتين «لا، لقد عملنا آخر ما في جهدنا».

«اشتغلنا حتى سقطنا من التعب، وإحدى الأشجار، والمطر يوقع بعضها». نظرت الأم إلى السقف ثم إلى أسفل ثانية واسترسل الأب مدفوعًا إلى الكلام: «لا أعرف إلى أي مدى ستعلو المياه ربما تغرق السيارة».

«أعرف».

«أنت تعرفين كل شيء».

كانت صامتة ويدها تهبط وتعلو بقطعة الورق المقوى.

عاد يسألها بإلحاح: «هل قصرنا في شيء؟ هل هناك ما كان يمكن أن نفعله؟».

نظرت إليه الأم باستغراب، وانفرجت شفتاها البيضاويتان عن ابتسامة حالمة عطوفة «ليس عليك أي لوم، هس، ستكون على ما يرام، سيتغير كل شيء».

«ربما المياه...؟ ربما كان لابد أن نرحل».

«عندما يحين وقت الرحيل... سنرحل، سنفعل ما يجب أن نفعله. والآن اسكت ربما أيقظتها».

كسرت مسز و«وينرايت» الأغصان ودفعت بها إلى النار المدخنة الرطيبة، ومن الخارج جاء صوت غاضب: «سأدخل وأرى «جود» ابن الزانية بنفسى». وعندئذ، ومن خارج الباب مباشرة جاء صوت «آل»: «إلى أين أنت ذاهب؟».

«سأدخل وأرى «جود» ابن الزانية».

«لا، لن تدخل، ما حكايتك؟».

«لو لم تكن لديه هذه الفكرة الغبية عن الجسر، كنا قد ذهبنا، والآن، تعطلت السيارة».

«هل تظن أن سيارتنا تدور على الطريق؟».

«سأدخل».

فجاء صوت «آل» باردًا: «عليك أن تقاتل لكى تشق طريقك إلى الداخل».

وقف الأب ببطء على قدميه وذهب إلى الباب: «حسنًا يا «آل»، ها أنذا، لا بأس يا «آل»» ثم نزل الأب ببطء على السقالة وسمعته الأم يقول: «لدينا مريض، تعال هناك».

كانت الأمطار تتناثر برفق فوق السقف الآن، يجرفها نسيم يهب من جديد فى موجات، جاءت مسز و«وينرايت» من ناحية الفرن ونظرت إلى «روزا شارن»: «الفجر سيبزغ حالاً يا سيدتى، لم لا تنامى قليلاً؟ سأجلس بجوارها».

قالت الأم: «لا، لست متعبة».

قالت مسز وينرايت: «لا تكابرى، تعالى ارقدى قليلاً».

روحت الأم الهواء ببطء بقطعة الورق المقوى وقالت: «لقد كنت ودودة معنا، نحن نشكرك».

ابتسمت المرأة البدينة: «لا داعى للشكر، كلنا فى عربة واحدة، افرضى أننا كنا فى مكانك... كنت ستساعديننا».

قالت الأم: «نعم كنا سنفعل».

«أو أى إنسان آخر».

«أو أى إنسان آخر، فيما مضى كانت الأسرة تأتى فى المقام الأول ولكن الأمر ليس كذلك الآن، يهمنا أمر أى إنسان، كلما ازدادت حالتنا سوءًا اعتدنا ذلك».

«لم يكن فى إمكاننا أن ننقذه».

قالت الأم: «عارفة».

تنهدت «روثى» بعمق ورفعت ذراعها عن عينيها، ونظرت إلى المصباح لحظة دون أن ترى شيئًا، ثم أدارت رأسها ونظرت إلى الأم وسألت «هل ولد.. هل خرج الطفل؟».

التقطت مسز و«وينرايت» كيسًا وفردته فوق صندوق التفاح فى الركن.

سألت «روثى»: «أين الطفل؟».

بللت الأم شفتيها: «لا يوجد طفل، لم يكن هناك طفل على الإطلاق، كنا مخطئين».

فتثاءبت «روثى» وقالت: «اخص، وددت لو كان هناك طفل».

جلست مسز و«وينرايت» بجوار الأم وأخذت منها قطعة الورق المقوى ورَوحت بها في الهواء.. طوت الأم يديها في حجرها ولم تغادر عيناها المتعبتان وجه «روزا شارن» التي نامت من الإرهاق، قالت مسز وينرايت: «هيا، ارقدي فقط، ستكونين بجوارها مباشرة، بل إنك قد تستيقظين إذا أخذت نفسًا عميقًا».

«لا بأس، سأرقد»، وتمددت الأم على المرتبة بجوار الفتاة النائمة وجلست مسز و«وينرايت» على الأرض تراقبهما.

جلس الأب و«آل» والعم «جون» عند مدخل السيارة يرقبون الفجر الفضي الزاحف، وتوقفت الأمطار، لكن السماء كانت ملبدة بالغيوم الكثيفة، وعندما جاء الضياء انعكس فوق سطح الماء، كان في إمكان الرجال أن يروا النهر وهو ينساب مسرعًا يحمل معه أغصانًا سوداء، وصناديق وألواحًا خشبية، والمياه تدوم على السهل الذي تقف عليه صناديق السيارات... لم يكن هناك أثر باق للجسر، توقف التيار فوق السهل وعلى حواف الفيضان تجمع الزبد الأصفر، مال الأب خارج الباب ووضع غصنًا على السقالة، فوق مستوى الماء مباشرة، وراقب الرجال الماء وهو يزحف إلى الغصن ببطء ويرفعه برفق ثم يحمله بعيدًا. ووضع الأب غصنًا آخر فوق مستوى الماء ببوصة واحدة ثم جلس يلاحظه ثانية.

سأل «آل»: «أتعتقد أنها ستدخل السيارة؟».

«لا أعرف، هناك كمية كبيرة من الماء لم تنزل من التلال بعد، لا أعرف ربما بدأت تمطر ثانية».

قال «آل»: «كنت أفكر، إذا ما دخلت فسيبتل كل شيء».

«أيوه».

«حسنًا، إنها لن ترتفع إلى أكثر من ثلاث أو أربع أقدام فى السيارة لأنها ستعلو على الطريق وتنتشر هناك أولاً».

فسأله الأب: «كيف عرفت؟».

«ألقيت عليها نظرة من آخر السيارة». ثم فرد يده. «عندما ترتفع إلى هذا المد ستدخل».

قال الأب: «حسنًا، وماذا فى ذلك، لن نكون هنا».

«لا بد أن نكون هنا، اللورى هنا، وسيمضى أسبوع قبل أن ننزح الماء خارجها عندما يهبط الفيضان».

«حسنًا، ما هى فكرتك؟».

«يمكننا أن ننزع جوانب اللورى ونبنى مصطبة فى الداخل هنا، نكوم عليها متاعنا، ونجلس عليها».

«إيه؟ وكيف نطبخ؟ وكيف نأكل؟».

«ولكن هذا، سيحفظ متاعنا جافًا».

اشتد الضياء فى الخارج، ضياء رمادى معدنى، طفا الغصن الصغير الثانى بعيدًا عن السقالة، ووضع الأب واحدة أخرى على مستوى أعلى وقال: «إنها ترتفع بالتأكيد، أعتقد أنه من المستحسن أن ننفذ ما تقول».

تقلبت الأم قلقة فى نومها ثم فتحت عينيها بشدة وصاحت محذرة بصوت عال: «توم، أوه، توم، توم».

وقالت مسز «وينرايت» شيئًا لتهدئها، فطرفت الأم عينيها وأغمضتهما مرة أخرى، وتلوت تحت وطأة رؤياها، نهضت مسز «وينرايت» ومشت إلى الباب وقالت بصوت خافت: «هاى، يبدو أننا لن نرحل قريبًا». ثم أشارت

إلى ركن السيارة حيث صندوق التفاح. «لا فائدة من هذا، فهو لا يسبب إلا المتاعب والأسى، ألا يمكنكم يا رجال أن تأخذوه خارجًا وتدفنوه؟».

صمت الرجال، وقال الأب أخيرًا: «أعتقد أنك على صواب، إنه لا يسبب إلا الأسى ولكن دفنه خروج على القانون».

«هناك أشياء كثيرة خارجة على القانون لا مفر من عملها».

«أيوه».

قال «آل»: «يجب أن ننزع جوانب اللورى قبل أن ترتفع المياه أكثر من ذلك».

التفت الأب إلى العم (جون): «هل يمكن أن تأخذه وتدفنه بينما أدخل أنا و«آل» هذه العوارض فى الداخل؟».

قال العم «جون» فى كآبة: «لماذا يجب علىّ أنا أن أفعل ذلك؟ لماذا لا تفعلوا ذلك أنتم؟ لا أحب ذلك». ثم استطرد قائلاً: «بالتأكيد، سأدفنه، بالتأكيد سأدفنه، هيا، اعطه لى».

قالت مسز وينرايت: «لا توقظهما». وأحضرت صندوق التفاح إلى مدخل الباب وفردت الكيس برفق فوقه.

قال الأب: «الجاروف مركون وراءك مباشرة».

أخذ العم «جون» الجاروف فى إحدى يديه، وانزلق خارجًا من الباب فى الماء الذى يتحرك ببطء فارتفع حتى وسطه تقريبًا قبل أن يلمس القاع، ثم استدار وأخذ صندوق التفاح تحت ذراعه الأخرى.

قال الأب: «هيا يا «آل»، دعنا نأتى بالعوارض إلى الداخل».

خوض العم «جون» فى ضوء الفجر الرمادى حول مؤخرة السيارة، ومر

باللورى الخاص بالعائلة، ثم صعد على الجسر الزلق إلى الطريق العام، مشى على الطريق وجاوز المسطح المقام عليه مخيم صناديق السيارات حتى جاء إلى مكان كان النهر الهادر يجرى ملاصقًا للطريق عنده، وحيث أشجار الصفصاف تنمو على جانبى الطريق، وضع جاروفه على الأرض وامسك بالصندوق أمامه، وخطا خلال الشجيرات حتى وصل إلى حافة النهر السريع، وقف فترة يراقب الدوامات التى تمر به تاركة زبدًا أصفر بين جذوع أشجار الصفصاف، أمسك بصندوق التفاح على صدره ثم مال إلى الأمام ووضع الصندوق فى النهر وثبته فى مكانه بيده.

قال بحدة ومرارة: «اذهب واحك لهم، اذهب إلى الشارع واحك لهم، هذه هى الطريقة التى يمكنك أن تتكلم بها، أنا لا أعرف حتى إذا كنت ولدًا أو بنتًا ولن أحاول أن أعرف، اذهب الآن وارقد فى الشارع، ربما يدركون عندئذ». ووجه الصندوق برقة فى قلب التيار ثم تركه، استقر الصندوق على الماء برهة، ثم تخبط يمينًا ويسارًا ودار حول نفسه ثم انقلب ببطء، طفا الكيس وحيدًا، أما الصندوق الذى أحدق به التيار فقد طفا مبتعدًا بسرعة، مختفيًا عن الأنظار خلف الشجيرات، سحب العم «جون» الجاروف وعاد مسرعًا إلى صناديق السيارات، اندفع نازلاً فى الماء وخوض إلى اللورى حيث كان الأب و«آل» ينزلان معًا العوارض المستطيلة.

نظر الأب إليه: «هل انتهيت منه؟».

«أيوه».

قال الأب: «حسنًا، اسمع إن ساعدت «آل» فسأذهب إلى المحل وأحضر شيئًا لنأكله».

قال «آل»: «احضر بعضًا من لحم الخنزير المملح، أريد بعض اللحم».

قال الأب: «حاضر»، وقفز من اللورى وحل العم «جون» محله، عندما دفعوا بالعوارض من باب السيارة استيقظت الأم وجلست: «ماذا تفعلون؟».

«سنقيم هنا مكانًا يقينا من البلل».

فسألت الأم: «لماذا؟ إن الماء لا يصل هنا».

«لن يستمر الحال كذلك، المياه مازالت ترتفع».

وجاهدت الأم ووقفت على قدميها: «لابد أن نمضى من هنا».

قال «آل»: «لا يمكن، كل متاعنا هنا، اللورى هنا، كل شىء نملكه».

«أين الأب؟».

«ذهب ليحضر شيئًا للإفطار».

نظرت الأم إلى المياه، لم يكن يفصلها عن الأرضية إلا ست بوصات الآن، عادت إلى المرتبة ونظرت إلى «روزا شارن» فحملقت الفتاة فيها.

سألتها الأم: «كيف تشعرين الآن؟».

«متعبة، متعبة جدًا فقط».

«سنعطيك بعض ما تفطرين به الآن».

«لست جائعة».

اقتربت مسز و«وينرايت» من الأم: «إنها تبدو بخير، لقد تحملتها بشكل طيب».

سألت «روزا شارن» الأم بعينيها، وحاولت الأم أن تتجنب السؤال ومشت مسز و«وينرايت» إلى الفرن.

«ماما».

«أيوه؟. ماذا تريدين؟».

«هل... هو... بخير!!».

وتخلت الأم عن المحاولة وركعت على المرتبة وقالت: «ستحصلين على غيره، لقد فعلنا كل ما فى طاقتنا».

وجاهدت «روزا شارن» ورفعت نفسها «ماما!».

«لم يكن أمامك مخرج».

رقدت الفتاة ثانية وغطت عينيها بذراعيها، وزحفت «روثى» مقتربة، ونظرت فى رهبة وهمست فى صوت أجش: «أهى مريضة يا ماما؟ هل ستموت؟».

«بالطبع لا، ستكون على ما يرام، على ما يرام!».

دخل الأب وقد حمل ذراعيه بأشياء ابتاعها: «كيف حالها؟».

قالت الأم: «على ما يرام، ستكون على ما يرام!».

نقلت «روثى» الأخبار إلى «وينفلد»: «لن تموت، ماما تقول إنها لن تموت».

فقال «وينفلد» وهو يسلك أسنانه بشظية خشبية كما يفعل الكبار: «لقد كنت أعرف ذلك طول الوقت».

«كيف عرفت؟».

قال «وينفلد»: «لن أقول لك» ثم بصق قطعة من الشظية بعيدًا.

أوقدت الأم نارًا بما تبقى من أغصان، وسوت لحم الخنزير المملح

وصنعت صلصة، كان الأب قد اشترى خبزًا جاهزًا فزامت الأم حين رأته وقالت: «هل تبقى معنا نقود؟».

قال الأب: «لا، ولكننا كنا جوعانين جدًا».

فقالت تلومه: «وأنت تشترى خبزًا جاهزًا».

«ولكننا كنا جوعانين جدًا، اشتغلنا طول الليل».

فتنهدت الأم: «والآن ماذا سنفعل؟».

استمرت المياه تعلو وهم يأكلون، ابتلع «آل» طعامه ثم اشتغل مع الأب فى عمل المصطبة. خمس أقدام عرضًا، وست أقدام طولاً وعلى ارتفاع أربع أقدام من الأرضية، وزحفت المياه إلى حافة الباب ثم بدا أنها ترددت طويلاً قبل أن تتحرك إلى الأرضية، وفى الخارج بدأ المطر ثانية، وكما حدث من قبل، قطرات مثقلة كبيرة تطرطش على الماء وتدق عاليًا فوق السقف.

قال «آل»: «هيا الآن، لنرفع المراتب إلى أعلى، لنضع البطاطين فوق حتى لا تبتل».

كوموا مقنياتهم فوق المصطبة وزحف المياه على الأرضية، ورفع الأب والأم و«آل» والعم «جون»، كل من ركن، رفعوا مرتبة «روزا شارن» والفتاة فوقها ووضعوها فوق الكومة كلها.

واعترضت الفتاة قائلة: «أستطيع أن أمشى، أنا بخير». وزحفت المياه على الأرضية فى طبقة رقيقة، وهمست «روزا شارن» للأب والأم ووضعت يدها تحت البطانية وتحسست ثدييها وأومأت برأسها.

كانت عائلة و«وينرايت» فى الطرف الآخر من السيارة يدقون، يبنون لأنفسهم مصطبة، وازداد المطر غزارة ثم توقف.

نظرت الأم إلى قدميها، كان الماء على ارتفاع نصف بوصة من على أرضية السيارة الآن، ونادت وهى ساهمة: «روثى»... «وينفلد»، اصعدا إلى قمة الكومة، ستصابان ببرد. ورأتهما وهما فى أمان فوق، يجلسان فى ارتباك وخجل بجوار «روزا شارن»، قالت الأم فجأة: «لابد أن نرحل من هنا».

قال الأب: «لا يمكننا ذلك، فكما قال «آل»، كل متاعنا هنا، سننزع باب صندوق السيارة ونقيم مكانًا جديدًا لنجلس عليه».

تزاحمت الأسرة على المصاطب، صامتة متبرمة، علت المياه ست بوصات فى السيارة قبل أن يزحف الفيضان على الجسر ويدخل حقل القطن على الجانب الآخر وطوال ذلك النهار والليل، نام الرجال مبللين بجوار بعضهم البعض فوق باب السيارة. ورقدت الأم بجوار «روزا شارن»، وفى بعض الأحيان كانت الأم تهمس لها، وفى أحيان أخرى تجلس فى صمت بوجه حان، وادخرت تحت البطانية بقايا الخبز الجاهز.

كانت الأمطار تهطل فى فترات متقطعة الآن ـ عواصف مطيرة صغيرة ثم فترات ساكنة، وفى صباح اليوم التالى خوض الأب خلال المخيم وعاد فى جيوبه عشر ثمار بطاطس، وراقبته الأم متجهمة وهو يقشط جزءًا من جدار السيارة الداخلى ويوقد نارًا ويضع الماء فى وعاء، أكلت العائلة البطاطس المسلوقة الساخنة بأصابعهم، وعندما فرغ آخر طعامهم جلسوا شاخصين فى المياه الرمادية وفى المساء لم يستطيعوا النوم لوقت طويل.

عندما جاء الصباح استيقظوا فى عصبية، وهمست «روزا شارن» شيئًا فى أذن الأم.

أومأت الأم برأسها وقالت: «نعم، لقد حان الوقت». ثم التفتت إلى

باب السيارة حيث يرقد الرجال وقالت بعنف: «سنرحل من هنا، سنذهب إلى أرض أعلى من هنا. وسواء أتيتم أم لم تأتوا فسآخذ «روزا شارن» والصغار من هنا».

قال الأب فى ضعف: «لا أستطيع».

«حسنًا إذًا، ربما أمكنك أن تحمل «روزا شارن» إلى الطريق على أى حال، ثم تعود، إنها لا تمطر الآن وسنرحل».

قال الأب: «حسنًا، سنرحل».

قال «آل»: «ماما، أنا لن أذهب».

«لِمَ لا؟».

«حسنًا... آجى... لماذا؟ إنها وأنا...».

ابتسمت الأم وقالت: «بالطبع ابق هنا يا «آل»، واعتن بالمتاع، وعندما تهبط المياه، لماذا؟ سنعود، بسرعة قبل أن تمطر ثانية». ثم قالت للأب: «هيا احمل «روزا شارن».. سنذهب إلى أى مكان لا تصله المياه».

«أستطيع أن أمشى».

«ربما بعد ذلك على الطريق، احن ظهرك يا بابا».

انزلق الأب إلى الماء ووقف ينتظر، ساعدت الأم «روزا شارن» بالهبوط من فوق المصطبة وسندتها عبر السيارة أخذها الأب بين ذراعيه ورفعها بقدر ما يستطيع وشق طريقه فى حذر خلال المياه العميقة حول السيارة، إلى الطريق وأنزلها على قدميها وظل ممسكًا بها، حمل العم «جون» «روثى» وتبعه، أنزلقت الأم فى الماء فعامت قمصانها حولها منتفخة للحظة، وقالت «وينفلد» اركب على كتفى: «آل» سنعود عندما

تهبط المياه، «آل»..». وتوقفت، وصمتت، ثم قالت: «إذا.. إذا جاء «توم»، قل له إننا سنعود، قل له أن يكون حذرًا، «وينفلد» تسلق فوق كتفي... هنا، الآن لا تحرك قدميك». ثم جاهدت تخوض في المياه التي ارتفعت حتى صدرها. وعند جسر الطريق العام ساعدوها على الصعود وحملوا «وينفلد» من فوق كتفها.

وقفوا على الطريق ونظروا خلفهم إلى صفحة الماء، وكتل السيارات الحمراء واللوريات والسيارات في خضم المياه التي تتحرك ببطء، وبينما هم واقفون بدأ يتساقط رذاذ ضباب.

قالت الأم: «لابد أن نمضي، «روزا شارن»، هل تشعرين أن في إمكانك أن تمشي؟».

قالت الفتاة: «كأنني دائخة أشعر كأنني قد ضربت علقة».

قال الأب شاكيًا: «والآن ها نحن نرحل، إلى أين سنذهب؟».

«لا أعرف، هيا، اعط يدك لـ(روزا شارن)» أمسكت الأم بذراع الفتاة اليمنى لتسندها وأخذ الأب الذراع اليسرى. «سنذهب إلى أي مكان جاف لا بد من ذلك، أنتم يا رجال لم ترتدوا ملابس جافة لمدة يومين». تحرك الجمع ببطء، كان في إمكانهم أن يسمعوا صوت النهر المتدفق بجوار الطريق، «روثي» و«وينفلد» وهما يخوضان بأقدامهما، مشوا ببطء وازدادت عتمة السماء وازدادت كثافة الأمطار، لم تكن هناك أية حركة مواصلات على الطريق العام.

قالت الأم: «لابد أن نسرع، إذا ابتلت هذه الفتاة فلست أعرف ما الذي سيحدث لها».

وذكّرها الأب في سخرية: «لم تقولي إلى أين يجب أن نسرع؟».

انحنى الطريق بجوار النهر، وتفحصت الأم الأرض والحقول الغارقة،

وهناك بعيدًا عن الطريق إلى اليسار، فوق تل مرتفع، قامت حظيرة قاتمة اللون، قالت الأم: «انظروا، انظروا هناك، أراهن أننا سنجد مكانًا جافًا هناك داخل هذه الحظيرة، لنذهب إليها إلى أن تتوقف الأمطار».

وتنهد الأب قائلاً: «ربما طردنا الرجل الذى يملكها».

رأت «روثى» أمامها بجوار الطريق بقعة حمراء فأسرعت إليها، كانت هناك شجيرة عطر برية بها زهرة واحدة هرأتها الأمطار، التقطت الزهرة ونزعت إحدى وريقاتها بعناية وألصقتها على أنفها، وجرى «وينفلد» نحوها ليرى.

قال: «اعطنى واحدة».

«لا يا سيدى، إنها لى كلها، لقد وجدتها أنا». وألصقت وريقة أخرى على جبهتها، وكأنه قلب صغير لونه أحمر زاه.

«هيا يا «روثى»، اعطنى واحدة، هيا الآن». وهجم على الزهرة فى يدها دون أن ينالها، وصفعته «روثى» بيدها على وجهه أخذته المفاجأة لحظة، ثم ارتعشت شفتاه، وغامت عيناه بالدموع.

ولاحظهما الآخرون وسألت الأم: «والآن، ماذا فعلتما؟».

«حاول أن يخطف زهرتى».

ونهنه «وينفلد» قائلاً: «أنا... طلبت واحدة فقط.. لألصقها على أنفى».

«اعطه واحدة يا (روثى)».

«هذه زهرتى».

« (روثى)... اعطه واحدة».

شعرت «روثى» بالتهديد فى لهجة الأم، فغيرت تكتيكاتها وقالت فى شفقة متعالية «خذ، سألصق لك واحدة». واستمر الكبار يسيرون، وقرب

«وينفلد» أنفه منها فبللت وريقة بلسانها وألصقتها بقسوة على أنفه وقالت بصوت خافت: «أنت ابن الزانية الصغير». وتحسس «وينفلد» الورقة بأصابعه وضغط عليها فوق أنفه، ومشيا بسرعة خلف الكبار، وأحست «روثى» باللعبة قد فقدت مزيتها فقالت: «خذ، إليك المزيد، الصق بعضه فوق جبهتك».

وجاء من على يمين الطريق صوت خفيف حاد وصاحت الأم: «أسرعوا هناك مطر كثير قادم، لندخل من هذا السور فالطريق هنا أقصر، هيا الآن، تحملى يا (روزا شارن)». وجرجروا الفتاة تقريبًا عبر المنخفض وساعدوها فى المرور من خلال السور، ثم هاجمتهم العاصفة، هطل عليهم طوفان من الأمطار، خاضوا فى الوحل صاعدين المنحدر الصغير، كانت الأمطار قد حجبت الحظيرة السوداء تقريبًا وهى تفح وتطرطش، والرياح المشتدة تسوقها أمامها، وانزلقت قدما «روزا شارن». وجرجرتهما وهى تتحامل على سانديها.

«بابا، هل يمكن أن تحملها؟».

وانحنى الأب ورفعها وقال: «لقد تبللنا على أى حال أسرعوا، «وينفلد»، «روثى»، اجروا أمامنا».

وصلوا وهم يلهثون إلى الحظيرة الغارقة فى الأمطار، وترنحوا داخلين فى الجانب المكشوف، لم يكن هناك باب لهذا الجانب، وتناثرت عدة أدوات زراعية صدئة قليلة فيه، سلاح محراث وبدارة مكسورة وعجلة حديدية، كانت الأمطار تدق فوق السقف، وتغطى المدخل كالستارة، وأجلس الأب «روزا شارن» على صندوق مشحم وقال: «يا إلهى القدير!».

قالت الأم: «ربما كان هناك قش فى الداخل، انظر، هناك باب». دفعت الباب على مفصلاته الصدئة وقالت: «يوجد قش، تعالوا هنا».

كان الداخل مظلمًا وتسرب ضوء قليل من خلال الشقوق بين الألواح، قالت: «ارقدى يا (روزا شارن)، ارقدى وارتاحى، سأحاول تدبير طريقة لتجفيفك».

قال «وينفلد»: «ماما».. وتاه صوته فى زمجرة المطر فوق السقف :«ماما».

«ماذا هناك؟ ماذا تريد؟».

«انظرى، فى الركن».

ونظرت الأم، كان هناك خيالان فى العتمة، رجل راقد على ظهره وصبى جالس بجواره، عيناه مفتوحتان واسعتان، تنظران إلى القادمين الجدد، وعندما نظرت الأم إليهما نهض الصبى ببطء على قدميه وجاء إليها وخرج صوته كالنقيق يقول: «أتملكون هذا المكان؟».

قالت الأم: «لا، لقد دخلنا لنحتمى بعيدًا عن البلل، معنا فتاة مريضة، هل لديك بطانية جافة يمكننا أن نستخدمها لنخلع ملابسها المبتلة».

وعاد الصبى إلى الركن وأحضر ملاءة قذرة ناولها للأم.

قالت: «شكرًا لك، ما حكاية هذا الرجل؟».

تكلم الصبى بصوت كالنقيق، لا تعبير فيه: «فى البداية كان مريضًا ولكنه الآن يموت من الجوع».

«ماذا؟».

«يموت من الجوع، مرض فى أثناء القطن، لم يأكل منذ ستة أيام».

مشت الأم إلى الركن ونظرت إلى الرجل، كان فى حوالى الخمسين من العمر، ذا وجه متجهم شاحب، وعيناه المفتوحتان غائمتان شاخصتان، وقف الصبى بجوارها فسألته الأم: «أبوك؟».

«أيوه، كان يقول إنه ليس جائعًا أو أنه أكل لتوه ويعطينى الطعام، وهو الآن ضعيف جدًا لا يكاد يقدر على الحركة».

خفت دق المطر إلى حفيف خافت السطح، وحرك الرجل الشاحب شفتيه فركعت الأم بجواره وقربت أذنها منه، وتحركت شفتاه ثانية.

قالت الأم: «بالتأكيد، فلتهدأ أنت، سيكون بخير، انتظر فقط حتى أخلع هذه الملابس المبللة عن ابنتى».

وعادت إلى الفتاة وقالت: «والآن اخلعيها». وفردت الملاءة أمامها حتى تحجبها عن العيون، وعندما صارت عارية لفت الملاءة حولها.

جاء الصبى إلى جوارها ثانية يشرح الأمر: «لم أكن أعرف، قال إنه أكل أو أنه ليس جائعًا، أمس ذهبت وحطمت نافذة وسرقت بعض الخبز وجعلته يمضغه ولكنه لفظه كله، ثم ازداد ضعفًا بعد ذلك، لابد أن يحصل على شربة أو لبن، له لديكم نقود يا جماعة لنشترى لبنًا؟».

قالت الأم: «اسكت، لا تقلق، سندبر الأمر بطريقة ما».

وفجأة بدأ الصبى يبكى: «إنه يموت، ها أنا أقول لكم، إنه يموت من الجوع، ها أنا أقول لكم».

قالت الأم: «هش». ونظرت إلى الأب والعم جون وقد وقفا يحملقان فى الرجل المريض يائسين، ونظرت إلى «روزا شارن» وقد تكومت فى الملاءة، مرت عينا الأم بعينى «روزا شارن» ثم عادت إليهما ثانية، ونظرت كل امرأة فى أعماق الأخرى، وتلاحقت أنفاس الفتاة وهى تشهق وقالت: «نعم».

وابتسمت الأم: «لقد كنت أعرف أنك ستفعلين، كنت أعرف». ثم نظرت إلى يديها وقد شبكتهما بإحكام فى حجرها.

همست «روزا شارن»: «هل، هل يمكن أن تخرجوا كلكم؟»، تساقط المطر رذاذًا فوق السقف.

مالت الأم إلى الأمام، براحتها أزاحت شعر ابنتها من على جبهتها وقبلتها، ثم نهضت الأم بسرعة ونادت: «هيا يا رجال، تعالوا فى الخارج، إلى سقيفة الآلات».

فتحت «روثى» فمها لتتكلم فقالت الأم: «اسكتى، اسكتى وهيا». وساقتهم أمامها عبر الباب وسحبت الصبى معها ثم أغلقت الباب ذا الصرير.

جلست «روزا شارن» دقيقة بلا حراك فى الحظيرة الهامسة.

شدت جسدها المتعب، ووقفت، ولفت الملاءة حولها، تحركت ببطء إلى الركن ووقفت تنظر إلى الوجه الهزيل تنظر فى العينين الواسعتين المفزوعتين، ثم رقدت ببطء بجواره وهز الرجل رأسه ببطء يمينًا ويسارًا وأرخت «روزا شارن» جانبًا من الملاءة وعرت ثدييها وقالت: «لابد من هذا» وانثنت مقتربة منه وشدت رأسه إليها وقالت: «هيا، هيا» وتحركت يدها خلف رأسه وأسندتها، وتحركت أصابعها برقة فى شعره، ثم رفعت بصرها ونظرت عبر الحظيرة وضمت شفتيها وابتسمت فى غموض.

لقد فعلت كل ما في وسعي لأحطم أعصاب القارئ إلى أقصى حد، ذلك أنني لا أريده أن يكون راضيًا.

جون شتاينبك

رغم ما أحدثته ملحمة شتاينبك «عناقيد الغضب» من صدمة وما أثارته من جدل عندما نُشرت لأول مرة في عام ١٩٣٩، فهي تظل رائعته التي لا خلافَ عليها. وبينما تقع أحداثها في أوكلاهوما التي أصابها الجدب والجفاف وتتناول حياة المهاجرين في كاليفورنيا، فتحكي عن أسرة جَدْ التي تُجبر مثل آلاف غيرها من الأسر على السفر غربًا سعيًا وراء الأرض الموعودة. وقصة هذه الأسرة واحدة من قصص الآمال الزائفة والرغبات المحبطة والأحلام المحطمة. ومع ذلك فقد خلق جون شتاينبك (الحائز على جائزة نوبل في الأدب) من معاناتها دراما على قدر مكثف من الإنسانية، بيد أنها مهيبة في حجمها ورؤيتها الأخلاقية. إنها إشادة بليغة بجَلَد الروح الإنسانية وكرامتها.

6 221102 021944

دار الشروق
www.shorouk.com